

البداية في النهاية

حول العنف السياسي

- الكتاب: البداية في النهاية.
- الصنف: بحث سياسي.
- المؤلف: فياض موزان.
- الطبعة الثانية، لسنة ٢٠٢١.
- الناشر: دار ومكتبة أوراق.
- بغداد - شارع المتنبي – بناية مصرف الرشيد.
- الهاتف: ٠٧٧٠٥٣٤٨٣٧٧
- alltalib1969@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الاسترجاع او نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الالكترونية) او (ميكانيكية) او بالتصوير، او بالتسجيل او بخلاف ذلك، الا بموافقة كتابية من المؤلف او الناشر.

٩٥٦،٧٠٨

م ٩٥٢ موزان، فياض

البداية في النهاية، فياض موزان..- بغداد: دار أوراق، ٢٠٢١.

(٥٠٠)ص، ٢٤سم

١-العراق- تاريخ أ-العنوان

م و

٢٠٢١/٢٤٩٢

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٤٩٢) لسنة ٢٠٢١

النهاية في البداية

حول العنف السياسي

-قصر النهاية أنموذجاً-

فياض موزان

الإهداء

إلى كل الرفاق الذين يناهضون العنف والعسف بكل صورهما وأشكالهما، من غاب منهم أو ما زال يغدُّ السير على هذا الدرب وإلى أمي وأبي، وإلى عائلتي أهدي هذا الكتاب... لما عانوه وما تعرضوا له أيضا من ارهاب ومن قلق وفزع وخوف، واعترافا وامتنانا وتقديرا للدعم والرعاية اللذين كنت أحظى بهما منهم خلال الفترات العصيبة التي مررت بها بل وطوال سنوات العمر... فحبهم لي وحيي لهم جميعا، أسعفاني في أن أنهض مرات فمرات لأواجه تحديات الحياة ولكي تستمر حياتي!

شكر وتقدير

الشكر والتقدير لرفاق الدرب الذين عاشوا معي تلك المرحلة وكانوا شهودا عليها، وقد أغنوا الكتاب بكلماتهم القيمة، التي وردت فيه، وهم كل من: د. أحمد ابراهيم، د. عبد جاسم الساعدي، د. عقيل الناصري، الأستاذ محمد عارف صابر. مع الامتنان والعرفان لدوري كل من د. الناصري والاستاذ عارف اللذين أسهما بتدوين ملاحظتهما وإجراء بعض التعديلات والإضافات على مسودة الكتاب. إلى هؤلاء جميعهم أقدم أعمق المحبة وأصدقها.

مقدمة الطبعة الثانية

لقد وجدت أن بعض الموضوعات في فصول وأجزاء الكتاب في طبعته الأولى تقتضي إجراء إضافات وتعديلات تغني موضوعاته في طبعته الأولى. سأذكر بعضاً منها للتوضيح ولمعرفة ماهية هذه التغييرات التي تناولت مواضيع متعددة من فصول الكتاب.

في فصل العنف ضد المكونات الصغيرة، وفي فقراته المتعددة تمت إضافة آراء لبعض الباحثين والمتخصصين في شؤون الأقليات العراقية الدينية والعرقية. كذلك تمت إضافة معلومات جديدة أخرى عن انتفاضة الأهوار التي قادها الرفيق الشهيد خالد أحمد زكي، وعملية نفق سجن الحلة المركزي وهروب السجناء السياسيين منه استقيتها شخصياً ومباشرة من الرفيق عقيل حبش المساهم الفاعل في العمليتين، والرسائل التي أرسلها المناضل الكبير الشاعر مظفر النواب له تناول بها النفق والانتفاضة ودور عقيل ورفاقه فيهما، وتم التطرق أيضاً إلى عمليات هروب جماعية أخرى لحفر أنفاق للهروب سبقت سجن الحلة المركزي حصلت في سجن الكوت وبعقوبة والسجن المركزي في بغداد وكيف تم حفرها والرفاق الذين ساهموا فيها .

كذلك تمت إضافات تناولت إنقلاب ٨ شباط الدموي وما كان يجري في مراكز التحقيق والتعذيب وقصر النهاية منها شهادة للرفيق هاشم ذنون الذي كان معتقلاً في قصر النهاية حينذاك في ذات المعتقل الذي كان فيه الشهيد الرفيق سلام عادل، تطرق فيها حول ما كان يجري من تعذيب وإرهاب وإذلال في ذلك السجن الرهيب.

وتحت عنوان "إنتفاضة ٣ تموز ١٩٦٣" أضيفت فقرة جديدة فيها تفاصيل وافية عن هذه الإنتفاضة: أسباب قيامها، خطتها الجريئة، نواقصها، تنفيذها، والأسباب التنظيمية والعسكرية التي أدت الى فشلها، وأسماء منفذيه وشهادتها وبطولاتهم، ونبذة عن حياتهم، ومدى إرتباط هذه الحركة بالحزب الشيوعي العراقي، والاستنتاجات والنتائج، والتقييم الميداني والموضوعي لتلك الإنتفاضة، وقد جاءت

بنص الرسالة التي رفعها الرفيق الشهيد هاشم الألوسي الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٦٤.

وشهادة للمؤرخ حنا بطاطو في كتابه "الشيخ والفلاح في العراق ١٩١٧-١٩٥٨".
عن أحوال سكان الصرائف في أطراف بغداد، كما تمت إضافة معلومات ووقائع واحداث وجرائم ارتكبتها صدام حسين في الفترة التي غزا فيها الكويت عام ١٩٩٠.

كذلك تم إضافة مصادر جديدة للكتاب ووثائق وصور لبعض المواقع المختلفة التي دارت الأحداث فيها، وذكر أسماء لشخصيات كان لها أدوار بارزة في تلك الحقبة الهامة من تاريخ الحركة السياسية في العراق.

وأتقدم بالشكر والتقدير للرفيق ماجد علاوي لما أبداه من إهتمام وعناية وما قدمه وبذله من جهد في إبداء ملاحظات وإضافة معلومات -ربما لم تسعفني ذاكرتي على تدوينها في الطبعة الأولى للكتاب -وهذه الملاحظات والمعلومات جميعها بلا شك قد أغنت كتاب النهاية في البداية.

فياض موزان

كلمات لرفاق الدرب

أحمد علي إبراهيم:

في مقدمته لكتاب فرانس فانون (معذبو الارض) كتب جان بول سارتر يقول: (إن هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة ولا هو نقيض غرائز وحشية، بل ولا هو ثمرة حقد. إنه الانسان نفسه يشكّل نفسه تشكيلاً جديداً... هذه هي الحقيقة).

وما كتبه فياض موزان عن تجربة فريدة عاشها بعمق رغم قصر مدتها (القيادة المركزية) وما تعرضت له إنما أراد أن يغور في صميم مفهوم العنف لا تمجيداً له ولا حتى إدانة فقد تركها لإحساس القارئ الحصيف وإنما محاولة لكشف حقيقة متوارثة في الشخصية العراقية وهي شخصية متفردة في محيطها تعرضت عبر التاريخ إلى صنوف من الاضطهاد والتنكيل لهذا عاد إلى هذا التاريخ يستعيد فيه ما تركه العنف في المخيال الشعبي فتحول عند الجلادين سلوكاً مرضياً و عند المناضلين عنفاً ثورياً... ذلك هو جوهر ما قاله سارتر (إن علائم العنف لا يستطيع أي لين أن يمحوها، إن العنف وحده يستطيع أن يهدمها). لقد رافق العنف السلطة على الدوام فالدكتاتوريات والغزو الخارجي يجعلان العنف أكثر بروزاً كوسيلة للسيطرة على المجتمع أو بعض الناس على بعضهم الآخر. وقد كان قدر العراقيين أن يعيشوا فترات طويلة تحت سلطة الاستبداد والقهر وأن يتعايشوا مع استبداد اجتماعي آخر يتمثل في هيمنة الفكر الديني والتنازع المذهبي والاجتهادات المتطرفة حيث أصبحت هذه البقعة من الأرض هدفاً لاحتلالات عديدة فكان العنف أحد أهم وسائل الدفاع الذاتي، ومن هنا يصبح الوصول إلى حالة اللاعنف ضرباً من الخيال دون معالجة أسبابه والكشف عن جذوره الاجتماعية والدينية والبيئية والسياسية. ذلك ما نشره الكاتب عبر استقرائه لحالة العنف وتمظهراته في حياة العراقيين، فأظهرت الشخصية العراقية متوهجة بقلقها الدائم انفعالية ومتناقضة أحياناً لكنها ظلت على الدوام متيقظة وحاضنة للأفكار والثقافات، فقد اكتسبت تميزها الخاص في محيطها. فكان

أن أطلق على العراقيين أنهم (أهل رأي) فيما كان غيرهم في المحيط العربي (أهل نقل).

إن الدارسين في الفلسفة والسياسة والاجتماع والانثروبولوجيين جهدوا منذ قرون لتفسير ظاهرة العنف. فقد اعتبرت (حنه ارندت) أن العنف والاستبداد وجهان لعملة واحدة وذهبت بعيداً في جعل العنف المعاصر عنفاً عقلياً يسعى أساساً إلى إخضاع الخصم وإضعافه وهو ظاهرة كونية تختلف بشكل طبيعي من دولة إلى أخرى ومن جامعة إلى غيرها. وكان ماركس قد اعتبر العنف (محرك الأنشطة الاقتصادية) أي ما يدفع للعنف ليس غريزة العنف أو الطبيعة العدوانية اللاواعية للإنسان وإنما ضرورة وجودية لاستمرار المصلحة الاقتصادية. وبالعودة إلى تاريخنا العربي نجد أن ابن خلدون يعزو تنامي وتأثر العنف إلى أن الشعوب رغم حضارتها المتطورة تعود عبر ارتدادات إلى جذورها البدائية حيث كان العنف مرافقاً للصراعات والتنازعات من أجل حب البقاء. ولا شك أننا لا نستطيع أن نخلق مدينتنا الفاضلة كما أرادها الفارابي الذي لم يجعل من العنف ضرورة سياسية حيث يسود العقل أو التعقل بكل قيمه المثلى ويتحول الحاكم عنده إلى ملاك محب للعدل مبغض للظلم باحث عن الجمال.

إن الطبيعة العنيفة الغرائزية التي شكلت معالم الصراعات والتنازعات عبر الانتقالات الحضارية كانت هي الأساس وراء النظريات والأفكار الفلسفية وظهور نظريات العقد الاجتماعي وتطورها على أيدي فلاسفة القرن السادس عشر وبشكل خاص بعد الثورة الصناعية، فحين وضع توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) نظريته في العقد الاجتماعي كان يدرك تماماً أثر العنف باعتباره محركاً للتاريخ وكامناً في الطبيعة البشرية... فهو يقول (إن العقول بدون قوة السيف ليست سوى كلمات لا قدرة لها ابداً على المحافظة على حياة الناس. وإن الكلمات أضعف من أن تستطيع ردع طموح الأفراد أو غضبهم أو انفعالهم)... وذلك تماماً ما يتردد في المأثور الشعبي لدينا حيث (الحق بالسيف والعاجز يريد شهوداً).

ما أريد قوله إن ظاهرة العنف وتمظهراتها السياسية ليست خاصة عراقية وإنما هي ظاهرة كونية. إذ ورد في كتاب "عصر مثير" لـ (ايريك هوبزبوم): (في صيف عام ١٩٢٧ خرج العمال الذين اغضبهم إطلاق سراح اليمينيين الذين قتلوا بعض الاشتراكيين في شجار جرى بينهم إلى الشوارع في حشود كبيرة وأحرقوا قصر العدل في شارع رينغ الشارع العريض الدائري الذي يحيط بمركز فيينا القديمة لكن ذبح منهم خمسة وثمانون -ص ٢٧). وفي الستينيات من القرن العشرين أصبحت ظاهرة العنف الثوري هي السائدة بعد أن أصبح منحى الفكر الماركسي على أيدي كبار المفكرين الأيديولوجيين الروس يتجه نحو مرحلة جديدة في إدارة الصراع مع الغرب في ضوء نظرية التطور اللا رأسمالي في وقت كانت فيه حركات التحرر الوطني تخوض صراعات دامية مع أنظمة فاسدة وحكومات غير قادرة على استيعاب الأزمات فظهرت حركات اليسار الجديد من معطف الماركسية وتبناها مفكرون و فلاسفة كبار وغذتها تجارب نضالية في مناطق مختلفة من العالم وأصبحت أسماء مثل (ماوتسي تونغ وهوشي منه وجياب و كاسترو و جيفارا وريجيه دوبريه) ملهمة لعموم شباب العالم المتطلع لعالم أفضل فكان منطق اليسار الجديد يرى في العنف أنه القوة المبدعة في التاريخ ويربط ربطاً عضواً بين الأسلوب الثوري لتغيير المجتمع والحرب الثورية التي تتخذ شكل حرب عصابات فيما يجعل الحرب الثورية هي الشكل النهائي للصراع الطبقي.

في كتابه (الثورة في الثورة) يقول ريجيه دوبريه (إن أي حزب لا يطرح النضال المسلح كمهمة أساسية هو حزب غير ثوري) ولقد طرح هربرت ماركوز في نهاية الستينيات مفهومه للعنف الثوري فتحول إلى شعار سياسي حملته حركات الشباب والطلبة في أوروبا واستلهمته حركات سياسية في مناطق مختلفة من دول العالم الثالث الذي كانت شعوبه تعاني من القلق المستمر على مستقبلها ومن الجوع والحرمان والتسلط والدكتاتورية. في حين دعا سارتر إلى تمجيد العنف باعتباره جوهر الانسان واعترف بأن (العنف بأي شكل يتجسد فيه هو فشل لكنه فشل لا يمكننا

تجنبه لأننا نعيش في عالم من العنف وأن اللجوء إلى العنف في مواجهة العنف سيساهم في توليد المزيد منه لكنه يصبح السبيل الوحيد إلى إيقافه) مؤكداً على أن المضطهدين في الأرض لا يمكنهم أن يصبحوا بشراً إلا عبر الجنون القاتل لأن الآخرين هم الجحيم.

في مثل هذه الأجواء الثورية التي شملت مناطق مختلفة من العالم وبعد تجربة قاسية عانى فيها الشيوعيون العراقيون والشعب العراقي بعد انقلاب البعث في عام ١٩٦٣ وتعرضهم للمجازر البشعة ما كان لحزب سياسي كالحزب الشيوعي لم يتفاعل مع الحالة الثورية التي عمت المنطقة والعالم رغم إرثه النضالي الكبير إلا أن يتصدع فكان الانشقاق وظهور القيادة المركزية متبينة هذا التوجه اليساري الجديد و ساحة إلى جانبها قطاعات واسعة خاصة في صفوف الشباب والطلبة وأصبحت التجربة الجيفارية ملهمة لعدد من طلبة الجامعة الذين غادروا للتحاق في بؤرة ثورية في أحوار العراق مع من سبقهم حيث استشهدوا جميعاً بعد قتالٍ ضارٍ كان في مقدمتهم الشهيد الخالد (خالد أحمد زكي)، وفي بغداد والبصرة والموصل استطاع الطلبة أن يحققوا مآثرتهم الكبيرة بفوز اتحاد الطلبة في الانتخابات التي جرت عام ١٩٦٧. هذه الانتخابات أرعبت السلطة وحزب البعث على السواء فألغت الحكومة نتائجها ما دفع أيضاً بالروح اليسارية المتوهجة إلى مديات أعلى فكان الاضراب الطلابي الكبير.

وفي العودة إلى ذلك التاريخ يصبح تسليط الضوء على مجريات الحوادث ذا أهمية في وصف تمظهرات العنف، والإفادة منها في صياغة أشكال النضال. فقد بدأ الاضراب في كليتين وخلال اسبوع واحد تطور ليشمل الجامعة كلها وفي أجواء من الروح الثورية دفع الاتحاد بكل قوة عناصره لتطویر الحالة الثورية وبما يتناغم مع توجهات الحزب لاستثمار هذه الحالة. لم يلتفت أحد إلى الوراثة لمعرفة القدرات الحقيقية للاستمرار ولم تكن هناك أفكار أو استراتيجية للتراجع واستمر الاتحاد في اندفاعه ظناً منه أن ثمة شيئاً قابلاً للتحقق في ضوء شعارات الحزب الثورية وكان التساؤل عما يمكن فعله في المرحلة اللاحقة يثير قيادة الاتحاد فليس ثمة ما هو واضح بشأن

الخطوات القادمة وفي نفس الوقت توجست الحكومة من أن وراء الاضراب ما هو أكبر في حين اعتبر حزب البعث أن خلف الاضراب خطة للانقلاب خاصة وأن لهم تجربة في عام ١٩٦٢ حيث كان إضرابهم مقدمة لانقلاب شباط الدموي. ذلك ما جعل حزب البعث يشكل مجموعات على رأسها صدام حسين و عبد الكريم الشيخلي و حسن المطيري ومجموعات منخرطة في جهاز صدامي معروف وبالتعاون مع الأجهزة الأمنية اتخذ قرارا بكسر الاضراب و جرت اعتداءات في عدد من الكليات مما دفع الاتحاد ومن خلفه المنظمة الحزبية إلى تشكيل وحدات للرد على الاعتداءات كان يتابعها نوزاد عبد الرحمن و مجيد جميل و آخرون وتحول الاضراب إلى مصادمات للعنف والعنف المضاد ما دفع البعث والمتعاونين معه في المؤسسة العسكرية ودوائر المخابرات الأجنبية إلى الاسراع بتغيير نظام **عبد الرحمن عارف** الذي عرف بالضعف في مواجهة الاحداث. وبانقلاب ١٩٦٨ بدأت مرحلة جديدة في عملية تصفية الخصوم وإدامة دوامة العنف بوتائر متصاعدة عكست همجية نظام البعث وتطور أساليبه العنيفة في التعذيب حتى الموت أو اغتيال معارضيهِ وكان في المقدمة منها تصفية القيادة المركزية التي جاء على تفاصيلها وأحداثها هذا الكتاب.

ولعل فياض موزان عاش تجربة عميقة... فهو مناضل في صفوف الحزب الشيوعي تعرض للاعتقال عدة مرات كان أكثرها قساوة على أيدي البعث في قصر النهاية. ولعل تجربته تكتسب أهمية استثنائية في كونه أجرى مقارنة فريدة في موضوعة العنف بين ما تعرض له في معتقلات البعث وبين ما تعرض له أيضاً على أيدي جلادين ارهابيين بعدما اختطف في السنوات اللاحقة لسقوط النظام الصدامي في عام ٢٠٠٣ حيث انتشرت الجرائم المنظمة ومجموعات الارهاب لتعبث بحياة الناس من جديد وتمارس نفس الدور الذي مارسه البعث في قصر النهاية وإن بوجه جديدة و بعناوين الجهاد والمقاومة و الدين وليس من قبيل المبالغة أن تجربة البعث العنيفة خلفت ثقافتها الخاصة بحيث أصبح المنظرون لهذا الحزب لا يتورعون عن القيام بأية اعمال تنكيلية قدرة ضد كل من توجه إليه أصابع الاتهام أو من تقرر تصفيته أو تعذيبه حتى

الموت وباستثناء أعداد قليلة من البعثيين ممن رفضوا هذا النهج المعطل لإنسانيتهم فإن الاستعدادات النفسية المكبلة بثقافة العنف البعثية كانت جاهزة على الدوام لارتكاب أبشع الجرائم سواء في زمن حكمهم او في أقبية الموت الجديدة وممارسات الارهابيين في القتل على الهوية أو الاختطاف أو قتل الآخرين بما يشبه الإبادة الجماعية في تفجيرات طالت الناس الأبرياء والمسالمين.

إن الصديق العزيز فياض موزان بكتابه هذا الذي يعد مآثرة جديدة في صفحات نضاله يتصدى للبحث في مرحلة هامة من تاريخ العراق لم يكتب عنها إلا النزر القليل... وهي بمثابة دعوة إلى من تبقى من المناضلين على قيد الحياة للإسهام في كشف الحقائق عن أحداث جرت لا تزال يشوبها شيء من الغموض... في حين أيقظت عندي ذكريات عن رفاق ومناضلين لا يمكن نسيانهم منهم (عبد الكاظم كاطع و ليث الرفيعي و إدريس محمد و خليل الغزالي و منير حاكم و عمران جاسم و ضياء حسن و نوزاد عبد الرحمن) وقائمة تطول بالأسماء التي أضاءت طريق النضال... فيما لا تزال صور الشهداء (مطشّر حواس و حسن علي امين ورياض البكري و سامي الهاشمي) وآخرين حاضرة على الدوام في العقل والضمير كلما استعدنا مآثر شعبنا وتضحياته.

أحمد علي إبراهيم - بغداد في ٢٠١٦ / ٥ / ١٥

عبد جاسم الساعدي:

المناضل فياض موزان يستعيد ذاكرة الانتماء والعنف

مذكرات الصديق المناضل فياض موزان تفجر الراكد والساكن وحتى "الخامل" في الذاكرة، بعد خمسة عقود ثقيلة وتراكمات حملت في طياتها تجارب سياسية متقاربة، لأصدقائه ورفاق مسيرته الطويلة، الذين بقي منهم الآن على قيد الصحة والقراءة والحياة والمتابعة، بإثارة الأسئلة، وتلك مهمة صعبة جداً، في العودة إلى التفاصيل، إلى المتوسطة "النظامية" والانتماء، بل هوس الانتماء والشباب والحركة والعمل الجماعي التطوعي والشعبي.

كنا نلوذ بحدائق بارك السعدون، بين الاجتماع واللهو والقراءة، وكانت جزءاً جميلاً من ذاكرتنا ذاكرة الطفولة والشباب والانتماء.

نترك مؤقتاً الدروب المظلمة والخندق العميق في الطرف الآخر من السدة الشرقية، وكأنّ العالم صار بين أيدينا.

نطلق الحرية لأنفسنا في مبادرات اجتماعية وثقافية وصحية وسياسية... تلك التي كانت تحمل في داخلها معاني الحراك الشعبي، ما دامت تدخل عمق مجتمع يعاني الخوف والعزلة والاضطهاد.

تحولت مذكرات الصديق فياض إلى بحث وقراءات اجتماعية وثقافية وفكرية، وأولت موضوعاً "العنف" الأهمية في نشأته والظروف التي تصنعه والأطوار التي مرّ بها تاريخياً وسياسياً في العراق، ووقف بتأمل يعيد ذاكرة النشأة والطفولة في حي "البتاويين" والأحياء الشعبية الأخرى في بغداد.

جمعنا الانتماء والحركة والشباب، وكأننا في "خلية" واحدة، تشكلت بعد ثورة تموز ١٩٥٨، وتبعثرت بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣: فياض موزان، جمعة اللامي، خضير

عباس اللامي، صباح حسين خّصاف "صاروخ" ومن الطرف الآخر ثمة السادة: مؤيد الخطيب ومنصور يعقوب الحسين ومؤيد الطباطبائي، الذي توفي مبكراً، والرفيقان: هاتف ابو ربيع وفوزي عباس....

كنا نتباهى في مجارة القادة الكبار وكانهم شيوعيون "متصوفة"، يجمعون بين الأخلاق الرفيعة والصدق وثقافة الانتماء، أضفت علينا مدرسة "الحزب" معاني الرجولة، قبل أوانها، ونقلتنا إلى مصاف "القادة" الكبار، كم كانت تلك المدرسة جذابة ومؤثرة.

كسبت "الوالدين" فأفراد العائلة إلى جانبي، شعرت بعدئذ بأن الوالد رحمه الله، كان يبحث عن "رجولة" من طراز خاص، لعله وجدها في الشجاعة والانتماء من جهة، وتأييده لثورة تموز العام ١٩٥٨ وقائدها "عبد الكريم قاسم".

غضب الوالد بشدة عند الانقلاب، رافقنا بل كان يحرضنا على المقاومة والاستبسال، ويحضر بيننا صباح حسين "صاروخ" بقنبلته اليدوية... كنا أربعة، ثم صرنا عشرة، وما أن انحدرت الشمس نحو مغيبها، حتى اكتظت الساحة الصغيرة بالمئات، كانوا يجرون خطاهم جرأً، كان ذوو القامات الطويلة أكثر اندهاشاً من غيرهم، وهم يستطلعون وجوه القادمين، أفراداً وجماعات، يؤدي بعضهم التحية بغمزة عين رخوة وبنظرة عتاب مرة، يتأوهون فيما تنفجر أساريهم عن غضب مكتوم، لا يلوون على التصريح به، خصوصاً إذا فوجئوا بقدوم مالم يكن يتوقع قدومه بتلك السرعة.

نزل المسلحون في وسط الدائرة، وكانهم يستعرضون أسراهم، تقدم أحدهم نحو فليح حسين، الذي بقي ممدداً على الأرض، ركله ببسطاله مرات، ثم ضربه بأخمص رشاشته، لم يقو على النهوض، تدفق الدم من رأسه واختلط بالطين الذي يغطي جسمه.

صاح المسلحون: ينتظم الصائمون في صف آخر، ويظل المفطرون في أماكنهم. كان صف الصائمين يزداد بين الحين والآخر. تعال ننضم إليهم لعلهم يشفقون علينا... يقول بعضهم لبعض.

رافقنا الصديق فياض منذ الساعات الأولى لانقلابهم الأسود في شباط ١٩٦٣ وحتى المقاومة والاعتقال في مديرية الأمن ثم "جملونات" معسكر الرشيد، والاختفاء والعودة إلى التنظيم والكفاح المسلح في القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي.

يرسم الرفيق المناضل فياض موزان لوحات ومشاهد تاريخية عن الموت والخراب والأصدقاء، سواء في الشارع أو في المعتقلات أو في قصر النهاية وأخيراً ذاكرة (الخطف) والعنف والحياة.

سنبقى بحاجة إلى مذكرات وتحليلات مماثلة لشدة العنف والموت والانشطار والمقاومة، وتفعيل ذاكرة الانتماء.

عبد جاسم الساعدي/ بغداد - آيار ٢٠١٦

مذكرات من زمن الاستبداد

عقيل الناصري:

الفيض الصادق في هذه المذكرات لمناضل عضوي زج نفسه في الصيرورة الاجتماعية السياسية الجمعية، ذات الغائية المستهدفة لتحقيق أمنية، ليست ذاتية، قدر كونها تعبر عن مشروع جمعي يهيم ويصب في مصالح جمهرة واسعة من الناس، كانوا ولا يزالون يمثلون مادة التاريخ الانساني الحي. لذا عندما يشرع القارئ اللبيب في قراءتها سيغوص في سرديات لا تمثل ذاتويته ولا تعبر عن أنويته، كما في مذكرات الكثير من السياسيين حزبيين أو غير حزبيين، بل سيرى أن هذه المذكرات مصاغة في خطاب سياسي ذي صرخة احتجاجية عالية النبرة، وبتعبيرات عفوية حية متحركة، وبدفء صادق متدفق من ثناياها، وهي تسبر غور (الومضة الثورية) التي مضى عليها أربعة عقود ونيف، بكل أمانيتها وغائياتها، بمجمل طرق تفكيرها وسيرورات تطورها، عن نكساتها ونجاحاتها وما آلت إليه بعد انهيارها، لتمسي جزءا من تاريخ الصراع الاجتماعي والسياسي والحركة الثورية. بمعنى آخر إنها تعبير حي للموضوعية في صدقها السياسي، وفي موقفها الأخلاقي من ذات التجربة أو من شخصها المحوريين، الأحياء منهم والأموات، وفي جمالية طرحها الرزين الهادئ، ومسيرة تتبع أحداثها وما رافقها، والأهم من كل ذلك في بعدها النقدي.

سيثير عنوان المذكرات **النهاية في البداية حول العنف السياسي** "جملة من التساؤلات المعرفية، إثارة البلبلة الفكرية والحيرة السياسية لدى القارئ اللبيب ويضعه في حيرة من أمره لهذا **التناقض الشكلي**!؟ كيف نوفق بينهما وكيف ستكون النهاية في البداية وهو من منطق الأمور؟ ونهاية ماذا... الحركة أم المنهج السياسي؟ الممارسة أم الأمنية؟ ربما سيذهب التفكير إلى كون المذكرات تعبر عن سرديات استفهامية واعية ومدركة وهي محكومة بفنائها بحيث تصبح البداية ليست في النهاية؟ وإلا كيف تكون؟

تري أهي وعي الذات والتجربة أم احتجاج صامت ونقد سياسي نوعي على ممارسة سياسية لفصيل سياسي له تاريخ نضالي عميق في العراق المعاصر ورؤية فلسفية ذات طبيعية راديكالية وصاحب منهج خاص في النضال السلمي والمسلح؟ أم هي تعبير عن حالة فردية لمناضل خاض تجربة وكانت الحصيلة في (النهاية)؟ أم هي حصيلة لهذا الكم من المواقف الذاتية والجمعية والحركية المغشوشة بالأمنية الجمعية الجميلة؟

وهنا سينبري التساؤل المتمحور حول مدى جوهر المذكرات وماهياتها؟ فهل أرادت تأرخة حركة القيادة المركزية؟ أم وظفت جزءا منها في رصد ماهية العنف السياسي الذي انصب على تصفيتها واجتثاثها من الواقع المادي؟ وهل استطاعت هذه المذكرات رصد المآل الذي انتهت إليه الانتفاضة الثورية، على الأقل في بعدها المعلن، بحيث أثارت جملة متصاعدة من عواطف وانفعالات، توتراً وارتخاء معبرة عن وعي الذات الجمعية لجمهرة اليسار والتقدميين، حزبين أو لا حزبين، ومتلهفة نحو تعميق فكرة التغيير وتحقيق حلمها الأبدي في إرساء أسس العدالة الاجتماعية عبر استلام السلطة بالطرق العنفية؟ وهي التي خرجت توأماً من طاحونة المذابح الجنونية ذات الطابع الثأري البدوي إثر انقلاب شباط ١٩٦٣ بالتنسيق مع المراكز الرأسمالية وبالأخص الأمريكية/ البريطانية؟

أم إن هذه المذكرات في ماهياتها العميقة، تعبير غير مباشر عن صرخة الألم المكبوت لهذه الجمهرة (التي أزعماً أنها كبيرة كما يتوضح من حراكها الاحتجاجي النقدي على طول مسيرة العراق المعاصر)؟ وإدانة، غير معلنة إلى حد ما، لقياداتها السياسية (التاريخية) وتحميلها مسؤولية ما حدث؟ وهذا ما تنم عنه تاريخية حركة اليسار التي كانت قاعدتها دوماً على يسار قياداتها في المطالبة والتصوير؟ والعمل على إحلال البديل الأكثر شباباً وحيويةً وتفهماً للنظرية الثورية والمتأثرين بالظرف الدولي لحركة اليسار في عموم المعمورة وبخاصة في عالم الأطراف الذي كان يمور في حينها، بالانتفاضات الشعبية ذات المطالبة المشروعة ومن أجل العيش الكريم للجماهير المحرومة.

أم أرادت المذكرات رصد إشكاليات وتفاعلات الصيرورة الحزبية للقيادة المركزية من داخلها؟ من ملبساتها وتعقيداتها، من ذاتوية بعض الحزبيين القياديين في هذا الحقل المزروع بألغام السلطة واندساساتها من العناصر الحزبية القلقة، ومن ماهيات العمل السري المثيرة بطبيعتها للرومانسية المفعمة بالبطولة وفي الوقت نفسه من انتشار الريبة والشكوك؟ أو من أنوية بعض من القادة المنتفضين، كما تنم عنها المذكرات بصورة أو أخرى، ما بين السطور غير المرئية؟

أم هي محاولة (لتربيع الدائرة) كما يقولون، كتعبير عن استحالة الغائية المستهدفة من حركة الانفصال، أو إن شئت الانتفاضة، عن جسد الحركة الأم؟ أم في تناقضها مع ما هو مسموح به في العلاقات الدولية في زمن الحرب الباردة؟ أم يريد صاحب المذكرات من القارئ التمعن في ذات التجربة واستنباط القرائن عن ماهياتها وعن العمل السياسي عامة والحزبي خاصة في العراق المعاصر وما ينتابه من خلل بنيوي، قد ابتعد، كما أرى، عن غائياته السياسية والفلسفية وأولية (ميكانزم) علاقاته الداخلية سواء في الذات الحزبية الداخلية أو في علاقاته مع القوى الأخرى، والتي تفصح عنها مقولة: **الغربة الحزبية تشكو من غُربتها؟** حيث كان رفع سقف الخطاب الثوري ونبرته، في بعض ما ذهب إليه القيادة المركزية، كما أرى، لا يقف على ارضية واقعية، وقد غاب عنها الإدراك العقلاني لإمكانياتها وقدراتها الفعلية وللظروف الموضوعية لتجليات الوعي الاجتماعي الفلاحي على وجه الخصوص؟ إنهم يحاربون السماء بأيديهم العارية.

أم أنها، في الوقت ذاته، تعبير وتحذير للحزبيين وغيرهم من العاملين في الحقل المعرفي وممن حرثوا تربة التغيير، عن ضرورة إدراك قوانين وسنن الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سياق صيرورة ظهورها وتطورها وفي علاقتها بالظرف التاريخي المادي الملموس، ضمن حقول المفاهيم العلمية، بغية اتخاذ الموقف الصحيح حسب الممكن والمتاح؟

وأرى أن المذكرات في ماهياتها هي اغتراب أفقي يمتد لعمق العراق التاريخي، بغية خلق وعي اجتماعي عالٍ وإدراك سياسي عميق لماهيات تجليات العنف الذي

ساد في تاريخية العراق القديم والحديث ولهذا بدأ بعرض لأصول العنف في تاريخنا العربي / الاسلامي حيث مورس بكل جلافة عبر تاريخيته المادية وأوصلنا إلى تاريخنا المعاصر منه، وبالأخص الجمهوري وعلى وجه الدقة في المرحلة الجمهورية الثانية (٩ شباط ١٩٦٣-٩ نيسان ٢٠٠٣)؟ وهنا ندرك جوهر عنوان المذكرات النهائية في البداية.

وفي الوقت نفسه... هذا العرض التاريخي هو بحد ذاته إدانة للقوى الاجتماعية، مهما تعددت أبعادها الفكرية واختلفت مصادرها، والتي تبنت العنف في تحقيق ذاتها ومشروعها وفي رسم علاقاتها مع القوى السياسية الأخرى وممارسته في حراكها السياسي لأجل تطبيق فلسفتها ذات البعد الجزئي والنظرة الواحدة الضيقة لمجتمع متعدد الانتماءات الفكرية والاجتماعية والاثنية والدينية.

أم كان صاحب المذكرات، وهذا ما أعتقده، يريد أن يسלט الضوء الكاشف على ماهيات جحيم (قصر النهاية) الرهيب والسيئ الصيت من خلال تبنيه لعنوان (البداية ليست في النهاية) كدلالة رمزية ومادية في الوقت نفسه وبلغة هادئة وسلسة لإدانة ليس السلطة التسلطية البعثية في فترتي حكمها، بحيث حولت ".... مبنى قصر النهاية وعلى مدى الحقبة السوداء نفسها إلى ما يشبه المسلخ البشري الذي سقطت في سرايبيه وأقبيته ودهاليزه المظلمة العشرات والعشرات من جثث الكوادر القيادية المتقدمة للحزب الشيوعي....(*)... أقول: ليس هذا فحسب، بل أدانت المذكرات ذاتية العنف بحد ذاته من خلال استعراض بعض من تاريخية جذوره السياسية والدينية المنفلتة وبدائيات القسوة الوحشية التي تحولت إلى ممارسة سياسية وسلوكية ثابتة لبعض القوى الحاكمة أو تلك الفئات المسلحة المنفلتة في عراق اليوم وما تعرضت له الكثير من المكونات الاجتماعية العراقية الأصيلة على تعدديتها من: أيزيدية وصابئة مندائيين ومسيحيين وشبك ويهود وفيليين وغيرهم؟ إنها صرخة مدوية ضد العنف بكل أشكاله ومسباته.

* عبد الستار الدوري، أوراق عتيقة من دفاتر حزب البعث، ج٢، ص ٧٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - ٢٠١٥.

وفي الوقت ذاته هدفت المذكرات، كما أرى، إلى تنبيه وتحذير الرأي العام ومصارحة وعيه الاجتماعي في تجلياته: السياسية والجمالية والقانونية والدينية والفكرية والمعرفية، إلى ما يسود في زمن الجمهورية الثالثة (٩ نيسان ٢٠٠٣- إلى الوقت الحاضر) من انفلات وتشطي مركزية السلطة وبالتالي ظهور الميليشيات المسلحة ذات الأبعاد الجنائية... لتقول إن العنف لا يؤدي إلى حل للاشكاليات الحياتية ولا للصوروات السياسية / الفكرية المتنبئة... بل أن العنف سوف يفسد أي مشروع جمالي مهما كانت غائته وأخلاقياته... وهذا ما أفاضت فيه محنة المؤلف من المختطفين.

والأكثر من ذلك، كما أعتقد، أن مذكراته في مضامينها، عبارة عن حالة تأملية تحاول، بكل هدوء، تسليط الضوء إلى ما تعرضت له (القيادة المركزية) من ملاحقة وتعذيب واجتثاث مادي وتصفية معنوية، وتعميمه على بقية الفصائل السياسية التي تعرضت هي الأخرى إلى ذات النهج من قبل الحكومات التسلطية، عسى أن يعثر على مغزى وجدوى لهذه الأساليب، ليس له كذات فردية بل كذات جمعية. بمعنى آخر أراد تذكيرنا بأن مآل هذا السلوك هو الفشل والخذلان لأن الحياة لها مؤسساتها الأخلاقية الضابطة والسياسية المنظمة التي تكبح التطرف. كما أنها تعبير جمالي وأخلاقي ومبدئي عالي البعد، وترجمة حية لموقف بعض الشهداء في قصر النهاية لتتماثل مع قول الروائي الألماني هرمان هسه " أنت مصيب ألف مرة في احتجاجك ضد هذا العالم البائس... أنت محق حتى لو مت مختنقاً من هذا العالم بدلاً من قبوله". بمعنى آخر أنه الرفض الواعي والمدرك لماهيات الحكومات التسلطية وأساليبها العنيفة التي كانت سائدة ولا تزال.

ورغم مسيرة الألم والانتهاكات لحقوق الانسان، سواء الطبيعية أو المكتسبة، تصدح المذكرات بخلفية سيمفونية هادئة تعزف الأمل المتأمل والمنشود من البداية إلى النهاية، عبر استعراض مكامن الألم العنفي في تاريخنا القديم والحديث، حيث القصر المشؤوم الذي حاول أصحابه، كدلالة رمزية وملموسة، حقن الوجود العراقي بالارتياب، وفي تهريء الحالة النفسية، لداخليه والبعيد من عنه، من خلال الخوف

وزرع الاحباط واليأس والعجز عن التفكير السليم والتعمق في الاستلاب بكل ابعاده وفقدان اليقين، وجعل الناس متلقين فقط... وهذا ما نجح فيه أصحاب القصر لحين فترة... لكن لسنن الحياة مفعولها وقوانينها ولصراع المصالح قواه التي جميعها ستسحهم وترميهم في مزبلة التاريخ... وهذا هو جزء من فيض الأمل الذي استطعت أن اكتشفه في المذكرات.

كما أنها، وهذا ما يميزها عن الأخريات، ليس فيها تبريرية فاقعة للعقل و الضمير، سواء للذات أو الوقائع، بل هي ناطقة بحقائق لا غبار عليها، بحيث شهد الكثيرون ممن دخلوا قصر النهاية، عليها من مختلف المشارب السياسية... عاشها صاحبها بواقعية وعكسها بسرديّة مدركة وبموضوعية عالية بدون رتوش ولا تزويق... وبالتالي كان الراوي لرواية الدم والألم أحد أبطالها منذ دخوله إلى القصر، وشاهد بأم عينيه ما جرى ليس له فحسب، بل لمناضلين سياسيين تم اجتثاث الكثير منهم ماديا، ومعنويا لبعضهم الآخر، كما تطرق ليس إلى رفاقه فحسب بل لما لاقاه بعض السياسيين المحوريين في إدارة الدولة العراقية ومن قوى سياسية أخرى.

لقد تلمست هنيئة في المذكرات عندما لاحقت موضوعها الأساسي ببعده التاريخي، ألا وهو العنف حيث توقفت على جانبه المادي فحسب، دون أن تتطرق إلى الجانب المعنوي المتمثل بالقوانين والخطاب السياسي القومي وبفلسفة النظرة الواحدة للحياة، أو تلك التي تبرر عنفها بالحق الإلهي أو الطبقي والتي سرت في المجتمع العراقي منذ قرون عدة ولا تزال.

أعتقد أن المذكرات صرخة عميقة ضد العنف واحتجاجا ضد الموت غير الطبيعي... وستبقى وثيقة تاريخية تدين النظم التسلطية وبخاصة منذ انقلاب شباط الدموي عام ١٩٦٣، الذي قتل في الجوهر حلم فقراء بلدي في الحياة السعيدة المأمولة من زعيم حكم لهم ولم يحكم بهم.

عقيل الناصري - آذار ٢٠١٦ - ستوكهولم / السويد

محمد عارف:

النهاية في البداية

بدءاً لا أرى أروع ولا أبلغ ولا أكثر ذكاء من عنوان كتاب فياض هذا عن حقبة من حقبات الرعب والظلم والقهر في وادي الرافدين.... حقا بداية هذا الطغيان لم تكن في قصر النهاية.... ومجازاً في النهاية. فقد عاش إنسان وادي الرافدين في تاريخه الطويل طغياناً يحكمه طغاة من كل نحلة ولسان ودين وما زال هذا الطغيان يتوالد ويتعرع في مجتمعاتنا في الشرق كلما وجد تربة خصبة من الجهل وغياب الوعي واستغلال الأديان وتسيّد "مبعوثي العناية الإلهية" على مقدرات البشر والبلدان. ولعل قيم الإنسانية النبيلة تسود سلوك وممارسات السلطة والدولة والمجتمع وكذلك حياتنا كأفراد لنضمن ونكتسب مناعة ضد الطغاة والطغيان والإفلات من قبضتيهما إلى رحاب المحبة والجمال والعدالة والخير والحرية.

هذا الكتاب ليس سرداً تاريخياً.... إنما توثيق لفترة نضال ولمواقف وأشخاص منهم من مضى ورحل ومنهم مازال إما في معترك الحياة وعلى خشبة مسرحها أو جالساً على مقعد من مقاعد هذا المسرح للفرجة.

إضافة لذلك فإن الكتاب ينظر في أوراق شجرة الظلم والقهر الضاربة الجذور في تاريخنا منذ عهود سحيقة عانى فيها أبناء الحضارات التي مرت في وادي الرافدين منها الأمرين ولم تزل ظلال هذه الشجرة تغطي المعذبين الذين تتردد صدى صرخاتهم بالأنين والشكوى.

يثير هذا الكتاب عديداً من الأسئلة ويطلق سيلاً من الأسئلة حرساً على حاضرنا ومستقبلنا وعلى ماضيها الحاضر الدائم في وعي وفكر أفراد مجتمعنا. والسؤال الأعمق الذي يثيره هو: لم حدث هذا الذي يوثقه وكيف ولصالح من؟ قد تختلف الآراء حول المحنة التي مر بها العراق والتي كان فياض واحداً من شهودها وضحاياها... لكن لا

يمكن أن نختلف عن أنها كانت محاولات نحر وانتحار عائدة لبعض رواسب التراث التاريخي التي ما زالت تسكن الشعور الكامن في مجتمعنا.

الكتاب هو نرف من جروح ما كان يجب أن تكون...وعبير لذكريات عبقة عاشها فياض سكناً في المعشوقة بغداد التي أضحت مدينة تسكن فيه أينما حل به الترحال.

الكتاب هو بشارة أمل لابد أن يكون لغد يجد الإنسان فيه واقعا جميلا يعيشه بكل معاني وقيم الإنسانية كما جاءت به كل الأديان والرسالات والمواثيق والأعراف ومبادئ الأخلاق منذ بدء الخليقة.... نعم أن يعيشها واقعا وألا يبقى حالما بها حلما سرمديا.

هذا الجهد الجاد من فياض هو إسهام متواضع في إثارة العديد من الأسئلة التي تنتظر أجوبتها حول سنوات عاصفة مرت، ومازالت تمر بالعراق، شهدت علاقة عنيفة بين السلطة وقوى التغيير، بل والمجتمع بأكمله، والتي كانت تدعو وتعمل من أجل الإرتقاء بالمجتمع والإنسان بالفكر والسواعد.

لقد عمل فياض بكامل طاقته وذاكرته على أن يوازن بين كفتي سرده الذاتية والموضوعية مع الأحداث والأمكنة والتعاطف والإنصاف لرفاقه وأصدقائه وزملاء رحلته في الحياة.

هذا الكتاب الذي يوثق المحنة المروعة التي مر بها العراق هو دعوة مفتوحة لنا جميعا لإعادة التذكارات وقراءة تاريخنا البعيد والقريب تقتضي من الجميع نقد كل الأحداث والمواقف على الإطلاق ومراجعة تاريخنا مراجعة جذرية حتى لا تتكرر في حياتنا أو حياة أولادنا محن وكوارث وأحزان أكبر وأعظم لعلنا نصل يوما ينفك فيه هذا الترادف بين ثقافة وقيم مجتمعنا خصوصا والشرق عموما وكلمة الطغيان.

وأبرز ما في الكتاب هو تلخيص لإحدى المعضلات التي واجهها فياض وآخرون غيره ممن لم تغفر لهم التزاماتهم ومساهماتهم الجدية والفعالة في محاولات التغيير لما

تعرضوا له من خيبة الأمل والإحباط بل والخيانة أحيانا رغم شديد ولائهم للقضايا التي وهبوا أحلى وأجمل سنوات العمر لها.... أليست هذه الحالة مفارقة أم أنها من طبائع الإنسان والأمور؟

ولعل ما يخفف من وجع الآلام في الكتاب وماشقاني إليه أن أقرأه سطرًا سطرًا هو ما جاء فيه من وصف جميل دافئ عن بغداد الحلم الذي مضى... وقوس قزح بهيج من مكونات المجتمع الذي كان يسكنها في تناغم بديع من قوميات مختلفة وأديان شتى ومذاهب متنوعة، كانوا كلهم يعبدون الله الباري عز وجل ولكن كل بطريقته... وهل في ذلك ضير؟

لست أدري: أأثني على الكتاب أم على مؤلفه لما أبرزه من وفاء وتقدير وذكرى طيبة للمدينة بغداد والأمكنة التي مر بها والشخصيات التي جالها وعاشها في سنوات الطفولة والفتوة والشباب والأجمل هو وفاؤه لمن استحقه ممن كان في الركب معه في السنين الماضية ورحل الى ذمة الله.

محمد عارف صابر/ كندا - كانون ثاني ٢٠١٦

الفصل الأول

العنف كظاهرة وحشية

أن العنف كظاهرة وحشية لم يكن حكرا على شعب أو ديانة أو بلد معين. فقد مارسه حاكمون، وشعوبا، وأتباع ديانات مختلفة، استخدموا فيه أساليب وأشكالا متنوعة شملت صنوفا من العقوبات الجسدية، والاستبعاد، والاستبداد، والقهر، والاضطهاد والتعذيب، والقتل بطرائق وحشية.

١- عن عنفنا التاريخي

أ- العنف السياسي

إن ثقافة العنف ونهجه في العراق قديمان قدم أرضه بحضارتها التي بنيت على أجساد الناس عبر أسلوب العنف القسري: فالعنف هو قاطرة تاريخ المجتمعات البشرية.

لكن العنف السياسي الذي يمارسه الحاكم، يحمل بين طياته أقسى أنواع الظلم، وهنا حالة ملازمة وملاصقة له، حتى إن صور كل حاكم قضيته بأنها قضية إنسانية عادلة - كما يزعم - مستغلا الطقوسية المترسخة لدى الافراد، والتي أمست جزءا من شخصيتهم، بتسخيرها لصالح بقاء حكمه. فهي تصبح ظاهرة بعد تسلل الوعي ونفاذه إلى عقول الأفراد عبر تعقيم فكري خلقت الظروف المستجدة المحيطة بهم أو الأفكار التنويرية التوعوية الآتية من الاخر، الذي سبقهم إليها بوعيه وإدراكه، لتشكل لديهم حالة تمردية على الظلم، ترافقها ردود فعل عنيفة، تبدأ عندها المجابهة بين العنف والعنف المضاد، بصورة أقسى وأشرس. ويمكننا الرجوع إلى جذور ظاهرة العنف، كي نفهم طريقة الوقوف بوجهها، والعمل على اضمحلالها، ولا ننسى أن الارهاب يمثل

الدرجة القصوى من العنف، تختزن في عقلها مفاهيم الاحتقار والكراهية للآخر المختلف، بل حتى إن لم يكن مختلفا معنا وعنا ولكن لمجرد كونه (آخر)!

لقد استمر هذا العنف بأشكال عدة اتخذت مديات لا حدود لها، من سلخ الجلود وسمل العيون وفصل الرؤوس عن الأجساد وتقطيع الأوصال والحرق والخوزقة، وحديثا الإذابة في أحواض الأحماض المذيبة، وحرق الأحياء بمواد سريعة الاشتعال داخل أقفاص حديدية مقللة، وتفجير الأشخاص.

لقد تواصل العنف في العراق منذ تكوين أولى المجتمعات البشرية، ابتداء من نشوء الدولة الآشورية، ولم يتوقف مع الفتح الاسلامي للعراق، ثم اتخذ صورا وأشكالا جديدة أكثر قسوة وشناعة في فترة حكم الأمويين والعباسيين من تقطيع الأوصال، وحرق الأجساد، وقطع الألسن وجز الرؤوس وحملها على أسنة الرماح والطواف بها عبر البلدان، لإرهاب أهلها وترويعهم لغرض إذلالهم وإذعانهم.

إن العنف في العراق لم يتحول في أذهان الناس ليغدو أمرا تاريخيا ينظر إليه الانسان على أنه جزء من صيرورته التاريخية أو الحضارية، فهو لا يزال متجذرا وكامنا في بواطن النفس البشرية العراقية، ولاتزال دوافعه نارا تحت رماد تتقد متى ما تهيأت لها الظروف المناسبة لتظهر بأبشع صورها كما نراها اليوم في الممارسات الارهابية للحركات الدينية "الاسلاموية" الظلامية، بل لم يزل البعض في بلدنا يعتبره ضربا من الشجاعة وقوة الشكيمة، ويتفاخر به.

عند البحث عن الأسباب والعوامل المؤدية للعنف في العراق نجد أن هناك ظروفًا موضوعية وتاريخية وأخرى ذاتية ونفسية تقف وراء ذلك. يقول البيان الصادر عن اليونسكو بتاريخ ١ حزيران ١٩٥١ حول طبيعة العرق والفوارق العرقية "إن أي صفة مشتركة ترجع على الأكثر إلى خلفية تاريخية واجتماعية مشتركة".^(١)

(١) د. عامر كامل احمد -العنف والعنف المضاد في الجزائر-بحوث المؤتمر الدولي حول الارهاب - الجزائر.

تعم ظاهرة العنف معظم مجتمعات العالم، وإن اختلفت نسبيا صور بعضها عن الأخرى، وهي كآية ظاهرة مجتمعية لها مسبباتها وعواملها، ولا يمكن دراستها بمعزل عن بيئتها الداخلية والخارجية، إذ ترتبط بالبيئة الداخلية المتمثلة بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومجموعة القيم والمعتقدات الدينية والثقافية وأما البيئة الخارجية فتشمل تأثيرات البيئة الاقليمية والدولية.

يعرّف العنف بأنه الاستخدام المتعسف للقوة والتهديد باستخدامها لإلحاق الأذى بالأشخاص أو البنى التحتية، وهو بحسب "ينبورغ": "مختلف أعمال الشغب والتدمير والأذى التي تهدف أساسا إلى تحقيق أغراض تتمثل في تغيير سلوك الجماعات الأخرى". (٢)

ومن مظاهر العنف المختلفة، التعذيب والإبادة المنظمة والاضطهاد من كل الأنواع والترحيل الالزامي والجبري للسكان والتهديد باستخدام أسلحة الدمار الشامل واغتصاب الوعي وغسل الدماغ، حيث أن تعداد هذه المظاهر التي يتخذها وسيلة للتعامل تسهم في تحديد معناه.

ثمة ثلاثة اتجاهات تحدد تعريف العنف: الاستخدام الفعلي للقوة المادية لإلحاق الضرر بالأشخاص وتخريب الممتلكات / الاستخدام الفعلي للقوة المادية أو التهديد باستخدامها ليشمل السلوك القولي إلى جانب السلوك الفعلي/ العنف بوصفه مجموعة من الاختلالات والتناقضات الكامنة في الهياكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع ويؤطرها بعدة أشكال منها: غياب أو ضعف الانتماء الوطني داخل المجتمع/ غياب أو ضعف العدالة الاجتماعية/ حرمان قوى معينة داخل المجتمع من المشاركة السياسية/ عدم إشباع الحاجات الاساسية. (٣)

يقول علماء الاجتماع إن "قياس العنف هو معيار رئيسي للتعرف على النظام الاجتماعي وتقدير درجة استقراره"، ويعرف العنف السياسي بأنه "استخدام القوة أو

(٢) المصدر السابق.

(٣) عبود الشالجي -موسوعة العذاب -ج/١- ص ١٥

التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية، ويكون مصدر العنف من الدولة إلى المجتمع، أو من المجتمع تجاه الدولة حين لا توجد قنوات اتصال ولغة مشتركة للحوار، والعنف قد يقع من جانب أفراد المجتمع، كما أن الدولة قد تقوم به لسبب أو لآخر في تعاملها مع مواطنيها، وذلك إذا عجز طرف عن إقناع الطرف الآخر بتغيير سلوكه بعد أن يستنفذ كل الطرق السلمية الأخرى".^(٤)

ليس بالضرورة أن يكون العنف مسبقاً باستنفاد أو حتى البدء بأي من الطرق السلمية حيث أعمال العنف لا يمكن أن تنفصل عن طبيعة الظروف في المجتمعات التي تحدث فيها، ولذلك لا يمكن أن تؤخذ مستقلة بذاتها وتقارن بين البلدان المختلفة. ثمة العامل الثقافي، مثلاً، حيث الثقافة هي المرجعية الأولى للسلوك والمواقف الاجتماعية والسياسية، وهي الإطار الذي يؤطر سلوك الفرد والجماعة. في هذا الصدد يقول عالم النفس (سكندر ب. فردريك) "إن العنف يبدأ في الرؤوس قبل الفؤوس، وذلك يعني أن وراء العنف ثقافة تؤسس له وتحركه وتوجهه".^(٥)

هناك أسباب أخرى للعنف منها التقاليد الموروثة للمجتمع، خاصة في تلك المجتمعات التي مارست العنف من قبل لسبب أو آخر بحيث أصبح تقليداً متوارثاً، ويلعب العامل الاقتصادي دوره في هذه المسألة، خاصة عندما تكون الظروف الاقتصادية ضاغطة بشدة، فالحاجات المنقوصة لدى أفراد المجتمع غير المحصنين أخلاقياً تجعلهم يجدون العنف سبيلاً وطريقة لتحقيق تلك الحاجات، سواء كانت مادية أو معنوية، ويبقى صوت المعدة أقوى من صوت الضمير.

وفي الوقت نفسه تعد الطائفية السياسية أحد أخطر العوامل الكامنة والمحفزة لإثارة وتجديد العنف في المجتمع العراقي واستمراريته، وهي المناداة بسياسات تعصبية انشقاقية لصالح مذهب ديني ما، أو وجود جماعة تؤمن بما تعتقد أنه مثاليات تميزها وتفصلها عن الاتجاهات السائدة، وعليه فإن استخدام الدين كوسيلة لتحقيق أهداف

(٤) حسنين توفيق ابراهيم -ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية -مركز دراسات الوحدة العربية.

(٥) المصدر السابق.

دنيوية ليس له بالتدين، لكن المشكلة حين تصبح الأقلية أو الطائفة حزبا سياسيا وقناة للسلطة.

لقد أفرزت الظروف الاجتماعية التي مرت ببلدنا قيما تقليدية لا تتوافق مع الممارسات الحديثة للإدارة والسياسة كاستخدام العنف وسيلة للتعامل وحل الخلافات، وينسحب هذا على عوامل سسيولوجية وثقافية ذات طابع تراثي منها:

١- مرور هذه البقعة من الأرض ومنذ بداية التاريخ بنزاعات دامية دائمة مستمرة بين حكامها لتثبيت ملكهم وبحروب خارجية عبثية ذهب ضحيتها الآلاف من البشر للاستحواذ على بلدان وأراض جديدة، وتميزت باستخدام العنف المفرط ضد الآخر في آشور وبابل وسومر، ومن ثم الغزو الأجنبي المتمثل بالعليلامين والفرس واليونانيين وبدو آسيا.

٢- التراث البدوي القبلي من العنف والغزو والاقتيال بين القبائل المتجاورة في الريف الذي انتقل إلى المدن بعد هجرتهم إليها، وكان هذا السلوك التراثي قد انتقل على شكل صراع بين الأحياء المختلفة داخل المدينة الواحدة، واتخذ شكل التعصب للحي المعين والاقتيال واستخدام أساليب العنف بكل أشكاله لنصرة ابن الحي على جاره من الحي الآخر الذي يجاوره، وقد رافقت هذه القيم والظواهر ثقافة عنف، تمكنت من العقل الجمعي للشخصية العراقية.

٣- البعد الثقافي المتمثل في تراث "القصاصون" أو "الحكواتية" في المقاهي، عندما كانت رواياتهم هي الوسيلة الاعلامية الوحيدة المتاحة آنذاك، حيث كانوا يرددون قصص عنتر بن شداد وأبي زيد الهلالي التي تشيد وتعظم وتفتخر وتباهى بدور البطل الشجاع الغازي العنيف، الذي يقتل مئات الأشخاص ويقطع رؤوسهم دون أن يرف له جفن، وتمجد القصص ظاهرة العنف هذه لتثير حفيظتها من مكامننها الخافتة.

لقد تبلور العنف في جملة من الحوادث التاريخية للعراق المعاصر... من أبرزها الصراع الذي أعقب التحولات الجذرية في بنية المجتمع الريفي وتحول ملكية الأرض إلى ملكية خاصة لشيخ العشيرة وما أعقبها من انقلابات عسكرية وبالأخص الانقلاب

السابع عام ١٩٤١ وكثرة الانتفاضات الشعبية كذلك ما شهده العراق من حروب داخلية شنتها الحكومات المتعاقبة على الشعب الكردي منذ مطلع القرن الماضي وما رافقها من أفعال العنف والنهب والسلب، والاعتداء على الناس والممتلكات، وكذلك الحروب الخارجية، وما حرب إيران وغزو الكويت إلا انبعاث من تلك المكامن، وقد امتدت عمليات العنف والسلب والحرق والتدمير بعد الاحتلال الامريكي للعراق وسقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣ حيث قام المحتل بشكل فج باستثارة وتأجيج الفوضى والانفلات ليطال الوزارات والمؤسسات العامة والمصانع والمنشآت الحكومية، هذه الممتلكات العامة التي هي ملك الشعب، وقد شاركت في تنفيذ هذه الأعمال فصائل وشرائع اجتماعية متباينة الثقافة والانتماء، كأنها قد استحضرت واستنهضت ذهنية الغزو البدوية الكامنة في داخلها، وتبرز هذه الممارسات عادة وتزداد تطرفا وعنفا كلما ضعفت الدولة وغاب القانون فيها، ليبرز دور الهويات الفرعية من قبيل القبيلة وفرض قوانينها ومعاييرها ورؤاها.

إن الصراع الدامي الطويل الذي يشهده العراق سواء الداخلي أو الخارجي منه لم ينتج رجالات دولة وسياسة متميزين همهم إخراج البلد وإنقاذه من أزمته البنيوية، سواء في العهدين الملكي والجمهوري، ووضع على سكة التطور للحاق بركب الأمم التي سبقتنا في تطورها وتقدمها، قدر ما أنتج وأفرز رجال سلطة فاشلين لم يتمكنوا من بناء دولة عصرية مدنية ديمقراطية، دولة مؤسسات، تعتمد التنمية المستدامة، وتحقق التكافل الاجتماعي.

ب-العنف الديني

يقول الكاتب سليم سوزه في مقالة له بعنوان "قناعة الأربعين": "الدين تنام الفتن بين تفاصيله، ويتمترس العنف في جزئياته، شئنا أم أبينا، كلما يغوص المرء في تفاصيله يصبح أكثر عنفا وعدوانية للآخر المختلف ويعاني لا استقرارا نفسيا، يتصارع حتى مع ظله. إن الابتعاد عن تلك التفاصيل والالتزام بعموميات الدين كفيل بزرع الراحة وإعادة الهدوء للنفس المضطربة والمأزومة التي يعيشها المتدين المقهور".^(٦)

لقد تم ترسيخ هذه الثقافة عبر أربعة عشر قرنا، ومن خلال مراكز دعوة وإعلام قديمة ومعاصرة، قامت بتأسيس حركات دينية اسلامية متطرفة كفرت كل من يخالفها، وخلقت حواضن تفريخ للأفكار المتطرفة التي انتشرت في المجتمعات الاسلامية، وأعدت من خلالها أشخاصا لهم القدرة والاستعداد العالين للموت بقناعة راسخة، بعد إيهامهم بحياة حاملة بعالم أخروي سعيد جميل يحققون فيه كل رغباتهم وغرائزهم التي لم يستطيعوا تحقيقها في حياتهم الدنيوية، وممارسة القتل والعنف المفرط، والتفنن بأعمال التعذيب وانتزاع أرواح المعارضين لفكرهم ونهجهم، وهذه الأفكار هي التطبيق العملي على الأرض لهذه الثقافة.

بعد أكثر من خمسة عشر عاما في إدارة الدولة العراقية فشلت الأحزاب الدينية السياسية في تقديم نموذج لدولة تستطيع الحياة والاستمرار، بل أمست الدولة برمتها وكذلك المجتمع أمام احتمال التفكك والتداعي وخوض غمار أتون حرب أهلية.

يقول الباحث والمفكر الاسلامي التونسي عياض بن عاشور، في كتابه (أصول الأرثوذكسية السنية)، إن "المواطنة في الدولة الحديثة تمتص الطوائف وتتجاوزها، وعندئذ يمكن لكل فرد أو جماعة اعتناق الدين الذي يهواه، ويصبح التدين ضميرا شخصيا، فالمواطنة توحد الشعب من خلال سيادة واحدة، وتحرر الضمائر من تبعية

(٦) سليم سوزه -قناعة الاربعين -الحوار المتمدن -العدد ٤٤٧٦ في ٢٠١٤/٦/٨

الجماعة الجبرية، وتذوب الأقليات الدينية داخل الإرادة الديمقراطية للمواطنة وتستمد حرياتها الأساسية من ضمان القانون والنظام وبهذا تتم المصالحة التاريخية بين المؤمن والمواطن".

إن الدولة المدنية بكل مثالبها ونواقصها القابلة للإصلاح على الدوام، هي أفضل أنواع العقد الاجتماعي التي خلص إليها العقل البشري حتى يومنا هذا.

لقد شرعت وبدأت الدعوة لدين الإسلام عن طريق الدعاة لنشر تعاليم القرآن وإقناع الناس بفحوى الدين الجديد وتحمل دعاته ومعتنقيه صنوف التعذيب وأنواع الأذى، من الجانب المختلف "الكافر"، كان هذا في مطلع وبداية الدعوة الإسلامية في مكة، ولما بدأ الإسلام بالتمدد والانتشار في المرحلة المدنية (نسبة إلى "المدينة" أي "يثرب") قوت عزيمة وشكيمة المسلمين وباتوا قوة مؤثرة، ولدت من رحم المجتمع البدوي، وحملت كل إرثه الحماسي من غزو وثأر واقتتال - تحت شعار "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً- كان يدوم ويستمر لعقود من الزمن بين أفراد قبائله لأسباب تافهة يموت فيها المئات من البشر، وجاءت معركتا بدر وأحد بين المسلمين وأعدائهم لتأخذ ذات النهج و المنحى، حيث استعمال السيف والرمح والقتل والتمثيل أحيانا بين صفوف الطرفين المتقاتلين، وعندما انتصر المسلمون على أعدائهم وأصبحت الغلبة والسيادة لهم باتت الحاجة لتأسيس وتوطيد دعائم دولة الخلافة الإسلامية، فبدأت بالتوسع إلى خارج حدود الجزيرة العربية وفتحت البلدان والأمصار، وضممتها وألحقتها بها بقوة السيف، وإبان هذا "الفتح" ضعف وغاب دور الدعاة والدعوة السلمية "وجادلهم بالتي هي أحسن وبالكمة الطيبة" لتحل محلها "استخدم السيف" كوسيلة لتثبيت الدين الإسلامي تحت شعار "أسلم تسلم"، لتفتح بابا جديدة لدوامه العنف المشتعلة.

إن قيام دولة الإسلام العربية على القبلية وقيمها ومعاييرها، وتمترس العنف بثقافة وعقيدة العرب، طبع أساليب الصراع في هذه الدولة، وعلى هذا الأساس مات قتلا كل

الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر مات مسموما)^(٧)، وفي زمن الخليفة علي بن أبي طالب انتقلت عاصمة الخلافة من مكة إلى الكوفة، ودارت بين المسلمين أنفسهم معارك الجمل وصفين والنهروان فراح ضحيتها الآلاف منهم.

توضح التاريخية العنيفة في منطقتنا على مر العصور أن استخدام العنف والقتل قد تم تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم القومية وثالثةً باسم المذهب، طيلة فترة هذا الصراع المحتدم الذي لم يزل أواره مشتتلا، وسيستمر في حالة بقاء هذه الأوضاع، ما لم تجتث مسبباته.

إن معاوية بن أبي سفيان، الذي نصّب نفسه -خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين وقيصرا... مستندا في ذلك إلى مطالبته "بدم عثمان" حيث استغلها للتحشيد ضد علي بن أبي طالب الذي انتهى مغدورا في المسجد بسيف عبد الرحمن بن ملجم، قد تسبب في قتل أكثر من سبعين ألف إنسان في معركة صفين، ورغم كل هذا أدخله البعض في التأريخ كأحد "أبطال الأمة العربية الاسلامية" متناسين ما حصل في عهده من جرائم قتل وعنفا فافت التصور، ويخلص بي القول إلى أننا أمة تحمل في عقلها ووجدانها التأريخ الذي كتبه وسطره الحاكم مهما كان غاشما وظالما.

فهذا سعيد بن العاص، ابن عم عثمان بن عفان، أعطى الأمان لأهل طمسين، مقابل أن يفتحوا أبواب مدينتهم، أثناء غزوته لبلاد طبرستان، وعلى ألا يقتل منهم رجلا واحدا، وأبر الرجل بوعدة متلاعبا باللغة التي أباح تأويلها كل الظلم والظلام في تأريخنا حيث أبادهم عن بكرة أبيهم، ولم يُبق منهم على قيد الحياة إلا رجلا واحدا!

وبعد أن توفي معاوية بن أبي سفيان، تولى الخلافة ابنه يزيد ليرفع من وتيرة العنف وقد أضفى عليه ألوانا أكثر وحشية و بشاعة، غارقة بنهر من الدم، وفي عهده استباح الجيش الأموي في واقعة الحرة، بقيادة مسلم بن عقبة، المدينة يثرب، لمدة ثلاثة أيام، بسبب خلع الانصار لبيعة يزيد، وذلك لفساده، فاغتصبت أكثر من ألف امرأة، وقتل ثلاثة آلاف رجل، كما هدم يزيد الكعبة بالمنجنيق، وقام جيشه بقتل كل آل

(٧) هادي العلوي -الاغتيال السياسي في الاسلام، -دار المدى للثقافة والنشر -ص، ٢٩، ٥٩، ٨٥.

بيت النبي في واقعة الطف في كربلاء، ولم يُبق أحدا من الرجال على قيد الحياة، سوى علي بن الحسين الصغير والعليل، حيث أخذه مع السبايا من النساء إلى الشام، بعدما ذبح الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد النبي محمد بن عبد الله هو وآل بيته وأصحابه، إذ قام جيش يزيد بفصل رؤوسهم عن أجسادهم لترفع على أسنة الرماح لأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية الحديثة، بمسيرة من العراق إلى الشام، عرضت على أهالي البلدات والمدن التي مروا بها، بقصد إرهاب أهلها بمظهر متميز من أساليب العنف، وأخذت نساء آل بيت نبي المسلمين سبايا من العراق إلى الشام، بركب، سيرا على الأقدام حيث مقر حكم "الخليفة يزيد بن معاوية"، في أكبر مأساة إنسانية كجريمة يندى لها الجبين، لتنتقل دوامة الصراع والعنف إلى العراق.

قام الحجاج بن يوسف الثقفي والي عبد الملك بن مروان، بقتل معارضيهِ من موالي علي بن أبي طالب، ولم تردعه عن ذلك حرمة مساجد الله، فذبح منهم عشرين ألف شخص مرة واحدة بحد السيف بعد أن حاصره في مسجد الكوفة عند الصلاة.

يذكر المفكر العراقي هادي العلوي في كتابه شخصيات غير قلقة في الاسلام، المدى، ص ١٠٣، : " أمر يوسف بن عمر الثقفي والي الكوفة في عهد هشام بن عبد الملك الأموي، بقتل زيد بن علي بن الحسين وصلبوا جثته في كناسة المدينة بعد أن قطعوا رأسه، وبقي زيد مصلوبا في الكوفة ثلاث سنين حتى مقتل ابنه يحيى في خلافة الوليد (الثاني) الذي أمر يوسف بن عمر بإنزاله وإحراقه، ونفذها يوسف بإضافة من عنده إذ أمر بنثر قسم من رماده في نهر الفرات، والقسم الآخر في المزارع، وقال لأهل الكوفة أنه فعل ذلك حتى يجعلهم يشربونه في مائهم ويأكلونه في طعامهم".

وكان الحجاج يستمني كلما قتل أو سحل خصومه. وفي المأثور التاريخي الإسلامي، أن الحجاج بن يوسف قتل وأحرق وصلب وذبح مائة ألف شخص. بينما سابقه زياد بن أبيه (ت ٦٧٣م) كما يروي المؤرخ الطبري (ت ٩٢٤م) أنه كان يدفن معارضيهِ أحياء، ويفقأ عيونهم، ويحرقهم على نار هادئة، ثم يجز رؤوسهم وهو يقهقه منتشياً، حين يطلق كلابه الجائعة على سجنائه، ويعزى أنه أول من أنزل عقوبة قطع اللسان في

الدولة الأموية، فقد قطع لسان رشيد الهجري، ثم صلبه لخلاف في العقيدة، ويروي عن زياد بن أبيه أنه هو أول من أباح قطع الرأس وحمله على السيف وكان ذلك الرأس لعمر بن الحمق، فأصبحت من بعده مثلاً يقتدى به.

أما الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٦٩٠ - ٧٤٤م) أباح الحرق واستكثر منه، مضيفاً له قطع الأطراف، كما فعل مع غيلان الدمشقي، أو كما فعل عامله على العراق خالد القسري مع الجعد بن درهم، حيث تم ذبحه وحرقه، وهو المصير نفسه الذي حل بالمغيرة بن معيد وأتباعه، والحارث بن سريج وأنصاره، على ما يرويه الطبري.

وفي الأندلس أقام المعتمد بن عباد (١٠٤٠ - ١٠٩٥م) مزرعة من الرؤوس البشرية المقطوعة في إحدى حدائق قصره في أشبيلية. ويروي المؤرخ البلاذري (توفي ٨٩٢م) في كتابه (أنساب الأشراف) أن مسلم بن عقبة القائد العسكري المعروف، خلال ولاية يزيد بن معاوية إستباح المدينة المنورة لثلاثة أيام، نهباً وإغتصاباً وقطعاً للرؤوس، وحصلت آلاف الولادات غير الشرعية جراء "جهاد الإغتصاب".

ويذكر هادي العلوي في كتابه (من تاريخ التعذيب في الاسلام - المدى، ص ١٠، ١١، ١٢): "يروي السمعاني أن زياد بن أبيه أمر بقطع لسان رشيد الهجري وصلبه لأنه تكلم بالرجعة،" والشاعر بشار بن برد أمر الخليفة العباسي المنصور بقتله تحت السياط وألقي بجثمانه في أحد أهوار البصرة ثم حمل الى مدفنه، وأن أحدا لم يشيعه سوى أمة له كانت تسير خلف الجثمان وهي تصيح وا سيداه وا سيداه.... وهذه حكاية مرتبة للاستهانة به، لمجرد أنه كتب قصيدة في تأييد وثبة البصرة بقيادة ابراهيم بن عبد الله الحسنى". ولدنا رواية في الطبري، ان المنصور العباسي قتل بعض العلويين بدفنهم أحياء. وقد تعددت حوافز القمع وخرجت عن الغرض السياسي لتصبح جزءا من السلوك اليومي للحاكم كما فعل صدام حسين، عندما قام باستعادة تطبيق هذا الاسلوب من التعذيب بالاقتصاص ممن عارضه أو تناول عليه، فقد قام بقطع ألسنتهم، أو قتلهم بدفنهم أحياء.

أما العباسيون فقد فاقوا بني أمية وحشية ودموية، فأسرفوا بالثأر، وأبادوا الأمويين، ونبشوا قبورهم، واستباحوا الشام، وقتلوا فيها أكثر من خمسين ألف إنسان، كما قام السفاح عبدالله بن علي العباسي بقتل أكثر من ألف إنسان في ليلة واحدة وفرش على جثثهم سباط العشاء، ثم تناول وجبته فوق أصوات حشرجات الموتى وزفرات وأنين المحتضرين وتوسلاتهم، ونقل عنه الرواة قوله "إنه لم يطعم في حياته ألد وأطيب من طعامه تلك الليلة (وهذا المشهد يذكرني بناظم كزار في معتقل قصر النهاية عندما كان يعذب المعتقلين وصرخات الآلام تتعالى من شدة وقسوة تعذيبه لتشتف أذنيه بينما كان هو يتلذذ بتناول وجبة طعامه الشهية من على مكتبه في غرفة التعذيب). وقد كان المتوكل من أكثر الخلفاء العباسيين ظلماً وعريضة وسفكاً للدم، وكان في ملك يمينه أربعون ألف جارية!!!، ولقب بنيرون الشرق، وبات خلاف الرأي المؤثر سبباً ومصيراً حتمياً لقتل دعائه والتمثيل بهم.^(٨)

ويروي أبو فرج الأصفهاني أن أبا جعفر المنصور (ت ٧٧٦م) أوغل في الشناعة، فكان يدفن معارضيه أحياءً حتى الموت، وبعدهما كان تقطيع الأوصال يجري دفعة واحدة، غداً في عهد الخليفة هارون الرشيد (ت ٨١٠م) أربع عشرة دفعة، وهذا ما فعله الخليفة الرشيد ببشير بن الليث وفقاً لرواية الطبري، وتشعبت أسباب الذبح والقتل وتراوحت بين سبب سياسي، أو عقائدي، أو هروب من الجيش أو إنعدام القدرة على دفع الخراج، أو لوشايات يصعب حصرها".

وقد أبدع الأمويون والعباسيون ومن بعدهم السلاجقة والمماليك والعثمانيون في التلذذ بتعذيب ضحاياهم، وإبتكروا طرقاً شتى في الإمعان بالتعذيب منها:

- التشميس: وتعني ترك الضحية تحت الشمس الحارقة حتى الموت.
- المسمرة: ويعني دق المسامير في أيدي الضحية على جذوع الأشجار حتى يلقي حتفه.

(٨) هادي العلوي - من تاريخ التعذيب في الاسلام- دار المدى للثقافة والنشر- ص-٥٤.

- الحشو: ويعني سلخ جلود البشر وهم أحياء، وقد أورد ابن الأثير أن الخليفة العباسي المعتضد بالله (ت ٩٠٤م) سلخ جلد معارضة محمد بن عبادة، وكذلك فعل السلاجقة بقيادة محمد بن ملك شاه، مع أحمد بن العطاش وأصحابه ممن وقعوا في الأسر.

في العصر العباسي شاعت طريقة سمل عيون الخلفاء لإسقاط خلافتهم شرعاً، فالأعمى لا يحوز الولاية، وعلى ذلك، تم تعطيل أهلية القاهر بالله، بسمل عينيه من قبل ابن أخيه الرازي بن المقتدر، ومثل ذلك جرى مع المتقي لله، حيث سمل عيني ابن عمه المستكفي، ولا يخرج عن السياق الخليفة العباسي المتوكل (ت ٨٦١ م) فقد ذبحه ابنه المنتصر، وكان ولي عهده.

يبدو أن أسماء الجلالة التي يحملها هؤلاء الخلفاء: القاهر بالله والمقتدر بالله والمستكفي بالله والمتوكل بالله والمنتصر بالله... إلى آخر القائمة، هي للتعريف ولخداع العامة، وليست لها وشيجة أو أصرة تمت بصلة لما تحمله نفوسهم من ظلم وعنف وقتل وتعذيب هي أبعد ما تكون عن سنن الله وأوامره وشريعة الإسلام السمحاء، والشرائع الإلهية والقوانين الإنسانية. فقد أعمى بصيرتهم حب الحكم وشهوة الملك والسطوة والجاه فباتوا كالأسرى المستكينين الخانعين لها، وحبهم للحكم والملك وتشبثهم بهما ومهما كان ثمن الحفاظ عليهما، وما تتطلبه الحاجة إليه من قتل وذبح وشناعة ومكر وخداع سيراً على قول معاوية بن أبي سفيان: " فأما أنا فقد تضجعتها (أي الدنيا) ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لي".

فهذا ابن المقفع (أبو محمد عبد الله بن المقفع ٧٢٤م-٧٥٩م قد اعتنق الاسلام وعاصر الخلافتين الأموية والعباسية ومؤلفاته تحدثت عن (علاقة) الراعي بالرعية في كتابه (الأدب الصغير)، بينما ألف (الأدب الكبير) لتهديب النفس الاسلامية وتعليمها كيف يقدم السلطان الاسلامي أعمالاً صالحة لوجه الله... وأكد على حقيقتين: تسليم السلطة والحكم إلى (أهل المعرفة) أحق الناس بتدبير الدولة هم (العلماء).

يبدو أن ابن المقفع قد تخطى حدوده ورفض الانصياع لولي الأمر وأغضب الخليفة المنصور فحلت عليه اللعنة بالقتل، حيث قام بتكفيره واتهمه بالزندقة وأمر واليه على

البصرة سفيان بن معاوية بتقييده وضربه بالسياط، وبإحضار فرن تنور أوقدوه حتى أصبح حاميا متوقدا، عندئذ أمر سفيان رجاله بتقطيع أعضاء وأطراف ابن المقفع عضوا فعضوا، وكلما قطعوا عضوا من جسمه يقول لهم سفيان أن القوه وارموه في النار، فجعل رجاله يقطعون أعضائه ثم يرمونها للفرن حتى تحترق بينما يراها وينظر لها ابن المقفع وكانت آخر كلماته: والله أنك لتقتلني، فيقتل بقتلي ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك لما وفوا بواحد، حتى هلك ومات من شدة التعذيب، وقال له سفيان عندما كان يحتضر "ليس علي في المثلة بك حرج لأنك زنديق قد أفسدت الناس."^(٩)

وقد اشتهر الحسين بن منصور بلقب الحلاج لأنه كان قد حلج القطن في صباه ثم حلج الفكر فيما بعد ذلك. وانتهت حياة هذا الشيخ الصوفي والفيلسوف نهاية شنعاء وكان الحكم على الحلاج سياسيا ولم يكن دينيا لأن خطه الديني كان إصلاحيا يدعو إلى رفض الظلم والطغيان، إذ قُطعت أطرافه وُصِّب بعد ذلك كالمسيح، ثم صُربت رقبتة في اليوم التالي وأُحرق جثمانه، ورمي ما تبقى منه في النهر.

فإن كانت هذه هي العدالة وحرية الرأي فكيف يكون الظلم والقمع؟ كل هذا لأنه رغب بشدة في إصلاح أحوال الأمة في زمن كثر الظلم وانتشر الفساد، وتفاقم الفقر المتفشي بين أفراد المجتمع، بينما عاش الحكام والوجهاء في غنى فاحش غير مكثرتين بالآلام أمتهم مما جعل نار الفتنة تشتعل وشم التفرقة يتسرب ويتوغل بسرعة في شرايين الدولة.... فالقرامطة يثورون وبفلحون في تكوين دولة لهم في البحرين والأدراسة ينشقون عن الخلافة بالمغرب والشيعية يتربصون ويتحينون الفرصة للانقضاض على الخليفة وحاشيته. في هذه الظروف العصيبة للدولة وقف أهل العلم وأصحاب الفكر التنويري مواقف مختلفة، منهم من انحاز للبلاط طمعا في العطاء ومنهم من انكمش على نفسه وزهد في المجتمع. وما وقف في وجه الظلم والجور إلا القلائل من أمثال أبي العباس ابن عطاء الحنبلي والحلاج وقد تعرض الرجلان للسخط والعقاب. وبالرغم من المحن التي تعرض لها هذا الصوفي الورع فإنه ما كان قد فكر

(٩) رشيد خيون -دروس من تراث الاسلام -مؤسسة الانتشار العربي - بيروت.

في نهج التغيير عبر سياسة العنف والتطرف بل على العكس من ذلك سعى إلى تغيير سلمى، أي ثورة صوفية لا تهرق فيها دماء ولا يشوه جمالها ذبح، لأن الحلّاج كان يعرف وبحق أن العنف لا يورث إلا العنف والفتن والفوضى ويجعل البلاد والعباد عرضة لمخاطر داخلية وخارجية. إلا أن أفكاره السلمية هذه لم تنجّه من كيد الأعداء وعَظاظ السلاطين، حيث تأمروا عليه ولفقوا له التهم كي يتخلصوا من ضمير عصرهم وأمتهم.

فالمحكمة الصورية، التي ترأسها حامد بن العباس وزير الخليفة العباسي المقتدر وعدو الحلّاج، وجهت له ومن دون خجل تهمة الفسق، وقد قال ابن تيمية فيه "من اعتقد ما يعتقد الحلّاج من المقالات التي قتل الحلّاج عليها، فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين". وبسبب آرائه ومعتقداته التي كان يجدها الحاكم خطرا على حكمه، كان قتله يمثل نهج العنف السياسي، الذي كان يسود سلوك الحاكم.

وأمر صلاح الدين الأيوبي ابنه واليه في حلب بقتل شيخ الاستشراق المتصوف شهاب الدين السهروردي، حيث تم تجويعه، وقتل بالسيف ثم أحرق، بتهمة الاحاد والزندقة.

أما الكندي يوسف بن اسحق فيلسوف العرب، فقد قام الخليفة المعتصم بسجنه وتعذيبه، وجرد من ملابسه وهو في الستين من عمره، وجلد في ميدان عام وسط تهليل العامة. وهكذا كان حال الرازي الذي ضربوه بكتبه على رأسه حتى فقد بصره وأحرق داره وكتبه. ولم ينج أو يسلم من العقاب وممارسة أسلوب العنف لا ابن سينا ولا ابن خلدون، أو ابن رشد الذي اتهم بإيمانه.

إنه أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي البربري، ولد في قرطبة عام 1126م وتوفي عام 1198م، العالم والفيلسوف والطبيب وهو قاضي القضاة في زمانه، وقد تنوعت دراسته في مختلف العلوم من الكلام والفقه والشعر والطب والرياضيات والفلك والفلسفة، وتم تعيينه طبيبا ثم قاضيا في قرطبة، وتولى منصب القضاة في أشبيلية، وأقبل على تفسير آثار ارسطو، تلبية لرغبة الخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف، وفي قرطبة تولى منصب قاضي القضاة، وبعد ذلك بنحو عشر سنوات التحق

بالبلاط المراكشي كطبيب الخليفة الخاص، حتى تعرض لسخط الحركة السلفية التي قامت بتكفيره ومحاربتة حتى تم حبسه، إلا أنه لم يطل، حيث انتقل إلى مراكش لتصعد روحه لبارئها، وهو القائل: التجارة بالأديان هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل، إذا أردت أن تتحكم في جاهل فعليك أن تغلف كل باطل بغلاف ديني.

أما في الحقبة التي تلت العصر العباسي وسقوط امبراطوريته، فقام هولوكو وتيمورلنك مع الحشود البدوية القادمة من شمال قارة آسيا، بذبح وقتل وسفك دم العراقيين، من شيوخ وأطفال ونساء ورجال، حيث انتهكوا بغداد في خدرها الآمن المستكن المستقر، وطلوا أرضها دما أحمر قانيا، لتحل علينا فيما بعد الفترة العثمانية التي دامت قرونا، وقد اشتد فيها الصراع مع الفرس على أرض العراق فكان وقودها وضحيّتها العراقيون أنفسهم.

لم يتوقف مسلسل الحروب ويعيد التاريخ دورته بعد أكثر من ألف عام لتطل علينا "داعش" أو ما تسمى بـ"دولة الخلافة الاسلامية" بزعامة مزعوم هو "الخليفة أبو بكر البغدادي" في العراق وسوريا وتقوم بحملة ارهابية قل نظيرها من ذبح وحرق وتهجير لكل الذين يخالفون فكرها ولم يقبلوه أو ينصاعوا ويخضعوا له، فكانت حملة تسبى بها نساء الأقليات الدينية من مسيحيين وإيزيديين، و يذبح أولادهن و أزواجهن أمام أنظارهن، وتفرض على الناس بدعا وقوانين جائرة غريبة، في ارتداء الملابس، وفرض ما يرونه من التعليم في المدارس والجامعات التي تحت سيطرتهم، كما حصل في نينوى، بمنع تدريس علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء واستبدالها وقصرها على علوم الفقه والحديث والتفسير، وحفظ وتعليم القرآن، لإلغاء عناصر التقدم الحضاري لدى المجتمع وتطبيق اجتهادات لفقهاء مسلمين في تحريم العلوم الوضعية وفنون الموسيقى والرسم والنحت، وتهشيم التماثيل وتحطيم ما يدعونه "الأصنام"، في محاولة لإلغاء هذا الإرث الحضاري البشري، وإزالته من الوجود.

٢- عن بغدادنا الحزينة نموذجاً

يقول الشاعر والثائر والشاعر مظفر النواب (لم أر أرضاً رويت بالدم والشمس كأرض بلادي، ولا حزناً كحزن الناس فيها، لكنها بلادي، لا أضحك من القلب، ولا أبكي من القلب، ولا أموت من القلب إلا فيها).

دمار بغداد

لنقف وهلة نسترجع الماضي ونرقب ونرى سوية الدم والحزن الذي تسربلت به بغداد، وغطى سماءها، وماحل بهذه المدينة العريقة التي ازدهر الفكر والعلم بها، وعاشت وبرزت فيها رموز سامقة شامخة من العلماء والمفكرين والمبدعين، وتنوعت بها المدارس الفكرية، لكن احرقت كتبها واحتلت وانتهكت بخدرها، وذبح بشرها ودوابها، بأساليب عنف مارسه معها كل الغزاة الحاكمين.

كانت المكتبة الكبيرة ببغداد تحتوي على وثائق تاريخية ثمينة وكتب علمية كثيرة تتراوح مواضيعها من الطب لعلم الفلك، وقد تم تدميرها كاملة وقال المتبقون على قيد الحياة أن مياه نهر دجلة أصبحت سوداء نتيجة لكمية الحبر الهائلة من الكتب التي ألقى بها في النهر.

حاول العديد من مواطني بغداد الهرب ولكن تم اعتراضهم من قبل قوات المغول، وتراوحت أعداد القتلى من مائتي ألف حتى مليون قتيل.

المساجد، القصور، المكتبات العامة، المستشفيات والبنيات الضخمة التي استغرق بناؤها وقتاً كبيراً نهبها المغول جميعها ثم أحرقوها بعد ذلك.

تم أسر الخليفة وأجبر على مشاهدة دمار المدينة، ثم أمر هولاكو جنوده فقاموا بلفه بسجاد وأوسعوه ضرباً ودهساً بالخيول حتى مات لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي أن يتم إراقة دماء ملكية.

اضطر هولاكو لتحريك معسكره بعيداً عن المدينة نتيجة للرائحة الكريهة التي كانت تتصاعد من الموتى والمدينة المدمرة.

ظلت المدينة خالية من السكان لبضعة سنوات.

إضافة الى ذلك فقد خرب المغول أنظمة الري والمزارع إذ كانوا قوم مقاتلون رُحل يأكلون لحوم الصيد ومن المحتمل عدم معرفتهم بأكل الفاكهة حيث خربوا مزارع العنب أينما وجدوها!

بدأ هولوكو سلسلة الذبح والقتل عام ١٢٥٨م، حين حاصر بغداد وضرب أسوارها بالمنجنيق ثم ذبح جميع الذكور فيها واستباح المدينة، ولم يخرج منها إلا بعد أن ثقل الهواء فيها بما حمل من كرية رائحة الجيف المنتفخة، وأشلاء القتلى المطروحة في شوارعها.

وبعد حوالي القرن ونصف احتل تيمورلنك بغداد وقتل عشرات الآلاف من سكانها وعذب الأحياء في شوارعها، وبعد عام واحد من احتلاله لها، ضرب السلطان أحمد حصارا حولها، ودخلها عنوة وارتكب مجازر مروعة فيها، ثم عاد تيمورلنك وحاصرها أربعين يوما، وبعد قصف شبه يومي بالمنجنيق والنار، دخلت قواته المدينة، وقد أمر هذه المرة بإبادة سكانها عن بكرة أبيهم، فأقيمت فيها عدة أبراج من رؤوس القتلى، بعد هدم وتدمير منازلها وجوامعها، واضطر هو إلى مغادرة بغداد بسبب رائحة الجيف وفساد الهواء من تفسخ جثث مئات الآلاف من القتلى.

وبعد سبع عشرة سنة فقط سقطت بغداد بعدما حاصرتها جيوش قره يوسف التي قادها ابنه محمد شاه الذي أسس فيها دولة "الخروف الاسود" التركمانية، وقام بقتل جميع سكان المدينة من العرب.

وبعد أقل من تسع سنوات سقطت بغداد مرة أخرى، حين حاصرها السلطان جيهان شاه مدة ستة أشهر كاملة، أكل خلالها سكان المدينة القطط والكلاب والجيف، ثم قام بتدميرها وتخريبها وحرقتها، وبعد أشهر قليلة عاد السلطان ذاته بسبب غضبه على ابنه بير بوداق الذي أعلن الانفصال عن أبيه، وتوجه بجيش جرار إلى بغداد وحاصرها لمدة سنة كاملة، أكل خلالها الناس بعضهم بعضا من الجوع، وقام السلطان بقطع رؤوس جميع الذكور في المدينة، وأعدم ابنه بيربوداق بعد تعذيبه.

إن الأتراك مثلهم كمثل ما تقدم من العرب وبدو آسيا، عندما زينوا قبر تيمور لنك بالآيات ليصبح مزارا يتبركون به وكأنه لم يسفك دم الآلاف من البشر، ويسبي آلاف النساء غنائم حرب.

لعت بغداد جراحها ولملمت نفسها وأعادت بنيانها لتلتحق بركب المدن المتقدمة في العصر الحديث منذ تأسيس الدولة المركزية المعاصرة عام ١٩٢١ ثم تم استكمال هذا البنيان بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، في محاولة لمواكبة تطور هذا العالم المتقدم واللاحق به، هذا العالم الحضاري الذي وضع تطوره وتقدمه في شتى مجالات الحياة على مسار يوازيه في تقدم وسائل القتل والدمار والعنف، ليهاجم بغداد من جديد، ويقصفها قصفاً عنيفاً بحلف ضم ثلاثين دولة، على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، وبغطاء "شرعي" من الأمم المتحدة، لتصب آلة حربها جام غضبها على رؤوس أهل بغداد ودورهم ومؤسساتهم ومصانعهم عام ١٩٩١ بسبب رعونة حاكمها وحماقته، عندما قام بغزو الكويت واحتلالها.

وتعاد الكرة مرة أخرى عام ٢٠٠٣ ليتم احتلال العراق وبغداد من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، احتلالاً مباشراً دام ثماني سنوات، تفككت وانهارت خلالها المؤسسات العسكرية والأمنية من الجيش والشرطة ودمرت ونهبت الوزارات، وألغيت الدولة وهشمت بنيتها، ونشبت وما زالت حرب طائفية، راح ضحيتها الآلاف من أبناء بغداد والمحافظات الأخرى.

٣- عن الصراع العائلي على السلطة

السياسة المتضمنة بالدم والعنف لم تعف، ولم تفرق بالقتل بين الأب والإبن والأخ من الحكام في صراعاتهم على السلطة، فالسلاطين العشرة الذين حكموا الدولة العثمانية ما بين ١٢٩٩ - ١٥٦٦م قتلوا جميعاً أولادهم وأشقاءهم من أجل السلطة، والخلفاء العثمانيون لم يكونوا سوى وحوش في ثياب بشر، فلم يسلم من جبروتهم حتى أفراد أسرهم، حيث يذكر حلمي محلي في مؤلفه (خفايا التاريخ) أن "بعد وفاة أرطغرل نشب نزاع على السلطة بين ابنه عثمان وأخيه دوندار، فقتل عثمان عمه ليستولي على الحكم، ولينشئ الدولة العثمانية، وتبدأ معها مسيرة الجرائم العائلية، التي استمرت حتى نهاية الدولة العثمانية عام ١٩٢٢م.

قتل مراد الأول بن أورخان ثالث سلاطين آل عثمان شقيقه إبراهيم و خليل وسمل عيني ابنه ساوجي وأعدمه حتى لا ينافس أولاده الآخرين على الحكم".

وقد أصدر السلطان مراد في معركة كوسوفو عام ١٣٨٩م أمرا بخنق ابنه يعقوب حتى لا ينافس شقيقه بايزيد الأول، حيث استدعي يعقوب من ساحة المعركة مع الصرب إلى خيمة أبيه، وهو على فراش الموت. وقام مراد الثاني بقتل عمه، وشقيقه مصطفى وسمل عيني شقيقه الأصغر يوسف، وعندما نصّب مراد الثالث - وهو نجل السلطان سليم الثاني - على العرش، خلفا لوالده قتل أشقاءه الخمسة، وكذلك قام ولده محمد الثالث - عندما تولى الحكم - بقتل أشقائه التسعة عشر، وسبع من الجواري حوامل من بعضهم، وقتل ولده الصغير محمود، وكان عمره ستة عشر عاما، لكي يبقى السلطة لولده السلطان أحمد الذي كان عمره أربعة عشر عاما، والأكثر من ذلك أصدر السلطان محمد الفاتح أمرا "شرعيا" لحل فيه قتل السلطان لشقيقه من أجل وحدة الدولة.

إن عدد الأمراء العثمانيين الذين قتلوا على يد أهلهم مائة وواحد وعشرون أميراً مقابل أربعة وأربعين رئيساً للوزراء، وهذا يعني كما هائلا من المؤامرات والفساد واستخدام التعذيب وسمل العيون، وتقطيع الأوصال والقتل وإزهاق الأرواح، والتصفيات الجسدية... وكان آخرها ما اقترفوه مجزرة قتل قرابة مليون أرمني عام ١٩١٥م، لم يفرقوا فيها بين رضيع أو طفل أو امرأة أو شيخ وشاب.

الفصل الثاني

منذ المملكة الأولى حتى الجمهورية الخامسة

١- العنف في الدولة المعاصرة

إن الحكم الوطني العراقي بدأ بتنصيب فيصل بن علي الهاشمي ملكا على العراق عقب الاحتلال البريطاني، والفترة الزمنية التي حكمت بها العائلة الهاشمية بلدنا، والتي تجاوزت ثلاثة عقود، لم تخل من مظاهر العنف والإبادة الجماعية لانتفاضات الفرات الأوسط والانتفاضات الكردية في الثلاثينيات كما مارست الأجهزة الأمنية القمع، من سجن وتعذيب في مكاتب التحقيقات الجنائية وأمثالها، وتم قمع المظاهرات السلمية وقتل المتظاهرين بالرصاص مثلما حصل في الاضراب العمالي في كاور باغي عام ١٩٤٦، وفي الوثبة عام ١٩٤٨، حيث استشهد عواد الصفار، أو بالإعدامات التي طالت قادة الحزب الشيوعي العراقي (يوسف سلمان "فهد" وزكي محمد بسيم "صارم" و حسين محمد الشبيبي "حازم") الذين كانوا يدافعون عن حقوق العراقيين ويطالبون بتأسيس حكم وطني يتمتع الشعب فيه بحرية الرأي، شعب مستقل لا يرهن مصيره بقوى استعمارية أجنبية، سياستها هي النافذة الفاعلة.

ولكي نعطي صورة جلية وواضحة عما قامت به سلطاته المتنفة الحاكمة من أعمال وحشية تجسدت في قمع حرية الرأي والتعبير والتظاهر، واسقاط الجنسية عن المعارضين (بموجب المرسوم رقم ١٧ لسنة ١٩٥٤ بأسقاط جنسية من حكم عليه بجريمة الشيوعية ونحوها من الجرائم وفق ذيل قانون العقوبات البغدادي رقم ٥١ لسنة ١٩٣٨). ومحاربة المعارضين، واضطهادهم، وتشريدهم، ونفيهم، وزجهم في السجون والمعتقلات واقامة المجالس العرفية العسكرية التي أصدرت بحقهم أحكاما جائرة -نورد بعضا مما كتبه الرفيق عبد الجبار وهبي (ابو سعيد):

"كان التنكيل بالمواطنين وحشيا وقاسيا بعد وثبة ١٩٤٨ وخلال هجوم ١٩٤٩ الذي شمل الوطنيين والديمقراطيين والنقابيين والشيوعيين من عمال ومستخدمين وطلاب ومحامين وتجار ومعلمين وفلاحين رجالا ونساء. وانتشر في طول البلاد وعرضها جو هستيري محموم، لم يسبق للعراق أن عرف مثله من قبل". واضرابات السجون التي "استشهد فيها عدة مناضلين منهم: دنخو يلده (عامل) في سجن نقرة السلطان، نعمان محمد صالح (طالب) في سجن بغداد، حسين مهدي (فلاح) كبير السن في سجن بعقوبة، وراح من السجناء ضحايا آخرون، منهم: هاشم أحمد مات مسلولا، مهدي حسين اغتاله في المستشفى طيب فاشستي، كريم صوفي وحييم توفيا في التعذيب وغير اولئك كثيرون أصيبوا بالشلل والعايات الدائمة، وشهداء المشانق وضحايا معارك الجسر وباب الشيخ وباب المعظم ومذابح السجون، والتعذيب والاعتقال والسجن والنفي، فكان عدد من اعتقلتهم الشرطة من آب ١٩٥٤ حتى نيسان ١٩٥٥، أكثر من ١٥٠٠ مواطن. وسبق من هؤلاء للمحاكم المدنية قرابة ٨٠٠ شخص، وفي السجون أكثر من ٧٠٠ سجين سياسي بينهم ٢٠ سجين، وهناك أكثر من ٩٠ مبعدا سياسيا في منافي (بدره) و(نقرة السلطان) وأماكن أخرى بينهم عدد من النساء، وطردهن من طلاب الكليات والمدارس نحو ١٥٠ طالبا، وفي صيف ١٩٥٣ قتلوا ١٨ سجينا وجرحوا أكثر من ٢٠٠ وارتكبوا فظائع وحشية بحجة نفل السجناء السياسيين من السجون الأخرى الى سجن بعقوبة".^(١٠)

وإذا نظرنا الى ذلك النظام كما هو في زمانه فهو في هذا المقياس كان نظاما فاسدا، سيئا، عصيا على الإصلاح والتطوير، وهو الذي خلق ظروف مؤاتية لذلك العنف السياسي بسبب عدم تأسيسه لحياة سياسية سليمة تقوم على تقاليد مستقرة مما جعل اللجوء الى الثورة والإنقلابات العسكرية كما حصل في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨

(١٠) من أعماق السجون في العراق -عبد الجبار وهبي "أبو سعيد" -اعداد وتقديم محمد علي الشيببي - مؤسسة النبراس -العراق -النجف الاشرف - (٢٠١٣). عن كتاب من أعماق السجون في العراق -محمد راشد (عبد الجبار وهبي) - دار القلم - القاهرة -١٩٥٥- ص ٢٦، ٢٤.

والانقلابات التي تلتها في العام ١٩٦٣ والعام ١٩٦٨ وحتى التغيير الذي حصل عام ٢٠٠٣ جاء - هو الآخر - عبر قوة عسكرية خارجية.

ولإعطاء صورة أوسع عن ذلك العهد وممارساته أذكر ما كتبه بهذا الشأن كل من جعفر الحسيني وحنّا بطاطو وعبد الكريم الأزري. فقد كتب جعفر الحسيني تحت عنوان (خطايا العهد الملكي) مستعرضاً فيه الفترة الزمنية (١٩٢١-١٩٥٨) التي حكمت بها العراق العائلة الملكية. (١١)

٠ ١ عندما سقط العهد الملكي - بعد ٣٧ سنة من قيامه - كانت نسبة الامية في العراق ٨٠٪ (جمهورية الخوف ص ١٤٠) ولم تتأسس جامعة بغداد الا عام ١٩٥٧

٠ ٢ عندما سقط الحكم الملكي كان اربعة اخماس عائلات العراق بلا اية املاك (بطاطو - العراق الكتاب الاول - ص ٣٢٩) .

٠ ٣ وصفت المخابرات البريطانية الطبقة الحاكمة باللصوصية او حرفيا : "قلة متحكمة من مبتزي المال" (بطاطو - العراق - الكتاب الأول ص ٣٨٣) . وكأمثلة على ذلك : استولى ياسين الهاشمي والغيلاني على اراضي الحكومة وصارا من كبار الاقطاعيين (عبد المجيد القيسي محافظ الكوت في العهد الملكي - التاريخ يكتب غدا ص ٧٠ ومير بصري - اعلام السياسة ص ١٨٢) وكذلك رؤساء الوزراء الاخرون (بطاطو العراق - الكتاب الأول ، ص ٣٩٤ ، ٢١٨ ، ٢١٢ ،) وفي العام ١٩٢٢ كان فيصل الأول قد امتلك مزرعة للألبان تغطي ٨٠٠٠ هكتار من أراضي الدولة، وكانت العائلة المالكة تملك ١٧٧٠٠٠ دونم من الأراضي الزراعية، وكانت لها استثمارات كبيرة في مصنع للنسيج وفي "شركة المنصور لسباق الخيل" ، وإن لصباح ابن نوري السعيد سندات أرض قيّمة مساحتها ٩٢٩٤ دونم، أما في ما يتعلق برفاق نوري من الشريفيين السابقين، فإنهم جمعوا من فرصهم السياسية أمولا أكثر بكثير مما جمع هو بنفسه، وكان صهره جعفر العسكري قد وضع يده، بالإشتراك مع جميل المدفعي وعلي جودت

(١١) جعفر الحسيني - ثورة في العراق - العراق ١٩٥٨-١٩٦٣ - الروسم للنشر - بغداد - ٢٠١٨ - ص ٢٤، ٢٥.

الأيوبي على قسم كبير من شاطئ دجلة الذي تملكه الدولة في منطقة المجيدية في بغداد، والأيوبي إضافة الى حيازته في المجيدية كان يملك حوالي ٩٠,٠٠٠ متر مربع في حي أم العظام في كراة مريم في بغداد، و٦٣٦٦ دونم من الأراضي الزراعية، ناهيك عن حصته في "شركة الإسمنت العراقية"، وكان جميل المدفعي يملك إلى جانب العقار الزراعي الذي مساحته ٣٩٧٦ دونم مصنعا للسجائر بالشراكة مع رئيس الوزراء السابق توفيق السويدي وآخرين. (بطاطو، العراق، الكتاب الأول ص ٣٩٢، ٣٩٣)

٥٠ كان علي حجازي مدير الشرطة العام يضع مراكز الشرطة بالمزايدة ويمنحها لأكثر الدافعين من المفوضين والمعاونين (القيسي ص ٥٣٥) وبلغ من فساد الشرطة ان جرى اعدام ابرياء - في قضايا جنائية - بدلا من المجرمين الحقيقيين (الهلالى - قال لي هؤلاء ص ١٨٨ - ١٨٩) .

٥٠ لقد ترك الفساد اخطارا جسيمة على مستقبل العراق، فناجي الاصيل وزير الخارجية ذهب الى إيران، للتفاوض بشأن الحدود وشط العرب، وقيل انه تساهل في ذلك (مير بصري ص ٨٦) وكان عبد الله بن سعيد وزير خارجية نجد (السعودية) قد وقع اتفاقية الحدود مع العراق، ثم أصبح بعدها وبقرار من نوري السعيد وزيرا لخارجية العراق، وصار اسمه عبد الله الدمولوجي، ومكلفا بملف الحدود مع السعودية (مير بصري ص ٦٤) .

٥٠٦ عندما هاجر اليهود من العراق، قامت شركة يملكها أحد الوزراء بتسفيرهم الى الكيان الصهيوني (الازري ص ٣٦٥) ولما مسكوا رئيس التنظيم الصهيوني، هربوه خارج العراق، ووضعوا محله مجنونا يهوديا (مذكرات بهاء الدين نوري ص ١١٨ - ١١٩) وعندما كان الجيش العراقي يقاتل الكيان الصهيوني - ١٩٤٨ - كان عدد من المسؤولين العراقيين واقاربهم يهربون البنزين الى الكيان الصهيوني (روفائيل بطي - ذاكرة عراقية الجزء الثاني ص ١٤٠) .

٠٧ يلوم احمد مختار بابان رئيس آخر حكومة ملكية، نوري السعيد، على علاقته ببريطانيا، حتى بعد تراجع نفوذها بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى ابقائه لقواعدها العسكرية (مذكرات بابان ص ٥٥) حتى انه لم يكن في العراق - عندما سقط النظام الملكي - جهاز رادار واحد لكشف الطائرات (الزبيدي ص ٢٧٧)٠

٠٨ ليست هناك امتيازات نفطية في العالم تشبه تلك التي تتمتع بها شركات النفط في العراق، من ناحية شمولها لكل الاراضي العراقية، بحيث لا يحق للعراق نفسه التنقيب عن النفط في اراضيه ٠ فضلا عن تحكمها بالإنتاج، فالكويت تنتج ٦٠ مليون طن سنويا، بينما ينتج العراق ٣٠ مليون طن (مذكرات احمد مختار بابان ص ٢٤٦ - ٢٤٧)٠

٠٩ كانت الانتخابات في العهد الملكي مهازل حقيقية ٠ يقول النائب والوزير عبد الكريم الازري بان قريبا له اتصل به يخبره بان الاذاعة اعلنت قبل قليل فوزه في الانتخابات عن محافظة العمارة، رغم انه لم يرشح ولا يعلم بترشيحه ولم يكن راغبا بذلك (الازري ص ١٦٠) ٠ وهناك روايات مماثلة كثيرة ٠ والغريب ان المجالس النيابية، والتي كان يتم تشكيلها بهذه الطريقة، كان يتم حلها بعد اسابيع او اشهر من ذلك، ما خلا مجلس واحد اكمل مدته، ولكنه شهد اسوأ المهازل الدستورية، فهو الذي عزل عبد الاله - في مايس ١٩٤١ - بأجماع الحاضرين، وهو الذي اعاد عبد الاله بعد شهر من ذلك بأجماع الحاضرين ايضا ٠

٠١٠ عندما سقط النظام الملكي في العراق، كان عمر جريدة الاهرام المصرية ثمانين عاما، بينما لم يتجاوز عمر اية جريدة او مجلة عراقية السنتين، فقد فرضت الاحكام العرفية - في العهد الملكي - ست عشرة مرة (الزبيدي ص ١٩) حيث يتم منع كل اشكال الحياة المدنية او الثقافية، وحتى منع تجمع بضعة اشخاص لأي غرض كان ٠

١١- ان البؤس الذي كانت عليه حياة الفلاحين في ذلك العهد انعكس في أغانيهم، وفي هذه الأغنية يسير الوعي بظلم المجتمع جنبا الى جنب مع إذعان له كجزء من نظام

طبيعي. ولكن الفلاح خلال العقدین الأخيرین من العهد الملكي أخذ يتساءل، وبشكل ما يحتج، على حتمية اسلوب حياته وهو ما تعكسه هذه "الدارميات" التي كان يرددها في أغانيه:

يا ربي هيچ وياي ما بيها معنى ينتفع بيه الغير مو حق تعبنا

وأرد أشرد لبغداد من هالعشيرة لا تجبر المكسور لا عدها غيرة

وأرد أشرد لبغداد من هالفلاحة لا تشبع الجوعان لا بيها راحة

يذكر حنا بطاطو: " وضع جعفر العسكري (صهر نوري السعيد) يده بالإشتراك مع جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي على قسم كبير من شاطئ دجلة الذي تملكه الدولة في منطقة المجيدية في بغداد، وكان علي جودت يملك أيضا حوالي ٩٠ ألف متر مربع في كراة مريم و٦٣٦٦ دونما من الأراضي الزراعية، فضلا عن حصته في (شركة السمنت العراقية) أما المدفعي فإلى جانب العقار الزراعي البالغة مساحته ٣٩٧٦ دونما يملك مصنعا للسجائر بالشراكة مع رئيس الوزراء السابق توفيق السويدي وآخرين". (١٢)

ويذكر عبدالكريم الأزري حول الأرباح الفاحشة التي حصل عليها السياسيون من الأراضي الأميرية: "في الثلاثينات بدأ (الكيلاني) و (ياسين الهاشمي) بتملك الأراضي الأميرية واصبحا من الملاك الذين يشار إليهما بالبنان" و " كان الإثنان قد خرجا عام ١٩٢٤ بنظرية جديدة في السياسة والزعامة وهي أن السياسي يجب أن لا يعتمد في حياته على الراتب الحكومي بل يجب أن يوفر له إيرادا إضافيا يغنيه عن الاعتماد على الحكومة ويحرره من قبضتها (فاغتصبا أراضي الحكومة ... فتملكا الأراضي في سامراء والمحمودية وديالى والعزيرية والنعماني... وصارا من كبار الإقطاعيين).

(١٢) حنا بطاطو - العراق - الكتاب الأول - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - ١٩٩٠ - ص ٣٩٢، ٣٩٣.

"وفي منتصف الثلاثينات وزعت أراضي الوزيرية مجاناً على عدد من الساسة البارزين ومنهم نوري السعيد الذي حصل على قطعة أرض مساحتها عشرة آلاف أو أحد عشر ألف متراً مربعاً وقد شيد فيها هو الآخر بيتاً لسكانه، وحمد رستم حيدر أحد عشر ألف متر مربع، ومحمد الصدر خمسة آلاف متر مربع، ومحمد زكي المحامي ورؤوف البحراني وعلي ممتاز الدفتري وغيرهم كما وزعت قطع أراضي أخرى على موظفي الديوان الملكي على النحو التالي: رئيس التشريعات الملكية تحسين قدري حوالي خمسة آلاف متر مربع، ناظر الخزينة الخاصة شاكر حميد حوالي خمسة آلاف متر مربع ورئيس المرافقين محمود سلمان حوالي ألفي متر مربع، ومعاون رئيس الديوان الملكي عبدالكريم الأزري ما يزيد على ألفي متر مربع... وغيرهم، ومن عجيب المصادفات أن هذه العرصات كانت شؤماً على كثير من تملكوها فلم يتمتعوا بسكناها"^(١٣) ورغم كل ما تقدم لم يزل هناك من يصر على وصفه ب"عهد الاستقلال والحرية والديمقراطية والعدالة" عندما يقارنه بحكومات العهود التي تلتها.

نستعرض في كتاب (من أعماق السجون في العراق) ما ورد عن ذلك العهد وطريقة تعامله مع المعارضين السياسيين والاعمال الوحشية التي ارتكبتها في سجون بغداد وبعقوبة والكوت ونقرة السلطان. فقد اعتمد عبدالجبار وهبي في جميع الوقائع والمعلومات على وثائق رسمية وعلى شهادات ومذكرات وتقارير اناس عاشوا حياة السجن وصمدوا بوجه الاضطهاد والجرائم والمجازر ويصف بشكل دقيق وتفصيلي مجريات الاحداث، ووضع السجون، وما عاناه السجناء السياسيون من مصادرة حرياتهم وامتهان كراماتهم وتجويعهم وقتلهم وتعذيبهم، رغم أن المادة الخامسة من الدستور (الملكي) تمنع منعاً باتاً نفي العراقيين. والمادة الثانية عشر تعطي للمواطن العراقي حق الرأي والعقيدة والاجتماع... الخ!!.

(١٣) عبد الكريم الأزري - تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨ - ج ١ - بيروت - ١٩٨٢ - ص ٩٦، ٩٨، ٤٨١، ٤٨٦.

مذبحة سجن بغداد السياسي:

" في سجن بغداد تعرض المناضلون الى حملات اعتداء وانتقام فضيعة. ففي سنة ١٩٤٩ مثلا، دبرت الحكومة هجوما قامت به عصابة من مجرمين سجناء يساندهم حرس السجن. فهدموا عليهم السقوف وقذفوهم بالطابوق وجلدوا أحد السجناء السياسيين أكثر من ألف جلدة على قدميه. وكسروا أسنان عدد من السجناء بالمطرقة لأنهم رفضوا شتم قادة الشعب العراقي المناضل في سبيل خبزه وحريته. وفي صباح ١٨ حزيران ١٩٥٣، أبلغت السلطات الحكومية السجناء السياسيين بقرار مفاجئ لنقلهم الى سجن بعقوبة، رفض السجناء هذا القرار، وأظهروا عدم موافقتهم على الانتقال الى سجن آخر، وعلى إثر ذلك قامت شرطة السجن بصنع ربايا واستحكامات تشرف على ساحة السجن الداخلية، وشرعت بأطلاق قذائف غاز الدموع على ساحة السجن، وبعدها اخذت تقذف السجناء بأحجار كبيرة وتطلق الرصاص في محاولة لاقتحام الباب لإخراج السجناء عنوة. وتحول الى هجوم عسكري بالمعنى الصحيح ومهدوا للهجوم بخراطيم المياه، وفتحت القوة المهاجمة الباب وهي مستخدمة الحراب والرصاص، سقط عامل من عمال السكك وسحقوا رأسه، وسقط شهيد ثاني المعلم "محمد علي حسون" والسجين السياسي الزنجي "الحاج بشير"، وكان السجناء يفزعون الى الغرف والردهات ونار الرشاشات والبنادق تحصدهم. وبعد سيطرتهم على السجن، كبلوا الجميع مثنى مثنى بالسلاسل الحديدية وجرهم من شعر الرأس أو الساق مسافة ١٥٠ مترا، حتى الباب الخارجي حيث وقفت سيارات الشحن التي شحنتهم اكداسا بعضها فوق بعض بجروحهم وكسورهم وسلاسلهم، مسيرة ساعتين شرقي بغداد حيث سجن بعقوبة. فقد كان عدد الجرحى الذين هم بحالة خطرة جدا ٢٣ سجيننا حملوا بالنقلات الى المستشفى القريب من السجن.

مجزرة سجن الكوت:

" حصار تام لسجن الكوت استمر اثنين وثلاثين يوما، قطعت ادارة السجن المياه، وهدمت الخزان الخارجي، وامتنعت عن تقديم الطعام الحكومي، ومنعت ادخال أي شيء الى السجن. وبعد حصار دام ٣٢ يوما، من الجوع والعطش، بدأ الهجوم على جبهتين، على الارض بالهراوات وقضبان الحديد والخناجر. ومن السطح والابراج برصاص البنادق والرشاشات التي صوبت نحو السجناء مباشرة، وكانو مجتمعين داخل نطاق امام الردهتين (٣) و(٤)، وسقط ١٨ شهيدا و٢٠٠ جريح. كان من الشهداء: وحيد منصور، صبيح مائير، أحمد علوان التميمي، رؤوف الدجيلي، يحيى عباس البارح، جبار الزهيري، هادي جواد، محسن هداد، حسن مهدي، عبد النبي حمزة، وأحكام متفاوتة ضد ١١٨ سجيناً، وانتزعت السلطات الحكومية المناضلين الخمسة عشر اليهود وكان بعضهم مصابا بجروح خطيرة، فشحنتهم بالسيارات الى نفرة السلطان لحجزهم هناك مع المجرمين العاديين والصهيونيين.

سجن نفرة السلطان:

" في أواخر ١٩٤٩، انتقل المجلس العرفي العسكري بكامل هيئته الى سجن نفرة السلطان، حيث أجرى محاكمة أربع وأربعين سجيناً بتهمة ترويج الشيوعية، لأنهم قدّموا الى السلطات الحكومية عريضة يحتجون فيها على اختطاف قادة الحزب الشيوعي من سجن الكوت واعدامهم. فحكم المجلس "المتنقل" عليهم بسنوات اضافية. عام ١٩٥٣ كان عدد السجناء السياسيين ٢٦ سجيناً من المناضلين ومناضلين آخرين بينهم بعض "اليهود" وقد كان الى جانب ال(٢٦) سجيناً سياسياً سجناء عاديون، وسجناء صهاينة. دبرت ادارة السجن هجوما غادرا عليهم مستعينة بعصابة من السجناء العاديين المجرمين والصهيونيين وعلى رأسهم الصهيوني البريطاني الجنسية (رودني)، ويأخذ الهجوم عادة شكل نزاع "داخلي" بين السجناء، بينما يكون السجناء عملاء الادارة مسلحين بالسكاكين والهراوات والقضبان الحديدية وادارة السجن تساندهم جهارا، ففي نفرة السلطان عدد من السجناء المحكومين بسبب

نشاطهم الصهيوني وانتمائهم الى منظمات ارهابية صهيونية او علاقتهم بفضيحة الاسلحة التي قيل أنها اكتشفت مدفونة في بعض الاماكن في بغداد، وكان "رودني" أخطر من كشفت عنه المحاكمات حول قضية الاسلحة. اذ ثبت أنه جاسوس صهيوني وانه كان يجمع المعلومات والحقائق عن العراق وكان ينوي الاتصال بشخصيات عراقية كبيرة لأقناعها بعقد الصلح مع حكومة الكيان الصهيوني. والمستر رودني هذا كان من خدم في الجيش البريطاني واشتهر بوحشيته وبراعته في اضهاد المناضلين وتعذيبهم وقتلهم. وخلال اقامة رودني في سجن نقرة السلطان. زاره -مرة- القنصل البريطاني في البصرة وانفرد به مدة من الزمن. يهمننا من هذا الحادث الاخير ناحيته السياسية. هذه الواقعة وزعامة "رودني" لعصابة المعتدين تفضح السياسة الاستعمارية التي تسيّر عليها الحكومات العراقية ورجالات الحكم في العراق في الوقت الذي يشنون فيه حربا شعواء على السجناء "اليهود" المناضلين ضد الاستعمار والصهيونية، ويبررون فيه اقامة المذابح بتلميحوات واشارات منافقة قذرة، الى وجود عدد من الشيوعيين والوطنيين اليهود في السجون العراقية. فالحكومة تهدف الى صبغ نقرة السلطان بصبغة الصهيونية واليهودية، لتضعف الحملة الشعبية الداعية لإلغاء ذلك السجن الرهيب، ولتنشر الافكار العنصرية والطائفية بين الجماهير. وكان في ثكنة قلعة السجن ٢٥٠ شرطيا من شرطة البادية، اجتمع بعضهم على السجناء واخذوا ينزعون عنهم الملابس المدنية، وألبسوهم بدلا عنها ملابس السجن الرسمية. ثم ضربوا في أرجلهم أطواق الحديد المسلسلة وكتبوا ايديهم بسلاسل أخرى. اجتمعت الشرطة كلها، الا نفرا ظل يطلق الرصاص في الهواء، وتوزعت جماعات جماعات حول السجناء والجرحى المكبلين في ايديهم وارجلهم، فانقضت كل جماعة على فريستها، حتى أغمي على معظم السجناء من أثر الضرب والركل والسحق".^(١٤)

يذكر حنا بطاطو: " في العقد الاخير من العهد الملكي، كما في العقد الاول من عهد الجمهورية، كان المجرمون العاديون يعاملون في السجون بإنسانية أكبر من التي يعامل بها المذنبون السياسيون. وكثيرا ما كان سوء المعاملة والتعذيب الجسدي

(١٤) من أعماق السجون في العراق -عبد الجبار وهبي "أبو سعيد" -اعداد وتقديم محمد علي الشبيبي - مؤسسة النبراس -العراق -النجف الاشرف - ٢٠١٣). عن كتاب من أعماق السجون في العراق -محمد راشد (عبد الجبار وهبي) - دار القلم - القاهرة - ١٩٥٥ص، ٣٤، ٦٦، ٦٨، ١٠٧، ١١٠، ١٣٨.

ودمار الصحة ينتظر العراقيين الذين وقفوا في الجانب الخطأ سياسيا. وكان الناس مهياؤن لتوقع حتى اسوأ الامور من حراس السجون العراقية ومن الشرطة السياسية، ولكن، وقع في العام ١٩٥٣ حادثان في السجون صدمتا البلد وكان لهما أصداء قوية جدا. يومها كان هناك حوالي ٣١٢ شيوعيا فقط خلف قضبان السجون، ١٦٤ في سجن بغداد المركزي، ١٢٣ في سجن الكوت، ٢٥ في نقرة السلطان. وكان معظم هؤلاء السجناء يقيمون في السنوات الابكر في نقرة السلطان النائية والمنيعة، ولكن اضرابا عن الطعام استمر لعشرة أيام في تموز ١٩٥١، ومظاهرات صاحبة قام بها أقرباء المساجين، أقنعت السلطات بنقلهم الى أقرب السجون وأكثرها مراعاة للصحة في الفترات الاصب، كأشهر ما بعد "وثبة" ١٩٤٨. وأشهر ما بعد انتفاضة ١٩٥٢.

كان الوقت في شهر حزيران ١٩٥٣، ولأشهر خلت كان هنالك تيار خفي من الاستياء يسود صفوف الشيوعيين في قلعة بغداد. وكان هنالك اتجاه نحو تفاقم مرارة المشاعر ناجم عن طول مدة السجن وقسوة السجن وانعدام الرحمة، وكان أحد السجنائين وهو عبد الجبار أيوب، الذي لم يخف فيما بعد عن مؤلف هذا الكتاب أنه لو ترك الامر له لأفناهم جميعا وبسرعة. وتضخمت الامور لتصل أوجها يوم ١٨ حزيران. في ذلك اليوم، أعلن أيوب أمام السجناء، وبشكل غير متوقع، أنهم سينقلون الى سجن آخر. فقد رفض السجناء التحرك. واستنادا الى رئيس شرطة محافظة بغداد، فانهم أغلقوا أجنحة السجن على أنفسهم وحولوا كل ما وقعت عليه ايديهم، من القوارير الى مواشير المياه وأدوات الطبخ والآجر الذي اقتلعوه من الممرات الى سلاح. وسارعت فرق من الشرطة المتحركة وتلك المحلية الى المكان واتخذت لها مواقع على الاسطح، وفي فناء السجن، وحتى في الشوارع المجاورة، وبدأ رجال الشرطة باستخدام قنابل الغاز المسيل للدموع على أمل اخراج الشيوعيين الى الخارج، ولكن دون جدوى. ثم وجّهت الى الاجنحة سيول مائية قوية بواسطة مضخات اطفاء الحرائق، ولكن الشيوعيين ردّوا فقط بهتافات معادية للحكومة راحت الان تدوي بحدة وباستمرار في أرجاء السجن. وفي النهاية، وبتأثير ضغط الماء وضربات رجال الشرطة والسجنائين،

انهارت البوابة. ولكن وابلا من الآجر والزجاجات الفارغة أبقى المهاجمين في مكانهم، وان لفترة قصيرة. وما أن تلقوا التعزيزات حتى اندفعوا الى الأمام شاقين طريقهم بواسطة الهراوات وأعقاب البنادق. ولكن المقاومة التي واجهوها -على حد تعبير الرواية - كانت شرسة الى درجة اضطررتهم الى فتح النار في النهاية. وقتل سبعة سجناء، من بينهم اسماعيل أحمد، الذي كان عضوا مرشحا للجنة المركزية في أيام فهد، وهادي عبد الرضا، وكان ضابط ارتباط الحزب الشيوعي في العام ١٩٣٨. وجرح ٨١ سجينا آخرين مات أحدهم لاحقا في المستشفى. وعانى ٧٤ شريطيا وسجانا اصابات مختلفة.

ولمّا يمض شهر واحد الا وبدأت الاحداث في سجن آخر هو سجن الكوت، مما كان له أن يؤدي الى حدث لا يقل بشاعة عن الاول. ففي ٥ تموز ١٩٥٣ رفع السجناء الشيوعيون ال ١٢٣ المقيمون هناك عريضة الى السلطات يشتكون فيها من أن الطعام ضئيلا ولا يؤكل، واحتجوا بلهجة حادة ومريرة، على التعذيب الجسدي الذي تعرض له بهاء الدين نوري، سكرتير الحزب، وثلاثة من رفاقه. وفي ٢٧ تموز وصلت الى الكوت قادمة من بغداد محكمة خاصة تحمل تعليمات بالتعامل مع مقدمي العريضة على اساس الاساءة الى الحكومة والتشهير بها. ولكن السجناء رفضوا حضور المحاكمة واغلقوا اجنحتهم على أنفسهم، وتجاهلوا التفقد خلال الايام التالية، ومنعوا تفتيش الحرس. وقذفوا الى الشوارع المجاورة مناشير "ملتبهة" بواسطة أجهزة بدائية تسمى "معاجل". صباح ٢ آب سمع أهل الكوت الحائرين صرخات حادة آتية من ناحية السجن. وعلا، فوق صوت الضجيج العام، صوت نداءات مستمرة تصرخ من مكبر صوت بدائي: " يا أهل الكوت! حرمونا الطعام! ... ارواحنا في خطر! ... بدا الخونة يقتلوننا جميعا! ... " وعلى الرغم من بيان صادر عن مشرف السجن يقول إن الشيوعيين هم الذين يرفضون وجباتهم، فان مظاهرات عنيفة عمت البلدة يوم ٤ آب، مما تطلب استدعاء وحدات الشرطة المتحركة اليها. بعض عشرة أيام سقط اثنان من السجناء صرعى بعد إطلاق مفاجئ للنار. استنادا الى الشرطة، فان انقضاضا

للشيوعيين على سجانين يحملون تمويينا هو الذي تسبب في الحادث. أما استنادا الى الشيوعيين، الذين سرعان ما أعلنوا خسائرهم للملأ، فان رجال الشرطة حاولوا اقتحام السجن ولكنهم فشلوا. ولكنه كان مازال للأسوأ أن يأتي. في ٢ أيلول، نفذ مخزون الطعام الذي كان السجناء قد تلقوه من أقاربهم قبل بدء الحصار. وأدى بهم الانهالك وتوالي حالات الاغماء الى السماح بالتفتيش الذي كانت تريده السلطات. وكان التفتيش، الذي أجري فورا، دقيقا وكاملا. وبدأ في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر واستمر حتى الخامسة الا الربع من صباح اليوم التالي، وصودرت فيه رسائل ومناشير وادوات حادة وتجهيزات من كل الانواع. ومضى كل شيء على ما يرام حتى تلك اللحظة. ولكن، عندما طلب مشرف السجن بعد ذلك تقديم ١٥ شيوعيا يهوديا اليه فورا، انقلب السجناء وعادوا الى موقفهم الجريء. وسارع المشرف الى اعلام رؤسائه ثم كرر طلبه. واذ فهم أن السجناء مصرّون على موقفهم بقوة، طلب من رئيس الشرطة أن يقوم ب "واجبه". ولا يختلف ما حدث هنا عما حدث في بغداد الا في عدد من التفاصيل. فمن ناحية كان السجناء هنا بلا سلاح على الاطلاق. ومن ناحية أخرى، فان رجال الشرطة لم يقصروا أنفسهم هذه المرة على استخدام المسدسات والبنادق، بل انهم وضعوا رشاشا قيد العمل، ثم كان هناك قطع للتيار الكهربائي خلال القتال الحاد قصير الأمد، مما تسبب في غير قليل من التشويش. ويدّعي الشيوعيون أنه قبل دقائق من البدء بأطلاق النار فتحت السلطات كل بوابات التحكم بمياه سدة الكوت بحيث يمتص هدير الماء صوت إطلاق النار. ومهما كان الأمر، فعند توقف إطلاق النار، كان هناك ثمانية قتلى من السجناء و٩٤ جريحا من أصل ١٢١ سجيناً واصيب ١٢ شرطيا و١٦ سجانا ببعض الخدوش. وأدت أنباء حادث الكوت التي جاءت في أعقاب أنباء حادث قلعة بغداد، الى احداث ما يشبه صيحة الاستنكار العامة. (١٥)

(١٥) حنا بطاطو -العراق-الكتاب الثاني-مؤسسة الابحاث العربية-ص ٣٥٧،٣٥٩.

ثم يأتي الحكم الجمهوري بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فيفتتح عهده الأول بمجزرة بشعة اقترفها بعض المنفلتين من عناصر الوحدات العسكرية، التي قامت بالثورة، بقتل العائلة المالكة المسالمة، التي لم ترفع السلاح بوجه الثائرين عليها وخرجت مستسلمة رافعة الأيدي برايات بيضاء لتفاجأ بوابل من الرصاص يحصدها نساء ورجالا وشيوخا، وخرما ومرافقين، ليتكلم هذا المشهد العنيف البالغ القسوة بعمليات سحل وقتل وتمثيل وتقطيع أوصال وتعليق جثث على أعمدة الكهرباء - أعمال قام بها رعاع من عامة الشعب - كما حصل للوصي على العرش الامير عبد الاله بن علي الذي علّق بعمود كهرباء وقطعت أوصاله ومثّل بجثته بعد أن سحلها متظاهرون، ولرئيس الوزراء نوري السعيد، الذي رُبط إلى شاحنة سحب بها على الأرض وهو جثة هامدة، لتلحقها مرحلة جديدة من الصراع السياسي والعنف المرافق له بين السلطة وبضعة أحزاب سياسية أو في ما بين هذه الأحزاب السياسية ذاتها، رافقتها عمليات الاغتيال والقتل والتهجير، وخلال ثلاثة عهود من الحكم الجمهوري كانت دورة القتل والعنف مستمرة بلا توقف، بل زادت عنفا وقسوة كلما تقدم الزمن بها.

أما في العقود الاخيرة من القرن الماضي في العراق وبخاصة عند المجيء الثاني لحزب البعث عام ١٩٦٨، فقد تم إعدام الكثير من الوطنيين اليساريين، وتصفية المعارضين غيلة وبطرق متعددة، وتغييب الحركات السياسية المعارضة، حتى امتدت إلى الشركاء، كما تمت تصفية أعضاء في القيادة القطرية لحزب البعث الحاكم، في مسرحية مصورة من على شاشات التلفاز، حيث استدعت قيادات بارزة تحمل توجهها معارضا لنهج الحاكم، إلى قاعة اجتماعات، ونودي على بعض الأسماء وأخرجوا بطريقة مهينة من القاعة إلى مراكز الاعدام، منهم عدنان الحمداني، محمد عايش، غانم عبد الجليل، ومحبي عبد الحسين مشهدي، وأعدم عبد الخالق السامرائي، ومحمد محبوب، وحامد الورد، وتم اغتيال عبد الكريم الشخيلي في الأعظمية بعد أن نحي من منصبه كوزير للخارجية، والوزير ناصر الحاني الذي أُلقيت جثته في شارع فلسطين، وصفي العديد من القادة السياسيين أو العسكريين بتهم

ملفقة عنوانها الخيانة والتآمر، وأعدمت شخصيات دينية وسياسية، منها العلامة والمفكر والمرجع الديني السيد محمد باقر الصدر صاحب كتابي "اقتصادنا" و"فلسفتنا" الشهيرين ومؤلفات أخرى، وهو أحد مؤسسي حزب الدعوة الاسلامية، كما تم إعدام أخته بنت الهدى، وقريبه السيد محمد صادق الصدر و ولديه مؤمل ومصطفى الذين تم اغتيالهم سوية وهم خارجون من مسجد الكوفة في طريقهم إلى بيتهم، والشيخ عبدالعزيز البدرى الذي عذب وقتل في قصر النهاية عام ١٩٦٩، والاغتيالات التي تمت خارج العراق للمعارضين، منهم على سبيل المثال لا الحصر مهدي الحكيم، وحسن الشيرازي، وعبدالرزاق النايف، وطالب السهيل وغيرهم بالمئات، كل ذنبهم أنهم يحملون أفكارا تخالف أفكار الحاكم، ويعملون من أجل نشرها خطابا أو كتابة والدعوة لإعلانها، فكان يجدها خطرا على سلطته، ولإثارة الرعب في قلوب الناس ونشر الخوف بينهم كانت تمارس عملية قطع أيادي من يمارس المتاجرة بالعملة الأجنبية، أو تجدع إذن الهارب من العسكرية أو تدمغ جبهته، أو يقتل العسكري المتراجع عن ساحة المعركة - في الحرب التي خاضها النظام - بواسطة فرق يطلق عليها فرق الاعدام تقف في الخطوط الخلفية، ويمنع أهل الضحية من إقامة شعائر العزاء لا بل يُطالب ذووه بثمن الرصاصات التي قُتل بها!

لقد كان من أخطر دورات العنف في العراق، هو العنف الديني الذي شأنه شأن استبداد الدين، يتمكن من القلوب فتتعطل العقول، وعندما يسري ينهمك الرجال الدينون وأتباعهم في القتل من (أجل "الله" وبإسمه)، وتتعطل كلماته الداعية للسلام والمحبة، بل يصبح تداولها في دورات العنف ضربا من ضروب الترف، وشاهد الاستبداد الديني الأخير هو ما تقوم به تنظيمات القاعدة و داعش من ابتكار لطرق الموت، كالنحر الجماعي بالسكين، وحرق الأشخاص داخل أقفاص حديدية مغلقة، أو الصعق بالكهرباء، أو صب الماء المغلي عليهم وهم مكبلون، ناهيك عن القتل الجماعي بالرصاص بدم بارد، والجلد وقطع الأيدي أمام أعين الناس وسط الساحات العامة، وفرض قوانين العصور الظلامية، من هدم التراث الحضاري الانساني، وتقديم الولاء

والطاعة لخليفة "الدولة الاسلامية"، وتوقيع وثيقة العهد التي يأمر بها، وفرض نوع الملابس، والعودة لعصر الكتاتيب، واقتصارها على تعليم دروس القرآن، وغلق الجامعات والمدارس، وحجر النساء في البيوت، وعدم السماح لهن بالعمل، وتدمير المقامات والكنائس والنصب التذكارية، وسبي آلاف النساء الايزيديات، والاغتصاب الجماعي لهن، وقتل أزواجهن وأبنائهن الذين رفضوا الدخول في الاسلام أمام أعينهن.

إن هذه الحركات الدينية التكفيرية الظلامية ما هي إلا وباء طاعون يطحن ويسحق آلاف الأرواح، ويدمر المدنية والحضارة ويترك أثارا كبيرة من الخراب والدمار، مثلها كأسراب الجراد المكتسحة للحقول. يقابلها ويمثل نقيضها النوعي عالم آخر متمدن قد ارتاد إنسانه الفضاء وارتقى سطح القمر، وقام بثورته في عالم الاتصالات والمعلومات، وكشف بتقنياته العالم المجهول، وأرسى آخر تطورات العلم في الهندسة والطب وأمثالهما.

إن البعض من جوانب العنف والانتقام تنسحب على الفرد العراقي، بسبب عدم قدرته على توظيفه الفعل الايجابي باتجاه النعمة على السلطات الحاكمة الظالمة ومجابتها - أيًا كانت السلطة - فتراه يوظفها باتجاه آخر خاطئ عندما يعبر عن ما في دواخله من نقمة وعنف، يذهب به إلى تدمير كل ما يتعلق بشأن النفع العام، يهدم المؤسسات و يحرقها، يخرب الطرقات والأرصفة، ينزع السياجات العامة للطرقات السريعة الحامية للإنسان والحيوان من الحوادث، يهشم الإنارة في الشوارع، يخرب الطاقة الكهربائية، يسرقها ويسخرها لمنفعته الشخصية، كما أن الانسان السلبي يوجه النعمة إلى جلد الذات بصورة خاصة في المناسبات الدينية من "تطبير" الرأس وإيلام الجسد بالسلاسل الحديدية وإدعاء الصدور، ويعكس عدم قدرته في الايقاع بالذين تحت سيطرته سواء في حقل العمل أو الأسرة، وكل هذا يمثل التمرد السلبي المشوب بمسحة العنف المتأصلة في نفسه على الحاكم.

يقول صاموئيل هانغتون "إن أعمال التعبئة الاجتماعية السريعة تؤدي إلى زيادة أعمال العنف وعدم الاستقرار بالارتباط بمتغيرات بسيطة تحكم هذه العلاقة، وهي التنمية

الاقتصادية والمؤسسية، فإذا كان معدل التعبئة الاجتماعية أسرع من معدل التنمية الاقتصادية والمؤسسية، فإن ذلك يؤدي إلى العنف السياسي". (١٦)

وهذا ما حصل في العراق: إذ أن عدم جدية البرامج السياسية والاقتصادية للدولة المعاصرة -منذ التأسيس ١٩٢١م- في مواجهة التعبئة الاجتماعية السريعة التي حدثت داخل المجتمع بخاصة بعد سقوط النظام ٢٠٠٣م، أدت إلى زيادة العنف، وتماهيه في مجتمعنا العراقي كثيرا حتى كاد أن يكون سمة مميزة له، بعد أن اقترنت الشخصية العراقية بطابع ذلك العنف واتصفت بصفاته.

إن العنف الغالب في العراق عنف سياسي أكثر مما هو عنف اجتماعي، وحيث أن العنف يعقّد المشاكل السياسية والاجتماعية، فإن الخطر الأكبر إذا ما أفضى العنف السياسي إلى اندلاع حرب أهلية، وأن الظروف الموضوعية التي تحكمت بالعنف لدى الشخصية العراقية هي أكثر رجحانا من الظروف الذاتية.

إن الإرث السيسولوجي الثقافي الديني الاسلامي الكبير والواسع تمتد جذوره من عمق التاريخ الاسلامي، مضافة له "المفاهيم الطقوسية"، التي تشربت وتأصلت في روحية الجمع الانساني العراقي، بعد أن روج لها وثقف بها من خلال "بيوت الله" التي تعتبر بمثابة مراكز اعلامية، والتي كان يصعب ويستحيل على الحاكم حجبتها أو الوقوف في وجهها، لخوفه من ردود فعل عنيفة، تقوم بها المؤسسات الدينية.

إن ما قام به نظام صدام حسين من تغييب للديمقراطية، وخنق للحرية، وإقصاء للأحزاب الوطنية، وبخاصة التقدمية منها، ومنعها من ممارسة نشاطها العلني، وعدم السماح لها بالمساهمة في الشأن السياسي العام ومن ثم محاولة اجتثاثها، وتجهيل الأجيال المتعاقبة ومنعها من التعرف على أفكار ومناهج هذه الأحزاب، ومحاولاته اقتلاعها من الوجود خلال فترة ثلاثة عقود من حكمه، وحصص وسائل الاعلام والتوجيه بالحاكم وحده... كل هذه وغيرها من الاجراءات أو التحولات التي جرت في العراق أو الدول الاقليمية "أبرزها الثورة الايرانية"، والعالمية "أبرزها سقوط المعسكر

(١٦) حسنين توفيق ابراهيم -ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية- مركز دراسات الوحدة العربية.

الاشتراكي"، قد فسحت الطريق أمام الحركات والأحزاب الدينية لتكون الرائدة والسبّاقة في أي عملية تغييرية مستقبلية، بعد أن مكنتها من القدرة على نشر أفكارها والوصول إلى عقول المسلمين عبر "بيوت الله" التي لا يمكن للحاكم إغلاقها، وقد كانت "الحملة الإيمانية" التي أطلقها صدام حسين في العقد الأخير من حكمه عاملاً مساعداً على ترسيخ المعتقدات الدينية الغيبية الطقوسية وانتشارها، نظراً لحجب حرية الرأي وغياب الأحزاب المدنية الوطنية، ووجود تربة خصبة "سمدتها" مئات من سنين الجهل والتخلف، تحتوي في باطنها بذرات كامنة متى ما وجدت الظروف الملائم ظهرت وبانت للوجود، وحصل انقلاب في البنية السيكولوجية العراقية التي كانت تعرف بحب الحياة فباتت غالبيتها متدينة بسبب احباطات الفقر وورثاة الأوضاع، وفي هذا السياق قام صدام حسين ببناء عشرات المساجد في بغداد، وأصدر قراراً رسمياً بمنع الكحول في المطاعم والفنادق ونشر ظاهرة الحجاب في الشوارع، حيث حصل هذا في السنوات العشر الأخيرة التي سبقت سقوطه، وقد تبين ذلك واضحاً بعد سقوط دكتاتوريته عام ٢٠٠٣، على يد الاحتلال الأمريكي.

٢- العنف ضد المكونات الصغيرة

كان العنف أسلوباً ونهجاً وممارسة في التعامل مع الأقليات -المكونات الاجتماعية- عبر التاريخ، وحتى في العصر الحديث. ولم يتوان المجتمع والقوى النافذة فيه والسلطات الحاكمة من استخدامه ضد أية أقلية دينية أو عرقية، وقبل أن نخوض في توصيف هذا الاستخدام في العراق، لابد من التعرف على أبرز الأقليات في بلدنا، من حيث تأريخها ونشأتها وعاداتها وطقوسها.

أ-الازيديون

إن تسمية هذه الأقلية بـ "الإيزيدية" لا علاقة لها بـ "يزيد بن معاوية"، ثاني حكام الدولة الأموية، لكن يأتي لفظ "إيزيدي" من لفظتي (يزد) و(يزدان)، وذلك لاعتقاد الإيزيديين بوجود إله بهذا الاسم، أو يطلقون على أنفسهم هذه التسمية نسبة إلى كلمة ((إزداي)) التي تعني "الشعب الذي يؤمن بالله من دون نبي" على وفق لغتهم، وتُطلق عليهم تسمية "يزيدي" في اللغات التركية والإنكليزية والعربية بالإضافة إلى اللغة الكردية، التي يتحدثون بإحدى لهجاتها. كذلك يطلقون على أنفسهم "الدواسين" اشتقاقاً من اسم "ديوسيس" في المعتقد النسطوري الكنسي القديم في الشرق، والمأخوذ من الأبرشية، حيث يستنبطون الكثير من معتقداتهم من الديانة المسيحية، كما أنهم يوقرون القرآن والانجيل معاً، ويعتبر تراثاً شفهيًا.

هناك من الباحثين من يُرجع أصل الأيزيدية إلى زمن الحضارة السومرية (٢٠٠٠ ق.م) مستدلاً على ذلك بكلمة أ-زي-دا (a-zi-da) السومرية، وتعني الروح الخيرة غير الملوثة، والذين يمشون على الطريق الصحيح، وهذا يطابق قول الأيزيديين "نحن على دين الحق والطريق الصحيح... بيضاء ملابسنا، الجنة مكاننا". ومنهم من يُرجع أصولها إلى الديانة الزرادشتية، نسبة إلى كلمة يزدان أو إزيد والتي تعني عند الزرادشتيين الإله المقدس والمعبود، ففي صلاة الفجر يقولون "بإسم يزدان المقدس الرحيم الجميل، إلهي لعظمتك ولمقامك ولملوكتك يا رب أنت الكريم الرحيم، إله ملك الدنيا، ملك الأرض والسماء، ملك العرش العظيم"، وهناك من يعتقد أنهم ملّة وثنية ثم إهتدت إلى الإسلام بتأثير شيخ يسميه العرب عدي -أو عادي- بن مسافر الأموي، ثم خرجوا عن الإسلام بعد موته ليصبحوا ديناً مستقلاً.

ونتيجة للسرية التي تكتنف معتقداتهم، فإن هناك الكثير من المفاهيم الخاطئة عنهم والتي تعتقد بأن معتقد الإيزيدية له ارتباط بالديانة الزرادشتية المجوسية بل وحتى بعبادة الشمس، إلا أن الدراسات الحديثة أظهرت أنه بالرغم من أن أضرحتهم غالباً ما

تزين برمز الشمس وأن مقابرهم تشير إلى جهة الشرق في اتجاهها، فإن التقديس والإجلال هذين ينبعان من أهمية هذا الكوكب وعلاقته المباشرة بالحياة والضيء، إلا أنهم يستقون بعض شعائرهم الدينية من المسيحية والإسلام أيضاً، ومن ذلك أن يقوم "البير" - وهو مسمى يطلق على إحدى مراتب رجال الدين عندهم- بتعميد الأطفال بمياه مباركة، كما أنه في مراسم الزواج يقسم رغيف خبز إلى نصفين يعطي أحدهما للعروس والآخر للعريس، حيث ترتدي العروس فستاناً أحمر اللون وتزور الكنائس المسيحية، بالإضافة إلى الختان الذي يعتبر من الطقوس الأساسية والمهمة لديهم.

يعرف إله الإيزيديين الأعظم باسم "ئيزدان" وهو يحظى بمكانة عالية عندهم، ولا يمكن عبادته بشكل مباشر، حيث يعتبرونه صاحب قوة كامنة، ومع أنه هو خالق الكون إلا أنه ليس حارسه، كما أن هناك سبعة أرواح أخرى تنبثق عن هذا الإله، أعظمها هو الملك طاووس وهو المنفذ والفاعل للمشيئة المقدسة، وقد كان الطاووس في المسيحية القديمة يرمز إلى الخلود لأن لحمه لا يفسد، ويعتبر الملك طاووس عند الإيزيديين تجسيدا لذات الإله ولا ينفصل عنه، ويصلون له خمس مرات يومياً، كما له عندهم تسمية أخرى هي الشيطان، وهذا ما جعلهم معروفين خطأ لدى الناس بأنهم عبدة الشيطان، وأساس هذه الفكرة أنهم يرفضون الجمع بين حرفي الشين والطاء، ولعدم التمييز بين ما تعنيه التسميتين، فقد اتهموا بعبادة الشيطان، والحقيقة أنهم يتشاءمون من أي لعن، حتى لعن الشيطان أو إبليس، ولأنه لم يسجد لآدم فإنه بذلك - في نظرهم - يعتبر الموحد الأول الذي لم ينس وصية الرب بعدم السجود لغيره، في حين نسيها الملائكة وسجدوا، حيث أنهم يعتقدون أن أمر السجود لآدم كان مجرد اختبار وقد نجح إبليس في هذا الاختبار فهو بذلك أول الموحدين، وقد كافأه الله على ذلك بأن جعله طاووس الملائكة ورئيساً عليهم، فهم بذلك لا يعبدون الشيطان بل يعتقدون بأنه ملك رفض العبودية لغير الله، وهذا الاعتقاد معتبر عند كثير من العارفين كمحيي الدين بن عربي، كما وأن الله جعل هذا الموجود (إبليس) فتنه للإنسان و وسيلة للامتحان.

يعتقد الإيزيديون أن الأرواح تنتقل داخل أشكال جسدية متعاقبة وأن التطهير التدريجي ممكن من خلال التوالد الجديد وتعاقب الأجيال، ويعتبر أسوأ ما يصيب معتنق الإيزيدية أن يُطرد من مجتمعه، حيث أن ذلك يعني أن روحه لا يمكن لها أن تتجدد، لذا فإن اعتناق أي ديانة جديدة يعد أمراً غير وارد في معتقداتهم.^(١٧)

كذلك يعتقدون أن "الشيخ عدي بن مسافر" تلقى وحياً من السماء، بأنهم شعب اختاره الله، ويعتبرون مرقده الكائن في منطقة "شيخان" بمحافظة نينوى مكاناً مقدساً، حيث يوجد معبد "لالش" المقدس الذي يحج إليه الإيزيديون في العراق ومن جميع أنحاء العالم، ولهم كتابان مقدسان، هما كتاب "رش"، أي: الكتاب الأسود، وكتاب "جيلوة" الذي يؤكد على التوحيد لكنه لا يشير إلى النبوة بشيء.

في حين يرى البعض أن الإيزيدية هم ملة إبراهيم الخليل وكتابهم المقدس مصحف "رش" نزل عليه، وأن عيد القربان عندهم يأتي مع عيد الأضحى عند المسلمين، وهو من الأعياد البارزة عند الإيزيديين، حيث أنه ذكرى لمحاولة الخليل ذبح ولده إسماعيل ففداه ربه بذبح عظيم. وهكذا فإن الديانة الإيزيدية كما هو الحال مع ديانات الأقليات الأخرى في المنطقة، كالدروز والعلويين، لا يعتنقها إلا من ولد بها ولا يمكن اعتناقها دون ذلك، فهي بهذا ليست تبشيرية. كما يعتبر ترك الديانة "خطيئة كبيرة"، لهذا يتزوج الإيزيدون فيما بينهم، حيث الزواج من أصحاب الديانات الأخرى عندهم خطيئة، ولذا لم تسجل عليهم أفعال مخلة بالأمن والأخلاق والتعدي على من جاورهم من أقليات أخرى مثل الشبك والتركمان والآثوريين والكرد وغيرهم.

ويقدر عدد الإيزيديين بعشرات الآلاف في العراق، الذي يعتبر مركز الديانة الإيزيدية، ويقطن أغلبهم في "سنجار" و"شيخان" و"الحمداية" غرب الموصل، وفي منطقة الحسكة السورية، كما توجد مجموعات منهم في بعض ولايات تركيا حيث المناطق

(١٧) ناشط من داخل الموصل -Maouris Milton- عام كامل على داعش في الموصل: القسم الثاني.

النائية جنوب شرقها على حدود العراق وسوريا، وتعيش جالية إيزيدية في ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، وعلى الرغم مما واجهوه من تضيق واضطهاد لقرون طويلة، لم يتركوا ديانتهم أبداً، وهذا دليل على احساسهم المتميز بهويتهم وقوة شخصيتهم، حيث بلغ تعدادهم في العالم بحدود مليونين ونصف مليون نسمة.

تعرض الإيزيديون عبر التاريخ إلى اثنتين وسبعين عملية إبادة استهدفتهم لأسباب دينية، كان أشدها ما حصل لهم في عهدي سليمان القانوني وسليم الثاني، إبان الدولة العثمانية، وقد صدرت فتاوى أباحت قتلهم، لعل أخطرها فتوى "أبي سعود العمادي"، مفتي العثمانيين حيث أباح فيها حتى سبي نساءهم وذرائعهم، بعد أن وصفهم بأنهم "أشد كفراً من الكفار الأصليين"، معللاً ذلك ببغضهم للإمام علي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين!، فضلا عن فتاوى عديدة ضدهم من شيوخ دين عثمانيين آخرين أمثال أبي الليث السمرقندي والمسعودي وعبد الله الربتكي وغيرهم.

يطلق الإيزيديون على حملات الإبادة الجماعية لهم اسم "فرمان"، كلمة تركية تعني "القرار"، إشارة إلى الفرمانات التي كان يصدرها السلاطين العثمانيون في الاستانة، حيث الحملات العسكرية التي كان الشعب الإيزيدي في الغالب عاجزا عن مواجهتها، والتي كانت مهددة لأفراده لضخامتها وقلة عددهم وعدّتهم، لذا كانوا يضطرون للاعتصام في أعالي الجبال وفي الكهوف، وأدى هذا بمرور الزمن إلى انتشار الأمية والتخلف بينهم، وأنهكتهم الحروب والكوارث فأثرت على بنيتهم ودورهم الحضاري والثقافي. (١٨)

وعن ذلك كله يقول الباحث العراقي الدكتور سيار الجميل "إن الحروب العثمانية شنت ضد يزيدي جزيرة ابن عمر في منطقة بلاد الجزيرة، حيث تم ذبح الآلاف منهم في جبل سنجار لإجبارهم على التخلي عن دينهم. و في عام ١٨٤٧م حاولت الحكومة

(١٨) لمحات عن اليزيدية - زهير كاظم عبود - بغداد - دار النهضة - ١٩٩٤.

العثمانية إجبارهم على الخدمة العسكرية باعتبارهم طائفة إسلامية ومن الذين يتبعون الملة العثمانية، وبعد حملات ومذابح إبادة لا حصر لها اضطر الكثير منهم اللجوء للكنايس وإعلان مسيحتهم للتخلص من الاضطهاد العثماني "مشيرا إلى أن الهجمات والمذابح تكررت أيضا في عام ١٨٧٢م الدواعي، ووقعت اضطهادات محلية في مناطق مختلطة يقوم بها أمراء عشائر وقبائل بكل همجية ووحشية إلا أن الأيزيديين صمدوا وحافظوا على هويتهم الدينية في المناطق العراقية الخالية من خصومهم".

بالإضافة للحملات العديدة التي قام بها ولاة بغداد العثمانيون تجاه الأيزيديين، هنالك استئصال لهم قامت به الامبراطورية الفارسية وخصوصا حملة نادر شاه عام ١٧٤٣م، كما سبقتها حملتا حسن باشا عام ١٧١٥م وأحمد باشا عام ١٧٣٣م، وتواصلت الحملات للفترة بعدها، فقام سليمان باشا بحملته عام ١٧٥٢م، ثم حملة نادر شاه، والحملة على إمارة شيخان، ثم حملات أمراء الموصل "الجليليين"، ثم حملات الباشاوات العثمانيين، علي باشا عام ١٨٠٢م، وإينجه بيرقدار عام ١٨٣٥م، ورشيد باشا عام ١٨٣٦م، وحافظ باشا عام ١٨٣٧م، ومحمد شريف باشا عام ١٨٤٤م، ومحمد باشا كريدلي أوغلو عام ١٨٤٥م، وطيار باشا عام ١٨٤٦م، وأيوب بك عام ١٨٩١م، والحملات إبان مذابح الارمن عام ١٩١٥م، في القرن العشرين، بما فيها حملة تشريد الأيزيديين من قبل حزب الاتحاد والترقي ومن ثم حملة إبراهيم باشا عام ١٩١٨م، وحملة الجيش العراقي الملكي عام ١٩٣٥م.

يقول الدكتور سيّار الجميل، في دراسته عن هذه الطائفة، ما يأتي: "أسجّل هنا للتاريخ ما كتبه العديد من مؤرخي الموصل في كتبهم التي لم يزل بعضها مخطوطا، عندما كتبوا تفصيلات لتلك الحملات التي كانت تقوم بها السلطات المحلية بأوامر من المركز والعاصمة العثمانية، إضافة إلى صراعات العشائر فيما بينها، وكانت صراعات دموية مريعة لا تحسمها إلا سلطات الادارة في الولايات. ومن أشنع المذابح التي حصلت ضد اليزيدية تلك التي قام بها ميزكور (الأعور) أمير راوندوز في القرن التاسع

عشر، في الموصل وديار بكر، وظهرت تساؤلات مهمة عن سبب وسر استهداف هذه الطائفة، خاصة أنها ليست المرة الأولى التي تستهدف بها هذه الطائفة، فقد سبقتها مذابح مماثلة، ولفترات طويلة". ويستمر الدكتور الجميل معقبا على ذلك بالقول: إن اليزيديين اتهموا دوما بالكفر والمروق على الدين، و"عبادة الشيطان" رغم أنهم ينفون ذلك بشدة، مؤكدين أنهم مؤمنون بالله، ويعتبرون أن النبي إبراهيم هو جدهم الكبير وينفون أيضا تهمة "عبادة الشيطان"، مضيفا أن هذه التهم هي التي عرضتهم لأنواع من الاضطهاد والمذابح خصوصا في حقبة الدولة العثمانية إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. (١٩)

وفي الوقت الحاضر بعد تغلغل الارهاب في مدينة الموصل واتساع نشاطه في محافظة نينوى، حيث تنوعت أساليب عقابه من قتل وتفجير وتهجير للناس الأمنيين المسالمين، تحمّل الإيزيديون قدرا كبيرا من المعاناة ودفَعوا فاتورة ثقيلة جراء الاستهداف المتواصل لهم من الجماعات الارهابية، حيث كانت المذبحة التي تعرضوا لها في ١٤ آب ٢٠٠٧ ثاني أكبر هجوم ارهابي في العالم من حيث عدد القتلى بالمتفجرات استهدف مجمعا سكنيا لهم في سنجار، خلال ما صارت تُعرف بتفجيرات القحطانية.

و في العاشر من حزيران ٢٠١٤، إثر سقوط الموصل على يد داعش الارهابي، تعرضت محافظة نينوى وأهلها على اختلاف قومياتهم وطوائفهم ودياناتهم إلى الكثير من الانتهاكات من قبل هذا التنظيم، من قتل وسبي وكان للطائفة الإيزيدية النصيب الكبير منها، وعلى رأسها سنجار، التي سيطر عليها الارهابيون، فتم قتل ثلاثة آلاف إيزيدي، واختطاف خمسة آلاف آخرين، وتشريد أربعمئة ألف إلى دهوك وأربيل

(١٩) دراسة في موقع ايلاف على حلقتين بعنوان (اليزيدية العراقيون: طيف رافدي حيوي نادر الخصوصيات بتاريخ ٢٩ - ٣٠ / ١ / ٢٠٠٧).

وزاخو، فضلا عن تعرض ألف وخمسمائة امرأة للاغتصاب الجماعي، وبيع ألف منهن في سوق النخاسة كسبايا، وفرار الآلاف إلى جبل سنجار الحصين للنجاة من أيدي هذا التنظيم المتوحش الدموي، وقد صنفت الأمم المتحدة ذلك كله كجرائم حرب وجرائم ضد الانسانية.

ب-الآشوريون

مجازر بدرخان:

هي عدة مجازر قام بها أميرا حكاري وبوهتان الكورديان نور الله وبدرخان استهدفت سكان منطقة حكاري وتياري من الآشوريين. في تموز ١٨٤٣ هاجم الحلف الكردي بقيادة بدر خان الآشوريين في حكاري فدمروا قراهم وقتلوا العديد منهم، وسبوا أعدادا كبيرة منهم تم بيعهم في أسواق النخاسة. أعاد بدر خان الكرة وهاجم القرى الآشورية مرة أخرى سنة ١٨٤٦ وأعمل فيها المجازر التي حازت على اهتمام الصحافة الأوروبية هذه المرة، كما ساهمت في إشهار معاناة المسحيين العثمانيين. فقامت دول أوروبية بالضغط على الباب العالي للتدخل بوقف المجازر، وفعلا أرسل الباب العالي جيشا الى المنطقة سنة ١٨٤٧م اشتبك مع الكورد بمعارك انتهت بإلقاء القبض على كل من نور الله وبدرخان ونفيهما سنة ١٨٥٠م، وأدت هذه المجازر الى مقتل ما لا يقل عن عشرة آلاف آشوري.

مذبحة سميل:

هي مذبحة قامت بها الحكومة العراقية عام ١٩٣٣، سبقتها مذبحة الأرمن في تركيا عام ١٩١٥م، حيث ذبح ما يقارب المليون أرمني، في مجزرة بشرية فريدة ببشاعتها، ضحاياها من الأطفال والنساء والشيوخ، وكان الهيجان الدموي لدى الحاكمين الترك، وبين أوساط مواطنيهم المسلمين، قد بلغ ذروته، فراح ضحيته هذا العدد من الضحايا، وقد دخل البعض من الأرمن في الاسلام للحفاظ على حياتهم وهرب الباقون منهم، ممن بقوا على قيد الحياة، إلى بلدان مجاورة كالعراق وسوريا ولبنان، وشكلوا جاليات استطاعت التعايش مع أقوام هذه البلدان بسلام.

في السابع من آب عام ١٩٣٣م، قامت الحكومة العراقية بعمليات تصفية منظمة بحق أبناء الأقلية الآشورية في شمال العراق في عهد حكومة رشيد عالي الكيلاني الأولى، وقد ازدادت العمليات الانتقامية حدة بين يومي الثامن والحادي عشر من الشهر، وشملت بلدة سميل بالإضافة إلى حوالي ثلاث وستين قرية آشورية في لواء الموصل آنذاك "محافظة دهوك ونينوى حاليا"، وأدت إلى موت أكثر من ثلاثة آلاف آشوري، في الوقت الذي كان الشعب الآشوري قد خرج لتوه من إحدى أسوأ مراحل تاريخه عندما أريد أكثر من نصفهم خلال المجازر التي اقترفت بحقهم من قبل الدولة العثمانية وبعض العشائر الكردية التي تحالفت معها أبان الحرب العالمية الأولى.

كان لهذا الحدث تأثير كبير على الدولة العراقية الناشئة، وقد صور إعلامها هذه المجازر على أنها انتصار عسكري للجيش العراقي، مما أدى إلى زيادة الدعم له، وبعد عودة فرقه تعالت هتافات تشيد بالعراق وأتاتورك - لأن الموصل وقتها ما زالت واقعة تحت التأثير المعنوي لتركيا - وحضر الاستقبال الملك غازي شخصيا فقام بتقليد كبار الضباط وشيوخ العشائر المشاركة بعمليات القتل والنهب أنواط شجاعة، كذلك حصل الأمر في بغداد حيث تم استقبال الفرق العسكرية بحفاوة لدى عودتها، وقام الجيش باستعراض عسكري في شوارع المدينة وتمت ترقية بكر صدقي الذي قاد حملة الإبادة

هذه، وكان أول "الأبطال" المشرفين على هذه الحملة هو رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني، ووزير داخلية حكمت سليمان ابن سليمان فائق رئيس المماليك في العراق، وقيل إنه مملوك شركسي، وقد نشأ في استانبول تحت رعاية أخيه الجنرال محمود شوكت باشا الذي قاد انقلاباً عسكرياً وخلع السلطان عبد الحميد الثاني عن عرش الامبراطورية، وقد مارس القائد العسكري للمنطقة الشمالية بكر صدقي دور الوالي التركي في مواقفه من المسألة الآشورية، وكان يوصف بأنه "على قدر كبير من الغرور والحمق"، بالإضافة إلى تطرفه القومي، وقد كان لوصول وزير الدفاع جلال بابان إلى الموصل، تأثير على بعض القبائل العربية والكردية وقد شجعهم ذلك على مهاجمة قرى الآشوريين في دهوك وزاخو، وكان لتشجيع بابان ومدير الشرطة العام صبيح نجيب وقائد المنطقة الشمالية بكر صدقي أثر مهم وكبير في التأثير المادي والمعنوي على توجهات القتال.

إن هذه الحملة العسكرية الشرسة، التي استخدمت فيها المدفعية والطيران، على قرى يسكنها الآشوريون، حيث مورست أقسى وسائل العنف والتنكيل بهم، وما قام به أفراد الجيش والشرطة والقبائل المشاركة معهم، من هجوم بربري وحشي على هذه القرى، حيث أباحوا سفك دماء أبنائها، ثم نهبهم وسلبهم، وأخذ نساءهم زوجات أو جاريات أو خادمات في البيوت، وبيع أطفالهم عبداً في مناطق مختلفة من العراق، لا يبررها ادعاء الحكومة بأن الآشوريين قد قاموا بتمرد وعصيان مسلحين قادهما بطيريركهم مار شمعون إيشاي، وأنهم يريدون "حكماً ذاتياً"، وما يؤكد ذلك طلب حكمت سليمان من البطيرك، أن يكتب له تعهداً خطياً بالتخلي عن هذا المراد، لأن إقراره به سيؤدي إلى اعتقاله، ومن ثم إثارة السخط لدى الآشوريين، ليعلنوا التمرد والعصيان المسلحين، وهذا ما كانت تصبو إليه حكومة العراق آنذاك. (٢٠)

(٢٠) تاريخ الوزارت - عبد الرزاق الحسني - ج٣ - ١٩٨٢ - ص ١٨٤.

ت-البهائيون

١-البهائيون في إيران

تعد إيران الموطن الأول للبهائيين، حيث بلغت نفوسهم حوالي الاربعمئة ألف، وقد أطلق عليهم "البابية" نسبة لمؤسسها الذي لُقّب نفسه بـ "الباب"... و"البهائية" نسبة لزعيمها الذي لُقّب نفسه "بهاء الله"، وسبقهما مرحلة اعدادية تمثلت في تعاليم الفرقة الشيخية (أحمد بن زين الدين الاحسائي وكاظم بن قاسم الحسيني الرشتي)، ويمكن تقسيم التاريخ البهائي إلى دورتين:

- الدورة الاولى/ دورة التبشير أو البابية (لم تتعد ثماني سنوات).
الدورة الثانية/ دورة الظهور أو البهائية.

الدعوة البابية: (في ليلة ٢٣ أيار ١٨٤٤م أعلن علي محمد بن محمد رضا الشيرازي الملقب "الباب"، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره بأنه جاء مطبقا للنبوءات والوعود السابقة وبأن مهمته هي تمهيد الطريق والتبشير بوشوك مجيء من سمّاه "من يظهره الله" الذي سيكون مربي العالم في هذا الزمن، وحصل ذلك عندما أعلن لضيفه تلك الليلة الملا حسين بشروئي والذي كان من فرقة الشيخية ومن تلاميذ الشيخ أحمد الأحسائي ومن بعده السيد كاظم الرشتي، بأنه الموعود الذي كانا قد بشرا بوشوك قدومه وبأن كل العلامات التي وصفها بها تنطبق عليه وبعد إجابة أسئلة ملا حسين وتقديم البراهين التي طلبها، آمن به الملا حسين واتخذ علي محمد لنفسه لقب "الباب" في خطاب له: "يا من هو أول من آمن بي حقا إنني باب الله وأنت باب الباب..."، وتنبأ في تلك الليلة الأولى بالمصاعب والأذى الذي كان لا بد أن يلحقه نتيجة هذا الادعاء وأعرب عن رضائه وتقبله لذلك، وطلب من الملا حسين أن لا يجهر ما حصل تلك الليلة إلى أن يؤمن به سبعة عشر شخصا آخرون بعد أن يجدوه بنفسهم وبدون مساعدة الملا حسين، حصل ذلك في بيت الباب في مدينة شيراز في بلاد

فارس، ومن بعدها كان ذلك البيت مزارا للبهائيين لحين تهديمه بعد الثورة الاسلامية في إيران).

(لقد انتهت المرحلة بتآمر السلطتين الحاكمة والدينية بالإجماع على قتل حضرة الباب، فقد تم سجنه في إقليم أذربيجان البعيد، إلا أن سجنه أضحى مكانا يقصده الحجاج، ومن هناك جمع حضرة الباب أوراقه وأرسلها مع قلمه وخاتمه إلى بهاء الله في طهران إشارة إلى وشك انتهاء مهمته، نقل بعدها بقليل مع أربعة من أتباعه إلى تبريز حيث أعدت العدة لإعدامه، وفي اليوم التالي لوصوله المدينة، أصدر علماء تبريز فتواهم بإعدامه، وفي اليوم التاسع من تموز ١٨٥٠ أعدمت الدولة القاجارية الباب رميا بالرصاص مع أحد أتباعه (محمد علي الزنوزي) الذي أصر أن يعدم معه، وبعد إعدام الباب ورفيقه نقلت رفاته ورفات محمد علي إلى حافة الخندق خارج المدينة، وفي الليلة التالية خلّص بعض البابيين جسديهما في منتصف الليل وبعد نقلهما وإخفاء الجسدين ما يزيد عن ٦٠ سنة في أماكن سرية عديدة في إيران، جيء بهما بصعوبة وتحت الخطر إلى فلسطين و دفنا يوم ٢١ آذار ١٩٠٩م على سفح جبل الكرمل في مدينة حيفا في مقام يسمى الآن بضريح الباب على مقربة من كهف إيليا النبي).

(وفي عام ١٨٥٢م حاول البهائيون في طهران اغتيال الشاه ناصر الدين، إنتقاما لإعدامه الباب، وعلى إثرها أمر الشاه بحملة تعقّب للبابيين على مستوى الدولة أدت إلى تعذيب المئات منهم وقتلهم مما نتج عن مقتل خمسة آلاف بابي في الفترة ما بين ١٨٤٩-١٨٥٥م، وقد بلغ أتباع السيد علي محمد، مع حلول عام ١٨٤٩م إلى نحو مائة ألف).

(عرف تلاميذ الباب الثمانية عشر الأولون بـ "حروف الحي" وهؤلاء هم الذين أرسلهم الباب إلى جهات مختلفة من إيران والعراق وتركستان لنشر خبر ظهوره وكانت من ضمنهم امرأة باسم "فاطمة زرين تاج البرغاتي القزوينية" وهي أديبة وشاعرة، أما في

إيران فقد شهدت الفترة من عام ١٨٣٧م حتى عام ١٨٤٥م تزايدا كبيرا في أعداد الذين سمو أنفسهم بالبايين، وشملت تلك الأعداد العوام والخواص وباقي طبقات المجتمع، وكان عدد كبير من أتباع الباب الأوائل من رجال الدين. قضى الملا حسين علي السنوات الباقية من عمره في نشر دعوة الباب وتعاليمه في العديد من مدن إيران، رغم المواجهة الشديدة والاضطهاد الذي تعرض له إلى أن لقي مصرعه.

كان حسين علي بن عباس بزرك الذي تسمى بهاء الله، ولد في طهران في ١٢ تشرين ثاني ١٨١٧م، آمن بدعوة الباب سنة ١٨٤٤م وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وفور اطلاعه على بعض كتابات الباب، صار بهاء الله من أشهر أتباع الباب وأنصار دينه وقام بنشر تعاليمه، ولعب بهاء الله دورا رئيسيا في انتشار دعوة الباب وخاصة خلال "مؤتمر بدشت" الذي يعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ البائية لأنه تم من خلالها الاعلان عن استقلال الشريعة البائية عن الاسلام واعتبارها شريعة مستقلة بأحكامها ومبادئها، واتخذ حسين علي لنفسه خلال المؤتمر لقب "بهاء الله"، وبعد وفاة الباب استمر بهاء الله بترويج دعوة الباب وتمتع بمكانة قيادية خاصة بين البايين، وفي سنة ١٨٥٢م قبض على بهاء الله وزج به في سجن سياه جال "النقرة السوداء"، بعد محاولة فاشلة لاغتيال الشاه اتهم بهاء الله بالضلوع فيها رغم عدم توفر الأدلة، ولم تحمه مكانته الاجتماعية من التعرض لشتى أنواع العذاب والاضطهاد بعد ذلك. وهو في سجنه توقع بهاء الله صدور حكم بإعدامه، قرر أن تكون بداية دعوته من ظلمات سجنه، التي قضى بها ما لا يقل عن أربعة أشهر، ويذكر التاريخ البهائي أن بداية نزول الوحي على بهاء الله كان فترة وجوده في ذلك السجن ولو أنه لم يفصح بذلك إلا بعد مرور ١٠ سنوات، بعدها أطلق سراحه دون محاكمة وصودرت ثروته وممتلكاته ونفي على الفور مبعدا من إيران إلى العراق الذي كان تابعا آنذاك للحكومة العثمانية، وبدأ بهاء الله بهذا الابعاد فترة من النفي والسجن والاضطهاد المبرير دامت أربعين عاما، فمن بغداد إلى عزلة في كردستان العراق في العاشر من نيسان ١٨٥٤م تاركا أهل بيته وراءه مرتديا خرقة الزهاد الخشنة مكتفيا بكشكول وغيار واحد، مسميا نفسه

"الدرويش محمد"، ونتيجة ضغوط الحكومة الإيرانية، نفي بهاء الله بعد ذلك مرة أخرى إلى اسطنبول وبعدها إلى مدينة أدرنة، بقي هناك خمس سنوات حبس بعدها في قلعة عكا في فلسطين وكان حبسه ونفيه اللذان داما طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياته لغرض التخلص منه والحد من انتشار دعوته، ويذكر التاريخ البهائي أن بهاء الله أعلن دعوته كصاحب رسالة مستقلة إلى بعض أتباعه في حديقة على ضفاف نهر دجلة سميت فيما بعد "حديقة الرضوان"، وكان ذلك قبل رحيله من بغداد).

(كتب بهاء الله خلال الأربعين سنة التي قضاها في الحبس والنفي العدد الوفير من الكتب والرسائل باللغتين العربية والفارسية ومن كتبه المشهورة "الكتاب الأقدس" الذي دَوّن فيه أحكام الدين البهائي وكتاب "الايقان" وكتاب "الكلمات المكنونة" وغيرها، وخلال إقامته في أدرنة سنة ١٨٦٦م وكذلك بعدها خلال سجنه في قلعة عكا سنة ١٨٦٨م، أرسل بهاء الله عدة رسائل معنونة إلى ملوك وسلاطين ذلك العصر ولبابا الكنيسة الكاثوليكية أعلن لهم فيها عن مقامه ودعاهم فيها إلى نبذ الخلافات والعمل من أجل وحدة العالم ومن أجل السلام، وكان من ضمن هؤلاء السلطان عبد العزيز وناصر الدين شاه ملك إيران، ونابليون الثالث والملكة فكتوريا ملكة بريطانيا وملك النمسا وقيصر روسيا وغيرهم، وقرب نهاية حياته تراخت صرامة الحبس وتطبيق أحكام السلطان عبد العزيز شيئاً فشيئاً، ورغم أنه كان لا يزال سجيناً رسمياً، فلقد سمح لبهاء الله أن يقضي آخر سنوات عمره في بيت واسع في إحدى ضواحي المدينة كان قد اشتراه ابنه عباس أفندي "عبد البهاء"، واستمر بهاء الله في الكتابة في سنواته الأخيرة في هذا البيت الذي يسمى "قصر البهجة" وزاره في هذا البيت المستشرق ي. ج. براون، ووصف براون لقاءه هذا مع بهاء الله في كتابه "مقالة سائح" من مطبوعات كمبردج).

وعند وفاة بهاء الله في سنة ١٨٩٢ دفن في إحدى الغرف في البيت المجاور لقصر البهجة، ويعتبر مرقده أحد الأماكن المقدسة التي يزورها العديد من الناس ويعتبر كذلك قبلة البهائيين في صلاتهم. (٢١)

يستعرض خوان كول في كتابه (دراسات في البهائية - البهائيون في إيران) الديانة البهائية ونشوءها والاضطهاد الذي عانت منه ومحاولات استئصالها في بحث طويل نستقطع منه ما يخدم موضوعنا الذي يتعلق بالعنف الذي واجهته الأقليات في العراق والدول المجاورة.

يقول في تعريفه للدين البهائي "الدين العالمي" النبوي والرافض للعنف والمؤمن بالعصر الألفي السعيد، الذي ولد زعيمه من رحم القلاقل السياسية والاجتماعية في إيران خلال القرن التاسع عشر والذي يعاني أتباعه منذ ذلك الحين من اضطهاد الشاه والحكومة الاسلامية على حد سواء".

"يشكل البهائيون الذين تتراوح أعدادهم ما بين ٣٠٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف في إيران أكبر أقلية غير مسلمة، وقد أعدم رجال الدين الذين يحكمون حالياً قرابة ٢٠٠ من أكثر زعماء البهائية نشاطاً، وفرضوا معوقات شديدة أمام معتنقي هذه الديانة، وقد رد البهائيون على هذا الاضطهاد دون اللجوء إلى العنف، ورغم أن السنوات العشر الأخيرة قد شكلت أطول فترة من الاضطهاد الرسمي المتواصل للبهائيين في إيران

(٢١) ١- كتاب القرن البديع من آثار قلم حضرة ولي أمر الله شوقي ربّاني-من منشورات دار النشر البهائية في البرازيل -١٩٨٦ ترجمة محمد العزاوي.

2- The Bahai Faith, The Emerging Global Religion, William Hatcher & Douglas Martin, Harper & Row publishers, 2nd Edition, 1975.

ترجمة عبد الحسين فكري بعنوان "الدين البهائي بحث ودراسة" دار النشر البهائية -البرازيل -٢٠٠٢ م.

3- Bahauallah The king of Glory , Hassan Balyuzi , Oxford , Ronald 1980.

4- Adib Taheradeh , The Revelation of Bahauallah , Georg Ronald, Oxford –

فإنهم واجهوا منذ بداية دينهم في ستينات القرن التاسع عشر مذابح مدبرة تنطوي على عدائية شديدة".

"انتشرت الديانة البابية سريعاً، وجذبت التجار والحرفيين والعمال في المدن والبلدات الصغيرة في إيران، ويرجح بلوغ عدد أتباعه مائة ألف مع حلول عام ١٨٤٩م. لكن في هذا العام أعلن رسمياً عن أنه من المهترطين، ومن ثم بدأت الاشتباكات بين الشيعة والأحياء البابية الجديدة في بعض المدن، مما استلزم تدخل القوات الحكومية، وفي عام ١٨٥٠م أعدمت الدولة القاجارية الباب وتدخلت لصالح الشيعة في النزاعات المحلية، وفي عام ١٨٥٢م حاول زعماء المذهب البابي في طهران اغتيال الشاه ناصر الدين انتقاماً لإعدامه لنبيهم، لكن المحاولة باءت بالفشل، ورداً على ذلك أمر الشاه بحملة تعقب للبابيين على مستوى الدولة أدت إلى تعذيب المئات منهم وقتلهم، مما نتج عنه مقتل قرابة ٥ آلاف بابي في الفترة ما بين عامي ١٨٤٩ و١٨٥٥".

"لاقت رسالة بهاء الله آنذاك استجابة بين أتباع المذهب البابي في إيران، وتحولوا كلهم تقريباً إلى البهائية، وفي عام ١٨٥٥، لاحظ (جيه دي ريس) الموظف في الخدمة المدنية بالهند دليلاً على وجود عدد ضخم من أتباع البهائية بين طبقة التجار التي تعيش في مدينة قزوين وبين أهل مدن حمدان وأباده ومشهد، كانت القيادة المحلية للطائفة البهائية - التي لم تكن تشمل على رجال دين رسميين - تنتمي غالباً إلى طبقة التجار التي تعيش في المدن، وبالإضافة إلى أتباع المذهب البابي، استقطب بهاء الله أتباعاً من الطبقات الوسطى الشيعية ومن المجتمعات اليهودية والزرادشتية في إيران، وانتشر الدين إلى الهند، أثناء حياة بهاء الله، وسرعان ما امتد بعد موته إلى الولايات المتحدة".

"أصبح اضطهاد البهائيين من جانب الحكومة أو علماء الدين بالتعاون مع العامة الذين ينفذون أحكام الاعدام دون محاكمة سمة عامة لحياة البهائي في إيران، فأتى

حياة بهاء الله وقعت حوادث اضطهاد خطيرة في أصفهان عامي ١٨٧٤م و١٨٨٠م وفي طهران من عام ١٨٨٢م إلى عام ١٨٨٣م وفي مدينة يزد عام ١٨٩١م، وفي عام ١٩٠٣م تعرض البهائيون في مدن رشت ويزد وأصفهان لمذابح كبرى منظمة على يد غوغائيين شيعة، ومع مجيء الدولة البهلوية (١٩٢٦-١٩٧٨م) التي تبنت منهج التحديث والعلمانية، تحسّن قليلا وضع معظم البهائيين ممن لا يزالون يعيشون في كنف المجتمع المدني الشيعي المعادي لهم، في الواقع شن الشاه رضا حملة لقمع البهائيين في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين كجزء من برنامجه الاستبدادي العام، بينما أيّد الشاه محمد رضا لبعض الوقت المذبحة الوحشية المنظمة التي استهدفت البهائيين في جميع أنحاء البلاد عام ١٩٥٥م، والتي كان يقودها رجال الدين الشيعة ومؤيديهم في البرلمان والقوات المسلحة ولم تعترف حكومة إيرانية قط - على عكس حكومة باكستان مثلا - بحق البهائيين في حرية الفكر أو حرية الاعتقاد".

"من ناحية أخرى اختلفت حدة الاضطهاد الذي تعرض له البهائيون في عهد الدولة الاسلامية في إيران عن أي مما واجهوه من قبل، إذ اتخذ أجواء كئيبة اتهم بها رجال الدين الشيعة البهائيين ممن ساعدوا في عقد مراسم الزواج البهائي بنشر الدعاية، حيث كانوا يعتبرون تلك الزيجات غير شرعية، واتهموا من يحضرون المؤتمرات الدينية في نيودلهي أو لندن بالتجسس لصالح القوى الاستعمارية، وعلاوة على ذلك، اعتقلوا مئات الأطباء وموظفي الدولة وأساتذة الجامعات والتجار والطلاب البهائيين، بينما اضطر بعضهم ببساطة إلى الاختفاء من المشهد وعذب آخرون وأعدموا، وصودرت ممتلكات البهائيين بالإضافة إلى أموال صناديق المعاشات وحسابات البنوك المخصصة للأطفال وأصبح إرغامهم على الارتداد عن عقيدتهم أمرا شائعا، ورفضت السلطات منح البهائيين بطاقات تموين ومنعت أبناءهم من دخول المدارس والجامعات الحكومية، وحظرت عليهم ترك البلاد، وعلى الرغم من أن بضع مئات من أحكام الاعدام وأضعافا مضاعفة من أحكام السجن لا ترقى إلى مستوى الإبادة العرقية،

فقد كان الهدف من تلك الاجراءات استئصال الطائفة البهائية على المدى الطويل". (٢٢)

مما تقدم يتضح مدى الظلم الذي لقيه البهائيون في إيران على أيدي الحكام المستبدين على مر عصورهم، وعلى أيدي زعماء الدين ومن العامة، من عنف وقتل وتعذيب ونفي وتشريد وإكراههم على البراءة من دينهم وإجبارهم على ترك معتقدتهم، وما عانوه جراء ذلك، وكل ذنبهم أنهم يحملون أفكارا تختلف عن السائد الديني، كالذين قتلوا وعدّبوا من قبلهم لنفس الأسباب، لتعيد عجلة ثقافة العنف وإقصاء الآخر المختلف دورتها وتسحق الانسان دون رحمة.

إن احتقار الأقليات واضطهادها وممارسة العنف ضدها أمست ثقافة شاعت في المجتمع الإيراني وهذا ما تؤكدته الكاتبة الإيرانية الدكتورة أذر نيفسي في روايتها **(أشياء كنت ساكتة عنها)**. تقول في الصفحة ٤٦٩ وهي تعرّف البهائية "ديانة نشأت في بلاد فارس خلال القرن التاسع عشر، تؤكد على الوحدة الروحية للبشرية جمعاء، تتميز برأيها أنه عبر التاريخ كله كانت ديانات العالم الرئيسية منهمكة في الحوار المستمر، في حين يؤمن البهائيون أن جميع رسل السماء الذين حملوا المعتقدات الدينية مترابطون بعضهم مع بعض، ويؤكدون جوهريا على التطور الجمعي للجنس البشري. كانت هذه الطائفة، وهي فرع من شيعة المسلمين، بؤرة الاضطهاد في الجمهورية الإسلامية، ويرجع السبب الرئيس إلى ادعائهم أن (المهدي المنتظر) يتجسد في شخص بهاء الله. ويعد هذا هرطقة من وجهة نظر الطائفة الشيعية التقليدية". وفي مجرى حديثها عن الطائفة البهائية تقول أيضا "كان الأطفال يدقون أبوابهم منشدين: (الارمني) الكلب الأرمني كناس الجحيم، اليهود لم يكونوا قذرين فحسب بل أنهم شربوا دم الأطفال الابرياء، كان الزرادشتيون عبيد النار وملحدين، بينما لم يكن البهائيون، وهم طائفة اسلامية، انفصالية، مهرطقين فقط بل عملاء وجواسيس للأمريكان والبريطانيين بل من الواجب قتلهم.... مع أنه من حين لآخر

(٢٢) دراسات في البهائية -البهائيون في إيران-خوان كول -ترجمة نفين عبد الرؤوف -ديسمبر ٢٠١٤.

كانت التوترات تبرز إلى السطح، إلى أن تنكشف تماما الطبيعة الدموية لهذا النزاع الخفي بعد مرور عدة عقود لاحقا، بعد الثورة الاسلامية سنة ١٩٧٩م، حين هاجم الاسلاميون، وسجنوا، وقتلوا عددا كثيرا من الأرمن، واليهود، والبهايين، وأرغموا المطاعم على أن تحمل يافطات على نوافذها تعلن (أقلية دينية) إن لم يكن أصحابها مسلمين. لكننا لا نستطيع أن نلزم الجمهورية الاسلامية على كل شيء لأنها بطرائق معينة أبرزت للعيان وضخمت تعصبا أعمى كان موجودا من قبل". (٢٣)

تذكر الكاتبة البريطانية كلارا إيدج في كتابها (الطاهرة -قرة العين - كلارا إيدج - الرافدين للنشر- لبنان- ٢٠٢٠-ص ٢٦٣، ٢٦٢): في اكتوبر ١٨٤٨ اعتلى العرش الشاه ناصر الدين وفي عهده استدعى الطاهرة الى البلاط الملكي لفترة طويلة حاول خلالها ان يثنيها عن دينها وتركها له، لكنها أصرت على ايمانها الراسخ بدينها ودفاعها عنه بشجاعة نادرة، رغم كل المغريات التي قدمها لها بما فيه زواجه منها الذي رفضته، وبعد أن عجز من اقناعها سلمها وبقية البهايين المعتقلين بيد رؤوسيه من متعطي الدماء، ليتم اعدامها شنقا. فقد اعتبرهم رجال الدين أنهم كافرون وخارجين عن ملة المسلمين، وأطلقوا شعارهم (السيف فقط هو الذي يمكنه سحق هذه الثورة الكافرة، اقتلوهم.... أقتلوا البابين). وجاء اليوم الذي غسل الشاه يديه ونفضها من هذه المسألة الشائكة. على الفور أرسل هؤلاء سعاة البريد الى بقية المدن مع أوامر تدعو لقتل البابين المكروهين الأبرياء أينما وجدوا، رجالاً كانوا أم نساءً أم أطفالاً دون مساءلة، وبأبشع الطرق البربرية التي استنبطتها عقولهم المريضة.... "قتل البابين يدخلكم الجنة". فقطعوا السنة ضحاياهم، وثقبوا لحوم أجسادهم وهم أحياء وحشروا بداخلها شموعا موقدة، وقطعوا أجسادهم وعلقوها على أبواب المدن والقرى كعلامة تحذير، ورموا بضحاياهم الأبرياء أحياء داخل النيران.

كانت هذه بعض طرق الإبادة التي حسموا بها أمر أولئك الذين لم يعجبهم معتقدهم

(٢٣) اشياء كنت ساكتة عنها -ذكريات -آذر نفيسي -منشورات الجمل -بيروت ٢٠١٤ -ص ٦٣.

٢-البهائيون في العراق

"ان الدعوة التي مهدت وبشرت بظهور البابية البهائية في العراق، بدأت في كربلاء والنجف، ثم في بغداد والكاظمية، ثم بعدها في أطراف العراق، وسميت بالشيخية نسبة إلى الشيخ أحمد الاحسائي، وكان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما أعلن السيد علي محمد الباب دعوته عام ١٨٤٤م آمن به جمع من علماء الدين وطلاب العلم في العراق، ومن أبرزهم ملا حسين بشروئي، ملا علي البسطامي، قرة العين (الطاهرة)، الشيخ صالح الكريماوي، عبدالهادي الشعرباف، الملا إبراهيم الحمداني، الحاج محمد الكرادي، سعيد الجباوي، عبدالهادي الزهيراوي، سيد عبد الله شبر، الشيخ محمد الشبل، سيد جواد الكربلائي، وغيرهم، واتبعهم من اتبعهم وخالفهم البعض الآخر". (٣٤)

يذكر حنا بطاطو: "أن عبد الهادي الجلبي مؤسس ثروة العائلة كان بهائياً". (٣٥)

أن عبد الهادي بن عبد الحسين بن علي هادي الجلبي لم يكن بهائياً انما كان شيعياً اثنا عشرياً وما يؤكد ذلك سيرته وعمره. ربما كان حنا بطاطو يقصد بذلك والده عبد الحسين أو جده علي هادي عميد عائلة الجلبي، وهما من سكنة الكاظمية في تلك الفترة الزمنية التي انتشرت فيها دعوة السيد علي محمد الباب منتصف القرن التاسع عشر في العراق، فقد بدأت في كربلاء والنجف والكاظمية، وان عمريهما مقارب لتلك الفترة.

"واستمر النزاع الاجتماعي والديني بين المؤيدين والمخالفين مما حدا بعلماء الشيعة إلى اتهام (قرة العين) بأنواع التهم الباطلة فحبستها الحكومة في دار مفتي الديار الاسلامية السيد محمود الألوسي لمدة ستين يوماً لحين ورود الأمر السلطاني بنفيها

(٢٤) محمد مصطفى البغدادي - الرسالة التسع عشرية - مطبعة السعادة ١٣٣٨هـ شهر محرم الحرام - مصر.

(٢٥) حنا بطاطو - العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية - الكتاب الاول - ص (٣١٨).

إلى إيران، ومما يجدر ذكره هنا أن السيد محمود شهاب الدين الألووسي قد شهد بحق الطاهرة (قرة العين) بخط يده الشهادة التالية (فقيل إنها كانت تقول بحلال فروج ورفع التكليف بالكلية، وأنا لم أحس منها بشيء من ذلك، مع أنها حبست في بيتي نحو شهرين، وكم من بحث جرى بيني وبينها رفعت فيها التقية من البين، والذي تحقق عندي أن البابية والقرتية طائفة واحدة... ويزعمون انتهاء حق التكليف بالصلوات الخمس، وأن الوحي غير منقطع، وأخبرني بعض من خالطهم أنهم يوجبون على من نظر أجنبية من غير قصد، للتصدق بمثقال من الذهب، وعلى من نظرها بقصد التصدق بمثقالين منه، وأن منهم من يحي الليل بكاء وتضرعا، وأنهم يخالفون الاثني عشرية في كثير من الفروع، وأنا قد دققت أن الاثني عشرية يكفرونهم ويبرؤون منهم)، وقد قتلت هذه المرأة أيضا بعد أن بغت وخرجت على الشاه في طهران، وتتبع الشاه أصحابها بالقتل، فقتلوا إلا قليلا منهم وفي قرى العراق بقية يسيرة منهم". (٣٦)

بعد إعدام السيد علي محمد الباب في تبريز سنة ١٨٥٠م نفي بهاء الله إلى العراق من إيران بصفته أبرز زعماء البابيين، وذلك بأمر ناصر الدين شاه، بعد إطلاق سراحه من السجن سنة ١٨٥٣م وفي ٨ شباط ١٨٥٣م وصل إلى مدينة بغداد وسكنها، نظرا لأهميتها في الدين البهائي. يقول (الوجيه البهائي) السيد عبد الرزاق العبايجي في تقرير عن (الدين البهائي في العراق منذ نشأته وإلى اليوم): " كان أعداء الدين الخارجيون من أهل الدنيا والدين مسؤولين بصفة خاصة عما عاناه الدين من إهانات ونكسات، ولكنهم اليوم أخذوا إلى الراحة والهدوء النسبي، وقلّت لديهم شهوة الانتقام، التي كانت في يوم من الأيام ظامئة لا ترتوي، وذلك نتيجة لسيول الدماء التي فاضت من قبل، فضلا عن ذلك خيم شعور يشبه الانهك واليأس على بعض الأعداء الألداء الذين كانوا من الفطنة بحيث أدركوا أن جوهر الدين ظل سليما، وأن روحه لم يمت رغم أنه ترنح تحت الضربات الوجيعة التي كالوها له، وكان نتيجة ذلك

(٢٦) نهج السلامة الى مباحث الامامة للعلامة السيد محمود الالوسي مفتي مدينة السلام، مخطوطة بيد المؤلف محفوظة في مكتبة مديرية الاوقاف برقم ٦٧٨٧.

أن هدأت الحال نسبيا لفترة وجيزة، قطعتها مرحلة متأخرة موجة أخرى من الاضطهاد تعاون فيها سلطان تركيا ووزراؤه والمحافل السننية من جهة والشاه ورجال الشيعة في إيران والعراق من جهة أخرى، في محاولة للقضاء على الدين وكل ما يرمز له قضاء تاما، وفي هذا الهدوء النسبي، أخذت بوادر الأزمة الداخلية التي أشرنا إليها تظهر و تتضح".

ويكمل السيد العبايجي في تقريره ليخبرنا عن هجرة بهاء الله إلى كردستان فيقول "وفجأة ودون أن يخطر أحدا حتى من أهل بيته رحل في الثاني عشر من رجب سنة ١٢٧٠هـ الموافق العاشر من نيسان ١٨٥٤م بصحبة خادم مسلم يدعى (أبو القاسم الهمداني)، الذي قتله اللصوص ليبقى حضرة بهاء الله وحيدا فريدا في فيافي كردستان، وهو إقليم عرف أهله الأشداء ذوو البأس بعدائهم التقليدي للإيرانيين لأنهم يعتبرونهم مارقين عن الاسلام، فضلا عن اختلافهم عنهم في المظهر والعرق واللغة، وهام حضرة بهاء الله في الفيافي والقفار، وارتدى خرقة الزهاد المساكين الخشنة، مكتفيا بكشكول وغيار واحد من الملابس، وتسمى باسم (الدرويش محمد) وأوى فترة من الزمن إلى جبل سركلون، ظل حضرة بهاء الله معتكفا على ذلك الجبل حتى سعى إليه شيخ يقيم في السليمانية وله بعض الممتلكات في تلك النواحي، وقد دفع الشيخ إلى هذه الزيارة رؤيا رأى فيها محمدا رسول الله يوجهه إليه، وبعد هذه الزيارة بقليل زاره الشيخ اسماعيل قطب الطريقة الخالدية في السليمانية وبعد إلحاح شديد من جانب الشيخ اسماعيل قبل حضرة بهاء الله أن يقيم في المدينة، في إحدى خلوات تكية مولانا خالد، وقد عمد أساتذة تلك التكية ومريدها إلى التقرب إليه واختبار درجة علمه ومدى معرفته بتلك العلوم المتداولة بينهم، وكان هذا المركز العلمي (تكية مولانا خالد) مشهورا بأوقافه الشاسعة وتكايه العديدة وصلته بصلاح الدين الأيوبي وسلالته، وفيه تخرج كثير من نوابغ أهل السنة، ولقد بلغ من اجلهم له أن اعتبره بعضهم من (رجال الغيب)، و(قطب الكون)".

"من أبرز الكنوز النفيسة التي ألقى بها خضم الهام حضرة بهاء الله المواجه كتاب (الايقان) الذي نزل في السنوات الاخيرة من هذه الفترة في بحر يومين وليلتين لا

أكثر! تحقيقاً لنبوءة حضرة الباب الذي نص على أن الموعود سوف يتم نص البيان الفارسي الذي لم يكتمل، وإجابة عن الأسئلة التي وجهها إلى حضرة بهاء الله الحاج ميرزا سيد محمد وهو خال لحضرة الباب لم يكن قد آمن بعد أثناء زيارته لكربلاء مع أخيه الحاج ميرزا حسن علي. وفي حدود مائتي صفحة يعلن الكتاب اعلاناً لا لبس فيه ولا غموض وجود إله واحد، غيب، منيع، لا يدرك ولا يحد ولا يشار إليه، مصدر كل وحي وإلهام، أبدي أزلي، عليم قدير محيط، وينبه على أن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، وأن الوحي الإلهي مستمر، ويؤكد وحدة الأنبياء وشمول رسالتهم واتفاق تعاليمهم الأساسية وصحة كتبهم المنزلة المقدسة، ويبين طبيعة مقامهم المزدوج.... ويظهر صحة الظهور الباطني وسمو دلالاته ويثني على بطولية أصحابه وانقطاعهم، ويتنبأ بالانتصار العالمي الشامل الذي يحزره الظهور الذي وعد به أهل البهاء، ويعلن إيمانه بطهارة السيدة مريم العذراء وبراءتها، ويمجد أئمة دين حضرة محمد، ويتوجع لاستشهاد الإمام الحسين ويمجد سيادته الروحية، ويكشف عن أسرار مصطلحات الرجعة والبعث وخاتم النبيين ويوم القيامة، ويظهر المراحل الثلاث للظهورات الإلهية ويميز بينها، ويسهب القول بعبارات مشرقة فيذكر مفاخر ومحامد (مدينة الله) التي يجدها، على فترات مقدره، ظهور العناية الربانية، لهداية الجنس البشري، وخلصه وتأمين منفعة ومصالحته، ويمكننا أن ندعي بحق أن هذا الكتاب وحده، دون سواه من سائر الكتب التي أنزلها مؤسس الأمر البهائي، قد وضع الأساس الراسخ العريض للوفاق الدائم بين اتباع الأديان العالمية العظمى، بفضل تحطيمه للحواجز العتيقة العريقة التي فرقها تفريقاً لا يمكن تخطيه وتجاوزه".

"يتلو خزانة النفوس الكنيزة الفذة هذه، تلك المجموعة الرائعة من العبارات الدرية، ونعني به (الكلمات المكنونة)، التي أوحى بها حضرة بهاء الله، نزلت سنة ١٢٧٣ هجري بعضها بالفارسية، وبعضها بالعربية". "وإلى هذين الأثرين البارزين في الأدب الديني العالمي اللذين يحتلان من آثار مؤسس الدورة البهائية، في أصول الدين ومبادئ الأخلاق منزلة على أعظم جانب من الأهمية. أضيف في أثناء الفترة نفسها كتاب

(الوديان السبعة) الذي يعد أعظم آثاره العرفانية. كتبه صاحبه جوابا على أسئلة الشيخ محي الدين قاضي خانقين، يعين له فيه المراحل السبع التي تسلكها روح السالك قبل أن يبلغ غاية وجوده".

وقد تبين من الاقتباسات هذه أن بهاء الله قام بإدارة شؤون الأتباع في جميع الأقطار من بغداد، فأصبح العراق هو مركز الدين الجديد لمدة عشر سنوات، خلالها توسعت الدعوة وانتشرت في أطراف العراق من المدن الأخرى والقصبات، وتوطدت العلاقات بين بهاء الله وبين شخصيات بغداد المعروفين من رجال علم ودين وموظفي دولة كبار وقضاة وغيرهم، وكان بهاء الله محط احترامهم وتقديرهم، وقد ذكر الرحالة الألماني الشهير بترمان في كتابه (رحلات في الشرق) بعد أن قضى مدة خمسة أشهر في بغداد سنة ١٨٥٤م ما يأتي "وعلى ما أكد لي (ملا صالح) أن في بغداد ما يقارب خمسة آلاف بابي بهائي بين مسلمي المدينة ممن فروا من إيران والتجأوا إليها ومن بين أولئك البابيين امرأة شابة اسمها (قرة العين) وهي مقدسة، وقد تميزت بجمالها وعلمها وقد سلم الوالي نجيب باشا هذه المرأة إلى الفرس فالتحق بها مئات من أتباعها، وقتلوا معها، ولهم كتب دينية خاصة، وقد وقف الملا صالح نفسه على بعض تلك الكتب ومما تميز به البابيون الاخلاص لبعضهم البعض وابتعادهم عن الكذب، ويذكر الرحالة بترمان اعداد الطوائف الدينية الاخرى و يقدر سكان بغداد آنذاك بستين الف نسمة". (٢٧)

وفي سنة ١٨٦٣م أعلن بهاء الله دعوته في بغداد على أنه هو الذي بشر به السيد علي محمد الباب وسماه في كتاباته "من يظهره الله" وكان ذلك في حديقة نجيب باشا يوم ٢١/٤/١٨٦٣م عندما كان مستعدا للسفر إلى اسطنبول. وخلال مدة اثني عشر يوما كان الوحي الالهي ينزل عليه أمام عدد من أصحابه وجمع من المودعين، وقد اعتبرت

(٢٧) بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة مطبعة دار المعرفة - بغداد - ١٩٥٤-
ترجمة سعاد هادي العمري -ص (٨٧).

هذه الأيام عيداً يحتفل به البهائيون كل سنة ويسمى عيد الرضوان وهي من العشرين من نيسان حتى الثاني من مايس. (٢٨)

إن أول اعتراف رسمي بالطوائف غير المسلمة في العراق ومنها الطائفة البهائية كان بيان المحاكم رقم ٦ الصادر في ١٩١٧/١٢/٢٨م وقد جاءت المواد (١٣، ١٦، ١٧) منه بما يأتي "فاقتضى النظام احترام العقائد الدينية فيه وأن تكون الأحوال الشخصية لكل طائفة معهودة إلى جماعة ممن ينتسبون إلى تلك الطائفة لينظر فيها طبقاً لأصول الدين الذي يعتقده والقواعد المدنية الخاصة بهم. وينبغي على ذلك أن محاكم البدأة المدنية (محاكم المواد الشخصية) عندما يعرض أمامها نزاع بشأن أية قضية من قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بالطوائف غير الإسلامية، فإن عليها أن تعمل بموجب بيان المحاكم رقم ٦ لسنة ١٩١٧م الصادر في ١٩١٧/١٢/٢٨م فتحيل هذا النزاع إلى أحد علماء الدين للطائفة ويجب على المحكمة أن تحكم بمقتضى هذا الرأي إذ يكون ملزماً لها في الحكم إلا إذا كان مخالفاً للنظام العام". (٢٩)

وجاء الدستور العراقي في سنة ١٩٢٥م ليعزز هذا الاتجاه، حيث اعترف صراحة بحرية الأديان والعقائد الدينية، وخلال هذه الفترة استكمل البهائيون في العراق تأسيس مجالسهم الروحانية (المحفل الروحاني المركزي والمحافل الروحانية المحلية) واتخذوا لهم مقراً رسمياً وعلنياً في محلة الحيدر خانة في بغداد، يقيمون فيه شعائرهم الدينية، وفعالياتهم الاجتماعية، وكذلك يديرون فيه شؤونهم الإدارية، ويسمى هذا المركز عندهم بـ (حظيرة القدس).

وفي سنة ١٩٣٦ أصدرت الحكومة العراقية الدليل الرسمي العراقي الوارد من وزارة الداخلية وقد جاء في فقرة الطوائف العراقية منه ما يلي "يتألف من عرب وأكراد وتركمان وأقوام أخرى بعضها من أقدم الأمم التي عرفها العراق وبعضها نزح إليه في

(٢٨) مطالع الانوار -نبيل زرندي -دار البديع للطباعة والنشر - بيروت لبنان - ٢٠٠٨.
(٢٩) الحكومة العراقية مجموعة القوانين والانظمة مطبعة دنكور الحديثة الجزء الاول صفحة بيان المحاكم رقم ٦.

العصور القربية وفي الأيام الأخيرة، ومن أولئك السريان والكلدان والآشوريون وهذه العناصر والأقوام كلها بالنظر إلى وحدة أصلها تذوب في بوتقة القومية العراقية وفي ظل الوحدة ينعم أصغر العناصر كما ينعم بها أكبرها وأضخمها. وفي العراق مسلمون ومسيحيون ويهود ويزيدون وصابئة وعدد قليل من البهائية والمجوس، والحرية الدينية مكفولة بالدستور العراقي ومضمونة بالعقد الاجتماعي الذي احترمه العراقيون منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم". (٣٠)

وخلال فترة الاربعينيات والخمسينيات، قام المحفل الروحاني المركزي بطبع بعض الكتب البهائية في العراق، ولو أن أغلب الكتب الدينية البهائية كانت تستورد وبصورة رسمية من مصر ولبنان والهند، ومن أمريكا وأوروبا بالنسبة للغات الأجنبية.

وفي سنة ١٩٥٢ تبرع أحد المؤمنين البهائيين بقطعة أرض في بغداد الجديدة لتكون مقبرة للبهائيين في بغداد، واستحصل المحفل الروحاني الموافقات الأصولية من وزارة الصحة وأمانة بغداد لإنشاء المقبرة (٣١)

وفي سنة ١٩٣٤، عندما أجرت الحكومة العراقية أول احصاء للنفوس، بدأ البهائيون بتسجيل عقيدتهم في حقل الدين في سجل (النفوس) أي الأحوال المدنية، وفي شهادة الجنسية العراقية، وكذلك في بيان الولادة لكل مولود بهائي، وتكرر هذا في إحصاء سنة ١٩٤٧م، وفي احصاء ١٩٥٧م قامت الحكومة العراقية بتثبيت العقيدة البهائية في السجل الأساسي، وكذلك في استمارة التعداد نفسه، حيث ذكرت ثلاث أديان وهي الاسلام، المسيحية، الموسوية، وثلاث عقائد دينية هي: الصابئة، اليزيدية، البهائية، فحصل البهائيون على دفاتر النفوس وهويات الأحوال المدنية لسنة ١٩٥٧م وكذلك شهادات الجنسية العراقية تثبت فيها في حقل الدين (بهائي) تماما كما يكتب في حقل الدين (مسلم) للمسلمين و(مسيحي) للمسيحيين، واستمر

(٣٠) عبد الرزاق العبايجي-تقرير عن الدين البهائي في العراق منذ نشأته والى اليوم -٢٠١٦.

(٣١) موافقة وزارة الشؤون الاجتماعية - الطب الاجتماعي رقم ٧٠٢٣ في ١٥/٣/١٩٥٢.

الحال كذلك لحين صدور قرار مديرية الأحوال المدنية المرقم ٣٥٨ في ٢٤/٧/١٩٧٥م
القاضي بتجميد قيود البهائيين في سجلات الأحوال المدنية.



المحفل الروحاني البهائي المركزي في العراق عام - ١٩٢٥

واستمرت العلاقة بين الطائفة البهائية من جهة والحكومات العراقية المتعاقبة من جهة أخرى، على أحسن حال إلى أن وقع انقلاب ١٩٦٣م، حيث جرى في إحدى جلسات مجلس الوزراء برئاسة أحمد حسن البكر، بحث موضوع الدين البهائي والطائفة البهائية في العراق، ومنذ ذلك الوقت بدأت المضايقات والتعقيدات التي تتابعت على البهائيين، وفي ٢٦/٤/١٩٦٥م وضعت وزارة الداخلية يدها على مبنى

حظيرة القدس المركزية مع جميع محتوياتها من أثاث وكتب وأدوات ومكائن طباعة واستنساخ ومواد قرطاسيه وسجاد وستائر وغيرها. (٣٢)

وقد قام البهائيون بعدة محاولات عام ١٩٦٩م كان آخرها عريضة إلى رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر، مقدمة وموقعة من مجموعة بهائيين يمثلون بهائيي العراق وذلك في ٣ / ٨ / ١٩٦٩م، يطلبون فيها إعادة فتح أماكن عبادتهم التي اغلقت في العهد العارفي السابق، وطلبوا أيضا بإنصافهم وإعادة حقوقهم في تشكيل هيئاتهم الروحانية وإقامة شعائرهم وعباداتهم في حظائر القدس. وفي الوقت الذي كان البهائيون يتوقعون بعد مقابلة القصر الجمهوري أن يصدر عن رئيس البلاد ما ينصفهم ويعيد لهم حقوقهم، صدر قرار مجلس قيادة الثورة بقانون رقم ١٠٥ لسنة ١٩٧٠م (قانون تحريم النشاط البهائي) في العدد ١٨٨٠ من الوقائع العراقية بتاريخ ١٨/٥/١٩٧٠م، ولما كانت شريعة الديانة البهائية تحتم على معتنقيها إطاعة القوانين والأنظمة في الدولة التي يتواجدون فيها، وتأمرهم بالتعامل بالصدق والاخلاص مع الجهات الرسمية، فقد قام المحفل الروحاني المركزي للبهائيين في العراق بحل نفسه وحل كافة المحافل الروحانية المنتشرة في المدن والنواحي والقرى العراقية، وذلك تطبيقا للقانون المذكور.

وفي منتصف شهر كانون الاول عام ١٩٧٣م بدأت مديرية الأمن العامة بتوقيف البهائيين بناء على أمر من رئيس الجمهورية نفسه، وشمل التوقيف الرجال والنساء والشباب والشابات من المدارس أيضا، واستمر التحقيق مدة أربعة اشهر، وبعدها صدر الحكم من محكمة الثورة في ٢٣/٤/١٩٧٤م بأحكام المؤبد والخمس عشرة سنة والعشر سنوات وقضى المحكومون رجالا ونساء ست سنوات في السجن وأطلق سراحهم بموجب العفو العام الذي صدر في ١٦/٨/١٩٧٩م، وخلال فترة السجن التي دامت ست سنوات، كانت دوائر الأمن العامة، تحاول أن تضغط على السجناء

(٣٢) الدعوة البهائية في العراق للباحث يوسف حسن محمد صفحة ١١٩ وزارة الداخلية محاضر جرد الموجودات لحظيرة القدس البهائية في بغداد.

البهائيين من أجل تغيير عقيدتهم الدينية، ويطلبون منهم بكل صراحة و وضوح تقديم تعهدات بنبذ الدين البهائي حتى يطلق سراحهم، وازداد التركيز والضغط عليهم، شدة واستمرارا، بهدف إنجاز هذا المطلب الذي يريده رئيس الجمهورية، وتكررت زيارات المسؤولين لهم لهذا الغرض، بيد أن السجناء البهائيين صمدوا بعدم تقديم مثل هذه البراءة، ما دعا إلى استثنائهم من قرار العفو عن السجناء السياسيين والدينيين، إذ ذكر في القرار "عدا البهائيين"، ومن خلال الحديث مع الوزيرين جاسم محمد الركابي وبابكر شكري ومع عضو مجلس قيادة الثورة محي عبدالحسين، تبين أن البكر هو الذي يصر على انتزاع البراءة من البهائيين، وبصريح العبارة كرر محي عبدالحسين عدة مرات بأن الحكومة لا تريد هذا الاسم في العراق أي (الدين البهائي). (٣٣)

أما بعد عام ٢٠٠٣م، عقب تغيير النظام، فقد تصرف البهائيون في العراق، كما تصرفت المؤسسات الدينية والإعلامية ودور النشر والمنظمات المدنية والاجتماعية والمهنية، وعادت إلى ممارسة نشاطاتها التي كانت محظورة بصورة أو بأخرى، بموجب قرارات مجلس قيادة الثورة المنحل، فقاموا بجهود هادئة ودؤوبة مع كل من وزارتي حقوق الانسان والداخلية وديوان الوقف المسيحي والأديان الأخرى والجمعية الوطنية والحكومات الأولى برئاسة إباد علاوي والثانية برئاسة إبراهيم الجعفري والثالثة برئاسة نوري المالكي، بهدف إزالة ما حل عليهم من ظلم في زمن الحكومات السابقة ابتداء من حكومة أحمد حسن البكر سنة ١٩٦٣م حتى آخر حكومة برئاسة صدام حسين سنة ٢٠٠٣م، وهو الظلم الذي تمثل في:

١- إصدار قرار وزارة الداخلية المرقم ٢٦٦٨ والمؤرخ ١١/٥/١٩٦٥م في وضع اليد على مباني "حظائر القدس" في بغداد وديالى ومصادرة محتوياتهما، ومداهمة بعض بيوت البهائيين ومصادرة كتبهم، وإحالة بعضهم إلى المحاكم العرفية العسكرية، وحبسهم بحجة مخالفة قانون الجمعيات.

(٣٣) عبد الرزاق العبايجي تقرير عن الدين البهائي في العراق منذ نشأته والى اليوم -٢٠١٦.

٢- إصدار قانون رقم ١٠٥ لسنة ١٩٧٠م بتحريم النشاط البهائي، وهذا القانون، الذي يخالف الدستور المؤقت المعمول به آنذاك والعهود والمواثيق الدولية التي صادق عليها العراق والشريعة الاسلامية السمحاء "لا اكراه في الدين"، نص على:

المادة الأولى: يحظر على كل شخص تحبيذ أو ترويج البهائية أو الانتساب لأي محفل أو جهة تعمل على تلقين أو نشر البهائية أو الدعوة اليها بأي شكل من الأشكال.

المادة الثانية: لا يجوز بيع أو توزيع أو طبع أو حيازة الكتب أو النشرات البهائية، وتمنع مثل هذه الكتب أو النشرات الصادرة من الخارج من الدخول إلى العراق أو التداول فيها.

المادة الثالثة: تغلق جميع المحافل البهائية ومراكزها الموجودة في العراق ويوقف نشاطها ويمنع كل شخص طبيعي أو حكومي وأية منظمة وهيئة أو جهة من القيام بأي نشاط كانت تمارسه المحافل والمراكز المذكورة، ولوزير الداخلية إصدار القرارات اللازمة لتنفيذ ذلك.

المادة الرابعة: تؤول أموال وموجودات المحافل البهائية ومراكزها بعد تصفيتها إلى الجهة أو الجهات التي يصدر بتعيينها قرار من رئيس الجمهورية بناء على اقتراح من وزير الداخلية، ويسري هذا الحكم على الأموال والموجودات والعقارات المسجلة بأسماء المحافل والمراكز البهائية أو بأسماء أخرى يثبت أنها مخصصة للأغراض البهائية.

المادة الخامسة: يحتفظ في دوائر الأمن بجميع المستندات والأوراق والسجلات والكتب والموجودات والأموال الأخرى التي لا يجوز تداولها، العائدة إلى المحافل البهائية ومراكزها.

المادة السادسة: يعاقب المخالف لأحكام هذا القانون بالحبس مدة لا تقل عن عشر سنوات وبالغرامة أو بإحدى هاتين العقوبتين.

وقد تم تعديل هذا القانون بعد خروج السجناء من السجن سنة ١٩٧٩م، وأصبحت العقوبة بموجب التعديل المؤبد والاعدام في حالة العود.

يؤكد ما ذكر سلفاً، أن الممارسة القسرية في التعامل مع الآخر المختلف وإقصائه ومن ثم إلغائه، وقد جاءت هنا من أعلى سلطة وهو رئيس الجمهورية، ما هي إلا دليل على ممارسة ثقافة العنف الفكري والجسدي المترسخة والكامنة في العقل العراقي حيث قتل وأعدم العديد من قادة وأتباع الديانة البهائية، وطوردوا واعتقلوا، ومنعوا من ممارسة طقوسهم الدينية بسبب عدم تنازلهم عن معتقداتهم، إذ أن صدور تشريع حظر البهائية زمن ولاية البعثيين، في عهد الرئيس أحمد حسن البكر، هو في الحقيقة محاولة قسرية الغائية من الخريطة العراقية، كديانة لها خصوصيتها ومنهجيتها الواضحتان، ومصادرة الحق الوطني لأتباعها في العيش ضمن هذا الوطن، ليمارسوا دورهم الطبيعي فيه كمواطنين عراقيين يتمتعون بالحرية اللازمة للتعبير عن أفكارهم ومعتقداتهم.

أي أن هذا التشريع كان يهدف إلى محو جماعي من الذاكرة، ويصب في خانة العنف السياسي، حيث حظر على البهائيين اعلان هويتهم الدينية أو الحديث عن عقيدتهم، وكان يزج بهم بين فترة وأخرى في السجون و المعتقلات، فيعانون جراء ذلك من التعسف والاضطهاد والقمع والتنكيل، و لتشديد سياسة الحظر هذه صدر قرار من مديرية الأحوال المدنية برقم ٣٤٨ في ١٩٧٥/٧/٢٤م يقضي بتجميد قيود البهائيين في سجلات الأحوال المدنية، وقد ترتبت عنه آثار معنوية ومادية، هددت وجودهم منها: عدم تسجيل عقود الزواج للبهائيين في سجل الأحوال المدنية/ عدم تزويدهم بهوية الأحوال المدنية، أو صورة قيد من السجل/ عدم تسجيل مواليدهم الجدد في سجل آبائهم، ومن ثم عدم حصولهم على هوية الأحوال المدنية، مما يترتب عليه

حرمانهم من الحصول على جواز سفر أو وظيفة حكومية، ومن الانتساب إلى المدارس والجامعات، وعدم قدرتهم على التصرف بالعقارات، كبيع وشراء المساكن والأماكن وغيرها، وكل الأمور التي تتطلب إبراز هوية الأحوال المدنية أو شهادة الجنسية العراقية.

لقد زج بالبهائيين في السجون بسبب التفسير الكيفي القسري لعبارة "النشاط البهائي"، وهذا ما كان البهائيون يخشونه حيث سجن شبان وشابات بسبب تلبيتهم حفلة عيد ميلاد إحدى البهائيات بعد ورود اسمائهم ضمن تقرير أمني فسر الحفلة بأنها "تجمع ونشاط".

لم يكن إصدار القانون وتطبيقه، من طرف السلطة الحاكمة، بغرض تحديد العقيدة البهائية وردعها ومنعها من الانتشار فحسب، بل كان الغرض الأبعد هو القضاء على الدعوة البهائية وإزالتها ومسحها من ذاكرة الأجيال الجديدة، بعد مصادرة مؤسساتها وموجوداتها ومقتنياتها من كتب وغيرها وتحريم نشاطاتها، بحيث ينشأ جيل جديد، قد أزيلت عقيدته من ذاكرته، مهياً لاعتناق عقيدة السلطويين، وهذا ما صرح به عزت الدوري وزير الداخلية في نظام صدام حسين، عام ١٩٧٩م، عند مقابلته لفتيات بهائيات قبيل إطلاق سراحهن، مقابل تعهدهن بعدم القيام بنشاط بهائي في المستقبل، حيث قال لهن بصوت عال "سوف ينسى أبنائكم ما كنتم تعتقدون به"، وهذه اللهجة ذات النبرة التحذيرية، التي تعكس بتسلط واحتقار مسح الآخر المختلف ومحاولة تغييبه وإغائه، هي لهجة لا تطلقها سوى النفوس المريضة المليئة بالكره و الحقد و العنف و بكل ما هو سلبي كامن في عقول الحاكمين المتسلطين.



سجناء بهائيون/ السجن المركزي/ عام ١٩٧٣/ أحكام (مؤبد، ١٥ سنة، ١٠ سنوات)



سجينات بهائيات/ سجن النساء في أبو غريب المركزي/ عام ١٩٧٣/ أحكام (مؤبد
و١٥ أو ١٠ سنوات)

ث-المندائيون

"لقد ذهب هنري لا يرد عالم الآثار البريطاني الذي أسهم في الكشف عن الآثار الآشورية إلى أن الدين الآشوري في أيامه المبكرة الأولى وقبل أن تمسه التأثيرات الفارسية وغيرها (هو امتداد للدين البابلي) كان صابئي المنحى. ولكننا نرى إن الصابئة المندائية تمتد إلى ما قبل ذلك وبالتحديد إلى العهد السومري. فكلتا الديانتين تعظمان الماء وتضعانه في منزلة عظيمة. فقد كان في الزمن السومري إله اسمه (آيا) إله المياه وهو يجلس في مقصورة من الماء الجاري.

إن طغيان الماء في الشعائر والطقوس الصابئة المندائية يمثل تمسكا قويا بأصل ديني بعيد يعود إلى العهود السومرية. فيعتقد الصابئة المندائيون إن الإنسان عندما يموت تنقل نفسه إلى العالم الآخر. هناك تحاسب النفس وتوزن أعمالها فإذا كانت الحسنات كثيرة تصعد إلى عالم الأنوار أما إذا كانت السيئات أكثر فإنها تذهب إلى (المطراثي) وهي رحلة تمر بها النفس بسبع محطات (عوامل الحساب).

الحالة نفسها نجدها عند السومريين فهم يرون إن الإنسان عندما يموت تذهب روحه إلى العالم الآخر وتجتاز هذه الروح البوابات السبع ثم تذهب إلى مستقرها في العالم الأسفل. كما إن هناك تقليدا دينيا مندائيا يتضمن إطلاق اسم ديني على الصابئي بالإضافة إلى اسمه المعلن، ويستعمل هذا الاسم في طقس التعميد والمناسبات كالزواج والوفاة وغيرهما. وهو يسمى ب(الملاوثة) وهو اسم ديني حيث ينسب الفرد إلى امه.

إن هذا التقليد هو تقليد سومري حيث كان يطلق أسماء على رجال الدين. حيث يعتقد بأن ممارسة السحر الأسود أو الضار يسري على الاسم الديني وليس على الاسم المعلن، وكان الكهنة يتحاشون الكشف عن أسمائهم الدينية لكيلا يتعرضوا إلى أخطار السحرة والأعداء. كما وتأتي جذور الصلة بين الديانتين الصابئة المندائية والديانة البابلية أن كلتا الديانتين تقدسان الشمس باعتبارها قوة للخير. كذلك فإن الديانتين

تنزلان الماء منزلة عظيمة فكان سكان ما بين النهرين يرون أن الماء يدخل في كل جانب من جوانب حياتهم. وقد ظل سكان بلاد الرافدين يقدسون الماء ويضعونه بمنزلة عظيمة فاعتبروه أداة للتطهير. لقد كان من تقاليد الطقوس اليومية للمعبد البابلي أن يجري غسل تماثيل الآلهة، ورش المعبد بالماء الطاهر.

أما بالنسبة للصابئة المندائيين فالماء هو مصدر الحياة ذاتها. ففي الوضوء أو ما يسمونه ب(الرشامة) التي تجري عند النهر الجاري يقول المندائيون (أبرخ يرد نه آدميه هي مشبه ماري كشطة سنخون). وتعني (تبارك الماء العظيم ماء الحياة سبحان إلهي احفظ عهده) كذلك يقولون في الوضوء (مللين ابلالي اد زيوه وازهي طن بصري دنهور) وتعني (لينطق بكلام النور وليكن ضميري نقياً مؤمناً بالصلاح). وكذلك يظهر المندي سنويا وفق طقوس خاصة بالماء. ويلتقي الصابئة المندائيون بالبابليين بلباس التعميد الأبيض (الرسته) لدى المندائيين باللباس الأبيض الذي كان يرتديه الكهنة في بابل. ويحرم المندائيون حلق اللحية وشعر الرأس كذلك البابليون رغم إن عامة الصابئة لا يتقيدون بهذا التحريم اليوم، إلا إن رجال الدين منهم ملزمون تماما بهذا التحريم فهم يتركون لحاهم وشعر رؤوسهم. أما في حالة الوفاة فيعتقد الصابئة إن نفس الميت لا تصعد إلى السماء إلا بعد مرور ثلاثة أيام على الوفاة وخلال هذه الأيام الثلاثة تظل النفس تحوم ما بين القبر وبيت الميت وبعد الأيام الثلاثة تأخذ سبيلها إلى السماء. نفس الصورة نجدها لدى البابليين. فروح الميت عندهم تبقى تحوم ثلاثة أيام بعد إيداع جثمانه القبر.^(٣٤)

يرى الكاتب رشيد الخيون أن المندائية هي أحد منابع الإسلام الرئيسية، وما أحناف الجزيرة إلا مندائيين فيقول: "والمجوس لم يُذكروا إلا في سورة الحج (آية ١٧). لهذا، فالإحتمال الوارد أن سلمان الفارسي وإسمه الحقيقي (روزبه) كان صابئاً مندائياً، فللدين المذكور وجود ببلاد فارس والعراق عندما كانا تحت حكم واحد يروى عن عائشة انها قالت: كان للرسول مجلس مع سلمان الفارسي "ينفرد به في الليل حتى

(٣٤) كورت رودولف-أصول وفصول - الجزء السابع - الصابئة المندائيون.

كاد يغلبنا على رسول الله" ، فربما كانت هذه العلاقة سبباً في ورود شيء من اعتقادات المندائيين في الأسلام ، فهم اول الاحناف، وأن أبراهيم الخليل أحد الكبار في الدين المندائي، ولعل تسمية الإسلام لها جذر مندائي، فقد ورد في أحد أدعيتهم أو صلاتهم "يا شلماني وأمهيمني... يا امهيمني وشلماني... لا تيفخون من مملا لخون" ومعناها " ايها المسلمون المؤمنون، ايها المؤمنون المسلمون، لا تتراجعوا عن عهدكم الذي عاهدتم الله عليه"، و"طوبى لعباد الحق المسلمين... طوبى للمسلمين المبتعدين عن السوء". وعبارات اخرى تتضمن كلمة المسلم والمسلمين، وبالتالي لا أجد سبباً يمنع من إشادة الآية: "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين" آل عمران (٦٧).

هاجر المندائيون في القرن الأول قبل الميلاد من موطنهم جنوب الشام الى جنوب وادي الرافدين وخالطوا السكان الأصليين الوثنيين الأنباط (السرمان قبل المسيحية) ونظرا لطبيعة دينهم الذي يتطلب التعميد "المشباته" بالماء الجاري الحي "هبة" سكن المندائيون في العراق قرب الأنهار وخاصة نهري دجلة والفرات وشط العرب والقارون "الكارون" في منطقة خوزستان في إيران، وأصبح المندائيون جزءاً من النسيج الإجتماعي العراقي الجنوبي الذي تعايش مع المسلمين لمئات السنين، ومما يذكر في التعايش و التداخل بين المسلمين و الصابئة المندائية تلك الصداقة الحميمة بين ابن نقيب الطالبين الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى الرضي (ت ٤٠٦ هجري) وبين الصابئي أبي إسحق إبراهيم بن هلال وما تبادلاه من رسائل وجدانية، جمعت في كتاب " رسائل الصابئ والشريف الرضي"، وقصيدة الرئاء الرائعة في ثمانين بيتاً للشريف الرضي إثر وفاة صديقه الحميم إبراهيم بن هلال (ت ٣٨٤ هجري)، ومطلعها :

أعلمت من حملوا على الأعواد رأيت كيف خبا ضياء النادي

ومنها أيضاً:

ما مات من جعل الزمان لسانه يتلو مناقب عوِّداً وبوادي

فاذهب كما ذهب الربيع وإثره باقٍ بكل خمائلٍ ونجاد

وتكلموا العربية بلهجة أهل الجنوب ونسوا لغتهم الآرامية الأصلية عدا بضعة من رجال دينهم يقرأون كتبهم المقدسة ويرددون ترانيمهم الصلواتية باللهجة الآرامية الشرقية. النادي " (٣٥)

كما ذكرنا ينتشر المندائيون في مناطق جنوب إيران وجنوب العراق وكان عددهم يربو على المائتي نسمة في العراق، إلا أن الممارسات الاجتماعية الخاطئة ضد أتباع هذه الديانة من قبل المجتمع جعلت الكثير منهم يهاجرون، وإن الآلاف منهم هجروا من العراق منذ عام ٢٠٠٣م. وكان معظمهم قد انتمى إلى الحركات اليسارية، بل الحزب الشيوعي العراقي تحديداً، لأنهم وجدوا فيه مدافعا عن الأقليات العرقية والدينية، كما أنه لا يفرق بين من ينتمي إليه وينتظم في صفوفه من ناحية العرق أو الديانة أو المذهب، وعندما اضطهد الحزب في الستينيات من القرن الماضي، أصابهم الكثير من الاضطهاد والعنف والقتل والتشريد.

ويعتقد المندائيون أنهم أتباع أقدم ديانة سماوية توحيدية غير تبشيرية على وجه الأرض، وأن أهم كتبهم الكنز العظيم (كنزا ربا) الذي يحتوي على صحف آدم وشيت وادريس ونوح. وقد اتخذوا من جنوب العراق وإيران على ضفاف الأنهار موطناً لهم لارتباط طقوسهم الدينية بالماء الجاري (اليردنا)، ولكونهم أقلية، لا تؤمن بالقتل والعنف بل تؤمن بالسلام، تعرضوا على مر التاريخ للكثير من الاضطهاد الديني والسياسي والاجتماعي والإيذاء النفسي والاعتداء الجسدي، لا لذنوب اقترفوه سوى تمسكهم بديانتهم وعشقهم لتراب أرض آبائهم وأجدادهم. فكانت نتيجة ذلك تهجير الآلاف منهم وإجبار آلاف أخرى على تغيير ديانتهم، إلى الديانة الإسلامية، وكان

(٣٥) د. موفق كمال قنبر وفي - الوجود والدين - ص ١١٥.

تكفيرها ذريعة لإبادتهم، ونتيجة لطغيان الثقافة العربية الإسلامية، التي اضطهدتهم طيلة قرون، اندرست لغتهم المندائية التي لا يتحدث بها الآن إلا عدد قليل منهم. هذه اللغة التي تعتبر لهجة من اللهجات الآرامية الشرقية، والتي كانت لغة التخاطب فيما بينهم ولغة كتبهم الدينية، لم يفهمها محيطهم العربي الإسلامي. لهذا، ونظرا لكون ديانتهم غير تبشيرية ولعدم تمكنهم من التحدث بلغتهم ومن ممارسة طقوسهم بحرية وبشكل علني، فقد اكتنفهم الغموض، وساهم الجهل المطبق لسكان المنطقة من جيرانهم في ذلك، حيث اعتبر البعض من فقهاء المسلمين ورؤساء العشائر المتخلفين أنهم من عبدة الكواكب والنجوم.

يذكر د. رشيد الخيون، في كتابه (الأديان والمذاهب بالعراق)، أن الجهل في تاريخ هذا الدين بسبب سرية جعل الطبري ينقل عن الصنعاني، سنة ٢١١هـ، عن سفيان الثوري قوله (الصابئون قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين). كما برر البعض نجاستهم لأنهم مشركون حسب الآية القرآنية "انما المشركون نجس" في سورة التوبة، رغم أن التعميد في الماء الجاري يعتبر من أهم طقوسهم الدينية، فأفتوا بأخذ الجزية منهم أسوة بالمشركين بالرغم من حكم القرآن فيهم، والذي خصهم بثلاث سور "البقرة والحج والمائدة" وساوهم في الآية ٦٢ من سورة البقرة بـ "الذين آمنوا واليهود والنصارى". أما القسم الآخر من الفقهاء فقد أفتوا بقتلهم مما جعلهم هدفا سهلا للمتطرفين الإسلاميين والعصابات والسارقين. ومن تلك الفتاوى للقاضي والفقير الشافعي أبي سعيد الحسن بن يزيد الاصطخري سنة ٣٢٨هـ أيام الخليفة العباسي القاهر بالله محمد بن الخليفة المعتضد بن الموفق طلحة بن الخليفة المتوكل على الله، وهو الخليفة التاسع عشر في ترتيب خلفاء الدولة العباسية، حيث عزم على قتلهم حتى كف عنهم بعد دفع مال كبير له، ففضلوا إثر ذلك الانزواء كوسيلة للحفاظ على دينهم وتراثهم من بطش جيرانهم.

ويشير كتاب "حران كويثا"، وهو أحد الكتب الدينية التي تتحدث عن تأريخ الصابئة المندائيين، إلى تعرضهم في القرن الميلادي الأول، وفي بداية الدعوة المسيحية،

لحملة إبادة جماعية في مدينة أورشليم، سنة ٧٠م، وكان يسيطر عليها الحكم الروماني، حيث أريد الآلاف منهم، بينهم ٣٦٠ رجل دين، وكانت هذه الإبادة العامل الأساسي في هجرتهم الأولى من أورشليم والعودة إلى موطنهم الأصلي في وادي الرافدين ووقف التبشير بالدين المندائي مما أثر على أعدادهم لاحقاً.

وتحدث الليدي إي. أس. دراور في كتابها "الصابئة المندائيون في العراق وإيران" عن الإبادة التي تعرضوا لها في القرن الرابع عشر في العمارة، حين كان السلطان محسن بن مهدي حاكماً عليها وكان ابنه فياض حاكماً على شوشتر، حيث تعدى بعض العرب على امرأة مندائية لغرض اغتصابها، ثم أعلنوا حرباً على المندائيين، فتم قتل الرجال والنساء والأطفال فضلاً عن الزعماء الدينيين بحيث "بقيت الطائفة بلا رجال دين لعدة سنين". (٣٦)

وفي زمن حكم الملك الساساني بهرام الأول عام ٢٧٣م في إيران جرت حملة إبادة جماعية بحق المندائيين، حيث قتل منهم الآلاف. كذلك عام ١٧٨٢م، في جنوب بلاد فارس، حدثت حملة مماثلة، بعد محاولة المسلمين الحصول على الكتب الدينية للمندائيين ومصادرتها، لغرض حرقها والقضاء عليهم وعلى ديانتهم، وحين فشلت المحاولة، تلك، تم اعتقال الآلاف منهم، بمن فيهم جميع رجال الدين، حيث تعرض المئات إلى عمليات تعذيب وجلد وحرق وقلع عيون وقطع أطراف، لم ينج منها إلا القليل بهروبهم إلى تركيا حاملين معهم ما تيسر من كتب دينهم ليتم استنساخها فيما بعد.

وفي مدينة شوشتر الإيرانية، القريبة من الشوش والأهواز، تعرضوا عام ١٨٧٠م لحملة أخرى، تم خلالها قتل غالبية سكان المدينة والبالغ عددهم ٢٠ ألف مندائي على يد

(٣٦) الصابئة المندائيون في العراق وإيران - أثيل ستيفانا دراور - ترجمة المرحومين غضبان الرومي ونعيم بدوي.

الحاكم الإيراني آنذاك ناصر الدين شاه، الذي حكم إيران ما بين ١٨٣١ - ١٨٩٦م، وقد أشارت بعض الكتابات المندائية إلى هذه الحملة "المذبحة".

وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى للفترة ما بين ١٩١٤-١٩١٨م وسقوط الدولة العثمانية سنة ١٩١٨م ودخول القوات الإنكليزية للعراق واحتلالها البصرة ومن ثم توجيهها نحو بغداد من خلال مدن الجنوب التي تقطنها نسبة كبيرة منهم، تأثر المندائيون بظروف عصيبة جدا، حيث فقدان الأمن وعدم وجود مؤسسات حكومية وانتشار الفوضى، انعكست على حياتهم وديانتهم، مباشرة، فتعرضوا للقتل والسطو والنهب والختف، فضلا عن إجبارهم على ترك دينهم ومنعهم من ممارسة طقوسهم، ما أدى إلى هجرتهم لمدن أخرى أكثر هدوءا، إلا أن أحوالهم لم تتحسن في مناطق سكنهم الجديدة، حيث تعرفت السلطات الإنكليزية تدريجيا على المندائيين وديانتهم ومعتقداتهم ما أثار انتباه المبشرين والمستشرقين والباحثين في الديانات القديمة لغرض التعرف عليهم أكثر والوقوف على ديانتهم القديمة فتوافد الكثيرون منهم إلى جنوب العراق. مما حدا بالمبشرين الأوربيين لاحقا لممارسة الضغوطات والإغراءات المالية لتحويلهم إلى الديانة المسيحية باعتبارهم من (الخارجين على المسيحية)، أو ما يطلق عليهم "مسيحيون من أتباع يوحنا المعمدان"، ورافق ذلك ضغط وتهديد إسلاميان من سكان المنطقة للتحويل إلى الديانة الإسلامية.

لقد اشتهر الصابئة المندائيون منذ القدم، بالنتاجات الادبية والعلمية، ولحد الآن تجد فيما بينهم الطبيب والمهندس والمعلم والمهني والشاعر والأديب الكثيرين... فقيما برع منهم: أبو إسحاق الصابي وزير الطائع والمطيع، ثابت بن قره وولداه سنان وإبراهيم اللذان برعا في الطب والرياضيات والفلك والترجمة، إبراهيم بن هلال الأديب الذي تولى ديوان الرسائل والمظالم سنة ٩٦٠م. وفي أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ورغم ظروف الاضطهاد والقسوة والإجبار على تغيير الدين، لم يتوقفوا عن أداء واجبهم في بناء وطنهم العراق فتوجهوا لممارسة المهنة الحرة التي تناسب مع متطلبات واحتياجات المنطقة كصناعة الأدوات الزراعية والقوارب وأدوات الصيد

والصياغة و غيرها، وتوجه أبنائهم إلى المدارس والكليات المختلفة لمواصلة تعليمهم ودخل العديد منهم في المعترك السياسي الوطني وبرز منهم الكثير من الأطباء والأساتذة والعلماء والمهندسين، كان لهم الدور الكبير في عملية البناء اللاحقة للعراق، كالعلامة القدير الدكتور عبد الجبار عبد الله صاحب الانجازات العلمية العالمية في الفيزياء والأنواء الجوية، كما أنه كان أول رئيس لجامعة بغداد بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بطلب من عبدالكريم قاسم، وقد ساهم أيضا في تأسيس جامعة البصرة من خلال تطبيق الخطط التي وضعها لتطوير التعليم الجامعي عندما كان رئيسا لجامعة بغداد بعد ثورة تموز. ويعده البعض ألمع عالم في مجاله في الأنواء الجوية في القرن المنصرم، وقد كان قبل مجيئه للعراق استاذًا له كرسي في معهد ماساتشوسيت للتكنولوجيا الذي حصل منه على شهادة الدكتوراه علوم في الفيزياء، ومحرفا في مجلات علمية عالمية عديدة، وله بحوث قيمة كثيرة.

ومع هذا كله، تعرض لأبشع أنواع الإهانة والتنكيل أثناء اعتقاله. وبعد إطلاق سراحه سافر إلى أمريكا وعين أستاذًا في جامعة كولارادو.

وهناك آخرون: الشهيد الشيعي والأديب اللامع في الأدب السياسي الساخر ابن البصرة عبد الجبار وهبي (أبوسعيد) وعزيز سباهي/ غضبان رومي - الكاتب والمعلم الأول في لواء العمارة/ نعيم بدوي - المربي الكبير/ يحيى الشيخ-الفنان التشكيلي/ لميعة عباس عمارة - الشاعرة/ عبد الرزاق عبد الواحد - الشاعر/ علي عرمش شوكت/ الدكتور عبد الرزاق مسلم/ البروفيسور صبيح السهيري/ إبراهيم عزيز السهلي/ الدكتور بشار فاضل فرج/ الدكتور تحسين عيسى/ العالم الدكتور عبد العظيم السبتي - سمي أحد الكواكب باسمه/ الفنان مكي البدري/ الممثلة القديرة سهام السبتي/ الرسامة والشاعرة سوسن سلمان سيف/ الدكتور المهندس نزار الدليمي / الدكتور المهندس والكاتب مأمون الدليمي / الأديب الروائي والفنان التشكيلي هيثم نافل والي/ الجيولوجي قيس المبارك/ طارق بركات.

كما برع منهم في مجال فن الصياغة كثيرون مثل عباس عمارة الذي شارك في الثلاثينيات بمعارض فنية في نيويورك للترويج للصناعات العراقية في الذهب والفضة واستقر في أمريكا لمدة عشرين عاما وعاد بعدها إلى العراق وزار العمارة ليتوفى هناك.

لكن رغم كل هذا بقيت الطائفة تعاني من عدم ممارسة حقوقها وطقوسها الدينية والتحدث بلغتها في فضاء الحرية كما يجب، وازداد التمييز بين المندائيين وبين الآخرين أمام القضاء، ولم يتبوا أحد منهم مناصب عليا في الدولة رغم وجود العشرات من الشهادات العليا التي يحملونها، كل ذلك بسبب النظرة الدونية التي كان ينظرها لهم جيرانهم المسلمون لعدم معرفتهم بديانتهم الموحدة. ومما زاد من معاناتهم ما كتب عنهم بشكل مشوه. ففي الثلاثينيات من القرن الماضي قام المؤرخ العراقي المعروف عبد الرزاق الحسني في كتابه "الصابئيون في حاضرهم وماضيهم" بتشويه ديانتهم متهما إياهم بأنهم من (عبدة الكواكب والنجوم). وبالطبع كان لكتابه هذا في تلك الفترة الوقع السيئ على الطائفة حيث لا يزال الكثير ممن ليس لديهم إطلاع عليها يقتنعون بما ذكر في هذا الكتاب ويعتبرونه أحد مصادرهم في الكتابة عن الصابئة.

لقد استمرت معاناة المندائيين لسنوات طويلة، لكن بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م ثمة الزعيم عبد الكريم قاسم الذي لم يكن يعير اهتماما لديانة الشخص أو مذهبه أو عرقه معيارا لمواطنته بقدر ما ينظر لكفاءته وقدرته على العطاء وخدمة الوطن. على هذا الأساس تعامل معهم، فتم تعيين الدكتور عبد الجبار عبد الله رئيسا لجامعة بغداد وكان قد طرح أسم الدكتور عبد العزيز الدوري كبديل له للتعيين في هذا المنصب، وهو أعلى منصب حصل عليه مندائي. ولكن كان الانتماء الوطني للعراق الأساس في اختياره. فلم يكن هناك تفريق بين أي من المكونات للنسيج الوطني العراقي وبين باقي العراقيين بالمعاملة والتعيين وحرية ممارستهم لمعتقداتهم. ولو قيض لحكم قاسم أن يستمر فترة أطول، لثم إنصافهم بالحصول على حقوقهم كاملة، لكن الحكم لم

يستمر طويلا بسبب انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣. فدخلوا من جديد في دورة القتل والاعتقال على يد سلطة البعث، حتى تجاوز عدد ضحاياهم المئات ما بين قتيل ومعتقل.

وفي ثمانينيات القرن الماضي، حيث الحرب العراقية الإيرانية، تعرضوا لعمليات تصفية جديدة، فتم إرسال الكثير من شبابهم إلى الخطوط الأمامية للجبهات، رغم أن ديانتهم تحرم عليهم القتال، بغية التخلص منهم قتلا أو إعداماً، لكونهم من طائفة محسوبة على جهة سياسية معينة، بحكم كره وحقد دفينين في ذاكرة المتعصبين الطغاة القساة الذين لا يؤمنون بوجود الآخر المختلف.

أما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، حيث فقدان الأمن وانتشار الفوضى، فقد واجهوا الكثير من الانتهاكات لحقوقهم، وارتكب التكفيريون، من الإرهابيين والمتطرفين الإسلاميين، جرائم بشعة ضدهم، بعدما جرى تكفيرهم من بعض المرجعيات، فتعرضوا لأبشع صور القتل المتعمد، وهم يمارسون طقوسهم الدينية، إضافة للخطف والسرقة وفرض الإتاوات الشهرية والتهجير القسري واغتصاب النساء والإجبار على اعتناق الإسلام ولبس الحجاب وتحريم شراء ممتلكاتهم، وذلك لغرض إبادتهم، وتحفظ مجموعة حقوق الإنسان المندائي بالآلاف من الوثائق والصور والأفلام لضحايا كل هذه الممارسات العنيفة.

إن هؤلاء الضحايا المندائيين لم يكن أحد منهم شرطياً أو رجل أمن أو عضواً في مجلس النواب أو وزيراً أو غيرها من المناصب التي اعتبرت سبباً للقتل والتهجير، بل أن جميعهم من الأبرياء المسالمين، أصحاب الشهادات العليا والكفاءات العلمية، وليس بينهم من يستحق قتلاً وتهجيراً! فالمندائيون هم من أكثر الناس طيبة وبساطة وأحسنهم خلقاً، أناس مُسالمون بكل معنى الكلمة، وكل من عايشهم يدرك مدى المحبة والهدوء والصفاء والتسامح وأمثالها مما يتعاملون بها مع غيرهم، واليوم يعاني الآلاف من مهجريهم وعائلاتهم ظروفًا قاسية جداً، مع آلاف أخرى من بقية أبناء

الأقليات الدينية، وقد تركوا كل ما يملكون خلفهم، في وطنهم العراق، ينتظرون عطف دول اللجوء والمنظمات الإنسانية لتقديم المساعدة والعون اللازمين لهم.

ج- الفيليون

هم من مكونات الشعب الكوردي، مذ سكنوا أقصى الجنوب من كردستان، وبالتحديد منطقة (بشتكو أو بيشكو) التي تمتد بين شرق دجلة وإلى العمق الإيراني.

لقد انقسمت هذه المنطقة بعد ترسيم الحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية، إذ وقع القسم الشرقي منها في دولة إيران من كرمشاه إلى خرم آباد شرقا وخوزستان جنوبا، فيما وقع قسمها الغربي في دولة العراق ضمن المناطق الوسطى والجنوبية من شرق نهر دجلة وهي: خانقين، مندلي، جلولاء، زرباطية، بدره، جصان. وانتقل الكثير منهم إلى بغداد والبصرة والعمارة والحلة والناصرية وبقية المدن العراقية.

ومن سكنوا العاصمة كانوا يزاولون النشاط التجاري فيها، ثم تم إبعاد أكثرهم عن العراق قسراً منذ انقلاب عام ١٩٦٨م، واشتد الإبعاد إبان حكم أحمد حسن البكر عام ١٩٧٠م وصدام حسين عام ١٩٨٠م، بحجة التبعية لإيران. وكان كثيرون منهم في العراق لا يتقنون اللغة الكردية (سواء لغتهم الكردية اللرية أم السورانية أو البهدينانية) بل يتكلمون اللغة العربية بحكم الاختلاط الطويل بالعرب حيث مناطق هؤلاء محاذية لمناطقهم.

أما من الجانب الإيراني فتتوزع مناطق الكرد الفيلية، الذين يسمون اللر في كردستان، على محافظات كرمانشاه وعيلام و خوزستان و مدنها من الشمال إلى الجنوب هي خسروي، قصر شيرين، كرمانشاه، إسلام آباد غرب، سربل زهاب، عيلام، بدره، مهران، انديمشك، وملير، والتي تحاذي الجنوب العراقي في محافظة ميسان.

يسمى موطن الكرد الفيليين (کردستان كلهر)، يقال لها في العراق الفيلية وفي إيران الكلهورية، وهم يدينون بديانة الإسلام من الشيعة على المذهب الجعفري، ولهجتهم الكردية تختلف عن مثيلاتها في كردستان العراق وإيران بعض الشيء حيث تسمى اللهجة اللوريّة.

ويذكر العديد من المؤرخين أنهم من بقايا العيلاميين أو الكوتيين في وسط وجنوب العراق (مندلي، بدره، جصان، خانقين، زرباطية، كركوك، بغداد وغيرها).

كما تذكر مصادر أنهم ينحدرون من عشائر كردية معروفة عاشت في منطقة خوزستان والشرق العراقي لاسيما شرق دجلة، وهي من أقدم المناطق التاريخية العراقية التي نشأت عليها أقدم الشرائع، وأن تسمية (الكرد الفيليه) أطلقها بعض المؤرخين العرب على الذين جاؤوا من كردستان إيران (جبال زاغروز) والذين نجحوا في الاندماج منذ مئات السنين بالمجتمع العراقي وفي امتهان العمل التجاري أو الزراعي أو الصناعي، وبرزوا في ميدان الحركة الوطنية العراقية عموماً والحركة التحررية الكردية خصوصاً، ضمن صفوف الحزب الشيوعي العراقي، فظهرت منهم أسماء لامعة في التاريخ السياسي للعراق. ويشير المؤرخ العراقي عباس العزاوي في كتابه "العراق بين احتلالين" إلى "أن بلدة العمارة العراقية الحالية (مركز محافظة ميسان) التي كانت تسكنها عشيرة من الكرد الفيلية كانت تدعى دوزاده من اللر الفيلية. وأن أصولهم العيلامية القديمة لا غبار عليها، إذ تنتشر عشائرتهم من العمارة جنوباً مروراً بالكوت ومن ثم ديالى وإلى كركوك حيث تلتقي ببقية العشائر الكردية الأخرى من غير الفيلية، وتسكن في جانبي الحدود العراقية الإيرانية". (٣٧)

لقد أثبت الكرد الفيلية أنهم من المجموعات الفاعلة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في حركة المجتمع العراقي، غير أن معظمهم كانوا فقراء مسحوقين، ما دفعهم إلى الانتماء للحركة اليسارية الوطنية التي كان من صلب منهجها تبني الطبقات الفقيرة

(٣٧) عباس العزاوي -العراق بين احتلالين -الجزء الثاني -الصفحة ١٧.

المسحوقة والدفاع عن مصالحها. فضلا عن أنهم "أقلية" كانت عرضة للاضطهاد من جميع السلطات التي تعاقبت على العراق منذ ظهور الدولة العثمانية مروراً بالحكم الملكي ومن ثم الجمهوريات. خصوصا إثر انقلاب شباط الدموي عام ١٩٦٣م، حيث قاوموه سواء في مناطق تجمعهم أو ضمن صفوف الحركة الوطنية، فتم التنكيل برجالهم ونسائهم، وإعدام العديد منهم، وإيداع آخرين في المعتقلات والسجون. لذلك يعتقد البعض خطأ أن السلطات العراقية بدأت حملاتها الشوفينية القمعية المتصاعدة ضد الكرد الفيلية بعد وقفهم للدفاع عن الجمهورية والنظام الوطني بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم. بيد أن بدء تلك الحملات كان بشكل سري غير ملحوظ في أول أيام سلطة العهد الملكي حين تم التنسيق بينها وبين السلطة الإيرانية على اضطهادهم. إذ كانت إيران تفصل في التعامل بين كرد الشمال وكرد اللر الفيلية، في حين بقي العراق يتبع سياسة دقيقة في إيجاد شروخ أو حدود في التعامل بين كرد الشمال والكرد الفيلية من منطلق طائفي، الذين حرمهم من الوظائف المهمة في الدولة أو تطوعهم كضباط في الجيش والشرطة أو تمثيلهم في المجالس النيابية، متقصدا عدم مساواتهم في الحقوق، بعكس ما نص عليه الدستور العراقي.

فلقد أنكرت سلطة العهد الملكي القومية الكردية للفيليين، واعتبرتهم أقلية ليست لها أهمية، ودأبت على تحقير الطبقة الفقيرة منهم، وأشاعت أو ساطها أنهم خلقوا لأعمال "الخدمة الثقيلة"، وصرفت النظر عن كونهم مكونا اجتماعيا هاما، من الشعب العراقي، كان هذا بسبب السياسة التي اتبعتها قادة هذه السلطة من خلال نظرتهم الطائفية الشوفينية المتعالية على هذه الأقلية واحتقارهم لطبقاتها المسحوقة. ومما زاد النقمة على الكرد الفيليين انخراطهم الواسع في الحركة اليسارية الوطنية والثورة الكردية المسلحة، ما دفع السلطات العراقية على مر العهود إلى حرمان العديد منهم من شهادة الجنسية العراقية، التي كانت تشكل الحجة والتبرير اللذين تتعزز عليهما في محاربتهم، ثم أقدمت على تفسير بعضهم بحجة التبعية الإيرانية، حيث قمة المأساة أن الكردي الفيلي الذي يتم تفسيره من العراق باعتباره إيرانيا يتم اعتباره في

إيران أجنبيا عن الإيرانيين، فيقع وسط محنة إنسانية كبيرة لم تلتفت لها الأمم المتحدة، فتركتهم ضحية سطوة و ظلم الحكام في كلا البلدين هذين.

وكانت الأجهزة الأمنية لسلطة البعث الحاكم للفترة التي تلت انقلاب تموز ١٩٦٨م، قد شرعت بشن حملتها المعروفة ضد الكرد الفيليين، فقامت بتسفير شبابهم، بعدما تم انتزاعهم من عائلاتهم وحجزهم في معتقلات سرية بعيدة عن الأنظار، ثم إعدام الكثير منهم دون ذنب أو جريمة ارتكبوها، وأوغلت في عملها المرعب بحرقهم والإمعان في إيذائهم و التنكيل بهم بانتزاع أفراد عائلاتهم من البيوت، وهم بملابس النوم، وإجبارهم بالقوة على ركوب الشاحنات، تاركين وراءهم بيوتهم بما احتوت، وتفريق الأطفال عن الأمهات و الرجال عن النساء و الشيوخ عن أولادهم، و عزل الشباب منهم.

وفي سياق هذا التصرف الوحشي العنيف ثمة هذه الحادثة: (كانت هناك عائلة تسكن مدينة جميلة انتزعوا أفرادها ليلا من بيتهم ومنعوا الأم من أن تأخذ رضيعها معها الذي بقي راقدًا في مهده رغم عويلها و صراخها و بكائها و مناشداتهم العودة لأخذه من مهده، بيد أن الأوغاد لم يصغوا إليها أو يردوا عليها، بل شتموها و أهانوها وأسمعوها كلاما بذيئا، و انطلقوا بمسيرتهم المؤلمة القاسية الظالمة غير مكترثين ودون أن يؤثر بهم توسل الأم النائحة الفاقدة لرضيعها، و بعد لأي أوصلتهم شاحنات النقل إلى المناطق الحدودية، و أفرغت حمولتها ورمتها - بما حوته من شيوخ و أطفال ونساء - في العراء على الأرض التي تقع على الحدود ما بين العراق و إيران كما ترمى الانقاض. بعد فترة زمنية عاد رجال الأمن إلى بيت هذه العائلة المنكوبة ليصادروا البيت و يسلبوا محتوياته و قد تفاجؤوا بوجود الرضيع ميتا متيبسا، متخشبا في مهده، لم تزل يداه متشبثتين برضاعته وشفثاه مطبقتين على مبسمها، ليعطي صورة يثبت للعالم بها شناعة الظلم وفضاعة العنف الذي يمارسه الانسان تجاه أخيه الانسان).

هكذا تعرض الكرد الفيلليون لأبشع عملية تهجير "تسفير" في تاريخ العراق المعاصر على يد نظام البعث، بعد مصادرة بيوتهم و نهب أموالهم و إتلاف أوراقهم الثبوتية، حيث شنت سلطاته القمعية بتاريخ ١٩٨٠/٤/٧م حملة شرسة، ابتدأتها باعتقال العشرات من كبار تجارهم، بعدما دعتهم لاجتماع وهمي في غرفة تجارة بغداد، ليجدوا أنفسهم و قد حشروا في شاحنات نقل سارت بهم إلى الحدود الإيرانية لتلقيهم هناك دون وثائق ثبوتية أو زاد أو ماء غير الملابس التي يرتدونها، وأجبرتهم قسرا، دافعة بهم مشيا على الأقدام بمسيرة نحو الأراضي الإيرانية، بعد أن سلبت وصادرت محالهم وأسواقهم ومعاملهم ومكاتبهم وأماكنهم المنقولة وغير المنقولة ووثائقهم العراقية، وحجزت ذويهم وأولادهم والآلاف من عائلاتهم، ليتم تهجيرهم إلى ايران بعد أن رموهم في العراء على المناطق الحدودية، فمات العشرات منهم شيوخا وأطفالا ونساء، وقدرت لجان الصليب الأحمر الدولي والهيئات الانسانية المهجرين من الكرد الفيليين أعدادا تعدت المائة ألف شخص، وغيب العشرات بل المئات منهم في سجون: نقرة السلطان، التسفيرات، الحاكمة، الفضيلية، أبو غريب، فضلا عن السجون السرية التابعة للمخابرات العراقية خلال السنوات ١٩٨١ - ١٩٨٥م، وكانت بحق عملية تغييب وقتل مقصودة للشبيبة الفيليين، حيث تم عزلهم وحجزهم في معتقلات محاطة بأسلاك شائكة، تشبه المعتقلات النازية، و قد استحدثتها السلطة القمعية لكثرة أعداد المعتقلين كمخازن مختبرات وزارة الاشغال في منطقة الصناعة..... "كمسارة".

إن هذه العملية التي مورست ضد الكرد الفيليين عام ١٩٨٠م، كانت أوسع عملية تهجير في العراق، إذ تعرّض فيها الآلاف منهم إلى التهجير من قبل النظام الصدامي، و قد بدأت في ٧ نيسان ١٩٨٠م بقرار مجلس قيادة الثورة المنحل رقم ٦٦٦ بتاريخ ١٩٨٠/٥/٧م، و هذا القرار كان مخالفا لأبسط مبادئ حقوق الانسان فضلا عن مخالفته للدستور العراقي المؤقت لعام ١٩٧٠م النافذ آنذاك، حيث أوعز نظام صدام لأجهزته الأمنية القمعية المتوحشة لتهاجمهم في بيوتهم ليلا في كافة المناطق العراقية

وبشكل خاص في بغداد وزجهم في شاحنات عسكرية وهم بملابس النوم وتجميعهم في سجون المخبرات والأمن العامة ووزارة الداخلية ومقرات الجيش الشعبي ومراكز شرطة الكاظمية وقناة الجيش والحاكمية ومعتقلات مخبرات كركوك والكوت وخانقين والبصرة والحلة والديوانية وبعقوبة وبدرة وجصان، لترحلهم بعدها للحدود حيث تم تهجيرهم إلى إيران بعد مصادرة ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة، ووثائقهم الثبوتية كالجنسية وشهادة الجنسية وهويات غرفة التجارة والشهادات الدراسية والجامعية وغيرها من الوثائق بحجة أنهم من التبعية الإيرانية. كما قامت السلطة الصدامية بترحيل عدد من القرى التي يسكنها الكرد الفيليون في المناطق الحدودية، بزعم حماية الحدود أو احتلالها عسكريا، و محاولة تجميع الناس في قلاع أو مخافر أو مجمعات أشبه ما تكون بمعسكرات اعتقال، دون أن تقدم على نفيهم إلى مدن الوسط والجنوب لمعرفة الأكيدة بما يكنه العراقي في هذه المدن من تقدير ومحبة واحترام لهذا المكون العراقي الذي ساهم بفاعلية في تاريخ و حياة شعبنا، وكانت له مواقف المعروفة في المعارك الوطنية ضد الظلم ومقارعة السلطات الدكتاتورية القمعية عبر العهود السياسية المختلفة التي مر بها العراق، وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عن حقوق الشعب، وتحمل شتى أنواع وأساليب القمع والعنف السياسي، ناهيك عن ما قدموه من تضحيات ومساهمة في كل أنشطة المجتمع ومن شخصيات بارزة وأسماء وطنية في تاريخنا السياسي والثقافي.

ح-الشبك

يذكر بعض المؤرخين أن الشبك نتاج تفاعل مجموعات بشرية متكونة من عدة أعراق تحت تأثير العديد من المعطيات والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والجغرافية وعبر فترات زمنية طويلة وموغلّة في القدم، حيث أوجد هذا التفاعل مجموعة بشرية جديدة جعلها تتميز عن المجموعات البشرية الأخرى والأعراق المكونة لها، سواء التي كانت متواجدة أو وجدت بعد ذلك، في منطقة سهل نينوى، بعاداتها وتقاليدها وتراثها ولغتها، وكون لها هوية مؤكدة وخصوصية متميزة وقومية مستقلة إلى جانب المكونات الأخرى في العراق. لكن يجب ملاحظة أن تسمية (الشبك) لاحقة لوجود هذه المجموعة البشرية في الموصل، بمعنى أن هذه التسمية جاءت بعد تفاعل الأعراق المتعددة في ظل المعطيات المذكورة، حيث أن (الشبك الأوائل)، أي نواة الشبكيين، كانوا قد أتوا من المشرق الفارسي واستوطنوا الجانب الشرقي من المدينة في عهد الدولة الساسانية كما ذكر ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ"، وأن التوسع الساساني في هذه المناطق كان امتدادا للهجرات التي كانت قد بدأت من المشرق باتجاه الغرب وبشكل متعاقب، حيث اتخذ بعضها شكل الغزوات، وليس مستقلا عنها، أي أن (الشبك الأوائل) كانوا من الفرس الساسانيين، حيث أنهم كانوا يعرفون بلغتهم وأصولهم وعاداتهم وتقاليدهم الفارسية، وهناك العديد من الأدلة التي تؤيد وجهة النظر هذه، منها، إضافة إلى ما ذكره القائلون بهذا الاتجاه، أن القرى التي شيدها الساسانيون هي ذات القرى الحالية للشبك بدلالة مواقعها وأسماء بعضها وطريقة البناء الساساني التي كانت معتمدة لدى الشبك في قراهم، والتي كانت مشيدة على شكل القباب أو بأشكال مخروطية كما كان الحال في قرية (كمبة كل) المندثرة. وكذلك ميلهم للقادمين من بلاد فارس كجيش نادر شاه والصفويين قبله إنما كان للتقارب اللغوي والعربي بينهم وبين الفرس، وتقبلهم للعقائد التي أتوا بها أكثر من الأعراق الأخرى الموجودة في المنطقة، سواء الطرق الصوفية كالبيكتاشية والقزلباشية والتشيع وهذا أيضا يبرر موقفهم من جيش نادر شاه

إبان حملته على مدينة الموصل ومن ثم موقف أهالي هذه المدينة من الشبك بعد ذلك إلى حد اعتقد البعض بأنهم من بقايا هذا الجيش.

أما عن كيفية دخول الأعراق الأخرى في تكوينتهم، فلم تكن بمعزل عن المتغيرات السياسية والاقتصادية والجغرافية وحركة الأقوام في هذه المنطقة، بل كانت جزءا منها ومتفاعلة معها، فمن المعروف أن الموصل كانت تقع على مفترق طرق الشرق والغرب وهي مدينة ذات استراتيجية خاصة للإمبراطوريات والحضارات والقوى التي لعبت كثيرا في التركيبة العرقية لبلاد ما بين النهرين، بشكل عام، وللمدينة ذاتها، بشكل خاص، فهذه المنطقة لم تكن منعزلة عن العالم، بحيث يولد فيها عرق واحد، إنما كانت من أكثر مناطقها متأثرا بالمتغيرات المذكورة، منذ سقوط الدولة الآشورية والسيطرة الميدية والفرثية ثم الساسانية على هذه المناطق ثم الصراعات التي دارت بين الإمبراطوريتين اليونانية الرومانية والفارسية والفتح الإسلامي لمدينة الموصل والدولتين الأموية والعباسية من ثم توالي الأتابكة والسلاجقة والمغول، والنزاع العثماني - الفارسي، الذي كان قائما ومستمرا بينهما، حيث أن هذه الأعراق والإمبراطوريات والغزوات المختلفة وحركة الأقوام، أثرت في تركيبة الشبك الحالية، بل أثرت في التركيبة القومية لكل القوميات الموجودة في بلدان شرق البحر المتوسط.

يقول القاضي زهير كاظم عبود "إن الشبك هم من الأقوام التي قدمت من المشرق الفارسي واستوطنت في منطقة مرج الموصل واختلطت وتصاهرت مع بعض العشائر العربية والكردية والتركية وتشابكت مع بعضها البعض وكونت مجموعة سكانية متميزة وانصهرت جميعا في بوتقة الشبك، لهم عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم ولغتهم الخاصة بهم، تميزهم عن مكونات الشعب العراقي الأخرى، حافظوا عليها عبر الزمن واكتسبوا أعرافا وطوائف أخرى معهم، ولكن دون أن يفقدوا خصوصيتهم وهويتهم الشبكية، إلا في حدود خصوصية الهوية العراقية ومتطلبات التعايش السلمي مع المكونات الأخرى للشعب العراقي، وتمكنوا من امتصاص الضغط القومي والتعايش مع

القوميات الأخرى في سلام ووثام رغم معاناتهم وتجاربهم المريرة مع الحكومات التي تعاقبت على حكم العراق ومحاولاتها طمس هويتهم رغم أن فيهم كل مقومات القومية الأساسية المستقلة عن القوميات الأخرى.

ومما يؤيد خصوصية الشبك، كقومية مستقلة، ما جاء في إحدى المذكرات الخاصة بتفتيش منطقة الحمدانية ذات الاغلبية الشبكية (مذكرة رقم ٥٤١ عام ١٩٥٢م) بأن منطقة الحمدانية تتكون من عدد من القوميات أكثرهم عددا القومية الشبكية ومن ثم القوميات العربية والكردية والتركمانية والمسيحيين، هذا اعتراف واضح من الحكومة الملكية العراقية باستقلالية الشبك عن الكرد والعرب والأترك وأنهم يشكلون قومية مستقلة، وقد لا يختلف الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للشبك، عن واقع الشعب العراقي، أما بالنسبة إلى عقيدة الشبك الدينية، فإنها لم تسلم بدورها من التشويه والتشكيك والطعن حتى في انتمائهم إلى الفرق الاسلامية، فقد ذهب البعض إلى اعتبارهم من فرق الغلاة والخارجين عن الاسلام بل عدهم البعض من أتباع ديانة خاصة ولهم كتابهم المقدس وممارساتهم وطقوسهم الخاصة بهم، لأغراض طائفية وتفرقة عنصرية بغیضة إرضاء لأهداف سياسية. والحقيقة إن جميع الشبك هم مسلمون، وكتابهم المقدس الوحيد هو القرآن الكريم والنسبة الغالبة منهم شيعة إمامية (حوالي ٧٠%)، أما الحياة الاقتصادية للشبك، فهي لا تختلف كثيرا عن الحالة الاقتصادية لعموم أهالي محافظة نينوى، المشهورة بالزراعة بالدرجة الأولى وبعض الصناعات البسيطة، مع الأخذ بنظر الاعتبار خصوبة مناطق الشبك وموقعها في سهل الموصل أعطاها ميزة التقدم في الزراعة والرعي والتربية الحيوانية على سائر المناطق الأخرى في محافظة نينوى. حيث يمتلك الشبك قطعانا كبيرة من الأغنام وحقولا كبيرة لتسمين المواشي ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية، تزرع بالحنطة والشعير والعدس والحمص والبقوليات الأخرى، كما يمتهن العديد من العائلات الشبكية التجارة والحرف الأخرى وهم من أوائل مالكي معامل البلوك والمنتجات الكونكريتية ولديهم عشرات المعامل الصناعية، لا توجد إحصاءات دقيقة لنفوس

الشبك، في الوقت الحاضر ولكن هناك بعض الإحصائيات التي تقدر نفوس الشبك في محافظة نينوى، في الوقت الحاضر ما بين ثلاثمائة وخمسين ألفاً إلى أربعمائة ألف نسمة، يسكن جزء مهم منهم في الساحل الأيسر لمدينة الموصل في أحياء (نينوى الشرقية، نينوى الشمالية، الجزائر، النعمانية، التأميم، عدن، الشهداء، البكر، الكرامة، القدس، الأريجية، والتحرير) وأحياء أخرى عديدة.

وينتشر جزء آخر منهم في حوالي (٧٠) قرية ممتدة ما بين الساحل الأيسر من نهر دجلة إلى نهر الخازر شرقاً وجبل النوران شمالاً إلى ناحية النمرود جنوباً، في أرض منبسطة تعتبر من أخصب أراضي محافظة نينوى، خالية من العوارض الطبيعية في مثلث منقلب القاعدة. إضافة إلى سكنى أعداد كبيرة منهم في مراكز أفضية: الحمدانية، تليق، نواحي برطلة، النمرود، وبعشيق. ومن أهم القرى الشبكية، كوكجلي، بازوايا، علي رش، خزنة تبه... ويضيف القاضي عبود "أما بالنسبة للحالة السياسية والاجتماعية للشبك، فقد عانى الشبك، في العهد الملكي من الاضطهاد الطائفي بسبب انتماء الأغلبية منهم إلى المذهب الجعفري حيث كانوا يوصمون بالروافض، بسبب سكنهم في منطقة أغلبيتها سنية، إلا أن التعصب المذهبي أخذ يضمحل في منتصف القرن الماضي نتيجة التفاعل التجاري والاقتصادي، وبعد استلام حزب البعث الحكم عام ١٩٦٨ تعرض الشبك إلى اضطهاد كبير، خاصة خلال الحرب العراقية الإيرانية واتهم عدد كبير منهم بولائهم لإيران زورا وبهتانا واعدم آخرون لانتمائهم لحزب الدعوة ومنع الكثيرون من أبناء الشبك من اكمال دراساتهم أو تعيينهم في المناصب المهمة أو حتى الصغيرة في دوائر الدولة فقد كانوا دائماً محل شك واتهام بعدم الولاء، بل حتى أن البعثيين منهم لم يعطوا ما يستحقونه من مناصب في الدولة، للتشكيك الدائم بولائهم، ولم يكتف النظام السابق بهذه الإجراءات بل تمادى في إجراءاته بطمس هويتهم من خلال سياسة تعريب المنطقة وفرض الهوية العربية عليهم قسراً، وعلى هذا الأساس قامت الحكومة بترحيل أكثر من ثلاثة آلاف عائلة شبكية الى مناطق الحكم الذاتي ممن سجلوا قومية أخرى غير

العربية و هدم دورهم في ٢٢ قرية من قرى الشبك ومصادرة عقاراتهم لأسباب معروفة". (٣٨)

أما بعد نيسان ٢٠٠٣، فسقط ما يقارب ألفا وثلاثمائة ضحية من الشبك وتم تهجير ما يقارب ستة آلاف عائلة من مناطق سكنهم في الموصل، ومنذ تموز ٢٠١٣ أجبرت خمسمائة عائلة منهم على الهجرة وترك منازلهم ومناطقهم بسبب تهديدات بالقتل والتصفية لأسباب طائفية، وداهمت عصابات داعش على الدراجات النارية والخيول قرية الفاضلية واعتدت على أهلها، كما قامت بتفجير مسجد الموظفين مخلفة عشرات القتلى والجرحى، وفجر انتحاري نفسه داخل مجلس عزاء للشبك في ناحية بعشيقه شمال الموصل، فقتل ثلاثون شخصا وجرح خمسون آخرون، وقد بلغ عدد القتلى من الشبك ثلاثة آلاف، ونزح عشرات الآلاف منهم، باتجاه سهل نينوى وإقليم كردستان ومحافظات الجنوب، بعد عمليات إبادة وتفجير منازل واغتيالات بكاتم الصوت مارسها ضدهم عصابات التكفير الارهابية، وأودع ثلاثمائة من الشبك سجون داعش، في بادوش والرقعة.

أصبح الشبك أحد الأهداف الرئيسيّة للجماعات الإرهابيّة، كان أخطرها ما يسمّى بتنظيم الدولة الإسلاميّة، فحسب تقرير لوزارة حقوق الإنسان العراقيّة، قتل المئات منهم منذ عام ٢٠٠٣ حتّى عام ٢٠١٤، وسبب استهدافهم دينيٍّ وسياسيٍّ، إذ أنّ التنظيم يعتبرهم غير مسلمين، شأنهم شأن الإيزيديّة والشيعة من حيث التّعامل، كما أنّ وقوفهم مع التّغيير في العراق بعد عام ٢٠٠٣ وتصويتهم لصالح الدستور العراقيّ جعلاهم هدفا عند الارهابيين والقوى المناهضة للعملية السياسية، بحيث دُمرت خمسة وأربعون مزارا دينيا لهم في مناطق سهل نينوى.

فبعد سيطرة تنظيم داعش على هذه المناطق، حدثت مجازر كبرى في القرى الشبكيّة لم تصدر حتّى الآن تقارير دقيقة عنها، لكن يخبّن عدد الضحايا بالآلاف، كما جرت

(٣٨) زهير كاظم عبود - الشبك في العراق - المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت لبنان -٢٠٠٩.

حالات اختطاف لعائلات شبكية، ولم يعرف مصير المختطفين للآن، وهناك أكثر من ثلاثة آلاف عائلة فقدت منازلها ونزحت إلى المدن الشيعية في الوسط والجنوب أو إقليم كردستان، والتقى ممثل الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بأعداد كبيرة من تلك العائلات في مدينة كربلاء، وروى بعضهم أمامه قصصاً مرعبة عما حدث لهم وكيفية هروبهم ووصولهم إلى المدينة، وقال الناشط المدني الدكتور عباس ناجي له إن مدينته الواقعة شمال الناصرية في جنوب العراق قد استقبلت خمسين عائلة شبكية، وما زال العدد يتضاعف بشكل كبير، وقال الأمين العام لتجمع الشبك الديموقراطي حنين القدو في ١٥ تموز ٢٠١٤ "إن أبناء القومية الشبكية يتعرضون لإبادة جماعية، ونطالب بإجراء تحرك سريع لإنقاذهم"، وناشد ممثلهم في مجلس النواب العراقي سالم جمعة المنظمات العالمية "التدخل لإيقاف القمع الجماعي للشبك".

كذلك علمت الأمانة العامة لهيئة الدفاع عن أتباع الديانات والمذاهب في العراق أن عائلات الشبك في محافظة نينوى تعرضوا للتهديد والتنكيل والاضطهاد وأرغموا على ترك منازلهم بعدما تحولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق والانتقال إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً وخلصاً من تهديدات الارهابيين والتكفيريين المعادية لهم، وقد تسبب هذا الوضع في المزيد من المصاعب والتعقيدات لعائلاتهم، وأجبرت أكثر من ٣٠ عائلة شبكية على مغادرة مناطق سكنها والانتقال بشكل عشوائي إلى سهل نينوى حفاظاً على حياتها وكرامتها، وأن عاملاً في البلدية من الشبك قد قتل يوم ٢٠١٤/٣/٨م أثناء هجوم وقع شرقي الموصل على أيدي القوى التكفيرية والمتعصبة دينياً، وقد وجهت هذه الأمانة نداءً إلى الحكومة العراقية والمسؤولين في محافظة نينوى ولرئاسة وحكومة إقليم كردستان من أجل بذل أقصى الجهود باتخاذ الاجراءات الضرورية لتأمين الحماية الفعلية اللازمة لهم ونقلهم إلى مناطق آمنة ذات أغلبية من الشبك.

صفحة أخرى تعكس العنف والقتل والتهجير، الذي مارسه قوى والارهاب، والاقصاء ومحاولاتها إلغاء الآخر المختلف.

خ-اليهود

بلغ عدد سكان بغداد في العام ١٩٤٧ (٥١٥،٣٥٩ ألف) منهم (٧٧،٤١٧ ألف) يهود وتكون نسبتهم ١٥% وكان صرافو بغداد في العام ١٩٣٦ (٣٩ صراف) منهم: ٣٥ يهودي، ١ مسيحي، ٣ مسلمين شيعة، أما في عالم التجارة فكان الشيء الذي أفاد اليهود بصورة خاصة هو روابطهم مع إخوانهم اليهود في الهند، نظرا للإعتماد الكثيف لأسواق العراق وفارس على الهند، وكان كثيرون من يهود الهند من أصل بغدادي. ومن المحتمل كانت هناك هجرة يهودية من العراق الى ساحل مالابار منذ وقت مبكر يعود الى القرن التاسع، وبعد إلغاء إحتكار شركة الهند الشرقية للتجارة (١٨٣١م) اندفع التجار اليهود البغداديون أماماً الى الهند بأعداد كبيرة بحثاً عن الربح، واستقر البعض مثل عائلة ساسون في بومباي، واستقر آخرون، مثل عائلتي يهودا وعزرا، في كلكتوتا. وهذا يعني بالنسبة لأقاربهم الذين بقوا في العراق أنه صار بالإمكان إستيراد سلع القطعة وبضائع أخرى مباشرة من الهند، ومع بداية القرن الحالي كان قد صار لكل تاجر يهودي بغدادي مهم تقريبا بيوت تجارية في الهند وانكلترا. وهكذا، فإن عزرا ساسون سحيق الذي كان ذا دخل أو ممتلكات تساوي حوالي مليون جنيه استرليني في العام ١٩١٩م، وكان له وزن كبير في عالم الأعمال، ومالكا لشركة "مرزج. س. سايكس أند كومباني، في مانشستر، وكان من بين أثرياء التجار المالكين لبيوتات تجارية في مانشستر كل من: حسقيل شماش، وشاؤول معلم حسقيل (دافيد إخوان)، ويهودا زلوف، وكان لصهيون بيخور، وعزرا اسحق صالح، وكلاهما تاجر بغدادي، شركات في بومباي ولندن.

ولكن البغداديون الذين قزموا كل الآخرين سواء بالثروة أم بالتفرع الجغرافي، هم أبناء عائلة ساسون، الذين كثيرا ما أشير إليهم على أنهم روتشيلد الشرق، بالرغم من أن عائلة ساسون كانوا تجارا في الجوهر، وآل روتشيلد كانوا ممولين، وكان مؤسس بيت ساسون هو داود ابن ساسون بن صالح، الذي كان لسنوات طويلة صراف باشي ممالك بغداد. ويقال إنه في العام ١٨٢٩م، عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره خشي

انتقام الوالي الذي كان هو نفسه قد حرض على طرده، فهرب من البلاد، وأخيراً، وفي العام ١٨٣٢م، أغرته إمكانات الهند فأقام في بومباي وبدأ يصدر الأقمشة الإنكليزية الى بلاد فارس والى موطنه الأصلي، العراق وعندما نمت أعماله بسرعة، وبفضل معرفته بالأسواق المحلية ومتطلباتها، صار أكثر التجارة الرابحة بين الهند والعراق واقعا تحت سيطرته. وفي حلول الخمسينات لم يكن ساسون هذا قد اكتشف سوق الصين فحسب بل أصبح صاحب الإحتكار الفعلي لإستيراد الأفيون والأقمشة والغزل القطني الى الصين، وكانت شركته ناشطة أيضا في يوكوهاما وناغازاكي ومدن يابانية. وصارت سيطرتهم في الهند تشمل إضافة الى الشركة التجارية (دافد ساسون أند كومباني)، شركة ساسون للغزل والنسيج، وشركة ساسون لصناعة الحرير، وشركة المرفأ لحفظ الأغذية وتحسين الأراضي، وهي شركة زراعية ضخمة كان يعمل فيها ١٥٠٠٠ فلاح، ومع ذلك فقد اشتروا حصصا ملحوظة في الشركة الشرقية للتأمين على الحياة، وشركة أمير ويلز للتأمين ضد الحريق، وبنك فارس الإمبراطوري، وبنك الصين واليابان، وشركة وكالة التوظيف الإمبراطوري والأجنبي، وشركة الإئتمان والإقراض للصين واليابان والمضائق.

وعنما افتتح "ايسترن بنك ليتمد" الذي كان مسجلاً في لندن في العام ١٩٠٩م برأسمال مليوني جنيه استرليني فرعا له في بغداد في العام ١٩١٢م بدا على السطح وكأنه رأسمال بريطاني أخذ بتوسيع عملياته الى العراق، أما في الواقع فقد كان أبناء من كان صراف باشي المماليك يعيدون إحياء وجودهم المالي الى مدينة أجدادهم القدامى، سرا هذه المرة وعلى مستوى أكثر تطورا.

ومن اليهود البغداديين المهاجرين عائلة الساعاتي وعرفوا في الغرب بساتشي، أبوهم ناثان ولد في العراق عام ١٩٠٧ وهو تاجر أقمشة وهاجر الى بريطانيا، وأولاده تشارلز ساتشي وموريس ولدا في العراق وأسسا وكالة الإعلانات Saatchi & Saatchi. أكبر وكالة إعلانات في العالم في الثمانينيات.

ولا يمكن بالطبع أستبعاد، ومن المحتمل، أن تكون تقديرات عدد اليهود أقل من الواقع فيما يخص الجزء المبكر من القرن، خصوصاً وأن الكثير منهم كانوا يفضلون في تلك الأيام الإبتعاد عن الأنظار تجنباً لدفع ضريبة الأعناق (الجزية).

وعندما أصبح القانون العثماني في القرن التاسع عشر اقل استنادا الى القرآن تقلصت سلطة القادة اليهود بعض الشيء لكنهم استمروا المسؤولين الأولين أمام الدولة عن السيطرة السياسية على مجتمعهم. وفي ظل العثمانيين والمماليك كان يهود العراق مثلهم مثل كل الطوائف الأخرى غير المسلمة يديرون بأنفسهم شؤون مجتمعهم وكانوا يؤلفون فيما بينهم جماعة معترف بها أو "ملة" لا تتعامل الحكومة معها ككل إلا من خلال قادتها المعينين ". (٣٩)



(٣٩) حنا بطاطو-العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية-الكتاب الأول -مؤسسة الأبحاث العربية-ص-٢٨٨،٢٨٦.

١- عام الفهود

بعدها فشلت الحركة الانقلابية التي قام بها رشيد عالي الكيلاني ومجموعة الضباط القوميون ("العقداء الأربعة"، صلاح الدين الصباغ، فهمي سعيد، كامل شبيب، محمود سلمان) غادرت القيادة العسكرية والسياسية البلاد، وعقد اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة الكيلاني في ٢٧ مايس ١٩٤١م ثم صدر عنه القرار رقم س ٣٦٤٦ بتاريخ ١٩٤١/٥/٢٨م القاضي بتشكيل "لجنة الأمن الداخلي في العاصمة والطوارئ" حيث تم انتخاب أمين العاصمة رئيسا لها، وهي اللجنة التي وقعت اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية، والتي بدأت مفاوضاتها لوقف زحفها على بغداد، في ٣١ مايس.

وفي ٢٩ مايس غادر الكيلاني بغداد، وكذلك المفتي الحاج أمين الحسيني، باتجاه إيران، وكان آخر من غادر العراق محمد يونس السبعائي، أحد أقطاب حركته، وكان قد طالب باستمرار المقاومة ضد القوات البريطانية، بعد أن أعلن نفسه حاكما عسكريا لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية، بيد أن لجنة الأمن الداخلي أقنعته بعدم جدوى المقاومة وطلبت منه مغادرة البلاد إلى إيران، وبدأت التفاوض مع القوات البريطانية لغرض إعلان شروط الاستسلام.

وكان السبعائي قبل مغادرته قد شكل ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية، لحمايته والدفاع عن الحركة الانقلابية والتصدي للقوات البريطانية القادمة إلى بغداد، وهي "كتائب الشباب" و"الحرس الحديدي" و "فدائيو يونس السبعائي"، وكانت في مقدمة القوى التي هاجمت اليهود ونفذت فاجعة الفهود في بغداد.

ففي اليوم الأول من حزيران ١٩٤١م قامت غيلان القطيع الهائجة، من صغار ضباط الجيش والشرطة والرعاغ والمجرمين، بعملية منظمة لمهاجمة ونهب بيوت اليهود العراقيين، ابتدأت من محلة باب الشيخ لتنتقل إلى مناطق أبو سيفين وأبو دودو والفناهرة وفضوة عرب ومناطق أخرى في رصافة بغداد، وعاثت بالأرض فسادا، فكان

يوماً أسود ملطخاً بالوحل العنفي وروح الكراهية واضطهاد ابن الوطن المنتج الفاعل في محيطه، والذي أضاف الكثير للعراق، ثقافياً واقتصادياً وحضارياً.

ولم تتم هذه الأعمال في بغداد حسب، بل امتدت الى مدن العراق الأخرى التي يتواجد اليهود فيها، حيث يذكر الرفيق جاسم المطير عن فرهود اليهود في البصرة: "أردت تدوين ذكريات والدي عن الأحداث السياسية التي مر بها خلال الحربين العالميتين وخلال انقلاب رشيد عالي الكيلاني، وحوادث البصرة خلالها، وعن حوادث (الفرهود) في البصرة التي نُهبَت فيها أملاك اليهود، تلك الحوادث التي أجبرت أهالي العشار على تشكيل لجنة من الوجهاء والأهالي لتأمين الأمن والإطمئنان والحفاظ على ما تبقى من بضائع مخازن اليهود وأثاث بيوتهم، وكان والدي واحداً من أعضاء تلك اللجنة". (٤٠)

ولتأكيد الموقف المتعصب لبعض القوميين العرب المتطرفين تجاه اليهود، أورد ما ذكره السيد عبد الله الجيزاني: "في مجلس النواب عام ١٩٥٠ طلب النائبان في مجلس النواب فائق السامرائي واسماعيل الغانم بوجوب ترحيل كل اليهود من العراق بضمنهم الراغبين في البقاء ومصادرة أملاكهم من قبل الحكومة". (٤١)

وعلى العكس من هذا الموقف العنصري المتطرف وقف الشيوعيون العراقيون موقفاً إنسانياً ومبدئياً آخر، فقد قدم يوسف سلمان (فهد) سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي، رسالة خاصة إلى رشيد عالي الكيلاني، رئيس الحكومة، ورد فيها فقرة تخص اليهود والدفاع عنهم قال فيها: "يشعر الحزب بأنه مدعو لأن يعرض على فخامتكم رأيه فيما يتعلق بأمور ضارة بالحركة الوطنية. أولاً يأسف الحزب الشيوعي، بل ويشمئز، من أعمال الإستفزاز المدبرة ضد إخواننا اليهود من قبل صنائع الإمبريالية البريطانية من جهة ودعاة الإمبريالية الألمانية من جهة أخرى. إن انتهاك

(٤٠) جاسم المطير -نقرة السلطان - دار المكتبة الأهلية - ٢٠١٨-ص ٤٠١).

(٤١) عبد الله الجيزاني - حزب الإستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨ - التجربة الفكرية والممارسة السياسية - ١٩٩٤ - ص ٧٩.

الحرمان وإقتحام البيوت، وسلب الممتلكات، وضرب الناس وحتى قتلهم ليست، يا صاحب الفخامة، مخالفة للقانون والعدالة فحسب، بل وإنها أمور تتعارض مع التصرف الطبيعي لهذه الأمة ونزوعها نحو الكرم والشهامة والنبيل. إن أمثال هذه الأعمال الإجرامية تسيء إلى سمعة الحركة الوطنية الموحدة، وبالتالي إلى الفشل، ومن يستفيد من هذا غير الإستعمار؟ إننا إذ نبدي عدم موافقتنا، فإننا لا ننكر بشكل من الأشكال وجود خونة ينتمون إلى الطائفة اليهودية الذين وقفوا إلى جانب عصابة عبد الإله ونوري السعيد وأتباعهما الشريرة، لكننا نشعر أن العقاب لا يجب أن يعمهم جميعاً، إستناداً إلى مواد القانون". (٤٢)

وكان نسبة الذين يفضلون البقاء في العراق تفوق كثيرا من كان يرغب في الهجرة. وحين أعلن عن قيام دولة الكيان الصهيوني في فلسطين أوعزت الحكومة البريطانية إلى الحكومة العراقية لتشريع قانون يجيز لليهود أن يهاجروا إليها بهدف دعمها وتعزيز قوتها. فاستجابت الحكومة العراقية في الحال وتقدمة بلائحة قانونية الى مجلس النواب في ٢ آذار ١٩٥٠ تقضي بإسقاط الجنسية عن كل يهودي يرغب في الهجرة، على أن يسري هذا القانون مدة سنة من تأريخ تنفيذه، وطلبت من مجلس النواب مناقشة لائحته هذه بطريقة الإستعجال. وقد تحقق لها ما أردت إذ أقرها المجلس النيابي ثم مجلس الأعيان في ٤ آذار ١٩٥٠، ووضعت مختلف التسهيلات لنقل المهاجرين بما فيها رحلات جوية غير قانونية، والطيران من بغداد إلى الكيان الصهيوني مباشرة، وكانت الشرطة العراقية تشرف بنفسها على تهريب من يرغب من اليهود إلى إيران بالسيارات الحكومية إما عن طريق خانقين أو عن طريق شط العرب، ولكن رغم كل هذا لم يترك العراق سوى ٢٣ ألف نسمة في نهاية العام من مجموع ما يزيد عن ١٣٥ ألف نسمة، لذلك عمدت الدوائر الصهيونية إلى تفجير القنابل في الأحياء السكنية اليهودية، ومحلات العبادة اليهودية، بغية إحداث الرعب بين أوساط اليهود وحملهم على الهجرة. وكانت الصحف القومية من جانبها، لاسيما

(٤٢) عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي-عزيزي سباهي -ص ٢٨٤.

جريدة (اليقظة) لصاحبها سلمان الصفواني، تثير الهلع بين أوساط اليهود بما تنشره من مقالات تهديدية وعنصرية. (٤٣)

وفي عام ١٩٥٠ صدر عن الوزارة السويدية الثالثة ١٩٥٠/٢/٥ - ١٩٥٠/٩/٢٤ قانون إسقاط الجنسية عن يهود العراق، ممن يرغب بمغادرته دون العودة إليه، وهو مخالف للمبادئ الأساسية التي قام عليها الدستور العراقي لعام ١٩٢٥م، وتم تجميد أموالهم وممتلكاتهم وإسقاط الجنسية عنهم، وقد صدر هذا القانون بفعل ثلاث قوى: السفارة البريطانية/ جهاز الموساد / الحكومة العراقية المتواطئة ممثلة برئيسها توفيق السويدي ووزير داخليتها صالح جبر.

لقد تم خلال فترة زمنية قصيرة تهجير أكثر من مائة وأربعين ألف مواطن من اليهود العراقيين وإجبارهم على السفر إلى الكيان الصهيوني، عبر بعض البلدان كقبرص وإيران، وفي حين استقر بعضهم فيها، هاجر بعض آخر إلى أوروبا، ومازالوا يعيشون هناك، والعديد منهم مازال يفخر بعراقيته حتى أن أولادهم الذين ولدوا فيها يتكلمون بمختلف اللهجات العراقية.

لقد ارتكبت جريمة ضد الدستور العراقي وضد الإنسانية وتم تنفيذها بمؤامرة ثلاثية اشتركت فيها حكومات ثلاث دول هي بريطانيا والكيان الصهيوني والعراق وبدعم كثيف من جانب الولايات المتحدة الأمريكية. وكان الأستاذ هاشم الشبلي على حق كبير حين أكد بصواب ما يلي: اليهود في العراق ليسوا لاجئين أو مستوطنين وإنما هم من سكنة العراق منذ آلاف السنين وكان لهم دور مشهود في بناء حضارة وادي الرافدين وفي الحضارة العربية الإسلامية وفي بناء العراق الحديث". (٤٤)

(٤٣) * الحسني - تاريخ الوزارات العراقية - ج ٨ - ص ١٥٩-١٦٢.

(٤٤) هاشم الشبلي محطات سودا في تاريخ العراق الحديث - ١٩٣٦-٢١٧ - دار دجلة للنشر - عمان - الأردن - ص ٤٠.

كتب الباحث الدكتور سلمان درويش في كتابه الموسوم "كل شيء هادئ في العيادة" يقول: "بدأت مذبحه الفرهود في يوم ١ حزيران في باب الشيخ من قبل الأكراد الشيعة الفيلية بعد أن دس المفوض الألماني فريتز غروبه سمومه النازية وحرص ضد اليهود وبث دعايته العنصرية بين أفراد الشعب والجيش العراقي خلال عدة أشهر مما هباً الأجواء للإيقاع بهم. ثم جاء اندحار الجيش العراقي، الذي ضمّ بعض الأطباء والضباط اليهود، أمام القوات البريطانية ورفض طلب "مختار محلة الكريّمات من السفير البريطاني السر كنهام كورنواليس السماح للجيش البريطاني المحتل بدخول بغداد وإن كانت تقع على عاتقه مسؤولية الحفاظ على الأمن فيها. وتؤكد بعض المصادر والمعلومات المتوفرة أن السفير البريطاني كنهان كورنواليس حينذاك، ورغم علمه بما كان يحصل من فرهود في شوارع وأزقة بغداد ضد العائلات اليهودية المسالمة، لم يتخذ أي إجراء لوقف هذه المجزرة البشعة ورفض دخول الجيش البريطاني، الذي كان عند أبواب بغداد، من الدخول إليها وزجه في الدفاع عن العائلات اليهودية وانقاذها من براثن الأوغاد والعنصريين والتهابة^(٤٥)

لم يبق من اليهود في العراق إلا القليل الذين يعدون على أصابع اليد وغالبيتهم من كبار السن، حيث تذكر مؤلفة كتاب "الأيام الأخيرة في بابل" مارينا بنجامين، وهي عراقية الأبوين، يهودية الديانة، بريطانية المولد، كانت أمها وجدتها هاجرتا من العراق عام ١٩٥١م إلى الهند بدلا من الكيان الصهيوني، أن عدد اليهود العراقيين عام ٢٠٠٥م بلغ اثني عشر فقط ولم يحدث أي زواج في (الكنيس) المعبد اليهودي الموجود في البتاويين منذ عام ١٩٨١م، ويقال الان ان عددهم هو ستة افراد.

(٤٥) كل شيء هادئ في العيادة -سلمان درويش -منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق - مكتبة الدكتور داود سلمان-سالا لمؤلفات يهود العراق، ١٩٨١، ص ٦٠-٦٢).

٢-اليهود العراقيون والصهيونية

عصبة مكافحة الصهيونية



لقاء مشترك لأعضاء الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني وأعضاء الهيئة الإدارية لعصبة مكافحة الصهيونية من اليهود الشيوعيين العراقيين، من الموجودين في الصورة: عبود حمزة، محمد علي الزرقا، يوسف هارون زلخة (رئيس العصبة)، محمد حسين أبو العيس، حسين محمد الشبيبي، سالم عبيد النعمان، محمود صالح السعيد، يعقوب مصري (سكرتير العصبة) شريف الشيخ، مسرور صالح قطان (عضو الهيئة الإدارية للعصبة)، جميل حبيب، يعقوب نسيم، نعيم يشوع (من نشطاء العصبة)، فؤاد بهجت، ابراهيم شاؤول.



جريدة العصبة لسان حال عصبة مكافحة الصهيونية

منهاج العصبة:

"إن أهداف العصبة مكافحة الصهيونية وفضح أعمالها ونواياها بين جماهير الشعب العراقي لاسيما بين اليهود"، وتحدث برنامجها عن الوسائل المباشرة التي ستسلكها في تحقيق أهدافها ومن بينها إصدار صحيفة، وإصدار المنشورات والكراريس، وإقامة الاجتماعات وإلقاء المحاضرات، وعرض الرقوق السينمائية والتعاون مع المؤسسات التي تكافح الصهيونية في العراق وفي البلدان العربية الشقيقة، والإشتراك في المؤتمرات العالمية المعادية للصهيونية، وإصدار المطبوعات باللغات الأجنبية لفضح الصهيونية وشرح قضية فلسطين العادلة، وفضح عملاء الصهيونية أمام جماهير اليهود، ومحاربة النفوذ الإقتصادي الصهيوني الذي يحاول السيطرة على البلاد العربية اقتصاديا والقضاء على الصناعات الوطنية الناشئة.

أما الوسائل غير المباشرة فهي كما قال البرنامج، العمل على مكافحة النعرات الطائفية التي تمزق وحدة الشعب العراقي، وبث روح الديمقراطية، ومعالجة مشاكل اليهود الاجتماعية التي تخلق التذمر وتفسيرها تفسيراً علمياً، وفضح أولئك الذين يريدون إستغلالها لبعث الدعاية الصهيونية بين جماهير اليهود، لاسيما الشباب منهم".

وراحت الهيئة المؤسسة تطوف على رجال السياسة في البلاد على إختلاف مشاربهم وأفكارهم السياسية، وتحصل منهم على التصريحات التي تؤيد نشاطهم وتباركه بمن فيهم رئيس الحكومة آنذاك، حمدي الباجه جي وأبدى هؤلاء الساسة إستعدادهم لمساعدتها، وشرعت الهيئة المؤسسة في عملها، وقد تلقت الهيئة بريقيات التأييد من جمعية عمال بيت جالا في فلسطين، وجمعية العمال العرب في غزة، ومن اللجنة التنفيذية لمؤتمر العمال العرب في يافا، وجمعية العمال العرب في بئر سبع، ومن عصبة التحرر الوطني في حيفا. وقالت مخاطبة اليهود الذين يفكرون بأن حل مشكلة الإضطهاد الذي يتعرض له اليهود في أوروبا يمكن أن يتم بالهجرة إلى فلسطين. إن "حل" فلسطين هو فضلا عن أنه لا يحل المشكلة اليهودية، فهو إعتداء صريح غاشم على حقوق الشعب العربي لا يمكن أن يرضاه أي إنسان حر..... ونحن بصفتنا يهوداً وعرباً بنفس الوقت نعلن إستنكارنا لوعد بلفور وإحتجاجنا عليه، وندعو كل مواطن للنضال من أجل استقلال فلسطين إستقلالاً تاماً وتأليف حكومة ديمقراطية عربية فيها، ومنع الهجرة إلى فلسطين وإيقاف إنتقال الأراضي إلى الصهاينة".^(٤٦)

واستمرت المنظمة في نشاطاتها رغم العراقيل التي وضعتها أمامها حكومة حمدي الباجه جي آنذاك، وداهمت الشرطة مقر الهيئة المؤسسة وانتزعت اللوحة التي تشير إليها، وحجز بعض موجوداتها، ونسخا من البيان المشار إليه، ورفضت أن تسمح لها بإقامة إجتماع إحتجاجاً على وعد بلفور. غير أن المنظمة ظلت تواصل عملها، رغم كل العقبات ففي إجتماع عام عقدته القوى الوطنية بمناسبة وعد بلفور، شاركت الهيئة

(٤٦) مركز الدراسات الفلسطينية - عصبة مكافحة الصهيونية - جامعة بغداد - لجنة توثيق القضية الفلسطينية ١٩٧٧-ص ١٤، ٣٣.

المؤسسة فيه، وألقى نعيم سلمان أحد المؤسسين للمنظمة، كلمة بالنيابة عنها قال فيها: " لقد عرفنا في الصهيونية حركة إستعمارية، ونحن باعتبارنا يهوداً واعين نقف بوجه كل حركة إستعمارية مهما كان لونها ومهما كانت أسبابها، ومن أي صوب أتت. لقد عرفناها حركة تباعد بين اليهودي ومواطنيه الذين يعيشون على أرض الوطن يشاركونهم خيراتها وثمارها، ولذلك لم نتردد في إعلان جهادنا ضدها صراحة ولم نرض بل ولن نرضى بغير عراقنا بديلاً. وسوف لن تلين قناتنا حتى نجهز عليها بالإشتراك مع إخواننا العرب في جميع أنحاء البلاد العربية." (٤٧)

يذكر يعقوب مصري أبو سرور إن إنشاء منظمة العصابة قد إنبثقت عن اللجنة الحزبية التي كان هو فيها والتي كانت تضم رفاقاً من اليهود وغير اليهود، وقد رفع الإقتراح إلى قيادة الحزب وأيده فهد"، وبعد أن أقر هذا الإقتراح، قدم يعقوب مصري وسرور صالح قطان، وإبراهيم ناجي ويعقوب سحيق، ورفاق آخرون طلباً إلى وزارة الداخلية في ١٢ أيلول ١٩٤٥ للسماح لهم بتأسيس جمعية بإسم (عصابة مكافحة الصهيونية) وأرفقوا طلبهم بالنظام الأساسي للمنظمة. وفي تاريخ ١٦ آذار ١٩٤٦، أجازت وزارة توفيق السويدي (عصابة مكافحة الصهيونية) بعد أن ظل طلب تأسيسها معلقاً منذ ١٢ أيلول ١٩٤٥. وعقدت مؤتمرها الأول في ١٣ نيسان ١٩٤٦، وانتخبت هيئة إدارية كان من بينها يوسف هارون زلخة رئيساً، ويعقوب مصري سكرتيراً، وسرور صالح قطان محاسباً، ومحمد حسين أبو العيس وآخرين أعضاء، وبعد أيام من إجازة المنظمة أجاز لها إصدار جريدة يومية بإسم " العصابة" على أن يكون المحامي محمد حسين أبو العيس مديراً مسؤولاً لها، وصدرت الصحيفة في ٧ نيسان ١٩٤٦، وقد صدر من جريدة "العصابة" ٥١ عدداً فقط. ولعبت دوراً سياسياً كبيراً تحريضاً وثقافياً، عندما جمعت بين الإستعمار والصهيونية كوجهين لعملة واحدة هي الرأسمالية الإحتكارية. وقال زلخة رئيس العصابة: " إن الصهيونية هي التعبير الصادق للرغبات والمصالح الطبقية للرأسمالية اليهودية في إنكلترا وأمريكا وللإحتكارات الإنكليزية والأمريكية." و "أننا لا

(٤٧) جعفر عباس حميدي - التطورات السياسية في العراق-النجف - مطبعة النعمان - ص - ٣٩٩.

نرى في الفاشية والصهيونية سوى توأمين لبغي واحدة، وهي العنصرية محضية الإستعمار". كما ظلت تؤكد على أن السياسات اللاديمقراطية التي سارت عليها الحكومات العربية، المعادية لشعوبها العربية والمالية للإستعمار لن تضمن تحرير فلسطين. وهذا ما أكدته الحياة المرة تلو الأخرى^(٤٨).

وتظل الدراسة التي أعدها يوسف هارون زلخه، رئيس عصبة مكافحة الصهيونية، حول الصهيونية بعنوان (الصهيونية عدوة العرب واليهود) من خيرة ما كتب في هذا الشأن، ورغم مرور ثمانية عقود قد مرت على صدور هذا الكتاب، وجرت منذ ذلك الحين تغيرات كبيرة على المؤسسات التي قامت الصهيونية عليها، إلا أن الكتاب لا يزال يحتفظ بقيمته في مهم الأفكار التي تقوم عليها الصهيونية والسياسات التي تسير عليها^(٤٩).

ويؤكد المؤرخ عبد الرزاق الحسني على الموقف الواضح والصريح للعصبة من اللجان التي يشكلها الإستعمار ويوفدها إلى المنطقة العربية، لغرض ترسيخ الكيان الصهيوني في فلسطين، ومقاطعتها لها، وتبين موقفها الثابت تجاه القضية الفلسطينية وحلها حلاً ديمقراطياً يضمن مصالح وحقوق جميع سكان فلسطين الحاليين دون تمييز في العنصر والدين، وتألّف حكومة وطنية ديمقراطية.

"جاءت إلى بغداد في ١٦ آذار ١٩٤٦ لجنة التحقيق الإنكلو-أمريكية بدعوة من الحكومة العراقية، وقبل يومين من وصولها إلى العراق اصدرت عصبة مكافحة الصهيونية بياناً - وقبلها كانت قد رفعت مذكرتين الى الحكومات العربية - أوضحت فيها كلها أن الإستعمارين البريطانيين والأمريكي يلجآن إلى إيفاد اللجان التحقيقية للتمويه على مشاريعهما الإستعمارية التي لا نفع للعرب فيها مطلقاً لحل قضية

(٤٨) عبد اللطيف الراوي - عصبة مكافحة الصهيونية- في العراق ١٩٤٥-١٩٤٦ - دار وهران -دمشق - ١٩٨٦-ص ٢٢٩، من رسالة يعقوب مصري إلى الدكتور عبد اللطيف الراوي.
(٤٩) عزيز سباهي -عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي-ج١، ص-٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٦.

فلسطين بما يرضي المصالح الصهيونية وإدامة الإنتداب البريطاني، لذلك دعت عصبة مكافحة الصهيونية إلى مقاطعة اللجنة ورفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة على أساس إلغاء الإنتداب البريطاني وإستقلال فلسطين إستقلالاً تاماً وتمكين الشعب الفلسطيني من تأليف حكومة وطنية ديمقراطية تضمن مصالح وحقوق جميع سكان فلسطين الحاليين دون تمييز في العنصر والدين".^(٥٠)

لقد مرت ثمانية عقود على إنشاء الكيان الصهيوني، والسياسة التي انتهجتها الدوائر الحاكمة في الكيان الصهيوني، تخللها التنكيل والإضطهاد والقتل للشعب الفلسطيني، وإحتلال أراضيه، والعدوان على البلدان العربية الأخرى، وبناء المستوطنات اليهودية، وتمييزها أيضاً لليهود العرب ويهود الفلاشا، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، كل ذلك يؤكد ما ذهب إليه (العصبة) عندما ذكرت: "أننا لا نرى في الفاشية والصهيونية سوى توأمين لبغي واحدة، هي العنصرية محظية الإستعمار" كما ظلت تؤكد على أن السياسات اللاديمقراطية التي سارت عليها الحكومات العربية، المعادية لشعوبها العربية، والمالية للإستعمار لن تضمن تحرير فلسطين. وهذا ما أكدته الحياة المرة تلو الأخرى. وتظل الدراسة التي أعدها يوسف هارون زلخة، رئيس عصبة مكافحة الصهيونية، حول الصهيونية بعنوان (الصهيونية عدوة العرب واليهود) من خيرة ما كتب في هذا الشأن، ورغم مرور ثمانية عقود على صدور هذا الكتاب، وجرت منذ ذلك الحين تغيرات كبيرة على المؤسسات التي قامت الصهيونية عليها، إلا أن الكتاب لا يزال يحتفظ بقيمته في أهم الأفكار الأساسية التي تقوم وترتكز عليها الصهيونية والسياسات التي تسير عليها.

(٥٠) الحسني - تأريخ الوزارات العراقية - الجزء السابع - ص ١٦.

يتناول عزيز سباهي -في كتابه عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي -اليهود والمسألة القومية وقيّم سياسة الحزب الشيوعي العراقي إزاءها في تلك المرحلة حيث يقول: ".... لكن الفكر "القومي" "العروبي" وإن كان يمر في تلك



صورة في براغ تجمع الفقيه محمد مهدي الجواهري مع الفقيه عادل مصري (يعقوب
مئير مصري) سكرتير عصبة مكافحة الصهيونية.

السنوات في وضع عصيب يسعى فيه إلى التخلص من آثار الدعاية الفاشية ويجاهد للوصول إلى إيصاله خاصة به، إلا أنه ظل على عدائه للشيوعية وللفكر الماركسي، وكان يؤلف قوة منافسة لا يستهان بها تغذيها من جانب المظالم الإمبريالية في فلسطين وغيرها، كما تجد في المقابل ما يزيد في انفعاليتها في خطاب الحزب الشيوعي الموجه إلى الجماهير الذي لم يستطع أن يجمع بحداقة بين الدفاع عن الكادحين

اليهود ضد التجاوزات العنصرية من جهة والدعوة إلى شعاراته القومية السلمية إزاء فلسطين وغيرها من الجهة الأخرى". (٥١)

اليهود والثقافة العربية

لقد اتخذ يهود البلدان العربية -بحكم مواظنتهم الطويلة- اللغة العربية أداة للتعبير عن ثقافتهم وأدابهم خلال خمسة عشر قرناً في ظل الحضارة العربية، وبرز الكثير منهم على مر تاريخ تلك الحقبة، وإن اليهود في العالم العربي قد شاركوا بالكامل في هذه الثقافة، لكن يمكننا القول إنها إضمحلّت وتكاد أن تندثر كلغة تعبير أدبية وثقافية.

إن إضمحلال الثقافة اليهودية العربية وانثارها كلغة تعبير أدبية وثقافية، سوى لدى القليل منهم الذين لا يزالون يشعرون "بسريانها في عروقهم". كما يشير إلى ذلك المحامي سلمان شينه في مجلة (المصباح) (١٩٢٤-١٩٢٧) وأنور شاؤول في مجلته الإسبوعية (الحاصد) (١٩٢٩-١٩٣٨).

وبعد مغادرة أنور شاؤول ومير بصري العراق في مطلع السبعينات من القرن العشرين، أسدل الستار على حلم مشاركة (اليهود العراقيين واليهود العرب الذين نزحوا من البلدان العربية إلى الكيان الصهيوني) في الثقافة العربية في الشرق الأوسط.

(٥١) عزيز سباهي -عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي -ج ١- ص ٢٧٦.

٣-العنف وفق الغزوة الداعشية

أ-نشأت داعش:

في العودة إلى جذور نشأة هذا التنظيم وبروز الحركة السلفية الجهادية في شكلها الدموي الذي بلغت فيه هيئتها الراهنة "اعش" وإعلانها ما يسمى بدولة الخلافة الاسلامية أواخر حزيران ٢٠١٤م وتتويج أبي بكر البغدادي (إبراهيم عواد البدري) خليفة للمسلمين، يتضح من خلال استقراء تأريخها لما يقارب الثلاثة قرون، أنها ليست ظاهرة فكرية أو سياسية - مجتمعية طارئة أو عابرة، بل هي امتداد لسلالة الجيل الوهابي المؤسس، و هي نسخة متطورة من تجربة حركة "الاخوان" الوهابية التي نشأت من خلال التحالف التاريخي بين الأمير محمد بن سعود و الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٤٤م و التي امتدت الى حفيديهما عبد العزيز آل سعود و عبدالله عبد اللطيف آل الشيخ، وتأسيس الجيش العقائدي الاخواني الوهابي، و قد وصفهم أمين الريحاني بقوله: "هم الفئة المحاربة، الفئة المتعصبة -أي المتمذهبة - جديدا في الوهابية، الاخوان هم جنود عبد العزيز بن سعود الذين كانوا بالأمس من العرب الرحل، من البدو الجاهلين... وهم في غلوهم يعتقدون أن من كان خارجا عن مذهبهم ليس بمسلم" (٥٢)

ويرى عالم الاجتماع العراقي علي الوردي "أن التكفير عامل مهم في نجاح حركة محمد بن عبد الوهاب، فهو قد أعطى لأتباعه حجة لغزو المخالفين لهم باعتبارهم مشركين تحل دماؤهم و أموالهم و نساؤهم"، و يحدد سنة ١٧٩٠م كبداية للخطر الوهابي على العراق "حيث ظهرت على الحدود من ناحية الصحراء جماعات وهابية وسمت إبلها بشارات بارزة وهي تحمل رقعا دينية غريبة، و صارت تغزو مراعي الظفير و المنتفق و الشامية، و كذلك أخذ الدعاة يتسللون إلى العراق في محاولة لنشر الدعوة الجديدة في أوساط العشائر و المدن، فكانوا يرتادون مضائف العشائر في

(٥٢) أمين الريحاني -تأريخ نجد الحديث وملحقاته ص -٥٦٥.

الفرات ليخطبوا فيها و يستغلوا العداء الموجود لدى العشائر ضد الحكومة العثمانية ووالي بغداد". وقد أقدم مسلّحو الدولة الوهابية على ارتكاب مجزرة في ٢٢ أيار ١٨٠٢م، حيث يروي الوردي مختصرا تلك الحادثة: "دخل الوهابيون بلدة كربلاء يومذاك على حين غرة وهم شاهرون سيوفهم يذبحون كل من يلقونهم في طريقهم ولم يستثنوا منهم الشيوخ والنساء والأطفال،... وقد عدد من قتلوا بثمانية آلاف شخص، ثم شتّوا غارة أخرى على النجف ولكنها فشلت، حيث كان أهل النجف قد استعدوا لهم و دافعوا عن بلدتهم دفاعا مستميتا"، ثم يضيف "وفي ١١ آذار ١٩٢٢م قام (الاخوان) وبصورة غادرة ومباغته بارتكاب مجزرة في لواء المنتفق بالعراق ضد مدنيين عزّل، إذ تسلل عناصر منهم و هم مدججون بالسلاح إلى داخل مراعي لواء المنتفق و ضربوا طوقا حول مجاميع الرعاة العزل ثم جمعوهم مع نساءهم و أطفالهم و قتلوهم جميعا و نهبوا ما قدروا عليه من حيوانات وحلي وذهب، فيما كان رجال المنتفق مشغولين بموسم الحصاد في هذا الشهر". (٥٣)

وثمة مثال آخر يذكره ياسين أفندي العمري يبين شناعة ظلم هذا الفكر الظلامي، الذي يعتبر أن كل من لم يكن وهابيا هو كافر حلّ دمه وماله وعرضه، حيث يقول "إن الوهابيين كانوا يظهرون هنا وهناك غرب الفرات فيقطعون الطرق، ويغيرون على القرى، وفي إحدى الغارات عام ١٨٠٠م، نهبوا قافلة قادمة من الشام، بالقرب من بلدة عانة وقتلوا عددا من العانيين، وأغاروا على عانة نفسها ونهبوا بعض بيوتها وقتلوا أربعين شخصا من سكانها، وأغاروا على كبيسة ولكنها قاتلتهم فولّوا الادبار". (٥٤)

وفي مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، ظهرت بوادر تشكيل تيار ديني في المجتمع الوهابي الجديد، حين قرر الملك فهد بن عبد العزيز مواجهة المد الاسلامي الثوروي الايراني، عن طريق فسخ المجال أمام الوهابية كي تنهض مجددا وتغطي

(٥٣) على الوردي لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث -الجزء الاول -ص ١٨٠، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١.
(٥٤) ياسين أفندي بن خير الله الخطيب العمري -الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون-نشر معاوية احمد ناظم العمري -مخطوط يعود الى ثلاثينات القرن الثامن عشر الميلادي.

الفضاء العام. وقد خصصت الحكومة السعودية ميزانية ضخمة لتحسين الداخل إزاء الثورة الاسلامية الايرانية في إطار الترويج للعقيدة الوهابية حول العالم، لتنتقل من كونها عقيدة محلية محافظة إلى أيولوجية ثورية عابرة للقارات، وتأكيداً لهذا التوجه يذكر السفير الامريكي في كوستاريكا كيرتن وينسور "أن السعودية أنفقت على الأقل ٨٧ مليار دولار لنشر الوهابية في الخارج خلال العقدين الماضيين، وأن وتيرة الانفاق في السنوات الماضية (٢٠٠٥ - ٢٠٠٧م) قد بلغت معدلات قياسية، و تنفق هذه الأموال في الغالب على البناء والموازنة التشغيلية للمساجد، والمدارس والمؤسسات الدينية الأخرى لنشر الوهابية، والأوقاف للجماعات في مقابل التأثير على تعيين علماء الدين"^(٥٥) كما أن انخراط السعودية في مشروع " الجهاد الافغاني " في مطلع الثمانينيات قد عزّز من فرص تبلور وظهور تيار سلفي جهادي بقيادة رجال الدين الوهابيين، أسس لبزوغ تنظيم "القاعدة" و "حركة طالبان".

ب-سيطرة "داعش"

ثمة عوامل أدت إلى سيطرة "داعش" على مدن وبلدات ومساحات بلغت ثلث مساحة أرض العراق، ولا بد من ذكر بعض العوامل الأساسية التي شكلت رافعة لهذا التنظيم كي يمكنه مثل هذه القدرة:

*الحملة الايمانية الممنهجة التي بدأها صدام حسين في العام ١٩٩٤م بقرار منه، مستغلا ومستخدما بعض شيوخ الدين بالترويج لها، حيث أصدر أوامره ببناء عشرات المساجد، ومنع المشروبات الكحولية في المطاعم والفنادق، وتم قتل وتقطيع أوصال المومسات والسماصرة بسيوف "فدائي صدام" أمام أنظار المارة، رافقها انتشار ظاهرة الحجاب، وعامل الرعب والخوف الذي انتشر بين العراقيين وتمكن منهم، كل ذلك ظهرت انعكاساته على الشارع العراقي، وبرزت وطغت حالة من التدين أحدثت تغييرا

Wahhabism & the spread of Sunni Theofascism Mideast ، Arabia ،Curtin winsor Jr (٥٥)
Monitor 2 No. 1 Jun /July 2007

في البنية السيكولوجية لدى العراقيين، الذين لم يكن غالبيتهم ملتزمين دينياً، وقد أمسى غالبيتهم من المتدينين، بسبب ما تقدم ذكره وبسبب احباطات الحصار والفقر ومتطلبات الحياة الضاغطة التي رافقها نهج سلطوي قمعي قسري، ومن هنا برزت التجليات الدينية للحملة الايمانية التي دفعت بالعراقيين إلى اللجوء للتدين والاحتماء به، وباتت ظاهرة التدين تسير بوتيرة سريعة، وقد أخذت بعد سقوط نظام صدام حسين شكلا دمويا غبر مسبوق، وخلقّت بيئة متطرفة مؤاتية لتحالفات مجموعات دينية متشددة ومتطرفة، وصار الانخراط في التنظيمات السياسية يتم عبر البوابة الدينية والطائفية على وجه أخص، وأصبح للتنظيمات السلفية الجهادية (كالقاعدة وداعش) دور بارز ومهم.

* إلقاء مصالح فلول نظام صدام حسين ومشروع (القاعدة) العابر للحدود، بعد سقوط النظام الصدامي، والتعاون والتنسيق بين الطرفين من باب مقاومة المحتلين الأمريكان.

* الاحتلال الأمريكي ومحاولته في تأسيس وترسيخ نظام (طائفي -قومي) وتمزيق النسيج المجتمعي من خلال النزعة الطائفية التقسيمية، مما دفع الكثير من النخبة السياسية والعسكرية السنية إلى اعتناق خيارات متطرفة والاندماج في تنظيمات سلفية تكفيرية وطائفية، وأصبح معظم قيادات "داعش" تضم عناصر من الجيش العراقي كانت تعمل تحت إمرة صدام حسين.

* تشكّل وتكوّن بيئة حاضنة -لأسباب مختلفة وعديدة إستطاع "داعش" الاحتماء بها وتجنيد عناصر كثيرة من أهلها للعمل معه والاستفادة من امكانياتهم لمعرفتهم بجغرافية مناطقهم وطباع وأحوال سكنتها.

* إمتلاك التنظيم امكانيات ضخمة حصل عليها من تبرعات رسمية وشعبية من بلدان خليجية محددة، ومن فرض الأتاوات على المؤسسات الحكومية -حتى قبل احتلاله الموصل -وعلى سكان المدن، تحت مسميات شتى مثل التبرع والزكاة والجزية...

إلخ، ووضع اليد على أموال الدولة واستحواده على مخازن أسلحة وأعتدة بكميات كبيرة من سوريا والعراق.

* الدعم الدولي من خلال تمهيد طرق الامداد والنقل وتسهيل مرور المعونات العسكرية، عبر دول الجوار ودعمهم، وفسح المجال أمام "المتطوعين الجهاديين" وتوافد عشرات الآلاف منهم، من شتى دول العالم، وبهذه الأعداد الهائلة، التي تحتاج لإمكانيات دول وليس لقدرات أفراد، كي يلتحقوا بما يسمى "دولة الخلافة الاسلامية" وقد كشفت هذه الحقائق المرشحة الديمقراطية ووزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلنتون وما كشفه ترامب أثناء حملته الانتخابية عن دور أمريكا في صنع داعش.

* إستخدام الارهابيين للأساليب المفرطة بالعنف والطرق المبتكرة في تنفيذها والمؤذية لمشاعر الانسان، ونشرها من خلال الاعلام المناصر لهم، وعبر مراكز التواصل الاجتماعي، لبث الرعب والفرع في قلوب الناس الآمنين، وشل إرادتهم، كي يتمكن الخنوع والاستكانة والاستسلام من نفوسهم، وإجبارهم إما على الالتحاق بهم والانضمام إلى صفوفهم، أو النزوح من أرضهم و بلداتهم ومدنهم، كل هذا كان يحصل ما بين (٢٠٠٥ - ٢٠٠٦م) وهي فترة إمارة "أبو مصعب الزرقاوي" على تنظيم (التوحيد والجهاد) و (القاعدة) في العراق، وقبل أن يظهر "داعش" للوجود.

* الاستفادة من الانقسامات الداخلية، وأجواء الشحن الطائفي والتوترات السائدة، ورفع شعار محاربة الشيعة، واستغلاله لصالح أجندتهم.

ت-جرائم "داعش"

بعد غزوته الهمجية للعراق في حزيران ٢٠١٤م، قام تنظيم "داعش" بجرائم ضد الانسانية، أمام أنظار وأسماع الرأي العالمي، ترتعش لها الأبدان، وتذهل لها العقول، وتقفز من مواضعها القلوب جزعا وهلعا وخوفا وقلقا على مصير الوطن العراقي و إنسانه، بفعل هذا الوباء الطاعوني الظلامي الكهوفي المتخلف الذي يدّعي تطبيق

الشريعة الاسلامية، فقد أقدم غيلان هذا التنظيم على غزو واحتلال مدينة الموصل و النواحي و القصبات التابعة لها، و قتلوا على الهوية مئات من السجناء الذين كانوا موجودين في سجون المدينة، قبل استباحتها، و ما ارتكبوه من جرائم و فظائع و انتهاكات فيها كرروه في تلغفر ممارسين ضدها القتل الجماعي، و في محافظة صلاح الدين ارتكبوا جريمتهم المعروفة بجريمة "سبايكر"، التي تجاوز عدد ضحاياها ألفا و سبعمائة شخص، جميعهم قتلوا بدم بارد، كأنهم قطع خراف يساق إلى المسلخ، كذلك الحال مع المئات من شباب قبيلتي الجبور في ناحية العلم و البو فهد في محافظة الانبار، ليكللوا مسيرتهم الظلامية بأبشع و أرذل الجرائم بحق الانسانية، من قتل جماعي و قطع للرقاب و نحر بالسكاكين و حرق لضحايا بريئة داخل أقفاص حديدية مغلقة، و سبي لآلاف النساء الايزيديات، و الأطفال، في قضاء سنجار، و اغتصابهن و بيعهن في أسواق النخاسة، و لم يوفروا حتى البنات القاصرات، فقد اغتصبت مجموعة من أو باشهم طفلة عمرها تسع سنين، حملت في بطنها جنينا منهم، و انتقل الهوس إلى غلق المدارس و الفصل بين الطلاب و الطالبات في الجامعات و إلغاء الدروس العلمية و قصرها على "علوم الشريعة"، و إجبار الفتاة على عدم الخروج من بيتها إلا و معها ولي أمرها فارضين عليها "اللباس الاسلامي الداعشي"، الشبيه بأكياس القمامة السوداء، فأعدموا العديد من الفتيات بسبب رفضهن أوامرهم، و جلدوا المخالفين لهم و "لشريعتهن الاسلامية" في الساحات العامة أمام أنظار الناس، و فرضوا عقوبة الجلد على كل امرأة تخرج من دون ولي أمر سواء كانت فتاة شابة أو سيدة طاعنة بالسن.

قامت عصابات "داعش" بمصادرة الحريات الشخصية للناس و الحد منها، و أصدرت فتاوى عديدة بهذا الشأن، منها فتوى بمنع التدخين و عقوبتها الجلد لمن يجده "رجال الحسبة"، أي الشرطة الشرعية، متلبسا بهذا الجرم، و في حالة تكراره تكون عقوبته الموت، و ابتدعت عقوبة قطع أصابع يد من يستعمل جهاز الهاتف النقال، مع تشديد العقوبة بقطع يده إن ضبط ثانية وهو يكرر استعماله، و شوهدت أخيرا في

شوارع قضاء الحويجة دوريات لنسوة داعشيات يطلق عليهن اسم "الشرطة الاسلامية... فصل العَضّاضات" يقمن بمعاقة النساء اللواتي لا يرتدين ما يعرف بالزي الشرعي الذي يفرضه التنظيم عليهن في المناطق الخاضعة لنفوذه، و بعد رصدهن وهن يخالفن تعليمات هذه العصابات الارهابية تقوم "العَضّاضة" بالانقضاض على المرأة المخالفة وعضها في مواضع مختلفة من جسدها لتترك أثرا و علامة عليه، ويتعالى بكاء الضحية و صراخها من شدة الالم، وقد أثار هذا الاجراء العقابي الهلع والخوف بين نساء الحويجة.

ث- إجراءات "داعش"

"إلغاء كليات القانون والفنون الجميلة، والعلوم السياسية والآثار والتربية الرياضية وقسم الفلسفة، وقسم إدارة المؤسسات السياحية والفندقية، وأقسام اللغة الفرنسية والانكليزية والترجمة، وكما تضمنت التعليمات إلغاء مواد وعبارات صنفت على أنها غير شرعية، مثل الديمقراطية، الثقافة، الحقوق، الحريات، الرواية والمسرحية، وعدم وضع أسئلة تتعلق بالوطنية أو بالمعاملات الربوية والحوادث التاريخية المزيفة، والمواقع الجغرافية والحدود المصطنعة، وشطب اسم الجمهورية العراقية ووزارة التعليم العالي واستبدالها بالدولة الاسلامية وديوان التعليم، كما تم نقل الطالبات من كلية الهندسة إلى كلية الطب وتقليص سنوات دراسة الطب من ست سنوات إلى ثلاث، وعزل الإناث عن الذكور".

"وزع الدواعش في مدينة الموصل (فتوى) منشوراً على هيئة أسئلة وأجوبة عن شرعية سبي النساء الكافرات، ومواقعتهن ووطنهن، حتى لا يخالف المسلم فقه الواقعة والوطاء، كما أنهم عزّفوا "السبي" بأنه (ما أخذه المسلمون من نساء وأطفال أهل الحرب) وأجازوا للمسلم سبي النساء والأطفال من غير المسلمين. (٥٦)

(٥٦) الموصل بين احتلالين ٢٠٠٣ - ٢٠١٤ - ص ٩٤.

لم يخرج "الداعشيون" عما أفتى به أئمتهم وشيوخهم بل التزموا بها، حيث يقول ابن تيمية في إحدى فتاواه "إذا دخل المسلم ديار الكفر بغير حرب، يجوز أن يشتري منهم أولادهم ونساءهم، ويصبحون ملكاً له ويجوز له البيع والشراء باتفاق الأئمة، وإذا دخل المسلمون ديار الكفار بعد حرب، يحق للمسلم أن يأخذ أموالهم، وأن يقهرهم بأي طريقة كانت، فأنفسهم وأموالهم مباحة للمسلمين". (٥٧)

"إن محمد بن عبد الوهاب لم يكتف بالقول بشرك المسلمين المعاصرين له فحسب، بل كان يهدف إلى قتالهم وسلبهم أموالهم وسبيهم نسائهم وأطفالهم، الأمر الذي يتطلب توسيع دائرة من يستبيح دماءهم، حتى أنه حكم بشرك وإباحة دماء أربعة أصناف من الناس، وأحد هذه الأصناف هو من يحب المسلمين ويبغض الوهابيين". (٥٨)

لقد خيّرت عصابات "داعش" المسيحيين في بداية دخولها إلى نينوى، بين أن يدخلوا دين الاسلام أو يدفعوا الجزية، والرافض الممتنع يحل عليه القتل بحد السيف وتجتز رقبتة، مما حدا بالآلاف العائلات المسيحية إلى ترك بيوتها وما حوت لتهرب وتنجو، وقامت هذه العصابات بوضع حرف "ن" أي "نصراني" على بيوت وممتلكات المسيحيين الذين تركوها، ويحق لـ "دولة الخلافة الاسلامية" مصادرتها وضمها إلى بيت مال الدولة.

"في الموصل وفي يوم ٢٠١٤/٧/١٧م عرضت داعش على المسيحيين ثلاثة اختيارات: الاسلام/ عهد الذمة (أخذ الجزية) / إن أبوا ليس لهم إلا السيف. وقد منّ عليهم ما يسمى أمير المؤمنين الخليفة أبو بكر البغدادي بالسماح لهم بالجلء بأنفسهم فقط من حدود الخلافة يوم ٢٠١٤/٧/٢١م الساعة الثانية عشرة ظهراً، وبعد هذا ليس بيننا وبينهم إلا السيف، وفي يوم الجمعة ٢٠١٤/٧/١٨م تم إجلاء المسيحيين من الموصل

(٥٧) المنتخب من مدونات التراث (ابن تيمية) عزيز العظمة - ص ١٧٤.

(٥٨) فتاوى ومسائل الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - ص ٩، ١٠.

ليتم إفراغ المدينة من المسيحيين لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام، وقامت عصابات داعش بسرقة أموال المسيحيين الذين خرجوا من المدينة يوم الجمعة ومصادرة سياراتهم ومصوغاتهم الذهبية وأموالهم، كما قام التنظيم بمصادرة منازل المسيحيين في الموصل وسرقة محتوياتها و توزيعها على منتسبيه، أما قضاء سنجار فقد تعرض هو و ناحية سنوني إلى أكبر عملية تهجير وحشية، حيث قام التنظيم في اجتياح القضاء في ٣ آب ٢٠١٤م، بعد هروب جماعي لقوات البيشمركة التي كانت مسؤولة عن أمن المنطقتين منذ عام ٢٠٠٣م، ورافق احتلال داعش - بعد اجتياحه للمدينة - سبي عدد كبير من نساء اليزيديين، ومحاصرة النازحين في الجبل وقطع الغذاء والماء عنهم، إضافة إلى سلب أموالهم وممتلكاتهم وقتل عدد كبير منهم، وقام التنظيم بأكبر عملية نهب لمعامل ومصانع سهل نينوى العائدة للمسيحيين والشبك ونقل بعضها إلى داخل الموصل وإلى الرقة، وقام ببيع كل منتجات المعامل الانشائية للشبك في المنطقة الصناعية الملوثة في كوكجلي بأسعار بخسة، وقام بتشغيل تلك المصانع لحسابه الخاص".(٥٩)

ليس هذا حسب، بل قام الداعشيون بهدم الآثار التي تمثل حضارة العراق منذ آلاف السنين، وتفجير كنائس ومعابد وأديرة المسيحيين، وتسوية بالأرض لمعالم حضارة الآشوريين قبل الميلاد بآلاف السنين، ومقامات ومساجد عمرها تجاوز الألف عام، ولعمري أنها مجزرة ذبحت فيها عصابات "داعش" التراث الحضاري بهذا الشكل الوحشي المرعب المخيف، الممعن بالظلمية، و الذي لم نسمع أو نرى له مثيلا منذ مئات السنين، ويذكرنا هذا بمجزرة مثيلة لها حصلت في أفغانستان مؤخرا، فقد قامت القاعدة ورببتها حركة طالبان بوضع متفجرات هدمت وأزالت بها تماثيل نحتت في الجبال وهي عبارة عن عمل فني كبير من منحوتات تمثل رموزا مقدسة عند أتباع الديانة الهندوسية، قائمة منذ أكثر من ألفي عام، لم تستطع إزاحتها و قلعتها بالمعول والازميل.

(٥٩) الموصل بين احتلالين ٢٠٠٣ - ٢٠١٤ - ص ٩٨

ذلك يدل بوضوح على أن هذه الحركات الظلامية التكفيرية المتعصبة، لا تمتلك حسا وبعدا انسانيين، إنما تهدف إلى طمس وتغييب الرموز والمعالم التي تمثل عمق الحضارة الانسانية، ومحاولة العودة بالإنسان إلى عهود التخلف والظلام والهمجية، ومحاولة محق وسحق كل ما قدمته البشرية من تقدم انساني وحضاري ومدني، وما هدفت إليه من خدمة الانسان وتقديس حرته الشخصية، منطلقة بهذه الأعمال المدمرة الدنيئة، من عقل قد عشش فيه أردأ واسوأ وأرذل وأتعس بقايا وفضلات عفونة الرجعية.

ج-بنية "داعش"

هنالك وصف للبناء الهيكلي والتنظيمي لداعش في الموصل كتبه ودونه وثبته (موريس ميلتون)، يبين سوء هذا التنظيم وراثته فكره ومنهجه وطريقة تعامله مع الآخر المختلف معه، و قد جاء في موضوعة تحت عنوان (ناشط من داخل الموصل - عام كامل على داعش في الموصل: القسم الثاني) ما يأتي: "حين دخلت داعش إلى الموصل ظنّ الجميع أنهم جاءوا بطريقة عشوائية، وأنهم سيحتاجون وقتا طويلا لتأسيس وجودهم في المدينة، ولكن الحقيقة كشفت أن داعش كانت قد جهّزت لكل شيء في المدينة، وكانت تحمل معها أدوات الدولة كاملة حين دخلت، وكانت على دراية كبيرة في أوضاع الحكومة المحلية والإدارية والشؤون الاقتصادية والاجتماعية في المدينة، كان لدى داعش إرث نصّي ومعرفي كبير في أوضاع الموصل واستنادا إلى ذلك الإرث جاءت أفعالها في ملء الفراغ الذي خلفته الحكومة المحلية في الموصل. لقد فهمت داعش الطبيعة السكانية، وأهمية الموصل والآليات التي ينبغي اتخاذها لتنفيذ منهجها وبرنامجها، وقد أخطأ الكثيرون في فهم داعش، واعتبروها مجرد عصابة أو جماعة عشوائية، لكنّ داعش لم تكن كذلك، فهذا التنظيم كان خلاصة التجارب السابقة للجماعات الجهادية، وكان لديهم المنهج الديني الكامل والموروث التاريخي الذي استندت إليه مباني الفكر والدولة في

منهاج الخلافة فقد شهدت المنطقة نشوء دول اسلامية كثيرة، بداية من عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة فالأموية و العباسية و ما تفرع عنها من دويلات في المشرق و المغرب العربي، واقتران تلك الدويلات بأدبيات فقهية وتشريعية كثيرة لا تعد ولا تحصى، وبوجود فقه الواقع و السياسة الشرعية، والأدبيات التي أسس لها ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وحفيده سلمان، والشوكاني وغيرهم من أئمة "داعش" ومراجعهم الفكرية والدينية.^(٦٠)

يقول الكاتب

وكانت لهم دراية كبيرة في أوضاع الحكومة المحلية والادارية والشؤون الاقتصادية والاجتماعية في المدينة).

لقد أغفل دور شركائهم العسكريين البعثيين العاملين في تنظيم داعش والذين كشف الاعلام أسماءهم ومراكزهم فيه وكانوا من قياداته الفاعلة. يمكن مراجعة كتاب هيثم المناع (خلافة داعش من هجرات الوهم إلى بحيرات الدم-المعهد الاسكندنافي لحقوق الانسان، آب ٢٠١٤م، ص ١١)، حيث يذكر الأسماء الصريحة للعشرات منهم وكناهم ودورهم القيادي في التنظيم. بينما لم ينكر عزت الدوري دوره في جيش النقشبندية الذي أسسه وقاده، وكلنا نتذكر خطابه التحريضي الذي بث عبر الفضائيات قبيل وأثناء فترة دخول الداعشين إلى العراق و احتلالهم مدينة الموصل ومحافظتي الأنبار وصلاح الدين، ناهيك عن العديد من أعضاء تنظيمات البعث المتواجدين داخل مدينة الموصل و الذين كانوا ينسّقون ويعملون و يتعاونون معهم و هم على دراية بكل شؤون المدينة و عمل مؤسساتها الحكومية - فأهل مكة أدرى بشعابها - وكانوا يفرضون الأتاوات على المسؤولين والتجار والمؤسسات لسنوات عديدة قبل غزوة داعش، وهم من أمدهم بهذه المعلومات عن كل تلك

(٦٠) ناشط من داخل الموصل-Maouris Milton- عام كامل على داعش في الموصل: القسم الثاني...

الفعاليات التي كانوا يقودونها، قبل أن ينقلب الداعشيون عليهم بعد ١٤ حزيران ٢٠١٤م، ويقوموا بتصفية الخط الأول من قياداتهم.

كانت الوثيقة السياسية التي أعلنتها داعش يوم ١٣ حزيران ٢٠١٤م ملخصاً للمنهج والدستور اللذين اعتمدهما، وفي فقرة منه وضعت التقسيم الإداري والتنظيمي لها في الموصل. وفي فقرة من المادة ١٦ من وثيقة المدينة كتبت "ها هي الآن حقبة الدولة الإسلامية وعهد الإمام أبي بكر القرشي... إمامة قرشية اتخذت الوحي المنزل منهجا والقضاء به أبيض أثلج". في هذه الفقرة إعلان واضح وصريح بأن المنهج والقانون والدستور والمصدر التشريعي الوحيد هو فهمهم لـ "القرآن" وبدرجة ثانية السنة النبوية التي لا تعير لها داعش أهمية كبيرة. على هذا الأساس، أعلنت عن تأسيس نظام الدواوين المتبع في الدول الإسلامية التي نشأت على مر التاريخ الإسلامي، وقد فصلتها هنا، وفي كل ديوان كتبت الفئة المتنفذة فيه، ومن لهم السطوة عليه.

ح- نظام "داعش"

١. ديوان القضاء: منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للنزاع وقطعاً للتداعي بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة وهو من الوظائف التابعة للخلافة، ويرتبط بشكل مباشر بأعلى مجلس تشريعي في داعش لأنه المنصب الفاصل في القضايا لكل الناس من المدنيين الذين تسميهم داعش "العوام" وجنودها.

لهذا المنصب أهمية كبرى لدى داعش، ويعتبر من المناصب التي لا يمكن الوصول إليها بسهولة، فهناك شروط وضوابط كثيرة يجب تنفيذها حتى يستطيع الشخص أن يكون قاضياً شرعياً، لكنها حسمت الأمر، وأعطت المنصب للموالين لها من قبيلة عراقية، وهناك ثلاثة قضاة رئيسيين في الموصل يتمتعون بصلاحيات واسعة، ويعمل تحتهم قضاة صغار بالسن، منهم المدعو "مصطفى الشرعي" الذي ظهر برفقة الصحفي الألماني في المدينة، ولا يتجاوز عمره ٢٣ عاماً، يتولى منصب القضاء في المحكمة

الشرعية في الساحل الأيسر منها، ويعمل معه قضاة آخرون، وقد أسست داعش مؤسسة خاصة لتدريس القضاء الاسلامي تخرجت فيها دفعة جديدة من القضاة انتشروا في مدينة الموصل، وللقاضي مجلس يسمى "مجلس الاستئناس والشورى" حيث تتم مداولة الأحكام والقضايا والخروج بقرار قطعي.

وقد ركزت داعش في إعلامها الترويجي والجاذب للانضمام إليها على ما تسميهم "طلاب العلم الشرعي" الذين يشكلون جوهر هذا الديوان، لأنها بحاجة لوجود هؤلاء بينها، خاصة في الفصل بين القضايا المتعلقة بين مقاتليها. فالقضاة هم الذين يصدرون أحكام الاعداد وإقامة الحدود والعقوبات. وهناك فرع من القضاء يتولاه "قاضي التحقيق" الذي يبحث في القضايا والشؤون الآنية والجرائم والحوادث. وهناك شخص مسؤول عن النظام القضائي، يرجع القاضي الأعلى في شؤونه اليه، وبإمكان المسؤول الأول عنه أن يلغي أي قرار يصدر من المحكمة الشرعية، وأن يعدل على أي قرار.

ولديوان القضاء فروع: القاضي الذي يعمل بالشؤون المدنية مثل الزواج والأحكام المدنية والأحوال الشخصية/ القاضي الذي يعمل بالشؤون الجنائية والجرائم والجنح/ قاضي العسكر ويرتبط بالقضايا المتعلقة بالجند والشؤون والحوادث التي تجري في صنوف داعش العسكرية والأمنية/ قاضي الأموال ويرتبط بالشؤون المالية والجوانب الاقتصادية وما يتصل بها.

وهنا بعض القضايا المتعلقة بديوان القضاء خلال عام واحد:

*إعتقلت داعش شخصا يوم زفافه لأنه لم يذهب للمحكمة الشرعية لتسجيل زواجه، وإنما اكتفى بكتابة العقد المعروف في الموصل بـ "عقد الملا"، كونه يرفض محكمتهم، فأجبرته أن يكتب العقد لديها.

*أصدر القاضي الجنائي قرارا بالإفراج عن ١٥٠ سجيناً لدى داعش ثبتت براءتهم، لكن القاضي الأعلى رفض إطلاق سراحهم، وأمر بإبقائهم قيد الاعتقال لوجود إحساس وشك لديه بأن خروجهم سيدفعهم للعمل ضد داعش، وما يزال هؤلاء معتقلين منذ ٩ أشهر.

*أصدر القاضي الشرعي وحده فقط أحكاماً بالإعدام بلغ عددها ٣٢٧١ حكماً بحق عناصر شرطة وشباب ونساء، كلهم من السنة من سكان الموصل.

*أصدر مصطفى الشرعي أكثر من ٤٦٧ حكماً بالإعدام بحق شباب اعتقلتهم داعش، وعناصر من الشرطة وأجهزة أمنية أخرى، وكلهم من أطراف مدينة الموصل.

*أصدرت المحكمة الشرعية ٣٨٩ حكماً بالإعدام ثبت أنها استندت إلى شهادات زور عبر المخبر السريّ ونفذت هذه الأحكام بحق أبرياء، سلمتهم داعش لأهاليهم مع عبارة "رحم الله ابنكم ونحسبه شهيداً عند الله لأنه قُتِلَ بالخطأ"، ودفعت لهم الديّات.

*أصدرت المحكمة الشرعية تعديلاً (الثلاثاء ٢٤ آذار ٢٠١٥م) على قانون (حد الردة) الذي صدر (الخميس ١٧ حزيران ٢٠١٤م) وكان يقتصر فقط على قوات الأمن من الذين يتم اعتقالهم أثناء الحرب، أو الذين عليهم أحكام سابقة من تنظيم داعش قبل احتلال الموصل، ووسعت هذا القانون ليشمل (ذكورا وإناثا) كل من: الشرطة، المرشحين للبرلمان والمناصب الحكومية التابعة للمحافظة والقضاء وغيرها، موظفي المفوضية العليا المستقلة للانتخابات، من "سب الذات الإلهية"، من أعلن موقفاً بمدح الحكومة أو الجيش أو الشرطة، الزاني المتزوج، باعة السجائر والمشروبات الكحولية والمتاجرين بها، المتخابرين مع جهة خارجية ضد داعش، الأطباء والكوادر التعليمية والأكاديمية الذين تركوا الموصل ورفضوا العودة إليها، المنتمين للقوات التي تنوي تحرير الموصل، السراق، العاملين بالرقية الشرعية والذين تسميهم داعش "السحرة"، ناكثي البيعة، من يثبت أنه يؤمن بالفكر العلماني والشيوعية والبعثية والوطنية، من يعثر لديه على علم الدولة العراقية، من يناصر التحالف الدولي بـ"التفكير، الكلمة، الفعل، الترويج، التمني"، المدخن الذي يصرّ على التدخين بعد اعتقاله وجلده

(يعتبرون من يصّر على التدخين قد عرف الحق وأنكره، ولأن التدخين فيه مجاهرة في المعصية، ومناصرة للاقتصاد الأمريكي باعتبار أكبر الشركات المنتجة للدخان هي أمريكية، فشرّب الدخان يعني دعم الاقتصاد "الصليبي"، من يتحدث عن المسيحيين والايضية ويعتبر ما حدث لهم ظلماً، من يرفض دفع الزكاة متعمداً، متداولي الكتب التي تحمل افكار "الكفر والعلمانية" ونشرها، متداولي وناشري الكتب والأخبار المعارضة لداعش.

*وهناك حكم ردة يصدر ويتطلب التوبة، لكنها لا تمنع من إعدام الشخص، وقد حدث هذا مع عناصر الشرطة خاصة، وتقول داعش إن التوبة فقط لإعادته إلى الاسلام، وبعدها تنتفي عنه عبارة "المرتد"، لكن اعدامه تنفيذ للإرادة الإلهية في إنزال العقوبة، فيتم قتله وهو "مسلم"، لأن عقوبة القتل هذه في حياته تنهي تعرضه للعقوبة يوم القيامة.

٢-ديوان المظالم: منصب ممتزج بين الهيئة الشرعية والقضاء، والعامل فيه له سطوة ويد عليا في التنظيم، وهو أعلى من القاضي، فهو ينفذ ما يعجز القضاء عن فعله، وينظر في الشكاوى والنزاعات بين القبائل والخلافات بين الناس، والخلافات بين المدنيين "العوام" وبين العناصر الداعشية، والخلافات داخل داعش، ولديه الحق بتأجيل أي قرار أو حكم، وأكثر من يعمل في هذا المنصب هم المنتمون لداعش من (قبائل عربية عراقية جنوب الموصل).

٣-ديوان الحسبة: يختصر فعله بعبارة "الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر" حيث يتجول منتسبوه في الشوارع بحثاً عما يسمونها "المخالفات"، فهم جهة تنفيذية، فضلا عنها رقابية، يقومون بتنفيذ العقوبات التي يصدرها ديوان القضاء كالقتل والجلد والصلب والرجم والرمي من البنايات المرتفعة والاعتقال، وقد استطاعت (قبيلة عربية عراقية) من حيازة المنصب لصالحها، و صار من حصتهم، وأمير ديوان الحسبة من هذه القبيلة، ومن يحصل على منصب كهذا يكون خارجاً عن دائرة

المساءلة أو المحاسبة، ويعتبر صاحب الحسبة نفسه ك"اله صغير" في الأرض، لأنه مكلف بأحكام شرعية إلهية سماوية، وهو الذي يحفظ "حقوق الله"، لذلك فإن العامل في الحسبة لا يدافع عن حقوق الناس، بل يدافع عن حقوق "الله" في الأرض، ولهذا يكون منصبه من المناصب القوية جدا، ما دفع الكثير للتنافس للحصول على هذا المنصب.

أ-الصفات الشخصية لعنصر الحسبة

يرتدي عنصر الحسبة ثوبا (دشداشة) بيضاء اللون، قصيرة، ويرتدي فوقها سترة بلا أكمام سوداء، ويضع على رأسه كوفية سوداء، أو صفراء. غالبا هو من القرويين، لم أجد أحدا من رجال الحسبة يتحدث اللهجة الموصلية إلا قليلا جدا، يشعر عنصر الحسبة بأنه مخول بفعل كل شيء، وبأنه خالص من كل شوائب أو عيوب، يتصرف بغضب مع من يخالفه أو يحاول أن يناقشه إذا ما تعرض للمساءلة، يمتلك "وقاحة" كبيرة جدا للتصرف، يرتفع صوته على أتفه الأسباب، يميل دائما إلى استخدام يديه أثناء الحديث مع المواطن، ودائما يرفع اصبع يده باتجاه عين المواطن، لديه (نظر ثاقب) فهو يستطيع رؤية الكحل في عين المرأة حتى وإن كانت ترتدي نقابا كاملا لا تظهر منه العينان، سجّلت بنفسني ٣٤ حالة اختراق نظر لعيون النساء رغم أنها لا تظهر. يمشي مشية متبختر، يتصرف كأنه "نصف إله"، حين يتحدث يشعر أنه وحده السيد وأن من حوله تابعون له، يتحدث وهو ينظر لعيون المواطن بطريقة وقحة جدا، لا يخفض عينيه حين يتحدث، غالبا أول شيء يقوم بفعله إذا رأى مخالفة هو "الهجوم" ومسك الضحية، وسحبه من رقبته أو من أحد كُمي قميصه. حين يمشي، كتفاه مرتفعان، وساقاه متباعدتان عن بعضهما، يلعب لحيته كثيرا، ويحمل بيده سواكا دائما، ويؤشر بالسواك على عين الضحية، لا يعتذر إذا كان مخطئا، ويميل دوما إلى القاء التهمة باستخدام "الشعور" فقط. يتحدث بكل شيء، كأنه يعرف كل شيء عن كل شيء، فهو رجل اقتصاد، وفقه، وسياسة، واجتماع، وتاريخ، وحروب. يكون بين أقرانه الآخرين من عناصر داعش من غير الحسبة بمثابة كائن خيالي لا يمكن الوصول

إليه، يضع أفضل أنواع العطور، وثيابه دائماً نظيفة ومكوية. حين يقود السيارة ينظر إلى الناس "شزرا" كأنهم حشرات حوله.

ب-سيارات الحسبة ودورياتهم

سياراتهم فان بيضاء اللون وسوداء، مرقمة بأرقام من ١ إلى ٢٦ وتكتب هكذا "ديوان الحسبة ف (والرقم)" و"ف" إشارة إلى كلمة "فرقة". كل سيارة فيها نوافذ تفتح ويراقب من خلالها العنصر، وباب من جهة اليمين (في الخلف) يقوم بفتحه، ويمشي بسرعة كبيرة أحيانا. أما دورياتهم فتظهر فجأة عند كل أذان، حيث يقومون بوعظ الناس لحضور الصلاة، ويراقبون حركتهم والأسواق.

ت-الأفعال الموجبة للاعتقال من الحسبة

١. الفعل: التدخين. العقوبة: ٧٠ جلدة، غرامة مالية ٢٥ ألف دينار، إنذار نهائي.
٢. الفعل: إرتداء ثياب مخالفة لـ "لزي الشرعي" الذي عممته داعش. العقوبة: حلق شعر الرأس بالكامل، ٣٠ جلدة، غرامة مالية ٢٥ ألف دينار، تمزيق الثياب، إنذار نهائي، كتابة تعهد بعدم ارتداء ذات الثوب مرة أخرى.
٣. الفعل: إرتداء نقاب لا يطابق الشروط الشرعية والضوابط التي نشرتها داعش. العقوبة: منع المرأة من الخروج مرة أخرى من المنزل منعا قطعيا، يتعرض الزوج للاعتقال إذا تكررت، غرامة مالية ٥٠ ألف دينار، كتابة تعهد خطي بمنع خروج زوجته أو المرأة التي يتكفلها هو منعا قطعيا لا رجعة فيه.
٤. الفعل: حمل هاتف أثناء التجول في الشارع. العقوبة: إذا لم تثبت عليه حالة تجسس أو إيصال معلومات تكون: مصادرة الهاتف، ١٥ جلدة، تعهد بعدم حمل هاتف مرة أخرى.

٥. الفعل: مواد إباحية أو صور "فاضحة" في الهاتف. العقوبة: مصادرة الهاتف، ٨٠ جلد، إنذار نهائي، كتابة تعهد خطي، الدخول في دورة تأديبية على الأحكام الشرعية.
٦. الفعل: عدم دفع أموال الجباية. العقوبة: غرامة مالية ضعف مبلغ الجباية، ٢٥ جلد، إنذار نهائي، كتابة تعهد خطي.
٧. الفعل: حلق اللحية. العقوبة: ١٠٠ جلد، غرامة مالية ٥٠ ألف دينار، سجن لمدة شهر (إلى حين أن تطول لحيته).
٨. الفعل: عدم دخول المسجد أثناء الأذان. العقوبة: ١٥٠ جلد، سجن لمدة اسبوع، الدخول في دورة تأديبية على الأحكام الشرعية، غرامة مالية ٢٥ ألف دينار.
٩. الفعل: عدم اغلاق الدكان أثناء الأذان. العقوبة: إغلاقه لمدة ثلاثة أيام، ٢٠ جلد، إنذار نهائي، تعهد خطي، غرامة مالية ١٠٠ ألف دينار.
١٠. الفعل: الاستماع للموسيقى والأغاني في السيارة. العقوبة: تحطيم جهاز التشغيل، ١٥ جلد، تسجيل معلومات الشخص في سجل المخالفين للأحكام الشرعية، مراجعة ديوان الحسبة مرة كل ١٥ يوما، دخول دورة تأديبية على الأحكام الشرعية.
١١. الفعل: حلق الشعر بطريقة تشبه "الكفار". العقوبة: حلق الشعر بشكل كامل، ٢٥ جلد، إنذار نهائي، كتابة تعهد خطي، مراجعة ديوان الحسبة كل ١٥ يوما.
١٢. الفعل: مغادرة المدينة بدون الشروط والضوابط. العقوبة: من يتم اعتقاله وهو يحاول الهروب، يمتلك القاضي الحق في إصدار حكم الاعدام عليه لأنه رفض العيش في دار الاسلام وفضل العيش في دار الكفر، والعقوبة التعزيرية ٧٠ جلد، وكتابة تعهد خطي بعدم المغادرة، ورهن الأملاك وسند الملكية والسيارة لدى ديوان الحسبة.
١٣. الفعل: عدم تسجيل (العربة المتجولة "البسطية") لدى داعش. العقوبة: مصادرتها وما عليها من مواد، ٣٠ جلد، منع قطعي من مزاوله أي عمل مرة أخرى.

١٤. الفعل: التأخر اسبوعا واحدا عن دفع أموال الجباية. العقوبة: إرسال انذار نهائي بتعريض نفسه للاعتقال والمصادرة للأموال في حالة امتنع عن الدفع لقسم الجباية.

١٥. الفعل: نشر الأخبار والاشاعات. العقوبة: ١٣٠ جلدة، حلق شعر الرأس بالكامل، غرامة مالية ١٥٠ ألف دينار، كتابة تعهد خطي بعدم نشر أية اخبار أو اشاعات مرة أخرى.

١٦. الفعل: التشكيك بحقيقة ما يجري من أحداث وحقيقة اعتبار داعش "دولة خلافة". العقوبة: ١٥٠ جلدة "مغلظة"، غرامة ٢٥٠ ألف دينار، كتابة تعهد خطي بعدم تكرار نفس الأمر، دورة تأديبية على الأحكام الشرعية.

١٧. الفعل: الاستهزاء بعمل ديوان الحسبة أو بأي قسم من أقسام داعش. العقوبة: ٧٠ جلدة، حلق شعر الرأس بالكامل، غرامة مالية ٣٠٠ ألف دينار.

١٨. الفعل: النظر الطويل إلى مواقع داعش أو سياراتهم أو أفرادهم. العقوبة: الاعتقال بتهمة وجود رغبة في الحصول على معلومات، والتحقيق وابقاؤه قيد الاعتقال دون البتّ في قضيته، وغالبا الاعدام.

١٩. الفعل: بيع ملابس تخالف الشرع، أو عرضها بشكل "فاضح" في المحال التجارية، أو عرض "مجسمات" الأزياء فيها. العقوبة: مصادرة المواد، إغلاق المحل لمدة اسبوع، كتابة تعهد بعدم تكرار نفس الحالة، ٧٠ جلدة.

ثمة ملاحظات:

النظام القضائي مقتصر على العراقيين، وعلى القبائل العربية فقط، إذ تم استبعاد الكرد والتعلفريين والأجانب من هذا الديوان/ حاول الأجانب وخاصة الشيشانيين تأسيس محكمة شرعية خاصة بهم للنظر في شؤونهم لكنهم فشلوا في ذلك، نظرا للسلطة التي تتمتع بها القبائل العربية والتي لها نفوذ كبير في التنظيم/ تصرف رواتب كبيرة جدا للقضاة والعاملين بالحسبة، بالإضافة إلى حصولهم على نسبة ٣% من الغنائم التي تستحوذ عليها داعش/ بعد اعتقال الشخص لا يعرض على القاضي إلا بعد مرور اسبوع على اعتقاله، وبعد التحقيق معه، وإذا كان حليق اللحية لا ينظر القاضي في قضيته إلا بعد أن تنمو له اللحية.^(٦١)

إن قائمة الأعمال الاجرامية التي ارتكبتها وترتكبها هذه التنظيمات "الاسلاموية" تمتد وتطول، وهي دليل شاهد على ظلامية وتخلف هذه الحركات الاقصائية، التي تريد العودة بنا الى "الفكر الكهوفي" القادم من الماضي السحيق، والممثلة حيثياته بالجهل والتخلف والقسوة المفرطة والعنف الدموي، ولتفرض قوانينها على الآخرين بالقوة والقسر والاكراه، وبوسائل عنف مبتكرة، ترعبو الناس بها، وتجبرهم بقبولها على مضمض درئاً للموت.

(٦١) المصدر السابق

الفصل الثالث

مربع الطفولة والشباب

١-حي البتاوين حي التعايش والألفة

إن الغرض من التوسع في المشهد الأول الذي يصف هذا الحي وحياة اليهود فيه، والإطالة بالحديث عن أوضاعه و جغرافيته وأحوال ساكنيه وسلوكهم وعاداتهم، والدخول في الكثير من تفاصيله، هو إعطاء صورة واضحة جلية عنه حيث الألفة بين قاطنيه من يهود يشكلون النسبة الأكبر ومسلمين ومسيحيين وعرب وكرد، رغم اختلاف أعراقهم ودياناتهم ومذاهبهم وأطيافهم، و عدم انجرارهم لأعمال العنف التي انتشرت ضد يهود العراق في مناطق مختلفة من بغداد وبعض المحافظات، بدعام ١٩٤١م، ولا بد من عرض صورة واقعية كانت ولم تنزل مرتسمة في العينين مني ومطبوعة في تلافيف ذاكرتي للعيش السلمي المشترك القائم بين مكونات وأديان ومذاهب أهل هذا الحي، تحديداً، وهو يمثل أنموذجاً مجتمعياً مصغراً لكل المدن العراقية، ولقد ولدت فيه وترعرعت، واتسعت حدقتا عيني وابصرتاً أهله، لذلك أردت توضيح الصورة المرسومة فيه آنذاك، عندما كانت الطائفة اليهودية أغلبية سكانه.

٢-البتاوين في بغداد

لقد سمّيت بالبتاوين نسبة إلى مزارعين قدموا إليها من "البتة" -قرية من قرى الحلة- وكانت البتاوين منطقة زراعية تغطي مساحة أرضها بساتين النخيل كبستان الأورفلي وبستان مامو وبستان الخاصكي وبستان الخس، وتشمل رقعة الأرض الزراعية التي تقع مباشرة خارج الأسوار الجنوبية لبغداد والتي تمتد طويلاً من الباب الشرقي حيث موقع

دير راهبات التقدمة، إلى ساحة الفردوس، وعرضا بين شارع أبي نوّاس قاطعة شارع البتاوين (السعدون لاحقا) وشارع النضال.

قام "البتاويون" بالعمل فيها وفق نظام المغارسة (الزراعة) واستوطنوها، وقد كان للمرحوم الحاج صالح المهدي الخفاجي الدور الكبير في ذلك، وهو والد كل من الحاج سلمان المهدي والحاج حسن المهدي وقد كان الحاج صالح المهدي يمتلك بستانا باسمه ملاصق لبستان جميل الأورفلي، وسجلت المنطقة هذه في سجلات الطابو باسم محلة "البتاوين" ناحية "الكرادة الشرقية"، ويبدو أن قبل هذا الوقت كان يقال لمن سكنها من أهل البته "بتاوي"، و إذا سئل أحدهم إلى أين أنت ذاهب يقول إلى "البتاويين" وشاعت هذه التسمية حتى سمي الحي "حي البتّاويين" و من ثم اختصرت الكلمة إلى "البتّاوين" لسهولة اللفظ، وقد أنيطت مختارية الحي بهذه العائلة، فكان منهم حميد المهدي المختار (أبو كاظم) وحسن كريم المهدي المختار وآخرهم عباس حسن المهدي المختار (ابو ربيع)، وقد توسعت لاحقا لتكون البتاوين الأولى والثانية والثالثة وقد شملت التسمية لاحقا حي الأورفلي المقابل لسينما الأورفلي (السندباد) ومنطقة الرّوّاف مقابل جمعية الشبان المسيحيين YMCA، ويقع في هذا الجزء كنيس اليهود وسوق البتاوين والمناطق الأخرى التي تمتد جنوب الباب الشرقي. (٦٢)

قديمًا كان هذا المكان عبارة عن بساتين ممتدة على ضفة النهر. يتحدث ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن هذا المكان تحديداً ويذكر انه كان موقعا لديرٍ عظيم زمن الدولة العباسية. كان يسمى (دير الرّندوّزد) وشأنه شأن الأديرة في تلك الأيام

(٦٢) المعلومة منقولة عن الدكتور كامل المهدي وعن صديق الطفولة اسماعيل عبد الحسين الجاسم الخفاجي، "المولود في البتاوين عام ١٩٣٣" اللذان قدم اجدادهما من لواء الحلة، قرية "البتة" ليستوطنوا هذه المنطقة، التي كانت خارج سور بغداد، وقد أخذوها بالمغارسة ومن ثم نسبت إليهم وأطلق عليها تسمية "البتّاويين" التي اختصرت الى "البتّاوين".

وكان مطرح نزهة لأهالي بغداد على اختلاف دياناتهم واطيافهم لما فيه من بساتين النخل وعرائش الكروم، وذكره في شعره الحسن بن هاني أبو نؤاس فقال:

واسقني من كروم الزندوردِ ضحىً ماء العناقيدِ في ظل العناقيد

غير ان الدير اختفى كما يبدو بسبب الفيضانات الكبيرة والمتتالية لنهر دجلة، وقد انتبه لذلك دارس ومستشرق فرنسي فطلب من جمعية تعود لطائفة اللاتين الكاثوليك تدعى (جمعية اخوات المحبة الفرنسيات) إنشاء دير في المكان نفسه، وكان هذا المكان عبارة عن بساتين ممتدة على ضفة النهر كما أسلفنا، يمتلك الحاج عبد الرحمن الاورفلي بستانا منها كان يقع الدير على أرضه سابقاً. يحده من شماله (ساحة التحرير ومدرسة راهبات التقدمة) ومن الجنوب ببستان صالح المهدي وبستاني مامو والخاصكي، وقد أهدى الأورفلي قطعة أرض من بستانه للجمعية، وقامت بإنجاز البناء شركة معمارية فرنسية عام ١٩٢٠م وضمّ المبنى على غرار دير قديم كان الفرنسيون قد بنوه في القرن التاسع عشر في منطقة عكّد النصارى وتمت تسميته (دير راهبات التقدمة المركزي) أو (College De Saint Rino). وكان بداية يتكون من سرداب ومبنيين ، احدهما يطل على موقع جسر الجمهورية الحالي وكان مخصصا كدير، والآخر كان يطل على جهة شارع أبي نؤاس الحالي كمدرسة للراهبات، وأما السرداب فقد كان مكان لمعيشتهن، بعد ذلك أضيف للمبنى طابقين آخرين وأبنية جانبية ملحقة ليتم افتتاح مدرسة راهبات التقدمة التي اشتملت على روضة وابتدائية وثانوية' وكانت السيدة إميلي رزق الله أول مديرة للمدرسة بروضتها وابتدائيتها وثنويتها، وكان الكادر التعليمي من الراهبات الأجنيبات والمحليات اللواتي حزن تعليما متقدما، فكانت الامريكية الماسيرة جوزفين تدرس اللغة الانكليزية والفرنسية الماسيرة دومنيك تدرس الفرنسية، اما الماسيرة روز فكانت استاذة للموسيقى وآلة البيانو. وكان للمدرسة باصات مدرسية خصصت لنقل الطالبات من أماكن سكنهن الى المدرسة. وفي العام ١٩٧٥ قام النظام آنذاك بتأميم

المدرسة وجعلها مدرسة حكومية وغير إسمها من مدرسة راهبات التقدمة الى ثانوية العقيدة للبنات، وأحال ادارتها لوزارة التربية ففقدت المدرسة بذلك خصوصيتها المستقلة وامتيازات منهجها المتقدم وقُسمت المدرسة الى روضة الشقائق، ومدرسة دجلة الابتدائية، وثانوية العقيدة.

يضم حي البتاوين المنطقة الممتدة بين جبهة النهر غربا إلى شارع النضال شرقا، حتى كنيسة الأرمن الأرثوذكس التي تطل على شارع النضال بالقرب من ساحة السبعوي (الطيران حاليا)، وكلها كانت ضمن حدود أراضي بستان الحاج جميل الأورفلي، وقد أهدى ورثته قطعة الأرض للأرمن سنة ١٩٥٤م لينشئوا عليها كنيسة ومدرسة وقاعة للاحتفالات والباقي ترك كمقبرة لدفن موتاهم، وقد تم بناء الكنيسة عام ١٩٥٦م.

وبعد أن ابتدأ التنظيم العمراني لبغداد العاصمة، تم ترتيب ورسم حدود المنطقة وأزقتها وبيوتها الممتدة بين شارع البتاوين (السعدون حاليا) - الذي كان عبارة عن ممر ترابي يخترق البساتين، وقد أصبح له وجود أكثر مع دخول الانكليز إلى العراق بداية القرن العشرين - وبين ضفة نهر دجلة، يقطعها زقاق في وسطها يمر ببستان المهدي وينتهي ببستان الخاصكي، كانت تقف فيه سيارات النقل الخاص الخشبية الهياكل، التي تقوم بنقل الركاب إلى منطقة الكرادة الشرقية، تتوزع على أرضه أربعة أزقة تبدأ من جهة النهر لتتصل بشارع البتاوين (السعدون)، في الزقاق الأول وعلى نهايته المواجهة لجبهة النهر تقع (مقهى المنشية) وفي داخل الزقاق يوجد (معمل نامليت للمشروبات الغازية) الذي كان يملكه ويديره الأرمني وارتان كرابيت، وكان بيت رويين سيتي المعروف بأبي كمال - وهو من أشهر صرّافي بغداد آنذاك - يقع على جبهة نهر دجلة، وبيت جميل الأورفلي يقع بجانب بيته، ومن سكان هذا الزقاق الطبيب اليهودي (سلمان درويش) وكانت عيادته في بيته، ونشأة عبد الرحمن الأورفلي، ومكي عبد الرحمن الأورفلي وقريبا من بيته بيت أنطوان شماس عضو محكمة تمييز العراق، وبيت اسكندر اصطيغان، أما الزقاق الرابع الذي كانت في نهايته

المواجهة لشارع السعدون سينما الأورفلي ومركز للشرطة وبجانبه من جهة أبي نؤاس بيت كامل الخضيري، ويعد هذا الزقاق هو الحد الفاصل بين بستان الأورفلي وبستان صالح المهدي. وثمة المنطقة البعيدة عن النهر وهي التي يقع فيها جامع الأورفلي حيث تحولت إلى ازقة وبيوت ودكاكين بعدما كانت مزارع وبساتين قامت عائلة الأورفلي ببناء بعض البيوت فيها، وكانت أغلبية بيوتها قد بناها وسكنها اليهود، وكان من سكنة هذا الحي السيد عبد الكريم الأزري وزير المالية في العهد الملكي، والمهندس والمؤرخ اليهودي أحمد سوسة الذي اعتنق الاسلام.

كنت قد تخطيت الخامسة من عمري وأنا العب مع أقراني في حي البتّاوين الذي ولدت فيه، كان بيتنا يقع في المنطقة المحصورة ما بين شارع أبي نؤاس وشارع السعدون (نسبة إلى عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق الذي انتحر ابان العهد الملكي فترة الثلاثينيات والذي يشمخ تمثاله منتصبا وسط هذا الشارع وتحديدا في ساحة النصر الآن). بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، قامت حشود من الناس البسطاء بمحاولة رفع أو هدم معظم التماثيل القائمة في بغداد، منها تماثيل ل: صدام حسين في ساحة الفردوس، عبد المحسن السعدون في ساحة النصر، أبي جعفر المنصور في حي المنصور، أبي نؤاس على نهر دجلة، بدعوى أنها من آثار النظام السابق، وكان بينهم لصوص قاموا بسرقة الجزء النحاسي من تمثال السعدون لإذابته وبيعه، وقد قامت أمانة بغداد بإعادة بناء القاعدة والتمثال حسب النموذج السابق.

شارع ابو نؤاس في بغداد عام 1951



شارع السعدون منطقة البتاويين عام 1954





صورة نادرة تبين الموقع الأول لتمثال عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء العراقي الأسبق والذي انتحر عام ١٩٢٩، نفذه الفنان الإيطالي بيترو كاتيوكا عام ١٩٣٣ قبل أن يرفع وينقل الى مكانه الحالي في ساحة النصر. تظهر الى اليسار منارة جامع الحاجة نجية الأورفلي، وهو من معالم هذه المنطقة، وإلى يمين الصورة عمارة فاطمة والتي اشتهرت بمكتباتها الشهيرة، وبوجود محل الحلواني الشهير الحاج جواد الشكرجي وكافتريات كيت كات وأكسبرس فلسطين، ونلاحظ أيضا وجود نقطة بداية ونهاية خطوط باصات مصلحة نقل الركاب... والموقع الآن يمثل مدخل ساحة التحرير وتفققها من جهة شارع السعدون.



عراقيون يحتفلون امس برفع الستار عن التمثال
الجديد للسعدون في ساحة النصر ببغداد (اف.ب)

تم عمل التمثال الأصلي لعبدالمحسن السعدون^(٦٢) في إيطاليا من البرونز، وتم نصبه في ساحة النصر في شارع السعدون الذي سمي بإسمه، وعقب إحتلال العراق في نيسان ٢٠٠٣، قام لصوص بسرقة للإستفادة من مادة البرونز "النحاس" التي يتكون التمثال منها، وتم الإستعاضة عنه بتمثال آخر موجود حاليا بنفس المكان.

(٦٢) هو عبدالمحسن (باشا) ابن فهد بن علي السعدون، ينتمي إلى أسرة آل سعدون وهي أسرة يرجع نسبها للأشراف من سلالة أمراء المدينة المنورة (أعرجية حسينية النسب) وهم حكام إمارة المنتفق تاريخيا، وكان ضابطا رفيع المستوى في الجيش العثماني، إنتمى للجمعيات السرية التي تدعو لإستقلال العراق وبعد الإستقلال وأثناء تأسيس الدولة العراقية تم تداول إسمه من قبل المجلس التأسيسي الذي رشح إسمه، تولى منصب رئاسة الوزراء أربع مرات في الأعوام ١٩٢٢، ١٩٢٥، ١٩٢٨، ١٩٢٩، وقد انتحر - لأسباب غامضة - ووجدوه ميتا يوم ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٩.



نصب الجندي المجهول في ساحة الفردوس من تصميم المهندس المعماري رفعت الجادرجي عام ١٩٥٩م، أزيل عام ١٩٨١م وأقيم على موقعه نصبا كبيرا لصدام حسين، وقد ازيل هو الاخر عام ٢٠٠٣م بواسطة دبابة أمريكية

إن شارع السعدون يمتد من الباب الشرقي، ساحة الملكة عالية (التحرير حاليا) شمالا حتى مدخل الكرادة جنوبا ، وتطل على جانبه الأيمن مباشرة بيوت كبيرة لليهود وفندق بغداد الذي انشئ في منتصف الخمسينيات، أما على جانبه الأيسر فتقع سينما بابل وسينما النصر اللتان بنيتا في منتصف الخمسينيات أيضا، ومن ثم يخترق ساحة الفردوس التي يقع على أحدا طرفها الآن نادي العلوية الذي كان بيت "مس بل" في العشرينيات، وقد استخدمته كمنتدى ثقافي كانت تدعو له مجموعة من الشخصيات الاجتماعية البارزة من وجهاء بغداد، وكان أبرز المقربين لها من جلاّسها الحاج ناجي رضا جادر اللامي - رئيس بلدية الكرادة آنذاك ومن ثم نائب عن بغداد في المجلس التأسيسي - لما يمتاز به من ثقافة ولباقة وسرعة بديهة وكرم، ويقول المؤرخ عبد الرزاق الجادر اللامي إن تسمية الجادرية نسبت لجده الحاج ناجي الجادر اللامي، أما ساحة الفردوس فقد كانت موقعا لنصب الجندي المجهول بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، ثم أزيل عام ١٩٨١م ليستعاض عنه بآخر في جانب الكرخ. كانت بيوت حي البتاوين تنتشر على جانبي شارع السعدون وكانت هذه المنطقة مسجلة آنذاك

بدوائر الطابو باسم "حي البتاوين" التابع لناحية الكراة الشرقية و دفاتر نفوس عائلتنا في إحصاء ١٩٣٧ تشير الى ذلك.^(٦٤) إن اتجهت شمال هذا الشارع باتجاه الباب الشرقي تجد أمامك على يساره سينما الأورفلي (السندباد لاحقاً) وفي الطرف الآخر منه على يساره تقع مدرسة التقدمة للراهبات، وعند بلوغ ساحة الباب الشرقي على جهتها ليمنى تكون حديقة الملك غازي (حديقة الأمة حالياً)، أما على الجانب المقابل لسينما الأورفلي فيقع حي الأورفلي أو "الأورفلية" وجامع الأورفلي الذي مازال شامخاً موجوداً إلى الآن، وكان معظم قاطني دور هذا الحي على جانبي شارع السعدون هم من اليهود، وكلما تحث السير بعيداً عن الباب الشرقي باتجاه الكراة الشرقية، ترى الدور - التي شيدت في وقت أحدث - أكبر مساحة من البيوت الأقرب، والشوارع أوسع، وإن واصلت سيرك نحو شمال الشارع، تجد بعد ساحة الباب الشرقي مباشرة دور السينما كغازي والنجوم والبيضاء الصيفي، ولاحقاً سينما غرناطة التي بنيت في الخمسينيات، تنتشر بالقرب منها على الجهة المقابلة لحديقة الأمة (حديقة الملك غازي سابقاً) البارات الشعبية التي تزدهم بروادها من الطبقات الفقيرة لرخص تسعيرة ما تقدمه لهم. أما الجهة المقابلة لسينما الأورفلي من شارع السعدون الممتد من ساحة النصر حالياً إلى الباب الشرقي، و التي كان يطلق عليها اسم "الأورفلية" - أساساً كانت بستانا يسمى بستان الأورفلي - فيشطرها طريق إلى نصفين، أحدهما تطل واجهته على الشارع، حيث كانت بيوته متلاصقة وأزقته ضيقة وأبواب دوره الرئيسية تقع على الزقاق مباشرة، وآخرها يمتد إلى ساحة الطيران وكنيسة الأرمن ومقبرتهم حيث كانت بيوته يحدها قديماً من الجنوب سياج طيني تقع خلفه البساتين، وكانت المساحة التي تقع عليها ساحة النصر عبارة عن بستان يطلق عليه بستان الخس - كما ذكر لي أخي الكبير كاظم - ولم تكن البيوت جنوب السياج الطيني والتي تقع على الجانب الشرقي من الشارع قد شيدت في العشرية الأولى من القرن المنصرم، وإن ذهب شرق "الأورفلية" ثمة "كمب الأرمن" الذي شيد لهم بعد هجرتهم من تركيا إثر

(٦٤) دفتر نفوس والدتي الذي احتفظ به، الصادر من نفوس الكراة الشرقية في ١٨/٨/١٩٤٢، مذكور في حقل الناحية "الكراة الشرقية" وفي حقل المحلة او القرية "بتاوين بستان مامو".

مذبحة عام ١٩١٥م، كذلك تقع كنيستهم وخلفها مقبرتهم وبجانبه ساحات تدريب مدارس الشرطة بأسوارها الطينية، التي بنيت على أرضها وزارات الصناعة والتربية والتعليم العالي، أما جانب الحي المطل على شارع السعدون من جهته الغربية فيقع فيه جامع الأورفلي، وبجانبه مطعم تاجران في الخمسينيات والستينيات، وقد تغير اسمه بعدما هاجر صاحبه إلى أمريكا، وإن اتجهت شرقاً فثمة طريق وسطي يربط ساحة النصر بساحة الفردوس، ويتقاطع مع شارع "الزعيم" - التسمية جاءت بعد سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣م- حيث كان فيه بيت عبدالكريم قاسم، الذي كان قد استأجره من دائرة الأموال المجمدة لليهود، ويستمر هذا الطريق الواسطي ماراً بمحاذاة ساحة كهرومانيّة إلى بدالة العلوية، ومن ثم مستشفى فيضي، التي يحدها شرقاً القصر الأبيض "قصر الضيافة الملكي"، وبارك السعدون ذو الحداثق الغناء التي كان يقصدها البغداديون للترفيه عن أنفسهم، خصوصاً أيام الأعياد، لتصل إلى منطقة العلوية، التي كانت فيها دور الضباط الانكليز البسيطة والمبنيّة من طابق واحد، حيث أطلق عليها (دور العلوية)، وقد سمي نادي العلوية على هذا الأساس، وتنتهي حدود هذه المنطقة بالسدة الشرقية، حيث الآن شارع محمد القاسم السريع.

تقع في بداية هذا الشارع مدرسة البتاوين الابتدائية الأولى، التي تحدّها أزقة ثلاثة، يقع في أولها الجنوبي بيت صديقنا الملازم أول الطيار صباح نوري الموسوي -الذي قصف بطائرته حركة الشواف في الموصل عام ١٩٥٩م واعتقل بعد انقلاب شباط ١٩٦٣م فأرسل إلى سجن نقرة السلطان مع معتقلين آخرين بقطار الموت السيء الصيت -وهو شاب متوسط القامة مفتول العضل أبيض السحنة لطيف المعشر، وأخيه علي نوري الذي كان معي في تلكم المدرسة



القصر الابيض في العشرية الرابعة من القرن المنصرم

ذاتها، وعلى بعد ثلاثة أزقة يقع بيت الصديق الملازم الطيار نوري كوريا، الذي اشترك مع "صباح" في قصف الحركة نفسها، وكان شابا طويل القامة أشقر وسيم الوجه، وبعد أكثر من خمسين عاما التقيته عام ٢٠٠٤م في بغداد داخل قصر المؤتمرات وكان يمثل المسؤول العسكري الأمريكي المشرف على منظمات المجتمع المدني العراقية، وقد تعرفت عليه - بعد أن سألته - من نبرة صوته المميزة وبقايا ملامح من وجهه لم تزل مطبوعة في ذاكرتي واستعدت معه تلك الأيام الخوالي، وفي الزقاق الثاني المقابل له، والممتد غربا إلى شارع السعدون، يقع بيت كاظم الساعاتي، وولديه ناطق وطارق، و بيت الدكتور صالح البصام، وبيت هاشم جعفر، شقيق ضياء جعفر النائب والوزير في العهد الملكي وزوج ابنة الحاج محمود الاستربادي، أما الزقاق الثالث فهو الذي يحد المدرسة شمالا، وكان فيه بيت المحامي حسن العطار ، وإذا استمررت في طريقك جنوبا يلاقيك كنيس اليهود ومن ثم حي الرواف الذي يسكنه أصدقاؤنا ومعارفنا أبناء هزبر، كامل (مفوض أمن ائان العهد الملكي) وكاظم وحسين وعباس، كذلك عبد الله الفياض وأخيه حمدي الفياض، والحاج كاظم البلداوي وابنه عادل الذي هو من عمري ومعي في نفس الصف المدرسي.

كان الشارع الذي يتقاطع مع شارعنا، حيث تقع على الزاوية اليمنى من تقاطعهما الواجهة الخلفية لسينما (النصر) التي اغلقت أواخر الخمسينيات وسمّيت (أطلس) لاحقاً، يمتد منحدرًا من شارع أبي نؤاس على نهر دجلة مرورًا بمحاذاة فندق الامباسادور (السفير)- الذي شيّده السيد خليل البحراني والذي يقع بجوار بيت منشي شعشوع- إلى شارع السعدون الذي تقع في نهايته على جهته اليمنى سينما النصر "أطلس" التي كانت تمتد من الزاوية المقابلة لكازينو "سيلكت" إلى نهاية هذا الشارع الذي تتقاطع مع شارع السعدون، كانت مقاهٍ عديدة تنتشر على جانبه الأيمن من جهة نهر دجلة، في الجزء الذي يقع ما بين ساحة النصر وسينما أطلس، حيث اشتهرت منها مقاهي فاضل والحاج مجيد وزناد، والأخير، الذي يقع قبالة ساحة النصر، شهد عام ١٩٦٠م اغتيال الشقي المعروف "خليل أبو الهُب" ، الذي كان صديقًا للشيوعيين، عندما كان يهيم بالخروج من المقهى صوب سيارته الجيب التي كان قد ركنها بجانبه.



(المدخل الخلفي لمبنى سينما النصر "أطلس حاليًا"، والمواجه لمدخل كازينو سيليك، انشأت في ثلاثينات القرن الماضي وهي الآن مخازن لبضاعة اصحاب محلات الديكور المجاورة لها، ويظهر البناء من الاجر القديم)

يذكر أخي الكبير كاظم ما يأتي: كان عبد الله القصاب "أبو فتّاح" صاحب أول محل قصابة في الباب الشرقي وهو صاحب "كبة أبو فتاح الشهيرة"، كان يدور على هذه المقاهي وكان يرتدي "الزبون" أو "الصاية" ويحمل على رأسه صينية يضع فيها أقراص الكبة، وكانت على نوعين صغيرة بسعر (عانة "أربعة فلوس")، وكبيرة بسعر عشرة فلوس، ويبيعهما على زبائن مقاهي زناد وفاضل والحاج مجيد، ومن هذا المكان اشتهرت كبته تحت اسم "كبة ابو فتاح"، بعد أن فتح له محلا متخصصا بها في الزقاق الأول من هذه المنطقة.

لقد كانت هذه المقاهي تعجب روادها من اليهود والمسلمين والمسيحيين، و تقع جمعية الشبان المسيحيين (YMCA) على الجهة ذاتها، يفصلها مبنى سينما أطلس عن هذه المقاهي، وقد أزيلت هذه الجمعية في التسعينيات و أنشئت على موقعها بناية الخطوط الجوية العراقية، و كان يرتاد هذه الجمعية الكثير من الشباب السواح الأجانب، حينها كنا صغارا وكنا نعتبرهم جميعا من الانكليز نلاحقهم ونناديهم "صاحب... صاحب بخشيش" ليناولنا أحدهم "عانه" أربعة فلوس أو "قران" عشرين فلسا، ونادرا ما يعطوننا "درهما" خمسين فلسا إن كان المانح كريما لنعود به غير مدركين، فرحين بالهدية جذلين مسرورين.

كان لجارتنا الأرملة "فخرية الخبّازة" ولدان شابان و ثلاث بنات و كانوا كلهم أكبر منا سنا، الشابان أكبرهما اسمه علي، كان مصابا بمرض "السل" أي التدرن الرئوي و رغم بنيته الضئيلة كان جريئا، مشاكسا، أما الابن الثاني "لطّوفي" - تصغير للإسم "لطيف" - فكان كفيفا إلا أنه كان موضع اعجابنا، كنا نخافه و نهابه، كان "يتزعمنا" و نأتمر بأوامره بطريقة لا ندرك كنهها، لقد كان يقود دراجة هوائية و هو الأعمى، بعد أن يضع أمامه علي "اللشة" أي هيكلها الأمامي، شخصا مبصرا يدلّه على الطريق، و كان "لطّوفي" يتسلق الاشجار، يفتش عن فراخ الحمام "الفخاتي" في أعشاشها ليعود بها مخبأة في "عبّه" زيجه، و يجبرنا على شرائها منه، أو يبيعها له إن لم نكن نملك ثمنها، وكان يعزف على آلة الناي بطريقة جميلة و كأنه عازف محترف، و كان يحرضنا على

اعتراض طريق الشباب اليهود اليافعين وهم يمرون بالقرب منا متوجهين في طريقهم إلى سينما النصر أو إلى المقاهي القريبة، و يقنعنا أنهم وحدهم من يمتلك هذا القدر من المال، و هم جنباء (وهي النظرة الدونية أو الانطباع الذي كان سائدا عن اليهود حينذاك)، لن يعترضوا أو يردوا عليكم متى ما أخفتموهم، وعندها ستحصلون منهم على ما تريدون، و بدافع الخوف من لطوفي الأعمى، ولعدم إدراكنا، بسبب صغر سننا، حيث لم نكن قد تجاوزنا العاشرة من أعمارنا، كنا نتصدى لهم ممسكين بيد حجرا وفي الأخرى قطعة معدنية مدورة الشكل تشبه عملة "الريال" بحجمها و شكلها، وهي السدادة المعدنية لفتحة علبة الصفيح "التنك"، والريال هو العملة الفضية، المتداولة آنذاك، أكبر من الدرهم حجما، عليها صورة الملك فيصل الأول، وهي تعادل أربعة دراهم أو مائتي فلس، نقدمها لهم على أنها ريال وكنا نطلب منهم صرفها لنا ولما كانوا يشاهدون الحجر بأيدينا ونحن نلوح به لهم، ينصاعون لطلبنا و يعطوننا ما في جيوبهم من نقود، خوفا من أن تطال رؤوسهم حجارتنا و بعد أن يبتعدوا عنا و يكتشفوا أن القطعة المعدنية المدورة ماهي إلا سدادة فتحة "التنكة"، يرمون بها إلى الأرض، فنهرع ونلتقطه لنعيد اللعبة ثانية، ونعود بالنقود التي حصلنا عليها لنسلمها إلى لطوفي الأعمى الذي بدوره يعطي كل واحد منا وبكرم بالغ "غانه" واحدة- تسميتها جاءت من العملة الهندية "آنة"-وتعادل أربعة فلوس.



الريال العراقي

على الزاوية الأخرى من الشارع الذي يقع فيه بيتنا، يطل بيت عباس حسن المهدي "أبو ربيع" مختار محلتنا - الآن في موقعه بناية من أربع طبقات - وكان ابنه ربيع طالبا معنا في مدرسة البتاوين الأولى الابتدائية، التي تكون في الطرف الآخر من الحي، عبر شارع السعدون، في الشارع الوسطي الذي يوصل إلى الكنيسة اليهودي، وكان مديرها المرحوم الاستاذ صادق الفتال، ذو القامة المديدة و الشعر الأبيض، مهيبا بوقاره وهدوئه، و كنا نخافه ونهابه لشخصه وعصاه التي يحملها معه أثناء "تحية العلم" الصباحية، و نرغم على احترامه، وثمة معلم العربية الاستاذ شهاب أحمد والد الممثل أحمد شهاب، ذو القامة القصيرة المكتنزة، و مسطرته الخشبية التي كان يلوّح بها ويعاقب الطلاب و يضربهم على باطن أكفهم بها، إلا أنهم كثيرا ما كانوا يتهكمون عليه عندما يدير وجهه صوب السبورة، وكذلك معلم الانكليزية الاستاذ فرج، الأشقر ذو الصلعة العريضة الواسعة التي تغطي جل رأسه، والتي تحمّر وتنتشر عليها قطرات العرق عندما يبدو عصبيا، و في درسه كان يعم السكوت بين الطلاب.

كان ربيع، ابن المختار عباس المهدي، في الصف السادس الابتدائي، أي يكبرنا سنا، لكنه يوازي طالب جامعة الآن، حيث كان ضخما و رياضيا، لاعب كرة سلة، حتى أنه كان يتشاجر مع معلم الرياضة آنذاك الاستاذ كامل القيسي، الممثل لاحقا، و كانت له أخت اسمها حليلة وقع في حبها لطوفي الأعمى، الذي كان يجبرنا على مرافقته والجلوس ساعات طويلة أمام باب بيتها، أو تحت شباكها، لنخبره أنها قد أزاحت ستارة الشباك، أو فتحت الباب قليلا، ليهمس بحبه لها ويظهر لواعج هيامه بها، و هو الصب الذي لا تفضحه عيناه، و نحن الذين كنا صغارا على مثل هذه الأمور لا ندرك أو نعي مغزاها وما هي المتعة التي يجنيها لطوفي منها و هو الكفيف البصير و قد توارت مقلتنا عينيه خلف ستارة جفنيه لتحجب عنه رؤية الاشياء، و يبدو لي أن الحب في قلبه قد تخطى هذه الاشياء و تجاوزها!! في الجانب المقابل بيت عباس المختار، على زاويته المقابلة للشارع المؤدي إلى شارع أبي نؤاس و المتقاطع مع شارعنا، تقع كازينو "سليكت": لم تكن تبعد عن بيتنا أكثر من خمسين مترا، يديرها نسيم اليهودي

- الخمسيني، بكرشه الذي يتقدمه، وضحكته المجلجلة - الذي كنا نناديه عمو نسيم، يقدم الخدمة لزبائننا، وكان كثيرا ما يلاطفنا ويمزح معنا كأولاده، كان بارعا له قدرة التحكم في إخراج الأصوات من مؤخرته متى شاء، يخرجها موسيقية بنغمات مختلفة، يتحكم بها قد تطول أو تقصر، و كنا نستغرب ونددهش كيف يتحكم بها، و لا يخجل منها، و هو بهذا العمر المتقدم، فنخفي وجوهنا خجلا، حابسين ضحكاتنا، نخطب أنفسنا: ألا يستحي من إخراج تلك الاصوات التي نعتبرها نحن عيبا كبيرا؟

في البال حادثة أتذكرها: كنت يومها في حديقة الكازينو، بعمر ست سنوات، كان يوما صيفيا مشمسا، طلب مني نسيم الجلوس على كرسي، ذي قاعدة قد ضفرت من لحاء الخيزران، وأن أرفع "دشداشتي" عاليا إلى منطقة الصدر كي تظهر أعضائي في الصورة التي رام التقاطها لي، وبعد أن ظهرها أعطاها لأخي، و قد احتفظنا بها في بيتنا لفترة، و لما شب طوقي وبلغت سن المراهقة، انتابني الحياء والخجل منها، فأقدمت على تمزيقها، ندمت بعدها كثيرا لتلك الفعلة، فقد كانت صورة غريبة التقطت في حديقة كازينو سيلكت الجميلة لتمثل ذكرى عزيزة علينا من ذلك الحي حيث حلاوة العيش المشترك بين أهله رغم اختلاف مللهم ونحلهم، إضافة لذكرى تلكم الكازينو، التي تمتد بمحاذاة الشارع المتفرع من شارع أبي نؤاس باتجاه شارع السعدون لتقف متحدية سينما النصر التي تربض شامخة على الطرف الآخر رغم ضآلتها أمام صرح هذه السينما، حيث ستبقى راسخة في الذهن لا تغيب عنه.

حينما العتيد الجميل المبهر الذي وصفته، كانت تقطنه غالبية من العراقيين اليهود، كانوا يعيشون و يتعايشون بانسجام و تناغم جميلين مع المسلمين من أمثال أهلنا، وآخرين من قاطنيه في تلك الحقبة من الزمن، وكانت بيوتهم قليلة جدا، قياسا إلى تلك التي يقطنها اليهود، أذكر منها بيوت: سيد حسين العاني الذي يطل على نهر دجلة، خليل البحراني، حمادي الخاصكي وأولاده حسن و حسين وعلي ومحمد وعباس، اسماعيل الخاصكي وولديه قحطان ورياض، عبدالحسين الجاسم وأولاده إبراهيم و اسماعيل و صباح، حيث الأقرب منهم لنا إسماعيل الجاسم الذي كان ناشطا

سياسيا، وقد اعتقل عام ١٩٥٥م وهو لم يزل شابا، ثم سافر إلى بريطانيا للدراسة مطلع الستينيات، وكان هناك عضو جمعية الطلبة العراقيين التي كان يرأسها الشهيد خالد أحمد زكي، وثمة جارهم سلمان شينا نائب بغداد عن اليهود، حيث يقع خلف بيته كنيسة يهودي صغير أمسى خربة، ويعقوب المنصور الذي انتقل سكنه معنا إلى منطقة برك السعدون وولده منصور وعلي قرينان لنا، وعباس حسن المهدي المختار وولده الوحيد ربيع، مهدي الرادود، كاطع محسن اللامي و أولاده حسن وكاظم وفوزي ومجيد وقاسم وعبدالله (نقيب سابق للصحفيين العراقيين)، وجاسم شمر وشقيقه علي، وجاسم محمد الملقب بالأجرب (لجدره في وجهه) - حيث بيته ملاصق لبيتنا - وأولاده محمد و علي و كريم و ستار وابنتاه قسمة و حمدية، و كان جاسم الأجرب ومهدي الرادود (سمّاكة) يمتلكان محلين لبيع الأسماك على شاطئ أبي نؤاس، وأصبح كل من كاطع اللامي وجاسم الأجرب جيرانا ثانية، لما انتقلنا إلى بيتنا الجديد في برك السعدون مطلع الخمسينيات، وجاسم هو شقيق "حجي" مجيد محمد صاحب المقهى في شارع السعدون، وكان هذا يجني رفا جميلا من الطيور المختلفة، بنى لها برجا على سطح مقهاه، وكان على من يجني الحمام أن يتقيد بتقاليد وأعراف وقوانين يلتزم بها هواة تربية طيور الحمام "المطيرجية"، فإن صادف أن اختلطت حمامة غريبة من سرب آخر وحلقت مع حمامه ونزلت داخل "برجه" عندها تعتبر ملكا له، وإن طالب المالك الأصيل بها فعليه أن يأتي بأشخاص "صنف" لينزلوا عند من امتلكها، وبعد أخذ ورد وتدخل من هؤلاء الأشخاص ينتهي المجلس إما بإعادة الحمامة لصاحبها أو باستبدالها وتعويضه بحمامة أخرى.



حديقة (برك السعدون) في بغداد في الخمسينات

الانتقال الى حي برك السعدون

لابد لنا من توصيف هذا البارك الذي يقع وسط حي السعدون، نسبة إلى عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق عام ١٩٢٢، والذي انتحر عام ١٩٢٩ وتخليداً له تم نصب تمثال له في شارع السعدون والذي سمي الحي بإسمه، وتمثل هذه الحديقة في الصورة جزءاً منه، وليس كل حدائقه. أنشأت حدائق برك السعدون في عهد أرشد العمري (١٨٨٨-١٩٧٨) الذي كان أمين بغداد فترة (١٢ تشرين الثاني/ ١٩٣٦ - ٤ حزيران/ ١٩٤٤) وكانت له دار سكن أنيقة في نفس الحي، تطل على هذه الحدائق، وهي لا تبعد عن دارنا أكثر من مئتين متر.

تم إنشاء هذه الحدائق على أرض مساحتها أكثر من مائة ألف متر مربع، تنقسم إلى ثلاثة حدائق، تتوسط الحدقتين الشمالية والجنوبية، حديقة وسطى على شكل دائرة، تتموضع في وسطها بركة ماء، ويتوسط هذه البركة قاعدة دائرية الشكل مرتفعة بُنيت من الإسمنت، كانت فرقة موسيقى القرب للشرطة العراقية، تستخدمها لتعزف عليها الأناشيد والألحان الجميلة في الإحتفالات و المناسبات الرسمية، تحيط بها مروج خضراء وأشجار باسقة ومتنوعة الأشكال، ويزرّ هذه الحديقة طريقان يفصلانها عن

الحديقتين الشمالية والجنوبية، ويربطانها بشارع النضال (الطريق العام) من الجهة الغربية، و بالحي السكني من الجهة الشرقية.

الحديقة الجنوبية تنتشر بين حدائقها الطرق المعبدة لممارسة رياضة المشي، وعلى إمتداد جانبي هذه الطرقات العديدة توجد مصاطب خشبية يستخدمها رواد الحديقة من الشبان وصديقاتهم للجلوس عليها ولإقتناص فرصة راحة بعد فترة طواف وتجوال في أرجاء الحديقة مشيا على الأقدام. وفي ركن يقع خارج الحدود الجنوبية لهذه الحديقة يوجد بيت جميل أخضر اللون أنشأته أمانة بغداد دارا للضيافة سمي (القصر الأخضر) على غرار (القصر الأبيض) قصر الضيافة الملكي الذي مر ذكره لكنه أصغر حجما وأقل مساحة، ربما خصص للضيوف من الشخصيات الأخرى التي تزور العراق، وقد خصص هذان القصران للضيافة لعدم توفر فنادق بمستوى يمكن إستضافة هذه الشخصيات بها. بقي القصر الأبيض قائما إلى الآن، أما القصر الأخضر فقد إحتلته بعض العائلات بعد عام ٢٠٠٣ وأصبح من (العشوائيات) وقسموه إلى عدة بيوت إتخذوها سكنا لهم.

أما الحديقة الشمالية التي تبين الصورة قسما منها يقع جزئها الجنوبي على الجانب القريب من الحديقة الوسطى، ويقع فيه مبنى صغير دائري الشكل جميل تعلوه شرفة يحيط بها سياج مشغول من الحديد والخشب بتصميم رائع وجميل، تطل على بركة الحديقة الوسطى ولا تبعد عنها كثيرا، كان يجلس فيها الوصي على العرش عبد الإله والملك فيصل الثاني وشخصيات مسؤولة في الدولة أثناء المناسبات الإحتفالية، وفي الطرف الآخر من هذه الحديقة (السكيتنج) يوجد مكان للتزلج وهو عبارة عن ساحة كبيرة معبدة. ملساء، ومرتفعة عن الأرض أعدت خصيصا للتزلج عليها بواسطة الباتيناج/ سكيت، و يستخدمها أيضا سائقو الدراجات الهوائية لإظهار براعتهم بحركات بهلوانية، ويقع في الشمال منها وخارج أسوارها مدرسة نموذجية بناها الإنكليز تحولت في عهد عبدالكريم قاسم إلى مديرية الأمن العامة، التي وسعتها حكومة إنقلاب تموز ١٩٦٨ حتى إمتدت حدودها وشملت كل هذه الحدائق وعزلتها

عن باقي أجزاء الحي الذي يقع حولها وتركت - فقط- طريقين يوصلان الحي بشارع النضال، وقد قطعت أشجارها أو ماتت بسبب الجفاف، وأمست هذه الحدائق أرضاً جرداء ومستنقعات آسنة.

يحيط بجميع حدود وأطراف الحدائق الثلاثة سياجات من الطابوق بإرتفاع لا يتجاوز المتر تعلوه أسوار حديدية مشكّلة بجمالية تمتع الناظر إليها، وله أربعة أبواب كبيرة للدخول، ويحيط بالسياج من جميع أطرافه طريق للسيارات، وتنتشر داخل هذا السور أنواع عديدة من الأشجار الباسقة وارفة الظل كأشجار الكالبتوس وأشجار النخيل، وتضفي أشجار الأس وشتلات الورود الأخاذة المتنوعة مسحة من الجمال الفتان البهي البهيج، وتمتد في أرجائه السواقي وتتوزع على كل مساحات الحدائق الثلاثة، لينساب الماء فيها رقراقا يسقي نباتاتها وأشجارها وينعشها، ويطلق نسمات باردة تلطف الأجواء المحيطة أيام الصيف القائضة، وتتوزع أيضا على مساحاتها أعمدة الإنارة، حتى أمست مكانا يرتاده الطلاب للمطالعة فترة الإمتحانات العامة خصوصا طلاب سكنة (العاصمة) خلف السدة بسبب أنهم يسكنون بيوتا طينية مكونة من غرفة واحدة، و بسبب كثرة عدد أفراد العائلة الواحدة التي تعيش فيها، إضافة الى عدم تفرغ الوسائل والأجواء المناسبة للقراءة وعدم توفر الإنارة ليلا في بيوتهم فيأتون للقراءة تحت أضواء مصابيحها، ولإنها قريبة من مكان سكنهم.

بعد عقود من الزمن تحولت هذه الحدائق إلى أرض جرداء خالية كالحة تنتشر فيها برك الماء الآسنة وأصبحت مكبا للزباله والأوساخ بعد أن كانت توصف بالحدائق الغناء، والمبهجة والرئة الطبيعية التي يتنفس منها أهل بغداد من الأحياء الأخرى عندما كانوا يرتادوها فترة الأعياد أو في العطل للترفيه عن أنفسهم ولقضاء أوقات ممتعة، وهم يصحبون معهم الآلات الموسيقية ويقومون بالغناء واللعب، ويجد الأطفال فضاء رحبا جميلا يلعبون فيه ويستمتعون بأجوائه.

بعد تسفير اليهود القاطنين في حيننا البتاوين، مطلع الخمسينيات، إنتقلنا إلى محلة براك السعدون، وهي تنحصر بين شارع النضال والسدة الشرقية، وتمتد من جنوب ساحة الطيران، وكنيسة الأرمن ومدارس الشرطة (حاليا وزارتي الصناعة والتربية والتعليم) إلى بيوت الانكليز (العلوية)، ومن سكان الجزء الشمالي المجاور للقصر

الأبيض، علي السلیمان أمير الدلیم وابنه حاتم وابن أخیه قحطان، وعیسی طه وابنه خالد، وشقیقه طارق، ونصرت الفارسی وابنه نصیر، وآل المتولی: آیمن ومنذر وأحمد، ويعقوب المنصور الحسین وولده منصور وعلي، وشقیقه إبراهيم منصور الحسین وأولاده خليل واسماعيل وفاضل، وفائق الخطیب وولده مؤید وصباح، وماجد رشید، وكاكا عثمان، وهايکاز كاسکانیان وأولاده غازي ومانوئيل وهاكوب، وصهرهم أوهانسیان الخياط، ومؤید الطباطبائي، وكانت تربطنا بكل هؤلاء صداقة حب ومودة، وفي الوقت نفسه انتقل إليها من ساكني حي البتاوين كل من: حمادي الخاصكي، جاسم محمد، كاطع اللامي، كاظم الساعاتي، وأمسوا جيرانا لنا، إضافة إلى عمي عيدان موسى، وجوحي الصكر، وإبراهيم الشهران، وعليوي الصدعة، ورشيد العامري، وعلي وعبد حبش، وهنداس، وكاظم فرهود، ومجید "دعدوشة"، وعبد الحسین الجنابي والد جبار وخصیر، وهاشم الجنابي وولده صباح هاشم الجنابي والصديق العزيز شبيب الجنابي (أبو سعد)، ومطشر الوادي وولديه جميل وهاشم، وكريم الوادي وولديه هاشم وزرار، ودحام كاظم، وقد كانت لنا علاقات طيبة مع كل الذين ذكرتهم باعتبارنا أولاد حي واحد، وهذا ينطبق على علاقتنا الطيبة بالآخرين الذين بقوا يقطنون حي البتاوين القديم، مثل خليل البحراني وعباس المهدي وعبد الحسین الجاسم.

كانت فخرية الخبازة و أولادها يشكلون حيا لوحدهم، لماهم عليه من صخب شقاوة وإثارة للمشاكل، فيمثلون رأس الرمح القتالي في الحي، و كنا نتضرع إلى الله أن لا يوقع أحدا في مشكلة معهم، و إن قيض لهم أن يثيروا مشكلة مع أحد، فالويل والثبور له، لا يدري من أين تأتيه الحجارة صاعقات متراشقات متهاويات عليه من فخرية وبناتها، معززة بسكاكين و"قامات" أولادها الشباب، بيد أنهم، رغم الشقاوة والتمرد، كانوا على كرم كبير و طيبة متناهية، و عندما يكون المرء معهم ودودا لين العريكة يلاقي منهم الكثير من الحب و العطف و الدعم، ناهيك عن حرصهم على أبناء الحي و الدفاع عنهم جميعا دون تفريق، لَمَّا يكون الخطر آتيا من غرباء خارجه، فقد كانوا يستमितون بالدفاع عن حيهم، كما هي حال أبناء الأحياء البغدادية الأخرى.

إن الغرض من الاستطراد و التوسع في الشرح و التوصيف، سابقا و لاحقا، لهذا الحي البغدادی، و لساكنیه، هو إعطاء القارئ صورة واضحة بينة عن طبيعة الحياة فيه، وشكل بيوته، و طرقاته، و تنوع أهله، و التعايش السلمي المشترك بين أبنائه، و متانة

وأواصر المحبة التي تربط بينهم، والألفة التي تنتشر بين قاطنيه، رغم التنوع والاختلاف الديني و المذهبي و القومي، أما عن العلاقات السائدة آنذاك مع اليهود، فقد كانت تربط آباءنا بيهود حيناً علاقات صداقة وزيارات متبادلة، وود كبير فيما بينهم، ولم ينتبهم أبداً غير شعور المواطنة العراقية من خلال التعامل المتبادل، وكان في هذا الحي الكثير من البيوت اليهودية كبيوت: يوسف شاموئيل و نسيم حسقيل وخضوري ميرلاوي و صالح ساسون و شاشا وسليم منشي و كرجي داود، و داود ساسون زبيدة، المقاول الذي لم يترك العراق، وأصبح شريكا يعمل باسم يعقوب المنصور، و الأخير أصبح من كبار المقاولين العراقيين خلال الخمسينيات والستينيات، و هو المقاول الذي بنى مدينة الثورة الأولى، إضافة إلى العديد من مشاريع الطرق، و قد اعتقل داود بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨م، و مات في المعتقل، وثمة كثيرون غيرهم، غابوا عن ذاكرتي، كانوا يسكنون أحلى البيوت و أغلاها ثمنا في هذا الحي.

و هنالك أم سامي، زوجة يوسف شمطوب ، كأنها شاخصة حاضرة أمامي الآن، بشعرها الذي غزاه الشيب و لامست خصلات منه كتفيتها، و فستانها البسيط ذي الألوان الزاهية و ربطة شعرها التي تدفعها إلى مؤخرة رأسها قليلا لتظهر بقاياها، و أساور الذهب الكثيرة التي تزين كلا معصميهما، و أقراطها الجميلة، وكلمة "ابدالك" أي "فديتك" بلهجتها اليهودية المحببة، حيث تسمعا إياها كلما كانت تطلب منا أن نطفئ النور في بيتها، إبتداء من غروب يوم الجمعة، لكي تشعل الشموع التي يسمونها أضواء السبت، ولم أكن أدرك يومها لم لا تطفئه بنفسها أو بواسطة أحد من أهل بيتها؟ وبعد إلحاح بالسؤال عن السبب، علمت أن يوم السبت له قدسيته عند اليهود، وكلمة سبت معناها الراحة، ويحرم الدين اليهودي العمل فيه، فهو يوم راحة لممارسة طقوس العبادة اليهودية، لذلك فإن اليهودي لا يطفئ النور بنفسه بل يطلب من الآخرين من المسلمين أو غيرهم أن ينوبوا عنه بذلك، وهذا ما فهمته من أهلنا، في حينه، جوابا على تساؤلاتي. وفي واحدة من تلك الأيام السبتية دخل إلى بيت أم سامي قريبننا جليل هوير -المعروف بفكاهته- و كان الباب الخارجي مشرعا بينما أم سامي تجلس على "تخته" في باحة البيت الوسطى تضع أمامها "طشت" غسيل الملابس وهي تدندن وتُخرج اصواتا من مؤخرتها بين الفينة والأخرى وكلما انبعث

صوت من مؤخرتها قالت "وبا" وكأنها تلوم نفسها وتدعي عليها - كلمة "وبا" بلهجتهم تعني الدعاء بالوباء أو الوجع أو الموت وفي البغدادية يقابها قول المرأة "انزول علكك" - بينما جليل واقف من خلفها وبعد أن شعرت به التفتت اليه قائلة: منذ متى وانت واقف خلفي يا جليل، قال لها من أول "وبا" يا أم سامي.



بيت قديم لليهود في البتاوين

كان بيتنا بسيطا متواضعا يربض وسط أسوار بستان النخل، يتكون من دور واحد ذي غرفتين، سقوفه خشبية، تتوسطه فسحة كبيرة، تشمخ فيه أربع نخلات تتوزع على مساحة أرضه، إحداهن نخلة "بربن"، تعطي رطبا أحمر يسودّ كله عندما يكتمل نضجه، كنت أحبه لمذاقه الحلو المركز، ينتصب على أحد أركان الفسحة تنور لخبزنا، وفي الركن الآخر زريبة لأبقار أبي كان يبيع حليبها إلى أهل الحي الميسورين، يفصل سياج البستان بين بيتنا وبين مقاهي زناد وفاضل وحجي مجيد، من الناحية الخلفية، و تقع واجهاتها ومدخلها على شارع السعدون، ومن الجهة الأمامية يفصل طريق بيننا وبين البيوت التي تقع على جبهة نهر دجلة، كبيوت خليل البحراني وعباس المهدي وعبدالحسين الجاسم.

كان بيت يوسف شمطوب (وكنيته "أبو سامي") يربض على شارع أبي نؤاس معانقا نهر دجلة بشرفاته المطلّة عليه، لتكتحل عيونها به كل صباح، يودعها جمال غروب الشمس، تمنح جلاّسها متعة النظر إلى روعة النهر وجمال انكسارات الضوء عليه، كان منظره خلابا ورائعا يشدك إليه، تحس بعظمة وروعة حينها، وكأنني به وطن صغير، يتسرب شعاعه إلى نخاع عظامي، فيمنحني نشوة عارمة لا مثيل لها، لا أدري هل لأنها مربع الصبا؟ أم هي روعة المكان وسحره؟ أم هو حب دفين وعشق شفيف لذلك الزمان وناسه وبساطتهم؟

تشاهد أمامك من الشرفة شاطئ دجلة و تشم رائحة تربته ممزوجة برائحة السمك، واللوبياء و الخيار اللذين كان يزرعهما أخي كاظم على رمل شاطئه أيام الصيف، ومجاميع السباحين العائمة فوق مياه النهر المنحدرة من الأعظمية باتجاه الكرادة، وقد ثبت البعض منهم على ظهره "كرب النخيل" أو يعوم على "تيوبات الإطارات" المليئة بالهواء بمثابة "طوق نجاة"، و تسبح الجوقة مع التيار المنحدر في النهر و هم يتبادلون أهزوجة يرددونها سوية، إذ ينادي معلم السباحة بأعلى صوته: أولاد بلبول؟، فيرد عليه تلاميذه: بلي، وكلهم يرددون هذه الاهزوجة: " أولاد بلبول....بلي / ماشفتوا عصفور.... بلي/ ينقر بالطاسه.... بلي/ حليب وياسه.... بلي"، إلى آخرها، منسوبة لاسم صفاني بلبول وهو معلم سباحة يهودي، وكانوا ينطلقون من "شريعة" سيد سلطان علي منحدرين إلى الكرادة، وكانت لهم "جرادغ" - بشكل أكواخ من القصب - مبنية على شاطئ الضفة الشرقية لنهر دجلة بين الأعظمية والكرادة الشرقية، تكون عادة في فصل الصيف.

كان بيت شمطوب مكونا من طابقين و سرداب، مبنيا على الطريقة البغدادية، فهو شرقي يتوسطه فناء مفتوح "حوش"، أرضه مرصوفة بالأجر "الطابوق الفرشي"، يمكنك أن ترى السماء من فتحته العليا، تحيط به غرف عديدة، و ثمة سلم يقودك إلى طابقه العلوي الذي يشبه تصميمه نظيره الأرضي، يتقدمه رواق طويل، و تحيط به غرف كثيرة تطل أبوابها على الحوش السفلي يؤدي منه سلم آخر إلى "السرداب"، القبو، الذي كانوا يستخدمونه مكانا للنوم ظهر أيام الصيف القائضة بعد أن يضعوا طبقة من العاقول أو الشوك الأخضر المثبت على أغصان سعف النخيل "الجريد" على الشبايبك

التي تكاد تلامس سقفه مظلة على جبهة النهر، و كانوا يرشونها بالماء كلما يبست أو نشفت كي تعطيهم هواء باردا منعشا.



بيت بغدادي قديم بني بالطابوق "المنجور" وتظهر فيه "الدنك" الأعمدة والسقوف الداخلية، بطراز فني جميل شكّله "الأسطة" أو "الخلفة" البغدادي.

كانت مداخل هذا البيت و الأعمدة "الدنك" التي ترفعه من الداخل غاية في الجمال وروعة في العمارة و الزخرفة على الآجر مضيئة رونقا و بهاء على بنائه، و هنا أتذكر تماما "اسطه المنجور"، أو المعمار أو البناء أو الخلفة و ما يطلق عليه الآن "اسطه جف قيم"، حيث كان يبني مثل هذا النمط من البناء، ينحت و يزخرف الآجر و يشكّله بفأسه ذات النصل الحاد في مقدمتها الواسعة قليلا والتي تشبه المطرقة في مؤخرتها، ثم يقتلع الأجزاء التي لا تروق له من جسد الطابوقة المكعبة الشكل ليكوّن منها شكلا هندسيا جميلا، يستخدمه في بناء أعمدة المداخل "الدنك" والأقواس والفتحات فوق

الأبواب الرئيسية "الرازونة" و يعطيها أشكالا هندسية جميلة، وتراه يفترش الأرض ويتربع عليها وقد اعتمر "جراوية بغدادية"، وهي عبارة عن "شماغ" طواه بطريقة دائرية على رأسه بعد أن وضع وثبت تحته طاقيه بيضاء "عرقجين"، وهو مزهو بعمله، مستمتع به، يعامل "طابوقاته" بكل محبة وحنان ليخرج منها لوحة زخرفيه جميلة بعد أن يجمعها ويشكلها.

السقوف الداخلية عادة كانت تغلف بالخشب الأحمر المزخرف والزجاج الملون، والدرايزين التي تؤطر السلالم، هي الأخرى من الخشب الجاوي أو الصاج المدهون المشع حمرة والممتد معها صعودا محاذيا للرواق العلوي، ليشكل حاجزا يمنع سقوط الأفراد، كذلك الشباييك الخشبية التي تزينها ألواح زجاج بألوان متنوعة جذابة كأنها ارتدت حلة قشبية، أما الأرضيات فهي من البلاط "الكاشي الموزائيك" تزينها نقشات وزخرفات ورسومات متنوعة، تعطيها الألوان الجذابة إشراقا وجمالا منقطعي النظر.

وثمة "الديوان"، ذلك الركن المبهر الذي يرتفع قليلا عن مستوى أرضية الحوش، تحيط به ثلاثة جدران مزخرفة، تخرج منها رفوف من الطابوق جميلة الشكل، يوضع عليها بعض أعمال الزينة أو "التنكة" الجرة في الصيف، و يطل على الساحة الوسطية من الجهة المفتوحة، يمكنك أن ترتقيه عبر سلّم بسيط مكون من درجتين أو ثلاث، فرشت فيه "كرويات" أو "قنفات" غطيت بسجاد إيراني كاشاني طغى فيه اللون الأحمر على نظيره الأزرق، وضعت عليه وسائد و أرائك جميلة من الصوف المزركش، حتى أنني كنت أخلق الأعدار و الحجج لأم سامي عندما كانت تناديني لإطفاء أنوار بيتها كي أبقى أطول فترة ممكنة فيه، لأستمتع برؤية هذه الجمالية في البناء ورفاهية الأثاث والفرش، و كان أصحاب البيت يستخدمون هذا الديوان لشرب الشاي في "الضحوية" أو "العصرونية". وكانت الغرف كلها مفروشة بأسرة جميلة عليها أغطية نظيفة زاهية ووسائد غاية في الاتقان و من نفس نوع القماش و قد طرّزت عليها رسومات وورود، وكنت أقارنهما بوسائد بيتنا، التي كانت من قماش ذي لون واحد، ملئت و حشيت قطنا أو صوفا، ألوانها باهتة، بعكس التي لديهم، فقد حشوها بريش الطيور ناهيك عن

ألوانها الزاهية، وأثاث بيتنا التي لا يعتد بها، فقد كانت غرفة الجلوس فيه واسعة عربية الطراز يمتد على طول أرضها و لصق جدرانها سجاد مستطيل الشكل عليه وسائد صوفية يتكئ الجالس عليها، ويتوسطها منقل و دلال قهوة أبي و هاونه ومحمصا.

كان أبو سامي "يوسف شمطوب" تاجر شاي في سوق الشورجة يمتلك سيارة شوفروليت "كشف" سقفها من القماش "تنته" كما يطلق عليها، لونها رمادي براق وكراسيها من الجلد و مقودها من العاج الأبيض، و هنا أذكر أن عرضا سحريا قد أقيم يوما و جيء بساحر أو بهلوان، خصص له مكان مقابل سينما النصر في الحي و قد استلقى على ظهره مفترشا الأرض واضعا لوح خشب على جسده لتمر فوقه سيارة أبي سامي العتيدة، فكنت مندهشا لقوة هذا الرجل أو لسحره عندما قام منتصبا بعد ذلك، لهذا انطبعت هذه الحادثة في ذاكرتنا أنا و أقراني عبدالله ياسر ابن عمتي فجر و عباس عبد الحسين ابن عمتي نجية الساكنين معنا، وابن جارنا فوزي كاطع اللامي، الذي كانت أمه تلبسه قرطا ذهبيا يتدلى من شحمة اذنه و قد أطالت شعر رأسه معتقدة أن عين الحسد سوف لا تصيبه وهو يبدو للناظر بمظهر الفتاة، وكان المشهد هذا يسحب ذاكرتي نحو حدث آخر، حيث كنا نخرج نحن صبية الحي يوم خسوف القمر وبأيدنا علب من الصفيح و الصواني نقرعها لتعطي أصواتا فيما نردد "ياحوته يا منحوسة، هدي قمرنا العالي، و ان كان ما تهدينه لدقك بصينية"، إلى آخر هذه الترنيمة، و قد أخبرنا أهالينا إن لم نطلق مثل هذه الأصوات و نزعق عاليا فستنقلب الدنيا وتقوم القيامة أي تكون الآخرة قد حلت.

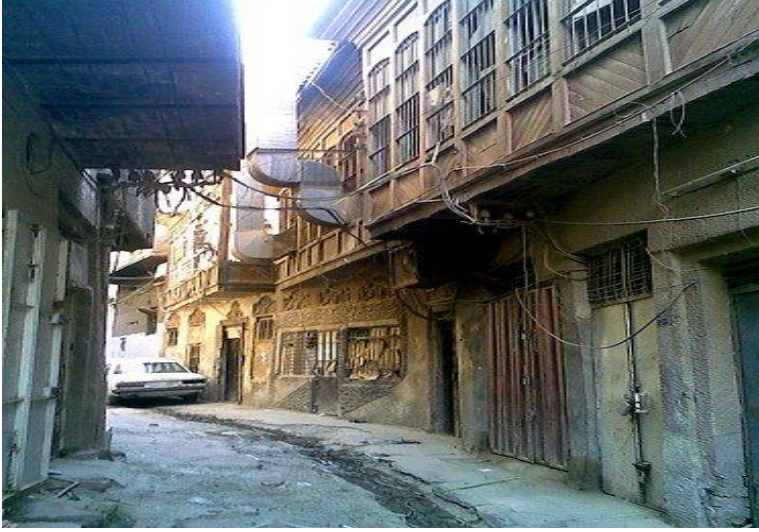
كان يوم السبت عطلة اليهود، و لم يكن وقتئذ من وسائل لهو غير المقاهي والسينمات والبارات، وكان كبار السن منهم وحتى شبابهم يرتادون مقهبي زناد والحاج مجيد، اللتين تقعان في الحي، منذ العصر حتى المساء، يحتسون الشاي ويدخنون الأركيلة، مستمعين لأغان عراقية تتعالى من جهاز الكرامافون، أو "القوان" كما كنا نسميه، كما كانوا يطلبون سماع أغنية لأم كلثوم، تتردد فيها عبارة "شدة

وتزول يا عين"، وها أنا الآن أتذكرهم بلباسهم التقليدي "الصاية" أو "الزبون" الأبيض بالخطوط السوداء، معتمرين الطرايش الحمر "الفينة"، أو بلباس أوربي مع "سدارة" على الرأس يطلق عليها الفيصلية، و شبابهم قد مشط شعره وصففه بطريقة جميلة بعد أن ثبته بالكريم الذي يعطيه لمعانا كنا نندهش له.

لقد كان تعدادهم بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م في العراق يتجاوز المائة والثلاثين ألفا، و كانوا شركاء فاعلين في الدولة العراقية التي تأسست في آب ١٩٢١م، حيث تم استيزار حسيقيل ساسون للمالية في الحكومة المؤقتة و استمر بذلك بعد التأسيس، كما تبوأ يهود آخرون مراكز في الدولة الفتية، و كان لهم دور ملموس في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية، إذ مارسوا التجارة والهندسة و الفن والسياسة، و قدموا خدمات كبيرة و كثيرة للعراق، و كانت هذه فترة تميزت بتمتعهم بالحرية الدينية، حيث بناء كنيسهم في مدن بغداد والبصرة و الناصرية و مزاراتهم كالكفل في الحلة و العزيز في العمارة، و ممارستهم طقوس عبادتهم، فكانت تلك الفترة بمثابة العصر الذهبي الذي قدموا فيه أفضل خبراتهم وكفاءاتهم في خدمة البلد.

في عام ١٩٩٤م بينما أنا جالس في معرضي، على شارع الجمهورية في الجزء المجاور لمحلة الفناهرة التي يقطنها أغلبية يهودية منذ العشرينيات حتى الخمسينيات، إذا بشاب، ذي عشرين عاما، يدخل علي يحمل بضاعة يروج لبيعها، و بعد مساومة طويلة على سعرها، لم يتأفف خلالها - ولاتضايق أو تبرم - بل كان سلسا يمتلك قدرة الاقتناع، أقسم لي بالنبي موسى بأن ربحه فيها قليل، وصدقته بعد ما علمت أنه يهودي واسمه عامر موسى، لكن الذي أثار استغرابي صغر سنه و هو لم يزل مقيما في بغداد يسكن حي الفناهرة القديم العريق، الذي كان في الاربعينيات حيا يهوديا، و قد ظل يتردد علينا كثيرا يعرض بضائعه المتنوعة التي كانت تتراوح بين المشروبات الكحولية، من الأنواع الجيدة الفاخرة التي يحصل عليها من الأسواق المركزية، وبين الملابس والمأكولات والحلويات، دون أن يرد للزبون طلبا، فعادت بي الذكرى إلى الأيام

الخوالي لليهود، حيث كانوا مسيطرين على الشورجة و أسواق الجملة و تجارة السيارات، و بارعين في التجارة الخارجية، حتى أن أكثر الدالين "القومسيونجية" كانوا منهم، و تيقنت أنهم يمتلكون من الذكاء و الفطنة و الشطارة ما يجعلهم يتفوقون على أقرانهم من العراقيين الآخرين.



أحد أزقة حي الفاهرة

حين كنا طلابا صغارا، في طريقنا إلى مدرستنا، نمر من أمام باب جانبي للكنيس، أو "التوراة" بحسب ما نطلق عليه، يطل على شارع فرعي يقع فيه مبنى الكنيس، مؤدًا إلى الشارع الرئيسي حيث البوابة الرئيسية للمبنى، في الجانب الشرقي لحي البتاوين، الذي يمتد شمالا من منطقة الأورفلية، جهة "حديقة الملك غازي"، ليصل جنوبا إلى الشارع الرابط ما بين ساحة الفردوس و شارع النضال، و تقع على الشارع الرئيسي الممتد وسط الحي مدرسة البتاوين الابتدائية، يقابلها على الطرف الآخر دكان الحاج عبد الأمير العطار الشهير (الذي كان بمثابة صيدلية للأدوية العشبية)، و تنتشر فيه محال الخضرة الممتدة على طوله، و كنت أقطع في طريقي إلى مدرستي تلك، فأشاهد الأطفال يرشقون الحجارة نحو داخل الكنيس من مدخله الجانبي، ولم أكن أدرك سبب هذا التصرف المتسم بالعدوانية، لكنني كنت رغم صغر سني أشمئز منه و أجده

اعتداء سافرا على أناس مسالمين، لم يكن ردهم يتعدى غلق باب كنيسهم بوجه المهاجمين، وهم الذين يشاطروننا العيش في الحي بسلام و دعة، هؤلاء الذين تحدروا من سلالات سكنت العراق منذ السببين الآشوري عام ٦٩٧ ق.م و البابلي عام ٥٨٦ ق.م لليهود.



معبد اليهود (الكنيست) في البتاوين (مهجورة حاليا) وتظهر البوابة البيضاء الجانبية التي كان الاولاد يرمون الحجارة منها الى داخل المعبد.

لقد أدركت بعد نضج ووعي أن الاعلام الرسمي العراقي، آنذاك، هو الذي كان يدفع مسلمي بلدنا بهذا الاتجاه، يساعده في ذلك الشعور الديني المتعصب لدى الكثيرين منهم، إذ أنهم لم يضعوا في اعتبارهم عراقية اليهود ووطنيتهم، ودورهم البارز في بناء العراق المعاصر، وإسهامهم المتميز الفاعل في اقتصاده، حيث يعد أبرزهم حسقيل ساسون أول وزير مالية في أولى حكوماته بعد الاستقلال، و قد أسس النظام المالي الحديث للدولة العراقية الفتية لدرجة تثبته بيع نפטها بجنيه الذهب - لا بالجنيه الورقي - رغم محاولات البريطانيين لإثناؤه عن هذا الاجراء، إضافة إلى "ابراهيم وشفيق عدس، وكلاء شركة فورد، لأوي وكلاء جنرال موتورز، و كان اكفاً مدرسي اللغات الاجنبية، صالح شمیل للفرنسية، وحسقيل افندي للإنكليزية، و كان أكبر

التجار المستوردين للمواد الصحية من اليهود سالم شمعون هو الذي أدخل (الكيزر) السخان والبانيو إلى حمامات البيت البغدادي، وأكبر المخازن لبيع الأقمشة على اختلاف أنواعها كان مخزن شاشا في خان الصفاير، وبيت حكاك هم الذين استوردوا ماكنات (سنجر) وكرامافونات (صوت سيده) واسطوانات بيضافون إلى العراق، بيت سودائي هم الذين أسسوا المعمل الذي ينتج الطابوق الرمادي اللون المعروف باسمهم، بيت بلبول اشتهروا بدلاية وبيع الأراضي، وسليم بلبول هو الذي تولى بيع أراضي الوزيرية لحساب الخزينة الملكية الخاصة، بيت دنكور احتكروا تجارة الورق والمقوى وسائر صنوف القرطاسية، وأكثر من نصف أعضاء غرفة تجارة بغداد كانوا من اليهود".^(٦٥)

ناهيك عن مساهماتهم الفكرية و الأدبية و الفنية، حيث برز منهم فيها من يشار لهم بالبنان، خصوصا أحمد سوسة، الذي كان اسمه نسيم قبل إسلامه، و هو مهندس ري، أشرف على اكبر مشاريع الري في العراق، فضلا عن كونه كاتباً و مؤرخاً، له مؤلفات عديدة منها: نظام الامتيازات في الدولة العثمانية ١٩٣٣م، في طريقي الى الإسلام ١٩٣٦م، تأريخ حضارة وادي الرافدين ١٩٤٤م، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ١٩٤٨م، تطور الريف بالعراق، دليل ري العراق، سدة الهندية (هذه الكتب باللغة الانكليزية ١٩٥٤م)، مفصل العرب واليهود في التأريخ، حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، فيضانات بغداد في التأريخ ١٩٦٣م، و من كتبه الهامة تأريخ يهود العراق العرب، و اليهود في التأريخ، و برز منهم في مطلع القرن التاسع عشر الصائغ المعروف يشوع جنكنة، كما هو الحال مع الكثير منهم من الصناعيين وملاك الاراضي الزراعية و اصحاب الحرف والمهن الحرة، الذين ينتشرون وسط وجنوب العراق، وغرب العراق وتحديدًا في مدينة عانة كان لهم وجود واضح و مؤثر.

أما الفنانين فكان منهم الأخوين داود وصالح الكويتي، وسليمة مراد الملقبة بـ "سليمة باشا"، والتي كانت ترفع علما على مقدمة سيارتها، وآخرين برزوا في هذه المساهمات، وغيرها، كانوا يرفضون مغادرة الوطن، والانسلاخ منه والابتعاد عنه، إلا أن

(٦٥) بغداد كما اعرفها -يهود العراق -امين المميز -١٩٨٤

الحكومة العراقية قامت بتسفير أغلبهم على عجل وبالإكراه، بعد إسقاط الجنسية عنهم، متواطئة في ذلك مع الحكومة البريطانية والصهيونية العالمية.

كان أبو سامي يوسف شمطوب يمتلك عقارا بالقرب من الكنيس في البتاوين وكان قد عرض على أبي أن يسجله باسمه في دائرة الطابو قائلا: احسن ما يروح للحكومة " بيد أن أبي رفض هذا العرض لسببين، أولهما أن هذا في ديننا محرّم شرعا باعتباره مالا مغتصبا لأن مالكيه كانوا مكرهين ومجبرين على تركه أو بيعه، حيث أجبرهتهم الحكومة على مغادرة العراق بعدما اسقطت عنهم الجنسية العراقية، وثانيهما أن أبا سامي هو جار وصديق و بيننا عشرة طويلة، لكنه عاد ثانية ليقول: " يا أخي ادفع قيمة العقار حليبا كأنك اشتريته وبهذا لا تخالف الشرع خصوصا أنني أرغب أن تأخذه أنت برضاي ولست مكرها على ذلك، إلا أن أبي أصر على موقفه قائلا: مهما دفعت لك فيه فانك في داخلك مكره على تركه غير راغب في بيعه فدع الحكومة تأخذه لتتحمل وزر خطيئتها.

وفي مطلع الخمسينيات فرغ حي البتاوين من ساكنيه اليهود، فترك أبي بيته في هذا الحي، الذي ولدت فيه و فتحت عيني عليه وعشت طفولتي بين ربوعه، لينتقل بنا إلى حي بارك السعدون، الذي يعتبر امتدادا للحي ذاك، حيث اشترى أرضا عمّر لنا بيتا عليها، ورغم بعد المسافة الزمنية التي تفصلني عن حيننا القديم "البتاوين" لم يزل الحنين والشوق يأخذاني إليه لأزوره بين الفينة والأخرى وأسير في طرقاته و أكحل عيني برؤية بقية من بيوته التي تحمل عبق تلك الأيام، رغم تهاوي جدرانها و تداعي أبوابها و تهشم شبابيكها، وتغير الكثير من معالم شارعنا وما يحيط به، فأقف حائرا واجما مذهولا وخيبة أمل تسربلني، ونظرة حزن تؤلمني، و أنا أتطلع إليها، أمام بيت "شمطوب" الذي تحول إلى مشرب لكنه مازال يحتفظ بجماليته المعمارية لم تمسه يد التخريب فتعود بي الذكرى إلى الطفولة و لعبها البريء، والحارة وناسها الطيبين، وجمال وبهاء تلك الأيام الهانئة، لتنهمر دموعي دون أن تستأذني، وعينا ي شاخستان صوب ذلك البيت تشيع بنظراتهما بقايا أبوابه وشبابيكه القديمة.

ما يحز في النفس أن الحي فترة الحرب العراقية الايرانية في الثمانينيات قد تحول إلى سكن للعمال العزّاب من المصريين و السودانيين، و انتشرت في شوارعه محال

الديكور و أدواته، و بضع عمارات سخيقة سقيمة، كأنها توابيت موتى صفت فوق بعضها، ولم يعد المار فيه يشم عبير القداح المنبعث من أشجار البرتقال والارارج وعبق "طلع" النخيل في موسم الربيع، و رائحة "السعد" المنبعثة من شاطئ دجلة، وكأني بها زائرة شفيفة لبيت أبي سامي المطل على الشاطئ ترمقه بنظرة عتاب، تجر خلفها أذيال الخيبة و الحزن، و تخجل من القاء التحية على ما تبقى من بيوت الحي، وهي التي تحمل معها أريج نسيمات دجلة الخير و شواطئه التي غطتها شجيرات اللوبياء الخضراء و نباتات خيار "المي" ورائحة درنات جذور نبتة "السعد" و أشجار الزور أو "الطرفة" كما كنا نسميها، و هواء الشط المحمل بأريج رائحتها التي تحيي الميت أو "ترد الروح" كما كان يقولها أهلنا، ترافقها حسرة حرّى، و زفرة آه على ذلك الزمن الجميل، الذي لن يعود.

الفصل الرابع

العنف السياسي ضد حزب القيادة المركزية

إن جميع الأنظمة التي جاءت إلى السلطة نتيجة انقلابات في مراحل العهد الجمهوري التي تلت ثورة تموز ١٩٥٨م، كانت تعطي الأولوية لتحقيق مصالحها بعد حماية نفسها مستخدمة كل الوسائل القمعية الدموية لتثبيت سلطتها، مع الإشارة إلى أن كل تحقيقاتها مع القوى المعارضة لها كانت تدار بسلطة قمعية سياسية لا بمهنية قضائية.

لابد هنا من العودة إلى الفترة التي تلت انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، والممتدة حتى عام ١٩٦٨، حيث كانت حبلى بصراعات داخلية، لم تقتصر على الحزب الشيوعي العراقي وحده بل انتقلت إلى الأحزاب الأخرى، ومنها "البعث" حين انقسم إلى جناحين، كل منهما يحمل اسم "حزب البعث العربي الاشتراكي"، هما الجناح اليساري الذي اعتقلت قيادته بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨م، في قصر النهاية، والجناح اليميني الذي اعتقل هذه القيادة مخيراً إياها ما بين الاعتزال السياسي والانضمام القسري له بزعامة "البكر - صدام". وكانت هذه الصراعات الداخلية قد طالت الحركة القومية عموماً، قبل ذلك حيث حصلت انقسامات في صفوفها، فكان الحزب الاشتراكي العربي المنشق عن حزب الاستقلال عام ١٩٦١م، وكان من زعمائه عبد الرزاق شبيب وأحمد الحبوبى وتوفيق المؤمن، و حزب مؤتمر الوندوين الاشتراكيين (إياد سعيد ثابت)، وحركة الاشتراكيين الديمقراطيين (فؤاد الركابي)، والرابطة القومية (هشام الشاوي)، وحركة القومييين العرب، التي انقسمت ثانية إلى الحركة الاشتراكية العربية بقيادة عبدالإله النصراوي و مؤتمر القومييين الاشتراكيين، و حزب الكادحين العرب، و حزب العمال الثوريين، و حزب الوحدة الاشتراكي، والعصبة القومية، والمؤتمر القومي، و حركة الوندوين الاشتراكيين. حتى أن بعضها ذهب إلى تبني الفكر

الماركسي، ورفع شعار الكفاح المسلح، كالحركة الاشتراكية العربية، التي كان يقودها عبد الإله النصراوي، والتي تعاونت بنشاطها خارج البلد وفي كردستان العراق مع حزب القيادة المركزية خلال فترة قيادة الرفيق إبراهيم علاوي له.

كذلك ثمة وقائع أدت الى انشقاق حزب القيادة المركزية عن الحزب الشيوعي العراقي، كان في مقدمتها السياسات التي مارسها هذا الأخير، بعد النكسة الكبرى عام ١٩٦٣م، منذ انتهجه خط آب ١٩٦٤م اليميني، الذي بارك قرارات التأميم التي أصدرتها حكومة طاهر يحيى ومنظرها خير الدين حسيب في عهد عبدالسلام عارف، حيث الدعوة للتعاون مع الاتحاد الاشتراكي، و فكرة دمج التنظيمين، و توحيد نشاطيهما، فتمخض اجتماع اللجنة المركزية عن إقرارها بنظرية التطور اللارأسمالي، وقد ورد في بيانه "إن الثورة المصرية انتقلت إلى مرحلة جديدة... هي مرحلة التحولات الاجتماعية الهامة، التي نقلت الجمهورية العربية المتحدة إلى طريق التطور اللارأسمالي و باتجاه الاشتراكية" متابعا "تمارس انجازات الثورتين المصرية والجزائرية نفوذا متزايدا كطموح لنضال كل الشعوب العربية و الافريقية، و هي قد وضعت جمهوريتين شقيقتين في طليعة العالم العربي" ثم معترفا " اتخذنا نحن الشيوعيين العراقيين، في الماضي مواقف انعزالية تجاه حاملي شعار الوحدة العربية، وكانت المعادلة التي طرحناها بعد تموز خاطئة... كان علينا أن لا نرفع أصواتنا بدعوة مناقضة مع الدعوة إلى الوحدة... إذا كان علينا أن نعترف بإمكانية تطور العراق على أساس الخط اللارأسمالي، فإن علينا حتما أن لا ندخل حزبنا في طريق الاستيلاء على السلطة، و سنبقى في الطليعة، ولكن هناك قوى أخرى تتبنى أهدافنا تدريجيا، وهذا يتضح جليا من خلال مقررات الاجتماع الموسع في ٩-١٠ تشرين أول ١٩٦٥م، و جلسة ١٩ تشرين الثاني ١٩٦٥م للجنة تنظيم الخارج لدراسة مقررات الاجتماع الموسع".^(٦٦)

إن مسألة (الطريق اللارأسمالي) شكلت القاعدة لخط آب، و موقف قيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي كان متناقضا مع المزاج الأساسي لجملة كادره

(٦٦) حنا بطاطو -العراق- الكتاب الثالث -ص ٣٥٢، ٣٥٨، ٣٦٨.

المتبقي الذي كان يتجه يسارا بشكل متزايد، وإن الخلافات والتناقضات و"الشلية" كانت قائمة بعد عام ١٩٦٣، داخل هذه القيادة، حيث اختلف وجهات النظر و"الضبابية" في رؤية سياسة الحزب المستقبلية، على كيفية القيام بالثورة واستلام السلطة، فضلا عن الصراع و التجاذب القائمين بين أعضاء قيادته، واستقطاب الأفكار ومراوحتها بين اليمين واليسار ، فانقسمت إلى فريقين كان بينهما فريق وسطي توفيقى مثله الرفيق عزيز محمد سكرتير الحزب، في محاولة منه لتوحيدها والحفاظ عليه من التصدع، وقد ضاع بينهما، بسبب افتقاده للدور القيادي الريادي، الذي يجب أن يبرز في مثل تلك الظروف لحسم الموقف، لفترة استمرت على مدى أربع سنوات، فبدلا من بلورته الآراء المتصارعة والخروج منها باستنتاج موحد يرسم سياسة الحزب ويقنع أعضاء قيادته وكوادره وقواعده بصواب التوجه، وهنا تتبين السمات القيادية الخلاقة، تحول إلى مهدى للخواطر وموفق بين الأطراف المختلفة مبقيا على الاختلاف والصراع بينها، بعدما بدا مستترا خامدا، ليعيش الحزب وقيادته حالة "مرضية سريرية"، رافقها تشوش عند الكثير من الكوادر المتقدمة للحزب، ما أدى إلى انشاقه في ١٧ أيلول ١٩٦٧م.

هكذا تولدت قناعة لدى معظم رفاق الحزب الشيوعي العراقي بأنه لم يعد حزبا ثوريا وأن السياسة التي ينتهجها تمثل الفكر اليميني الذليل، و ليست لديه النية الجادة بالشروع في تغيير النظام القائم، و التصدي الحازم للقوى المعادية، و هذا ما كانت تدعو له أكثرية جماهيره و كوادره، حتى أن بعض الذين لم يلتحقوا بالقيادة المركزية (ف.م)، وبقوا مع اللجنة المركزية (ل.م)، كانوا يحملون نفس القناعة، منتقدين ومخطئين، لكنهم رأوا أن الانشقاق ليس حلا، كونه يضر بتماسك الحزب ولا يحافظ على وحدته، التي كانوا يعتبرونها مقدسة لا يمكن المساس بها بأي حال، وربما كان أحد أسباب رؤيتهم هذه هاجس الخوف لديهم من الانشقاقات السابقة التي قامت بها كتلتا "راية الشغيلة" و"وحدة الشيوعيين"، والتي طالت جسده في الأربعينيات والخمسينيات، ومع ذلك جاء رفض قيادة منطقة بغداد لتوجه (ل.م) بغالبية

تنظيماتها العمالية والطلائعية والنسائية، إضافة إلى قطاعات واسعة جدا من التنظيمات المدنية والعسكرية للحزب، في كافة أنحاء العراق، ناهيك عن تعاطف أغلب رفاقه في السجون، أي أن أكثرية الشيوعيين قد انضمت لـ(ق.م)، وفي هذا الصدد يقول حنا بطاطو: "كانت قتالية اللجنة المركزية من نوع القتال على الورق وحسب، إذ أنها لم تتخذ، في الواقع، أي مبادرة على الإطلاق ضد الحكومة، وبشغلها الآن موقع اليسار لم تكن اللجنة المركزية تهدف إلا إلى امتصاص الضغوط الهائلة الصادرة عن القاعدة والمطالبة بتكتيك أكثر نضالية، كما أن اللجنة سعت، من ناحية أخرى، إلى تجنب انشقاق خطير كان سيفه مصلتا على رقبة الحزب".^(٦٧)

إن ما حصل للشيوعيين إثر انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، مما لم يحصل بحقهم منذ عام ١٩٤٨، حيث ممارسة العنف الوحشي ضدهم وعمليات الاعتقال التي طالت عشرة آلاف منهم وتعذيب رفاق لهم حتى الموت والتصفيات الجسدية المباشرة الشاملة لآخرين في حزبهم ناهيك عن تنفيذ حكم الإعدام بالرفيقين سلام عادل وجمال الحيدري، ولّد هاجس التطير من شعار "التطرف اليساري المغامر"، فخيّم على ذهنية قيادة الحزب، التي تشكلت بعد الانقلاب، رافقته روح التردد والمهادنة، والافتقار للوضوح في اتخاذ القرار الحاسم بالطرف المناسب، ما دفع المعارضين لهذا "الهاجس" إلى التطرف في استخدام وسيلة العنف للتعامل مع الآخر، والاعتقاد بأن العمل المسلح هو الحل الأنسب لخلاص الشعب العراقي من الاضطهاد، معززا بالغيان الثوري الذي كان يعم العالم في تلك الفترة، مع الإشارة إلى أن أكثر المتأثرين بموجة الغضب الثأرية كانوا الكوادر الخارجة من المعتقلات بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، وهم من الناجين الذين صمدوا بوجه أشنع أنواع التعذيب، لحدّ أن شاهدوا مقتل رفاقهم أمام أعينهم، مما خلق عندهم استياء واسعا ضد قيادة الحزب التي كان أغلب أعضائها خارج العراق خلال تلك الفترة الصعبة.

(٦٧) حنا بطاطو - الكتاب الثالث - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت - لبنان - ص ٣٨٣.

في أحد اشرفات اللجنة المركزية علي "لجنة محلية العاصمة و الثورة للحزب الشيوعي العراقي"، قبل ما يقارب شهرين من انقلاب شباط ١٩٦٣م، زار لجنتنا الرفيق الياس حنا كوهاري مشرفا - أحد أبطال اضراب عمال كاورباغي في كركوك، قتل في الانقلاب بإدخال قضيب حديدي في فمه بعد أيام من التعذيب - وطرح موضوعا غاية في الأهمية، يوضح "أزمة القيادة" التي كان يمر بها الحزب حيث قال "لم يبلغ حزب هذا الشأن من القوة والقدرة وسعة التنظيم، ومن الحضور الجماهيري الواسع، والتنظيم المنتشر إلى ابعد قرية على خارطة العراق، التي إن لم يكن لنا فيها رفيق حزبي يكون لنا فيها صديق للحزب، إن حزبا يصل هذه المنزلة والقدرة، إما أن يستلم السلطة أو يتعرض لضربة كبيرة موجعة"، وفعلا تحققت الضربة الكبيرة الموجعة.

إن قول الرفيق كوهاري هذا هو خير دليل على أن الحزب كان يمر بأزمة تحتاج حلا، وأن قيادته تعيش "صراعا داخليا"، وتقف عاجزة عن ايجاد البدائل، وفي الحقيقة كانت تدرك أنها تعاني واقع "أزمة قيادة لا أزمة حزب"، حيث الاعتراف بأن حزبا يمثل هذا التنظيم المدني المنتشر على جغرافية العراق، والتأييد الجماهيري الواسع الذي يحظى به، وهذه الأعداد الكبيرة من الضباط والمراتب والجنود في القوات المسلحة، ويمتلك هذه القدرة التنظيمية الفائقة، وهو عارف ومستشعر بأبعاد هذا الخطر الكبير الداهم الذي ينتظره، لكنه يقف حائرا مرتبكا غير قادر على التصدي وحسم الأمر أمام هذا الوضع، وكانت المفاجأة والصدمة صبيحة انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، حينما أصدرت القيادة بيانا تدعو فيه الجماهير إلى افشال المؤامرة وإسقاط الانقلاب تحت شعار "الجماهير تسقط المؤامرة"، دون أن تسأل نفسها كيف للجماهير أن تسقط الانقلاب وتفشله وهي غير مهيأة فكريا ولا مستعدة أو معبأة تنظيميا أو مؤهلة كفاحيا ولا تملك أبسط الاليات كي تقف بوجهه وتسقطه، فقد كان لدى منظمة الكرخ بندقية واحدة، كانت مع الرفيق فوزي عباس، ولدينا في محلية العاصمة و الثورة مسدس واحد، ثم يتضح أن الرصافة كلها لا تمتلك قطعة سلاح، وإن وجدت لم تصل إلى يد أي رفيق، ناهيك عن الظروف التي مربها رفاق الحزب قبل الانقلاب، من أعمال عنف

واعتداءات متكررة من جانب تنظيمات الانقلابيين، وحملات اعتقال كانت تقوم بها أجهزة الأمن التابعة لحكومة عبدالكريم قاسم، وزجها بالمئات من الشيوعيين وأصدقائهم في السجون.

إن المثل الذي طرحه عزيز الحاج في تقييمه لانقلاب ٨ شباط والتداعيات التي خلفها، جاء تعبيراً دقيقاً عن أزمة الحزب وصفه بـ"أنه كمن يمسك بندقية مصوبة نحو العدو لإطلاق الرصاصة الأولى ويد الرامي تقبض عليها واصبعه على زنادها وهو ينتظر لأكثر من أربع سنين، ولما حانت ساعة الصفر وضغط الرامي على زنادها وجدها صدئة عاطلة لا تعمل"، ومن هنا جاء الارتباك والتشتت وعدم المقدرة والثبات في مواجهة الانقلاب، فقد وقف الحزب حائراً، وجماهيره باتت مشتتة عزلاء من السلاح، نزلت إلى الشوارع هائمة فيها، لا قيادة ميدانية تقودها وليس من أحد يوجهها، ضائعة ما بين حزبها وبين قاسم الذي رفض إعطاءها السلاح بالرغم من مطالبتها به أمام مبنى وزارة الدفاع، حائرة لا تعرف كيف تواجه الانقلابيين مع كل زخمها العارم وهي تقف أمام عناصر مسلحة مدربة منظمة و محددة الأهداف.

إن ممارسة أي عنف سياسي فكرياً وعملياً بسبب الاختلاف في الرأي، أمست سلوكاً لمعظم قيادات الأحزاب والحركات، مع أن العنف السياسي في جوهره يتناقض مع ثقافة التسامح والتفاهم وقبول الآخر ومفهوم السلم المجتمعي وتضامن أفرادها، وإن عدنا إلى كل الخمسينيات وبداية الستينيات، لوجدنا أن جميع القوى السياسية على اختلاف أفكارها ومشاربها وتوجهاتها قد مارست هذا السلوك القمعي بشكل أو بآخر، سواء في العهد الملكي الأخير أو في العهد الجمهوري الأول، حيث برزت هذه الممارسة في الصراع القائم بين السلطة الحاكمة والاتجاهات المعارضة، بأساليب وحشية عنيفة. وحين نعود إلى أواخر الستينيات، ثمة حركات اليسار في منطقتنا والعالم، حيث كانت تميل إلى "العنف الثوري" في ممارساتها النضالية تجاه الحكومات الدكتاتورية.

ولغرض المرور على تجربة عشتها مع الحزب الشيوعي العراقي، حتى الانقسام الذي حصل فيه، سأبين بعض السلوكيات التي كانت تتسم بطابع العنف في التعامل مع الآخر، عبر منظور موضوعي منصف باتت عدسته أكثر تجليا بعد رحلة قاربت نصف قرن، مرت خلالها أحداث وحصلت فيها تطورات، محليا وعالميا، ساعدت على وضوح نظرنا وفهمنا لتلك التجربة المرحلية. وعندما نمارس تقييما أو نقدا لها، يجب أن نتناولها على وفق ظرفها وزمنها، وليس من خلال الظرف والزمن الراهنين، لنقف مترئين عند الأفعال التي مورست حينها، كي لا نكون في موقف متجن غير منصف، وأن يكون التقييم والنقد إيجابيين للارتقاء بمفاهيمنا ومداركنا.

لقد كان اليسار الشبابي العالمي منتصف الستينيات، كله تقريبا في حالة غليان وتمرد على القيم السائدة وجمود المجمع وأنظمة التعليم والإدارة والمحظورات الدينية، وإصلاحية قيادات الأحزاب الشيوعية، وموجة الانقسامات داخل عدد من نقاباتها، وبالرغم من وجود حركات شبابية ماركسية أو تروتسكية أو غيرها، إلا أن غالبية القوى الناشطة ذات الحراك اندفعت للأسباب ذاتها، ومن هنا كان البحث عن الجديد، حيث الأحداث البارزة، كثورة الطلبة الفرنسيين في ايار ١٩٦٨م، وتحركات الطلبة الصينيين، وما حصل للشيوعية في سورية ومصر وللأحزاب والحركات القومية العربية كالانقسامات داخل حزب البعث وحركة القوميين العرب، فسادت قناعة تمحورت بأن القيادات الحازمة هي وحدها المؤهلة لقيادة الجماهير نحو النصر الحاسم على الرجعية والاستعمار.

وفي مثل هذه الظروف، ابّان تلك الفترة، ظهرت مراجعات فكرية وسياسية كثيرة على الساحتين العربية والعالمية، وأصبح الانتفاض على السائد، قيما وأفكارا وأنظمة، هو التيار الغالب، وكانت لمسيرة جيفارا الثورية بريقها وألقها الخاصين بين الشباب الثائر، بحيث هيمنت فكرة أن ليس ضروريا انتظار جميع العوامل والشروط الموضوعية والذاتية للثورة - كما نصت النظرية الماركسية اللينينية لإسقاط الأنظمة الرأسمالية - لشن الكفاح المسلح، بل البدء به حيثما كانت ظروفه جاهزة في هذا

الموقع أو ذاك، فكان العمل الثوري هو المقياس الأوحـد في نظر أكثر الشيوعيين وجماهيرهم ممن طال شعورهم بالإحباط من عواقب الأخطاء وما ضاع جرّاءها من فرص وإمكانيات مهدورة، نجمت عن خلل في التكوين المعرفي والثقافي للقيادات، مما سبب في مآزق وأخطاء كارثية.

وبالتناظر مع المجازر الدموية البشعة عام ١٩٦٣م وحملة القمع والمطاردة التي شملت الآلاف من المثقفين اليساريين وانعكاساتها، زادت فاعلية بداية ظهور حركات تمرد، وبروز مفاهيم وآراء تدعو إلى تجديد الحركة الشيوعية في العراق، حتى أصبح أمرا لا مفر منه، ونتيجة حتمية، أدت إلى انشاقات فكرية وتنظيمية طالت جسد الحزب الشيوعي العراقي...منها: القيادة المركزية التي انطلقت في ١٧ ايلول ١٩٦٧م، "فريق الكادر" الذي كان يقوده إبراهيم علاوي (نجم محمود) في أواخر عام ١٩٦٦م/ ومجاميع صغيرة كمجموعة "الكفاح المسلح" بقيادة أمين الخيون "أبو جماهير" (الرفيق صادق) الذي كان جزءا من فريق الكادر واختلف معهم قبل انطلاق القيادة المركزية، ورفاق من داخل الحزب الشيوعي غير مقتنعين بسياسته، منتقدين إياها، يحملون أفكار التغيير والتجديد ويدعون لها، معتقدين أنهم قادرون تحقيقها داخل الحزب، ليس خارجه، وأن الخروج عليه إضعاف له.

في حديثه عن فريق الكادر، الذي كان أحد قياديه، ومن ثم انضمامه للقيادة المركزية، وباعتباره عاش التجربتين، فكان قياديا ناشطا فيهما، يذكر الرفيق فاروق مصطفى رسول ما يأتي: "بين عامي ١٩٦٦ - ١٩٦٧م إنشقت مجموعة من الرفاق الأعضاء عن الحزب الشيوعي العراقي وشكلت حركة تنظيمية تحت اسم فريق الكادر بقيادة (نجم محمود) إبراهيم علاوي، وقبل الخوض بتفاصيل النشاطات لابد من العودة، إلى تسليط الضوء على حركة فريق الكادر (نجم محمود) التي كانت تضم عددا من الرفاق منهم: إبراهيم علاوي، خالد أحمد زكي، فاروق مصطفى، فؤاد الامير، ماجد علاوي، زهير علاوي، صباح كوركيس، نوري كمال، إبراهيم اسماعيل، وآخرين، قبل التحاقها بالقيادة المركزية، وقد انفصلت حركة فريق الكادر عن الحزب الشيوعي

العراقي لوجود ملاحظات عديدة لدى اعضاء رفاقها على النهج السياسي اليميني الذيلي للحزب وتبعيته للاتحاد السوفيتي، وقمع الرفاق الذين يحملون آراء لا تتفق مع الخط السياسي للحزب وتمسك قيادته واحتفاظها بالقيادة لعقود من الزمن، وقد أصدرت الحركة بيانا أدانت به هذه السياسة وخطأاتها، وبعد انطلاق القيادة المركزية قرر فريق الكادر إجراء مفاوضات معها لغرض توحيد التنظيمين وانضمام تنظيم الكادر إلى القيادة المركزية، رغم أن حركة الكادر كان لديها ملاحظات على بعض الرفاق في القيادة المركزية وتحديد الرفيقان حسين جواد الكمر وبيتر يوسف لتبنيهما خط آب اليميني عام ١٩٦٤م، عندما كانا ضمن كوادر الحزب الشيوعي آنذاك، قبل أن ينضما إلى القيادة المركزية، إلا أن هذه الملاحظات لم تؤثر على عقد اتفاق بين الطرفين والتحاق فريق الكادر بالقيادة المركزية، وبعد اعتقال عزيز الحاج وأعضاء القيادة المركزية، وقيادة جهازها الصّدامي والكادر المتقدم، وانهيار عزيز الحاج وظهوره على شاشة التلفزيون، واعترافه التي كشفت التنظيمات الحزبية، كان عدد من أعضاء القيادة ومرشحيها الذين قيّض لهم أن يفلتوا من قبضة السلطات الأمنية، وبقوا بعيدين عن أعين أجهزة أمن ومخابرات وتنظيمات حزب البعث، قام هذا الفريق المتبقي من القادة والكادر المتقدم في القيادة المركزية وعلى رأسهم الرفيق إبراهيم علاوي بلم شمل التنظيم والانتقال إلى كردستان، وعقد كونفرانس حضره ثمانية عشر رفيقا تم فيه انتخاب قيادة جديدة تألفت من الرفاق إبراهيم علاوي، مصلح مصطفى، خضر سلمان (أبو جعفر)، ماجد وزهير علاوي وآخرين، أنتخب فيه الرفيق إبراهيم علاوي سكرتيرا للقيادة المركزية بإجماع الحاضرين، لتمييزه الفكري ولمؤهلاته القيادية وثباته وطول تجربته النضالية".

"انتقلت القيادة الجديدة إلى كردستان مركز انطلاق الحركة، وبدأت عملها وفي الوقت نفسه تواصلت مع منظمات الفرات الاوسط والجنوب لتمارس نشاطا متميزا - كنت في حينها مسؤول منظمة السليمانية ومتفرغا للعمل الحزبي - وقد ثبتت قاعدتنا العسكرية في كردستان، وترسخ تنظيمنا الحزبي بتلك الفترة من نضالنا

المسلح، وكنا نحصل على السلاح من جمهورية اليمن الجنوبية الديمقراطية عبر منظمة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومن الحزب الديمقراطي الكردستاني وما كان يقدمه لنا من تعاون ودعم ومساعدة، وكانت علاقاتنا جيدة بحركات المقاومة الفلسطينية".

"لقد تعزز وضعنا التنظيمي والقتالي وبتنا نمتلك الامكانيات التالية: قواعد عديدة في كردستان/ إعادة تنظيمات بغداد/ إعادة تنظيمات الفرات الأوسط. إلا أن اتفاقية الجزائر في اذار ١٩٧٥م، التي عقدت بين شاه إيران والحكومة العراقية، قد أضرت بالحركة الوطنية الكردية المسلحة وبتنظيماتنا المسلحة في كردستان، إضافة إلى محاولات سلطات البعث للقضاء علينا عبر دس السموم لقتل رفاقنا ووضع الألغام لغرض إضعاف حركتنا والتأثير على معنويات رفاقنا المقاتلين، مما أضعف حركتنا بشكل كبير، رغم أننا بقينا نقاوم مع عدد من قادة البيشمركة الذين رفضوا إيقاف القتال وقد بذلنا أقصى الجهود إلا أن تداعيات النكسة كانت كبيرة جدا وفوق إمكانياتنا". (٦٨)

ويذكر الرفيق مصطفى جاورش، أحد قياديي الجهاز الصّدامي المركزي للقيادة المركزية، خلال استذكاره لنشاطه فيها بعد تشكيلها الجديد في كردستان، ما يأتي: "بعد اعتقال صالح العسكري ولطيف مراد، وتنقلي واختفائي في بيوت عديدة استلمت رسالة وردت من كردستان من الرفيق مصّلى مصطفى (عضو القيادة المركزية)، بعد اعتقال عزيز الحاج وأعضاء القيادة الباقين طلب منا فيها الانسحاب من بغداد والتوجه إلى كردستان، وفعلا سافرت إلى أربيل، واتصلت هناك بالرفيق فاضل من قلعة أربيل، وزرت مقر القيادة المركزية في كلاله، بعدها عدت إلى مقر حزب القيادة المركزية في السليمانية وكان الرفاق إبراهيم علاوي، مصّلى مصطفى وفاروق مصطفى على رأس العمل هناك ومارسنا نشاطنا وعملنا بالحركة المسلحة للقيادة المركزية، بعد فترة ومن خلال المعلومات المؤكدة التي حصلت عليها القيادة

(٦٨) مقابلة شخصية مع الرفيق فاروق مصطفى رسول في السليمانية -آب ٢٠١٥.

المركزية تبين أن الرفيق مصلىح مصطفى كان يعمل مع حزب البارتى، دون علم القيادة المركزية، وبعد التأكد من ذلك اتخذ قرار بإقصائه وفصله من حزب القيادة المركزية بعد أن وجهت له التهمة بالعمل مع حزب آخر وهو لم يزل عضواً في حزبه وفي قيادته، وطلب الرفيقان إبراهيم علاوى وفاروق مصطفى منى اعتقال مصلىح مصطفى وهو مسؤولى السابق، قمت أنا والرفيق كمال شاكى وبشكل هادئ بتجريدته من سلاحه وتسليم السلاح للرفيق "أبو لىلى" إبراهيم علاوى، وبعد إقصائه وطرده من حزب القيادة المركزية، التحق بحزب البارتى، دون اتخاذ إجراء باعتقاله أو محاكمته (لأسباب عديدة)، بعدها عاد إلى بغداد وعينتته سلطة البعث مديراً للثقافة الجماهيرية فى الحكم الذاتى، وقامت سلطات البعث بمحاولات عديدة وبطرق شتى للنيل من تنظيم القيادة المركزية، منها أنها بعثت فى عام ١٩٧٠م طروداً ملغمة إلى مقر القيادة المركزية، وعند فتحها انفجرت وراح فيها ضحايا وجرحى، وأيضاً تم إرسال السموم بطرق عدة لقتل رفاقنا"... وكانت لنا علاقات جيدة بمنظمات الكفاح المسلح الفلسطينية كالجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وكنت فى مرات أرافق الرفيق إبراهيم علاوى أو الرفيق فاروق مصطفى إلى سوريا فى مهام تتعلق بنشاط القيادة المركزية، لغرض الاتصال بالمنظمات اليسارية خارج العراق للحصول على الدعم المادى والاعلامى".^(٦٩)

إن ما حصل كان "ولادة طبيعية"، رغم بعض الأخطاء التى وقعت فيها القيادة المركزية، حكمها ذلك الظرف من ممارسات قيادة الحزب الشيوعى، وقد سادته انعدام الأجواء الديمقراطية داخله وعزوف قيادته عن سماع آراء الكثير من كوادره وبعض قادته، وتصنيفهم بأنهم من حملة "الفكر اليسارى المتطرف"، حيث التهمة الفضفاضة التى استخدمت سلاحاً ضدهم. لذلك فإن تجربة حركة حزب القيادة المركزية، كصفحة من التاريخ السياسى المعاصر، تستحق منا، نحن الذين كنا فى قلبها، أن نراجعها بموضوعية ذات نظرة منصفة لها، لكن بلا تحيز، آخذين بنظر الاعتبار ظروف مرحلتها،

(٦٩) مقابلة شخصية مع الرفيق مصطفى جاورش فى السليمانية-آب ٢٠١٥.

التي تحررتُ منها وتجاوزتها. أي أن انتمائي السابق للحركة هذه لن يجعلني منحازا لها، أو لسواها، ولا يمكنه أن يحرف بوصلتي عن مسارها الصحيح في التقييم الموضوعي لنهج القيادة المركزية الذي كنا نعتبره صائبا آنذاك عندما ننظر إليه من خلال ذلك الظرف الزمني الذي كان يحكمها ونحن في خضمّه. بمعنى آخر: ألا نحكم الآن على نهجها بالخطأ بعد مرور ما يقارب نصف قرن لتجربتها منطلقين من ظرف زمني مختلف حصل فيه تطور مجتمعي وتراكم معرفي، فضلا عن تحولات كبيرة في العالم، منها انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك المعسكر الاشتراكي، إلى آخر ما طرأ على كرتنا الارضية.

إن الانشقاق الذي حصل للحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٦٧م، رغم أنه ألحق ضررا كبيرا في كيانه و أضعف الحركة الشيوعية في العراق عموما، كان "اجراء حتميا " أمام الطريق المسدود في إحداث التغيير المطلوب من داخل الحزب، نتجت عنه "صدمة قوية" له ربما كان من دونها سيبقى سائرا مستمرا بنهجه السابق، باقيا عليه بلا جدوى، بسبب غياب الديمقراطية عنه، ومحاربة الأفكار التي تعارض اليمينية السائدة لدى قيادته آنذاك، واتهام المعارضين لها بالنطرف اليساري والمصابين "بمرض الطفولة اليساري"، إلى آخر قائمة هذه الاتهامات، التي تصب في خانة العنف الفكري، وقد رافقتة إجراءات عديدة بتنحية بعضهم أو ابعادهم عن قيادة المنظمات الحزبية الفاعلة ومعاقتهم بإنزالهم إلى منظمات وهيئات حزبية أدنى، أو نقلهم إلى منظمات أخرى غير فاعلة، لمجرد أن يحضروا اجتماعاتها ويكونوا فيها أرقاما مضافة غير فاعلة، والغرض من ذلك تجميد نشاطهم، وكل هذا كان يجري بعلم ومعرفة ودراية وتأيد القيادة.

من أجل أن يكون حزب ما حزبا سليما ومعافى، بعيدا عن أمراض الانحراف والانشقاق ودكتاتورية الفرد وتسلط القيادة، لا بد أن يقتدي بالأسلوب الديمقراطي نهجا وممارسة لتكون هناك بيئة طبيعية حاضنة ذات جو صحي يسمح بتداول الآراء وقبول الآخر المختلف، والاستماع له والاستئناس به، ضمن آليات الديمقراطية، دون أساليب

القمع والاقصاء، شرط أن تكون ثمة معارضة إيجابية هدفها التقويم والتصويب والتعديل، بلا سلبية نابغة عن نرجسية غايتها المماحكة لأغراض شخصية أو الحصول على مراكز حزبية، ليتم من خلال ذلك تغيير المسار الخاطئ أو الحفاظ على المسار القائم في سياسة الحزب إن كانت صائبة، كي لا يترك مجال أمام العناصر الحزبية للتفكير بالعمل من خارجه أو بالانشقاق عليه وتشكيل حزب آخر، بعد أن يكون قد بحث أصواتهم وضاعت بهم السبل و أسقط بيدهم و أصبحوا أمام جدار لا يمكنهم اختراقه ومن ثم يصبحون عاجزين عن اجراء التغيير الذي ينشدونه. إذ أن كوادر العناصر المعارضة في الحزب الشيوعي عموما، كانت تشعر بخيبة أمل في اجراء التصحيح المطلوب على نهجه وسياسته من داخله، لأنها تعاني التشتت والارتباك من ضغوط القواعد الحزبية التي هي على تماس مباشر مع الجماهير، وكانت هذه المعارضة تتركز في الكوادر المتقدمة التي يأتي سياقها التنظيمي مراتبيا بعد اللجنة المركزية ومكتبها السياسي، ومن هنا برزت الحاجة بحكم هذا الظرف الموضوعي الضاغط، وغياب الديمقراطية التي هي سلوك وممارسة - بحجة العمل السري - لأن تبحث كوادر متقدمة، بوعي، عن رفيق قيادي جريء، تنسجم أفكاره مع رؤيتها وتوجهها، وذو سمعة طيبة و"مشروعية تاريخية"، وله القدرة على التصدي لتلتف حوله فيقودها، وقد وجدت هذه الكوادر المتقدمة ضالتها في شخص الرفيق عزيز الحاج، فهو عضو المكتب السياسي و مسؤول التنظيم المركزي والمشرف على تنظيمات لجنة منطقة بغداد، ولتطابق هدف كلا الطرفين والقناعة المشتركة بينهما في أن تغيير سياسة الحزب من داخله بات مستعصيا، لا بل مستحيلا، قامت بمفاتيحه وطرحته عليه فكرتها، ولوجود قناعة مسبقة لديه، تمت عملية التلاقح، فأنجبت وليدها حزب القيادة المركزية. كان ذلك إبان عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، الذي بدأ في النصف الثاني من الستينيات، وهو لم يكن دمويا أو عنصريا أو طائفيا، بل كانت فيه حريات لا بأس بها، سيما حرية التعبير في الصحف والمجلات، كما تدنت خلاله الاجراءات البوليسية القمعية، مقارنة بعهد أخيه عبد السلام عارف، لأنه ورث حكومة يرأسها رجل مدني معتدل هو عبد الرحمن البزاز، الذي قام بطرح

"قانون أساسي مقبل يؤكد فيه الاعتراف بالقومية الكردية، واعتبار اللغة الكردية لغة رسمية في المناطق الكردية، وتعيين موظفين أكراد في المحافظات، وإعادة اعمار المنطقة الكردية، وحرية الاكراد في تشكيل أحزابهم، وإصدار صحفهم، وتمثيلهم نسبيا في الحكومة والإدارات العامة في برلمان منتخب بحرية".^(٧٠)

آنذاك كانت الثورة الكردية المسلحة مشكلة، في حال حلها كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى مقدمة لوضع ديمقراطي جديد، لكننا رغم هذا النهج ذي الانفراجات بقينا ندعو لإسقاط الحكم، مصرّين على طريق الكفاح المسلح، فضيعنا فرصة مواتية لأن نتعامل معه بروح موضوعية، بعيدا عن العواطف الثورية الجياشة، وأن نبني قدرات حزبنا الذاتية الضعيفة ونمتنها بهدوء، دون بيانات ضاجة بقوة السلاح، أرعبت حكم عارف والقوى المعادية لنا وحفزتها للعمل العاجل على إسقاطه. وهذا يعني، بخصوص حزب القيادة المركزية، قلة الحكمة... وضعف الاستشراف، أو عدم وضوح الرؤية، بالإضافة لافتقاد القدرة على التشخيص الصائب والسليم لطبيعة النظام الحاكم، تعززه النزعة الثورية المتأججة، رغم نقص الامكانيات لنزعة كهذه، وإهمال ممارسة تكتيك المرونة السياسية الممكنة، حيث عمر الحزب دون سبعة عشر شهرا لم "يكتمل نموه" ولا تعضدت قدراته، وثمة الاعتقاد الواهم بضعف المؤسسة الرسمية، مع هواجس الريبة والشك والتحسس تجاهها، والاستصغار المتعمد للجوانب الايجابية في حكومتها المدنية، والنأي عن الوعي بمخططات الاستعمار العالمي في التصدي للحزب من أجل فت عضد حركته وتقويضها وانهاؤها، وأخيرا، ليس آخرًا؟، ثمة الجهل في معرفة انتماءات قادة الجيش العراقي، وجذورهم، وطموحاتهم في تدبير انقلاب عسكري كوسيلة شبه وحيدة لتغيير نظام الحكم.

لقد قصر نظرنا عن التشخيص التام للظروف الموضوعية المحيطة بنا، حيث المرونة المطلوبة للتعامل معها، فركزنا على الكفاح المسلح، بعدما اعتمدناه وأبرزناه وضحمناه في نشاطاتنا وعبر إعلامنا، متبعين إياه أسلوبا أوحد لإنهاك النظام القائم من أجل

(٧٠) توجد نسخة منه في احدى مجلدات تأريخ الوزارات العراقية ١٩٥٨ - ١٩٦٨

إسقاطه، لكن ليس بيدنا، بل بيد قوة عسكرية أخرى، قادرة عليه وممكنة منه، تمثلت في انقلابي تموز ١٩٦٨م، و هذا يشابه ما حصل مع حكم عبدالكريم قاسم، مع الفارق في اسلوبي النضال، عندما رفع الشيوعيون وتيرة حراكهم، مشددين من نشاطاتهم وفعالياتهم الجماهيرية ورافعين زخم تظاهراتهم الاحتجاجية، تحت شعار "كفاح - تضامن - كفاح"، لتطبيق سياسة الكفاح في محاربة الجانب السلبي لذلك الحكم، والتضامن معه في خطواته الإيجابية، غافلين عن أنهم يعملون على إضعافه ويعاونون المتربصين به، وبعدها نضجت "التفاحة" وآلت للسقوط، ولم يكن الحزب قادرا على التقاطها، تلقفتها يد البعثيين، التي كانت مستعدة ومتهيئة تماما، بالتعاون مع القوى الأجنبية.

وكما ذكرنا سابقا، كان لمنظمة منطقة بغداد للحزب الشيوعي العراقي الدور الأساسي في عملية انشطار حزب القيادة المركزية عنه، إذ كانت أكبر منظماته، تقود مباشرة تنظيمات الطلبة والعمال والنساء، حيث ثمة حسين الكمر "وليد"، الرفيق فيه منذ أواخر الأربعينيات والسبعين السابق في سجن بعقوبة عام ١٩٥٤م والذي لم ينصف استنادا لسيرته النضالية الطويلة، وكان مثقفا ذا قدرات فكرية وامكانيات فنية، وعلاقات واسعة جدا، ليس بين رفاق الحزب وأصدقائهم فقط، بل بالعديد من ممثلي الأطراف الوطنية المعارضة، فكان مساهما في صياغة وبلورة العديد من الأفكار والبرامج المقدمة لحزب القيادة المركزية، كما كان دوره مميزا وبارزا وفاعلا ونشيطا في ضم التنظيمات المحلية وارتباطها بالحزب، أي كان "داينمو الانقسام". فعندما كنا نعمل سوية، وكان مسؤول (الخط الخاص) قبل أن يشكل (الجهاز الصدامي) بصيغته الاخيرة، كنت أراه رفيقا نشيطا دؤوب الحركة لا يكل ولا يتعب من العمل، بل حتى في أيام الصيف القائضة، لا يتوقف عن التنقل رغم حرارة الجو، وتحضرني طرفة في تلك الأيام، حين كان يحاول أن يخفي شخصه عن أنظار الأجهزة الأمنية فيغطي صلته بباروكة شعر، وعندما يكون في زحمة عمله أحيانا تنزل الباروكة حتى تكاد

تلامس حاجبيه دون أن يشعر بها، لدرجة أنها تلفت النظر إليه، وكنت أنبهه إليها، فيضحك، ويعيدها لوضعها الطبيعي.

في اجتماع كوادر القيادة المركزية، ٢ كانون الثاني ١٩٦٨م، دار نقاش بين عزيز الحاج "رمزي" وحسين الكمر "وليد"، ذو توتر حاد شديد، تطرق فيه الأول إلى عدة مواضيع تتعلق بالثاني، منها أن لا يرشح نفسه للقيادة بسبب اتهامات وجهت له من أعضاء (فريق الكادر)، حيث انتقدوا دوره في خط آب ١٩٦٤م اليميني، ومحاربتة للرفاق المعارضين وإسهامه في معاقبتهم، وعدم التزامه بصيانة رفاق آخرين، مما عرضهم للخطر بسبب امتناعه عن استخدام سيارته، وتلكأه بالمهام المكلف بها، وقد أقر (الكمر) بما يتعلق بخط آب ومساهمته فيه، كالرفاق الآخرين، إلا أنه وقف ضده عام ١٩٦٥م، لكنه لم يكن طرفا في معاقبة الرفاق المعارضين لهذا الخط، وأن سبب تلكئه في مهامه كان لكثرة المهام المنوطة به، ثم انتقد (الحاج) مشككا في قدرته على قيادة الحزب قائلا "إن الرفيق رمزي لا يصلح أن يكون مسؤولا للقيادة بسبب ضيق افق صدره"، وخاطبه مباشرة "أنت يا رفيقي لا تصلح أن تكون سكرتيرا وقائدا ميدانيا للحزب، إنما قدرتك هي التنظير فقط"، والعبارة الأخيرة لم تذكر في المحضر، الذي كان (الحاج) هو من كتبه ولخصه وأعدده للطبع، لأنها كانت قاسية غير متسمة بالروح الرفاقية من لدن (الكمر)، ساد بعدها جو من التوتر الحاد تناوب فيه كل طرف كيل التهم للطرف الآخر، وإظهار مثالبه ونواقصه، مما عرض الطرفين إلى انتقاد أكثرية الرفاق المجتمعين، فطلبوا منهما الاعتذار لبعضهما، وبعد هذا الاجتماع بدا أن ما حصل بينهما فيه قد أخذ بعدا شخصيا فصار كل واحد منهما يتحسس من الآخر إلى أن ترك (الكمر) العمل مع القيادة.

إن تشخيص حسين الكمر كان صائبا، عندما أشار لضعف كفاءة وقدرة عزيز الحاج القيادية الميدانية، وهذا التشخيص جاء بحكم علاقتهما الطويلة -التي ابتدأت منذ عام ١٩٥٤م في سجن بعقوبة القديم وتواصلت في جريدة اتحاد الشعب عام ١٩٥٩م ومن ثم في منتصف الستينيات، ولم يقف آنذاك أحد من المجتمعين ليطلب منه

تفسيرا لذلك، بسبب المهاترات الكلامية الحادة التي وقعت بينهما وطغت عليه. أي أن المركز الذي تبوأه عزيز الحاج كسكرتير عام للحزب، حيث المهام الصعبة التي أقيمت على عاتقه، كان مؤشرا على أنه قد لبس ثوبا أكبر من قياسه، ويبدو أنه كان خائفا من جسامته مسؤولية تفوق قدراته. وقد أقر هو بذلك في كتابه (بين النهريين- تجربتي في القيادة المركزية) حيث ذكر: "في تلك الأيام كان بين الأكثر قربا من هذه المعايير هو عزيز الحاج وزكي خيري، وكان المفترض أن يقودا معا عملية عزل القيادة. وقد كان لكل واحد منا نحن الاثنين صفات ومؤهلات تكمل ما لدى الآخر. غير أن انزلاق زكي بعيدا عن مواقفه الثورية لعامي ١٩٦٥-١٩٦٦م وانحيازه لأسباب عديدة (منها شخصية بحتة) إلى الآخرين، قد جعل المسؤولية تقع عليّ وحدي، وقد وقع هذا فعلا في ١٧ أيلول ١٩٦٧م، وكنت أشعر مع نفسي بأن الكثير ينقصني لتبوء مركز خطير كالسكرتير العام لحزب القيادة المركزية.... ففي تلك الظروف المحددة، لم يكن غيري قادرا على لف الكادر الشيوعي المتقدم أو القواعد الحزبية دون أن تعني تلك الحقيقة أنني كنت أهلا لتلك المسؤولية الاستثنائية". (٧١)

كما يذكر ضمن محضر اجتماع كوادر القيادة المركزية في ٢ كانون الثاني ١٩٦٨م، بخصوص انتخابه سكرتيرا عاما للحزب، ما يأتي: "أرأني غير أهل لهذه المسؤولية لو كان وضع الحزب طبيعيا، فهي تحتاج إلى جملة مسائل غير متوفرة بي كطول الأناة، ونبذ الفردية". (٧٢)

كانت النسبة الأكبر من المنظمات الطلابية و العمالية و النسائية قد التحقت بالقيادة المركزية، و بلغت نسبة الرفاق المنضوين تحتها أعلى منها لدى اللجنة المركزية، و قد عزز هذا الموقف وجود قناعة مشتركة كان يحملها رفاق و كوادر في كردستان و الفرات الأوسط و الجنوب يضاف لهم أغلبية الرفاق و الكثير من الكوادر

(٧١) عزيز الحاج -حدث بين النهريين- تجربتي في القيادة المركزية -محضر اجتماع كوادر القيادة المركزية -ص ١٥٥.

(٧٢) المصدر السابق ص-١٥٩.

المتقدمة الذين كانوا يرزحون في السجون آنذاك، و لقد لعب أعضاء من قيادة منظمة بغداد دورا هاما و متميزا في إقناع التنظيمات بهذه الخطوة يساعدهم على ذلك عامل الاستياء الواسع الذي كان منتشرا بين رفاق و جماهير الحزب جراء السياسة التي كان ينتهجها، والقناعة المتوفرة لديهم بعدم جديته في العمل على تغيير الأوضاع، إضافة للطرف الموضوعي المتمثل في انتشار الأفكار الثورية على مستوى العالم، و الحركة الجيفارية، و تطلع الحركات الثائرة لها، و فشل الأنظمة العربية و اندحارها أمام الكيان الصهيوني في حرب تموز ١٩٦٧م، وقد وجد هؤلاء كلهم ما يريدونه في شخص عزيز الحاج عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي والمشرف على لجنة تنظيمات بغداد عام ١٩٦٦م، و صاحب التجربة النضالية الطويلة، و الحزبي المخضرم، و السجين في العهد الملكي، و المعارض لخط أب ١٩٦٤م، بما كان يطرحه من فكر مناهض للنهج اليميني للحزب، ليلبي بذلك، مدغدا مشاعرهم، رغبات الحزبيين الناقمين على الأوضاع و المطالبين بتغييرها.

لقد لازمت هذا العمل بضع ممارسات خاطئة اتسمت بطابع العنف في الأفعال و ردودها، كحجز القيادة المركزية للرفيقيين بهاء الدين نوري و زكي خيرى في اليوم الأول للانشقاق، و التعرض للرفيقيين سلام الناصري و باقر ابراهيم الموسوي في الطريق العام، رغم تخطئة هذا الاسلوب في اجتماع كوادر القيادة المركزية في ٢ كانون الثاني ١٩٦٨م، " و محاولة بهاء الدين نوري من اللجنة المركزية دفع جماعة للتعرض و الاعتداء على عزيز الحاج في بيته".

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى تدني التخاطب السياسي بين كلا الطرفين، و أتباع اسلوب التسقيط بين من كانوا بالأمس رفاق حزب واحد و طريق نضالي مشترك، مبتعدين عن لغة الحوار و التفاهم، متناسين أنهم كانوا جميعا في ذات القارب، و أنه سيغرق بهم معا جراء هذه الممارسات الخاطئة. فلقد كان كل طرف منهما يدعي امتلاك الحقيقة و بصر عليها، و أنه من يحمل الفكر الماركسي اللينيني الصائب في تفسير الدور التاريخي لقيادة الطبقة العاملة، و ينعت الآخر

بالتطرف اليساري أو التحريف اليميني، وبالانتهازية، رغم أن كليهما كان متمسكا بشعار "إن الحزب الشيوعي هو وحده من يمثل طبقة العمال والفلاحين والمثقفين".

كنا في حركة القيادة المركزية مؤمنين بأن الكفاح المسلح عقيدة مقدسة تقع في صميم العقيدة الماركسية اللينينية، من خلال أفكار لينين عن "حتمية العمل المسلح" ووجوب إقامة دكتاتورية البروليتاريا، و مقولة ماركس "العنف قابلة التاريخ"، إلا أن ما يميز هذه الحركة ثمة التجديد و الإرادة و التصميم على تنفيذ ما كانت تخطط له في ظروف كان العمل الثوري فيها هو المقياس الأوحده فينظر أكثر الشيوعيين و جماهيرهم، بعدما طال شعورهم بالإحباط من عواقب الأخطاء التي ارتكبتها الحزب الشيوعي، وما ضاع جرائها من فرص هدرتها قيادات الحزب الشيوعي.

"لكن مفهوم العمل النضالي لدى القيادة المركزية لم يكن مقتصرًا على الكفاح المسلح وحده (رغم تركيزها عليه) بل كانت تفرقه في الأهور والأرياف بالعمل السلمي في المدن، كالنشاطات الجماهيرية الطلابية والعمالية التي قامت بها آنذاك -مع النشاط العسكري في كردستان والعمل السري داخل القوات المسلحة، نضالا موحدا يقوده حزب ثوري متين. ف"لقد وافق الاجتماع على الخطة التي طرحناها، ومبدؤها الأساسي أن الوضع السياسي لن يتغير جذريا إلا بالعنف المسلح، وبالتالي يجب اعتماد أساليب الكفاح المسلح بكافة أشكاله، ومن ذلك عمليات الأنصار في الأهور إلى جانب العمل الجماهيري السلمي من اضرابات ومظاهرات ومشاركة في الانتخابات المهنية، وكانت لنا نشاطات بين الطلبة والعمال والفلاحين، وعلاقات وطنية وسياسية، أما الحركات في الأهور فكانت مجرد جزء من الاستراتيجية المعتمدة". (٧٣)

وكان فكر القيادة المركزية يلتقي في موضوع أساسي منه مع أفكار جيفارا، التي تقول: ليس ضروريا انتظار جميع العوامل والشروط الموضوعية والذاتية لشن الكفاح

(٧٣) المصدر السابق -ص ١١٦.

المسلح، وإنما البدء به حيثما كانت ظروفه جاهزة في هذا الموقع أو ذاك، وأن العمليات المسلحة الناجحة والمتلاحقة تسهم في إنضاج الظروف المطلوبة للثورة.

إن الحركات الثورية اليسارية في العالم ربما أصابتها الغفلة ولم تدرك أن أية تجربة كفاحية جديدة قد نجحت في تغيير نظام حكم معين في أي مكان (كما حصل في كوبا) ستكون فخا لمن يريد تقليدها بذاتها، لأن الحكومات الدكتاتورية وقوى الاستعمار العالمي التي لها مصلحة مشتركة في القضاء عليها، تمتلك قدرات وامكانيات هائلة، لا يمكن مقارنتها بما تمتلكه منها حركات كهذه، كما أنها تكون قد درست كل العوامل والظروف المحيطة بها، وطبيعة المنطقة التي تقوم على أرضها الثورة، وأحوال الناس الذين يعيشون عليها، وأخذ الدروس والعبر منها، ومن ثم تشخيص نقاط الضعف ومكامن القوة فيها، ووضع الخطط والحلول المناسبة لإفشالها، ليتم الاجهاز عليها وهي لم تزل في مهدها.

هذا ما لمسناه في الثورات التي قادها جيفارا بعدما ترك كوبا ناقلا معه تجربتها الثورية المسلحة، ليحاول تطبيقها في أماكن أخرى، ابتدأها من الكونغو كينشاسا في أفريقيا عام ١٩٦٥م و انتهت فاشلة قبيل نهاية عام ١٩٦٦م، فانتقل إلى بوليفيا في أمريكا اللاتينية ليؤسس بتاريخ ٧/١١/١٩٦٦م جيش حرب عصابات مع بعض رفاقه الكوبيين بقوة بلغ عددها نحو خمسين شخصا تحت اسم "جيش التحرير الوطني لبوليفيا"، في منطقة (بنانكاهاوزو) وهي غابات جافة جبلية نائية ومعزولة، لم يتعاون أهلها معهم واعتبروهم غرباء عنهم، فتم القضاء عليهم بتاريخ ٧/١٠/١٩٦٧م.

لقد اتسعت وانتشرت الأفكار الثورية لحركات الكفاح المسلح التي قامت في أمريكا اللاتينية، لتشمل مناطق أخرى من العالم، ومن ضمنها منطقتنا التي تأثرت بها، بالإضافة الى تأثير التدايعيات التي حصلت فيها بسبب نكسة حرب ٦ حزيران ١٩٦٧م، وهزيمة الانظمة العربية وجيوشها النظامية، في مواجهة الاحتلال الصهيوني. في خضم هذا الواقع المتفاعل الذي اتسم بالروح النضالية الثورية المتصاعدة، قامت

ثورة مسلحة، في "أزكي" بجمال اقليم ظفار بسلطنة عمان، قادتها الجبهة الشعبية لتحرير ظفار، هذه الجبهة التي انتهجت طريق الكفاح الشعبي المسلح، وعملت على طرد الاستعمار الانكليزي، الذي كان هو الحاكم الفعلي لسلطنة عمان، وبلدان الخليج الاخرى، فقد تلقت الجبهة الدعم الكبير من جمهورية اليمن الديمقراطية، على الصعيدين العسكري والإعلامي، وساعدتها في اقامة "معسكر الثورة" منطقة "حوف" داخل الارض اليمينية، وعلى حدود ظفار، وضم المعسكر قرابة ٥٠ شابا و ١٨ فتاة من العمانيين والبحرانيين والكويتيين، وانتقلوا الى عمان وبدأت الجبهة ثورتها المسلحة بعد أن ثبتت "بؤرتها الثورية" على الأرض العمانية. وفي تشرين الثاني عام ١٩٦٨م، في منطقة "حمرين" عقدت الجبهة مؤتمرها الثاني وأعلنت فيه تبنيها للفكر الماركسي، واتخذ المؤتمر قرارا بعدم اقتصار الثورة على ظفار، بل وجوب امتدادها الى دول الخليج العربي الأخرى، وقررت الجبهة تغيير اسمها من الجبهة الشعبية لتحرير ظفار الى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل. وفي الوقت الذي كان فيه العمل المسلح قائم على الأرض، قام الثوار بفتح مدارس لمكافحة الأمية والتثقيف، وأنشأوا المزارع النموذجية للفلاحين، وعلموهم شؤون الزراعة، وإقاموا السدود البدائية التي تحمي محاصيل الفلاحين من الفيضانات، ووفروا الرعاية الصحية للمواطنين في ظفار، وفي هذا الشأن يذكر أحمد الداين في مقال له في جريدة "العالم اليوم" بعنوان (مع الثوار في ظفار): "زرت ظفار عام ١٩٧١م كمراسل صحفي، حينها كان الثوار يسيطرون على جزء كبير من جبال ظفار، وشاهدت المدرسة التي أنشأها الثوار، وكان عدد طلابها (٤٠٠) طالب، تديرها المدرّسة البحرانية ليلي فخرو أو (الرفيقة هدى) كما كانوا يطلقون عليها، كما كانت هناك مزرعة نموذجية أنشأها الطبيب البيطري البحريني عبدالنبي العكري". وفي نهاية عام ١٩٦٩م، عاد قياديون من "مدرسة أعداء الامبريالية" في بكين ودخلوا ظفار مع ١٥ مجموعة من المسلحين والمؤهلين عسكريا لينظموا الى فصائل الثوار، وقاموا بشن هجمات منظمة على قوات السلطان، وفي ٢٣ تشرين الثاني عام ١٩٦٩م تمكن الثوار من دخول المدينة الساحلية (رخيوت) وتم اعدام واليها حامد بن سعيد، بعد محاكمة

عسكرية، وذلك بعد ادانته بخيانة الوطن والعمالة لبريطانيا، وتمكنت الجبهة من التوغل داخل ظفار، وقامت بشن هجمات بالأسلحة الالية ومدافع الهاون - وتتابع (حرب العصابات) من الجبال على نحو الكر والفر - على قوات جيش السلطان التي بدأت تواجه موقفا صعبا جدا، بسبب تنامي قدرات الثوار ورجحان كفتهم، واستمرت الثورة عدة سنوات، وبات خطرها سيهدد لا سلطنة عمان وحسب بل سيتعدها الى بقية بلدان منطقة الخليج، عندها قام السلطان بالاستعانة بقوات بريطانية وإيرانية وأردنية للقضاء عليها. وكانت هناك عوامل أخرى ساهمت أيضا في انهائها، منها:

- الجهل والتخلف والخرافة المنتشرة في الريف الظفاري. يقول أحد الثوار "اننا نقاتل على جبهتين... الأولى والأسهل هي جبهة العنف الثوري والنضال المسلح، أما الجبهة الثانية وهي الأصعب... فهي حيث نقاتل الأمية والجهل والتراجع". - الاسلوب الذي اتبعه الثوار بتثقيف الفلاحين الظفاريين ومحاولة رفع الوعي لديهم، فقد كان الثوار يعتمدون في تثقيف الناس بموجب الفكر الأديولوجي الذي يحملونه والبعيد عن مستوى ادراكهم وواقعهم الاجتماعي، معتمدين في ذلك على مصادر لديهم منها: ١-(كتاب الجبهة) وهو كتاب تعبوي بلغة بسيطة كتبه عبدالعزيز القاضي (أبو عدنان) أحد قادة الجبهة، يحتوي على عدد من المقالات التثقيفية لشرح الفكر الماركسي. ٢-الكتاب الأحمر لماوتسي تونغ، وهو مادة التثقيف السياسي الرئيسية في ظفار.

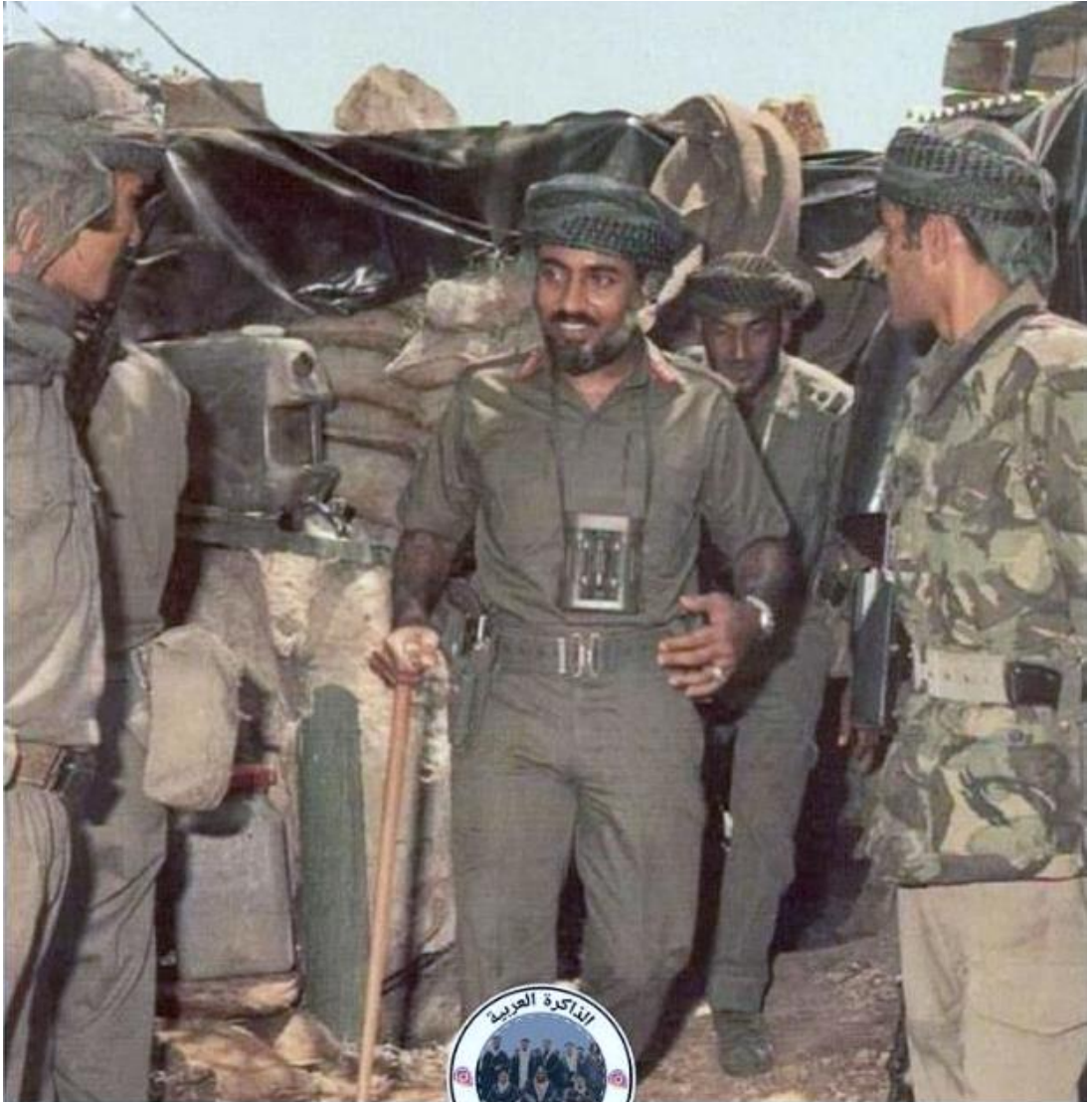
- الانشقاقات والخلافات التي حصلت بين فصائل الثورة المتعددة (جبهة تحرير ظفار، الجبهة الشعبية لتحرير الخليج المحتل، الجبهة الشعبية لتحرير عمان والخليج، الجبهة الوطنية الديمقراطية لتحرير الخليج العربي المحتل). وفي ١٢ حزيران ١٩٧٠م قامت الأخيرة -التي أسسها في بغداد العماني محمد بن طالب البوسعيدي -أحد أفراد الاسرة الحاكمة، توفي في سجن كوت الجلالي، مسقط، عمان - المدعومة من النظام العراقي، بنقل فصيلها الى شمال عمان، لشن حرب العصابات من هناك، مما ساعد في أضعاف الثورة.

- الاتفاق الذي تم في ١١ آذار ١٩٧٦م، بين سلطنة عمان وجمهورية اليمن الديمقراطية، برعاية سعودية، على إنهاء الخلافات فيما بينهما، وليس من شك أن التوصل الى تلك الاتفاقية، كان يعني انهاء جمهورية اليمن دعمها للثوار، وقد ترتب على ذلك انهيار واضح في موقف الجبهة وأدى الى استسلام العديد من قياداتها.

- يضاف إلى ذلك حنكة السلطان قابوس في دعوته الكوادر المؤهلة من الثوار للمشاركة واحتوائهم في إدارة الدولة وعدم اللجوء إلى سياسة الانتقام.

وهكذا لم يمض عام ١٩٧٦م حتى تمت التصفية النهائية للثورة في ظفار. أنه دليل آخر على تكرار الخطأ، وتطبيق الاستنساخ الحرفي للتجربة، دون الأخذ بنظر الاعتبار ظروف المنطقة وأحوال أهلها، وتناسب القوى المحيطة بها.

المصادر: -رياض نجيب الريس، ظفار، قضية الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي ١٩٧٠-١٩٧٦، لندن. / -جمال زكريا قاسم، تأريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر. / محمد سعيد العمري.



السلطان قابوس في السبعينيات خلال حرب ظفار

إنتفاضة الأهوار

لقد أعدنا نحن استنساخ تجربة الكفاح المسلح وحرب العصابات لنطبقه في بلدنا، حيث بدأناه بحركة مسلحة قوامها عدد محدود من الثوار، يقودهم الثائر خالد أحمد زكي (ظافر) الغريب عن المنطقة التي اخترناها وهي الأهوار، جنوب العراق، بدراسة منقوصة عن أحوال أهلها الفلاحين، وظروفهم، والعمل على توطيد العلاقة بهم، فضلا عن طبيعتها الجغرافية التي هي عبارة عن جزر مائية معزولة يسهل على العدو محاصرتها ومهاجمتها والقضاء على من فيها، بسهولة، وهذا ما حصل فعلا.

تكونت المجموعة من إثني عشر رفيقا:

١-خالد أحمد زكي (جبار) قائد المجموعة / ٢-عقيل حبش (أبو فلاح) ٣-حسين ياسين (أبو علي). ٤-كاظم منعثر (سوادي). ٥-محسن حواس (شلش). ٦-عبد الجبار علي جبر (هادي). ٧-عبد الأمير عبد الواحد يونس الركابي (لفته). ٨-عبد الله شهواز زنكنه. ٩-محمد حسين الساعدي. ١٠-حمود (صالح). ١١-عبود خلاطي. ١٢-علي حسين أبويجي.

تحركت المجموعة المكلفة بمهاجمة مخفر الشرطة وإتخذت سبيل النهر الذي يؤدي الى المخفر، وعند الوصول الى مبنى المخفر تمت مهاجمته والسيطرة على أفرادها وإغتنام الأسلحة التي بحوزته وقد إكتمل السلاح بيد المجموعة وتحركت للهدف الثاني وهو الربيثة بأمر من الرفيق خالد أحمد زكي قائد العملية وتم السيطرة عليها ونزع أسلحة أفرادها بعد حجزهم في غرفة، وعادت المجموعة الى الهور وتوغلت به ليلا للابتعاد عن منطقة الخطر باتجاه هور الحمّار عبر الممر النهري وقد ظلت المجموعة الطريق الى القاعدة بسبب حصول زوبعة قوية اضطرتهم للتوغل في الهور والمبيت تلك الليلة في هور عوينه الذي لا يبعد كثيرا عن هور الغموكة الذي انطلقت منه العملية وبينما هم في وسط النهر الفاصل بين هور الغموكة وهور الحمّار في منطقة (أبو علايج) تحديدا هاجمتهم قوة من الشرطة الآلية وحصلت معركة قصيرة تم

الإنسحاب بعدها بإتجاه اليابسة في هور الغموكة والإختباء في نهر جاف واكتشفوا أن الشرطة قد طوقت المكان، وبعد إنصراف بعض الرفاق وبعض الفلاحين الذين كانوا متواجدين معهم في تلك المنطقة ، وهم في موقعهم المحاصرين فيه قام أحد الفلاحين بإرشاد إحدى فرق الشرطة الى مكان الرفاق المتبقين من المجموعة وبعد أن تجمعت مجاميع أخرى من الشرطة ومع أفراد من أتباع إقطاعي تلك المنطقة، قاموا بفرض طوق على موقع المجموعة وحين كثرت أعداد الشرطة وأحكم طوق الحصار عليهم وتعززت قوتهم بزوارق بخارية وبطائرة هوليكوبتر طلبوا منهم - خلال مكبرات الصوت - الإستسلام من دون قيد أو شرط وأصبح من المستحيل على الثائرين الإنسحاب وعند ذاك نشبت المعركة بين الطرفين، وقاوم الثوار الى آخر طلقة معهم، وأبدوا مقاومة كبيرة وشجاعة رائعة وبسالة منقطعة النظير ، فإلى جانب القوة ذات الأعداد الكبيرة والمدججة بالأسلحة المتنوعة و السلاح المتوسط وقد عززوا بقوات من الجيش وبطائرة هوليكوبتر أسقطها الثوار وقُتل قائدها النقيب الطيار بعد إسقاط طائرته وقتل أربعة شرطة وأصيب خمسة منهم بجروح، لم تتمكن الشرطة من إقتحام الموضع الا بعد أن نفذت ذخيرة الرفاق، بيد أن الشرطة لم تتوقف عن إطلاق النار ، وقد أستشهد كل من خالد أحمد زكي (جبار) / محسن حواس (شلس) / منعر سوادي (كاظم) أما الجرحى فكانوا: - عبد الجبار علي جبر (هادي) / عبد الأمير عبدالواحد يونس الركابي (لفتة) / محمد حسين الساعدي (جمعة)

يذكر الرفيق عقيل حبش وهو أحد المساهمين في هذه الإنتفاضة المسلحة: "استمر العمل بالهور حوالي ثلاثة أشهر على شكل مجاميع ، مجموعة توفر الطحين والرز، وأخرى تصيد السمك والطيور وتجمع بيوضها دون إستخدام السلاح، والتدرب على إستخدام السلاح، وكانت الحياة صعبة خصوصا للرفاق من أبناء المدينة ، لم تكن لهم علاقة بجماهير هذه المنطقة، ونظرا لشحة السلاح المتوفر لدينا لذلك كانت واحدة من أهدافنا الملحة هي الحصول على السلاح، وبعد إبلاغنا بقرار الحزب للبدء بالعمل توجهنا من قاعدتنا في الهور ومع حلول المساء تحركنا بإتجاه الهدف حيث بدأنا

بالمشاحيف ثم سيرا على الأقدام في اليابسة، وعندما أصبحنا أمام بناية مخفر الشرطة هاجمناه وقد غنمنا ٣٠ بندقية مع عتادها وحملناها في المشاحيف وعدنا بها الى الهور ونحن نبتعد عن المخفر هبت عاصفة شديدة فأعادت تقدم المشاحيف وأفشلت خط سيرها ، إذ أصبحت المشاحيف الثلاثة تمشي سوية مما إضطرنا للوقوف والإنتظار ومع بزوغ النهار لم نستطع السير، وفي الليلة التالية إستمر الوضع على ما كان عليه إذ لم يستطع الرفيق حسين ياسين وأدلأنا الاهتداء للعلامات التي سبق وأن وضعناها في الطريق للاهتداء بها عند الإنسحاب، وفي الليلة التالية تمت معرفة العلامات فسرنا بالإتجاه الصحيح لكننا فوجئنا أننا أصبحنا في عنق الزجاجة وهناك حركة التفاف حولنا من قبل الشرطة حيث تم إطلاق الرصاص علينا، فأوعز حسين ياسين بالرد على النيران وهذا ما فعلناه الا أننا فقدنا السيطرة على المشاحيف فتركناها ونزلنا الى الضفة الثانية المقابلة للضفة التي يحتشد الشرطة فيها، وأستمر إطلاق النار بيننا. طلب حسين ياسين وخالد أحمد زكي من عبد الأمير الركابي الذهاب الى المشاحيف المتروكة وجلب بعض قطع السلاح لكن الركابي رفض الذهاب وتنفيذ الأمر وعندها أوعز الرفيقان الى عقيل حبش بتنفيذ المهمة على أن يترك بندقيته ليحمل أكبر عدد من قطع السلاح". يضيف حبش: "أننى اتجهت يسارا قريبا من ضفة النهر وأثناء سيرى انهال على الرصاص فعدت مسرعا بإتجاه رفاقي لكنى لم أجدهم، ويبدو أنهم اعتقدوا أنني أعتقلت فبدأوا بالرمي ضد الشرطة مما اضطرني الى اللجوء لاحد البيوت القروية لمحاولة الإختفاء فيه ولم يحالفني الحظ في ذلك لأن الشرطة اتجهت نحوه مما إضطرني لمغادرة البيت " (٧٤)

(٧٤) عقيل حبش-نشيد الموت-شهادة حية من لهيب المعركة - دار وراقون-٢٠١٨.

الجرحي:

- ١-عبد الجبار علي جبر (هادي)
- ٢-عبد الأمير عبد الواحد يونس الركابي (لفتة)
- ٣-محمد حسين الساعدي (جمعة)

المعتقلون:

- ١-عبد الله شهواز زنكنة (أبو سعيد).
- ٢-عبد الجبار علي جبر "بترت يده في المعركة".
- ٣ -عقيل حبش.
- ٤-حسين محمد حسن " جندي هارب شارك بإنفاضة حسن سريع".
- ٥-علي حسين أبويجي.
- ٦-فاض عباس.

قتلى العدو:

- نقيب طيار بعد إسقاط طائرته وقتل أربعة شرطة وأصيب خمسة منهم بجروح.

الرسائل التي أرسلها الشاعر مظفر النواب للرفيق عقيل حبش في ١٩٦٨\٣\٢٥:

تمثل هذه الرسائل، نقاوة الثائر والشاعر مظفر النواب "أبو عادل" وتتجسد فيها أحلام الثوار ومجابهة وحشية القمع، واشتعال الثورة وسعيرها الذي ظل يلهب حناياه، وإن كان بعيد عنها حيناً وفي أوارها أحياناً ، ويربط أصرة الفعل بين قلبه و وجدانه، ويثير فيه عنفوان الثوار ، ويخزن في أعماقه شموخ جيفارا "الأرجنتيني" الذي اشترك ثائراً في الثورة الكوبية في جبال سييرا مايسترا حتى انتصارها، ليصبح بعدها ثائراً أممياً، وينتقل الى أدغال كونغو - لومومبا، و منها الى أرض كان لهيبها أحمرأ قانياً يغطي أرض فاليجراندي بجبال بوليفيا، ويمتد هذا الإرث ليعيش في وجدان مظفر وينقله الى هور الغموكة، يحمل في قلبه أملاً - يبغى تحقيقه - بانتصار ثورة العدل الإجتماعي، أو ينتهي نهاية شجاعة يتباهى بها، تتجذر عميقة في قاع الهور وتتشعب وتتوزع بين قصبه وتسامق علو أجذاعه، وازدهار أوراقه الخضراء، التي يتعالى منها صوت الثورة من جديد ، ولتستمر المسيرة التي سيكملها الآخرون من بعده. فقد كانت امتداداً لدوره الفاعل في حفر نفق سجن الحلة والهروب منه أو كما يسميها "الرزمة" في رسالته، ورغبته العارمة التي لم يتسنى له تحقيقها في إشتراكه بانتفاضة الأهوار. وكانت أمنيته: "أن يعمل جهده ليلتحق في أرض الميعاد.....حينما سيبدأ ذلك الانفجار، وسيرى الثوريون الحقيقيون وجوههم الصارمة والإنسانية... في مرايا ذلك اللهب... وستأخذ الأحلام طريقها في المادة".

في هذه الرسائل التي إختطها مظفر بقلمه، نرى التقييم الصادق واضح عليها، والشفافية ظاهرة منبلجة من بين سطورها، ويشع من حروفها، الوفاء، ويمور ويفيض قلبه محبة لرفاق الدرب، فما أوفاك يا أبا عادل من صديق، وما أصدقك من رفيق، وما أجلك من ثائر وشاعر.

نص الرسالة الأولى:

في الليل المحاصر الرتيب ياما حكيت لك.... وياما فهمت حزنك كما فهمت صمتي... وقد كان يستنزف عرقك العمل المرهق الدؤوب. حملت لك الماء بأخوة عميقة.

ومنذ الأيام الأولى اكتشفت فيك روح العمل وأحببتها، وفي السر صنتك في قلبي بين الناس وفرحت دائماً وسأظل أفرح إنك صديقي.

هل أوقظ فيك كل ذلك الذي يشكل جزءاً غالباً من حياتي وحياة القضية التي تضىء جوانب عيوني في أشد ساعات الليل؟! الساعات التي عشناها تعيش عالمها الصرف وتتصرف بي أحياناً.... ولعلك تذكر أقصى أمنياتي كانت أكثر الأهوار وحشية وبعداً عن المدينة الملوثة وها أنت هناك، أحسبك لأنك هناك في العالم الذي بلبل لساني بالأغاني الأداء، عند الناس الذين تتقطر الأحزان في قلوبهم كل ليلة، وتولد الثورة في الظلمات التي تخبئهم منذ آلاف السنين، أنت في النقطة التي يصح أن تسمى البدء، جاء في العهد القديم ((في البدء كانت الكلمة وكان وجه الله يرف على الغمر))، أنت هناك يا صديقي، وأنا يطفح في دمي حين كآلاف النباتات السائبة على وجه الهور، يا أنت في مياه الميعاد، الموت في مياه الميعاد، هو بدء الخليقة، كان الانسان بين الناس الذين يحبهم وفي الأرض التي يحبها ويعتقد أنها هي (المكان) مسألة لا يمكن تسميتها الموت بأي حال.

أخي.....صديقي

مازال صدى الكلمة المحفورة على الخشب الضائع يثير دثاراً في صدري ، ومحبة تتأجج في أشواق أتمنى أن تراها، وكتبت لك أكثر من رسالة وجاء منك أكثر من صمت، ومللت الصمت، إنني أتعلم الآن السير في الأرض الصعبة وفي أشد الظلمات وبالضوء الخبيء في القلب فقط وهناك في الأرض التي تغيب فيها الشمس في سنابل الحنطة وتظل مشرقة طوال الليل في عيون أطفال الفلاحين، هنا قالوا مّرّ سجين في هذا المكان وكان متعباً ويهاجم اليمين بلهجة حارة واضحة ويتحدث بسرعة ويفرح

حين يكتشف إن البيت الذي يبني فيه مع الحزب وضد دجل المحرفين فيدخلن
علبتين من السكائر وقالوا: وله شارب خفيف أصهب، وعينان شديدا الذكاء.

هتفت في صدري !! إنه أنت أنت ذلك الذي عبر الجزيرة وقلت لهم : أعرفك...
وكتمت إسمك مع الأسماء التي في السر، هنا التقيت بك عبر الناس سمعت صوتك
في أحاديثهم وهنا في هذه الأرض التي تجمع الأحبة التقيت برجل آخر يحبه قلبي
منذ زمن بعيد وخططنا وحلمنا وسمعت صوت الرصاص رغم الصمت الذي يفوح في
الليل، وقلنا نفاجتك وكان شيئاً (هناك) لم يفهم بعد ولا أتوقع - كالعادة - أن تفهم
الأشياء الحقيقية بسهولة وبدون ألم، والححت أن أكون معكم، أنتم رجال البداية، إن
البدء يقرر ارتباط الرجل الحقيقي ويجعلك تمتلك لحظة التاريخ، التأريخ الصامت
العظيم.

في (الرزمة) ابتدأنا سوية منذ لحظتها الأولى منذ خطوطها الشفوية الأولى إن ذلك
جعلنا نمتلك العملية ونطوعها كلما التوت، لأننا نملك بدايتها الواقعية نملك تأريخها
إنها ملكنا نحن الذين كنا نعيشها لحظة لحظة أكثر مما هي ملك أي إنسان آخر لقد
كانت القيادة واقعية جداً حينما كتبت في نشرياتها إن رجالاً مناضلين صنعوا ذلك
وإنها ساهمت بـ (أننا مع كل عمل ثوري) والآن كل الذي صنعناه وعلى بساطته ملك
للشعب شعبنا العظيم، أقول لك ما زلت ألع أن نبدأ سوية أيضاً وليس غريباً أن نلتقي
نحن الأربعة الذين أخلصنا لتلك العملية، ليس هذا غريباً مطلقاً أبداً ذلك لأن هناك
شيء يريد أن يبدأ بشكل حقيقي... والشيء الحقيقي يختار الناس
الحقيقيين.... مادام هذا الحقيقي يريد أن يبدأ.... فسنلتقي حتماً، ولكن علينا أن
ندخل في التاريخ ونعجل في لقائنا ولكن (القرامطة) يا صديقي يريدون لي أن أكون
في محل آخر.... سألتزم بعمق وبوعي وسألح بكل الوسائل النظيفة أن أكون معكم....
إن خمسة أشخاص بإمكانهم أن يوقفوا الشرارة الأولى على أن يكونوا هم تلك
الشرارة.... التي ستضيع بعد ذلك في اللهب العظيم الذي تكرر نفسها لإيقاظه...
تلك النواة هي الواجب الأول باعتقادي... الواجب الأساسي وكل ما عدا ذلك ليس
إلا مسألة ثانوية في الظرف الراهن وليس هناك نضالاً غير مهم في عملية الثورة
ولكن بدون إدراك لأهميته والبدء به. تخبو كل الجوانب الأخرى... بدون اللهب

الأساسي الأول سوف لا ترى النضالات الأخرى طريقها بشكل صحيح في هذا الليل
المظلم.... المسألة الآن هي زخة الرصاص الأولى.... الانتصار الأول سأعمل جهدي أن
التحق في أرض الميعاد....

أخي الحبيب في الليلة الأخيرة وقبل أن نخرج من الأرض. حكيت لك تجربة...
تجارب.... حكايات.... لعلك لاتزال تتذكرها.... بل لعل التجربة أكدتها لك... أو
ألغتها... في الحالين يهمني أن أطلب اليك ألا تنساها... وفي تلك الأيام الأول التي
التقينا فيها قبل أكثر من سنة.... ساورت قلبي أغنية (حسن الشموس)

لون توگف دول يسحگها شعب الهور چي ضيمه چبير وگلبه شایل سل

أطرّن هورها وكلساع أگول تثور.....

أگولن مايصح گبرك ولا حطو عليه ناطور

أگولن عله ساعة ويلهچ الشاجور....

واليوم في قلبي أغاني أكثر هديراً... ولكن لا أعرف أن أغنيها... لقوة ذلك الدوي
اللاهب فيها... إنها تكاد أن تتفجر وأنت تدري أن الانفجار أحد أرفع أشكال الغناء...
إن قلبي يتفجر بالأغاني هذه الليالي. حيث تقترب لحظة الانفجار الأولى... حينما
سيبدأ ذلك الانفجار سيرى الثوريون الحقيقيون وجوههم الصارمة والإنسانية... في
مرايا ذلك اللهب... وستأخذ الأحلام طريقها في المادة...

الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل وأبو خليل يدور في الإزار الأحمر الذي
أمامه ولعله يحس في قلبه رفيف علم الثورة ووجوه الفلاحين وكما وجه القصب ووجه
جيفارا وهو يمد نهرأ ببلادي.

سيحكي أنني لابد أن أجيء

أقبلك أخي وصديقي... وإلى اللقاء

أخوك دائماً

نص الرسالة الثانية:

أيها الحبيب

مرّ لوني... مرّ طبعي... مرّ طعمي... مرتان عيناى حتى أراك ثانية وحتى ذاك اليوم توقظني الوحشة والنار التي في حزامي وفي قلبي ألومك كثيراً لأشياء وأشياء وفي قلبي أحكي معك كثيراً عن أشياء وأشياء. وفي قلبي أقبلك وأنت ترفض كثيراً وكثيراً عن أشياء وأشياء. !!!

لقد كنت حقيقياً في كل ما حدث، والناس شعبنا يتحدث عنكم في كل مكان وأريد أن أقبلك كما بالأمس من عينيك. للتحدي الذي فيهما. للتحدي الذي نتحدث عنه للجماهير... بفرح، كان كل خبر جمرة تطفأ في عيني، قالوا أسرت، وقالوا كسرت، وقالوا.... قالوا مت يا أخي يا حبيبي. وحفر النمل قلبي ولكني ما بكيت.

كانت الدموع ترفض، كنت أحس أنك ما زلت تنبض ومع هذا صرخت في الليل كما يصيب الذئب طلق في عينيه.

أما عن العزيز أبي هادي، فقد دحض كل ما قاله الثرثارون الغباة بالأمس، وثبت مفهوماً جديداً، وعنه وعنك وعن الآخرين يتحدث الفلاحون حول النار في الليل، وتحدث أخبار المدن، ولم يكن موقفكما غريباً عليّ بالذات، كنت أعرف هذا فيكما منذ زمن بعيد، وتحدثت عنه للآخرين منذ أكثر من نصف سنة أيها الحبيب، يا أخي، أذكرك دائماً، وأتيت من مكان بعيد - كما تدري - لأكون قريباً من مكانك، وأكتب هذه الرسالة. في ليلة واحدة سرت تسع ساعات على الأقدام، ولكنني رغم الإجهاد كنت خفيف الخطى وأسير بفرح وأشم الرياح التي تأتي من هناك، وأتذكر كيف كنت أضع (الريحة) على شاربك صباح المواجهة.

سوف لا أنتظر رسالة منك، لأنني مضطر أن أغادر هذه المنطقة بسرعة أو أتعرض لخطر أكيد.

أيها العزيز العمل ينمو بسرعة وأنا أكثر تفاؤلاً من السابق، وسوف لن يطول الليل. مع الرسالة (ديناران) لا أملك أكثر منهما حالياً، ربما تفييدكما. لقد كنت أريد أن أتى اليك بملابس الريف، في المواجهة ولكن الحذر والعمل منعاني ومهما يكن... فأنت في عيوني دائماً.

سلام وقبلة، وشوق للعزيز أبي هادي أقبلك أخي الحبيب وأتذكرك دائماً

أخوك

((سوف تعرفني من المحبة والخط)) (٧٥)



مظفر النواب في سجن الحلة المركزي شتاء ١٩٦٦

يتناول مظفر النواب في ملحمة الشعرية الشعبية الطويلة "حجّام البريس" ثوار انتفاضة هور الغموكة، بشخص "حجّام" وفيها مكابرة عظيمة قل مثلها، ودلالات وصور بليغة عن هذه الإنتفاضة، ودور الثوار، والإعتزاز المتناهي بالوطن، والأمل الأكيد في انتصار الشعب على جلاديه ومغتصبي حقوقه المشروعة، وتبقى ذكرى ثوار الإنتفاضة مطبوعة في ذاكرة النواب، ومرسومة في حدقتي عينيه لا تفارقه، رغم شوقه العارم أن يكون أحد المساهمين فيها كما ظهر في رسالته -السابقة- الى الرفيق عقيل حبش:

حجّام البريس

أواكح ...

چني . إيد تفوج ...

ومگطوعه أصابعها ...

أشوغ ویه الشمس ... ليفوگ اعاتب گاع مدفون بنباعيها ...

مکتوب ابلأويها ...

اتحفر بيّه مساحيها ...

وأشمس روجي بالسنبيل ...

يجي بروجة شمس ...

يسگي السفن والناس يسگيها ...

ابوس ايد اللي يسكي الناس ...

ويحمّل تمر، وسلاح، ورمصاص ...

بشرايعها ...

أبوس إيد اليشيل البرنو الزبنيه ...

بطرگ ثوبه ... وأبايعها ...

أفه يا گاعنه ؛ الوكحه !! ...

حلاة الليل ، وأهل الليل ...

والنار ... بمرابعها ...

أفه يا گاعنه ...

السحگتها ...

وانسحگت عليها ...

جيوش يابو جيوش ...

وما بدلت ... طباييعها ...

وأفه يا گاع ...

ينبت بيچ للواوي عنب ...

يا طيبه ...

ويعرّس عليچ الذيب !!!...

هنا يتعاضم صبر " حچّام " وعتزازه الرائع، وفخره الباهر، بالوطن رغم كل ما حصل أو يحصل له، ويُقسم على الاستمرار في نضاله والموت السعيد على أرضه:

أمد صبري اعله صبرچ وأحفر سراذيب ...

لو صرتي ... زبل من زود المزبلين ...

لو داروا عليچ سيان طينتتهم ...

يحلوه سنين ...

أگولن گاعي واعرفها ...

أگولن گاعي ...

يتنفس بريتي ترابها ...

وحبها ... وبصلها ... والشمس ... والطين ...

باعوني عليها ...

وخضرت عيني بدمعها ...

وماني بايعها ...

وحگ الشطر الأحمر ...

والليالي الغبره ...

يگويعه ... أموتن وانت حدر العين

تتونسين ...

أفه يا رجال طين عراگنه الطيبين ...

تنسون المراحل !!!

والمراحل بيكم اتسمت مراحل ...

كلفه يمعودين ...
أكل للروح تنسيهم؟؟...
تدنج راسها وتسكت ...
حليب البيها ، مانعها ...
كل روح ومراضعها ...
كل إيد وأصابعها ...
كل روح وجرحها،
الجرح ما ينلام ...
يا معودين أهلنه ...
يلحچيكم يالنشامه ... حزام ...
يا معودين أهلنه ...
الكاع ضيجه من عگبكم ...
ما تسع حچام ...
تنام العين، چي تعبانه مني...
ومن نفسها تنام ...
ولك ردّوا ...
حنيني ايگعد الميّت ...

وحشتي اتطّلع بليل الشته ...

شمس الربيع ... أيّام ...

عين الما تشوف أحبابها الحلوين ...

ما هي عين ...

ولا هي تشوف .

ولا هي بعمه ...

ولا هي تنام ...

سالوفتنه:

عن فلاح من كل الفلح ...

إخته اسمها « سعيده » ...

من هور « الغموگه » ...

وبعد سنه اتعرّس ...

والمفارز طوگت بالليل أخوها ...

وچانوا الحوشيّه والشرطه (١٠٠٠) ...

والحرّه ما خافت ...

عمرها ١٧ سنبله ...

صاحت :

يا جبير الهور ... يا ابن الشلب ...

يا حچّام ...

ردّ الهور :

إسمع يا جبير الشلب ... يا حچّام ...

يا حچّام ... يا حچّام ...

يا ح... چ... ا ... م ...

طارت غاگه مكسورة جِنح بالزور ...

يا حچّام ... يا حچّام ...

فزّت گبله البرنو ...

لگطها ابساع :

يلوحدچ شريفه ...

وبيت الضيم بزمرها ...

وخطن العينين سجة غيظ

فوغ الماي ...

دوب الصوت ما ينسمع .

واتكوفر غضي حچّام :

منهو الجاي ... ويّه الماي ... ويّه الشرچي ...

يا حجام؟؟ ...

يمكن عدو يا حجام ...

يمكن شرطه وتلعب النفس ...

والشرطة لا هي چلاب ...

ولا هي زلام ...

يمكن خاين مايعرف المجامن ...

يعرف العرييد ...

وين ينام ...

ريحة خاين بعرك الحزب ...

مدفون ،

من اسنين ...

ريحة خاين معودين !! ...

والتاف ... وشبگ كلبه ...

وزحف حدر الكصب والطين ...

مامش للرصاص أخبار ، مشتاكين ...

يمكن عدو يا حجام ...

يمكن واوي من واوية الجكام ...

يا حچام ... إسمع كصبه كصبه ...

وبالك تعوف الكصب ...

ليل " الغموگه " حزام ...

صاح النوب، صاح الهور، كل الهور، صاح وياه ...

يا هور ((الغموگه)) وگام ...

- يا حچام ... يا حچام ... يا حچام ...

والتاف اعله كلبه ...

وشاوره بحسه الخشن :

يا كلبى رض ظهري ...

الوحيد العارچ بطوله ...

ايتحده ، ومايعرف ولا ينضام ...

تكلط منى يا كلبى ...

ونبگ حچام ...

والحاجب نسر فارش جناحينه ...

بوکاحه يطير ...

- منهو اهنالك؟؟ ...

كبرت عينه ... كبرت ،

لَمّت الهور ... الكصب ...
الطيور والعكيد ... والخنزير ...
واستاحش وحشة البير ...
قصتنه بعدهي بأول القصة ...
وراها گرون وشياطين ...
يا وحشة الوحده يظل عدل ...
والطينته من الطين ...
يا طينة بلدنه ... يا أصل كل طين ...
بيها نعيش ... وبيها نموت ...
وبيها يخصّر من عيونه البربين ...
واليندفن بأرض أهله : عدل ... حي ...
يسمع الحنطه ... ويحس عروگها بصدرة ...
ونشيش الماي ...
والميت بگاع الغير ... وحده يموت ...
وحده ، لا دمع ، لا ناس ، لا تابوت ...
وحده يموت ...
غريب ويندفن مثل العرج ، بسكوت ...

وردّ الصوت:

يا ابن أمّي حسافه تموت ...

كبرت عينه، نار الله الوسيعة ...

ولمّت الثوار والعشّاق ...

قصتنه اعله حچّام الحذر بالهور ويمشي الراگ ...

صاحت إخته:

لا ياخوي ... لا يازين ...

لا تمشيش راگ الراگ ... يا ابن الحرّه،

ما يستوحش التفّاگ ... يا ابن الحرّه،

هنا يستدرك النواب ليقول لنا أن أرض العراق ولّادة تنجب أفذاذاً هم للأعمى عين،
وللميت روح، وهم الدواء للحزن، وللمفارقين وصل ولم شمل، هو عراق "مراجل"
الثائرين:

لابد ما تفرخ الكاع ... هذا عراق، هذا عراقنا الموصوف للعميان ... وللميتين ...

وإدوه لكل حزن وفراگ ...

يا ابن الحرّه

حُط عينك ولا تُغفل

عُقل گبلک حزب وانباگ ...

جسّ ازنادها الواگف ...

وحطّاه اعله گلبه ...

برهدنه، وبسکوت ...

– يا ابن الحرّه

هذا عراگ ...
حط خدّه اعله خد البرنو الزرگه ...
البنادق والزلم عشاگ ...
هذا عراگ ...
وفز غرنوگ ...
وتعايطن بالليل البرانو ...
جده حادي النوگ ...
-لا ترميش... أنه اختك ... انه بنت امك
بعد روعي يبس ثوبي عليه من البرد والخوف
والشمات عشرحلوک
- ولچ سعده ...
يسعده اشجاچ لموتي؟؟...
وشبگها ... وعاتبها ...
وريح التفگ اعله صدره ...
ولئه صاح الموت...بگريتوف ...
ريحه زفره ، ريحة شرطه ، يا حچام ... دگ الشوف ...
- لا يرتاع گلبچ ...
أنه عد عيناچ ...
يا اخت الحزب والثوار ... والطيبين ...
ساعه والتفگ والليل والحوبات متغاوين ...

- يا حچام أخذ حوبتنه يا حميرن ...
ساعه ...

والمراجل إلها ساعه ...

وزحّت بصدره ...

لگيطه من التفگ ... ويلاه ...

يا ويلاه ... يا ابن أمي ... عداك الموت ...

يا واگف وكح طرگ الجلد والطين ...

شگولن للتفگ لو ناشدن عتّك ...

شگلهن؟؟ شعتذر؟؟

- سعده ...

وغمّض عينه اعله صبر سنين ...

إحلفيلي بزمرهن ...

عگبي - جدّام العدو - تشيلين راسچ بيّه وتحلفين ...

- إنت تموت !!

يا ابن أمي: تظل عيونك مفتحات ...

حتى لو خذاك الموت ...

ينتفض "حچام" ابن الهور وتتعاظم في روحه الإرادة والعزم، وثقته الراسخة بشعبه
وحزبه، يوم الصعاب، ويغلي في داخله مرجل الإنتفاضة والثورة، وهو يخاطب أخته:

خزرها ...

وگام گومة حزب للكلفات ...

يخسه اللي يگلك عن شعبنه يموت ...

ساعه ...

وتضحك الرايات ...

كل خيمه وراها اثبات ...

كل شيلة علم لابد وراها رجال ...

كل ميّت مثل حچام يشيل جبال ...

وقصتنه :

بعدهي بأول القصة ...

وگع حچام ...

ومات الصبح ...

والتّمّت علينه الشرطة ... والحوشيه ...

و” سعيده ”

خذوها اميسّره ...

لسجن ((الرفاعي)) ...

وخيمّت ليلة حزن ...

سنتين ...

أكلّج :

چني أسمع ليل ...

يا أمّ عشره ...

وزمّر زركه ...

ويعود " حچام " يبشر لعودة الحزب بثوبه الجديد، بعد غياب طال أمده، ويهلل
(للكبیر) ليقف الثائرون في بابه " ردّ الحجير النوگف ابّابه" ليعيد للثورة بريقها
ولمعانها:

يصح ردّوا !! ...

وأكحل عين المچذيين ...

واتنومس ...

وأفرگ روعي بالملكه ...

يصح ردّوا !! ...

وأزامط بيهم

وشرطة الزرگه ... ؟

يصح ردّ الحجير النوگف ابّابه ...

چثير الهله يا يابه ...

چثير الهله ...

من غبتو ، التفگ ملهاش خطّابه ...

وأگلكم روعي عثها الليل ...

واختنگت عگبكم بيها عطّابه ...

مضغبره ...

وأچول من الجول ...

وگامت بيها

وحشة ليل وترابه ...

يبريس :

روحي معيوبه عكّب موتك ...

وأقولن : عيب أخت بريس ...

جرحنه ... يواكح صوابه ...

جرحنه من وّغ " شعلان " ...

ما يوكف عليه ارماذ ...

جرحنه چبير ... ما لّمته ديرة ناس ...

ولا نامت عليه الكاع ...

يخضّر الأمل في عيني " حچّام " رغم معاناته الكبيرة والطويلة، وروحه المثخنة بالجراح، ويبقى شاخصا يرنو الى النصر:

يبريس :

روحي خلاصانه ثلثترباع ... وما چلّت ...

وأمل بيها بکثر ما خضّر البردي

وتظل الكاع ...

أمل بيها ...

وأواكح بيها جوع ضباع ...

جرح البينه ، لو بالله ... كفر ...

واحنه بعدنه وساع ...

يا مفرّع ، يا راس الهييه ،

لا تهتم ... وراك سباع ...

ها ... خوتي :

اعله دم بريس ...

عله الكلفات ... يا شطبين ...
يتغاوه الزمان مغاوه بيكم
وانتو زعلانين ...
لو عاطن ...
أقولن : هلله ... هلله ...
صدغت ... يا فلان ...
وبغد المعاتب ، يا عزيز الروح ...
أهليلك ... وأقولن : جيت ...
لو خرخشة كصبة ليل ...
أفزن ، يا جبير البيت ...
وأقولن :
إي وحگ الله اصدغت ...
مثل الزرع رديت ...
وأهلي بكثر ما هليت ...
يا معافه ...
إجه الفجر اللي ما يخلص ...
ويظل الماي بيّه ايمد ...
ونشوفك ...
تجينه ويه الحصاد ...
اتشوف أهله ...

إشعمّروا من المحبة بيوت ...
ويگولولك إاحنه نموت !!! ...
وابنك واگف محزّم على الدنيه ،
جبير التوت ...
ويگولولك احنه نموت !!!
هاي بيوتنه ،
وذولاك أهلنه ...
والچواير گطه ...
ودحّان المعامل واصل إلتالي الشلب ...
والشلب ...
ناهبله گصيبه من الشمس ...
گبل الصبح بسكوت ...
ويگولولك إاحنه نموت !!!
هاي الدنيه ، ما يبنيهها غير أهلك ...
وميتنه أرد أگلك :
من تشيله الناس ...
يدير العين للديره ...
ابمحبه ...
وهوّه بالتابوت ...
ويگولولك ، العفين ، إاحنه نموت !!!!!!!

لقد كان ما ذهب إليه حزب القيادة المركزية في رفع سقف الخطاب الثوري، لا يقف على أرضية واقعية، أي غاب عنه الإدراك الكامل لقدراته الفعلية، مسيرا الاندفاع العاطفي لبعض الكوادر و القواعد و الجماهير، التي كانت تريد تغيير النظام القائم بعمل مسلح عاجل سريع، و هي لم تكن على دراية بضعف امكانيات الحزب على الأرض، ولا المقومات التي يبني عليها هذا التغيير، رافق ذلك تردد قيادته و ضعفها وعدم قدرتها على حسم الأمور و فق قناعاتها لفرض النهج الموضوعي الواقعي بهذا الخصوص، إضافة إلى التقييم المنقوص لتناسب القوى و صراعها على الساحة السياسية، وغياب الموقف الرصين المتأمل البعيد عن التطرف في رسم سياسة جديدة بديلة، و تجاهل الاصغاء لـ"بعض الأصوات" التي كانت تدعو لعدم الاندفاع تحت سطوة العاطفة و المبالغة بالامكانيات و تهويل القدرات، دون التقييم الموضوعي المدرك لها و الواعي بها، و أبرز أصحاب هذه الدعوة هو الرفيق حميد الصافي " عضو مكتب القيادة مركزية".

كان ذلك يتضح من خلال البيانات الثورية التي تصدرها قيادتنا مفعمة بمبالغة في تصوير امكانياتنا و قدراتنا، التي كنت أدرك ضعفها بحكم موقعي في قيادة الجهاز الصدامي المركزي، لهذا عارضت الايحاء، لقواعدنا و جماهيرنا، أننا قاب قوسين أو أدنى من انتزاع السلطة، مع علمنا المسبق بتواضعنا قبالة هذا الانتزاع، بحيث نمسي عاملا مساعدا لقوى أخرى أكثر تأهيلا لإسقاط حكم عبدالرحمن عارف بكفاحنا المسلح ذي البيانات الحماسية، التي تلقي الذعر و الخوف و الرعب في أوساط سياسية عديدة، داخلية و إقليمية و دولية، ما يحدو بها لأن تسرع في إسقاط الحكم العارفي.

وهذا ما تحقق لاحقا، عاجلا غير أجل، حيث في الوقت الذي لم نكن على دراية بتحركاتهم، مفتقرين لتقييم قدراتهم ومستخفين بها كونهم الطرف الأضعف في حزب البعث، ظهر انقلابيو ١٧ تموز ١٩٦٨م، فكانت كارثة تصفيتنا التي يتحملها الحزب كله: قيادته المركزية وسكرتيرها العام وكادرها المتقدم.

لقد تأسست دورة جديدة من العنف في ممارسة التعذيب و التنكيل و القتل و قمع الحريات و انتهاك السلم المجتمعي و العيش المشترك و وضع الآخر المختلف في خانة الاعداء، فكان ثمن الانقلاب باهظا تحملته كل القوى اليسارية و الوطنية المخلصة، و من ضمنها حزب القيادة المركزية والحزب الشيوعي العراقي، لأكثر من ثلاثين عاما غيبت فيها كل الأحزاب باستثناء حزب السلطة، الذي تحول إلى حاكم فردي دكتاتوري متسلط، لتنتهي مرحلته باحتلال أجنبي، أسس لبناء نظام عرقي طائفي محاصفي، دخل في دوامة العنف و العنف المضاد، يقابله شعب خاسر افتقد الأمان و الحرية، يحدوه الأمل في الخلاص من هذه الدوامة، وتحقيق الحرية، و بناء الإنسان، لكن أمله هذا بات بصيص ضوئه عند آخر النفق المظلم الذي يسير فيه وطننا.

إن العنف السياسي الذي كنا نمارسه في القيادة المركزية، تحت مسمى مشروع ومقبول هو "العنف الثوري"، لم يقتصر على مؤسسات الدولة، بل انسحب على بعض الأفراد الذين نريد التخلص منهم، وهذا نتاج تراكم لثقافة العنف التي ترسبت في عقولنا الباطني، والتي قد تنفلت من عقالها متى ما تهيأت لها الظروف المناسبة وبالأخص عندما نمنحها الشرعية، بأي عذر كان، بعدما تتوفر لدينا القناعة بأنها تخدم قضيتنا. لذلك فإن الكتابة عن أحداث مضى عليها أكثر من خمسين عاما، شهدت صراعات مختلفة في العراق و تغيرات دراماتيكية في العالم، وتبدلت فيها أمور كثيرة، و تغيرت خلالها أفكار و رؤى، و نضجت بها قناعات جديدة، ينبغي أن تكون كتابة ذات موضوعية و شفافية، في وقت أصبح بمقدورنا كأفراد توثيق تلك الأحداث، بعد أن أمسى عالمنا بمثابة قرية صغيرة متاح لأفرادها - عبر التقدم المعلوماتي بثورة الاتصالات - حرية التواصل و النشر بسرعة فائقة، و بمنأى عن الظروف الضاغطة لإملاءات السلطات، أيا كانت، لانعدام قدرتها على قمع هذه الحرية، وقد انعتقت من طوق الانتماء الحزبي الأيديولوجي الضاغط، باتجاه الانصياع له، في محاولة لصنع ذاكرة سليمة لمجتمعنا.

من هنا نطرح هذا التساؤل: هل اتعظت القوى السياسية، اليوم، من تجارب العنف والقمع والاقصاء، وممارسة اسلوب التآمر والانتقام، ومعاقبة الآخر المختلف، بعد مرور هذه الحقبة المعاصرة المكتنزة بتنوع الأحداث؟ تدلل التجربة المعاشة الحالية، كما تبدو لي، أن القوى السياسية لم تتعظ، بدليل أنها لاتزال تراوح في مكانها، إن لم تكن قد تراجعت إلى الوراء، فهي لم تدرس حركة التأريخ المتغيرة، ولا حاولت أن تفهم أو تدرك الصراعات الدائرة من خلال هذه الحركة، ولم تبلغ مرحلة القدرة على الانتقال إلى الضفة الأخرى التي تتسم بالتسامح وقبول الآخر المختلف تحت خيمة الهوية الوطنية، التي تلغي الهوية العنصرية العرقية والطائفية المذهبية، بعد أن تقيّم تجربتها وتقف على أخطائها.

الفصل الخامس

١-إنقلاب ٨ شباط الاسود الدموي وما بعده

كنت في الثالثة و العشرين من عمري اَبان هذا الانقلاب، عضوا في اللجنة المحلية للحزب الشيوعي العراقي لـ"تنظيمات صرائف العاصمة خلف السدة الشرقية و مدينة الثورة"، و في صبيحة يومذاك، عند سماعنا نبأه من الإذاعة العراقية، خرجنا جموعا متجهين إلى منطقة "باب المعظم" حيث وزارة الدفاع، مقر الزعيم عبدالكريم قاسم، فإذا بحشود متوافدة متجمعة أمام البوابة الرئيسية للوزارة، كانت جماهيريتها على أشدها، هياجا و غليانا و غضبا، بصيحات تتعالى "يازعيم نريد سلاح"، و بينما نحن على هذه الحال من الحماسة و الاندفاع، إذا بنا نشاهد سيارته "الشوفرليت ستيشن" بلونها العسكري وهي تحاول اختراق الجموع المحتشدة المتجمهرة، تشق طريقها بصعوبة بالغة بينهم، و كان جالسا في مقعدها الخلفي، منتصبا متوترا ممسكا بيديه مسند المقعد الامامي و الغضب والعزم باديان على وجهه، وتصفيق الجماهير الثائرة يعلو ويرتفع، تطالبه بالسلاح، و هو من داخل السيارة يردد "ماكوشي"، و بعد لأي اجتازت البوابة الرئيسية للوزارة حتى وصلت مبناها الداخلي والغاضبون يشيِّعونها بهتافاتهم، بيد أنهم بقوا مرابطين خارج المبنى، لم يقتحموه، لكنهم أيضا لا يريدون أن يغادروه، ترتفع أصواتهم مطالبة بالسلاح، و بعد مضي وقت تقدمت دبابة تحمل على ظهرها صورة الزعيم، توجهت صوب البوابة الرئيسية محاولة اختراقها للوصول الى مبنى الوزارة، و بينما هي في طريقها إليه وجهت فوهة مدفعها نحوه، كأنها تريد مهاجمته، وفي الحال اكتشف المحتشدون أن رفعها الصورة كان للتمويه والخدعة، فهجموا على الدبابة و اعتلوا ظهرها، وفتحوا برجها، و هنا خرج منها عسكريان، أحدهما ضابط، تم قتلهما في الحال.

كانت الجموع ثائرة هائجة، مائجة، هائمة منفلثة لا تدري ماذا تعمل، عزلاء لا قيادة تقودها، ولا تمتلك سلاحا أو حتى أبسط مقومات ومستلزمات المقاومة، و بعد انتظار

طويل دون جدوى، والشمس تتعالى والوقت يمضي، إنفضت من محيط الوزارة وتفرقت تباعا بعدما أصابها الجزع واليأس، ولم يكن هناك من أمل يرجى، بعدها سرت وبعض المتظاهرين متوجهين إلى محلة "عقد الاكراد" في باب الشيخ، -بعد أن علمنا بوجود مقاومة وتجمع جماهيري هناك -فالتقيت بالرفيقين على الورد وباسم مشتاق عضوي لجنة منطقة بغداد، وبسؤالهما "ما العمل؟" أجابا أن قرار قيادة حزبنا الآن هو النزول إلى الشوارع تحت شعار "نزول الجماهير إلى الشارع يسقط المؤامرة"، وأن بيانا صدر سيتم توزيعه. جاء في البيان:

"إلى السلاح لسحق المؤامرة الاستعمارية الرجعية! أيها المواطنون! يا جماهير شعبنا المجاهد العظيم! أيها العمال والفلاحون والمثقفون وسائر القوى الوطنية الديمقراطية!، قامت زمرة تافهة من الضباط الرجعيين المتآمرين بمحاولة بائسة للسيطرة على الحكم تمهيداً لإرجاع بلادنا إلى قبضة الاستعمار والرجعية..... ثم يدعو البيان الجماهير قائلاً: "إلى السلاح للدفاع عن استقلالنا الوطني، وعن مكاسب شعبنا! إلى تشكيل لجان الدفاع عن الاستقلال الوطني في كل معسكر، وفي كل محلة ومؤسسة وفي كل قرية! إلى الأمام، إلى تطهير الجيوب الرجعية، وسحق أية محاولة استعمارية في أية ثكنة وفي أية بقعة من بقاع البلاد."

وينتهي البيان بالآتي:

"إننا نطالب الحكومة بالسلاح. فإلى الأمام إلى الشوارع! إلى سحق المؤامرة والمتآمرين".

وعندما رفض قاسم تزويد الجماهير بالسلاح. أصدر الحزب الشيوعي البيان الثاني وقد جاء فيه..... "أننا ندعو الجماهير لمهاجمة الجيوب الرجعية وسحقها دون رحمة وعدم الانتظار. إن استقلالنا الوطني أمام خطر مؤكد.... إن مكتسبات الثورة أمام خطر مؤكد.... استولوا على السلاح من مراكز الشرطة ومن أي مكان

يوجد فيه.... إلى السلاح ! إلى الهجوم من كل أنحاء بغداد والعراق لسحق جيوب عملاء الاستعمار".

وقال على كل رفيق أن يلتحق بتنظيم منطقتة و يقود المقاومة هناك، للتصدي للمؤامرة، و هذا جواب لم أفتنع به، فهو مؤشر و دلالة على أن الحزب لم يكن قد وضع خطة مسبقة، ولم يكن متهيئا لمواجهة مثل هذا الحدث، أو يعد له العدة في حال وقوعه، أنت أعزل لا تمتلك غير السكين والعصا وعدوك مدجج بالسلاح، وقد خطط لحركته الانقلابية جيدا وباغتك وفاجأك وشل حركتك وقواك وقد استغل الجمعة يوم عطلة، والتنظيمات العسكرية للحزب كان معظمها في إجازة، والمدينة نائمة وقد أفاقت على سماع البيان الأول للانقلابيين، أما قائد البلد فكان نائما في بيته البعيد عن مقر قيادته، كل هذا يطرح عليك سؤالاً: "ما الحل؟"، لكن لم يكن أمامي غير الانصياع لقرار الحزب، بعدما تركنا ملقيا مسؤولية المبادرة علينا نحن، فتوجهت إلى تنظيمي في منطقة صرائف العاصمة.

صرائف العاصمة

كانت هذه المنطقة واسعة، تنتشر أكواخها من الوزيرية (أقصى حي صليخ حاليا) إلى الرستمية - معسكر الرشيد (الهندي)، وفيها أحياء "الميزرة" و"التسريحة"، تفصلها السدة الشرقية (سدة ناظم باشا) عن أحياء الوزيرية والكرادة الشرقية، وهي سدة ترابية بارتفاع ٦-٧ أمتار تم بناؤها على يد الوالي العثماني حسين ناظم باشا عام ١٩١٠م، إثر الخوف على بغداد من الفيضانات بعد الفيضان الأخير عام ١٨٣١م، وقد غرقت فيه المدينة من شمالها إلى جنوبها، وحصلت فيضانات أخرى بعد بناء السدة في الأعوام ١٩٤٢، ١٩٤٦، ١٩٥٠م، وفيضان عام ١٩٥٤م كان آخرها، فكان سكان خلف السدة على امتداد حدودها يضطرون للرحيل للمناطق المحمية بالسدة، يمكنون فيها عدة شهور بانتظار أن ينحسر ماء الفيضان عن أراضيهم وينشف أديمها كي يعودوا مجددا لبناء أكواخهم "صرائفهم". وكانوا من فقراء الفلاحين الذين هاجروا إليها من خارج العاصمة،

منذ مطلع العشرينيات فالثلاثينيات، بسبب تحول ملكية الأرض الأميرية المشاعة التي يسكنونها إلى ملكية خاصة باسم شيخ العشيرة بموجب قانون تسوية حقوق الأراضي سنة ١٩٣٢ حسب توصيات تقرير البريطاني داوسن، مما ولد نظاماً شبه اقطاعي في الريف، وكان من مسبباته انتشار الفقر المدقع وطغيان الظلم الطبقي اللذين عانت منهما مناطقهم في أرياف الجنوب والفرات الأوسط، فتركوها ساكنين في أحياء "الصرائف" هنا.

وكانت مظاهر العوز والبؤس والحرمان والفقر تخيم على هذه الأحياء، التي تشكل أحزمة تحيط بمدينة بغداد، وكان أبنائها يمثلون البنية الأساسية للطبقة العاملة في المدينة، حيث أعمال الصناعة والبناء والحراسة والخدمات، وكلها تحت أمر العالم الآخر، المجاور لعالمهم، ذاك الذي تنتشر فيه القصور الضخمة والبيوت الكبيرة ذات الحدائق الواسعة في أحياء الوزيرية والسعدون والعلوية، التي تتوفر على حدائق عامة بين قصورها وبيوتها، كحدائق برك السعدون الغناء، التي يرتادها أهالي بغداد في المناسبات، فكان هذان العالمان عالمين متناقضين!

كانت "صرائف العاصمة" عبارة عن قرية ريفية تنتشر أكواخها بشكل عشوائي، وبكثافة سكانية عالية، جدرانها من الطين وسقفها من جذوع الأشجار، تغطيها حصيرة من القصب "بارية"، تحسبها زرائب ماشية، تفتقر لأبسط مستلزمات الحياة، فلا توجد شبكة كهرباء، لهذا يستخدم ساكنوها الفانوس أو "اللالة" أو "اللمبة" للإضاءة، ويستخدمون "المطال" وقودا وهو الفضلات الجافة للدواب، ولا يوجد ماء صالح للشرب، فترى نساءهم يجتزن السدة الترابية المرتفعة إلى الضفة الأخرى لشرائه من البيوت المجاورة، فينقلنه بواسطة "المشربة" أو "المصخنة" وهي حاوية نحاسية أو "البالدي" أي "البرميل" وهو وعاء معدني، بعد أن يعبرن خلال رحلتهم نهر شطيّط عبر قناطر من الجذوع. ثم أنها أحياء لا طرقات معبدة فيها، بل ثمة أزقة ضيقة تسمح لمرور البشر والدواب بالكاد، رغم كونها منطقة سكنية كبيرة، يمتد على طول حدودها، بموازة السدة الترابية، نهر "شطيّط"، وهو تصغير لكلمة "شط"، كأنه حاجز

مائي بين عالمين، يستخدمه أصحاب الجواميس، وهم "المعدان"، لسقيها ولتأخذ قيلولته في مياهه -أو كما يقولون "تقيّل" -فتلطف خلالها من حرارة أجسامها سيما أيام الصيف القاتمة. وكان "شطيّط"، أو "النزيرة"، شبيهاً بالساقية، إلا أنه أوسع منها، مياهه آسنة، موحلة زرقاء اللون، تنبعث منها رائحة كريهة سببها المياه الثقيلة للأحياء المجاورة إضافة لمخلفات مجاري مستشفى "المجيدية" في باب المعظم، وكان مصبه يبدأ من الوزيرية شمالاً متخذاً مساره إلى الرستمية جنوباً حتى يلتقي بنهر دجلة.

يصف حنا بطاطو هذه المنطقة: " في عام ١٩٥٦ كان حوالي ١٦،٤١٣ صريفة موزعة على تسع مناطق في بغداد الكبرى وتضم ٩٢،١٧٣ فرداً أي بمعدل ٥،٦ شخصاً في كل صريفة التي هي عبارة عن غرفة واحدة. كانت الأرض التي تتواجد فيها هذه الصرائف عبارة عن مكب نفايات تستخدمه بلدية بغداد والأهالي لرمي الأبال والفضلات البشرية والحيوانية فيه، كما تلقي مجاري المياه السطحية محتوياتها في هذه الأرض، حيث تمر هذه المياه الملوثة بين هذه الصرائف. وبصورة عامة لا يمكن لسكان العمارة هؤلاء أن يصبوا صرائفهم في مكان آخر لكان عليهم دفع إيجار عن هذا المكان وهو الأمر الذي لا يقدرّون عليه. ويصف (الدكتور كريجلي كلية بغداد الطبية - ١٩٥٢) الصريفة بقوله: "إنها كوخ من غرفة واحدة مسقّف بالحصران والطين، وذو تهوية سيئة، وبالغ الإزدحام، ولا يوفر أي خصوصية، وغالباً ما يضم أيضاً حيواناتهم إضافة لأفراد الأسرة وليست هناك ترتيبات صحية في الصريفة أو في المنطقة، لذا فإن السكان يتغوطون عشوائياً في كل مكان، وليس هناك أيضاً مصدراً لمياه الشرب الصالحة، فكان عليهم جلب المياه من خارج منطقتهم وخبزها في وعاء يسمى "الحب"، وأثاثهم العادي هو صندوق خشب وقليل من أواني الطبخ وسرير واحد تتكدس عليه كل فرش الأسرة التي ينام أفرادها على الأرض، وكل لقمة يأكلها هؤلاء الناس ملوثة، ويبلغ معدل وفيات الأطفال ٣٤١ من كل ١٠٠٠ حالة حمل. ومن الواضح

أن ظروف العيش هذه لا تشكل خطراً على صحة سكان الصرائف وحدهم بل على صحة كل سكان بغداد." (٧٦)

يروى السيد عبد الكريم الأزري أحد وزراء العهد الملكي: "بأنه زار سكان الأكوخ المهاجرين إلى بغداد وسألهم لماذا هاجرتم لكي تعيشوا وسط هذه المستنقعات والمياه الآسنة؟ فردو عليه: ان وضعنا هذا على سوئه أفضل من وضعنا الذي كنا فيه هناك ... إننا نجد هنا على الأقل-مهما كان وضعنا-نؤمن به رغيف العيش فلا نموت، ونكسي به أنفسنا فلا نمشي عراة، هل تتصور إننا كنا نترك (ديرتنا) لولا الضيق الذي كنا نعاني منه أشد المعاناة؟! وما يثير الإشمئزاز أن لجنة حكومية من كبار الموظفين تألفت لدراسة أمر هؤلاء المهاجرين وضعت تقريراً مليئاً بالحق على هؤلاء البؤساء وكأنهن أجانب هاجروا الى بغداد من بلد أجنبي... لا لذنوب اقترفوه سوى أنهم غيروا ديموغرافية العاصمة وأنهم يضايقون -حسب رأي اللجنة- سكانها الأصليين ومع أنهم سدوا حاجة بغداد الماسة للأيدي العاملة فقد طالب واضعوا التقرير ألا تسهل الدولة لهم سبل البقاء في بغداد -بإعطائهم أرض سكنية أو بناء دور لهم - وأن تسعى جاهدة لحملهم على الرجوع من حيث أتوا". (٧٧)

أما الكاتب محمد غازي الأخرس، فتحدث في كتابه (المكاريذ) عن سكان مناطق صرائف العاصمة، الذين نزحوا إليها من جنوب العراق، وحياة البؤس والشقاء والعوز التي كانوا يعيشونها، ومكابدة الجوع وحالة الظلم التي يواجهونها، وسماهم "المكاريذ"، وهذه مقتطفات مما كتبه عنهم:

" المكاريذ عموماً ذوو أشكال متشابهة فهم ملحان، مصخمين وملطمين، ملامحهم حزينة حتى لكأنها حُطت بقلم من الفحم، يسيرون "الراك الراك"، منكسري الظهر، مطرقين برؤوسهم الى الأرض لا الى السماء....". " ان للمكاريذ ملامح متشابهة، أبرزها

(٧٦) حنا بطاطو -الشيخ والفلاح في العراق ١٩١٧-١٩٥٨- دار سطور للنشر - ٢٠١٨-ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٧٦) عبد الكريم الأزري - تاريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨ ج ١-بيروت ١٩٨٢-ص ٤٩٩، ٥٠٠.

برأيي هو تواضع أعلامهم، فأقصى ما يحلم بعضهم بتحقيقه هو التحصّل على "رويتب" مضمون من الحكومة يكفي لسد الرمق، لا، بل ان احلام بعضهم الآخر تبدو صغيرة لدرجة تشعرك بالإحباط والخيبة، فأنت تتوقع أن يخامر أحدهم حلم شراء ملبوس جديد أو تذوق أكلة معينة دون أن تستغرب." ويستطرد الأخرس في سرديته ليصل الى ذروة الإبداع في وصفهم: " هم وقود الحياة و "جيمة" التنور، وهذا الأخير ينتج للأغنياء خبزا وكعكا ويشوي سمكا ودجاجا.... ". " وللمكارييد فضلا عن شكوكهم الدفينة، يقين بارز انهم خلّقوا للأحزان مثلما خلقت الخرفان للذبح، وإذا كانوا وقود تُنور الحياة الذي يحمّص الخبز للأغنياء، فهم، أيضا، حطب جهنم الثورات طوال التاريخ." (٧٨)

توجهت إلى هذه المنطقة حيث كنت عضو لجنّتها المحلية، التي كان من أعضائها الرفيقان زكية خليفة الزيدي (مسؤولة خط النساء فيها) ومؤيد الطباطبائي (توفي إثر جلطة دماغية)، والتقيت هناك بالرفاق عبد جاسم الساعدي، مؤيد الخطيب، ملا ربحان، أعضاء اللجنة وصباح حسين الخصاف، وآخرين، فاجتمعنا في بيت الرفيق الساعدي لمناقشة العمل والتهيئة لمقاومة الانقلابيين، وبعد دراسة متعلقة هادئة للظرف الموضوعي المستجد، وتقييمنا لقدراتنا وامكانياتنا، والذهول الذي أصابنا وأصاب تنظيماتنا الحزبية وجماهيرنا من هول المفاجأة، أدركنا وتأكّدنا أن مقاومتنا للانقلاب ستكون انتحارية وفاشلة، وغير مجدّية، حيث أن منظمّتنا لا تملك غير مسدس واحد نوع "وبلي" فيه ست اطلاقات فقط.

فقد كان الحزب طوال سني حكم عبدالكريم قاسم يمتلك القدرة العالية على تنظيم التظاهرات وحشد الجماهير و تعبأتها وتحريكها وفق الشعارات التي يطرحها، مركزا

(٧٧) المكارييد - حكايات من سرداب المجتمع العراقي - محمد غازي الأخرس - دار سطور للنشر-بغداد-

على شعار التظاهر اسلوبا وحيدا للنضال، مهملا الأساليب الأخرى، حتى لم تكن لديه تعبئة مرسومة ومعدة في تهيئة وتوفير الامكانيات اللازمة لمواجهة أي محاولة انقلابية لإسقاط الحكم القائم وتقويض جمهورية الرابع عشر من تموز ١٩٥٨م، لذلك فوجئ بانقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، فوجد نفسه متخبطا مشلولا ضعيف الحركة، غير قادر على مجابهة الانقلابيين، لا يمتلك خطة محتاطة للحفاظ على سلامة تنظيماته وكوادره وقياداته في هذه الظروف المستجدة، مما سهل الطريق أمامهم لاعتقال الآلاف من أعضائه ومؤيديه بسهولة متناهية، وكان واضحا أن المتآمرين استغلوا التظاهرات الجماهيرية الواسعة التي كان يحشدها للاحتجاج على الجوانب والمواقف السلبية لسياسة قاسم، وكانوا يعملون على تشجيعها، وتأجيجها، ليستفيدوا من زخمها في إرباك وإضعاف حكمه خلال الأيام التي سبقت انقلابهم، فساعدتهم كثيرا في التعجيل بإسقاطه.

ولقد أعطى عزيز الحاج وصفا واضحا للمأزق الذي كان يعيشه الحزب، من خلال التقييم الذي أعده وقدمه له، عن الأسباب التي أدت به إلى تلك النتيجة إثر انقلاب البعثيين، يصف في جزء منه حالته يومذاك - كما ذكرت سابقا- ، فيقول : "إن الحزب كان كمن يحتفظ ببندقية ليوم المعركة الفاصلة واضعا اصبعه على زنادها، ولما حان موعد استخدامها، وضغط على الزناد، وجد أن البندقية لا تعمل فقد علاها الصدا"، واستعدت أيضا ما قاله لنا الرفيق الياس حنا كوهاري قبل شهرين من الانقلاب، - في اشراف له على لجنتنا المحلية - عن الأزمة الضبابية الحائرة التي كانت تعيشها قيادة الحزب، في سياق تقييمه للأوضاع آنذاك، وهو "إن حزبا يمتلك هذا القدر من الكادر والرفاق والامكانيات التعبوية، ومن سعة التنظيم المنتشر في أرجاء العراق، والذي غطى حتى القرى النائية فيه، والتي إن لم يكن لنا فيها رفيق حزبي يكون لنا فيها صديق للحزب، أضف لذلك الالتفاف والتأييد الجماهيريين الكبيرين اللذين كان يتمتع بهما، إن مثل هذا الحزب، إما أن يستلم السلطة، أو توجه له ضربة موجعة"، فكانت الأخيرة دليلا على ما حصل لتكشف لنا عن تلك الأزمة التي كانت تعيشها

قيادة الحزب، وفي هذا السياق قدم كل من الرفيقيين زكي خيري وعزيز الحاج تقييما مشتركا أشارا فيه إلى تجربة الحزب للمرحلة التي شملت الفترة ما قبل ٨ شباط ١٩٦٣م وما بعدها، والمآل الذي وصل إليه في سياسته ونهجه متضمنا أيضا انتقادا لخط آب اليميني. (٧٩)

في التاسع من شباط، وهو اليوم الثاني للانقلاب، بينما كنا في بيت الرفيق عبد جاسم الساعدي، داهمتنا أعداد غفيرة من الحرس القومي، يقودهم بعثيون قاطنون في بيوت "العقاري"، التي تقع خلف جمعية المهندسين في بارك السعدون والقريبة من "التسريحة" في منطقة صرائف العاصمة، كان منهم سعد الحياني وجلال شاكر التكريتي (زميلان لنا في مدرسة النظامية المتوسطة)، وصباح المدني وصلاح عمر العلي، وآخرون، وكانوا متوجسين خيفة منا معتقدين ربما أننا نملك سلاحا لمقاومتهم، حيث اعتقلونا واقتادونا إلى مديرية الأمن العامة في بارك السعدون أنا و الساعدي وفليح حسين (الأخ الأكبر لرفيقنا صباح حسين)، وحالما ولجنا المديرية، أجبرنا عناصرها على الوقوف بموازة الحائط، وبدؤوا يطلقون الرصاص من بنادقهم فوق رؤوسنا لإرهابنا، وقد تزامن مع ذلك وجود شاب اعتقلوه من مكان آخر، لم يتجاوز العشرين من العمر، اسمه ميخا، ليقف بالصف جنبنا، وقام بعضهم بضربنا بالعصي على أماكن مختلفة من أجسامنا إلا أنهم ركزوا على ضرب هذا الشاب بوحشية متناهية، حتى سالت دماؤه، وكانوا يطلبون منه أن يشتم "فهد" يوسف سلمان، مؤسس الحزب الشيوعي العراقي، إلا أنه كان يرفض ذلك بشدة، فيسمعونه أرددل أنواع الشتائم الرخيصة، ليلتفتوا نحونا ويشرعوا بحملة ضارية من أساليب الارهاب والعنف والاعتداء الجسدية، وينهالوا علينا ضربا بالعصي واللكمات والركل بالأرجل، بحقد لا مثيل له، وكان فليح حسين يشتمهم، ويلتفت إلي قائلا "من يكون هؤلاء حتى أخضع لهم، ما هم إلا صعاليك وحشرات ولن أطأطأ رأسي لهم"، فكان

(٧٩) كان هناك تقييمان الأول قدمه الرفيقان زكي خيري وعزيز الحاج بعنوان "محاولة في تقييم سياسات حزبنا" الثاني قدمه الرفيقان عامر عبد الله وبهاء الدين نوري بعنوان "مساهمة في تقييم سياسات حزبنا" رداً على التقرير الأول.

شجاعا وعلى درجة عالية من العنفوان والفروسية، ولم يكن يقبل الاستكانة والرضوخ والاستسلام لهم، وعنيدا لحد الخبل، ويبدو أنها سمة كان يتسم بها، رغم أنه كان شخصا مستقلا، ليس لديه أي ارتباط بالحزب، إنما كان من المؤيدين له.

وبعد هذه الحملة من الضرب والتهديد والوعيد، والتي استمرت أكثر من ساعة، نقلونا إلى معسكر الرشيد، وحشرونا حشرا في غرفة لا تتعدى مساحتها اثني عشر مترا، كان فيها ضباط شيوعيون ووطنيون محسوبون على عبدالكريم قاسم، يتراوح عددهم ما بين ٥٠ - ٦٠ شخصا، وهناك ما يقارب ألف سجين كانوا يرزحون في سجن رقم (١)، ثم نقلونا إلى قاعة كانت مستودعا كبيرا للذخيرة تابع لسرية الهندسة العسكرية في المعسكر، يقع بمحاذاة نهر دجلة، وكان عدد المعتقلين فيها يقدر بالمئات، أذكر منهم حسن النهر، وهو رجل كبير في السن، يرتدي لباسا عربيا، ضئيل الجسم، قوي الشكيمة، عالي المعنوية، علاوة على أنه والد الرفاق الشيوعيين: شامل، فلاح، نصير، معين، ظافر، هاني وحياء، لكنه لم يكن شيوعيا بل كان محسوبا على الحزب الوطني الديمقراطي. وكان أيضا معنا ظافر نوري المحامي، وجمال عبد القادر، زميلي في المتوسطة النظامية، ولعب كرة القدم في المنتخب الوطني آنذاك، وكان مصابا بطلق ناري في خصرته اليمنى، فقد كان يقود مقاومين في الكاظمية، قاموا بمبادرة منه بهجوم على مركز شرطة النجدة، فاستولوا على الأسلحة الموجودة فيه، بعدها حدثت معركة بينهم وبين حرس قومي، أصيب خلالها، وبعدها نفذ عتاده تم اعتقاله واقتيد إلى هنا، وكان يصف لنا كيف كان يعدّبونه وهم يولجون أصابع أيديهم داخل جرح أصابته ليوقعوا فيه مزيدا من الألم. وما زلت أتذكره بشعره الأحمر القاني وابتسامته الجميلة التي لا تفارق محيّا في أحلك الظروف، حيث ذكريات الدراسة وسفرتنا الكشفية المدرسية عام ١٩٥٩م إلى شقلاوة. كذلك كان معنا في القاعة ذاتها رفيقنا فوزي عباس العامل، الملقب "فوزي الأحمر"، وهو رفيق متفرغ للعمل الحزبي، كان قديما من "شقاوات" الكرخ (محلة الدوريين) المعروفين، وقد كسبه الحزب لصفوفه مطلع الخمسينيات، فتثقف على يده، ليصبح كادرا عماليا متميزا. كان مشرفا لفترة

على منظمة منطقة العاصمة خلف السدة، بعد أن أشرف عليها -قبله- الرفيقيين حقي قاسم وخوشابا اسماعيل. وفي ٨ شباط ١٩٦٣م كان يقود مقاومة في منطقة الكريمات، لكنه اعتقل في اليوم التالي بعد نفاذ عتاده، فاقتادوه إلى مبنى الإذاعة، في الصالحية، وكانوا يجلسونه على "سخان كهربائي" أمسى من أثره لا يستطيع الجلوس على مؤخرته بسبب الحروق التي لحقت به، فيجلس القرفصاء وينام على بطنه أو على جنبه أو يكون واقفا، وقد روى لي مشاهدته للزعيم عبدالكريم قاسم، والعقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب، والعقيد طه الشيخ أحمد مدير الحركات العسكرية، والملازم الأول خليل كنعان، يقتادهم ويحيط بهم مسلحون عبر الممر المؤدي إلى ستوديو الإذاعة، من شباك الغرفة المحتجز هو فيها والذي يطل على الممر، وقد كانوا حاسري الرؤوس ونزعت عنهم رتبهم، وكان قاسم يسير منتصبا تعلق وجهه ابتسامة شفيفة، أما المهداوي فكانوا ينهالون عليه ضربا ويسمعونه كلاما بذيئا ويكيلون له عبارات الإهانة، وقد تسربت هامته ووجهه بالدم، وكانوا يدفعونه بعنف وقسوة بالغين، بينما انبرى قبالتة أحد الجنود وقد انتفخت أوداجه حقدا وكراهية ليوجه له طعنة بسلاحه الأبيض يغرزها بظهره، وهو صامت لا ينبس ببنت شفة.

كانت مساحة هذه القاعة حوالي ألف متر مربع، تعلق جدرانها شبابيك مفتوحة من جهة نهر دجلة، ومع أن الوقت كان شتاء، حيث قربها من النهر يزيد بها برودة قارصة، كنا نفتش أرضها الاسمنتية دون فراش أو غطاء، تلتصق أجسامنا الواحد بالآخر طلبا للدفع. وقد وضعوا في مقدمتها علب صفيح لغرض التبول لاستخدامها خلال الفترة التي تلي الفرصة الوحيدة التي يخرجوننا فيها لاستخدام الحمامات الخارجية، كما كانوا يسمونها، والسامع للوهلة الأولى ربما يعتقد أنها حمامات كالحمامات العامة، التي نراها أو نستعملها، لا... بل أن كل واحد منها عبارة عن صفائح من الزنك، مما تستعمل عادة في بناء وتغليف المخازن، شيدت على أرض خالية، وفصلت على شكل غرفة صغيرة دون سقف، ذات جهة واحدة، أطرافها السفلي مفتوحة، حفروا في أسفلها حفرة على شكل رباعي الأضلاع، وضع على جانبيها صقان من الطابوق كي يستطيع من

يستعملها الجلوس عليه وهو بوضع القرفصاء، وكانوا يمنحونا وقتا محددا مسموحا به لا يتجاوز خمس دقائق لكثرة عدد المعتقلين المنتظرين دورهم، وإن تأخرنا قليلا يبدأ الحراس بطرق الصفائح ببنادقهم، ويعلون أصواتهم المقتترنة بحزمة من الشتائم والكلام البذيء، يطالبونك بإخلائها ومغادرتها، وأنت ربما لم تكن قد انتهيت بعد من إفراغ ما بامعائك، ويصبح لزاما عليك أن تقطع عملية التغوط، وتطوي جناحك عائدا إلى قاعتك، تلاحقك ركلات أرجلهم.

أما قصة مراحيض "التنك" داخل القاعة، فهي مضحكة مبكية، حيث أن الجو الشتوي والنوم الالزامي الذي لا مفر منه على أرض القاعة الكونكريتية دون فراش أو غطاء، تسبب في إصابة الكثير بمرض "الدزانتري" الذي يسبب اسهالا حادا لا يستطيع المصاب به من السيطرة على نفسه فتراه يعدو مسرعا إلى مرحاض "التنكة" أمام أنظار الجميع، يلحقه اثنان يحملان بطانية يرفعانها قبالة لتشكّل ستارا عازلا بينه وبين الآخرين تحجب رؤيتهم له، كي يتمكن من قضاء حاجته، حتى أن بعضهم لا يستطيع التحكم بأمعائه، أو السيطرة عليها، فيضطر عندها لأن يتخلص منها بأن يفرغها في سرواله! كل هذا كان ترافقه "طقوس" الإهانة والضرب والاعتداء، وإطلاق العبارات النابية، طيلة اليوم، وكلما أطل أحد مسؤولي السجن، أو مسؤول زائر من خارجه، يلقي علينا موعظة يتعالى صراخه فيها مستخدما سيلا من الشتائم واللعنات يطلقها من إنائه الذي ينضح بما فيه، حيث نضوحات الظلم والقسر والعنف والانتقام، التي شربتها نفسه، فتغلغت في أدق جزئياتها، كأنها أصبحت جزءا من تركيبته الجينية.

بعد فترة لم تمتد طويلا، نقلنا إلى الموقف العام الملاصق للسجن المركزي في الباب المعظم، التابع لمديرية السجون العامة، وقد اكتشفنا الفرق والاختلاف الكبيرين بين هذا السجن وذاك الذي كنا نشغله في معسكر الرشيد، من حيث توفر قاعات النوم، والأفرشة، والحمامات الأصولية، وطريقة النوم ووجبات الأكل المنتظمة، لكن لا تستغرب... فهو لم يكن تابعا للانقلابيين إداريا، إنما هو تابع لمديرية السجون هذه وقوانينها. لاحقا زارتنا لجنة تحقيقية، بسبب امتلاء السجون بعشرات الآلاف من المعتقلين وانطلاق حملة اعلامية عالمية واسعة منددة بما يرتكب من جرائم قتل

وتعذيب فيها، ومطالبة بإطلاق سراحهم، مما دفعهم لتشكيل لجان في جميع السجون كي تحقق مع المعتقلين وتطلق سراح من لم يكن حزبيا، وكانت هذه اللجان تحقق معهم حسب المعلومات المتوفرة لديها أو التي حصلت عليها من كشف التنظيمات ومن بعض المعترفين أو المتعاونين معها للاستدلال بها على العناصر الحزبية. وفي مطلع كل زيارة من هذه اللجنة التحقيقية للسجن يستهلها أعضاؤها بحملة من الصفعات واللكمات والبصاق على الوجوه، بعد أن يجعلونا طواير يمر من أمامها ويتفحصها بعض العناصر الحزبية المنهارة، وبعد انتهائها يأخذوننا إلى غرفة التحقيق ويستعملون معنا ما تيسر لهم من وسائل التعذيب لغرض إجبارنا على الاعتراف والتأكد من أننا لم نكن أعضاء في الحزب الشيوعي، ونظرا لشدة التعذيب ولعدم قدرتهم على الصمود أمامه، كان البعض يعترف ويقر بأنه شيوعي ليخلص نفسه ولو مؤقتا من هذا العذاب، بينما هو لم يكن حزبيا أصلا. فذات مرة حضر إلى الموقف العام لتشخيص العناصر الحزبية كل من الرفيقيين عصام القاضي وباسم مشتاق، عضوي لجنة منطقة بغداد، وكان الثاني قد التقيته هو والرفيق على الورد في اليوم الأول للانقلاب، في محلة "عقد الاكراد"، وعند مروري من أمامهما لم يظهرأ أو يبديا معرفتهما بي، رغم أنهما كانا يعرفانني جيدا ويعرفان موقعي الحزبي في المنظمة التي أعمل فيها والمرتبطة ببلجنتهما مباشرة. من هنا يبدو أن اعترافاتهما كانت جزئية أمام لجنة التحقيق جزاء ما مورس معهما من إرهاب وتعذيب شديدين. وبعد انتهاء هذا العرض يلجأ المحققون إلى ممارسة وسائل التعذيب التي سبق أن مارسوها معنا لانتراع الاعترافات، فكان الاصرار على إفادتي بأني لست حزبيا، إضافة إلى عدم وجود أي دليل مادي ضدي بحوزتهم، وكان هو المنفذ للافلات من قبضتهم. فقد كانت اللجان التحقيقية تصنف المعتقلين على أساس المجال التنظيمي الذي يعملون ضمنه، إن كان محليا أم طلابيا أم عماليا، أو في المنظمات المهنية التي ترتبط بالحزب، كاتحاد الطلبة، أو الشبيبة الديمقراطية، أو رابطة المرأة العراقية، وكان التركيز يجري على كشف تنظيمات حزبية، وذلك من خلال الأسماء التي وردت وانكشفت في الاعترافات التي حصلوا عليها، ويتم تبويبها وتصنيفها على هذا الأساس ليتوسعوا في كشف ما تبقى من التنظيمات، فتتوفر لديهم أسماء لأعضاء كل خط من هذه التنظيمات الحزبية... وقد كان اسمي مدونا في سجلات المعتقل كوني طالبا

في الثانوية الشرقية، أي أنني محسوب على الخط الطلابي، وفي الحقيقة كان ارتباطي الحزبي بالتنظيم المحلي وليس الطلابي، ونظرا لعدم توفر الأدلة لديهم، أطلق سراحي بكفالة قدرها خمسمائة دينار.

حينذاك غادرت العاصمة بغداد إلى مدينة الكوت، لأكون بعيدا عن أنظار السلطات والتحققت للعمل بمشروع في أطراف المدينة تابع لشركة مقاولات الطرق التي يمتلكها قريبي رحيم خلف اللامي، وهو من دفع كفالة خروجي من السجن، ثم حاولت الاتصال بالحزب هناك، عن طريق أحد الرفاق الفلاحين، إلا أنه اعتقل بعد شهر من اتصالي به، ولما سمعت نبأ اعتقاله، لم يكن امامي من خيار غير الانتقال إلى مدينة أخرى، هي الاسكندرية في محافظة بابل، حيث للشركة ذاتها مشروع آخر فيها، وعلمت لاحقا أن الرفيق الفلاح قد أستشهد، وبقيت متخفيا في هذه المدينة حتى سقوط سلطة البعثيين على يد عبد السلام عارف، في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣م، أي بعد تسعة أشهر على انقلابهم، فعدت إلى بغداد لأتصل بالحزب وأواصل العمل الحزبي.

هنا قمنا بالتحرك ناشطين لتجميع التنظيم، وقد لعب الرفيق العامل صالح زغير "أبو رسول" دورا هاما في تجميع الخطوط العمالية والتنظيمات المحلية المنقطعة والمتفككة، في مناطق عملنا السابقة، وبذل جهودا كبيرة ومضنية من أجل لم شملها وربطها بالحزب، وكان شعلة متقدة من الحماس والنشاط والاقدام، وكنت أراه يوصل الليل بالنهار، لا يكل عن الحركة متنقلا بين المناطق بطاقيته الشتوية (الكليته) التي لا تفارق رأسه حتى في أيام الصيف القائظة، وفعلت لملمة أجزاء واسعة -مبعثرة - من التنظيم. لكن المؤسف والمؤلم أن يُهمَل هذا الرفيق الطيب البسيط الذي لا يمتلك صفات بعض الرفاق الآخرين ممن يتقنون المداينة ويمتلكون اللباقة وبيع الكلام وارتقاء سلم الدرجات والمراتب الحزبية على أكتاف آخرين من أمثاله، فهو لم يُعط الاهتمام اللازم اللائق بجهوده الكبيرة التي بذلها... فبعد قرار الحزب بعودة رفاقنا المتواجدين في البلدان الاشتراكية والتحاقهم به، وجدوا لجانا منتظمة جاهزة، فتدافعوا بالأكتاف ليستلموا قياداتها دون عناء، بينما تم تنسيبه إلى لجنة تابعة، بعد أن كان عضو لجنة متفرعة، ليوضع في الصفوف الخلفية، بدعوى قلة كفاءته وتدني

مستواه الثقافي وضعف امكاناته وقدراته القيادية، فجبر عمله مكسبا لآخرين، ارتقوا إلى مراكز متقدمة، في الوقت الذي كان أولى بالحزب أن يحتضنه رعاية وعناية، لما يمتلكه من اخلاص ونشاط، ويدعمه فكريا وثقافيا، ويطور قدراته، ليصبح كادرا قائدا، بين رفاقه، يستطيع أن يلعب دورا مميزا في مسيرة الحركة الشيوعية، لا أن "يعاقبه" وبخفض مستواه الحزبي.

وها هو الآن، إذ بلغ مرحلة الشيخوخة، يعيش حالة من الفقر المدقع، قعيد فراش المرض، بحاجة للرعاية والعناية التي لم يتلقاها من حزبه -سوى زيارات متفاوتة له كان يقوم بها صديقه ورفيقه جواد الوسمي -ورغم ذلك لم يعتب عليه! إنها قساوة، لا تبعد كثيرا عن ثقافة "العنف" الكامنة في نفوسنا، حيث هذا المثال الذي نورده هنا لنبيين السلوكية التي كانت سائدة بين كوادر الحزب المتقدمة، في تلك الفترة من تاريخه، والنزعة التي كانت تتسم بالفوقانية والتصغير من شأن الرفاق الذين يمتلكون حدا أدنى من الثقافة، ولا يجيدون اللباقة المطلوبة، بدلا من أن يبذل الجهد لثقيفهم وتأهيلهم وإعدادهم ليكونوا عناصر قيادية لها شأن في المسيرة النضالية.

في الفترة اللاحقة بتشرين الثاني ١٩٦٣م، مطلع عام ١٩٦٤م، طلب الحزب من الرفاق الذين كانوا يتلقون الدراسات الحزبية في البلدان الاشتراكية، أن يعودوا إلى العراق، ليلتحقوا بتنظيماته، فالتحق بها في بغداد كل من الرفاق: كاظم حبيب، وصباح الدرة، ومحي عطا، من ألمانيا الديمقراطية، ولاحقا الرفيق محمد الخضري، من الفرات الأوسط، مشكلين لجنة لقيادة العمل، تسلمت التنظيمات التي تم تجميعها وانتظامها، حيث قادها الأول، طارحا موضوعة الاعداد لتشكيل خطي "هاشم" العسكري و"حسين" المدني المسلح، وكلفت بالأشراف على الخط الثاني فطرحت مهمة تصفية مالك سيف حينها، بعدما تم الحصول على معلومات كاملة عنه. لكن سرعان ما تبدد هذا التوجه وتحولت هذه اللجنة إلى "لجنة للمثقفين" بقرار من اللجنة المركزية للحزب بلغنا به الرفيق كاظم حبيب، الذي كان يقود هذه اللجنة التي تظمني أنا ورفاقي حامد أيوب وصباح الدرة وطارق رحيم، حيث اتضح لاحقا أن العملية برمتها كان هدفها العمل على تخدير الرفاق ومحاولة اقناعهم بجدية توجه الحزب لاستلام السلطة ولامتصاص الغضب المتراكم لدى أعضائه وجماهيره، بسبب

سياسته السابقة، وعدم الثقة بجديته في انتهاج الخط الثوري، لتغيير الوضع القائم، وما خلفه انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، والنكبة التي تعرض لها. فضلا عن افتقار الحزب لأية خطة تواجه هذا الانقلاب غير التنبيهات والتحذيرات الموجهة إلى الزعيم عبد الكريم قاسم، من خلال بياناته، رغم وجود معلومات لديه عن تحركات الانقلابيين، ومحاولاتهم تقويض الحكم، وقد وصلت للزعيم قاسم، الذي لم يعرها الاهتمام اللازم، حيث قام بإناباتها لأجهزته الأمنية التي لا يحمل "معظمها" الولاء له، ولهذا التحقنا أنا والرفيقان حامد أيوب وطارق رحيم بالقيادة المركزية، بينما بقي الرفاق كاظم حبيب وصباح الدرة ومحمد الخضري مع اللجنة المركزية.



قصر الرحاب "قصر النهاية" ويبدو في الصورة الملك فيصل الثاني وخاله ولي العهد الأمير عبد الإله بن علي، ومن خلفهما تظهر صورة القصر

٢- قصر النهاية ١٩٦٣

جغرافية وتاريخ القصر:

يقع (قصر النهاية غربي محافظة بغداد، مقابل منطقة الحارثية ضمن حي المنصور ما بين معرض بغداد الدولي وبنية الدفاع المدني حالياً، على نهر الخر، حيث كانت المنطقة عبارة عن مساحات فارغة، بل أنها آخر حدود بغداد آنذاك، وهي الآن آخر حدود منطقة الكرخ، وليس هناك بالقرب منه إلا قصر يسمى (الزهور) وقصر آخر يعود الى عبد الجبار محمود زوج الأميرة راجحة بنت الملك فيصل الأول يسمى قصر الأميرات في منطقة المنصور.

على هذه المساحة من الأرض أقيم عام ١٩٣٧ قصر ملكي حمل اسم (قصر الرحاب) بني على نفقة العائلة المالكة، حيث تم إنجازه تحت إشراف الوصي على العرش الأمير عبد الإله، وجاءت تسمية هذا القصر نسبة الى قرية اسمها (الرحاب) كانت مقر سكن العائلة الهاشمية في (الحجاز). وصمم هذا القصر وأشرف على بنائه مهندس معماري مصري، ويتكون من عدة غرف لا تتجاوز في مجموعها سبع غرف، وهي غرفة استراحة وغرفة طعام وغرفة مكتبة مع غرفة صغير في الممر وغرفتين للضيوف. ثم بني طابق ثان له اشتمل على غرفة استراحة وغرفة للنوم وغرفتين للضيوف، لكن القصر تغير اسمه بعد إعلان الحكم الجمهوري في ١٤ تموز ١٩٥٨ وصار يعرف ب (قصر النهاية) لأنه شهد نهاية الحكم الملكي الذي قتل فيه الملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله (ولي العهد) وجدته نفيسه وبعض الأميرات، وبقي القصر مهجوراً طوال حكم الزعيم عبد الكريم قاسم.

وجرى تحويل قصر النهاية الى سجن رهيب للتعذيب بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وسيطرة حزب البعث، فكان مركزاً لممارسة أبشع الجرائم، وجرت فيه تحقيقات واغتيالات طالت العناصر الوطنية من الشيوعيين ومن مؤيدي الزعيم عبدالكريم قاسم، ونال المعتقل سمعة رهيبه كمسلخ بشري للمعارضين اليساريين خلال التسعة

شهور التي هي عمر حكم البعثيين الأول للعراق (شباط - تشرين الثاني ١٩٦٣)، وقد عاد البعثيون اليه بعد انقلابهم في ١٧ تموز ١٩٦٨ بقيادة أحمد حسن البكر وصادم حسين، ليستخدموه مرة أخرى معتقلا وسجنا رهيبا ومركزا للتحقيق والتعذيب والإرهاب، مستغلين بذلك ما تحمله ذاكرة هذا المكان المترع بالدم والصراخ والأنين بفعل نظام قام على الدم والقتل والتعذيب، ويبيت الرعب والهلع والخوف في قلوب الداخلين اليه، حتى أنه يُخَيَّل الى المار بجانب أسواره الخارجية أن عيوننا ترصده وأيدٍ طويلة تمتد خارج أسواره لتلقي القبض على كل مارٍ وعابرٍ، واحساس عفوي بالرعب يزداد كلما تم استذكار تاريخ ما جرى في هذا المكان.

منذ اليوم الأول لانقلاب شباط الدموي، ولكثرة المعتقلين الذين بلغوا آلاف، تم استخدام مبان مدينة عديدة ومتفرقة في بغداد، كمعتقلات وسجون ومراكز للتحقيق، كان في مقدمتها كل من:

- قصر الرحاب في المنصور، مجاور معرض بغداد الدولي، والذي أُطلق عليه قصر النهاية، وعرف بذلك لأنه شهد نهاية الحكم الملكي.

- مقر محكمة الشعب الملاصق لوزارة الدفاع في الباب المعظم.

- النادي الأولمبي في الأعظمية.

- سينما الفردوس في شارع الكفاح.

- ملعب الإدارة المحلية.

- إضافة للسجون النظامية، كالسجن المركزي والموقف العام في الباب المعظم، وسجن خلف السدة، وسرية الخيالة، وسجن رقم واحد في معسكر الرشيد، والمركز العام قرب القشلة، ومقرات الحرس القومي، ومراكز الشرطة المنتشرة في عموم بغداد، كذلك السجون في المحافظات كسجون الحلة وبعقوبة والعمارة، وسجن نقرة السلطان الصحراوي في بادية السماوة، وكل مراكز الشرطة فيها.

كانت الهيئة التحقيقية في قصر النهاية، مدحت ابراهيم جمعة وحازم جواد، ومحسن الشيخ راضي، والطيار أيوب وهبي وهاشم قدوري، وأحمد أبو الجبن، وصباح المدني، ومنعم قدوس وبهاء شبيب وآخرين، وفي محكمة الشعب منهم عمّار علوش، ناظم كزار، خالد طبرة، أيوب وهبي، عبدالكريم الشихلي، سعدون شاكر، وآخرين، وكانت تمارس تعذيب المعتقلين مستخدمة كل وسائل العنف الجسدية والنفسية لانتزاع اعترافاتهم وخصوصا ادلاءهم بمعلومات عن التنظيمات التي يرتبطون بها، ومعاقبتهم إما لانتمائهم للحزب الشيوعي العراقي أو موالاتهم لعبدالكريم قاسم. وكان الحرس القومي وحزب البعث وكل الأجهزة الامنية التابعة له قد شنوا حملة شرسة مركزة واسعة لاعتقال أكبر عدد ممكن من الشيوعيين، وفي مقدمتهم قيادة الحزب الشيوعي وكوادره الأساسيون، فتم اعتقال السكرتير العام للحزب الرفيق حسين الرضي "سلام عادل" ومعظم أعضاء لجنته المركزية ولجنة منطقة بغداد، والمئات من كوادره المتقدمة، والآلاف من الأعضاء والمرشحين وأصدقائهم، وأصبحت الشيوعية تهمة تعلق بكل معارض لهم، حيث اعتبروها العدو المستهدف الأول، والخطر الأكبر الذي يواجه انقلابهم، وعليه يجب الخلاص منها وتصفيتا، وما "البيان رقم ١٣" المشؤوم، الذي أصدره يوم انقلابهم، والذي كان يدعو صراحة وعلانية إلى إبادة الشيوعيين، إلا دليل واضح لنواياهم، وهدفا مركزيا كانت تخطط له دوائرهم الاستعمارية الخارجية. فبموجب بيانهم هذا تم القتل على هوية "تهمة الشيوعية" وزج بالآلاف في السجون والمعتقلات النظامية، فضلا عن الاستعانة بأبنية الأندية الرياضية والمدارس ودور السينما لاحتواء الأعداد الغفيرة من المتهمين الذين مات الكثير منهم تحت التعذيب الوحشي أو بفعل التصفية الجسدية.

بيان رقم ١٣

"نظرا لقيام الشيوعيين عملاء وشركاء عبد الكريم قاسم في تعاونه بمحاولات يائسة لإحداث البلبلة بين صفوف الشعب وعدم الانصياع للأوامر والتعليمات الرسمية. وعليه تقرر تخويل القطعات العسكرية وقوات الشرطة والحرس القومي بإبادة كل من يتصدى للإخلال بالأمن. وإننا ندعو جميع أبناء الشعب المخلصين بالتعاون مع السلطة الوطنية بالإرشاد عن هؤلاء المجرمين والقضاء عليهم".

العقيد رشيد مصلح التكريتي الحاكم العسكري العام

ينفي الاستاذ شامل عبد القادر في كتابه (الاغتيال بالدبابة)، ص ١٧١، وهو يروي أسرار يومي ٨ و ٩ شباط، أن يكون العقيد التكريتي مسؤولاً عن اصدار هذا البيان، فيقول "تردد أن رشيد مصلح الحاكم العسكري العام هو الذي ذيل البيان باسمه و توقيععه وبعد سيطرة البعثيين على الحكم عام ١٩٦٨م ألقوا مسؤولية البيان على عاتقه تقريبا من الشيوعيين "ويضيف" لم يكن رشيد مصلح موقعا على البيان ولم يصدر عن دائرته بل أصدره المجلس الوطني لقيادة الثورة وتوجد نسخة منه في إحدى مجلدات تاريخ الوزارات العراقية (١٩٥٨ - ١٩٦٨م) لعبد الرزاق الحسني".

وفي الآونة الأخيرة تم الكشف عن محرره: طالب حسين شبيب وزير خارجية حكومة الانقلاب، حسب ما ذكره حازم جواد وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية في الحكومة ذاتها، حيث يشير إلى أن شبيب "شارك بجميع القرارات التي اتخذت في دار الاذاعة في الصالحية وكان سريع المبادرة، لكنه ارتكب خطأ واحدا ولم يستمع إلى نصيحتي وظل نادما عليه لسنين طويلة قادمة وهو تحرير البيان رقم ١٣".^(٨٠)

(٨٠) من أوراق حازم جواد، جريدة القدس العربي والدولي في ٢٣ شباط ٢٠٠٦.

إذن... بموجب بيان كهذا، مشؤوم منذ رقمه، تم تحويل "قصر الرحاب" إلى معتقل ذي مركز تحقيق، ويقع هذا القصر بحي المنصور في جانب الكرخ من بغداد، جهته الغربية قبالة شارع الأميرات، وجهته الشرقية يحدها "نهر الخر"، حي "الحارثية" الآن، وربما يتصور القارئ أنه قصر ملكي تعلوه الأبهة ومظاهر الفخامة والرفاهية والبذخ ويشبه قصور الأباطرة والملوك الآخرين في العالم، لكنه بواقع الحال ليس سوى بيت عادي متواضع، لا يختلف عن البيوت البغدادية كثيرا إلا بسعة بنائه وكبر مساحة الأرض المحيطة به، يتكون من طبقتين ومجموع غرفه لا تتجاوز عشر غرف. وحين صار مقرا للتحقيق، كان يشرف على بعض تحقيقاته أعضاء من القيادة القطرية لحزب البعث وبعض قادة الحرس القومي، وكانت هذه التحقيقات تتم فيه بواسطة استخدام جميع طرق التعذيب لانتزاع الاعترافات من المعتقلين بالقوة، وكثيرا ما كانت تنتهي بالموت، وهناك أمثلة كثيرة تثبت الممارسات التي كان يتبعها المحققون ضد معتقلي هذا الـ "قصر"، حيث "النهاية"، خصوصا هذا المثال:

بعد اعتقال السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي الرفيق حسين الرضي "سلام عادل"، حققوا معه دون الحصول منه على معلومة واحدة، فمارسوا بحقه أشنع أساليب العنف والتعذيب والقسوة المفرطة، حدّ أن هشموا عظامه بالمطرقة، وأتخنوا جسمه بالجراح ليرشوا الملح عليها، إمعانا وإيغالا في إيلامه، وسملوا عينيه، في محاولة لإجباره على الاعتراف، حتى فارقت روحه الحياة.

لاحقا... قام الرفيق جمال الحيدري عضو المكتب السياسي، الذي كان مازال طليقا، بإصدار العدد الأول من الجريدة المركزية "طريق الشعب" نهاية حزيران ١٩٦٣م، فكتب افتتاحيتها على شكل بيان جاء فيه "من أجل انقاذ الوطن، من أجل الديمقراطية والأرض والخبز والعمل، من أجل الرخاء والطمأنينة، من أجل الاستقلال والسلام، من أجل حق الشعب الكردي في الحكم الذاتي، من أجل تحقيق أهداف ثورة ١٤ تموز، وإقامة جمهورية ديمقراطية تمثل إرادة الشعب الحرة، ندعوكم جميعا لتشديد النضال، ناضلوا بكل الوسائل والأساليب، نظموا أنفسهم، بادروا إلى العمل، شكلوا لجان

الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الوطن، نظموا بحرارة ويقظة ما يمكن من أشكال المقاومة الجماعية والفردية، من أبسطها إلى أعلاها، رصّوا صفوفكم ساندوا نضال الشعب الكردي. أيها الجنود ورجال الشرطة الشرفاء لأتطلق النار على شعبكم، لا تكونوا آلة تقتيل بيد الجلادين، لا تخضعوا لضغط وأوامر الضباط الفاشست وحرسهم القومي، عرقلوا وأحبطوا خطط المتآمرين، قاوموها، التحقوا بصفوف الشعب المناضل".

لقد ختم هذا البيان بعبارات تمجيد حارة لسلام عادل وقادة الحزب الشيوعي الذين قضا دفاعا عن أفكارهم ومبادئهم، وحين صدر العدد الثاني من "طريق الشعب" كان يحمل تمجيذا للرفيق جمال الحيدري ورفاقه الآخرين بعد موتهم تحت التعذيب الوحشي والبشع والقاسي والعنيف الذي مارسه ضدهم انقلابيو شباط دون أن يفرطوا بأسرار حزبهم. ففي ٧ تموز ١٩٦٣م، تم اعتقاله ومعه رفيقاه عبد الجبار وهبي "أبوسعيد" ومحمد صالح العبلي، في أحد بيوت كمب سارة، إثر اعتراف من هاشم حميد، فعذب الحيدري وقطعت واحدة من يديه وعلّق بيده الأخرى السليمة إلى السقف، فيما "أبوسعيد" قد نشرت إحدى رجليه من تحت ركبته بالمنشار، أما العبلي فمورست معه شتى أساليب التعذيب، ولما أعيتهم الحيلة وعجزوا عن انتزاع اعتراف منه، اقتاده كل من خالد طبرة وسعدون شاکر إلى مكان ناء خارج المعتقل، وحفرا له قبرا أنزلوه فيه وطلبوا منه إما الاعتراف أو الموت، ولما رفض أن يعترف، أطلقوا عليه النار. أي أن هؤلاء الرفاق الثلاثة ماتوا تحت وطأة التعذيب، حيث صمدوا ولم يعترفوا، وأعلن عن اعدامهم في ١٩ تموز ١٩٦٣م، وقد اتبعت طرق شبيهة لـ (إما الاعتراف أو الموت) مع: الضابط مهدي حميد، والمحامي حمزة سلمان الجبوري" عضو اللجنة المركزية للحزب"، وعدنان البراك، وجورج تلو، والياس حنا كوهاري الذي قتل بإدخال قضيب حديد في فمه.

ذكر لي الرفيق هاشم ذنون الأطرقي المعتقل في قصر النهاية : "أنه في ليلة ١٩٦٣/٢/٢٠ تم اعتقاله من قبل الحرس القومي وكان يرأسهم نجاد الصافي ونقلت مساء ٢٤-٢٥/٢٥/١٩٦٣ الى معتقل قصر النهاية مع مجموعة من المعتقلين وانزلوني الى

السرداب أسفل القصر وكان معي الرفيق ابراهيم محمد اسماعيل الحريري والرفيق عدنان حمدي واخرين وبعد عدة أيام نقلوني الى الطابق العلوي للتحقيق معي ثم نقلوني بعدها الى قاعة متوسطة في القصر كان فيها من الموقوفين الشيوعيين (عبدالقادر اسماعيل عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، والدكتور حسين الوردي، وعلي حسين، وزهير الأنصاري وآخرين من الرفاق الموقوفين)، وكان يشرف على التحقيق في معتقل قصر النهاية التابع للحرس القومي كل من مدحت ابراهيم جمعة وحازم جواد، ومحسن الشيخ راضي، والطيار أيوب وهبي وهاشم قدوري، وأحمد أبو الجبن، وصباح المدني، ومنعم قدوس وآخرين من الحرس القومي، وأخبرني -آنذاك- الرفيق ابراهيم الحريري: أن الرفيق سلام عادل سكرتير الحزب الشيوعي كان يرقد الى جانبه حتى يوم ١٩٦٣/٢/٢٤. وكانت علامات الإعياء والإرهاق والإنهاك ظاهرة عليه إثر التعذيب الوحشي القاسي والشديد الذي مورس على جسده.

إنتفاضة ٣ تموز ١٩٦٣

قامت إنتفاضة "٣/ تموز / ١٩٦٣" أو ما أطلق عليها "حركة حسن سريع" أو "حركة معسكر الرشيد"، هذه الإنتفاضة التي نفذها مجموعة من الثائرين الشجعان من جنود وضباط صف ومدنيين بقيادة حسن سريع ورفاقه.

أورد هنا نص التقرير الذي رفعه الرفيق هاشم الألوسي (الذي أستشهد تحت التعذيب في سجن قصر النهاية عام ١٩٦٩ عندما كان عضو منطقة بغداد وأحد الكوادر القيادية المتقدمة في حزب القيادة المركزية) الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حول هذه الحركة، يشرح فيه التفاصيل الكاملة لهذه الحركة تنظيمياً وتنفيذاً، وأسباب قيامها، وفشلها، ومدى إرتباطها بالحزب، لكن رغم الفشل الذي إعتورها إلا أنها حققت نتائج إيجابية خلقت دفعا وزخماً ثورياً، وأعادت الثقة الى نفوس الآلاف، وكانت عاملاً في تمزق الطغمة الحاكمة مما أدى الى سقوطها، أدرج هذا التقرير هنا

لسببين : الأول - ليطلع القارئ على تفاصيل كاملة لهذه الإنتفاضة العظيمة، والتي ربما ذُكر أو كُتب عنها شذرات متفرقة بينتها و صورتها كأنها حركة قام بها أفراد يتمتعون بروح الجرأة والبسالة والشجاعة وأنها مغامرة مندفعة غير مدروسة قام بها ونفذها بضعة جنود وضباط صف من أجل تغيير نظام فاشي قمعي، ولم تأخذ حقها كحركة تم التخطيط والإعداد لها بالشكل الذي يصفه الرفيق هاشم الألوسي بهذا التقرير.

والسبب الثاني - لم يتطرق أحد من الذين كتبوا عنها، أو يذكر، أو يشير، الى أن الرفيق هاشم الألوسي كان أحد أعضاء اللجنة القائدة للحركة وأحد المساهمين والفاعلين الأساسيين فيها، والذي لم تتمكن السلطات الأمنية من إعتقاله آنذاك، وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت الى تصفيته وإنهاء حياته على يد نفس العصابة عندما أعتقل في قصر النهاية عام ١٩٦٩.

نص التقرير الذي رفعه الرفيق هاشم الألوسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حول حركة ٣ تموز ١٩٦٣: (٨١)

نبذة تاريخية

بعد أن صُفِّيت جميع الهيئات القيادية في بغداد، إتجه الكادر الحزبي الى ضمان الصيانة أولاً.... والإتصال بالرفاق الذين نعرفهم لجمعهم وصيانتهم والحفاظ على الصلات معهم، وفي نفس الوقت كانت المحاولات للاتصال بالحزب مستمرة رغم الخطورة الكبيرة في تلك المحاولات نتيجة الكمائن والإشاعات الكبيرة ولا بد أن قسما منكم يتذكر تلك الظروف.

نتيجة المحاولات العديدة إتصلنا بإحدى المنظمات وكنا في أول الأمر نعتقد أنها الحزب، وبعد ذلك إطلعنا بشكل مفصل على تلك المنظمة حيث تبين أنها تكونت من عدة رفاق منهم من هو عضو محلية أو عضو تابعة وحتى خلية ولم يكن هناك عزل بين التنظيمات العسكرية والمدنية ولا تسلسل هيئات أو تحديد مسؤولية فالجميع بالمعركة أشبه بفوضى، كان عملهم الرئيسي حشد الأنصار والمؤيدين والإتصال بالمقطوعين للتحضير للثورة دون التفكير بأن الثورة لا يمكن قيادتها إلا بجهاز قوي تنظيميا، هذا الإندفاع الكبير ونتيجة للمد الثوري الذي تحقق كرد فعل للإرهاب في البداية وللحرب الهستيرية التي شنها البعث على الشعب الكردي والتي كان يذهب ضحيتها الجنود والكادحون، أقول بسبب ذلك إستطاعت هذه الهيئة أن تُكوّن صلات كبيرة على عموم قطاعات بغداد، العمال، الثورة، الكاظمية، الكرخ، وكذلك خارج بغداد، الفرات، في المعسكرات، وكربلاء والكوت وأخيرا في البصرة، حتى إستطاعت أن تقود وتكوّن صلات مع آلاف الثوريين الذين أخذوا يمارسون الضغط على الهيئة

(٨١) د. علي كريم سعيد -البيرية المسلحة - ص.٣٠٩.

القائدة للإستعجال بالثورة بصور شتى ولأسباب أخرى (سوف أناقشها فيما بعد) إنفجرت الإنتفاضة.

أن الذين قادوا الإنتفاضة سياسيا وعملوا بتفاني لحشد قواها أغلبهم شيوعيون في هيئات حزبية قبل مؤامرة شباط، إلا أنهم كانوا جميعا ينتقدون سياسة الحزب السابقة ويحملون الحزب مسؤولية اللبلة، أما قواعد الإنتفاضة وجنودها فأغلبهم شيوعيون أو مؤيدون للحزب، إلا أن هناك نسبة كبيرة من المؤيدين والمشاركين لم تكن لهم علاقة سابقة في الحزب، أما من الناحية الطبقية فأغلبهم كادحون، حيث كان الثقل الرئيسي يعتمد على سكان الصرائف والتي عُقدت فيها أغلب الإجتتماعات وتهيئة أكثر الوسائل.

إرتباط الإنتفاضة بالحزب

لقد حاولنا مرارا عديدة الإستطلاع والإتصال بالحزب، ولو إننا كنا في شك من وجود قيادة له غيرنا، وكنا نراقب البيانات التي كانت تخرج مخطوطة باليد، ونرسل عن طريقها رسائل نطلب الإتصال معهم ولكننا كنا نشترط الإتصال بأحد الرفاق الذين نعرفهم، حيث كنا نعرف بصورة جيدة الرفاق الذين وقعوا في قبضة العدو. ان جميع هذه المحاولات باءت بالفشل إلا أننا كنا نحس أن هناك جهة أخرى تعمل بإسم الشيوعيين ولكننا لا نعرف هويتها، وفي أحد الأيام جاءنا أحد أعضاء الهيئة القيادية ليقول: أنه إتصل بأحد الرفاق وهو إتصل بهيئة قيادية ويضمن أن أحدهم هو الشهيد أبو سعيد، وكُلفت أنا بكتابة رسالة لهم توضح لهم عزمنا على القيام بالإنتفاضة، ونطلب منهم إرسال أحد الرفاق، الذين نعرفه، وكتبت لهم مركزي الحزبي ومكان عملي (الحزبي) السابق ولكنهم لم يحاولوا الإتصال بنا بل كتبوا رسالة يطلبون منا فيها الإلتحاق بالتنظيم والكف عن التنفيذ، ويتعتبرون عملنا خروج عن المباديء ونافي للضبط وهم القيادة الشرعية، رغم أننا لم نقم بعمل سابق يشير الى كوننا نحن المركز،

بل وجود ما يخالف ذلك، حيث وصلتنا رسالة من البصرة بإسم الرفيق فاضل يطلب الإتصال، ولقد أجبنا بأن لم يعد للجنة المركزية وجود، أو على الأقل ليس لنا إتصال، بل نحن رفاق من هيئات متعددة قمنا بتهيئة الوسائل وسوف نقوم بعمل قريب، وهذا يدل على أننا لم نطلق على أنفسنا إسم "لجنة مركزية" أو ما شابه. أن الوضع الذي كان سائدا حيث الكمائن تعمل بصور عديدة وحتى قيل أنهم طبعوا جريدة بإسم الحزب ووزعوها، والظروف الذاتية التي كنا نمر بها والتي سوف أشير إليها، قد منعتنا من الإنتظار والقيام بالتنفيذ، هناك من قال أن قيادة الإنتفاضة معادية للحزب، أو "منشقين"، وتنوي محاكمة بعض الرفاق، أنني أقولها للتأريخ بأن البيانات وحتى تشكيل الحكومة الأولى والذي أذيعت أسمائهم كانت أغلبها من الرفاق المعروفين البارزين، حيث كان الإتفاق قد تم على دعوة اللجنة المركزية في أول لحظة الإنتصار وإستلام الإذاعة، لتستلم زمام الأمور وقيادة الثورة... على أي حال أن الإنتفاضة بكل مافيها هي ملك الحزب وجزء من تأريخ نضاله ومأثرة من مأثره.

أسباب قيام الإنتفاضة

لقد تطرقت سابقا الى سرعة تعبئة وحشد الأنصار كانت عظيمة وتستحق التقدير، حيث عبئ أكثر من ألف مقاتل من أجل الثورة حتى شملت عموم المعسكرات في بغداد، وتعدا ذلك الى الفرات وحتى أن الانضمام الى التنظيم كان بالجملة حتى بلغت في بعض الأحيان خمسون شخصا ولكن لم تكن هناك خطة لتنظيمهم حتى يمكن قيادتهم وزجهم بالمعركة بصورة جيدة وصحيحة ولم يكن هناك تنظيم بالمعنى الصحيح لا على الشكل السابق ولا (على شكل) يتلاءم مع الظروف الجديدة بل أشبه بالفوضى، فالصلات غير منظمة وأخذت طابع السعة، والصيانة غير متوفرة قطعاً... ولم تكن هناك سمات دمج التنظيم العسكري والمدني، وقد حاولت عندما انضمت الى اللجنة القائدة أن أعيد الصلات على أساس تنظيمي، إلا أنني فشلت بسبب الضغط الذي كان يعاني منه أفراد اللجنة من القواعد الداعية الى السرعة وكذلك الغير

مؤمنة بأهمية التنظيم، ولكنني على أي حال إستطعت أن أعزل الى حد ما التنظيم العسكري عن المدني وكذلك التنظيم العسكري الى معسكرات وتكوين قيادات لتلك المعسكرات، رغم أن الصلات القديمة ظلت خطرا يهدد المنظمة باستمرار، وفي الوقت الذي جاءتنا فيه الرسالة التي أشرت إليها (سابقا) جاءنا خبر (مفاده) أن عريفين من العناصر القيادية قد ألقى القبض عليهما، وهما يعرفان أعداداً كثيرة من كل المعسكرات نتيجة للصلات والنشاطات التي أشرت إليها، وإن إعتراف هذين الرفيقين يؤدي الى تصفية هذه القوة الكبيرة دون أي عمل إيجابي وإن إمكانية صمودهم أو احتمال ذلك كانت ضعيفة في تلك الفترة، ولذلك فنحن كنا على طريقين: إما أن تصفى هذه القوى حيث لا يمكن إخفاء هذه الأعداد الكبيرة، وإما القيام بالإنتماضة التي كنا نقدر لها النجاح للأسباب التالية:

١-قواتنا كبيرة وإن حركناها (ستكون) لسحق العدو المعزول.

٢-حتى وإن فشلت، وهذا كان احتمال ضعيف، فإنها طعنة كبيرة لمؤخرة العدو، حيث كنا نعتقد أن الجبهة الرئيسية هي كردستان، وهذا طبعاً خطأ تحليلنا السابق، لأن عملنا من أجل الثورة رئيسي وليس لضرب مؤخرة العدو وان ضرب مؤخرة العدو لا يعني المجازفة بكل القوى، بل يكون على أساس فصائل صغيرة للتخريب أو الضرب.

٣-الإنتماضة سئلهم الجماهير روح البطولة والكفاح وتعيد الى نفوسهم الأمل والثقة لا اليأس والخيبة فيما لو صُفي التنظيم قبل أن نقوم بالإنتماضة.

هذه هي الأسباب التي دفعت الى الإقدام على العمل وربما لا يراها البعض مبررات كافية، ولكن الأجواء التي كانت سائدة آنذاك تختلف تماما، وما توضح من حقائق تبلورت (الآن) كانت غامضة (حينذاك)

الخطة:

قبل التطرق الى الخطة وتفصيلها، لابد من الإشارة الى بعض الأسباب التي فرضت على الحركة إستخدام التحرك الجزئي بدلا من التحرك الشامل واستخدام معسكر الرشيد بدلا من المعسكرات الأخرى، مع العلم بأن الحركة كانت تمتلك قوى في معسكرات أخرى، وخاصة في أبي غريب، أكثر من الرشيد وحتى أن تلك القوات أكثر كفاءة في المعركة من الناحية الفنية، رغم أن زخما جماهيريا وإنعطافا كبيرا قد تولد على الحركة إلا أن هذا الزخم كان يحمل بذور الخوف الذي تولد نتيجة عنف الإرهاب، والأساليب البربرية التي أستخدمت ضد المعارضين إن هذه البذور كانت هي العامل (الرئيسي) في رفض قيادات كتائب هامة من المبادرة ، وكانت تطالب بأن تبادر كتائب أخرى ، أو تشتترط إذاعة بيان من الإذاعة، ولكنهم يرفضون التحرك والسيطرة على الإذاعة، رغم أنهم الوسائل لذلك، مثلا: كانت الحركة تملك عددا من الدبابات في أبو غريب، وعددا من الفنيين من موافق نفس الكتائب تساندها كتيبة ٢٤ المدفعية الخفيفة، واللذان نملك فيهما قوى ساحقة من الفنيين ، ومع ذلك لم نستطع التحرك الشامل.

وقد أختير معسكر الرشيد للأسباب (التالية):

أولا -وجود قائد وحدة جريء مستعد للقيام بالتنفيذ في أي لحظة وهو (حسن سريع).

ثانيا -هذه الوحدات تملك عددا من السلاح والعتاد لا بأس به وقد عزز من قبل الحركة.

ثالثا -وجود عدد كبير من القادة العسكريين والفنيين والطيارين في سجن رقم واحد، وقد بلغ عددهم حوالي ٩٠٠ والذي ثبت أن التقدير حولهم كان خاطئا.

رابعا -وجود مطار الرشيد الذي حسب له حساب في الخطة كقوة ضاربة وكجهاز إشارة للاتصال بالوحدات في اللحظة المناسبة وعند التنفيذ.

الخطة تنقسم الى قسمين: عامة وتشمل تحرك المعسكرات، وأخرى جزئية تشمل تحرك الوحدات في كل معسكر، وعلى نطاق المعسكرات كانت القوى ضعيفة في الوشاش ما عدى دبابتين يقود كل واحدة منهما عريف، وكذلك فوج التدريب، ولذلك حددت للقوى في هذا المعسكر مهمة عرقلة المعسكر عن الحركة. وقد خصص لهم عدد من المدنيين ليدخلوا المعسكر بملابس عسكرية، وبصورة تفصيلية حددت مهمة الدبابتين للتحرك وقطع جسري الجمهورية والأحرار، وحددت مهمة معسكر الرشيد بالسيطرة على بغداد وضرب مراكز الحرس القومي، وحددت مهمة معسكر المحاويل بالمساندة والسيطرة على الفرات حيث كانت به (مدفعية قوس) مدفعية بعيدة المدى.

الخطة الجزئية

في معسكر الرشيد شخصنا ثلاث نقاط مهمة: كتيبة الدبابات، الطيران، سجن رقم واحد. وكنا نملك سرية للحراسة وفيها ١٥٠ بندقية سمينوف وأكثر من ٣٠٠ جندي وقد زودت الوحدة بالعتاد بالإضافة الى العتاد الذي كان (موجودا) هناك، ونتيجة للإحصائية كان أفراد هذه الوحدة جميعهم يعطفون على الحركة، ولذلك فقد إتفقت على تقسيم هذه القوى الى ثلاث وحدات، كل "وحدة" خمسون جنديا يباغتون النقاط الثلاث ويتعاونون مع القوى الموجودة في نفس هذه الوحدات، حيث كان في سرية حراسة السجن، وفي سرية حراسة المطار، قوى أيضا، وهناك قوة أخرى مكونة من ثلاث مدرعات واحدة منها برمائية كُلفت بالتوجه الى مرسلات الحرية للسيطرة عليها وإذاعة البيان من هناك، مع العلم إنه كان هناك مهندس بالإذاعة وبعض الأفراد، هذه هي الحركة الأولى.

أما الحركة الثانية، فهي تحريك كتيبة الدبابات الأولى الى بغداد، وإرسال الطيارين الى المطار للتخليق، حيث كانت طيارات الخفر مجهزة بالعتاد بصورة دورية، بسبب الحرب في كردستان. هذه هي الحركة الثانية مع تسليم القيادة العسكرية الى القادة

الكفوئين في سجن رقم واحد لقيادة المعركة، وتسليم القيادة السياسية الى اللجنة المركزية، التي كان مقررا دعوتها عند نجاح الخطوات الأولى، هذا فيما يخص الحركة وهو الجزء الرئيسي من الخطة.

أما الجزء الثاني فهو الصلات (والذي يسمى في الجيش المخابرة) فقد أعطي لكل قائد وحدة إسم رمزي، ونتيجة للمعلومات التي توفرت لدينا (وجدنا) أن جهاز الإتصال في المطار يمكن تحويله الى جهاز صلة، حيث (يمكن) تحويل موجته حسب موجة إذاعة بغداد، ولذلك كلف كل قائد كتيبة بحمل جهاز راديو ترانزستر كي يستلم التوجيهات الأولى، وإعلان البدء بالحركة.

أما الجزء الثالث من الخطة فقد كتب البيان وإتفق على جملة بيانات أخرى، وأنفق على بعض الأشخاص لقيادة الفرق، وأخيرا أسماء الوزارة، وبصورة مبدئية حافظنا على ذكر أسماء من القوى الوطنية في تلك الفترة لأنها أيضا تعادي الحكم وتسعى لإسقاطه وقد أذيعت هذه البيانات جميعا من الإذاعة في المحكمة، ما عدا بيان الوزارة المقترحة بسبب ذكر بعض الشخصيات الوطنية وغير الشيوعية.

نواقص الخطة:

١-الإعتماد على الشخصيات الموجودة في سجن رقم واحد، بينما أغلبهم كان يعاني من اليأس والخيبة، وهذا ثبت عند المعركة حيث أقسم بعضهم بعد ذلك على أنهم كانوا يستطيعون كسر السجن إلا أنهم لا يعلمون من القائم بالحركة، وهذا العذر مردود حيث أننا حرصنا على إخبارهم قبل فترة بأننا ننوي القيام بالحركة في موعد محدد.

٢-عندما لبس بعض المراتب ملابس الضباط كان يجب تكليفهم بمهمات في غير وحداتهم، لأن معرفة مراتب "بهوية" القائد قبل حمل النجمات كان سببا في إضعاف قيادتهم.

٣- إهمال كتيبة هامة وهي كتيبة الهندسة التي كانت عائقا ومقاوما للحركة حيث إستولى عليها العدو في البداية.

٤- خلو القيادة من عنصر ضابط، ولم نستطع تذليل هذا النقص رغم وجود صلات مع بعض الضباط، ولكنهم رفضوا المهمة.

٥- عدم تدريس الخطة لأعضاء إحتياط يكلفون بمهمة القيادة عند جبن المسؤول أو قتله، كعامل في عدم تبديل الخطة.

٦- (كان) يجب تكليف قادة الوحدات المقاتلة بواجباتهم المحددة في المعركة.

التنفيذ

الحركة الأولى لم تنفذ بصورة صحيحة، حيث ركزت القوى على الباب ولم تنطلق القوى المكلفة بمهمات تتعلق بالحركة الأولى مثلاً؛ كلف أحد مسؤولي الوحدات والذي كان مكلفا بالسيطرة على الإذاعة والمطار بالسيطرة على السجن، وهذا توجه الى هدفه متأخراً، حتى بعد أن كثر إطلاق النار وتحذّر العدو وتحصن، ولذلك لم يستطع السيطرة على السجن وفتحها، وأجبن القائد المكلف بالسيطرة على سرية حراسة السجن حتى أنه لم يتعاون مع الذين جاءوا متأخرين وسيطروا على مقر السرية، ولم ترسل قوى الى كتيبة الدبابات الأولى إلا بعد دخول المعسكر والاستفسار عن ذلك والإلحاح على إرسال قوى إستطلاع لتأخر وصول الكتيبة، ولكن عندما ذهب الشهيد كاظم لم يجد أحداً قد تأخر، ولكنه لم يعمل بجد على تحريكها لعدم وجود الفنيين الكافين، واكتفى بإعتقال قائدها وبضعة ضباط وجلبهم الى القيادة وفي الطريق تصدت لهم كتيبة الهندسة المحصنة وإعتقلتهم.

- تمت السيطرة على مطار الرشيد، ولكن ما الفائدة من ذلك ولم تكن هناك قوة فنية أي طيارين.

- لم تتحرك القطعات الأخرى في باقي المعسكرات لعدم وصول الإشارة إليهم، وعدم تبليغهم بقيام الحركة فعلاً، ولم تتحرك قوانا في معسكر الوشاش للعرقلة، بسبب جنهم أو عدم تبليغهم، حيث لو تعرقلت قوى العدو فترة أطول لكان من الممكن إتمام السيطرة على المعسكر وتحريكه.

- هوجمت الإنتفاضة من قبل كتيبة الدبابات الرابعة المزودة بالذخيرة والمعدة لضرب أي حركة، وكانت المقاومة ضعيفة لعدم السيطرة على المعسكر.

أسباب الفشل

أ- الأسباب التنظيمية:

١- ضعف القيادة العليا: فهي لم تقدر عملاً كبيراً من هذا النوع وهي أيضاً خليط من أعضاء لجنة محلية ولجنة تابعة وحتى أعضاء خلية، ولذلك لم تستطع الصمود أمام ضغط القاعدة.

٢- عدم وجود إرتباط مع قيادة الحزب وهذه بلا شك نقطة هامة، فلو كانت هناك صلة لتوحدت القوى وازدادت ولضمننا قيادة أكثر كفاءة ولتحققت وسائل أكثر فنية.

٣- الروابط التنظيمية: لم تكن هناك حدود تنظيمية بل كانت مجاميع ثورية من شيوعيين وغير شيوعيين ولم تكن هناك صلات موحدة وهي أشبه بالفوضى.

٤- ضعف الضبط الحزبي وهذا أدى الى تكوين صلات متشعبة وخروقات عديدة، وحتى الى تبديل الخطة دون علم اللجنة المسؤولة، وكذلك لم يجر التقيد الصارم بالتوجيهات.

٥- عدم وجود روابط كافية بين المكلفين بإسناد قوات الجيش (من المدنيين) وبين قيادات الوحدات العسكرية، وهذا أدى الى ضعف المعنوية وفقدان الجرأة، نتيجة

التخلف بالتربية العسكرية مما ولد صعوبة كبيرة في زج هذه القوى في المعركة في الوقت اللازم.

ب - الأسباب العسكرية:

١- ضعف قيادة المعسكرات: لم تكن هناك فترة كافية لإختيار قادة للمعسكر يتحلون بالشجاعة والضبط، بل أن هذه القيادات خلقتها طبيعة الصلات والعمل، وهذا أدى الى ضعف هذه القيادات، فمنهم من جبن في المعركة..... وظهر منهم قادة لا يقدرون أهمية الضبط الحزبي ويعملون بهواهم.... وهناك أمثلة عديدة (أخرى) وبالمقابل برز مقاتلون شجعان قادوا (المعركة) ولكن بعد فوات الأوان.

٢- عدم تنفيذ الخطة بالتحرك الأول: حيث ركزت القوى جميعها على الباب وتركت المراكز الإستراتيجية المهمة رغم دراسة الخطة أكثر من مرتين، وتبيان أهمية الباب عندما تكون الحركة في موقع دفاع، أما عند رسم الهجوم فيجب أن تتكرس الجهود لتحريك القطعات، والتي تكمن في الدبابات والطيران ولسد نقص القيادة من السجن، ورغم الإتصال بالشهيد حسن ليلة التنفيذ الساعة العاشرة وتدارس الخطة، لكنه بدّل الخطة وأعطى المهام الرئيسية وهي الدبابات والسجن الى قوى أخرى ثانوية.

٣- الاعتماد على التحرك الجزئي بدل الشامل: فلو استطاعت الحركة تحريك كل قواها لتغيرت النتيجة.

٤- عدم إشراك المدنيين بالإشراف على المعسكرات وعلى نطاق الوحدات، والإكتفاء بإعطائهم مهمات تتعلق بالمخافر ومراكز الحراسة.

٥- ضعف خبرة الجنود القائمين بالحركة الأولى بالمسائل الفنية، إذ لم يستطع بعض الجنود حتى استخدام رشاش ضخم، أو استخدام نوع من الفرمانات.

استنتاجات:

١-المبادرة، لقد أثبتت المعارك أن المبادرة هامة في إضعاف وتشتيت العدو، حيث لا يعرف من أين يأتيه الخطر ولا مقداره، إلا بعد أن يُجَرَّد من الإمكانيات، وحيث يستفاد من لحظة التردد التي تصيب الفرد في اللحظة الأولى، وهو لم يحدد موقفه بعد، وهناك أمثلة عديدة.... إستطاعت فرقة مكونة من بضعة أنفار السيطرة على سرية وكسر المشب، دون أن يحمل أي منهم طلقة واحدة، واستطاع بضعة أنفار من الحرس البعثي السيطرة على معسكر الرشيد ومنعوا الألوف من الجنود بالدخول الى المعسكر (في ٨ شباط...) وأمثلة أخرى يضيق المجال لذكرها.

٢- التحرك الشامل أكثر ضماناً: إن التحرك الجزئي يكون أكثر عرضة لمخاطر عديدة تؤدي الى فشل الحركة الأولى، وفشل الحركة ككل، وربما تلاقي الحركة الجزئية مقاومة في البداية فلا تستطيع إتمام حركتها، أو ربما يجبن أحد القادة المكلفين، أو إن الحركة الأولى قد كشفت للعدو، وهناك احتمالات كثيرة تظهر في المعركة لا يمكن حسابها جميعاً في المقدمة، أما التحرك الشامل فهو يضمن تحرك واسع، وضربة قوية في كل الجهات بحيث يفقد العدو صوابه، وتنتهي تردد بعض القطعات التي تعطف على الحركة، وترفع معنوياتها، ولقد إستفاد انقلابيو شباط من ذلك حيث أصبح تكتيك إنقلاب تموز لا يصلح الآن بعد تطورات الأحداث واكتساب رجال الحكومة الخبرة.

٣-الإذاعة: إن الإذاعة تحوز أهمية قصوى، فهي عامل رسمي هام تشل الأوساط الغير ملتزمة، وربما كسبهم الى المعركة، وهي أيضاً عامل هام في تحقيق التحرك الشامل، ولو كانت الإنتفاضة قد سيطرت على الإذاعة في البداية لضمن تحرك شامل، ولكن النصر محققاً تقريباً، وفي حالة عدم القدرة على ضمانها فإن إسكاتها شيء هام.

٤-الضبط: الضبط في الجهاز الصدامي ضروري جداً وهام، لأن الدقائق في المعركة ذات مفعول كبير، والتنفيذ الدقيق من عوامل النصر الهامة، وليس المقصود بذلك التنفيذ الأعمى.

٥-المدنيين في المعركة: إن المدنيين عنصر هام في المعركة، حيث أن وجودهم يكسر السلبية التي قد تتولد عند الجنود بسبب تربية الجنديّة، وقد سُرح ذلك بأمثلة عديدة.

٦-السلاح: السلاح ضروري في الحركة الأولى وذو أهمية خاصة، ولكنه بعد ذلك يصبح في متناول الثورة، وخاصة إذا حسب لأمر التأكّد من إمكانها بصورة دقيقة، ولكن المهم أيضاً هو خبرة الجهاز الصّدامي والجيش الثائر بالسلاح وأنواعه، وهذا لا يعني المبالغة في ذلك فإن المبادرة والتسلل المحكم يساعد على تحقيق المهمة، ويضعف من كثرة السلاح، وهناك أمثلة: فقد استطاع الشهيد كاظم السيطرة على كتيبة دبابات وإعتقال قادتها وهو لا يملك من السلاح إلا قليله، على أية حال الحساب لأي طارئ شيء مهم.

٧-الشجاعة وضبط النفس: إن أهم ما يجب أن يتحلّى به المهاجم هو الشجاعة والجرأة والإقدام، وعند اختيار العناصر يجب أن يُركز على هذه الناحية، ويجب التأكّد من هذه الصفة بالعمل والتجارب، ومن سيرة تأريخ الرفيق الثائر... وإن ضبط النفس والهدوء يساعدان على تحديد عمل صائب، وعلى التفكير قبل إتخاذ القرار.

٨-ضمان شل قوة العدو وخاصة قوته الضاربة الرئيسية والتي يجب تشخيصها في بداية كل خطة، وإن الدبابات تلعب دوراً حاسماً، وإن قوة العدو تتمركز كما أعتقد في القصر الجمهوري.

٩-الطيران: رغم أنه ليس حاسماً في المعركة، ولكنه ضمانة كبيرة لعرقلة تحرك القطعات الموجودة في كردستان مثلاً أو في الفرات.

١٠-القوى العددية التي يجب أن يضمها الجهاز الصّدامي مهمة، فالأفراد القليلون رغم حملهم السلاح لا يكسب المعركة طابع الشعبية والشمول، حتى وإن كان الجميع غير مسلحين.

النتائج

إن الفشل العسكري الذي كان نتيجة الإنتفاضة، لا يعني إنها فشلت سياسياً، فهي قد حققت نتائج طيبة، حيث أنها حققت دعماً جديداً وزخماً ثورياً، وأعادت الثقة الى نفوس الالاف بعد أن كان اليأس مسيطراً على نفوسهم، وبعد أن فكر المتفائلون بأن الحركة لن تنهض قبل عشر سنوات على الأقل.

وهي بالتالي كانت عاملاً في تمزق العصابة والذي أدى الى سقوطهم فيما بعد، وهي حققت وعياً ثورياً كبيراً في العراق. فلأول مرة ينطلق الكادحون والعمال لبناء دولتهم بأنفسهم، ويحددون بصورة ثورية أن وقتهم قد حان، وهي بالتالي قد لقت الفاشست درساً بأن ليس هناك قوة على الأرض قادرة على تصفية الشيوعيين، طالما هناك عمال وكادحين، وأخيراً كانت فعلاً عملاً لضرب الجيش من الخلف مسانداً الثورة في كردستان". إنتهى البيان.

لقد تم إعدام الجنود الذين كانوا مشاركين فيها، إضافة لإعدام شيوعيين عسكريين لم يشاركوا بها، كانوا معتقلين في معسكر الرشيد قبل الإنتفاضة، تم كل ذلك عبر محاكمات صورية سريعة، فقد تم إعدام حسن سريع مع ٣٠ من رفاقه في ١٩٦٣/٧/١، رمياً بالرصاص. ومن أبرز أسماء المشاركين في حركة الثالث من تموز والذين أعدموا بعد فشل الحركة:

***النائب عريف حسن سريع:** ولد الشهيد في اوائل الاربعينات من عائلة فلاحية في ريف السماوة وتحديدا من (عشيرة حجام) المعروفة بوطنيتها. إنتقلت العائلة الى شثانة (عين تمر) التابعة الى محافظة كربلاء. وفي شثانة ترعرع حسن في بيئة فلاحية وأكمل دراسته الابتدائية، وبسبب من عدم امكانية العائلة من سد نفقات الدراسة اختار الطريق الاسهل وهو العسكرية، فالتحق بمدرسة قطع المعادن في معسكر الرشيد وأصبح ضابط صف برتبة نائب عريف وعين معلما في نفس المدرسة، وسكن في حي الشاكرية الشعبي في الكرخ. كان حسن الموجّه الرئيسي للإنتفاضة والعنصر

الأساسي والمؤثر والفاعل في التحضير والتنفيذ للانتفاضة. فقد هيا مكانا في وحدته ليلة التنفيذ خبا به مجموعة من المنفذين، وقام باعتقال ضابط الخفر، كما قام بكسر مشجب السلاح ووزع السلاح على المجموعة التي تحركت لتنفيذ المهمة بعد أن أطلق إطلاقاً من بندقيته هي الإشارة لبدء الانتفاضة. أما في المحكمة السورية التي أشرنا لها وجوابا على سؤال رئيسها: هل تريد ان تُصبح رئيسا للجمهورية؟

- اجاب حسن سريع: (ما أردت ان أصبح رئيسا للجمهورية او ضابطا كبيرا في الجيش! انما اردت اسقاط حكومتكم...). ثم هتف باسم الحزب والشعب لحظة تنفيذ حكم الإعدام به.

***هاشم الألوسي**: عضو محلية بغداد للحزب الشيوعي العراقي وعضو منطقة بغداد في حزب القيادة المركزية بعد الإنشقاق، وعضو لجنة قيادة إنتفاضة ٣ تموز وأحد القادة الأساسيين والفاعلين فيها، مات تحت التعذيب في قصر النهاية عام ١٩٦٩ وقد أمعنوا في تعذيبه عندما عرفوا أنه من قادة هذه الإنتفاضة.

* **رأس العرفاء كاظم بندر**: من عائلة فلاحية هاجرت عائلته الى بغداد وسكنت خلف السدة الشرقية. تطوع في الجيش وهو في سن مبكرة. كان ضمن المنظمة الحزبية التي لم تكشفها أجهزة السلطة الأمنية، شارك في التحضير للانتفاضة وحمل رتبة ضابط في التنفيذ... أعدم يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ رميا بالرصاص وواجه الموت ببسالة وشجاعة.

* **العريف كاظم فوزي**: من عائلة فلاحية، كان معتقلا في مقر اللواء الخامس عشر مع مجموعة من الجنود، وكان مبلّغا بموعد الانتفاضة. ولدى سماعه الإشارة وهي صوت الاطلاق، بادر، مع رفاقه الى كسر باب المعتقل واخرج من معه من المعتقلين وقادهم الى مشجب السلاح فكسروه ووزعوا السلاح على المنتفضين واحتلوا مقر اللواء كاملا والتحقوا برفاقهم. أعدم يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ رميا بالرصاص ضمن المجموعة الاولى التي أعدمتم.

*. **النائب عريف صباح ايليا:** من سكان مدينة الموصل، جندي متطوع، ساهم في احتلال بعض الوحدات في المعسكر واعتقال بعض قادة إنقلاب ٨ شباط المتواجدين في المعسكر آنذاك. أعدم في ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ رميا بالرصاص.

*. **العريف مهتم مجيد الزهيري:** من ناحية المشرح -العمارة. ومن عائلة حرفية، تطوع في الجيش في اواسط الخمسينات كمهني في القوة الجوية، شارك في التحضير للانتفاضة بشكل فاعل، كما ساهم في احتلال مقر القوة الجوية في المعسكر بانتظار وصول الطيارين -المتوقع حضورهم -بعد تحريرهم من السجن العسكري رقم واحد. استشهد تحت التعذيب في اليوم الاول للانتفاضة في يوم ٣ / ٧ / ١٩٦٣.

*. **العريف كاظم زراك:** من مدينة الحلة كانت مهمته حراسة الباب الشمالي للمعسكر، أعدم رميا بالرصاص في يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣.

*. **العريف جليل خرنوب:** من مدينة الحلة، كانت مهمته مسؤولية الباب الشمالي للمعسكر مع كاظم زراك. أعدم رميا بالرصاص يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣.

*. **موزان عبد السادة:** جندي مطوع، كان عمره ١٦ سنة ويعتبر الأصغر عمرا من بين المساهمين في الانتفاضة. أنهى المدرسة الابتدائية والتحق بمدرسة قطع المعادن في معسكر الرشيد. كان شابا جريئا، وهو من اعتقل وزير الداخلية حازم جواد. وبعد فشل الانتفاضة شخصه حازم جواد. فقد رفعت المحكمة عمره من ١٦ سنة الى ١٨ سنة وأعدم رميا بالرصاص يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣.

*. **عريبي محمد ذهب:** من محافظة ميسان (لواء العمارة سابقا)، من سكنة حي خلف السدة الشرقية في بغداد، كان ضابط صف في الجيش برتبة عريف، فصل من الخدمة في حكم عبد الكريم قاسم لانتمائه للحزب الشيوعي العراقي. كان يشتغل عاملا في أحد المخازن لتدبير معيشة عائلته. كان له دور كبير في التحضير للانتفاضة وتنفيذها، اذ كان أحد رفاق الهيئة الحزبية في باب الشيخ. حمل رتبة ضابط وقاد مجموعة من الجنود وهاجم السجن العسكري رقم واحد لتحرير المعتقلين فيه لكنهم

فشلوا في اقتحامه وكسر أبوابه لإخراج المعتقلين منه. أعدم يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ شنقا حتى الموت وعلقت جثته خلف السدة الشرقية.

* - **علي محمد ذهب**: شقيق عريبي محمد ذهب، من سكنة حي خلف السدة الشرقية -بغداد- وعمل في سلك الشرطة وفصل من الخدمة في زمن عبد الكريم قاسم لانتمائه للحزب الشيوعي العراقي. ومن المساهمين النشيطين في الانتفاضة، وهو ايضا من رفاق نفس الخلية الحزبية المذكورة. أعدم يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ وعلقت جثته خلف السدة الشرقية بالقرب من جثة اخيه عريبي.

* - **حافظ لفته**: ولد في ريف العمارة، من عشائر آل أزيرج المعروفة بطنيتها ونضالها وانتفاضتها ضد الاقطاعيين عام ١٩٥٢. رحلت العائلة الى بغداد وسكنوا حي خلف السدة الشرقية. عمل حافظ خياطا في باب الشيخ قرب السدة نفسها. كان حافظ من النشطين في التحضير للانتفاضة وتنفيذها، اذ كان ضمن التنظيم المدني المرتبط بحركة الإنتفاضة. كان دكانه الصغير مقرا للقاءات والتهيئة والتحضير للإنتفاضة. أعدم حافظ يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ شنقا وعلقت جثته في باب الشيخ - منطقة الخندق - قرب دكانه الصغير لارهاب المواطنين.

* - **محمود الجاجي**: كان صاحب مقهى، ويسكن خلف السدة الشرقية في بغداد، التحق مؤخرا في تنظيم الانتفاضة، أعدم يوم ٣١ / ٧ / ١٩٦٣ شنقا حتى الموت وعلق جثمانه في منطقة سكناه.

* - **النائب ضابط ماجد عبد الله الزهيري**: من مواليد المجر الكبير -العمارة من عائلة حرفية وهو من تنظيمات الانتفاضة في البصرة حيث كانت وحدته العسكرية هناك. استشهد يوم ٢٦ / ٦ / ١٩٦٣ خنقا في حوض ماء كان يستخدم للتعذيب، ولم يعترف على رفاقه.

* - **النائب ضابط أحمد خضر**: من مواليد مدينة اربيل -القلعة، تطوع في الجيش بعد إكماله الدراسة الابتدائية، مهني «إسكافي» في وحدة الكرنيتنة، التحق في

تنظيمات الانتفاضة، تحمل أشنع ألوان التعذيب كي يعترف انه من المنتفضين ومن تنظيمات الحزب الشيوعي، أو الحزب الديمقراطي الكردستاني. أعدم رميا بالرصاص يوم ١١/١١/١٩٦٣ مع عشرة من رفاقه، في ميدان وحدة المخابرة في معسكر الرشيد.

* **النائب عريف طه حسين طه الجبوري:** من مدينة المقدادية، متطوع في الجيش، أعدم رميا بالرصاص في ٢/١٠/١٩٦٣ في ميدان وحدة المخابرة، مع اربعة من رفاقه.

* **النائب عريف عبد الواحد راشد الزهيري:** من مواليد ناحية المشرح-العمارة، من عائلة حرفية. تطوع في الجيش كمهني "براد" في مدرسة الصنائع العسكرية، وبعد تخرجه عين في معسكر التاجي. التحق في الانتفاضة. أعدم رميا بالرصاص في ٢/١٠/١٩٦٣ في ميدان الرماية في وحدة مدرسة المخابرة مع اربعة من رفاقه.

* **الجندي الاوّل فالح محسن:** من مواليد ريف المشرح-العمارة، وحدته في معسكر التاجي، كان أحد أفراد الحراسة ليلة التنفيذ. أعدم رميا بالرصاص مع رفاقه يوم ٢/١٠/١٩٦٣ في ميدان الرماية في وحدة المخابرة ايضا.

* **الجندي المكلف زين الدين سيد أمين:** من مدينة السليمانية. كان عامل بناء، استشهد تحت التعذيب في السجن العسكري رقم واحد، المجموعة الثانية، على يد المجرم علي خليفة حيث قام بضربه على رأسه بشكل متواصل الى أن لقي حتفه، وكتب الطبيب في تقريره بان سبب الموت هو نزيف بالدماغ.

* **النائب عريف صبار:** من مدينة الناصرية، كان يعمل في مقر الكتيبة المدرعة الثالثة في معسكر الرشيد. وقد تم احتلالها في الانتفاضة، أعدم رميا بالرصاص يوم ٣١/٧/١٩٦٣ مع رفاقه في الوجبة الاولى.

* **الجندي الاول نزار حبيب الاعرجي:** من مدينة النجف، من عائلة دينية معروفة تم إعدامه مع رفيقه محمد عليوي خليفه يوم ٢٥/٤/١٩٦٥. فترة الحكم العارفي.

*. **محمد عليوي خليفة:** من مدينة الكوت، يسكن منطقة الخندق / الشيخ عمر. كان عاملاً في شركة أصباغ اهلية، وكان عضواً في المنظمة الحزبية المرتبطة باللجنة القيادية التي كان يقودها محمد حبيب، التي كانت تعد للانتفاضة. أعدم يوم ٢٥/١٩٦٥.

*. **ابراهيم محمد علي:** عامل، من سكان مدينة الموصل، كان رفيقاً في أحد اللجان العمالية في بغداد ومرتباً بتنظيم حركة الإنتفاضة. استشهد تحت التعذيب في مقر الحرس القومي في النادي الأولمبي الذي كان يشرف عليه الملازم الطيار أيوب وهبي.

*. **طالب ناجي ابو الدكة:** جندي متطوع من مدينة النجف، كان من المساهمين في الإنتفاضة مع رفيقه نزار حبيب الاعرجي. أعدم رمياً بالرصاص في ساحة ام الطبول، عام ١٩٦٤.

*. **محمد ابو المراجيح:** جندي متطوع من سكان مدينة النجف، نفذ فيه حكم الاعدام رمياً بالرصاص في ساحة أم الطبول مع رفيقه طالب ناجي عام ١٩٦٤.

*. **سعدون....** عامل كهرباء من بغداد في ليلة الانتفاضة كان في معسكر الرشيد وفي المكان الذي هبأه له الشهيد حسن سريع. حمل رتبة ملازم واقتحم سرية الهندسة لكنه وأثناء الاقتحام أصيب بجروح بالغة في بطنه. وفي الساعات الأولى من بعد فشل الانتفاضة قام عسكريون وأعضاء من الحرس القومي من المتواجدين في المعسكر بتعذيبه وضربه بشدة وبقسوة على جراحه يطلبون منه الاعتراف على رفاقه الثوار، بيد أنه فارق الحياة بين أيديهم ولم يحصلوا منه شيئاً.

وتمت تصفية العديد من الضباط المعتقلين في سجن رقم واحد داخل معسكر الرشيد، ممن لم تكن لهم علاقة بها، حيث يذكر د. علي كريم سعيد في كتابه (البيرية المسلحة - حركة حسن سريع)، عمّا جرى لهؤلاء الضباط وضباط الصف والجنود، ما يأتي: "كان مركز طه الشكرجي في معسكر الرشيد في مقر اللواء ١٩ (لواء عبدالكريم قاسم) مركزاً للتعذيب والقتل، فقد استشهد فيه عدد كبير من الضباط

الأحرار، كالزعيم داود الجنابي، والزعيم الركن حسين الهورماني، والمقدم ابراهيم الموسوي، والعميد عبدالمجيد جليل (مدير الأمن العام) في عهد عبدالكريم قاسم، والعقيد حسين خضر الدوري (عضو محكمة الشعب) والأخير قلعت أذناه بكمامة، انتقاماً منه لتوقيعه قرار الحكم بإعدام ناظم الطبقجلي، ورفعت الحاج سري، كما مات تحت التعذيب في المركز ذاته النقيب عمر فاروق جلال أحد حمايات عبدالكريم قاسم، وتم اعدام (٣٤) ضابطاً من نفس المعسكر، اقتيدوا إلى منطقة في أطراف أبو غريب، رميا بالرصاص ودفنوا هناك، وكان من بينهم المقدم فاضل البياتي، والرئيس الطيار منعم حسن، والرئيس الأول جلال أحمد فهمي، والنقيب عباس الدجيلي، والرئيس هشام اسماعيل صفوت، والنقيب حسون الزهيري، ومن المدنيين قتل ابراهيم الحكاك عضو قيادة منطقة الفرات الأوسط، ولطيف الحاج أخ عزيز الحاج، وصاحب ميرزا، وصبيح سباهي، وآخرون، وكان النادي الأولمبي وهو معتقل ومركز للتحقيق تحت سيطرة الحرس القومي، حيث كان يقوم أفراد منه بممارسة التحقيق والتعذيب، كان أبرزهم وحشية ودموية ضابط طيار يدعى الملازم أيوب وهبي، قام بسحب أقسام رشاشته من دون تردد وقتلهم جميعاً بدم بارد، بعد أن عرف أسماء الضباط، وهم الرائد حافظ علوان أحد مرافقي عبدالكريم قاسم، والملازم الطيار طارق محمد صالح ابن اخت عبدالكريم قاسم، والملازم نوري ناصر أحد مرافقي عبدالكريم قاسم، والملازم الطيار كريم صفر، والرئيس غازي شاکر الجبوري، ولم يفلت منهم غير حافظ علوان، وغازي الجبوري الذي اكتشف سائق سيارة الاسعاف التي نقلته أنه لم يزل على قيد الحياة". (٨٢)

لقد (كان النادي الأولمبي وهو معتقل ومركز للتحقيق تحت سيطرة الحرس القومي، حيث كان يقوم أفراد منه بممارسة التحقيق والتعذيب، كان أبرزهم وحشية ودموية ضابط طيار يدعى الملازم أيوب وهبي) مع أنه آنذاك أحد أعضاء هيئة التحقيق في قصر النهاية! أي أن تعطشه للدم والقتل دفعه لئلا يكتفي بهذا المعتقل الرهيب، وأن

(٨٢) العراق - البيرية العسكرية - د. علي كريم سعيد - ص ٦٢.

يمارس هذا التعطش في معتقلات أخرى، يتنقل بينها ليشبع غريزته ورغبته في التمتع برؤية أشلاء ضحاياه! وليس ذلك بغريب عليه، وعلى أمثاله، إذ أن انقلابي شباط، عموما، لم يوفروا أية وسيلة تخدم نهجهم الفاشي في قتل الشيوعيين. ففي الأيام الأولى لانقلابهم أعادوا نشر فتوى آية الله السيد "عبد المحسن الحكيم"، المرجع الديني الاسلامي الشيعي، التي كانت قد صدرت بتاريخ ١٥/٢/١٩٥٩م، في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، والتي أجملت إدانته للحزب الشيوعي العراقي بينما كان نظيره الأسبق "السيد أبو الحسن الموسوي"، حين طُلبت منه الإدانة، قد رفض إدانة هذا الحزب عامي ١٩٤٧ - ١٩٤٨م مؤكداً أنه حزب وطني.

فتوى السيد عبد المحسن الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

"لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد، أعانكم الله وجميع المسلمين عن ذلك وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٧ شعبان ١٣٧٩هـ المصادف ١٥ شباط ١٩٥٩م (٨٣)

"الشيوعيون مرتدون وحكم المرتد هو القتل، وإن تاب الشيوعيون نوعان الأول من آمن بها وحمد بها ولا يرجع عنها، فحكمه كما جاء أعلاه والنوع الثاني من اعتبرها تقديمية ومعاونة المحتاجين، وهؤلاء يحتجزون ويفهمون ويعلمون الصح من الخطأ. فإن تابوا يطلق سراحهم وإن أصروا عليه فحكمهم كما جاء أعلاه". (٨٤)

كذلك يذكر السيد علي المؤمن في كتابه (سنوات الجمر) عن فتوى السيد عبد المحسن الحكيم وموقف القوى الإسلامية من الشيوعيين ومن عبد الكريم قاسم في تلك الفترة ويقول: في شباط / فبراير ١٩٦٠ أفتى السيد الحكيم: " لا يجوز الإنتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد - أو ترويج للكفر والإلحاد - أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك وزادكم إيماناً وتسليماً". "بينما أيد غالبية المراجع الشيعية الأخرى هذه الفتوى، إمتنع السيد حسين الحمادي عن تأييدها".

ويذكر أيضاً أن " الحزب الإسلامي الذي تأسس في ٢ شباط / فبراير ١٩٦٠، كان الدكتور نعمان السامرائي رئيساً له معتبراً السيد الحكيم راعياً له أصدر بياناً في ٥ تموز / أيار

(٨٣) دراسة للسيد محمد باقر الحسيني، بعنوان: علاقة المرجعية الدينية بثورة تموز -القسم الثاني -

بتأريخ ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٧.

(٨٤) المصدر السابق.

١٩٦٠ شجب فيه ممارسات الحزب الشيوعي، كما قدم عريضة إلى قاسم إنتقد فيها حكومته لإغفالها تعاليم الدين الحنيف، ولتبنيتها التعاليم الشيوعية الإلحادية".^(٨٥)

هكذا قام الانقلابيون بإعادة نشر هذه الفتوى، لترويجها، رغم صدور فتاوى مشابهة، كالتى للمفتي نجم الدين الواعظ والشيخ قاسم القيسي، لم يعيروا الاهتمام بها ولا أثاروا الانتباه لها. ذلك لأنهم اعتبروا فتوى "الحكيم" شأنًا هامًا وعاملاً مؤثراً، فاستغلوها، مسخّريها غطاءً شرعياً، لارتكاب أبشع المجازر ضد مناوئهم تحت ذريعة "الانتماء للحزب الشيوعي كفر وإلحاد". وقد رافق إعادتهم النشر للفتوى هذه، التى قتلوا بها آلاف البشر، إصدارهم "البيان رقم ١٣"، المشؤوم، الذى دعا العراقيين إلى قتل الشيوعيين وإبادتهم.

(٨٥) سنوات الجمر - مسيرة الحركة الإسلامية ١٩٥٧-١٩٨٦ - علي المؤمن مركز دراسات الشرق العربي - ص، ٦٦.

بسم الله الرحمن الرحيم
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين
يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم
الى صراط مستقيم ٥
قرآن كريم

الأضواء الإسلامية
بمحنة دينية شرف عليا بحجة توجيبية من العلماء
صاحب الامتياز كاظم الحلبي

العددان : الثامن والتاسم	ذى القعدة ١٣٨٣	الزجف الاشرف
السنة : الرابعة	١٩٦٤/٥/١ م	الجمهورية العراقية

بسم الله الرحمن الرحيم

سماعة الودام الحكيم يطالب المسؤولين بتطبيق احكام الاسلام

في يوم الخميس المصادف ١٥/ ١١/ ١٣٨٣ الموافق ١٩/ ٣/ ١٩٦٤. زار الفريق
طاهر يحيى رئيس الوزراء مع كل من وزير الصحة ، ووزير العمل والشؤون الاجتماعية ،
ووزير الاصلاح الزراعي ، ووزير الصناعة ، ووزير المواعلات ، ووزير الاسكان ،
وغريم سماحة الامام الحكيم في داره في الكوفة ، وبعد ان جلسوا قال لهم
الامام الحكيم :

١ - لقد سبق منا ان قلنا لبعض الحاكمين الذين انتقم الله منهم : ان الشعب
العراقي شعب مسلم متدين لا يرضى بغير الاسلام شريعة ، وانظاما ، وكل تشريع يخالف
الاسلام لا يمثل رأي الامة ، ويوجب نفورها ، وابتعادها عن الحكومة فاللزام على
الحكومة - وهي تريد على ما يبدو من بعض تصرفاتها ان تحقق الاستقرار ، والهدوء ،
وملاحظة عقيدة الامة في سن الانظمة .

يذكر السيد محسن الحكيم في مقابلته لرئيس الوزراء طاهر يحيى: "لقد سبق منا أن
قلنا لبعض الحاكمين الذين انتقم الله منهم" -يعني عبد الكريم قاسم- وكأني به
ينعت مجازر انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م وقتل عبد الكريم قاسم ب "الانتقام الإلهي"
بسبب "تشريعاته المخالفة للإسلام" كتشريع قانوني الاصلاح الزراعي والاحوال
الشخصية وقانون رقم ٨٠. وفي رسالته الى شاه إيران "يفتخر بالدعاء إلى الله تعالى

بطلب التّوفيق والتأييد للذّات الامبراطورية المباركة في تقوية الدّين الإسلاميّ ونشر مذهب التّشيع الحقّ في ظلّ عنايات وليّ العصر."

كان الامريكان وشاه ايران محمد رضا بهلوي يناصران العداء للنظام الجمهوري الفتى الذي تأسس بعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨م، وكانا يتآمران عليه ويعملان من أجل اسقاطه، فقد قام الشاه بدعم عملية انتقال المرجعية الشيعية من قم الى النجف وذلك بنقلها الى السيد محسن الحكيم الطباطبائي مستغلا وفاة المرجع الاعلى للطائفة الشيعية في قم السيد حسين البروجردى الطباطبائي كخطوة يتمكن من خلالها دفع الحكيم في مجابهة ومحاربة عبدالكريم قاسم واضعافه والعمل على ازاحته - وكانت المواقف المناهضة التي مارسها السيد الحكيم ضد التشريعات القانونية الهامة التي قام بها عبدالكريم قاسم ومباركته انقلاب شباط خير دليل على ذلك - ومن ناحية أخرى يبعد الشاه عنه خطر المرجعية في قم ويلجم رجال الدين المعارضين له في ايران ويحد من نشاطهم.

أعيد في أدناه ما كتبه ووثقه الحوزوي السيد ميثاق العسر حول هذا الموضوع على موقعه بالفيسبوك: <https://www.facebook.com/jamkirann>

#برقية الشاه الإيراني الحاسمة!!

#الوثيقة أدناه نصّ البرقية التي بعثها الشاه الإيراني محمد رضا بهلوي إلى المرحوم السيد محسن الحكيم، في يوم وفاة المرجع الأعلى للطائفة الشيعية المرحوم السيد حسين البروجردى، وقد كانت هذه البرقية هي العامل الحاسم في نقل المرجعية العليا من قم إلى النجف، وتثبيتها للمرحوم محسن الحكيم، #وأكرر مفردة تثبيت لكي أقول: لا شك في أنّ المرحوم محسن الحكيم كان فقيهاً معروفاً وله نتاج واضح وجلي، وكان مرجعاً له مقبولية حوزوية وجماهيرية في بعض المناطق، ولكن لولا هذه البرقية والاعتراف من قبل الامبراطورية الشاهنشاهية الشيعية به لما صار مرجعاً أعلى للطائفة، ولذهبت المرجعية العليا إلى من تعترف هذه الامبراطورية به، ومن هنا

سببت هذه البرقية وإجابة الحكيم لها نظرة سلبية جداً عن المرحوم الحكيم في وسط حوزة قم آنذاك؛ باعتبار إنها تعرف نوايا الشاه ومراميه الخبيثة كما كشفنا عن ذلك موثقاً في مقالات سابقة.

وكيف ما كان فقد جاء في هذه البرقية التي تُنشر لأول مرة من صحيفة اطلاعات في عددها الصادر في تاريخ: "٢٩ مارس ١٩٦١م" ما يلي :

«سماحة حجة الإسلام آية الله السيد محسن الطباطبائي الحكيم دامت بركاته، النجف: لقد ألمنا كثيراً خبر رحيل سماحة آية الله العظمى الحاج السيد حسين الطباطبائي البروجردي، وبهذه المناسبة نعزي معاليكم والحوزة، ونسأل القادر تعالى أن يقوي شوكة الإسلام وعظمته المتزايدة، الشاه» .

إجابة المرحوم الحكيم على برقية الشاه الحاسمة!

بعد أن أبرق الشاه الإيراني محمد رضا البهلوي تعزية برحيل المرجع الأعلى إلى المرحوم محسن الحكيم، وقد كان هذا الأمر بمثابة اعتراف الامبراطورية الشيعية الشاهنشاهية بكونه المرجع الأعلى المعترف به رسمياً بعد البروجردي، أجاب المرحوم محسن الحكيم عن هذه البرقية بعد سبعة أيام من ذلك، وإليك النص المترجم لهذا الجواب الذي يُنشر لأول مرة من هذه الصحيفة وبشكل واضح مقروء:

#المقام الرفيع لحضرة الشاهنشاه المعظم طهران: لقد كانت برقية الذات الملكية بالمصيبة التي فُجع بها العالم الإسلامي برحيل آية الله البروجردي باعثة على اطمئنان مواطنينا، كما كان اهتمامكم وعنايتكم الملكية بسماحته في أيام مرضه باعثاً لشكرنا وشكر عموم المجتمع الحوزوي أيضاً، وإن مساعي الشاهنشاه المعظم في تقدير المقام الشامخ لعلماء الدين يوجب فخر المجتمع، والذي يفخر بالدعاء إلى الله تعالى بطلب التوفيق والتأييد للذات الامبراطورية المباركة في تقوية الدين الإسلامي ونشر مذهب التشيع الحق في ظلّ عنايات وليّ العصر "عجل الله تعالى فرجه وجعل أرواحنا فداه". محسن الطباطبائي الحكيم».

اطلاعات پنجشنبه بیستم شوال المکرم ۱۳۸۰ - ششم آوریل ۱۹۶۱

پاسخ آیت الله حکیم بحضور شاهنشاه

همانطور که خوانندگان گرامی استحضار دارند شاهنشاه پس از آگاهی از مصیبت فقدان پیشوای بزرگ شیعیان تلگرام تسلیتی به نجف اشرف بحضرت آیت الله سید محسن طباطبائی حکیم ارسال فرمودند که متن آن قبلاً انتشار یافت . پاسخ حضرت آیت الله حکیم بحضور شاهنشاه باین شرح است :

حضور اعلیحضرت همایون شاهنشاه معظم تهران

تلگراف تسلیت ذات ملوکانه در مصیبت وارده بعالم اسلام درگذشت آیت الله بروجردی قدس سره موجب تسلیت خاطر گردید اهتمام و توجهات ملوکانه در ایام کسالت آن مرحوم موجب تشکر اینجانب وعموم جامعه روحانیت بوده علاقمندی شاهنشاه معظم در تجلیل مقام شامخ روحانیت موجب افتخار جامعه که افتخارا از حضرت الوهیت موفقیّت و تأییدات ذات مبارک همایونی در تقویت دین مقدس اسلام و نشر مذهب حقه تشیع در توجهات ولی عصر عجل الله تعالی فرجه و جعل ارواحنا فداه از درگاه خداوند متعال مسئلت میدارم .

محسن الطباطبائی حکیم

تذمّر المرحوم الخميني من نقل المرجعيّة!!

بعد أن حسم الشّاه محمد رضا البهلوي أمر المرجعيّة العليا وصرّح علناً باعترافه بمرجعيّة المرحوم محسن الحكيم؛ حيث أبرق تعزية رحيل البروجردي إلى الأخير ممّا يعني الاعتراف بخلافته رسمياً وإغلاق باب النقاش والجدل حول هذا الموضوع فقد تولّدت إثر ذلك ردود أفعال سلبية جدّاً تجاه المرحوم الحكيم في حوزة قم؛ إذ فهم ذلك على أنّه تنسيق وتعاون بين المبرق والمبرق له، كما وثّقنا ذلك في منشورات سابقة، وتحدّث عنه كلّ من كتب عن تلك المرحلة بوضوح.

وكيف ما كان وبعد هذه الحادثة بعام تقريباً، أي في الثّاني عشر من آيار "۱۹۶۲م" خطب المرحوم الخميني من على منبر المسجد الأعظم في مدينة قم الإيرانيّة على

جمع من طلاب الحوزة العلميّة آنذاك، وكان حديثه يدور حول المآسي التي تعرّضت لها حوزة قم بعد رحيل البروجردى وانتقال المرجعيّة المدبّر بليل من قبل الشّاه محمد رضا البهلوي إلى النّجف، وأفاد في شرحه لهذا المخطّط القديم على حوزة قم قائلاً :

#وسأوضح لكم أنّ هذا الأمر ليس وليد الأشهر الأخيرة، وإنّما هو ممتد الجذور يعود إلى سنوات طويلة خلت، إن لم نقل: إنه يعود إلى نيّف وأربعين سنة مضت، فهو في الأقلّ يعود إلى عشرين سنة خلت؛ حيث كانوا يخططون لتدمير قم؛ ففي حياة المرحوم السيد البروجردى كانت خططهم أيضاً القضاء عليه وعلى قم، فهم يرون أنّ قم تضرّ بمصالحهم؛ فقم معقل الحقّ، وجنود إبليس يرون أنّ جنود الحقّ يقفون حائلاً دون تحقيق مآربهم، ففي حياته - يعني البروجردى - وصفوه بتعابير لا أتمكن من ذكرها من على هذا المنبر حالياً، فالخطة موجودة منذ ذلك الوقت، والأجانب كانوا يخططون للقضاء على قم؛ كي نفعل ما يحلو لنا دون أن يواجهنا أحد، أو يتكلم، أو ينسب بنت شفة، أو يجادل أو يعترض.

#وإذا سلّمنا بأنّ خطتهم - والكلام لازال للمرحوم الخميني - تعود إلى نيّف وأربعين سنة خلت، فسنفهم طبيعة مساعيهم، غاية ما في الأمر أنّهم كانوا يرون القيام بأيّ عمل في حياة السيد البروجردى سيفسد الأمور، لذا بادروا فور انتقاله إلى جوار رحمة ربّه إلى تدمير هذا المركز الديني بذريعة إجلالهم لمركز ديني آخر وهو النجف الاشرف، لا لأنّهم كانوا يكتّون حبّاً لذلك المركز، فهم لا يكونون أدنى إحساس بالحب لأيّ مركز من المراكز الدينية، لم يكن الأمر حبّاً بالنجف، وإنّما بغضاً لقم؛ فقم مزعجة لهم، وهي قريبة منهم تدرك المفاصد سريعاً، وتفتضح فيها أعمالهم بسرعة أيضاً، كانوا يبغضون قم، إلّا أنّهم لم يتمكنوا من التصريح بالقول: لا لقم، وإنّما كانوا يقولون: نعم للنجف، نعم لمشهد، لم يكن في قم ما يلفت الإنتباه [ويشير بذلك إلى كلمة الشّاه المعروفة: "لا أرى في قم شخصاً بمستوى المرجعيّة"]، إلّا أنّهم بعد ذلك أدركوا أنّ ثمة أشياء كثيرة تلفت النظر في قم، بل تفقأ العين، وتلجم الفمّ وتصلُّ الأسماع.... أدركوا

أنّ قم ليست كما توهموا، فوضعوا منذ ذلك الوقت خطة لتدمير العلماء، ثم تدمير الإسلام، ثمّ تحقيق مصالح الكيان الصهيوني وعملائه». [صحيفة الإمام: ج١، ص٢٠٨].

آنذاك... نحن ثلثة من الشباب المتحمس المتلهف لاستيعاب المعرفة، المندفع المستعد للتضحية، وتقديم النفس، أو مجموعة تتنافس على القراءة، تنشط وتبأري بالعمل الحزبي، تكونت من: صباح حسين "صاروخ"، عبد جاسم الساعدي، جمعة اللامي، خضير عباس اللامي، حسين عيال، وكان يعمل معنا ضمن التنظيم كل من: مؤيد الطباطبائي، مؤيد الخطيب، جبار جلاب، ملا ريحان، منصور يعقوب، ورفيقنا جاسم محمد القريشي (الربيعي) مسؤول خلية الوجوه الكبيرة والشاعر الشعبي الذي عمل في جريدة "اتحاد الشعب" فترة الستينيات، وقد تم اعتقاله وإيداعه في سجن نقرة السلطان برفقة شمران الياسري، وكنا جميعنا نعمل ضمن محلية منطقة "صرائم العاصمة"، التي كانت أجهزة الأمن تلاقي صعوبة بالغة في الوصول إلى نهاياتها البعيدة أو قد لا تدركها أحيانا، قبل قيام الزعيم عبد الكريم قاسم ببناء مدينة جديدة لسكان أحيائها الفقيرة سميت بـ"الثورة"، وكان لي رفاق كثر من هذه المدينة، عملنا سوية لسنوات، كوننا ذوي مشتركات نضالية، فتقاسمنا ذكريات فذة، بحلوها ومرها، سأتناولها هنا لأصور حالات عنف مورست ضدهم، حيث معاناتهم من الاعتقال والظلم والتعسف والتشريد، وغيرها، لا لجرم اقترفوه، أبدا، بل كل ذنبهم أنهم حملوا آراء تخالف "الأخر"، المستبد برأيه، سواء كان حاكما أم حزبا أم أمثالهما.

*صباح حسين (صباح صاروخ): لم تزل صورته شاخصة أمامي لما كنا طلابا في المتوسطة النظامية، وعندما كانت تحل علينا حصّة "العلوم" حيث يطلب منه الاستاذ ماجد عبد اللطيف أن يقف قبالة السبورة ليشرح أحد المواضيع، بعدما اكتشف ألمعيته، فينهض متحدثا عن "النظرية النسبية" لـ"ألبرت أنشتين"، أو عن الصواريخ ومخترعها الأول الألماني "فارنر فون براون"، ولولعه الواسع بها صنع صاروخا لا يزيد ارتفاعه عن ٨٠ سم، وضع في نهايته السفلى غرفة الاحتراق، واستخدم عجيبة

الكليسيرين كوقود، وأوصلها بصاعق كهربائي، وعند إجراء تجربته، خلف السدة الشرقية، إرتفع الصاروخ في الجو أمتارا ثم انفجر، رافقت انفجاره تلك اللحظة حادثة إحراق محطة وقود "الكيلاني"، في ٣١ تموز ١٩٥٨م، وهي قريبة من ساحة الطيران، فتجمع الناس حولنا محاولين الامساك به مرددين "هذا الخائن كضيانه"، أي "ألقينا القبض عليه"، وقامت الشرطة التي حضرت المكان على الفور باقتياده إلى مركز شرطة السعدون، وبعد إيصال الخبر إلى جهات عليا في الحكومة، تم إطلاق سراحه، وإثر ذلك أمر بإحضاره لمكتب الحاكم العسكري العام "أحمد صالح العبدى" طالبا منه جلب معلومات كاملة عن الموضوع، فأعد المخططات المتعلقة بالصاروخ هذا، وبعدما قابل "العبدى" عارضا إياها عليه، بعثه للقسم المختص في وزارة الدفاع، ثم كرمه بمنحه خمسة دنانير، وعرض عليه الالتحاق بالجيش ضمن وحدة مختصة كنائب ضابط، فقبل بالعرض، لرغبته في تحقيق اهتمامه بهذا الشأن من ناحية أولى ولتحسين أوضاعه المعيشية السيئة من ناحية أخرى، لكن لم يُتح أمامه المجال لتحقيق حلمه في تطوير صاروخه، فكانت خيبة أمل له، طويت معها صفحة الحلم الذي كان يراوده. وعلى أثرها لقب ب "صباح صاروخ".

***جمعة اللامي:** كان نائب ضابط في الجيش عند الستينيات، وحكم عليه بالسجن لانتمائه للحزب الشيوعي متنقلا بين سجنى نقرة السلطان والحلة خلالها، وقد هاجر مكرها مغتربا عن وطنه الذي يعشقه، منتصف السبعينيات، حيث الإمارات، ومنها انتقل إلى سوريا فقبرص، ثم عاد إليها، مستقرا، ليعمل محررا في صحيفتها "الخليج" و "الاتحاد"، معا، ومازال مقيما فيها، حتى الآن، يعاني من مرض الفشل الكلوي، الذي لم يمنعه عن الكتابة، وهي اليوم عطاؤه الأول، فظل قاصا وروائيا مميذا.

*** عبد جاسم الساعدي:** مكافح تم اعتقاله معي "شباط ١٩٦٣م" في معسكر الرشيد، لأنه كان مناضلا شيوعيا منذ مطلع شبابه، ثم عاملا نقابيا جريئا، نشط في الدفاع عن

حقوق الطبقة العاملة التي ينتمي لها، خصوصا عند إضراب عمال الزيوت الشهير عام ١٩٦٨م، حيث كان قائدا بارزا له دليل أنه اعتقل خلاله إثر مجابهة ما بين "الأمنيين" والمضربين، الذين قتل أحدهم وجرح بعضهم بعد تطويقهم في المعمل، فنال الكثير من التعذيب، ولاحقا سيكمل دراسته الجامعية بنيله شهادة الدكتوراه في الأدب العربي من مصر، فيترك العراق أواخر السبعينيات مهاجرا إلى الجزائر والمغرب ليدرس في جامعاتهما، ثم إلى بريطانيا ليستقر فيها ناشطا ضمن المعارضة العراقية ضد حكم صدام حسين حتى سقوطه، في ٩ نيسان ٢٠٠٣م، ليعود إلى بلده مؤسسا لـ "جمعية الثقافة للجميع" وأستاذا تدريسيا في الجامعة المستنصرية، له مؤلفات عديدة في الأدب والسياسة.

***خضير عباس اللامي**: أحد اعضاء "الشلة" بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، أصبح عام ١٩٥٩م سجيننا سياسيا بحكم لثلاث سنوات، بسبب تهمة مذبحة، في سجن الاصلاحية لصغرنه، حيث أطلق سراحه بعد سنة ونصف، ليحكم ثانية بسنتين من المجلس العرفي العسكري عام ١٩٦٢، ويرحل إلى سجن العمارة المركزي، وعقب انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م رحل إلى سجن نقرة السلطان، ولاحقا صار مترجما بارزا، ترجم عن اللغة الانكليزية الكثير من عيون الأدب العالمي، وهو الآن يعيش في السويد.

٣-حكم الأخوين عارف

خفت حدة العنف بعد إسقاط حكم البعثيين في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣م، وإزاحتهم عن السلطة، لكن دائرته لم تتوقف، فقد استمرت الأجهزة الأمنية القمعية بالتجاوز على الحقوق الانسانية للمواطنين، إذ أن المعتقلين لم يطلق سراحهم، ولم يبرحوا سجونهم، وأساليب التحقيق من تعذيب وضرب وإهانات استمرت. كذلك لم يقتصر العنف على السلطات الحاكمة، بل سبق أن انتقل إلى الأحزاب المعارضة، على اختلاف انتماءاتها، فانعدمت الحياة الديمقراطية داخلها، وأمسى الصراع بينها يأخذ نهجا عنيفا ثأريا في حل الخلافات الفكرية، دون اللجوء إلى لغة الحوار والتفاهم، ولم تعقد المؤتمرات لانتخاب القيادات بدعوى سرية العمل، وجرى إقصاء قيادات من مراكزها بطريقة انقلابية، وهذا ما حصل مع حزب البعث في منتصف الستينيات عندما أزيحت مجموعة من أعضاء قيادته القطرية، بعدما قام صدام حسين وقياديون آخرون معه بحركة اقصائية لهذه المجموعة استخدمت فيها قوة السلاح. ثمة أيضا بقاء قيادة الحزب الشيوعي على رأسه لفترات امتدت عقودا، غابت عنها أية ممارسة ديمقراطية، وهنالك أمثلة عديدة لفردية هذه القيادة في اتخاذ القرار، نيابة عن حزبها كله، خصوصا هذه الأمثلة: عندما حاول ستار خضير أن يثير النقاش حول قرار تقسيم فلسطين، أيام حرب حزيران ١٩٦٧م، خلال اجتماعات اللجنة المركزية، قمعه رئيس الاجتماع زكي خيري، وهدد بالانسحاب معتبرا أن أي نقد لقرار التقسيم "إهانة للأمية"، وحمد عامر عبدالله بقرار فردي منه أجهزة الدعاية والطباعة الحزبية لعدة شهور وجاء ذلك بعد أن أخذت تقارير سياسية تثقيفية اسبوعية وشهرية داخلية تغطي الأحوال السياسية المحلية والعربية والعالمية من خلال رصد الإذاعات والصحافة وكانت توزع على الكوادر الحزبية، أخذت هذه التقارير منحى تبرز فيه روح نقدية للسياسات السوفيتية وتوجهاتها وخاصة فيما يخص أطروحة التطور اللارأسمالي من تغطية الأخبار بشكل متقصد مما أدى إلى شكوى من الجهات الأممية السوفيتية من وجود توجهات معادية للأممية حسب تعبيرهم - كما نقله عامر عبد

الله في حينه لتبرير قرار وقف تلك التقارير - فجرت عملية تجميد أجهزة الدعاية لإعادة غربلتها. وللتاريخ كان آرا خاجادور متعاطفا في تلك الفترة مع هذا النشاط والفعاليات، وكان علاقته قوية مع الشهيد خالد أحمد زكي ويستعين به في كتابة بعض تقاريره التي يرفعها إلى قيادة الحزب قائلا له "إن قلمك قوي" كما نقل ذلك الشهيد خالد نسا إلى أحد رفاقه. وكان يتشكى من التوجهات التصفوية والسياسات المروجة للانصهار في الاتحاد الاشتراكي قائلا له يبدو أن لا مكان مستقبلي لي في الحزب الذي تحول إلى "حزب دال نقطة" تهكما على سيادة استعمال لقب دكتور قبل الأسم لكثير من القيادات في ذلك الوقت. ومن الطرائف التي تخص الرفيق آرا خاجادور ما حدث في الاجتماع الموسع لل ٢٥ قيادي وكادر في عام ١٩٦٥ تصديا لخط آب. فقد هاجم أحد المشتركين آرا خاجادور على علاقاته الجانبية بمعارضى خط آب بقوة، فقام آرا وقال: "أذا استمر الرفيق يغمج فإنني سأغمج في الكلام" أي سأفصح ما هو مستور من سلوكه.

وقام بهاء الدين نوري بسلسلة من الخطط التنظيمية التي كانت تعني حل اللجان التي "تزعج" القادة، وتجميد أخرى وفرض لجان من أعلى حيثما ارتأت القيادة ذلك، وكان الهدف تصفية ساحة الحزب من المعارضين "المشاكسين" قبل عقد أي مؤتمر حزبي، ورفضت اللجنة المركزية إدخال عدد من الكوادر المتقدمة من غير أعضائها في قوام اللجنة التحضيرية للمؤتمر^(٨٦)

كما برز ذلك واضحا وعلنيا عبر الأساليب التي اتبعت إثر عملية الانشقاق، في أيلول ١٩٦٧م، حيث حصلت أعمال مدهامة ومحاولات اختطاف مارسها الطرفان، أي: (ل.م) - (ق.م)، ولم يدركا خطورة انكشافهما جرّاءها أمام الأجهزة الأمنية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن القيادة المركزية قد مارست عملا مرفوضا عندما مارست هذا الأسلوب الفظ مع رفاق لهم لا يليق بالروح الرفاقية التي تعلموها ونشئوا عليها وإن اختلفوا معهم فكريا.

(٨٦) عزيز الحاج -حدث بين النهرين - ص -٦٨/ ٦٩.

٤-نفق سجن الحلة

إن الواجب يفرض عليّ أن أوثق وقائع هذه العملية الجريئة التي اتسمت بالسرية والكتمان والشجاعة وحسن التخطيط والتنظيم ودقة التنفيذ، في الوقت الذي رافقتها مرحلة تعاضمت ونشطت وبرزت فيها الحركات الثورية ومنها حزب القيادة المركزية، الذي انشطر عن الحزب الشيوعي العراقي. فلقد عشت تجربتها، شاهدا على أحداثها، وساهمت بجزء متواضع منها، إذ كنت حينها عضوا عاملا في قيادة الجهاز الصدامي المركزي لحزب القيادة المركزية ومكلفا بالتنسيق مع رفاقه في سجن الحلة، أتذكر منهم: مظفر النواب، حسين ياسين، عقيل حبش حافظ رسن، جاسم المطير، وآخرين. كانت عملية الهروب من هذا السجن بمبادرة منهم، طرحوها على قيادة الحزب لإتمام التنسيق اللوجستي معها، علما أن قسما من الرفاق السجناء الذين كانوا محسوبين على اللجنة المركزية ساهموا أيضا فيها، رغم الخلافات المحترمة على أوجهها بين (ق.م) و (ل.م)، أذكر منهم الرفيقيين حسين سلطان وصاحب الحميري، وكانت تربطني علاقة صداقة بهذا الأخير - ابن محلة الكريمات - الذي يمتاز بدمائة الخلق وسرعة النكتة، حتى أن رفيقينا في القيادة المركزية آنذاك: طالب كادحين (أبو ايمان) وحسين داود التميمي - ابني المحلة ذاتها أيضا - كانا يناكدانه، عندما نجلس سوية، بأن ينادياه "ليلي مراد" عن (ل.م) أي (اللجنة المركزية) فكان يرد عليهما "ك. ماما" كناية عن (ك.م) أي (الكفاح المسلح).

كان المشرفون على العملية ثمانية رفاق، خمسة من (ق.م) وثلاثة من (ل.م)، وقد اتفقوا على أن يخرج ثمانية عشر سجيناً من (ق.م) يقابلهم ستة سجناء من (ل.م)، ويترك للباقيين حرية الهروب عبر النفق، فبلغ عدد الهاربين خمسين، وكان طولُه بحدود خمسة عشر متراً، أما عرضه وارتفاعه فكانا بحدود متر واحد، وقد ابتدؤا حفره من إحدى الغرف المهملة، كمخزن متروك، وكان الحفر متقنا، وفي غاية السرية والكتمان، حيث تم ليمر النفق من تحت الجدار الخارجي للسجن، وتكون فتحة الأخرى في كراج للنقل العام، وتمت إنارته بطريقة لا تكتشفها أنظار السجانين، لهذا

أخذ جهدا ووقتا كبيرين من حافريه، ناهيك عن التراب الذي كانوا يخرجونه منه، حيث يحشونه داخل وسائد نومهم الفارغة أو يخلطون بعض كمياته مع الأزبال، كما طلبوا من إدارة السجن أن تزودهم بتراب لتغطية السطوح به قبل موسم الشتاء، لتفادي نضوح مياه الأمطار على قاعاتهم، فكانوا يضيفون تراب نفقهم له ويخلطونه به.

بعد إتمام النفق، في السابع من تشرين الأول ١٩٦٧م، انطلقت عملية الهروب التي كان رفاقنا في السجن قد أعلمونا مسبقا بموعدها المتوقع، وقد سبق لنا أن أبلغناهم بمحدودية قدرتنا اللوجستية على توفير امكانية نقل كل الرفاق الثمانية عشر الهاربين، إنما لعدد محدد منهم، وترك الخيار للباقيين في تدبير أمورهم على مسؤولياتهم الخاصة، حيث تم استلام الرفيقيين مظفر النواب وحسين ياسين، وكانا يرتديان ملابس عربية أرسلناها لهما سابقا بعدما أمنا سكنهما في منطقة بغداد الجديدة، وكان من الموكلين بذلك الرفيق عبد جاسم الساعدي.

في أيلول ١٩٦٨م التقيت الرفيق مظفر النواب في شارع أبي نؤاس، بعد خروجه من معتقل مديرية الأمن العامة، فروى لي محاوره بينه وبين صدام حسين، حيث كان قد أرسل في طلبه قبل أن يطلق سراحه، وهي كالاتي: (قال لي "أنا أشهد يا مظفر أنك شخصية وطنية تستحق التكريم لا الحبس، وكنا نردد نحن البعثيين قصيدتك (البراءة) عندما حصلت ردة تشرين ١٩٦٤م، وطُلب منا آنذاك تقديم البراءة من حزب البعث، ولتعلم أن اعتقالك لم يكن بأمر أو علم من حزب البعث، ولا نتحمل نحن جريته، إنما تقع مسؤوليته على جهاز الأمن الذي اعتقلك دون علمنا، ولا يخفى عليك أن بعض عناصره هم من بقايا جهاز أمن النظام السابق"، فقلت له "لكن رجال الأمن يقولون إن حزب البعث هو من أمر باعتقالك"، فابتسم قائلاً "قلت لك إنهم بقايا النظام السابق"، ثم قام بإهدائي مسدسا رفضته، ليبادرني بالقول "إذا ما هو طلبك؟"، فأجبتته "لقد عانيت كثيرا من النفي والسجون والمعتقلات وقد اعتلت صحتي جراء ذلك، ولي رغبة في استراحة خارج العراق للنقاهاة والعلاج، وما أطلبه فقط هو منحي جواز سفر يسهل مهمتي"، وفعلا تم منحه الجواز فغادر العراق، بعد ذلك، إلا أنه لم يغادره

"للنقاها والعلاج"، إنما التحق بصفوف الثوار في إريتريا، ومن ثم عاد إلى عدن، عاصمة اليمن الجنوبي، وفي تلك الفترة ذهب برفقة إبراهيم علاوي سكرتير القيادة المركزية - آنذاك - في زيارة حزبية إلى الصين بناء على دعوة رتبها لهما قيادة اليمن الديمقراطية أيام قيادة سالم ربيع علي (سالمين) حيث كانت علاقة القيادة المركزية وثيقة جدا به أيام قيادته للحزب الاشتراكي اليمني. وبعدها ذهب إلى لبنان، متنقلا بين بيروت والجنوب، حيث التحق بفصائل المقاومة الفلسطينية، وبدأ بمهاجمة نظام صدام حسين، خطابة وشعرا، مما حدا بالنظام لملاحقته، وأرسل بإثره - إلى ليبيا حيث يقيم - مجموعة من جهاز مخابراته متخصصة بالخطف والإغتيال، في محاولة لإختطافه وتصفيته، وقد داهمت منزل سكنه عندما لم يكن مظفر متواجدا فيه، فقد سبق وأخبره أحد أصدقائه الليبيين أن المخابرات العراقية تقتفي أثره وتطلب رأسك وتصفيته، بعدها قام مظفر بتغيير سكنه، ومن ثم ترك ليبيا.

الرفيق عقيل حبش ذهب إلى الناصرية مدينته سيراً على الأقدام بعد معاناة ومخاطر كبيرة جابهته أثناء مسيرته إليها من الحلة بسبب عدم معرفته لتلك المناطق وبعد أن وصلها التحق بالحركة الثورية المسلحة في أهوار الناصرية.

أما الرفيق حسين ياسين فقد التحق بتنظيمات الفرات الأوسط ومن ثم لفترة بالرفاق في قاعدة الأهوار التي تشكلت في الجنوب، وبقي عاملا ضمن قيادات حزب القيادة المركزية، الذي استمر بالعمل بعد اعتقال سكرتيره العام عزيز الحاج وأعضاء قيادته الباقين، خلال الفترة التي كان يقود الحزب فيها الرفيق إبراهيم علاوي.

يذكر الرفيق عقيل حبش أحد المخططين والمنفذين الأساسيين في حفر النفق : " أن العملية بدأت بمبادرة منه ومن الرفيق حسين ياسين ومن ثم مظفر النواب وطرحوها على مسؤول منظمة الحزب في السجن الرفيق نصيف الحجاج لي طرحها على الحزب من خلال الرفيق حسين سلطان صبي عضو اللجنة المركزية للحزب - وكان ذلك قبل الانشقاق - لكنهم لم يستلموا رداً أو جواباً من الحزب على رسائلهم، وتكونت لجنة

من: حسين سلطان صبي عضو اللجنة المركزية مستشارا للجنة التخطيط / جاسم المطير مستشارا لمظفر النواب/ ومعن جواد مستشارا لنصيف الحجاج / ، والزملاء الإستشاريين ليس لهم علم بأسماء المشاركين بعملية حفر النفق ولا بالكيفية التي يتم الحفر بها ولا بالأدوات ، وليس للسجناء الباقين والبالغ عددهم ٦٠٠-٧٠٠ سجين علم بحفر النفق وذلك من أجل سرية العملية وصيانتها، كانت اللجنة الأولى هي لجنة التخطيط والإشراف والمتابعة والتنسيق إضافة الى مسؤول التنظيم، نصيف الحجاج وتتكون من الزملاء: حافظ رسن (أبو سمير) منسق العملية. حسين ياسين (أبو علي) مشرف على العملية. مظفر النواب (أبو عادل) متابع العملية "

بيد أنهم باشروا بالإعداد والعمل والبدء في عملية الحفر وكان طاقم الحفر أساساً يتكون من الرفيقين : عقيل حبش و فاضل عباس عبد الأمير ، وذلك للصيانة والسرية ولخبرتهما، وانظم اليهم في مرحلة لاحقة الرفيقين حميد غني جعفر وكمال ملكي كماله، وبعد أن أنجز حميد وكمال بمعية عقيل وفاضل حفر ما يقارب الخمسة أمتار من النفق توقف الرفيقان حميد وكمال بينما أستمر عقيل وفاضل بالعمل والحفر، وكان الحفر متقطعا كل ثلاثة أ و أربعة أيام الى حين حدوث الإنشقاق في ح. ش. ع. نهاية شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧، وقد أنظم معظم العاملين في عملية الحفر الى القيادة المركزية بإستثناء حميد غني جعفر الذي بقي مع اللجنة المركزية.

من أجل الإطلاع على التفاصيل الكاملة عن سير هذه العملية يمكن العودة الى كتاب الرفيق عقيل حبش -المنفذ الأول والمواكب لجميع مراحلها الى يوم الهروب-في كتابه الموسوم " الطريق الى الحرية - عقيل عبد الكريم حبش الجنابي - دار الملاك للفنون والنشر .

وهذه قائمة بأسماء السجناء الهاربين وعددهم كما وردت في كتاب الرفيق
عقيل حبش "الطريق الى الحرية":

السجناء الهاربون مع سنوات محكوميتهم فهم كل من:

(١) جاسم محمد المطير / ٢٠ سنة

(٢) حمادي عبد الله / ٢٠ سنة

(٣) حسين علي طراد / ٢٠ سنة

(٤) حافظ رسن / ٥ سنوات

(٥) حسين ياسين / ٣ سنوات

(٦) عبد العزيز الحامد / ٢٠ سنة

(٧) عبد الجبار على الجبر / ٢٠ سنة

(٨) عبد اللطيف حسن / ٢٠ سنة

(٩) عبد الأمير سعيد / ٢٠ سنة

(١٠) عبد الحميد غني / ٢٠ سنة

(١١) عدنان ابراهيم / ٢٠ سنة

(١٢) رياض كريم حبش / ١٠ سنوات ونصف

(١٣) عادل عباس الزبال / ٧ سنوات

(١٤) عبد تام الجبار مال الله / ٢٠ سنة

(١٥) مظفر عبد المجيد النواب / ٢٠ سنة

(١٦) ريحان عبد الله / ١٥ سنة

(١٧) نبيل حسين / ١٥ سنة

(١٨) غانم داود الموصلي / ٥ سنوات

(١٩) عدنان عبد الله سمعو / ٢٠ سنة

(٢٠) أسعد عبد العاقولي / ٢٠ سنة

(٢١) عقيل كريم / ١٠ سنوات

(٢٢) سعدان فهوي / ٢٠ سنة

(٢٣) سعد الله ملا محمد / ١٢ سنة

(٢٤) جياذ تركي / ٢٠ سنة

(٢٥) كمال مدني / ١١ سنة

(٢٦) محمد حسن حمدي / ١٠ سنوات

(٢٧) صدام حميد / ٢٠ سنة

(٢٨) قحطان عارف / ٢٧ سنة

(٢٩) محمد موسى كاظم / ٥ سنوات

(٣٠) حز علي جاسم خلف / ٢٠ سنة

(٣١) بشير الزرعو / ٢٠ سنة

(٣٢) صلاح حسن شاهين / ٢٠ سنة

(٣٣) هادي صالح / ٣ سنوات

(٣٤) محفوظ يونس / ٢٠ سنة

(٣٥) جاسم حذو / ١٥ سنة

(٣٦) جواد عبد الله / ١٠ سنوات

(٣٧) حسين سلطان / ٩ سنوات

(٣٨) عبد الواحد خلف / ٢٠ سنة

(٣٩) حازم صابر / سنة واحدة

(٤٠) فاضل عباس / ١٧ سنة

لم تكن هي المرة الاولى التي يقوم بها سجناء شيوعيون عراقيين بحفر نفق الى خارج السجن والهرب من خلاله، في كتابه عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي -فصل (مجازر السجون) يذكر عزيز سباهي: " لابد لنا أن نتوقف عند لون آخر من مآثر الشيوعيين في سجونهم في تلك الفترة، ونعني بها محاولات الهروب المتكررة من السجون بأساليب حيّرت خصومهم.

١-عملية الهروب من سجن الكوت

" كانت أول محاولة للهروب الجماعي قد تمت في شباط ١٩٥٢ من سجن الكوت، وقد تمت بحفر نفق تحت الأرض من داخل السجن إلى خارجه، وكان على رأس الذين تولوا الحفر آرا خاجادور وحميد عثمان ومهدي حميد وجاسم التاجي وآخرون، وقد خرج الذين تقرر هروبهم عبر النفق إلى خارج السجن لكنهم لم يجدوا الدليل والسيارة التي كان من المنتظر أن تنتظرهم في المكان والموعد المحددين وتقلهم إلى الحدود مع إيران، فراحوا يسيرون في براري الكوت حتى وقعوا في أيدي البوليس على نحو ما يروي زكي خيرى في مذكراته، وعزيز الحاج أيضاً، ولم ينجح منهم سوى عزيز الحاج الذي وصل إلى بغداد وحاول أن يلتجأ إلى بيت أحد أصدقائه في الكرادة الشرقية لكن زوجة صاحب البيت إرتعت وسلمته إلى البوليس، فقد برهنوا بحفر النفق أنهم يحسنون الإقدام والتنفيذ لكنهم يسئون التقدير والتخطيط، فلم يحسبوا الكثير من الأمور المهمة والمحتملة حساباً جيداً، وهكذا فشلت العملية "

٢-عملية الهروب من سجن بعقوبة

وكانت المحاولة الثانية للهروب الجماعي قد تمت من سجن بعقوبة بعد ثلاث سنوات من محاولة الهروب الأولى، وجرت كما الأولى، من خلال نفق تم حفره من غرفة صغيرة كانوا يخزنون فيها موادهم الغذائية، وكانت هذه المرة أشق وأخطر، ففي السجن يزدحم ما يزيد عن المئتين والخمسين سجيناً يدورون في ساحة مبلطة بالكونكريت لا تزيد مساحتها عن الألف متر مربع، والحراس يطلون عليهم من فوق، وتديرها المصاييح الكهربائية القوية.

لقد كان حفر النفق عملاً هندسياً معقداً، فعدا عن أن النفق كان أطول بكثير هذه المرة (قاربة ٤٠ - ٥٠ متراً)، والأرض إلى مسافة غير قليلة مبلطة بالكونكريت السميك، وكان يتوجب حفره تحت ثلاثة جدران ، وعروق الأشجار الضخمة التي تحيط بالسجن

تمتد في كل الإتجاهات، والمياه الجوفية قريبة جداً من سطح الأرض، وكان على الذين يتولون حفر النفق أن يتخلصوا من تربته بصورة من الصور، وأن لا يبقوا لها أثراً يمكن أن يشك فيه الحراس الذين يتولون عد السجناء يومياً، والأخطر من كل هذا، كان على الذين يحفرون النفق أن يواصلوا عملهم دون أن يعرف السجناء ذاتهم ما يجري خشية أن لا يفشي أحدهم سر الأمر. ومرة أخرى تفشل خطة للهروب ويلقى القبض على الهاربين في أطراف بعقوبة، لأنهم لم يجدوا الدليل الذي تقرر أن يخصه الحزب في الموعد والمكان المحددين، ولم يسلم سوى عبد اللطيف الرحبي الذي كان من أبناء المنطقة والذي أخذ طريقه نحو قريته بهرز، وحين زار قائد الفرقة العسكرية وحاكم تحقيق السجن، وإطلعا على النفق لم يستطيعا كتم إعجابهما بالعمل الهندسي الذي حققه السجناء بأدواتهم البدائية." (٨٧)

يذكر الرفيق عبد الجبار وهبي (ابو سعيد) في كتابه (من أعماق السجون في العراق - عبد الجبار وهبي "أبوسعيد" - اعداد وتقديم محمد علي الشبيبي - مؤسسة النبراس - العراق - النجف الاشرف - ٢٠١٣ - ص ١٣٨. عن كتاب من أعماق السجون في العراق - عبد الجبار وهبي - القاهرة - دار القلم - ١٩٥٥). أنه " في صيف عام ١٩٥٢ هرب حميد عثمان وأحد عشر سجيناً سياسياً من سجن الكوت عن طريق نفق حفروه من تحت الاسوار الى خارج السجن الا أنهم ألقى عليهم القبض - بعد هروبهم - وأعيدوا الى السجن، ومن ثم نقلوا مع ٤٠ سجيناً آخر الى نقرة السلطان، وكان هذا الحادث اول حادث من نوعه في السجون العراقية. وكان لحادثة الهروب، هزة عنيفة في الاوساط الشعبية والحكومية على السواء، وعلى أثر الهروب انشأت الحكومة جناحا في السجن على النمط الامريكي، وفي زنانات هذا الجناح الحديث عرف السجناء السياسيون لونا جديدا من الاضطهاد والتعذيب".

(٨٧) عزيز سباهي - عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي - ج ٢، ص، ٩٩.

كذلك أشار الى الحادث حنا بطاطو في كتابه (العراق-الكتاب الثاني-الحزب الشيوعي-مؤسسة الابحاث العربية-ص-٣٥٨). قال: " في صباح ١١ شباط ١٩٥٢، اكتشف حراس سجن الكوت أن الشيوعيين حفروا ممرا طوله ١٣ متر بعمق متر ونصف المتر، وان ١٤ منهم هربوا خلال الليل. وعلى العموم، فقد تم للحاق بسبعة منهم واعتقالهم، ونقلوا في ١٣ شباط الى نقرة السلطان. وبقيت كيفية تمكّن السجناء من تأمين الادوات اللازمة للحفر، وأين خبأوا كتل التراب الناتجة عنه، من الامور المحييرة".

وأخر تلك العمليات كانت عملية حفر نفق في الموقف العام في كانون أول عام ١٩٦٨ أي بعد بضعة أشهر من مجيء البعث ثانية في ١٧ تموز ١٩٦٨. ولتعذر كسر الأرضية الكونكريتية للغرفة التي تقرر بدء حفر النفق منها في القلعة الخامسة لكونها مجاورة للممر الخارجي الذي يفصل القلعة عن سياج الموقف العام المطل على باب المعظم، فقد ابتدئ الحفر بجدار الغرفة الذي كان سميكا جدا ومشيدا بالفرشي، وبعد عمل فتحة داخل الجدار تتسع لدخول شخص واحد تم الحفر بالجدار نزولاً وذلك بقلع الطابوق الفرشي المشيد منه الجدار إلى ما تحت مستوى الأرضية الكونكريتية ومن ثم النزول إلى عمق حوالي مترين تحت الأرضية، وبعدها الحفر الأفقي باتجاه الشارع العام في باب المعظم عند بدايته باتجاه الأعظمية. وقد اكتمل العمل فيه بعد اختراق جدارين بسمك أكثر من متر مبنية بالفرشي والوصول إلى الشارع العام. وقبل ساعات من الوقت المقرر للهروب ليلا بالتنسيق مع الحزب في الخارج، وبعد انتهاء مواجهة الموقوفين الدورية مع علوانلهم، تم مداهمة الموقف بمفرزة وبحضور وزير الشؤون الاجتماعية في حينه ومسؤولي السجون إثر وشاية من أحد الموقوفين.

وعند فتح التحقيق قررت قيادة التنظيم في الموقف، وكان مسؤولها ماجد علاوي، أن يقوم ثلاثة رفاق بتحمل المسؤولية الكاملة عن حفر النفق أمام الإدارة وأمام لجنة التحقيق، وهم حارث الخوري ونعمان ثابت وحسين مشكور، الذين تحملوها بكل شجاعة وتحدي. ولا يمكن نسيان الدور الكبير للموقوف الشيوعي فاضل عباس في

عملية الحفر التي كانت تتم ليلا، والذي كاد أن تقتله صعقة كهربائية من تمديدات الأسلاك الكهربائية للإضاءة أثناء الحفر. ومن الطريف أن حسن مشكور، الذي كان سمينا جدا، سؤل أثناء التحقيق: كيف يمكنك أن تهرب من هذا النفق وأنت بهذا السمن، فأجاب أنني أنا "قالبهم" في حفر هذا النفق. وقد تم نقل الموقوفين إثر ذلك إلى سجن بعقوبة، وكانت هتافاتهم تتعالى بحياة الحزب أثناء تحرك سيارات النقل في شوارع بغداد طالبين إلى الجماهير إيصال خبر إلى الحزب بأن السلطات قامت بنقل الموقوفين إلى جهة مجهولة.

٥- عودة البعثيين ثانية

ثم دارت عجلة العنف مجددا إثر انقلاب البعثيين في ١٧ تموز ١٩٦٨ التسحق الجميع دون رحمة، حيث بعد ثلاثة عشر يوما، فقط، إنقلبوا على حليفهم ابراهيم الداوود وعبد الرزاق النايف، المساهمين الأساسيين في نجاحه، فأبعدوهما بالقوة خارج البلاد، واستمرت العجلة تطحن كل المعارضين لهم، حتى شملت بعثيي الجناح اليساري لحزبهم، بذريعة أنهم "منشقون"، وزجت بكل قياداتهم في السجون، فضلا عن شمولها الحركات الدينية والقومية، فبات القتل اسلوبا متبعا لمعاقبة المعارضين لهم أو المختلفين معهم. فلقد مارس حزب البعث حكمه، عقب انقلابه هذا، بحملات قمع وتصفية، لم يشهد العراق المعاصر مثيلا لها، إزدادات حدتها وارتفعت وتيرتها خلال السبعينيات، بخاصة بعد استلام صدام حسين كرسي الرئاسة عام ١٩٧٩م، حين تركزت ذروتها منتصف هذا العام، فطالت قياديين من الحزب نفسه، حيث تم إعدام: غانم عبد الجليل، عدنان الحمداني، محمد محجوب، محمد عايش، محي عبد الحسين، عبد الخالق السامرائي، بعد تعذيبهم، ثم عدم السماح لعائلاتهم بإقامة مراسيم عزاء لهم، وتجريم أقاربهم حتى الدرجة الرابعة وإبعادهم عن وظائفهم. كما أضافوا لحملاتهم القمعية والتصفوية هذه حملات "تسفير"، حيث أبعدها إلى خارج

الوطن مواطنين عراقيين بعد إسقاط الجنسية عنهم بدعوى "التبعية"، منتزعين إياهم من بيوتهم بملابس النوم إلى شاحنات توجهت بهم نحو الحدود الإيرانية.

أما حين تحول "حكم البعث" إلى "نظام صدام"، منذ مطلع الثمانينيات، فهناك أفعال مخالفة لأبسط حقوق الانسان: بتريد المتعامل بالدولار الممنوع تداوله محليا، وقطع إذن المتخلف عن الخدمة العسكرية أو لسان "المتهجم على السيد الرئيس" ولو بنكتة، وإعدام المنسحب من جبهة حربية رميا بالرصاص ثم مطالبة ذويه بتمنئها ومنعهم من إقامة مجلس عزاء له.... إلخ! كما أن إزهاق النفوس البريئة قد بلغ ذروته خلال الحربين اللتين أشعلهما صدام حسين ضد إيران والكويت، فخلفت الأولى مليون قتيل، بعدما دامت ثمانية أعوام، وخلفت الثانية ربع مليون قتيل، إضافة لمئات الآلاف من المعاقين والأرامل والأيتام، ناهيك عن تدهور حاد في الوضع الاقتصادي وتخلخل باين في النسيج الاجتماعي، وانتشار الأمراض النفسية وشراء الذمم الرخيصة وتفشي الذهنيات الانتهازية.

هنا يبرز سؤال: هل طَبَّقَ البعثيون على الارض شعار حزبهم (وحدة - حرية - اشتراكية) عندما مارسوا كل ذلك العنف السياسي خلال الفترتين التي حكم بهما حزبهم العراق بعد عامي ١٩٦٣، ١٩٦٨م؟

٦-البداية في "النهاية"

كنت قبل شهرين من اعتقال الثاني، أواخر كانون الأول ١٩٦٨م، أفكر في إيقاف نشاطي ضمن حزب القيادة المركزية، بدأت بحوار مع الرفيق كاظم الصفار عضو (ق.م) ومكتبها السياسي، طرحت فيه مآخذي على نهج الحزب، خصوصا عدم الاكتراث بمسألة الصيانة وتعريض رفاق الجهاز الصدامي للخطر بسبب ذلك، والاندفاع الكبير والمبالغة الزائدة بإمكاناتنا المتواضعة جدا، والتي أنا على معرفة تامة بها، وتضخيمها وإعطاءها حجما يفوق واقعها، عبر البيانات القيادية ذات الحماس الثوري! أضف لهذه المآخذ كلها، هنا، أن بعض أعضاء قيادة الجهاز الصدامي كانوا يتداولون قرارا باحتجاز الرفيق عزيز الحاج وتنحيته عن السكرتارية العامة للحزب، لكن اعتقالهم حال دون ذلك، فكان قرارا كهذا خرقا تنظيميا واضحا، نجم عن أسباب عديدة...منها: إمتداد تأثير "عدوى" أسلوب وأداء الرفاق في (ق.م) بتعاملهم مع بعض أعضاء وكوادر اللجنة المركزية خلال العملية التي رافقت الانقسام/ ضعف في الالتزام والانضباط بمركزية القرار/ إفتقار السكرتير العام لحزب القيادة المركزية لعامل الحزم والحسم في معالجة الأمور. لذلك فإن البيانات التي كانت تصدر عن قيادة الحزب تعطيك انطباعا أنه على أبواب استلام السلطة، مما أثار مخاوف بعثيي جناح (البكر -صدام) جعلتهم يعجلون بانقلابهم في ١٧ تموز ١٩٦٨م، بعدما عقدوا اتفاقا، للقيام به، مع عبد الرزاق النايف معاون مدير الاستخبارات العسكرية، محسوبا على الانكليز، وابراهيم الداود قائد قوات الحرس الجمهوري، محسوبا على الأمريكان، وبعد ٣٠ تموز ١٩٦٨م أبعدهما بالقوة إلى خارج العراق، ولاحقا قامت المخابرات العراقية باغتيال النايف في لندن إبان الثمانينيات.

لكن في آب ١٩٦٨م، طلب البعثيون لقاء مع قيادتنا المركزية، فأرسلت لتمثيلها الرفيق كاظم الصفار، حيث طرحوا عليه استعدادهم للتحالف معنا بتخصيص مقاعد لنا في حكومتهم، موضحين له أن سلطتهم الحالية ليست كسلطة شباط، التي حدثت فيها أخطاء عديدة، لن تتكرر (فلنقلب هذه الصفحة ونبدأ صفحة جديدة)! كان الجواب

الشفوي للقيادة بلسان الصفار محددًا واضحًا: "لا نقبل بمشاركة شكلية بحثة في الحكم، إذ لا معنى للتحالف مع حزب لا يعترف بحق حزبنا بالعمل السياسي العلني ونشره صحفه الخاصة به، وأسباب أخرى في مقدمتها عدم وجود قناعة لدى رفاقنا وجماهيرنا بالتعاون معكم لما ارتكب من قتل وإبادة لرفاقنا وأبناء شعبنا عام ١٩٦٣م". وقد عبر عن هذا الموقف (بيان الحزب الشيوعي-القيادة المركزية في آب ١٩٦٨م)، حيث ورد فيه "... إن مجرد اشتراك قوة تقدمية واحدة، أو حتى عدد من هذه القوى في حكومة يسيطر عليها مجلس قيادة الثورة -أي مجلس كبار الضباط الحاكمين -... لن يغيّر شيئًا في طبيعة النظام" مطالبًا "بإطلاق سراح المساجين السياسيين وضمان الحرية للأحزاب السياسية والحكم الذاتي للأكراد، وإيجاد حكومة ائتلافية ديمقراطية تقدمية مؤقتة". ومع صواب موقف كهذا، بحق، إلا أن العنف الممارس ضد الشيوعيين استفز القيادة المركزية، فرفعت صوتها في كانون الثاني ١٩٦٩م داعية تنظيماتها علانية إلى البدء بالعمل للإطاحة بنظام البعثيين. وقد كان الأسلم ادراكا للظرف الراهن، آنذاك، عدم اللقاء بهم والاستجابة لطلبهم، من ناحية أولى، وعدم رفع شعار اسقاط نظامهم الجديد علنيا، من ناحية أخرى، للحصول على مساحة أكبر من المرونة والمناورة، اللتين تحولان دون إعطائهم الذريعة لضرب حزبنا (رغم أنهم منذ تسلمهم الحكم كان نهجهم ومخططهم تصفية كل الاحزاب والحركات التي لا تنتمي إليهم). ربما كان الصراع الدائر بين (ق.م) و (ل.م) أحد الأسباب التي ساهمت برفع هذا الشعار، لإبراز تميّز موقفنا عن موقف اللجنة المركزية التي لم ترفعه، فكانت النتيجة الحتمية أننا كنا نحن الضحية الأولى التي ابتدأوا بتصفيتها من بين القوى السياسية الأخرى.

كان موقفنا قد انطلق من نظرة يعتريها قصور بفهم الظرف الموضوعي، الذي كنا نمر به، واعتداد كبير بأنفسنا، وتقدير مبالغ فيه لإمكاناتنا وقدراتنا، حيث انتاب قيادتنا وكوادرها هاجس الشعور الواهم بالقوة، ما انعكس على قواعدها وجماهيرنا من خلال التثقيف والاعلام اللذين سادا تلك المرحلة. فإثر رفضنا التعاون مع البعثيين وإظهار

موقفنا المعادي لهم عبر رسالتنا التي وصلتهم أثناء اللقاء بهم، وبعد فترة وجيزة لم تستمر طويلا وتحديد نهاية تشرين الثاني ١٩٦٨م أي عقب أربعة أشهر على انقلابهم في تموز ١٩٦٨م، إنقضوا علينا بحملة اعتقالات واسعة كبيرة، ويبدو أنهم كانوا قد جمعوا معلومات مسبقة عن تحركاتنا بواسطة جهازهم الاستخباري "حنين" الذي كان موجودا ناشطا قبل الانقلاب والذي أصبح جهاز المخابرات لاحقا. وقد ابتدأت حملتهم هذه باعتقال الرفاق أحمد الحلاق، هاشم الآلوسي، صالح رضا العسكري، حاتم سجان، محمد كريم، والثلاثة الأخيرون من قيادة "الجهاز الصدامي"، وبعد تعذيب وحشي شديد باشر به ناظم كزار (مدير الأمن العام أواخر الستينيات ومنتصف السبعينيات)، وعندما فشل في انتزاع أي اعتراف منهم، قام أمام أعينهم بشنق الرفيقيين عزيز فعل، ابن المناضل الفلاحي فعل ضمد، وهو من تنظيمات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، وفائق ألياس عضو حزب القيادة المركزية بطريقة وحشية، حيث ربطهما بحبل لف حول عنقيهما شد أربعة أشخاص طرفه الآخر بحلقة مروحة السقف، رافعين جسديهما تدريجيا للأعلى إلى أن فارقا الحياة. وقد وصف لي الرفيق حاتم سجان مشهدهما: (لقد ازرق وجهاهما، وحفظت عيونهما، كانا يرفسان بأرجلهما، كالطير المذبوح، رغم القيود التي كانت تلفها)! إنها طريقة بدائية وحشية تزيد من وجع وألم المشنوق، لا تشبه الطريقة التي نعرفها في مشانق السجون التقليدية، حيث يغطى وجه الضحية بكيس أسود ويوضع حبل في عنقه، وعقدته "المشنقة" خلف جمجمة رأسه، ليتم قطع نخاعه الشوكي خلال ثانية، لئلا يشعر بالألم، فيما تفتح البوابة التي يقف عليها ليسقط منها متدليا بثقل جسمه. إذ أن طريقة شنق الرفيقيين "فعل" و "الياس"، كانت مختلفة، أشعرتهما بجرعات كبيرة من الألم، في جو يسوده الانتقام وغابت عنه المشاعر الانسانية! وفي ذلك الوقت أعتقل عبد الأمير سعيد، وشعبان كريم الذي مات تحت التعذيب، وحصل كل هذا في وقت كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي خلاله تحاور الجلاد من أجل تأسيس "جبهة وطنية تقدمية"!

في تلك الفترة داهم بيتي لاعتقالي هؤلاء:

ناظم كزار "أبو حرب"، شاب نحيف أسمر السحنة، طويل القامة قليلا، تعتلي أرنبه أنفه نظارات سميكة نطلق عليها (كعب قنينة)، يرتدي معطفا مطريا رمادي اللون، له لمعان صدفي، ويشع من عينيه روح الانتقام والتشفي / سالم الشكرة "أبو طه" أو "أبوفرانكو"، نحيل الجسم، متوسط القامة متجهم الوجه لا يتسم أبدا، تحسبه أحد ضباط الجستابو النازي، يقطر حقدًا ولؤما، ربما كانا قد تأصلا فيه بعد مقتل أخيه فاضل الشكره خلال حركة الشواف في الموصل عام ١٩٥٩م / صباح ميرزا، شاب وسيم، سحنته بيضاء، رياضي فارغ القامة كأنك أمام ممثل هوليوودي لا يحمل وجهه سمات توحى بالعنف والصلافة، على وجهه ابتسامة خفيفة دائمة، حتى وإن كان يمارس التعذيب/ ناصر فنجان "ملازم طارق"، شاب أسمر اللون هادئ، طويل القامة عسكري الحركة، تحس بصرامة ملامحه رغم البسمة التي تعلق وجهه/ عرمش عرمود "أبو أحلام"، ضخم الجثة، قوي البنية، مفتول العضل تخاله مصارعا، مكتنز الوجه، أبيض البشرة، يحاول تغطية جمجمته- التي تساقط شعرها - بخصلة شعر يأخذها من جهة ساليه، له فتحة تفرّق ما بين ضرسيه العلويين الأماميين، جاحظ العظمة تحت حاجبيه، لهجته جنوبية/ حسن المطيري "ملازم فيصل"، شاب وسيم، نحيف الجسم، متوسط القامة، دقيق الملامح، ذو سحنة حنطية، شعره يميل الى الاصفرار قليلا، يمشّطه ويفرقه من الجانب الأيسر، عندما يتحدث إليك تحسه إنسانا وديعا، لكنه في التحقيق يتحول إلى وحش كاسر/ فارس الموصل "ملازم"، أسمر السحنة، مستطيل الوجه، على وجنته خال، شعره أسود كث، تراه دائما يرتدي بدلة وربطة عنق، لهجته موصلية/ فاروق "أيضا ملازم"، شاب طويل القامة، مليء الجسم، حسن المظهر، شعر رأسه كثيف حالك السواد، له شنب أسود كث يندلق على نهايتي فمه، مشكلا رقم ثمانية، قليل الكلام، صارم الملامح.... وثمة آخرون لم أتعرف على أسمائهم.

كان بإمكانني الهرب وأنا في البيت، من خلال القفز إلى سطح الجيران والإفلات من قبضتهم، إلا أنني فكرت بأخي الوحيد كاظم الذي يكبرني، خصوصا أنه كان قد اعتقل بسببي عام ١٩٦٣م، بعد إطلاق سراحي من السجن، وظهر اعترافات جديدة عقب التحقيق مع معتقلين من التنظيم الذي كنت مرتبطا به، مما حدا بهم إلى مداهمة بيتنا، ولما لم يجدوني اعتقلوه وأخذوه إلى قصر النهاية، حيث أكد لي هذه المعلومة أيضا رفيقنا سعدي الحديثي الذي كان موقوفا معه، فقاموا بتعذيبه لمعرفة مكان اختفائي، وقد نال قسما وافرا من التعذيب آنذاك ولم يعترف لهم بالمكان، مما جعلني خائفا عليه إذا اعتقل هذه المرة، فربما سيموت تحت تعذيبهم له وهو ليس ذو أي ارتباط بالعمل الحزبي التنظيمي.

تم اعتقالني في كانون الأول ١٩٦٨م، كان الجو شتويا قارصا ممعنا في برودته، فتحوا باب سيارتهم - نوع بيجو ٤٠٤ - أجبروني على الجلوس في مقعدها الخلفي، جلس اثنان منهم واحد ذات الشمال وآخر ذات اليمين، وقد حشراني بينهما، كان ناظم كزار هو من يجلس خلف مقودها، إنطلقت السيارة، تبعتها سيارات تقل آخرين، بعدما عصبوا عيني لما استقررت داخلها، فسارت بنا على الطريق ميممة وجهها إلى جهة مجهولة. وبينما كانت تنهبه نحو المكان الذي يرومون أخذي إليه، طرح على كزار التعاون معهم بكشف التنظيمات التي أعمل معها، وقد ملي عرضا مفاده: منحي مركزا وظيفيا مرموقا في الدولة مع سيارة خاصة وراتبا كبيرا، ووعد بتسهيلات كبيرة أخرى، إن قبلته سأعود إلى البيت كأن شيئا لم يحصل! لكنني رفضت العرض بادعاء أنني لا أنتمي لأي تنظيم وليس عندي ارتباط بأي حزب، وهنا قالوا "لدينا اعترافات موثقة عليك، ونحن لم نأتك اعتباطا أو عشوائيا"، وحينها لم أكن أعلم باعتقال رفاقي الثلاثة، فاعتبرت ذلك خدعة للإيقاع بي! حين توقفت السيارة اقتادني أحدهم وأنا معصوب العينين، أنزلني سلما، لامست قدمي درجاته فشعرت أنه يؤدي إلى قبو، وبعدهما أنهيت السلم، ولجت زنزانة كانت مياه تغمر أرضيتها، ثم خرج السجنان وأغلق بابها خلفه، حيث رفعت العصا عن عيني، فإذا أنا لا أرى شيئا بتاتا غير ظلام دامس

يحيط بي ويطبق علي. لم أتمكن من الاستلقاء على أرضية الزنزانة بسبب المياه التي تغمرها، كنت أحاول أن اجلس القرفصاء لعلي أقتنص لحظات من النعاس، لكن جفوني أبت ولم تطاوعني لترتخي قليلا وأنعم ولو بغفوة قصيرة. لم يتفقدني أحد من السجنانيين في بحر ليلتين قضيتهما هنا، وعبر الجدار الملاصق لزنزانتني كنت أسمع لأحد المعتقلين صوتا يعلو ويصرخ مناديا "سيارتي محركها لم يزل يدور... إنها على أهبة الاستعداد للحركة والانطلاق، أين أنت يا أحمد حسن البكر... تعال وعجل كي أنقلك بسيارتي وأوصلك للمكان الذي تبغيه ومجانا، (يلله عيني تعال أوصلك وين ما تريد)"، فكانه قد جنّ وفقد صوابه.

وفي اليوم الثالث جاء صباح ميرزا واقتادني إلى الطابق العلوي، بعدما انتزع ربطة عنقي وكبل بها يدي للخلف، حيث أدخلني وسط قاعة واسعة فإذا بشخصين على يميني وشمالي بدأ يصفعاني بكفيهما على خدي بتوقيت مشترك فإن فشلت الصفعتان في تحقيق مرادهما بتطابق صوتيهما، تتعالى ضحكاتهما وهما يرددان "هاه... لم تنجح الصفعة"، ليعيدا الكرة مستمرين بالصفع، دون أن يكمل كفاهما، حتى إذا وحدا صفعتيهما فكان صوتاهما متطابقين، عندها توقفا عن صفعي.

هذه القاعة الواسعة، يتدلى من سقفها حبل مربوط بحامل مروحتها، وعلى مدى اسبوع يوميا، منذ ساعة متأخرة كل ليلة، كان شخصان يطرحاني أرضا، ويشدان رجليّ بالحبل هذا، ليسهل عليهما انسيابه أثناء الشد، ثم يرفعاني للأعلى، فأصبح معلقا في الهواء متدليا ورأسي بلامسة الأرض تقريبا، حينها يتناوب على ضربني شخصان آخران بأسلاك كهربائية سميقة "كابل"، يستمران على هذا المنوال لفترة طويلة حتى يخدر جسمي بحيث لا أشعر بألم.

في إحدى الليالي، حيث حفلة التعذيب والتحقيق ذات جو ارهابي حتى مطلع الفجر، سقطت أرضا، بعدما أرخي الحبل المعلق بحلقة المروحة السقفية، فإذا بنظري، متفحصا ما حولي، يقع على ناظم كزار: كان جالسا خلف طاولة كبيرة فرش على

سطحها أوراق جريدة، وضع عليها صحنونا مليئة بالكباب والصمون والريحان، وقد عبقت روائحها في أنفي، أنا الذي لم أذق لثلاثة أيام متتالية سوى الماء، فكان يتناول الطعام مواصلا استجابي، وهو يرمقني بنظرة حادة ماكرة يشع منها خبث وتشفّف، فيما ارتسمت على ثغره كراهية ونذالة شديديتين، توحى للناظر أنه يكره حتى نفسه، إذ كان واجما متجهما، كأن البسمة خاصمت شفتيه، وهو مختبئ خلف نظارته الطيبة السميقة، التي كنت أرى انعكاس صورتي ولمعانها على سطحي عدستها، وبعدها ابتلع لقمة بشهية رفع صوته "لا تحاول أن تستعرض علينا بطولتك وتظهر بمظهر الإنسان الصامد كعادتكم أنتم الشيوعيون... لدينا اعتراف عليك، ولدينا معلومات مؤكدة إلى أي تنظيم تنتمي أنت، ونعرف أنك كنت تنوي ترك العمل الحزبي، لكن خبرنا عن تنظيمك وما تعرفه عن التنظيمات الأخرى والتنظيمات القديمة" (يقصد تنظيمات اللجنة المركزية). إستمر الضرب على ظهري لمدة غير طويلة، سبقتها جولات ضرب متكررة على أطرافي، حتى فقدت الاحساس بأي ألم، حيث تخدر جسمي، وما عاد يكثرث بالضرب، وكنت أثناء ذلك أحاور نفسي محاولا اقناعها "يبدو أن تحمل الانسان للضرب يفوق ما تتحمله الدابة"! ولما اختلط عذاب التحقيق برائحة الكباب، توقف ضربهم ومعه ألمي، كذلك سيل كلماتهم البذيئة، فكانت استراحة لم تستمر كثيرا، بعدها واجهوني برفاقي الثلاثة صالح العسكري وحاتم سجان ومحمد كريم "أعضاء قيادة الجهاز الصدامي"، وسألهم كزار "من هذا وما مركزه؟"، مشيرا بإصبعه إليّ، فأجابوا دون تردد (إنه "أبو بحر" - كنيته آنذاك - عضو لجنتنا العمالية، وكان قد ترك العمل معنا)! أفادتني هذه الإجابة في التحقيق مخففة عني التعذيب لاحقا، لكونها تلميحا منهم لي بأن اعترافهم اقتصر على ذلك ولم يتعد إلى مراكزهم الحزبية الحقيقية. ثم أعادوهم للمكان الذي جاءوا بهم منه، وبدأ تحقيقهم معي مجددا طالبين مني أن أخبرهم عن معرفتي بتنظيمات أخرى حتى إن كانت من اللجنة المركزية، مع استمرار الضرب قرابة ساعة للحصول على معلومات إضافية ربما أخفيتها عنهم، وبعدها تعبوا، حيث كلت أياديهم، أنزلوني أرضا. لم يعيدوني ل"غرفتي"، بل ذهبوا بي إلى "غرفة" يوصل إليها مباشرة سلّم ملتو، كان فيها معتقلون

آخرون، فسحوا لي مكانا كي استلقي فيه، وعندما دار حديث بيني وبينهم قال بعضهم (إن هذا سرداب، تابع لقصر الرحاب الملكي سابقا، يوصله نفق سري طويل إلى "نهر الخر" الذي لا يبعد كثيرا عنه، إلا أنه قطع إلى زنانات عديدة بعد أن تحول إلى معتقل قصر النهاية لاحقا!) ، كانت مساحة هذه الزنانة لا تتجاوز عشرين مترا لكنها مكتظة بالموقوفين، حيث ينامون جالسين أو مقرفين أو واقفين متبادلين ذلك بين ساعة وأخرى، وكان لها باب حديدي أحمر اللون موصل تعلوه فتحة، تتخللها قضبان حديدية، مساحتها أقل من ثلاثين سنتمترا، نستنشق الهواء من خلالها، أو يكلموننا عبرها أحيانا، ورغم أن الطقس كان شتويا باردا فقد أصيب البعض بالاغماء لشدة الحر داخلها.

كان معنا فيها أشخاص ذوو اتجاهات مختلفة من مدن متعددة، كما تضم أيضا معتقلي الهيئة الثانية، أي من يطلق عليهم "الجواسيس"، مع بقية المعتقلين الآخرين... ومنهم: عبد الهادي البجاري المحامي، صادق جعفر الحاوي، فهد "طالب في كلية الهندسة-جامعة البصرة-السنة الأخيرة، لم اعرف على اسم أبيه، زكي زيتو، الأخوان البير وسامي حبيب توماس "الثاني مات تحت التعذيب"، عزرا زلخة، عزرا جورى، أكرم عزرا بحر، فؤاد يعقوب شاشة "علمت منه أن أباه هو من كان ينادي على البكر!" كذلك كان فيها: صاحب "بلم"، هو وسيلة عيشه الوحيدة، ينقل به عابري شط العرب، لهذا اتهم بتهريب أشخاص إلى إيران يحملون معهم رسائل "تأميرية" / ونادل "حانة"، روادها من مختلف المشارب والأهواء، يقضون في أجوائها ساعات من اللهو والاسترخاء، خارج عالم الرعب والخوف والسياسة، فصادف أن يلتقي داخلها أشخاصا وجهت لهم تهمة "تجسس" / وطالب "جامعة"، شاب، اسمه جمال الحكيم قيل إنه ابن أحد الأثرياء، متهم بالتجسس، أيضا، وكان وسيما أنيقا، علامات الدلال والرفاهية ظاهرة عليه، لذلك يأخذه حراس أثناء مناوباتهم الليلية، ويعيدونه عند ساعة متأخرة، وهو بحالة يرثى لها، زاعمين أنه شاذ، وذات ليلة غاب تماما دون أن نعرف مصيره. وبعد يومين من إيداعي في هذه الزنانة، تكررت آلية استدعائي للتحقيق قرابة

شهرين، بمدد متفاوتة، إذ كانوا يأتون بمعتقلين جدد طالبين مني التعرف عليهم، حيث كل استدعاء تتخلله إهانات وبصقات وترافقه لكلمات وركلات.

ما تقدم أخيراً، هنا، فيه صور عن معتقلين كانوا معي، آنذاك، قيل إنهم أعدموا جميعاً، داخل "قصر النهاية"، وفي هذا الصدد يذكر الكاتب اليهودي د. خضر سليم البصون، ضمن مقالته (ذكرى إعدام يهود عراقيين في بغداد والبصرة)، ما يأتي: (بدأت حملات الاعتقال في أيلول ١٩٦٨م حيث اعتُقل أربعة يهود واختفوا بدون أثر وبدأت الإشاعات تدور أنهم في قصر النهاية. بعد أسابيع سمعنا أن سبعة عشر يهودياً من البصرة قد تم إلقاء القبض عليهم وجلبهم إلى بغداد بتهمة التجسس لصالح الكيان الصهيوني، عشرة منهم طلاب جامعيون، ووصل العدد بعد أسابيع لأكثر من ثلاثين شخصاً، صدرت أحكام الإعدام على أربعة عشر متهماً وأعدموا شنقاً في السجن المركزي في بغداد في ليلة السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٦٩م وعلقت جثث أحد عشر من المتهمين في صباح اليوم التالي السابع والعشرين في ساحة التحرير في بغداد وثلاثة في ساحة أم البروم في البصرة، وهذه أسماء الذين أعدموا: عزرا ناجي زلخة ٥١ عاماً - تاجر لأدوات بيتية في البصرة، شنق في بغداد ونقلت جثته إلى البصرة لتعلق في ساحة أم البروم/ نعيم خضور هلالي ١٩ عاماً طالب في البصرة/ داود حسقيل دلال ١٦ عاماً، طالب من البصرة أجبر على القول إن عمره تسعة عشر عاماً، ليمنح محاكمته وإصدار حكم الإعدام/ حسقيل صالح حسقيل ١٧ عاماً طالب من البصرة أرغم على القول إنه جاوز الثامنة عشرة لكي يتسنى شنقه/ صباح حبيب ديان ٣٠ عاماً، تاجر قطع غيار للسيارات من البصرة/ يعقوب كرجي نامردي ٣٨ عاماً موظف شركة نقلات من البصرة/ فؤاد كباي ٣٠ عاماً موظف في دائرة المكوس في البصرة/ داود غالي ٢٣ عاماً طالب من البصرة/ جمال صبيح الحكيم من أصل يهودي كان والده قد أسلم وقد علقت جثته في ساحة أم البروم في البصرة **ورد إسمه سابقاً** / تشارلس رفائيل حوريش ٤٤ عاماً تاجر ووكيل من بغداد/ يعقوب "جاك" اطرقجي تاجر أنسجة وملاك الذي القي القبض عليه في ٨ تشرين الثاني كمتهم في شبكة التجسس ولقي حتفه في اليوم

نفسه من جراء التعذيب/ نسيم يائير حاخام، محاسب في دائرة ومقاوم القبي القبض عليه بموجب التهم المسندة له في ٨ أيلول ولقي حتفه بعد اسبوع من جراء التعذيب. سلمت جثته لدفنها بعد حوالي خمسة أشهر في مقبرة اليهود/ فؤاد يعقوب شاشة تاجر حديد ألقى القبض عليه في ٢١ كانون الأول مع والده وسجن في سرداب في قصر النهاية ثم اختفت آثاره. بعد حوالي ٣ أسابيع نشرت الجريدة الرسمية أنه قد هرب/ شمعون مصلاوي، بياع جرائد في بغداد. أعتقل في حي الأعظمية في كانون الأول ١٩٦٩ واتهم بالتجسس لقي حتفه في نفس الشهر من جراء التعذيب وتم دفنه في مقبرة إسلامية/ داود ساسون زبيدة - مقاوم بناء القبي القبض عليه في ٢٣ تموز وسجن في قصر النهاية تعرض للتعذيب وأخبرت الحاخامية بعد ثلاثة أيام أن ترسل الدفان ليأخذ جثته/ أكرم عزرا بحر اعتقل في ٢٧ أيلول وقتل في قصر النهاية بعد التعذيب ولم يعثر على جثته/ شوع سوفير مسجل علامات تجارية زج في قصر النهاية ولقي حتفه بعد التعذيب، وظلت زوجته تبحث عنه لأشهر وقيل لها إنه هرب/ عزرا يعقوب جوري اعتقل في كانون الثاني ١٩٧٠ وسجن في قصر النهاية وبعد تعذيب شديد اطلق سراحه في كانون الثاني ١٩٧١م. بعد أسبوع من اطلاق سراحه عثر على جثته بالقرب من مطار بغداد مصابة بعيارات نارية ومقيدة اليدين والرجلين، وبلغ عدد اليهود العراقيين الذين قتلوا علي أيدي جلاوزة البعث خمسين شخصا. بالإضافة إلى ذلك اعتقل العشرات وتعرضوا للتعذيب في قصر النهاية وفي السجون الأخرى". (٨٨)

أحدهم ذلك الذي كان صوته الجمهوري يتسرب منسابا إليّ من زنزانة أخرى، يتحدث عن الوضع الذي هو فيه، يرتفع قليلا "هل هناك من أحد سمعني؟ أتوسل إليكم أن تردوا عليّ، وليحدثني من يسمع صوتي". إنه مشدود الوثاق إلى كرسي عالي المسند ثبتوا رأسه اليه، لا يقدر على تحريكه... فيستنجد "بالله عليكم ياأخوان، إنها مطرقة

(٨٨) شأؤول حاخام ساسون -في جحيم صدام حسين-من منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق -١٩٩٩م.

تهشم مجمعتي... ياناس... والله إنها كتل صخر تتساقط على دماغي". لقد سلطوا على قمة رأسه صنوبر ماء تتساقط قطراته على دماغه برتابة مملّة، تنقره كأنها مكانة حفر عملاقة تهوي عليه بمطرفتها تحفر فيه أخاديد عميقة يجدها لتكرارها الرتيب كأنها صخور متساقطة على رأسه... ويعيد الكرة مستنجدا "هل هناك من يسمعي؟ أنا ابراهيم فيصل الأنصاري رئيس أركان الجيش العراقي". كان يعيدها بين الفينة والفينة... وكانت قطرات الماء لا تنقطع تهوي متساقطة على رأسه كأنها الصخور وهو يردد "الماء يحيط بي من كل حذب وصوب... أتوسل إليكم... حدثوني لأنني سأنفجر... سأموت، الصمت يعذبني، سيقتلني". ظل الصوت يتردد طارقا مسامعي طوال ليلتين قضيتهما في الزنزانة الاولى. وفي عام ١٩٨٠م، أي بعد عشر سنوات، التقيته في براغ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، فاستعدنا بعض الذكريات.

كان يوما صعبا عندما استدعيت للتحقيق ليلا كالعادة، ثمة صف متنوع من الوجوه المحققة القديمة، ووجوه جديدة مثلها، يتراص أصحابها كأنهم فوج عساكر، تتخللهم شلة العتاة من محترفي ممارسة التعذيب، وكانوا يصطفون وقفا كبطانة تغلف جدران قاعة كبيرة، تتوسطها طاولة صغيرة مربعة الشكل معدة للجلوس عليها، وكانت هيئة التحقيق بكامل أعضائها متواجدة إضافة إلى محمد فاضل وعلي رضا باوي، عضوي القيادة القطرية لحزب البعث والمشرفين على الهيئتين التحقيقيتين مع ناظم كزار، حيث ارتباطهم ثلاثتهم بصدام حسين، مباشرة، كونه الرئيس الفعلي للهيئتين كليهما. حضر سالم الشكرة، المكنى "أبوفرانكو"، قادمي من القبو مرتقيا بي السلم المؤدي إلى الطابق الأرضي وهو يردد على مسامعي بنبرة تهكمية (لقد ألقينا القبض على قائدكم عزيز الحاج وقد "غزّد مثل البلبل" دون أن نضربه كفا واحدا-يقصد أنه اعترف مدليا بمعلومات -فلماذا أنتم تحاولون الانكار والصمود وتحملون الضرب والتعذيب ومواجهة الموت؟). لم أصدق ما قاله معتقدا أنه يريد إيقاعي للحصول على معلومات جديدة، ولما وصلنا للقاعة الكبيرة وبعدما ولجت بابها، أجلسوني على الطاولة الصغيرة، التي تتموضع وسطها. تكلم ناظم كزار بلهجة تهكمية "ها

فياض...أنتم خلية عمالية... ولستم قيادة الجهاز الصدامي؟"، فأصابني الدهول، لأن المعلومة التي ذكرها للتوصيحية، وبينما أنا واجم لهذا الموقف الصعب، أستعرض أفكارا تدهمني، وإذا بهم يدخلون عزيز الحاج إلى الغرفة، ليفاجئه كزار "أبو سعود... من هذا؟" فأعلن الحاج اسمي ومركزي ومجالي، كأنهم أعطوه الجواب مسبقا، لأنه ليس من السهولة أن يتعرف على اللوهلة الأولى وبهذه السرعة، فكانت محاولة مقصودة منهم لإذلاله وإسقاطه من عيون رفاقه.

وكانت القيادة المركزية بعد الأشهر الأولى من تشكيلها واندماج فريق الكادر في تنظيمات القيادة قد ركزت على الجوانب النضالية المسلحة كمصداقية للشعارات التي طرحتها، ومن تلك الإجراءات تشكيل الجهاز الصدامي للمواجهة مع القوى المعادية وتصفية الساقطين المتعاونين مع الأجهزة الأمنية. وفي بداية تشكيله في أوائل عام ١٩٦٨ كان مالك منصور (رائد) عضو القيادة هو المسؤول عن هذا الجهاز وكانت لجنته القيادية تضم حاتم سجان وغسان عبد الحسين وماجد علاوي أحد عناصر فريق الكادر سابقا. وقد كانت أول عملياتهم المقررة اغتيال حازم محمد الرجب الضابط في المكتب الثاني في الأمن العامة المسؤول عن مطاردة الشيوعيين ومكافحة النشاط الشيوعي. وبعد عملية مراقبة ورصد لخط سير حازم محمد الرجب اليومي ومراقبته في الذهاب والعودة بين محل عمله في الأمن العامة وبين بيته في منطقة المشتل، وقف حاتم سجان على جسر المشتل في قناة الجيش منتظرا مرور حازم الرجب من بيته متوجها إلى مقر عمله في الأمن العامة. وما أن وصلت سيارة الفوكسواغن التي كان يقودها حازم الرجب توجه حاتم سجان بكل جرأة إلى السيارة ورمى قبلة يدوية من الشباك القريب له إلى داخل سيارة حازم محمد الرجب، ولشدة رميته خرجت من الشباك المفتوح المقابل وسقطت في القناة وانفجرت فيها. وفي تلك الفترة كان الرفيق ماجد علاوي ينسق مع الشهيد خالد أحمد زكي كي يوصله مع آخرين بسيارته إلى قاعدة العمليات المسلحة في الأهوار مع شحنة من الأسلحة، وقد سبق له أن قام بمهام مماثلة مع الشهيد خالد. وفي تاريخ 1968/٤/٤ تم اعتقال

الرفيق ماجد علاوي عضو اللجنة القيادية السابقة للجهاز الصدامي عندما كان ذاهبا الى بيت أحد الرفاق كي يصطحبه في مهمة كفاحية وقد تفاجأ ماجد بوجود كمين لرجال الأمن في بيت ذلك الرفيق حيث قاموا بإلقاء القبض عليه وإعتقاله. بعد ذلك أعيد تشكيل الجهاز وأوكلت مسؤوليته إلى الشهيد صالح العسكري (براذر) وتكونت لجنته القيادية من الرفاق حاتم سجان ومحمد كريم وفياض موزان.

كانت الهيئة التحقيقية تأتي بنا كلُّ على انفراد لكشف مراكزنا أمام حشد كبير من المحققين ومن البعثيين الذين لا نعرف هوياتهم أو مراكزهم، ممن تبدو فرحتهم عارمة لكشف أقوى تنظيم معاد لهم، ولم يكن يخطر في بالهم أن عزيز الحاج سيدلي بكل هذه المعلومات وبهذه السهولة، وهم الذين كانوا راسمين له صورة الشجاع الصلب الذي سيموت تحت التعذيب، ولن يحصلوا منه على أية معلومة! ذلك لأن ناظم كزار خصوصا مارس تعذيب الشيوعيين في النادي الأولمبي وقصر النهاية عام ١٩٦٣م، فشهد بأم عينيه موت سلام عادل سكرتير الحزب الشيوعي والعديد من قاداته تحت تعذيبه الوحشي دون أن يفرطوا بأسرار حزبهم، بل أبدوا شجاعة فائقة أمام جلاديهم حيث كانوا يشتمونهم ويصفقون بوجوههم، ناهيك عن تجربته الطويلة والسنين التي قضاها في السجون والنضال، وكونه قائدا شيوعيا -ينتهج خطا ثوريا جريئا- وضع الموت نصب عينيه، متمثلا بجيفارا، وثمة هالة البطل الرمز التي انطبع رسمها في عيون رفاقه وجماهيرهم! وها هي اعترافاته على رفاقه، في التحقيق، ثم ظهوره على شاشة التلفاز، وهو يدلي بها ثانية، طارحا آراء غريبة وتحليلات عجيبة، حيث إجاباته على أسئلة محمد سعيد الصحاف، كأنه سياسي مبتدئ ليس عزيز الحاج الذي نعرفه، كلها أصابت بالخيبة آمال الكثيرين من رفاقه وأنصاره وجماهير حزبه.

فقد علمنا ونحن في المعتقل أنه منذ الأيام الأولى لاعتقاله قدم عرضا لصدام حسين يبدى استعداداه لإصدار بيان يعترف بوطنية الحكم ويطرح إمكانية انشاء تحالف جبهوي مع البعثيين، شرط أن يسمحوا بعودة نشاط حزب القيادة المركزية، وإطلاق

سراح كل معتقله، مقرا بأنه هو المسؤول الأول عن نهج الحزب، وهو وحده من يتحمل تبعات الاعمال التي قام بها ورفاقه ولا يتحملها الآخرون، باعتباره السكرتير العام لقيادته المركزية.

ثمة زنانة كبيرة أخرى كانت تضم خليطا من المعتقلين، من مختلف الانتماءات، منهم رفيقنا أحمد علي ابراهيم، الذي كان عاملا في التنظيم الطلابي، المرتبط بالقيادة المركزية، وعدد من اليهود العراقيين، وعبد العزيز العقيلي وزير الدفاع في عهد عارف، ومدير فندق بغداد، الذي اعتقل للتحقيق معه بحادثة قتل ضابط طيار في إحدى غرف الفندق. آنذاك شرع جلادو قصر النهاية ببناء زنانات جديدة ترتصف على شكل صفيين طويلين متقابلين يفصل بينهما رواق لا يتعدى مترين، وكل زنانة -لا تتجاوز مساحتها مترين أيضا -حشروا فيها معتقلا واحدا، أو اثنين عند الضرورة والاضطرار، أحيانا، نظرا لقلّة زنازينهم وكثرة معتقليهم، ولعدم اكتمال بناء القاعة الكبيرة، وكان في الزنانتين المقابلتين لزنانتي الرفيقان هاشم نادر (أبو هندرين) وشاكر بدر الساعدي. ذات يوم تعالت فجأة أصوات في الرواق بعدها فتح السجان باب زنانتي ودفع إليها معتقلا اسمه عبدالله الكناني، شاب قصير القامة ممتلئ الجسم، مكور الرأس، وجهه يشبه طبق الطعام المستدير، في الثلاثين من عمره، يعمل موظفا في دائرة التلفزيونات، روى لي التهمة الموجهة له: (كنت جالسا في مقهى عام في أحد أحياء بغداد الشعبية أشاهد التلفاز، كان عزيز الحاج هو المتحدث عبر شاشته والصمت والوجوم قد خيم علي رواده، إن رميت إبرة على الأرض تسمع صوتها، وقد أصابهم الذهول والحيرة، وعيونهم قد تسمّرت بشاشة التلفاز، ولشدة تأثري وانفعالي بما كان يرويه عزيز، ودون انتباه ووعي مني رفعت صوتي وقلت "إن مات عزيز فهناك ألف عزيز"). أي أن الشعور والحماس هذين هما اللذان كانا منتشرين بين الناس، الذين لم يكونوا مصدقين أن المتحدث من على شاشة التلفاز هو عزيز الحاج، إنما شخص آخر، للهالة التي رسموها عنه فسادت عليهم!

لم يكن الكنانى هذا منتميا لأية جهة سياسية، بل قال كلمته هذه بعفوية الإنسان الطيب البسيط المتحمس المؤمن بأن حزب القيادة المركزية هو المخلص والمنقذ للشعب من الوضع المتردي الذي يعيشه، فيما اعتبرته الأجهزة الأمنية من المنتمين للحزب. بقي يقاسمني زنزانتى أياما، يكثر خلالها من الصلاة، وإذ يخرج للوضوء، عندما يُفتح لنا بابها للذهاب إلى دورة المياه، كان يعود منها وحين يصل باب الزنزانة يقف هنيهة ويهز برأسه وبتسم قليلا ثم يعود ثانية لها! كررها أكثر من مرة، لذا سألته "لم تبتم وتومئ برأسك وتعاود الرجوع إلى دورة المياه؟"، فأجابني "حال وصولي باب الزنزانة ينفلت مني هواء يبطل وضوئي... لذا تراني أعيده مرة أخرى"، وهنا ضحكت في داخلي (كم كان هذا الرجل طيبا وبسيطا ومخلصا يحمل بين حناياه روحا عالية الشفافية والوضوح).

وفي إحدى الليالي أصابه إسهال حاد، كان يكابر محاولا أن يحبسه في أمعائه، رغم تألمه وتأوّهه، لكن بعد أن وصل السيل الزبى فوهنت قواه وضعفت مقاومته، أمسى لا يستطيع الاصرار على المكابرة، راح ينادي على حارس بأعلى صوته متوسلا إليه وراجيا منه أن يخرجته إلى دورة المياه، لأنه لا يستطيع تحمل الوجع الكبير الذي ينتابه، فأمره الحارس بوابل من الكلمات البذيئة النابية، عثفه أمرا إياه أن يصمت ويخرس، وإن تفوه ثانية فالويل له! لكن عبد الله لم يرضخ لأمره بل استمر بطرق الباب صارخا مستنجدا بأعلى صوته، "لكن لا حياة لمن تنادي"! صار يتألم باكيا "والله سأموت... سأموت... سأموت... ياإلهي"، فحزنت عليه متألما لحاله، ولم يكن لدي غير أن اقترح عليه حلا لمشكلته وهو أن يقضي حاجته في الصحن الذي معنا والمعد لأكلنا على أن نغسله عندما يخرجوننا صباحا للحمامات، وبعد لأي رضخ لاقتراحي وتخلص من هذه المشكلة التي كادت أن تودي بحياته أو تلوث ملابسه في الأفل.

بالعودة لمجريات التحقيق: بعد اعترافات عزيز الحاج بدأ البعثيون تحقيقا جديدا حين تكشفوا أشياء جديدة قبالتهم، حيث ذكر مالك منصور عضو القيادة المركزية، أنني سلمت أسلحة إلى خالد أحمد زكي، ويبدو أن محاولة إظهار الولاء لهم هي التي

دفعته لإفشاء هذه المعلومة، التي كان الحاج أكثر علما بها منه ولم يفشها! على إثرها طلبني ناظم كزار لتحقيق جديد، وكالعادة استخدم فيه وسائله المعروفة في التعذيب لانتزاع الاعترافات، ولم يكفها عني إلا عقب أيام بعدما نلت منها الشيء الكثير. ورغم تأكيد كزار من خلال تحقيقه أنني لم أحتفظ بأي سلاح، إلا أنه ركز على الكشف عن أسلحة ربما كنت أخفيها، وفي الواقع لم أكن أمتلك سلاحا، سوى مسدس شخصي نمرة ٨ أودعته عند كمال موظف استعلامات المؤسسة العامة للأدوية التي كنت موظفا فيها آنذاك، ثم أعيد إلى عقب خروجي من السجن. وقد روى لي هذا الموظف أنه استشار أباه "هل يسلم المسدس للسلطات الامنية؟" فأشار عليه بـ "لا" لأنه أمانة يجب الحفاظ عليها وتسليمها لصاحبها، وفعلا استلمته من أبيه الذي طلب مقابلي، فوجدته يتسم بالشجاعة، لم تضعفه عن الالتزام بمبادئه آلة الموت والارهاب والقمع الهمجية القاسية، التي كانت تستخدمها الأجهزة الأمنية ضد العراقيين، ولم تؤثر على معنوياته أو تقلل من عزيمته، فحافظ على الخصال الجريئة التي كان يتمتع بها.

إثر صدور قرار من المكتب السياسي للقيادة المركزية بأن ندعم القواعد المسلحة في الأهوار، والتي شرع في تأسيسها تنظيم "فريق الكادر" عقب انضمامه للقيادة هذه، تم إكمال الاستعدادات ليلتحق بها الرفاق المقاتلون بعد تهيئة إعدادهم واستكمال تسليحهم وبقية الأمور اللوجستية الأخرى، فصار الرفيق خالد أحمد زكي (ظافر) على رأس هذا العمل ليقود عمليات الكفاح المسلح ضد السلطة الحاكمة على غرار (البؤرة الثورية) لتشي جيفارا في بوليفيا وقبلها لفيدل كاسترو في جبال سييرا الكوبية، حيث معظم الحركات الثائرة آنذاك متأثرة بأفكارهما المعتمدة أساليب حرب العصابات في النضال الوطني، وقد سلمته بندقية في كيس من الجوت بموعد متفق عليه في الشارع الخلفي المحاذي لحديقة الشعب التي أنشئت عام ١٩٦٠م قرب ساحة الفتح في الكرادة الشرقية. كان الرفيق خالد أحمد زكي قد ترك منصبه في بريطانيا، كسكرتير لمؤسسة الفيلسوف البريطاني وداعية السلام العالمي برتراند رسل، وشد الرحال إلى وطنه العراق، فالتحق بصفوف الحزب الشيوعي ثم خرج عنه مع مجموعة

الكادر منضما للقيادة المركزية، حيث توجه إلى ريف الجنوب متخذاً منه منطلقاً لإسقاط السلطة الظالمة القائمة وإقامة النظام العادل البديل الذي يعمل من أجل الطبقة الاجتماعية الفقيرة المحرومة وتحقيق رغبتها بحياة كريمة. رافقت ذلك، معززة إياه، بيانات حماسية ثورية تصدرها القيادة المركزية، توحى بأننا أمام ثورة هي قاب قوسين أو أدنى من استلام الحكم، ما أثار القلق والخوف عند القوى المعادية للحركة اليسارية، خصوصاً أن أجواء تلك المرحلة كانت تغلي بالأفكار الحماسية الثورية، بعد اليأس الذي أصاب العراقيين جراء عدم جدوى الأساليب النضالية السلمية التي اتبعتها الأحزاب الوطنية، التي ستحدث فيها تحولات كبيرة، فكان انشقاق حزب القيادة المركزية عن الحزب الشيوعي العراقي، وانشطار حزب البعث إلى "يسار" و"يمين"، وانسلاخ الحركة الاشتراكية العربية عن حركة القوميين العرب، وخروج ابراهيم أحمد وجلال الطالباني عن الحزب الديمقراطي الكردستاني، الذي كان يقوده الملا مصطفى البرزاني، ليشكلا لاحقاً حزب الاتحاد الوطني الكردستاني. أي "إن الخطة الكفاحية التي اعتمدها القيادة المركزية تحت عنوان (الكفاح المسلح) تختلف عن التجارب المذكورة في أنها تقرن العمل المسلح في الأهوار والريف بالعمل الجماهيري السلمي في المدن، والنشاط المسلح في كردستان، والعمل الحزبي السري داخل القوات المسلحة... فيما كنا نرى أن وجود حزب ثوري متين شرط للشروع بالكفاح المسلح وقيادته وإنجاحه". (٨٩)

إذن... عندما التحق (جماعة فريق الكادر) بالقيادة المركزية أصبح الرفيق خالد أحمد زكي مرشحاً لها ومسؤولاً عن قيادة حركة الأهوار وتنظيمها على أسس جديدة، لكن يبدو لي أن لا زكي ولا قيادتنا قد أتما دراسة موضوعية ملمة وناضجة لتوازن القوى وللمكان المناسب الذي يجب أن تنطلق منه الحركة! فقد ابتدأ زكي انطلاقته المسلحة من منطقة (هور الغموكة) رغم أنها غير ملائمة استراتيجياً، وهذا ما ثبت لاحقاً، بالإضافة لضعف الإمكانيات اللوجستية وشحة الموارد المالية وضعف المساندة

(٨٩) عزيز الحاج -حدث بين النهريين -ص ٤٧.

من المناطق التي تحيط بالأهوار. أي أنه خالف بذلك ما كان يدعو إليه، هو ذاته، حيث تصريحه "بضرورة دراسة الوضع الجغرافي للعراق ودراسة الظروف المحلية في كل منطقة، وإكمال مقتضيات ومتطلبات انطلاق عمل الكفاح الشعبي المسلح وضرورة الاعتماد على النفس وتقييم مدى مساندة سكان البيئة الحاضنة لمثل هذا النوع من النضال!" ورغم ذلك أقدمت وحدة الكفاح المسلح على عملها وهي لا تمتلك سوى أسلحة ضئيلة جدا فضلا عن كونها بلا مؤونة احتياطية، مع أنها استطاعت اقتحام ربية للشرطة فأسرت جميع أفرادها دون خسائر، ثم اندفعت لاحتلال مركز الشرطة في المنطقة القريبة من ناحية الدواية في قضاء الشطرة متمكنة بنجاح تام من أسر كل أفرادها والاستيلاء على أسلحتهم التي قدرت بخمسين قطعة. وقد قام ثوار هذه الوحدة بشرح أهداف حركتهم لهؤلاء الأفراد، فأخبروهم بأن الحركة لا تعادي الشرطيين والجنود من الطبقات الفقيرة، وأن هدفها تحرير البلد من حكم العملاء والرجعيين، وضمان الأرض للفلاحين، وإنفاق موارد العراق الكبيرة لإسعاد الشعب بدلاً من تسخيرها لمحاربة الكرد المطالبين بحقوقهم القومية المشروعة. ثم حاولوا أن ينسحبوا إلى أهوارهم، ومعهم جميع الأسلحة المستولى عليها، لكنهم ضلوا طريق العودة، لكون مناطقه شبه معزولة عن الأهوار الرئيسية، وبعد يومين من التخبط فيه عادوا للانسحاب من نفس الممر المائي الذي جرت فيه عملياتهم، فتعرضوا للانكشاف أمام قوة شرطة فتحت عليهم النار، ليردوا عليها ويقاوموها بعدما تزلجوا من زوارقهم إلى الأرض اليابسة، لكن سرعان ما وصلت قوات كبيرة من الجيش والشرطة، مع عدد كبير من الآليات والدبابات البرمائية فضلا عن طائرة مروحية، قدرت بأكثر من ألف جندي وشرطي، مقابلهم وهم اثنا عشر فقط، وضمت سريتين من مغاوير اللواء الخامس عشر للفرقة الأولى. لهذا كانت المعركة بينهما غير متكافئة، لكن الثوار أبدوا مقاومة نادرة: شراسة وشجاعة وبطلة وطويلة، حتى نفذ عتادهم، فاستشهد الرفاق خالد أحمد زكي، منعر سوادبي، محسن حوَّاس، وعبد الجبار على الجبر، الذي فقد كفا له وهو يعيد كذف رمانة يدوية رميت عليهم، وجرح ثلاثة رفاق، وأسر آخرون، صدرت بحقهم أحكام إعدام لم تنفذ نظرا للسخط الشعبي

الكبير وتدخل الرأي العام عربيا وعالميا، فيما خسر "الحكوميون" ستة قتلى وأكثر من عشرين جريحاً إضافة لإسقاط طائرتهم المروحية.

بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨م وسقوط حكم عبد الرحمن عارف، كان مناضلون من القيادة المركزية، سواء مشاركون في هذه الحركة أو غيرها، ما زالوا محتجزين في السجون، وأطلق سراح غالبيتهم العظمى بعد العفو العام عن السجناء والموقوفين الشيوعيين بعد الشهر الأول للإنقلاب. وبعدها بشهرين أو ثلاثة بدأت حملة اعتقالات للكوادر القيادية، وفي مطلع عام ١٩٦٩م، إثر حملة الاعتقالات تم نقل المتبقين من الموقوفين الذين لم يطلق سراحهم ونقلوا إلى سجن بعقوبة على إثر محاولة هروبهم بحفر نفق، نقلوا إلى معتقل قصر النهاية.

لنعد إلى الجهاز الصدامي: لم تكن هيكليته وتركيبته هرميتين كما هو الحال مع التنظيم المدني، بل كان خيطيا على غرار التنظيم العسكري "خط هاشم" في الحزب الشيوعي العراقي، لأغراض الصيانة، حيث سرية العمل وسلامته، ولكيلا يقع كله بيد العدو إثر كشف قد يقوم به بعض أعضائه، الذين كان عدد المعتقلين منهم في قصر النهاية لا يتجاوز خمسة عشر معتقلا من العدد الاجمالي لمعتقليه والذي بلغ نحو ثلاثمائة معتقل.

كان الرفيق صباح حسين خِصاف البهادلي "صباح صاروخ" معنا في حزب القيادة المركزية منتسبا للجهاز هذا، فاعتقل في الـ "قصر"! لم ألتقه أو أشاهده فيه، ولو علمت حينذاك باعتقاله لأُسميت خائفا قلقا على حياته لمعرفتي الجيدة بعناده وإصراره و"خبله"، لكنني سأعلم لاحقا بأنه لم يعترف أمام المحققين، تخطرني عملية قام بها الجهاز الصدامي لم يتم التطرق لها، أو يرد ذكرها، وهي عملية نوعية، استهدفت ادارة مديرية الامن العامة، حصلت هذه العملية في الربع الاول من عام ١٩٦٨م، و هي من العمليات التي شرع الجهاز بتنفيذها، وقد قام بادخال متفجرة الى مديرية الامن العامة في بارك السعدون، ووضعها في غرفة مدير امن "الشعبة

الاولى" المختصة بمتابعة الشيوعيين، و قد تمت العملية بترتيب مع الرفيق جبار عبدالحسين الجنابي الذي كان يمتلك مطعما في شارع النضال قرب مبنى المديرية العامة للأمن في منطقة بارك السعدون، (مطعم البهو الان)، كان المطعم يلبي ضباط مديرية الامن العامة و منتسبيها بما يطلبوه من وجبات اكل من المطعم، و بعد وصول هذه المعلومة لنا، تم استغلالها والتهيئة لها، و قام الرفيق صباح حسين بصنعها و اعدادها و تهيئتها بحكم خبرته في هذا المجال ، و تم ايصال هذه العبوة المتفجرة بواسطة رفيقين لنا كانا يعملان في المطعم هما عدنان غضبان (أبو نعم) و غلام عباس العباسي كان عملهما في المطعم ايصال الطلبات الى الزبائن ومنهم موظفو مديرية الامن في السعدون، و بعد أن عرفا مكتب محمد صالح مسؤول المكتب الثاني والذي من أعضائه حازم محمد الرجب الذي رمى . وضع غلام عباس العبوة المتفجرة في غرفة محمد صالح وتحت فراشه، وكان الاتفاق ان يتركا المطعم ويختفيا بعد أن يضعا المتفجرة في غرفة ضابط الامن المذكور غير أنه سمع تكتكة ساعة توقيتها عند تواجده في الغرفة، فسارع بالأمر برميها في حوض ماء صغير موجود في وسط بناية الأمن العامة وانفجرت فيه. وعلى أثرها اعتقل عمال المطعم للتحقيق معهم، كذلك اعتقل رفيقنا جبار الجنابي باعتباره صاحب المطعم، والمسؤول عن العاملين الذين من خلالهم تم ايصال ووضع العبوة في مديرية الامن، وقد تحمل ما لا يطلق من التعذيب، الا انه بقي صامدا ولم يبح بأية معلومة، وخرج من السجن بحالة يرثى لها، من الذهول والمعاناة والسقم واعتلال صحته، ولم يمض عليه وقت طويل حتى وافاه الاجل، بسبب تلك المعاناة، أما غلام عباس فقد تم اعتقاله لاحقا والحكم عليه بالسجن أربعة أعوام.

كنت أعلم أن حزبنا قد استأجر بيتا في منطقة الأمين، بواسطة رفيقنا عبد جاسم الساعدي، سكنه صباح ووالدته واثنان من رفاقنا الكرد أحدهم مصطفى جاورش الذي أصبح بعد نيسان ٢٠٠٣م قائدا للبيشمركة في المناطق التي يسطير عليها الاتحاد الوطني في الإقليم بعدما ترك العمل ضمن صفوف حزبنا والتحق بحزب الاتحاد

الوطني الكردستاني منتصف السبعينيات ليصير أحد قاداته البارزين! وقد وردت معلومات مفادها أن هناك مدهامة للبيت من قوى أمنية، فحاولوا الخروج منه تباعا، حيث حدث اشتباك مسلح بينهم وبين هذه القوى الأمنية استطاعوا بعده الافلات من قبضتها.

وصباح حسين هذا، قبل ذلك كله، هو زميل دراستي المتوسطة، ورفيقي في الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٥٨م ومن ثم حزب القيادة المركزية وجهازها الصدامي، تربطني به صداقة شفافة جميلة، تعود إلى مطلع الخمسينيات، حيث كنا قرييين لبعضنا، أكثر الاوقات، نلتقي، نتحدث، نسهر، ونطالع الكتب. له أخوان أكبر منه عمرا، الأول هو جاسم: طباح ماهر "شيف" هادئ الطبع بعيد عن السياسة، ينصحنا بالابتعاد عنها لأنها لا تجلب غير الأذية و"دوخة الراس"، ذو ثلاثة أولاد هم نصيف، مصطفى "دكتوراه إعلام وأستاذ في الجامعة المستنصرية"، صادق، تشاء الصدق أن التقى أولهم "نصيف" بعد أكثر من أربعين عاما، فوجده مهندسا وباحثا وكاتبا متميزا، أما الثاني فهو فليح: له ولدان حسن وعادل، كان عكس أخيه جاسم، متوتر حاد الطبع، مزاجي في بعض الاحيان يمتلك محلا لكي الملابس، كثيرا ما كنا نلتقي فيه، حيث وقوعه عند الشارع المتقاطع مع شارعنا في محلة بارك السعدون بجوار بيت سيد ياسر الغربان، لنجد كأس العرق "المستكي" منتصبا على طاولة لصيقة بطاولة الكي، ليضفي عليه هالة الاحترام والتبجيل ويضعه في المقام الكبير الذي يليق به وعندما نسأله عن سر ذلك، يجيبنا "إنها عشيقتي أنتشي بها عندما تلامس شفاهي ذؤابات كأسها، وإني أحسيتها لأسباب عديدة منها، أنني أنتشي بها، وتفرح قلبي، وتعطيني طاقة ومواصلة على العمل في المحل، يبعدي عن ما يدور حوالي من شواذ وأخطاء وتجاوزات يرتكبها البشر الظالم القاسي، ولتبقى أفكارني التي أحملها والمؤمن بها حرة طليقة لا قيود تحددها أو جدران تحبسها قد يراها الآخرون غريبة عنهم ولا يتقبلونها". وقد اعتقل معي في ٩ شباط ١٩٦٣م، فأدخلنا سوية إلى مديرية الأمن العامة نقلنا بعدها إلى معتقل معسكر الرشيد، ورغم أنه نال قسطا وافرا من التعذيب والإهانة، كان صلبا

شجاعا، عنيدا، جريئا، لا يخاف أو يهاب في طرح ما يعتقد وما هو مؤمن به، ويبدو أنها خصلة يشاركه بها أخوه صباح، ثم قيض لي أن التقى ابنه البكر حسن بذات الفترة التي التقيت خلالها ابن عمه نصيف جاسم، وهو الآن من رجال الأعمال الناجحين في العراق وأراه يحمل الصفات التي كان يحملها أبوه الراحل فليح.

كنت أمازح صباح حسين تلك الأيام، فأردد على سماعه: يقال عنكم "مخابيل" أنتم عشيرة البهادل، ليجبيني مبتسما (ما تقوله صحيح إلا أن "خبلي" أنا من نوع آخر ينحو منحى العلم والفكر والتأمل والابداع وتقديم ما هو مفيد للبشرية، ولا أخالك بعد هذا الايضاح تتهمني وتضعني في خانة "المخابيل"). كان زميل دراستي في المتوسطة النظامية مطلع الخمسينيات، من القرن المنصرم، ألمعي يتقد ذكاء، ذو ذاكرة حية، يدخل أي امتحان معتمدا على ما يسمعه من محاضرة الاستاذ دون أن يدونها كي يعود لمراجعتها، ورغم ذلك يبقى متفوقا علينا نحن الذين نهلك أنفسنا بمراجعة دروسنا عند الامتحانات، وكان نهما بالقراءة، يجهد بالحصول على الكتب والمجلات، عازما بحرص على شراء مجلتين لبنانيتين دوريتين هما "العلوم" لفؤاد صرّوف و "الآداب" لسهيل ادريس، ومجلة المختار "ريدرز دايجست" يقتطع أثمانها من مصروفه اليومي، ولا يبخل باعارتهما لأصدقائه، فكان منكبا على قراءة كتب ومجلات علمية بنفس الحماسة التي يقرأ فيها كتباً ومجلات أدبية، وكنا نستفيد نحن زملاءه وأصدقاءه من قراءته، سيما أن الجو الفكري حينذاك إيجابي منفتح على العالم، وآخر النظريات، فهو يقرأ الفكر الماركسي، دارسا متمعنا متأملا متعمقا فيه، والفكر الوجودي حيث رواه أمثال: جان بول سارتر / البيركامو / كولن ولسون، سابحا أكثر منا في هذه الفضاءات التي اعتبرناها آنذاك أفكارا جريئة خارجة عن المألوف، ومخالفة في بعض جوانبها للنظرية الماركسية التي كنا نتعلمها عبر قراءتنا الذاتية، ونفهمها من خلال الحلقات التثقيفية للحزب.

لم يقيض لي أن ألتقيه بعد خروجي من معتقل قصر النهاية، لأنني عقب أيام قلائل معدودات غادرت إلى الكويت، بعيدا عن الوطن مدة عشرين عاما، ما استطعت

خلالها حتى حضور مجلسي عزاء أمي وأبي! علمت مؤخرا أنه راح ضحية دهس في الثمانينيات، ولاغرو في ذلك... فهي إحدى وسائل نظام صدام حسين للتخلص من خصومه، وهي لا تبتعد كثيرا عن الطرق التي غيّب بها ستار خضير ومحمد الخضري وصباح الدرة، والكثير بمن فيهم بعض قادة حزب البعث.

وبهذا نكون قد خسرنا شخصية ألمعية خارقة الذكاء، كان من الممكن أن يكون لها شأن وأثر في مسيرة العراق، لو أتيح لها أن تعيش في أجواء الحرية والأمان والاستقرار، كي تترك بصمة من بعدها. نعم... لقد خسرناه نحن رفاقه، كما خسره وطنه وخسر آخرين أمثاله، وإذ أطلت السرد عنه فليقين عندي بأنه شخص متميز لم تنصفه الظروف، ولا الحركة اليسارية، ولم تعطه حقه من التعريف، فبات لزاما علينا أن نذكره ونسهب في تعداد مآثره.

كذلك اعتقل أمين حسين علي الخيون "أبو جماهير" فزج به في معتقل قصر النهاية، وهو رجل نحيف متوسط القامة، يفرق شعر رأسه الجميل ويصفه باتجاه صدغه، شجاع، جسور وصلب رغم هول التعذيب وسطوته وقسوة السجن وظلمه، وعتوّ السجانين وانتهاكاتهم وما يلقونه على مسامعه من كلام، فلم يؤثر كل هذا الجو المسموم على معنوياته فتراه مبتسما دائما، يلقي بنكاته علينا ويظهر استهزاء بهم. عندما يخرجوننا إلى الباحة الخارجية لنتمشى سوية كان يمازحني قائلا: "نحن من بنى حجر الزاوية في الكفاح المسلح ونحن المؤسسون، وأنتم من سطا عليه وانتحل اسمه". كانوا يأخذوننا للاستحمام حيث الجو بارد في كانون الثاني وشباط، فكان يغتسل بالماء البارد، ونحسده على ذلك لأننا لم نكن قادرين على الصمود تحت برودته. كان من العاملين الناشطين في منظمات الحزب في البصرة عامي ١٩٥٨-١٩٥٩م، ثم شارك في المقاومة بوجه انقلاب ١٩٦٣م في الكاظمية -بغداد، حيث قام مع رفاقه باحتلال مركز الشرطة هناك، واستولوا على أسلحة قاوموا بها الحرس القومي ودبابات الانقلاب. كما كان مؤمنا بأفكار جيفارا، فأسس عندما كان مع فريق الكادر "نواة" لقاعدة في أهوار الجبايش في الناصرية واستمر في تلك القاعدة بعد اختلافه

مع فريق الكادر وتركه إياه وتأسيسه ل "منظمة الكفاح المسلح"، حيث أنه ابن منطقة الجبايش وعارف بطبيعتها الجغرافية، لخوض حرب عصابات فيها باعتبارها مستنقعات مائية، يتخللها القصب تصعب على السلطات الحكومية اقتحامها، أي أنها ملاذ آمن له ولرفاقه يستطيعون الانطلاق منه إلى مدن قريبة تساندهم جماهيرها لإسقاط الحكومة المركزية حسب تخطيطه. وقد أعتقل في شهر آذار ١٩٦٨ في أيام حكم عبد الرحمن عارف أثناء محاولته تنفيذ عملية استيلاء على نقود حكومية لتمويل منظمته، حيث وشى به أحد العناصر الذي كان معه في القاعدة وتركها قبل تنفيذ العملية التي ألقى القبض فيها على أمين الخيون.

وكان أمين من الموقوفين الذين لم يشملهم العفو العام الذي أعلنه البعثيون بعد ١٧ - ٣٠ تموز-١٩٦٨، واستمر موقوفاً في الموقف العام مع موقوفين من أعضاء القيادة المركزية كانت علاقته بهم جيدة جداً رغم الاختلاف التنظيمي بينهم. وقد ساعدته منظمة القيادة المركزية في الموقف العام عندما خطط للهروب بمساعدة أحد الموقوفين الأكراد من كوادر الحزب الديمقراطي الكردستاني، الذي كانت له علاقة بحارس كردي من حراس السجن سهل لهم استنساخ مفتاح باب القلعة الخامسة في الموقف. وقد تم تنفيذ عملية الهروب بمساعدة مباشرة وتغطية من مسؤول منظمة الموقف آنذاك ماجد علاوي، وللمفارقة لم يتمكن الموقوف الكردي من الهرب معه لعجزه عن تسلق جدار السجن الذي استطاع أمين الخيون تسلقه بخفة ونزل إلى الشارع في منطقة باب المعظم واختفى وواصل العمل السري ولم يعتقل إلا حوالي شهر آذار عام ١٩٦٩.

وبعد مرور بضعة أعوام على فشل عملية الاستيلاء على النقود واعتقال أمين الخيون ومن ثم هربه واعتقاله ثانية، وخروجه من معتقل قصر النهاية، تم اغتياله في ٢٦ حزيران ١٩٧٢م، وأعدمت زوجته بعد ذلك، ليصل الإعدام إلى ابنهما "جماهير" عام ١٩٨٩م وفق قرار من محكمة الثورة برئاسة عواد حمد البندر.

كانت اللجنة التحقيقية في قصر النهاية، عقب انقلاب تموز ١٩٦٨م، ذات هئئتين:

- **الأولى** يرأسها ويشرف عليها العقيد سامي خليل، مسؤولة عن "الجواسيس والعملاء"، يعاونه فيها حامد الورد التميمي، الذي أعدمه صدام حسين خلال الثمانينيات برتبة لواء في الجيش، ومؤيد العبيدي، وآخرون.

- **الثانية** يرأسها ويشرف عليها ناظم كزار، مهمتها التحقيق مع السياسيين المعارضين، تضم: صباح ميرزا، الذي أصبح بعدئذ مرافقا لصدام عندما كان نائبا للبكر ثم مرافقه الأقدم فترة رئاسته، وحسن المطيري، وناصر فنجان، وسالم الشكره "الذي كان أكثرهم حقدا على الشيوعيين لأنه شقيق "فاضل الشكرة" أحد قادة حركة الشواف في الموصل عام ١٩٥٩ حيث قتل أبانها، وجاسم حميدي، وصباح بدن، وعرمش عرمود، المكنى "أبو أحلام"، والملازمين باسم وفارس، من الموصل، والملازم فاروق، وسعدي العظيم، في السابعة عشرة من عمره -قصير القامة ضعيف البنية على خده الأيسر علامة يطلق عليها "الأخت البغدادية" - من سكنة الأعظمية... بذيء في معاملته للمعتقلين لا يتوانى عن إهانة كبار السن منهم، فضلا عن آخرين، وكانت مهمتهم مدهامة الشيوعيين واعتقالهم إضافة لممارسة أعتى أساليب تعذيبهم.

في بداية الأمر كانت الهيئتان معا داخل قصر النهاية، كذلك زنانات الاعتقال حيث يُجمع فيها ما بين المعتقلين أحيانا، رغم اختلاف انتماءاتهم والتهمة الموجهة لهم، لقلتها وكثرتهم. مثلا... كانت زنانة واحدة مساحتها لا تزيد عن عشرين مترا مربعا يحشر فيها ستون معتقلا، يتنفسون من شباك واحد، أو بالأحرى من فتحة بأبعاد ثلاثين في ٢٠ سنتمرا أعلى الباب، لذا كانت تحصل لنا إغماءات كثيرة من شدة الحر رغم أننا في فصل الشتاء! وبعد ما يزيد على أربعة أشهر فَرَّق بين الهيئتين، فارتبطت أولاهما بجهاز المخابرات وأخراهما بمديرية الأمن العامة، ولكوني محسوبا على السياسيين المعارضين للحكم، أو "المعادين" له، صرت وأمثالي من نصيب الهيئة الثانية التي يرأسها ناظم كزار، صاحب الخبرة العريقة في التحقيق والتعذيب، الجلاد

المعروف منذ انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م (من مفارقات القدر أنه مات بنفس الطريقة، التي استخدمها مع خصومه، حيث أعدم بعد ما عذب كثيرا بقسوة)! وقد استهل ممارسته تعذيبنا بوسائل بدائية، بدأت من تعليقنا بحامل مروحة سقفية عبر حبل يسحب باليد، وتطورت هذه الوسيلة لتستخدم عتلة ميكانيكية تدار بعجلة مسننة، ثم بمحرك كهربائي، بعدها أضيفت لها تباعا وسائل متطورة أخرى، من كامشات ضاغطة للرأس، وآلات لتكسير أصابع الأيدي والأرجل، إلى الرعد الكهربائي، وأحواض الأسيد التي يذيبون بها الجثث. وكنا نسمع أن عناصره تعلموا أساليب التحقيق والتعذيب على يد شرطة ألمانيا الديمقراطية عبر دورات تعليمية في معهد التطوير الأمني في منطقة المسبح على ضفة دجلة.

كان يشرف على الهيئتين اثنان من القياديين هما محمد فاضل (عضو القيادة القطرية لحزب البعث)، الذي أعدم أواخر السبعينيات، وعلي رضا باوي، الذي أصبح فيما بعد صاحب مخبز في إحدى ضواحي بغداد ثم هاجر إلى السويد، لكنهما تحت إشراف صدام حسين شخصيا. الذي زار قصر النهاية مرة وحيدة في أيار ١٩٦٩م، فجمعونا في باحة المعتقل المكشوفة وأجلسونا على الأرض قبل مجيئه، دون علمنا بمن هو الزائر، وحين وصل مكاننا، يرافقه صباح ميرزا، خاطبنا متسائلا "هل نجلس معكم على الأرض جلسة شعبية أم برجوازية؟"، وكان أفراد حمايته منهمكين بإحضار كرسي له، حينها، ولم تكد تخرج كلمة "برجوازية" من فمه حتى كان جالسا عليه، وقد وقف جنب كرسيه عزيز الحاج! تحدث الينا عن الوطنية والاستعمار والخندق المشترك الذي يجمعنا للنضال سوية ضد "الامبريالية" وعن العلاقة بالمعسكر الاشتراكي، ثم أقسم لنا "بشرفي الحزبي بشرف العقيدة سيطلق سراحكم كلكم بعد ايام قليلة"! كانت مناسبة ١٧-٣٠ تموز قريبة، أطلق بعدها سراح المعتقلين، ولم يبق منهم إلا أعضاء جهازنا الصدامي، بعد تصفية رفيقيهم صالح العسكري وحاتم سجان في المعتقل، وهم كل من (محمد كريم، سلمان محسن، إبراهيم اسماعيل، قاسم مريسن، صاحب عبد

الأمير، عادل فرنسيس، فياض موزان)، كذلك بقي أمين الخيون، حيث قضينا في معتقلنا سنة ونصف قبل أن يطلق سراحنا.

عادت بي الذاكرة للأيام التي سبقت هذه الزيارة، حيث التحقيق معي باعتباري أحد أعضاء قيادة الجهاز الصدامي المركزي والمسؤول عن تلقي المعلومات وطريقة وصولها إلينا. لقد توفرت لدينا معلومات مفصلة عن ناظم كزار وصادم حسين، لأنهما كانا هدفين لنشاطنا المسلح، لم يعرف مصدرها إلا أنا ورفيقتنا نرجس الصفار، والرفيق عزيز الحاج سكرتير "القيادة المركزية" الذي يبدو أنه لم يذكر شيئاً عنها أثناء تحقيقهم معه. وكانت هذه الرفيقة، وهي زوجة رفيقنا الشهيد جمال الحيدري وأخت الرفيقتين كاظم وعواد الذي استشهد في انتفاضة ١٩٥٦ وأم الشهيد فاضل، حلقة الوصل بين جهازنا والسكرتير لإيصال معلومات تتم عبر الخط النسائي الذي تقوده، وقد نلت قسماً كبيراً من التعذيب كي أقر بمصدرها.

كنا نحن التنظيم الأول الذي شرعوا في اعتقاله بسبب سياستنا المناهضة للنظام الحاكم والمطالبة بإسقاطه رغم محاولات البكر وصادم لعقد صفقة تفاهم مع حزب القيادة المركزية والاتفاق على المشاركة في الحكم. لم يكن لحزبنا أدنى ثقة بصدق نواياهم رغم ما يطرحونه من أفكار، عبر حملة اعلامية ضخمة، جعلوها شعارات لمحاربة الاستعمار، وإرساء علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتي، وبلدان المعسكر الاشتراكي، والبلدان ذات الأنظمة الوطنية التقدمية، والاعتراف بألمانيا الديمقراطية، ليثبتوا أنهم غيروا من نهجهم وسلوكهم، وأصبحوا يتبعون سياسة جديدة مختلفة عن سابقتها، التي مارسوها إثر انقلاب شباط ١٩٦٣م، مطالبين القوى المعارضة لهم بالتخلي عن رفع شعار إسقاط الحكم. كانت محاولاتهم هذه ضمن أجواء سبقت حملة اعتقالنا، لكن بعدما اعتقلوا كل قياداتنا ومعظم كوادرنا، فأمسينا جميعنا رهناً للاعتقال، لم يعودوا بحاجة إليها، حيث ما عاد تنظيمنا يشكل خطراً عليهم، وبعد اعتقال عزيز الحاج وبدء التحقيق معه طرح عليهم استعداده لإصدار بيان باسم القيادة المركزية يعترف فيه بوطنية حكمهم ويسقط شعار مطالبته بالإسقاط، ورغبة

حزبه للدخول معهم في جبهة وطنية شرط أن يطلق سراح كافة المعتقلين من تنظيماته وأن يعاود نشاطه العلني بإعادة جمعها. وفعلا كتب مسودة البيان وعرضه عليهم، لتتم مصادقتهم عليه وإعلانه. يذكر عزيز الحاج -في مذكراته- أن السبب في عدم إعلان البيان: "أن الأمور كانت سائرة باتجاه إعلان البيان، إلا أنها تغيرت فجأة بعد أن أوصل بيتر يوسف معلومة لهيئة التحقيق بأن عزيز الحاج له علاقات تجسس مع أحد أجهزة المخابرات الأجنبية، ومنذ تلك اللحظة تغيرت معاملتهم لي كليا وخضعت لتعذيب قاس وسوء معاملة لمعرفة تفاصيل تلك العلاقة المزعومة، ولم يتوقف ذلك إلا بعد أن اقتنعوا ببطلان تلك التهمة". لقد كان العداء واضحا بين عزيز وبيتر وكانا يتنافسان بالإستخذاء لهيئة التحقيق وكان بيتر أكثر اندفاعا وخنوعا من عزيز، وربما كان كره وعداء بيتر لعزيز أن الأخير هومن وشي به وأدلهم على مكان إختفائه لأنه الوحيد الذي يعرف مكانه كما يدعي بيتر، وربما كان من أسباب كره بيتر لعزيز ان صدام حسين وقيادة حزب البعث وناظم كزار وهيئة التحقيق كانوا يعيرون إهتماما كبيرا لعزيز في الوقت الذي أهملوا فيه بيتر مما حدي به أن ينحدر أكثر في خدمتهم. أما ما يذكره عزيز من أنه **خضع لتعذيب قاسٍ وسوء معاملة** - كما أدعى- فلم ألاحظ ذلك عليه حيث كنا معا في معتقل قصر النهاية في تلك الفترة، ولكن وبغض النظر عما أورده عزيز الحاج فلا أعتقد أن ذلك كان هو السبب من وراء رفضهم فكرة البيان، إذ يبدو أنهم لم يقتنعوا أن هناك سببا أو فائدة ترتجى من إعلانه، خصوصا بعدما أسقطو عزيز سياسيا من خلال مقابلة تلفزيونية أجراها محمد الصحف معه شاهدها العراقيون، وأخرى صحفية لمجلة الصياد اللبنانية أجراها طلال سلمان معه ومع بعض أعضاء القيادة المركزية، والسبب الآخر المهم هو أن رموز التنظيم وقياداته ولجانه الأساسية الهامة واللجان المتفرعة عنها، جميعها أصبحت في المعتقل، بينما هم مستمرين بحملتهم في مطاردة وإعتقال من بقي من التنظيمات طليقا خارج المعتقل فلماذا القبول بمغامرة غير محسوبة النتائج؟ لذا كان قرارهم الاستمرار بتصفية تنظيمنا، والعمل قدر الامكان على تجنيد قياديه وكوادره للتعاون معهم

وبإمّرتهم، وهذا ما حصل فعلا، فقد تم إجبار البعض منهم على قبول وظائف في الدولة ليكونوا تحت نظرهم، فيما بعضهم الآخر تعاون وإياهم إراديا!

لقد كان معتقلونا من لجنة القيادة المركزية ومكتبها السياسي: عزيز الحاج، كاظم الصفار، حميد الصافي، أحمد الحلاق، متي هندي، مالك منصور، خضير عباس، ومسؤول التنظيم المركزي بيتر يوسف، وهمام عبد الغني، ومن قيادة الجهاز الصدامي المركزي: صالح العسكري، حاتم سجان، محمد كريم، وفياض موزان، ومسؤول التنظيم العسكري سامي أحمد، فضلا عن معظم قيادات المناطق واللجان الأخرى إلى مستوى لجنة متفرعة، أي أن أكثر رفاق الهيكل القيادي الأساسي للحزب كانوا في المعتقل، ما يعني استمرار البعثيين بتصفية التنظيم جسديا، وأنهم منذ البداية لم يضعوا في تصورهم إقامة تحالف حقيقي استراتيجي معنا. نعم... كان الحوار وقتها دائرا بينهم وبين "اللجنة المركزية" لإنشاء "الجبهة الوطنية والقومية التقدمية"، كما استقر على تسميتها لاحقا، لكن يبدو أن تقديراتها لطبيعة حكمهم وقياداته واستشرافها لنهجه الجديد وسياسته كانت قاصرة ولم تكن بعيدة وثاقبة النظر لما كان يخططون له وما عرف عنهم من الانقلاب السريع على الحليف. فأوقعوها في الشرك الذي كانوا قد نصبوه لها، مستغلين خلافها القائم مع حزبنا، وتخليها عن رفاقها الشيوعيين من تنظيماته، وهم قابعون في السجون، وعدم استنكارها لما كان يمارس تجاههم من اعتقالات وتصفيات جسدية، مكتفية بالشماتة بهم وتوجيه اللوم لهم وانتقادهم ونعتهم بالانتهازية واتهامهم بخيانة الشيوعية، حتى أنها لم تدافع عنهم كمعتقلين سياسيين ولو من باب حقوق الانسان!

وهذه قائمة بأسماء أعضاء القيادة المركزية، ومراكزهم وأسمائهم الصريحة والحزبية، التي إنكشفت إثر الإعترافات التي تمت في قصر النهاية عام ١٩٦٩، ويتضح من ذلك كم كان الوضع مأساويا وصادما بسبب سعة الإعترافات والكشف الواسع والكبير لقيادات الحزب والذي أدى إلى إعتقال حوالي ٣٣٠ عضواً معظمهم كان من الهيئات القيادية من اللجان المتفرعة واللجان التابعة، التي تم التركيز عليها،

والإكتفاء بإعتقالها، دون أن تمتد الإعتقالات إلى الخلايا لسعتها ولكثرة أعداد أعضائها، وقد ضمت قائمة الهيئات القيادية كلا من :

- ١-عزیز الحاج علي حيدر (رمزي ثم مراد) السكرتير.
- ٢-كاظم رضا الصفار (شجاع) المشرف على لجنة منطقة بغداد، عضو المكتب السياسي.
- ٣-حميد خضر الصافي (سعيد) المشرف على لجنة العلاقات ومسؤول جهاز الطباعة، عضو المكتب السياسي.
- ٤-أحمد محمد الحلاق (صدقي) المشرف على الجهاز الصدامي والخط العسكري، عضو المكتب السياسي.
- ٥-متي هندو هندي (خالد) -عضو المكتب السياسي.
- ٦-بيتر يوسف (صدام) -مسؤول لجنة التنظيم المركزية -عضو القيادة.
- ٧-خضير عباس الزبيدي (عادل) -مسؤول العلاقات الوطنية -عضو القيادة.
- ٨-صالح رضا العسكري (براذر) -مسؤول الخط الصدامي -عضو القيادة.
- ٩-مالك منصور شمعون (مطيع) -مسؤول لجنة محافظة نينوى -عضو القيادة.
- ١٠-غازي أنطوان (عامل) -مسؤول لجنة كركوك -عضو القيادة.
- ١١-سامي أحمد عباس (فاضل) -مسؤول الخط العسكري -عضو القيادة.
- ١٢-مصلح مصطفى (سليم) -مسؤول فرع كردستان -عضو القيادة.
- ١٣-خضر سلمان (صادق) -مسؤول لجنة المنطقة الجنوبية -عضو القيادة.
- ١٤-نصر الدين مجيد (ساهر) -مرشح القيادة المركزية.
- ١٥-حسين ياسين (عادل) -مسؤول جبهة الكفاح المسلح في الأهوار-مرشح القيادة.
- ١٦-حميد ضامن (ماجد) -مسؤول لجنة ديالى -مرشح القيادة.
- ١٧-ناجي عبود (معاهد) -مسؤول لجنة الكوت -مرشح القيادة.

- (٦) ضمت القيادة المركزية في هيئاتها القيادية كلاً من :
- عزیز الحاج علی حیدر - رمزی ثم مراد - السكرتیر .
 - کاظم رض الصفار - شجاع - المشرف علی لجنة منطقة بغداد - عضو المكتب .
 - حمید خضر الصافي - سعید - المشرف علی لجنة العلاقات ومسؤول جهاز الطباعة .
 - احمد محمود الحلاق - صدقي - المشرف علی الجهاز الصدامي والخط العسكري - مر
 - متي هندو هندي - خالد - عضو المكتب .
 - بيتر يوسف - صدام - مسؤول لجنة التنظيم المركزية - عضو القيادة .
 - خضير عباس الزبيدي - عادل - مسؤول العلاقات الوطنية - عضو قيادة .
 - صالح رضا العسكري - براذر - مسؤول الخط الصدامي - عضو القيادة .
 - مالك منصور شمعون - مطيع - مسؤول لجنة محافظة نينوى - عضو القيادة .
 - غازي انطوان - عامل - مسؤول لجنة كركوك - عضو القيادة .
 - سامي احمد عباس - فاضل - مسؤول الخط العسكري - عضو القيادة .
 - مصلح مصطفى - سليم - مسؤول فرع كردستان - عضو قيادة .
 - خضر سلمان - صادق - مسؤول لجنة المنطقة الجنوبية - عضو القيادة .
 - نصر الدين مجيد - ساهر - مرشح القيادة المركزية .
 - حسين ياسين - عادل - مسؤول جبهة الكفاح المسلح في الاهوار - مرشح
 - حميد ضامن - ماجد - مسؤول لجنة ديالى - مرشح القيادة .
 - ناجي عبود - معاهد - مسؤول لجنة الكوت .

لابد لنا من مراجعة متفحصة لمواقف الحزب الشيوعي العراقي والمحطات السياسية التي مر بها بعد أنقلاب ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٨م حتى ابرام اتفاق ما يسمى بالجهبة الوطنية التقدمية. لقد اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في ٢٩ تموز ١٩٦٨م، وأصدرت عن الاجتماع بيانا حددت فيه موقف الحزب من حكومة الانقلاب واتخاذ الموقف المناسب، وقد قيّم البيان حزب البعث والحكم بأنه حزبا قوميا برجوازيا، حكما معاديا للاستعمار والاقطاع، ووصفه من جانب آخر مثل " حكما دكتاتوريا مناوئا للديمقراطية السياسية، أي حق الشعب في انتخاب حكاهه وممثليه على جميع الدرجات بحرية تامة " وطالب البيان بتحقيق الاهداف التالية:

١- حل مشكلة الديمقراطية والنظام الديمقراطي وازالة آثار الارهاب عن الجماهير والاحزاب الوطنية، ومصادرة الحريات وانهاء الفترة الاستثنائية، ونقل البلاد الى الحياة الدستورية الديمقراطية، وإيداع السلطة الى برلمان شعبي منتخب.

٢- حل المسألة الكردية حلا ديمقراطيا والاقرار بحقوق الشعب الكردي في الحكم الذاتي.

٣- رعاية مصالح الجماهير المعيشية والاقتصادية.

٤- انتزاع حقوق العراق التي اغتصبتها احتكارات النفط الاجنبية.

٥- كشف أوكار وشبكات التجسس والقضاء عليها وفضح المتسترين على نشاطها وتطهير جهاز الدولة من العناصر المشبوهة والفاسدة.

٦- الدعوة الى تعزيز النضال ضد الامبريالية وضد الصهيونية والتعاون مع البلدان الاشتراكية.

و في ٣٠ تموز ١٩٦٨م، خرج حزب البعث الحاكم ببيان له نشر في جريدة الثورة بالعدد ١٩٤ في ٣٠ تموز ١٩٦٨، يحمل جملة أفكار منها: "مكافحة الاستعمار والتمسك بالتضامن العربي، وان الانقلاب جاء ردا على نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧م، وعزم

الحكومة على حلّ القضية الكردية سلمياً والاستجابة لمطالب الاكراد القومية وطي صفحات الماضي السلبية، ودعوة كافة القوى التقدمية الى أن تسهم مساهمة جديدة في حماية الثورة و الحفاظ على نهجها التقدمي من خلال المشاركة الفعلية في تحمل أعباء المسؤولية وتؤكد الثورة على تحقيق أوسع مشاركة جماهيرية في دفع الثورة الى الأمام"، وكان هذا اول طعم ابتلعتة القوى الوطنية المعارضة.

قامت حكومة البعث بعد ذلك بإجراءات عديدة - كان الغرض منها الايحاء لهذه القوى وايهامها بأنها قد غيّرت من نهجها وسياستها السابقة، وأنها جادة في تبنيها سياسة جديدة مختلفة -منها:

- أجازت رسمياً اصدار مجلة الثقافة الجديدة علانية بوصفها مجلة تهتم بنشر ثقافة اليسار الماركسي والفكر الشيوعي وصدر لها العدد الاول بشكله العلني والرسمي في نيسان ١٩٦٩م، ومن ثم اجيزت صحيفة الحزب الشيوعي "طريق الشعب".

- أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً في الخامس من أيلول عام ١٩٦٨م بالإفراج عن المعتقلين كافة وإعادة جميع المفصولين لأسباب سياسية في الشهر ذاته، ولكن لم يقدم اي تنازلات أخرى بصدد الحريات العامة.

- اعتراف الحكومة العراقية الكامل بجمهورية المانيا الديمقراطية في ٣٠ نيسان ١٩٦٩م، وتوقيع اتفاقية كبريت مع بولندا في الاول من أيار ١٩٦٩م، ومعاهدة التعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي في ٢٠ حزيران ١٩٦٩م، وفتح سفارة للعراق في هافانا عاصمة كوبا، وعزز حزب البعث مواقفه وأضفى على حكومته صفة الاشتراكية، والاعتراف بالحكومة الثورية في فيتنام الجنوبية ومساندة شعبها، دفعا للحوار بين الحزبين.

وقد اتخذ المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي في أيلول ١٩٧٠م سياسة ازاء حكومة البعث على أساس "المعارضة لنهج الحكومة المعادي للديمقراطية وللشيوعية ولاضطهادها لأحزاب المعارضة ايا كانت، ولانتهاكها حقوق الانسان وكرامته ولمظاهر الشوفينية

والتعصب القومي والطائفي" وفي الوقت نفسه أكد المؤتمر على "اننا سنؤيد وندعم أي اجراء تقدمي أو أي موقف ضد الاستعمار والاقطاع والرجعية"، أي (تضامن - كفاح) وهذا الموقف لا يختلف كثيرا عن سياسة الحزب (كفاح - تضامن - كفاح) ازاء حكم عبد الكريم قاسم في سنواته الاخيرة.

لم تقتصر الهجمة الشرسة الواسعة النطاق على اجهاض و تفريق مظاهرة ساحة السباع في ٢١ آذار ١٩٧٠م بالقوة، و استشهاد الرفاق وليد الخالدي ، عبيد البدر، و أدور عبد النور و العشرات من الجرحى بل تعدتها الى الملاحقات الامنية و اعتقال مئات الشيوعيين في انحاء العراق و زجهم في اقبية الامن و معتقل قصر النهاية و ممارسة الضغوط ضدهم بكل انواعها، و محاولة تحطيم و تفتيت و تحجيم الكثير من منظمات الحزب، بل تعدتها الى اغتيال الكثيرين من الكوادر المتقدمة الناشطة و الفاعلة و تصفيتهم اما داخل السجون أو خارجها، و عملت أجهزتهم الامنية و تنظيماتهم الحزبية على شرذمة و بعثرة القوى الوطنية المعارضة الاخرى كالتيار الناصري، و(الجناح اليساري) لحزب البعث، والحزب الوطني الديمقراطي و اعتقال قياداتهم أو اغتيال البعض الاخر منهم، و منعهم من التعاون مع حزب الشيوعيين ضمن (الجبهة الوطنية التقدمية المرتقبة)، و قد سلك البعث مناحي مختلفة و عديدة لإضعاف موقف الحزب و اجباره على عقد الجبهة بشروطه، و قد رافق ذلك ضغوطات مورست على الحزب الشيوعي من قبل جهات عديدة، منها موقف الاتحاد السوفياتي المشجع على عقد هذه الجبهة و النابع من فكرة التطور اللا رأسمالي و من الاسس النظرية التي وضعها لتحالفات حركات التحرر الوطني في البلدان النامية، و المناشدة التي قدمها كل من خالد بكداش أمين عام الحزب الشيوعي السوري - الذي كان قد دخل حزبه بتحالف جبهوي مع حزب البعث السوري - و جورج حاوي أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني المنطلق من فكرة تحوّل قسم من البرجوازية الصغيرة الى الماركسية، جميعهم ضغوطوا على الحزب الشيوعي العراقي من أجل عقد الجبهة ، مما شجع الحزب على الانصياع للدعوة المطالبة بعقد جبهة مع البعث.

يبدو ان قيادة حزب البعث الحاكم كانت تمتلك الحرفية في السلوك المناور المخادع والمخاتل والقدرة على كيفية تفريق وتفتيت القوى والأحزاب الوطنية المعارضة وعزلها عن بعضها لتستفرد بها الواحد تلو الآخر مستغلة نقاط الخلاف ومكامن الضعف لدي هذه القوى، ومن ثم القيام بتصفيتها الواحد تلو الاخر، وقد كان حزب القيادة المركزية والحركات والاحزاب القومية هم كبش الفداء الاول.

لقد اعتبرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أن سياستها كانت صائبة لحتمية ذلك الظرف الموضوعي، حيث لم يكن أمامها خيارات أخرى متاحة سوى التعاون مع نظام الحكم الجديد ومراقبة ما يقوم به من خطوات **تقدمية إيجابية**، ثم دفعه باتجاه تطويرها وتعزيزها، من خلال الممارسة الديمقراطية الجارية. لكنني أرى أن اعتبارها هذا كان قاصرا حينما أحسنت الظن بالبعثيين، كما أحسنته سابقا بالحكم العارفي عام ١٩٦٤م، خصوصا حينما تقدموا بشروطهم لحزبها مقابل تحالفهم معه، يشم من خلالها تهميش وإلغاء مستقبلان له، طالبين منه التوقيع عليها، وهي: إقراره بحزبهم كحزب ثوري وحدوي اشتراكي ديمقراطي/ وجوب تقييمه انقلابهم في تموز ١٩٦٨م كثورة وطنية تقدمية/ إقراره بالدور القيادي للبعث سواء في الحكم أو ضمن المنظمات المهنية والجماهيرية/ عدم ممارسته أي نشاط داخل الجيش والقوات المسلحة/ عمله على قيام تعاون بين الأحزاب الشيوعية في العالم العربي وحزب البعث.

ورغم أن هذه الشروط كانت غير مقبولة من الحزب الشيوعي، إلا أنه استأنف حواره مع البعثيين من جديد، وما لبث أحمد حسن البكر أن أعلن في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧١ عن برنامج للعمل الوطني، عارضاً عليه وعلى نظيره الديمقراطي الكردستاني أن يقبلوا به لإقامة جبهة وطنية معهما. كان أمل اللجنة المركزية للحزب أن يتحول هذا العرض إلى اتفاق حقيقي بين هذه الأحزاب الثلاثة على برنامج يحقق طموحات الجميع، لذلك اقترحت على حزب البعث منح مجلس الوزراء صلاحيات أوسع لإدارة شؤون الدولة، التي احتكرها مجلس قيادة الثورة البعثي، وتعديل الدستور المؤقت بما يحقق السير

بهذا الاتجاه، وإطلاق حرية الصحافة، وإصدار صحيفة حزبها بشكل علني، فوعد البعثيون بدراسة مقترحاتها هذه. لكن الوضع استمر على حاله أكثر من سنة، مع أن ظروف البلد كانت تستدعي التعجيل بتغييره، سيما بعد اشتداد الصراع مع شركات النفط الاحتكارية إثر قرار الحكومة بتأميم شركة نفط العراق في ١ حزيران ١٩٧٢م، ثم تواصلت العلاقات بين الحزبين على وضعها ذاك حتى وقوع محاولة ناظم كزار الانقلابية، حيث دفعت إلى تكثيف جهودهما من أجل الاتفاق على البرنامج.

في ١٧ تموز ١٩٧٣م، وقع أحمد حسن البكر نيابة عن حزب البعث وعزيز محمد سكرتير عام الحزب الشيوعي "ميثاق العمل الوطني"، وبذل الطرفان جهوداً واسعة لإدخال الحزب الديمقراطي الكردستاني معهما في الجبهة، التي انبثقت بعد توقيعه، إلا أنها لم تسفر عن أية نتيجة. ومن دراسة مواد هذا الميثاق نجد أن البعثيين لم يقدموا تنازلات جوهرية للحزب، فكان أهم ما قدموه له: حصوله على الشرعية القانونية لمزاولة نشاطه العلني، وإصدار صحيفته المعبرة عن سياسته [طريق الشعب]، حيث صدرت بالفعل وكانت توزع على نطاق واسع/ إطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسيين، وهدم [قصر النهاية] السيئ الصيت الذي كان مقراً لتعذيب الشيوعيين وسائر الوطنيين المعارضين/ مشاركته في الحكومة بوزيرين، لكنها لم تكن ذات تأثير على سياسة الدولة التي كان مجلس قيادة الثورة، الذي ينفرد به البعثيون، هو من يقررها، متمتعاً بكافة الصلاحيات التشريعية والتنفيذية بل حتى القضائية. مقابلها قدم الحزب الشيوعي للبعثيين تنازلات واسعة: إقراره بأن انقلابهم في تموز ١٩٦٨م ثورة وطنية ديمقراطية اشتراكية، وبمبدأ قيادة حزبهم للجبهة/ قبوله ببقائه بعيداً عن الجيش والقوات المسلحة ليصبحاً حصراً لهم/ إعترافه بدور البعث القيادي لكافة المنظمات الجماهيرية النقابية والاتحادية "العمالية والفلاحية والطلابية". هكذا يتبين لنا أنه خسر الكثير بتقديمه هذه التنازلات الواسعة لهم، بينما لم يحصل على أي دور أساسي في تسيير سياسة البلد، إنما أصبح في الواقع مجبراً على مسايرة حزبهم.

ثمة الأنكى من ذلك، حيث بعدما سمح للحزب بالنشاط العلني وإصدار جريدته واختيار وزراء منه، وفسح المجال لمشاركته في الجبهة الوطنية التقدمية المزعومة، إنكشفت كل تنظيماته قبالة البعثيين، وأجهزتهم الأمنية والمخابراتية، وهذا ما كان يريدونه وماخطوا له، وفاتت على لجنته المركزية تهيئة خط ظل بديل باحتمال ضربة متوقعة قد توجه له منهم. ففي خضم سير عملية تفاوضه معهم تم اعتقال الكثيرين من كوادره، إذ فيما اعتقل رفيقانا صالح العسكري وحاتم سجان من "ق.م"، كان هناك المناضل البارز المنتمي لتنظيمات "ل.م" عزيز فعل الذي اعدم شنقا مع فائق إلياس من تنظيمات القيادة المركزية أمام ناظري "العسكري" و "سجان"، اللذين سيعدمان رميا بالرصاص- مع مجموعة من المتهمين بـ"الخيانة والتجسس" - لأنهما كانا شاهدين على عملية إعدام "فعل" و "إلياس"، كذلك اغتيال كوادره عديدة إما بعمليات خطف أو بحوادث دهس، وهذا ما حصل للرفاق ستار خضير، محمد الخضري، صباح الدرة، شاكر محمود، عبد الأمير سعيد، و تم قتل و تصفية اعضاء و كوادره الحزب الشيوعي الناشطين في بغداد و المحافظات، و قد شملت هذه التصفيات الرفاق ماجد العبايجي ، مشكور مطرود، حسين نادر، عبد الله صالح، محمد حسين الدجيلي، عبد الامير رشاد، جواد عطية، وآخرين غيرهم تم تصفيتهم بطرق. مشابهة، وتعذيب آخرين من قيادات وكوادره القيادة المركزية في ذلك الحين حتى الموت ك: متي هندي، هاشم الآلوسي، أحمد الحلاق، نوري كمال. يتضح من هذه التصفيات، اعتقالا أو اغتيالاً أو تعذيباً، ناهيك عن مسارها التصاعدي، أن البعثيين كان لديهم نهج تأمري مبيّث ضد الحزب الشيوعي، حليفهم؟!، ليكون أمامنا عندئذ تفسيران لا ثالث لهما: إما غفلة من قيادته عن التشخيص المبكر لهذا النهج، حيث تصفية كوادره المشككة في نوايا البعث، أو أنها غضت الطرف عن نهج كهذا فجمدت معارضتها له، معتقدة بصدق النوايا البعثية.

لقد وجه البعثيون عام ١٩٧٩م ضربة قاصمة للحزب الشيوعي، بعد سلسلة اجراءات، مهدوا لها، ما لبثت أن انتهت بتصفيته، منها: منع عمله بين صفوف القوات

المسلحة/ محاصرة نشاطات منظماته الجماهيرية وتقليصها/ مضايقة أعضائه ترغيباً أو ترهيباً لتركه/ تصفية بعض كوادره بحملة اعتقالات واغتيالات مثل د. صفاء الحافظ ود. صباح الدرة/ تسهيل خروج قادته من العراق ليتم الخلاص منهم/ مساومة الكثير من رفاقه للانضمام لحزب البعث.

أ- من رفاق المسيرة

إبراهيم اسماعيل/ كان شاباً نحيفاً رياضياً، من عناصر الجهاز الصدامي، عمل فترة في كردستان مع قوات الأنصار للحزب الشيوعي، لم أكن أرى على وجهه علامات خوف أو هلع عندما يهددوننا بالإعدام، إنما رابط الجأش، وحين يقتادوننا إلى محكمة الكرخ، وفي الأيام التي تلي عودتنا منها إلى القصر، تظهر على لحيته بقعة دائرية من الشعر الأبيض تعود سوداء، بعد أن تهدأ الأمور ويمر وقت علينا دون تهديد، حيث كانوا في هذه المحكمة يحركون دعاوى ضدنا لإلصاق التهم بنا حصرًا، أي تحميلنا مسؤولية ما ارتكبه الجهاز الصدامي المركزي، محاولة منهم لتبرئة سكرتير القيادة المركزية، رغم تأكيدهم لهم منذ بداية اعتقاله أنه هو المسؤول الأول عن ذلك، وقد تم لاحقاً إطلاق سراح إبراهيم اسماعيل مع مجموعته.

إبراهيم جهانبخش/ قبل أن يكون معتقلاً معي في قصر النهاية عام ١٩٦٩ كان معتقلاً معي في معسكر الرشيد-سرية الهندسة- إثر انقلاب شباط الأسود ١٩٦٣ ونقلنا سوية إلى سجن باب المعظم. هو أحد أعضاء الجهاز الصدامي، وأعتقل في قصر النهاية، وكان يقبع في الزنزانة المجاورة لزنزانتني في السرداب، كان يهوى الشعر الشعبي وينظمه، رغم كونه كوردياً مما يثير الإستغراب لدى الآخرين من المعتقلين، شاب وسيم، يمتلئ شجاعة وعنفواناً، كنت أسمعه يغني، وعندما يرتفع صوته ويسمعه الحرس يأتون مسرعين إلى الزنانات لمعرفة مصدر الصوت، فيصمت إلى أن يتأكد من إبتعادهم ليعاود الغناء مرة أخرى. كان معه من أعضاء الجهاز الصدامي، عادل

فرنسيس ، صباح حسين الملقب (صباح صاروخ)، لطيف مراد وسيد مشتت خضر، وكشاش الذي خلعت يده بالتعذيب والذي ذكرته في موقع آخر من الكتاب ، سامي محمد علي الذي حاول الهرب أثناء التحقيق بالقفز من شباك في غرفة التحقيق إلى الخارج، إلا انه أصيب برجله من جراء السقوط فعاودوا تعذيبه بقسوة وألقوه في قبو القصر كتلة مدماة ملفوفة ببطانية لا يسمع لها إلا أنين خافت واستشهد أمام أنظارا براهيم كما روى ذلك لي: أنه ترك جاكيتته معي وأخبرونا أنهم نقلوه إلى المستشفى لكنه في الحقيقة قد فارق الحياة وهو معنا وقبل أن ينقلوه إلى خارج الزنزانة، ومن ضمن الموجودين معه كان محمد علوان القصاب، وإبراهيم مفيز الدين أحد الشيوعيين من عمال السكك الذين اعتقلوا بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ ، وثامر حسنى زينل، وعبدالله زنكنة (أبو سعيد)، أحد ابطال إنتفاضة الاهوار.

أحمد علي ابراهيم/ كان أحد أعضاء المكتب التنفيذي لاتحاد الطلبة العام، من الرفاق البارزين في أنشطة الحركة الطلابية، وعضوا فاعلا في التنظيم الطلابي لحزب القيادة المركزية، أعتقل واقتيد إلى قصر النهاية، الذي كان يقبع فيه رفاقه: حسن علي أمين رئيس اتحاد طلبة معهد الادارة والسكرتارية وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الطلبة العام (قبل استشهاده) وعبد الكاظم كاطع سكرتير اتحاد الطلبة العام وليث الرفيعي ومنير حاكم، وقد مكث بضعة أيام في القاعة العليا، التي كان فيها عدد من يهود البصرة (علقت جثثهم في ساحة التحرير لاحقا) ورجل كهمل اسمه عبد الهادي (مدير فندق بغداد) وعبد العزيز العقيلي، وفي نهاية عام ١٩٧٠م، بعد خروج رفاق من المعتقلات، قام مع مجموعة ضمت: صلاح أحمد البياتي (كادر متقدم في "ق.م") وعبد الكاظم كاطع سكرتير اتحاد الطلبة العام ، ومحمد القيسي(مهندس زراعي) وعيدان (عامل) وثامر (مهندس زراعي أيضا)، بمحاولة تشكيل تنظيم استقطب عناصر عديدة إلا أن اعتقال صلاح البياتي أوقف نشاط هذا التنظيم الجديد، الذي لم يكشف رغم ما لقيه من تعذيب.

بيتر يوسف / عضو القيادة المركزية، ومسؤول التنظيم المركزي فيها، طويل القامة ضخم الجثة، أملط، يتسم بالنعومة والرقّة، وهو يحدثك بصوته الناعم الخافت، لا تبدو على ملامحه علامات العزم والصرامة، وعندما أتطلع الى تعابير وجهه، كنت أراه ضعيفا مستخدّيا أمام هيئة التحقيق، كأني به يستجدي عطفهم، فيتصرف وكأنه ترك -الى غير رجعة- العقيدة والفكر اللذان آمن بهما واعتنقهما، وتأكيدا منه لإثبات الاخلاص والولاء لحزبهم، والمزايدة على الآخرين في تقديم الخدمات وأداء الطاعة لهم. قام وهو في السجن بترجمة احد كراريس حزب البعث الى اللغة الانكليزية في محاولة منه لعرض خدماته عليهم، وقد روى لي الرفيق ماجد علاوي: "أنه عندما كان في معتقل قصر النهاية أخبره أحد الأصدقاء الذي كان في زنزانه قريبة لزنزانه بيتر يوسف أنه سمع جزء من حوار بين بيتر وبين أحد المحققين الذي جاءه أثناء الساعات المتأخرة بعد منتصف الليل - وهي الفترة التي يجري فيها التحقيق ويسودها جو من الرهبة و الوجوم في غرف الموقوفين - وسأله عن إسم لم يميزه حيث يبدو أن ذلك الإسم ورد أثناء التحقيق مع أحد الموقوفين، لكنه سمع إجابة بيتر يوسف يرد على استفساره لا أعرف، ولكنه واصل متطوعا وموشيا مجانا آخرين: يمكنك سؤال فلان حوله فهو يفيدكم!! وكان يغني أثناء ساعات الوحشة تلك بصوت واطئ أغاني عاطفية لمحمد عبد الوهاب". وعلى ذكر تمتع بيتر يوسف (أبو صرفد) بصوت جميل فقد ذكر لي طرفة عندما كنا في غرفة واحدة في أعلى الدرج كان معنا فيها كاظم الصفار وحמיד الصافي وخضير عباس ومالك منصور في معتقل قصر النهاية وقد روى لنا هذه الحكاية وقال: أنه ولشدة إعجابه بأم كلثوم وأثناء قدومه من أحد البلدان الإشتراكية إلى العراق حدد له الحزب المسار الذي يسلكه وأن تكون محطته القادمة مطار بيروت لكنه خالف قرار الحزب وذهب إلى مطار القاهرة بدلا من مطار بيروت المقرر له من قبل الحزب وكان غرضه من ذلك أن يحضر حفلة أم كلثوم الشهرية ويعود الى بيروت دون علم الحزب لكن يبدو ان الحظ لم يحالفه وفي أثناء خروجه من الحفلة منتشيا بصوت أم كلثوم وإذا به يقع بحفرة لتتكسر ساقه وينكشف

أمره، وان دل هذا الفعل على شيء إنما يدل على عدم الضبط وضعف الالتزام، وقد حاسبه الحزب بسبب ذلك الخرق.

لقد وجدت فيه عكس ما يروى عنه من انه كان يتمتع بفروسية وبشجاعة وصلابة واصرار وثبات ابان فترة العهد الملكي وبعد ثورة تموز ١٩٥٨م، يحسده رفاقه عليها. فكان يذكر أن اجهزة الامن كانت تقف مشدوهة مشلولة اليدين أمام تحديه وثباته، وأن أساليب التعذيب لم تكن تجدي معه نفعا -مهما تنوعت -للحصول على إقرافات منه. كان حاقدا على عزيز الحاج ، وكان عندما يلقيه وجها لوجه في باحة السجن، كان يبصق على الارض علامة واشارة على كرهه له، وكأنه لم يكن رفيقه لعقود مضت، كان يعزو ذلك الى ان الحاج هو الوحيد الذي يعرف مكان اختفائه و هو السبب في اعتقاله، فقد كان لبيتر مخبأ سري في بيته من الصعب على احد اكتشافه ، عمله خلف الحائط يدخل اليه من فتحة غطيت بلوحة "أيقونة للمسيح"، لم يكن أحد يعرف بموقع المخبأ غير زوجته وعزيز، (هذا ما كان يقوله بيتر يوسف)، لكنني اقدر ان تصرفاته تلك ما هي إلا دليل ضعف و انهيار و استخذاء ، لأنه مهما قام به عزيز من تصرفات، لا يبرر موقفه هذا امام سجانيه و اعدائه، ما دام كليهما رفيقي طريق لسنين طويلة جمعهما معتقل واحد وقضية واحدة، لقد تم تعيينه بعد إطلاق سراحه سفيرا للعراق في الهند ثم في المكسيك، وقد توفي فيها منتصف التسعينات. ومن المفارقات المضحكة والمؤلمة، حكاية طريفة عنه، تدل بوضوح عن نفسية هذا الرجل: في الوقت الذي كان المعتقلون يفترشون الارض، أو "بطانية" دون غطاء، طلب من هيئة التحقيق أن تحضر له فراشا "دوشك" للنوم وأغطية ووسادة خاصة به، وضعت له في الرواق الذي يفصل بين صفي الزنانات، ودواء ينثره حول فراشه يمنع القمل - المعشش في ملابسنا من جراء عدم الاغتسال لفترة طويلة - الزاحف اليه من زناناتنا المحيطة به، كنا وقتها نتندر... عندما كانوا يفتحون ابواب الزنانات بضع ساعات للتهوية، نجلس داخل الزنانات على عتبة ابوابها، فيختار كل واحد منا قملة ينتزعها من ملابسه ويضعها على مدخل زنانتة ميمما وجهها شطر فراش بيتر

ليدخل القمل حلبة السباق ولنجد أي من القمل ستكون هي السبابة بالوصول الى فراشه قبل غيرها وتنتحر عند تخومه. كنت أستغرب لمواقفه وسلوكه هذا، فأعيد النظر في تقييم شخصه و ثباته وسبب تخلخله وتداعيه، فقد سمعت من رفاقه الذين لازموا فترات العمل النضالي السابقة، من أنه عندما كان يلقي القبض عليه ويعتقل، كان رجال الامن لا يحققون معه لما عرف عنه من ثبات ومجابهة أثناء التحقيق معه، وقناعتهم بعدم الجدوى من تعذيبه وإجباره على الاعتراف، وبدأت استغرب مدى صدق هذه المعلومات عندما اراه بهذه السلوك البائس، وحب الانا وروحية التعالي، وكيف أن الاحداث والتجارب تترك على الانسان آثارا ايجابية أو سلبية تبعاً لعلاقة ذلك بمتانة حصانته الفكرية التي يتمتع بها.

وهناك حادثة يرويها الرفيق ماجد علاوي لها دلالتها في سلوكه، ففي الفترة التي تفجرت فيها المعارضة لخط أب التصفوي، كانت تنظيمات المثقفين هي البؤرة الرئيسية التي انطلق منها فريق الكادر في معارضته، ففي إحدى المنظمات التي كان يقودها إبراهيم علاوي (نجم). أرسل بيتر يوسف في عام ١٩٦٦ إلى تلك المنظمة كمشرف "لتأديبها"، وجرى الاجتماع في بيت إبراهيم علاوي، وبدأ بيتر يوسف بالتهجم على أحد الرفاق الصريحين بقوة في معارضتهم، وتناول عليه بالكلام وأراد أن يعتدي عليه جسدياً، خاصة أن بيتر يوسف كان ضخم الجثة والرفيق الآخر ناعم أقرب إلى القصر، عندئذ تدخل إبراهيم علاوي وقال له لا أسمح لك بالاعتداء عليه مهما كانت صفتك الحزبية ولولا أنك في بيتي للقيت مني رداً لا يسرك ولطردتك. وكانت هذه الحادثة وراء إصرار فريق الكادر على عدم إتحاقهم بالقيادة المركزية قبل طرد بيتر يوسف وحسين جواد الكمر منها. وقد أزيلت تلك العقبة والتحق الكادر بالقيادة المركزية.

جمشيد الحيدري / كان معنا هو وأخوه "ممتاز" في القاعة الكبيرة، التي تضم مئات المعتقلين من مختلف الاتجاهات، وهما شقيقا رفيقنا جمال الحيدري، الذي استشهد إثر تعذيبه بعد انقلاب شباط ١٩٦٣م، و"جمشيد" هذا شاب طويل القامة

قوي البنية، تعلقو ثغره ابتسامه شفيفة، وتتدلى خصلة من شعر رأسه الكث، تضي عليه هيبه ووقارا، وكنا نتحدث طويلا لقتل الوقت، نستعيد شجاعة من صمدوا واستمروا بالحياة أو من استشهدوا تحت التعذيب عام ١٩٦٣م، لرفع معنويات المعتقلين الآخرين، لذلك فهو لم يتأثر بأجواء المعتقل الرهيبة.

حاتم سجان/ كان عاملا شابا يتسم بالعفوية والاخلاص، وبالشجاعة والجرأة، غير هيّاب من الأخطار، هكذا عرفته من خلال عملنا الميداني في الجهاز الصدامي، نشأ وترعرع وبرز بين صفوف الطبقة العاملة، مناضلا جسورا سخرّ جلّ وقته للحزب، يحمل الكثير من التفاني له، واضعا لأجله حياته على راحة كفه، دائما تعلق وجهه ابتسامه، لم تفارقه حتى في قصر النهاية رغم ظروفه الصعبة القاسية. ذات يوم بعدما أخرجونا من الزنانات الانفرادية إلى باحة المعتقل، نزع خاتم زواجه من يده اليسرى داسا إياه في يدي اليمنى، قائلا (يا رفيقي، لي طلب لديك أرجو أن تحققه، إن قبض لك الخروج من السجن، وهو أن تسلم هذا الخاتم لزوجتي، وأنا متيقن من أنك ستبلي طلبي وتوصله لها، فقد نفذنا سوية عمليات خطيرة بطلب من الحزب، كان الموت فيها قريبا منا، قبل أن نعتقل في هذا القصر، لا أخفيك أن قلنا ينتابني وشعورا كبيرا يراودني وحدسا يساورني، أن الموت أت كلما التقت عيناى بعيونهم المليئة بالحقد والتشفي، والمنذرة بشبح الموت الذي أطل منها، وعندما أمعن النظر بناظم كزار وبهيتتهم التحقيقية وتطلعاتهم، والكلمات التي أسمعها منهم أنا ورفيقي صالح العسكري، عندما يلتقي بنا هو وجلاوزته، وأرى صرامة وجوههم التي لا يقطعها السيف، ونظراتهم الشزرة التي يتطاير منها الشرر، أتيقن أن فيها تصميمما على إنهاء حياتي وتصفيتي داخل السجن)... سألته "لنفترض أنني لن أخرج، ما العمل؟" فأجاب (إن راودك شعور كالذي ينتابني الآن حاول أن تسلمه لشخص آخر قد يخرج من السجن، تكون واثقا منه أنه سيسلمه لزوجتي، هذا في حال تعرضك للإعدام أنت وبقية أعضاء الجهاز الصدامي بسبب التهم الموجهة الينا، كرفع السلاح بوجه السلطة لإسقاط النظام القائم، والسطو المسلح، وتهمة القيام بعمليات اغتيال لأشخاص، وقد وجهت هذه

التهم لنا تحديدا باعتبارنا قيادة الجهاز الصدامي المركزي والمسؤولين عن هذه الأعمال، ولبقية رفاق الجهاز الآخرين باعتبارهم منفذين لهذه العمليات، ومما لاشك فيه أن عقوبتها هي الإعدام، ويريدون أن نكون نحن كبش الفداء فيها، والذي زاد من تأكدي ما استشرفته من خلال إشارات عديدة وتلميحات متكررة، ولأنني وصالح العسكري شهود عيان عندما أعدم ناظم كزار بيديه وأمام ناظرينا الرفيقيين عزيز فعل وفائق الياس، اعتقادا منه أننا ربما قد نكون شهود عيان في حالة اطلاق سراحنا، يارفيقي أرى التصميم في عيونهم وإيماءات أيديهم بإعدامي أنا وصالح)...وقد وفيت بوعدني له فسلمت خاتمه لزوجته الشابة، وكان لها منه صبي، تركه في بطنها وعمره ستة شهور، اسمه "سلام" تيمنا بالاسم الحزبي الذي حمله قبل استشهاده.

حامد أيوب العاني / كان شابا وسيما، متوسط القامة، يعلو إحدى وجنتيه خال كبير بارز، هادئ الطبع، عندما يريد التحدث بموضوع، يتأني قليلا، يترث لبرهة ثم يسترسل بانسيابية ذات قدرة إقناع، تدعمها ثقافته الواسعة، على محيّا ابتسامة شفيفة، يحب إلقاء نكات لها علاقة بالموضوع الذي يتحدث فيه، ليخترق الجو الرسمي ويضفي جوا من المرح على الاجتماع الذي كان يحضره، يحمل طاقة كبيرة على مواصلة العمل دون كلل، دمث الأخلاق طيب المعشر، أنيق حسن المظهر، ذو ضحكة مميزة يغص ويشخر بها عندما تحاصره، يستأنس الحديث مع الرفيق سيد مشنت، يحبه ويحترمه ويمزح معه. ولد عام ١٩٣٨م في بغداد - الكرخ وسط عائلة فقيرة، له أخوان يكبرانه سنا، هما "جمعة" ورفيقنا "حمدي أيوب" المناضل المعروف، عمل عاملا في معمل نسيج الكاظمية، وهو لم يزل شابا يافعا، وفي عام ١٩٥٦م انتمى للحزب الشيوعي، وكان مسؤوله الرفيق ابراهيم الحريري، وبعد انقلاب شباط ١٩٦٣م اعتقل ونفي إلى سجن نقرة السلطان الصراوي، ثم خرج منه منتصف الستينيات، حيث عملنا سووية عامي ١٩٦٦-١٩٦٧م عضوين في اللجنة المحلية الثقافية التي كان سكرتيرها الرفيق كاظم حبيب وتضم معنا الرفيقيين صباح الدرة وطارق رحيم، حتى حصل انقسام الحزب في أيلول ١٩٦٧م، لنتحق أنا وهو وطارق بالقيادة المركزية

أعضاء في لجنة منطقة بغداد، نقود تنظيماها المحلية، قبل انتقالي إلى قيادة الجهاز الصدامي. تم اعتقاله في شباط ١٩٦٩م، إثر ورود اسمه في اعترافات لمعتقلين قياديين كشفت تنظيم حزب القيادة، وعندما نقلوني من الزنزانة الانفرادية إلى القاعة الكبيرة، اجتمعنا ثانية، فكانت أيامنا ذات نكهة خاصة رغم قسوتها، يتخللها استذكار الماضي، لكنها لم تستمر طويلا حيث أطلق سراحه، بينما بقينا نحن (أعضاء الجهاز الصدامي) معتقلين. ويبدو أنه عاد لصفوف الحزب الشيوعي، فأصبح عضوا في لجنته المركزية، وبعد الانتكاسة أواخر السبعينيات، توجه إلى سوريا ثم رومانيا للدراسة، فحصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي، وعمل تدريسيا في الجزائر، وأخيرا استقر في هولندا لاجئا سياسيا، وبعدما عانى مرضا عضالا جعله مقعدا، رحل عن الدنيا في نيسان ٢٠١٣م، تاركا عائلة من زوجة وثلاثة أولاد، وأثرا طيبا، وإرثا نضاليا طويلا قارب نصف قرن.

حميد الصافي/ كان عضوا في المكتب السياسي لحزب القيادة، ما زلت أتذكره: مر من أمامنا صامتا وعيناه الزرقاوان تدوران في محجريهما، وجلتين تدققان النظر حواليهما، تبدو على قدميه آثار تعذيب. لقد طرق سمعي لاحقا، أن من اعتقله مفض في الأمن العام القديم اسمه فاروق، كان يعرفه سابقا، عند خروجه من البيت الذي كان مختبئا فيه إلى السوق لجلب فطور له ولزوجته. إذا كان ذلك صحيحا فهنا ضعف منه بالحدز رغم كونه مناضلا قديما وسجينا سابقا، معروفا لدى الأجهزة الأمنية السابقة، التي استمرت في خدمة النظام الجديد. لكن هنالك احتمال آخر: إعتراقات البعض عليه، حيث تم اعتقاله في الفترة التالية لاعتقال أحمد الحلاق وصالح العسكري وحاتم سجان ومحمد كريم ثم عزيز الحاج وبيتر يوسف وكاظم الصفار ومالك منصور وخضير عباس وهمام عبد الغني! بعد خروجه من المعتقل عمل في إحدى مؤسسات الدولة، ثم القطاع الخاص موظفا في جمعية رجال الاعمال العراقيين، التي يرأسها الصديق راغب بلبيل "أبو عمّار"، وقد عاد تواصلنا معه بعد عام ١٩٩١م، فكنا نلتقيه في هذه الجمعية، أو نزوره في بيته، إلا أنه في عام ٢٠١٣م اشتد مرضه

متغلبا عليه عقب معاناة طويلة منه فأنهى مسيرته الحياتية ليرحل عنا تاركا أثرا حميدا من حسن الأخلاق والكياسة وإرثا من الماضي النضالي الطويل الذي قضاه في الحركة الشيوعية العراقية.

سامي أحمد/ كان يُعذب في غرفة التحقيق المعهودة بشدة وقسوة وبشاعة، فيعض على شفثيه بنواجذه مبتلعا صرخته، يكتمها في جوفه، احتقارا لجلاديه، حينها ينقلونه إلى زنزانة صغيرة لا يستطيع أن يقف فيها منتصبا: إما جالسا أو مستلقيا، يلقونه على أرضها الصلبة، فتنتلق من فمه صرخة "آه"، ليعودوا إليه يشبعونه ضربا وركلا ويسمعونه كلاما بذيئا، كأشكالهم القميئة، ثم يسألونه "لماذا تطلق الآه وتظهر ألمك الآن بينما تمتنع أن تبوح به في غرفة التحقيق، وقد أوجعناك ضربا ونلت منا عسفا وتعذيبا أشنع وافظع وأشد وأكثر إيلا ما من سقوطك هذا على الأرض؟"، شاعرين بشموخه ممتلكا صلابة متناهية، فضلا عن خلق رفيع ، ذو صوت هادئ لا تكاد تسمعه وهو يحدثك، وعندما انتهى التحقيق معنا ونقلونا إلى أماكن أخرى، صاروا يعاملونه باحترام وتقدير كبيرين.

يذكر الرفيق ماجد علاوي "لقد كان سامي أحمد (أبو وميض) استثنائيا في صموده، بدأت الحملة على القيادة المركزية وتم تحطيم وكشف كامل هياكلها التنظيمية، وكان التحقيق قد انتهى مع كافة الموقوفين وكشفت كل التنظيمات تقريبا ولم يتبق بعد ذلك إلا سامي وحده ولمدة لا تقل عن الثلاثة أشهر صامدا صمودا مطلقا رغم كل دورات التعذيب البشع المستمرة التي يقاسيها. لقد أصبح عاجزا عن المشي بسبب التقرحات التي تركها الضرب بالكيبلات على قصبتي ساقيه من الركبة إلى القدم، ومن تأثير التعذيب بالصدمات الكهربائية حيث كانوا يعيدونه إلى زنزانتة الانفرادية ملفوفا بالبطانية ويتركونه وشخير نفسه اشبه بشخير الخروف المذبوح لارتخاء كل عضلاته جراء تلك الصدمات ويستمر على تلك الحال لفترة طويلة. وقد كلفت الهيئة التحقيقية اثنين من المعتقلين في الزنزانة المجاورة له، ماجد علاوي وإبراهيم مفيز

الدين، لنقله مرتين في اليوم كي يقضي حاجاته الطبيعية، فكانا يعملان ما يشبه المقعد المربع بتشابك أيديهما ويجلسانه عليه حيث لا يستطيع تمديد رجليه ويأخذانه إلى المرافق الصحية ويدخل أحدهما معه ليبقى حاملا له من تحت أبطيه أثناء قضائه لحاجته والتشطف. وفي تلك الفترة يخبرهما بما كان يجري معه. ومن مفارقات تلك الحالة أنهما كانا يحملان سامي على أيديهما المشتبكة كمقعد مربع ودخلا إلى الصالة الرئيسية من الباب الذي في نهاية أحد جدرانها، وفي النهاية الأخرى لذلك الجدار تقع المرافق الصحية. وفي لحظة دخولهما إلى الصالة كان عزيز الحاج يخرج من تلك المرافق، فحصلت مواجهة غير محسوبة بين رمز الصمود والدفاع عن العقيدة ورمز الاستسلام للعدو وخيانة الأمانة. بهت عزيز الحاج -بعد أن رأى سامي- وقد ارتسمت نظرة جامدة على وجهه وأخذ يتحرك ببطأ وبشكل آلي وهو يسير بمحاذاة الجدار ملتصقا به مشدوه الفكر مشتتة، عيناه غائرتان تتحركان في محجريهما ببلاهة وبدى كأنه انسان مخدر مشلول الإرادة في حركته، وفي الجانب الآخر كان سامي يرميه بنظرات شزراء تحمل كل الاحتقار، واستمرت هذه اللحظات الدرامية عند لقاء البطولة مع الخيانة والاستسلام، لبضعة ثوان إلى أن أوصل سامي إلى المرافق، أحدهما يتقدم جسدا مهشما محمولا والآخر يتراجع ويبتعد كالمخدر لاصقا ظهره بالجدار. وبطريق العودة بسامي إلى غرفته سأل ماجد عن غرفة عزيز الحاج وطلب منه أن يوصله إليها ليعبر عن ازدرائه واحتقاره له، إلا أن ماجد ترجاه بترك ذلك.

لقد بلغ الأمر من عجز الهيئة التحقيقية عن النيل من إرادته، ومن إعجابهم الكامن به واحترامهم له، قالوا له أنهم يعرفون كامل وضعه الحزبي كمسؤول عن الخط العسكري للقيادة وأنهم يعرفون كل المعلومات من فوقه ومن تحته تنظيميا وعن رفاقه في الهيئات الحزبية أو المرتبطة به، ولا يريدون منه شيئا سوى أن يصادق على هذه المعلومات ويتركوه، وأخبروه -وبعكس ذلك- أن من المستحيل أن يخرج إلا ميتا إذا لم يصادق على تلك المعلومات، فلم التضحية بنفسه على لا شيء؟ وقد أفضى بذلك

إلى ماجد خلال الخلوة القصيرة أثناء قضائه لحاجته، وبعد حوار قصير أقتنع بعبثية موته في تلك الظروف. وبالفعل ما إن قال نعم، هذه المعلومات صحيحة حتى تركوه وتعاملوا معه بكل احترام، حتى أن أحد الزوار البعثيين الكبار جاء إلى زنزانه سامي مع أحد أعضاء الهيئة التحقيقية فقط ليشاهد هذه الأسطورة".

خرج من المعتقل مع رفاق آخرين قبلي، ثم التقيته مرارا عام ١٩٧٠م، بعد خروجي منه، فجمعتني به سهرات تخللها جو فكري سياسي ثقافي، إضافة لذكريات الاعتقال، مرها وحلوها، وبعدها غادرت الوطن ظللت أتابع أخباره، فعرفت أن له كتابات وترجمات، ويقدم برنامجا عن النفط في التلفزيون العراقي، ثم عدت إلى العراق عام ١٩٩١م، بعد حرب الكويت، ليعود التواصل بيننا لقاءات شخصية وزيارات عائلية. أنشأ مكتبة المرشد في منطقة السيدة - كنا نلتقي فيها- لتدخل عليه موردا متواضعا، يغطي به أعباء معيشته، ثم نقلها إلى شارع المتنبي، بدعم مالي من رفيقنا ماجد علاوي، الذي يشاطره رصانة فكرية واحدة، جعلت منهما صديقين قريبين من بعضهما، أما أنا، حينذاك فكانت تجمعني معه جلسات جميلة في بيته (حي الميكانيك / الدورة)، يضيء عليها الكثير من نبل خلقه وجم تواضعه، وكان لا يناديني إلا بكلمة "عزيزي".

في منتصف التسعينيات امتدت إليه يد السرطان، محاولة أن تنتزعه من بين عائلته ورفاقه ومحبيه وأصدقائه، فقام صديقنا الدكتور محمد طالب الحسني بإجراء عملية جراحية له، إلا أن صحته تدهورت كثيرا بعدها، حيث استشرى هذا المرض الخبيث في جسمه ناهشا به وملتهما إياه بسرعة مذهلة. لذلك ترك المستشفى عائدا لبيته، طريح فراشه، فكنت أزوره وعائلتي بين فينة وأخرى، وإذا هو يزوي تدريجيا أمام أعيننا بلا أية قدرة لنا على انقاذه، وفي آخر زيارة طبعته قبلة على جبينه، وأنا أودعه، فإذا بدمعة حرّى تسقط من عينه على خده دون أن ينبس ببنت شفة، فاستغربت ماسحا دمعته وقلت (أبا وميض... عهدتك طودا شامخا صلبا لم تلن ولم تضعف أمام هول التعذيب في قصر النهاية، وتجربتك الطويلة مع العذاب وما عانيته في سجن

نقرة السلطان الصحراوي وبقية السجن التي مررت بها منذ عام ١٩٥٢م، كلها لم تفت في عضدك ولم توهنك)...بقي صامتا مطبقا لا يقوى على الكلام، سوى أنه يتطلع إلينا بعينيه اللتين تشوبهما نظرة حزن عميقة ترتسم واضحة على وجهه، توحى بأنه أدرك أن مرحلة فراق الأهل والأحبة قد حانت، فتركته والأفكار السوداء تلهب عقلي، وثمة شريط سينمائي يدور ويمضي يطوي الزمن ويختزل مسافات العمر ليختم نهايته. بعد أيام قلائل بلغني نبأ وفاته، فأقمنا له وبالمشاركة مع الشخصية الشيوعية صبحي المشهداني تأبيننا في بيته، حضره رفاقه القريبون منه: الرفيق كاظم فرهود وماجد علاوي، طارق بركات الرومي، ضياء العكيلي، سلمان محسن، حميد الصافي، وأبو ذر عقيل عبد الحميد وآخرون أصدقاء وزملاء بمن فيهم مختلفو الرأي معه، وقد ألقى فيه كلمات وقصائد تشيد بماضيه النضالي وبمحاسنه وصفاته التي ينفرد بها عن غيره.

وبمناسبة التطرق إلى التأبين الذي أقيم للفقيه سامي أحمد لا بد من التنويه إلى ما ساد أجواء تلك الأيام في التسعينات أيام الحصار المجرم الخائق على شعبنا وما صاحبه من تراخ للقبضة الأمنية للنظام لأسباب عديدة منها ظروف هزائمه واليأس من المستقبل وعظم المشاكل التي يواجهها، وقد صاحب ذلك على الطرف الآخر نوع من التحرك للعناصر اليسارية المقموعة في الداخل ونوع من الحنين إلى العلاقات الرفاقية القديمة وتجلى ذلك بتحريك شبه عفوي للتلاقي والتواصل من خلال المناسبات الاجتماعية وبالأخص الفواتح وتفقد حالات المناضلين المعوزين وعبادة المرضى منهم، وما أكثرهم. وكان من أبرز الشخصيات في هذه النشاطات الأنسان الرائع صبحي المشهداني الذي يجسد نكران الذات الشيوعي الذي تربت أجيال عليه. لقد كان لولب تفقد رفاقه القدماء وتفقد حاجاتهم ولم شملهم اجتماعيا، كان لا يكل ولا يمل ولا يأبه للمخاطر التي قد يجرها احتمال تنبه السلطات إلى هذه الحركة شبه المنظمة. وكان البطل الآخر في هذه النشاطات الأنسان والثوري النقي أبو ذر الذي كان يتحلى بنكران ذات لا يمكن تخيله، كرس كل حياته وإمكانياته على شحته،

ولا زال، لما يعتقد مبدأيا في الحياة. لقد أضاف أبو ذر إلى تلك المهام الاجتماعية مهمة خطيرة أخرى وهي تتبع الكتب اليسارية التي تطبع في الخارج وكان يحصل عليها بشق النفس ويقوم باستنساخها ونشرها وتوزيعها على مختلف المعارف من اليساريين، وكم أقرب من أن تصطاده الأجهزة الأمنية. يا لها من مهمة خطيرة في تلك الظروف لقد كانا كمن يحمل رأسه على كفه ولا يدري متى أوان قطافه من قبل همج السلطة، أنهم جنودنا المجهولون حاملي الأمانة وزارعي الأمل.

كان الفقيه سامي أحمد قد نكب في الثمانينيات بابنه "وميض" حيث أعدم بتهمة انتسابه لحزب الدعوة، وبعد الاحتلال عام ٢٠٠٣م قامت عصابات الارهاب التكفيرية باغتيال ابنه "دريد" عند باب بيته، الذي توفي هو فيه، وأمام أنظار أمه رفيقتنا عفيفة ثابت أخت رفيقنا الراحل نعمان ثابت.

سلمان محسن/ كان عامل طباعة في الأجهزة الطباعية السرية والعلنية للحزب الشيوعي، منذ بداية الخمسينيات، ورفيقا عاملا ضمن منظمة الفرات الأوسط التابعة له، ثم التحق بتنظيم القيادة المركزية بعد الانقسام عام ١٩٦٧م، فعمل عضوا ناشطا في تشكيلات جهازه الصدامي. عرفته متفانيا في كل المهام التي توكل إليه، مخلصا مندفعاً، تتمثل فيه صفات المناضل سلوكا وعملا، فهو من مجموعتنا التي بقيت رهن الاعتقال بعدما أطلق سراح بقية رفاقنا، والتي كانت معرضة في أية لحظة لعملية إعدام يروم الجلادون تنفيذها، ثم تم نقله إلى سجن الفضيلية مع المجموعة المتبقية من جهازنا في قصر النهاية، والتي ضمت: محمد كريم، ابراهيم اسماعيل، صاحب عبد الأمير، قاسم مريسن، عادل فرنسيس، فياض موزان، حيث رُحّلوا بعد شهرين من مكوثهم في ذلك السجن إلى مديرية الأمن العامة، ومنها تم إطلاق سراحهم بموجب اتفاق ١١ آذار ١٩٧٠ بين الملا مصطفى البرزاني وحزب البعث. بعد سقوط نظام صدام حسين عام ٢٠٠٣، انضم من جديد لصفوف الحزب الشيوعي فساعد رفاقه القادمين من كردستان في الحصول على مكائن طباعة، تم نقلها إلى مقره عاملا على نصبها

وتشغيلها، والإشراف على طبع جريدته "طريق الشعب" وأدبياته الأخرى، وإدارتها لعدة سنوات، حتى رحيله عنا عام ٢٠١٥.

سيد مشنت خضر / كان ذا شخصية عفوية رائعة نقية شجاعة، مؤمنة بأفكار الحركة الشيوعية لأبعد الحدود، يسكن مدينة الثورة في بيت تغطي الحناء جدرانها الخارجية حيث يقصده مزارا عامة الناس البسطاء للحصول على مباركة أبيه، وكانت لأهله شعبية كبيرة ليس في قطاعهم فحسب بل في معظم قطاعات هذه المدينة. أعتقل في محطة غسيل السيارات التي يعمل فيها، واقتيد إلى معتقل قصر النهاية، السيئ الصيت، منتعلا جزمة مطاوية عالية الأطراف كي تحافظ على قدميه وسط الماء المتدفق من مضخات آلة الغسيل. وقد صادفت فترة اعتقاله وجود طاهر يحيى - رئيس وزراء للعهد العارفي السابق - في المعتقل، فأجبروا الأخير على انتعال هذه الجزمة بعدما أوكلوا له قيادة فرقة للتنظيف، ضمت عدة وزراء من عهده، مهمتها تنظيف الزنانات والغرف ونقل القمامة إلى مكان تجميعها، للسخرية منه والتهكم به والضحك عليه وهو بهذا المظهر المزري إشباعا لرغبتهم السادية. كان يسهر طول الليل قلقا خائفا معتقدا ألا أمل له في الخروج من معتقلهم وأنهم سينهون حياته هنا، وبعد أن اتضح وجود اعتراف عليه بأنه يعمل مع تنظيم الشرطة، أخذوه ذات ليلة ولم يعد إلينا بعدها، فصدقت أحاسيسه ومشاعره بأنهم سيقتلونهم. كما كان يراقب ويرصد بيتر يوسف، وهو يردد "عضة واحدة أقتطع بها لوزة حنجرته وأقضي عليه نهائيا وبعدها دعهم يعدمونني"، حيث ترى من ذلك مدى الخيبة التي أصابت رفاقنا جراء الوضع البائس الذي وصل إليه بعض أعضاء القيادة، واعتقادهم بأن هؤلاء هم من تسبب بالوصول الى هذه النتيجة، فوجبت معاقبتهم بالانتقام منهم. وكان ينعت الآخر بـ "صخيف" أي "صخيف" عندما لا يعجبه حديثه أو لا يقتنع به، وحين تصحح له الكلمة هذه يصر على إعادتها بطريقته ذاتها معتقدا أنها سليمة وأنه صواب والآخرين خطأ، فكان الرفيق حامد أيوب، محاولا عدم إحراجه أمامهم، يستأنس لطريقته بنطقها، ويرتاح لها ويكررها على مسامعه مركزا على السين لا الصاد، مشيرا

إلى خطئه بتهذيب، وبينما هو يحاوره، يصر مشنت على رأيه، عندها يطلق حامد ضحكته الشهيرة المميزة، التي يختمها بشهقته المعهودة. يروي لنا سيد مشنت كيف يجري التحقيق معه، بعدما يعودون به من غرفة التعذيب وقد تدلت خصلات من شعر رأسه على صدغيه وبان مفرقه، فيقول: لقد طلبوا مني الاعتراف على الخلية التي كنت أعمل فيها وقد أجلسوني أرضا، إنزالوا علي ضربا بالعصي والأسلاك الكهربائية وهم يقولون لي "اعترف" وأنحرف قليلا وأقول لهم "ها أنا قد احترفت يا بعد عيوني" ("احترفت" بلهجة أهل الجنوب تعني "انحرفت عن مكاني") فيعاودون الضرب وهم يرددون "اعترف، اعترف يا كلب"، وأنحرف قليلا ثانية وأعيدها عليهم "ها أنا قد احترفت يا بعد عيوني" وكأنني فهمتها هكذا، ويستمر الضرب حتى يغمى علي، يتركونني بعدها أعود إلى الزنزانة، ويعيدون دورة التعذيب في اليوم الثاني وبشكل أقسى وأشد، ولكي يوقفوا تعذيبهم لي وحتى آخذ قسطا من الراحة، أخبرهم بأن لي موعدا في الاسبوع القادم في السوق العامة بالبواب الشرقي، فيكفون عن ضربي ويعيدونني إلى الزنزانة، وعندما يأتي الموعد الذي حددته لهم يأخذونني إلى الباب الشرقي للاستدلال على الشخص "المزعوم" ولم يكن أمامي غير أن أشير لهم إلى بائع "لبلي" وضع ديكا حيا على عربته، ويبدأ رجالهم بالهجوم عليه ويعتقلونه، بعد أن تنقلب عربته ويقفز ديكه منها، وعندما نعود أنكر أنه الشخص المقصود لكنني من شدة التعذيب اخترعت هذه الشخصية، وتستمر عملية التعذيب من جديد.

شاكر بدر الساعدي / كان شابا نحيفا مديد القامة، جهوري الصوت، متحمسا مندفاعا، يشرب بعنقه ليطل علينا من خلال فتحة زنزانتة المقابلة لزنزانتتي ويطلق علينا رشقات من ضحكته المجلجلة وهو يدق باب الزنزانة وينادي بأعلى صوته (أيها الحرس، لقد حان وقت فتح الأبواب، و واجبكم أن تفتحوا أبواب الزنانات لنا)، فهم عادة يفتحون أبواب الزنانات لساعات فترة الصباح، فكان شجاعا غير هيّاب من تهديدهم ووعيدهم بضربنا ومحاولات إرهابنا وإنزال العقاب بنا، حيث يسترق النظر من خلال الفتحة العليا لزنزانتته، يراقب السجنائين سائرين ذهابا وإيابا في الممر بين

الزنايات، أو يقفون عند نهايته الموصلة بالباب الرئيسي، وما زالت صورة وجهه الضحوك عالقة في مخيلتي، عندما يظل واقفا منتصبا في زنارته معظم الوقت كي ينادينا ويتحدث معنا لَمَّا يجد أن السجن قد غادر المكان بعد انتهاء نوبة حراسته، غير مكترث للتحذيرات، وحين خرج من المعتقل ترك العراق أواخر السبعينيات إلى الجزائر ثم فرنسا فحصل فيها على شهادة الدكتوراه بالفلسفة.

صالح رضا العسكري / كان متوسط القامة، قوي البنية، واسع الجبين، له نظرات حادة مرگرة، قليل الكلام، يتقن اللغة العربية الفصحى، مخلصا لعقيدته وثابتا عليها، وذلك يتضح من خلال مسيرته النضالية، حيث أبدى أعلى صفات الشجاعة والجرأة والاقدام في كل مواقفه النضالية والفكرية، حتى في مقابلته الصحفية مع مجلة الصياد. فلطالما لَمَح أماننا عن استيائه من سياسة عزيز الحاج معتبرا ضعيفة ينقصها الحس الثوري، لا ترتقي لمستوى متطلبات المرحلة، لذا يجب إزاحته، عاملا على ذلك مع رفاق في القيادة المركزية من خلال جهازها الصدامي، ما أدى إلى نية مبيته عند بعضهم لأقصائه عن الاشراف على قيادة هذا الجهاز. كذلك كان شيوعيا صلب الشكيمة قوي العزيمة أثناء التحقيق معه رغم إمعان الجلادين في استخدام أشبع الأساليب لتعذيبه، وأرذل النعوت التي كانوا يطلقونها عليه والتي يتجسد فيها حقدهم وكرههم، والنظرة الشوفينية المتأصلة فيهم، بعكس سلوكه البعيد عنها، من خلال ثقافته المنتمية للحركة الشيوعية الأممية المناهضة للتمييز العرقي والقومي والديني. كانوا كثيرا ما يجمعون بيني وبينه ليحققوا معنا، مبتدئين بضربنا بالعصي البلاستيكية، التي لا تحدث كسورا في العظام، بعدما يعلقوننا من أقدامنا إلى السقف، حتى تتخدر أوصالنا وقد أمسينا لا نشعر بألم، وبعد تيقنهم من أن الضرب لم يعد يؤلمنا، وبات لا يجدي نفعا، ينزلوننا أرضا ليبدأوا ركلنا بأرجلهم على ما تبقى من أعضاء جسمينا التي لم ينلها ضربهم (في تشرين الأول ١٩٦٩م. غاب عنا، ما عدنا نراه، فتبين لاحقا أنه أعدم رميا بالرصاص مع رفيقه حاتم سجان).

طارق رحيم/ كان يتميز بأناقة مظهره وربطة عنقه الملازمة له، فيما لون شعره الأحمر المميز والمصفف بعناية يعطيك انطباعاً بأنه "مدلل"، فضلا عن كونه رفيقا نشيطا مخلصا مندفعاً للعمل، لا يتأخر عن أية مهمة تناط به. بعدما اعتقل واقتيد إلى قصر النهاية، شاركني زنزانية لا تبعد كثيرا عن غرفة التحقيق، الذي يبدأ منتصف الليل مستمرا حتى ساعات الهجوع الأخيرة منه، حيث يتعالى من الغرفة صراخ المعذبين، الذي اعتدت على سماعه، غير مكترث له! وبينما أنا غاط في نوم عميق، تهزني يده، نازلة ثقيلة على جسدي، وقد خاصم النوم عينيه، مرددا (هل أنجبتك أمك من أب انكليزي، فسرى دمه الأزرق البارد في عروقتك"، قاصدا برودة أعصابي، فأبقى مستيقظا كي أجاريه في الحديث مشاطرا إياه قلقه وعسر نومه. وكان صباح ميرزا يطل عليه، بين مدة وأخرى، ليطمئنه بأنه سيسعى لإطلاق سراحه، ويسرد عليه أخبار خطيبته ويوصل له رسائلها، إذ كانت طالبة في كلية اللغات زميلة إما لميرزا أو لخطيبته التي تدرس في الكلية ذاتها.

كنا نعمل سوية عام ١٩٦٦م في اللجنة المحلية للمثقفين، التي تضم معنا الرفاق: صباح الدرة وحامد أيوب العاني وسكرتيرها كاظم حبيب، لينتقل بعد الانشقاق معي وحامد إلى القيادة المركزية، بدءا من منظمة منطقة بغداد فيها، فيصير لاحقا مسؤول تنظيمها الطلابي، ويقود لجنته القيادية المكونة من الرفاق: جواد كاظم السوداني من كلية الطب (وقد اعتقل في قصر النهاية) ونوزاد عبد الرحمن من كلية الهندسة وباسم جميل أنطوان وعمران جاسم النداوي من كلية الطب البيطري (وقد اعتقل في ١٤ نيسان ١٩٦٨م).

عزيز الحاج/ كان قصير القامة، ضئيل الجسم نحيفه، تركز على كتفيه رأس كبيرة نسبيا لا تنسجم مع ضآلة جسمه، عيناه السوداوان الواسعتان تمان عن ذكاء حاد، واعتداد بالنفس، بيد ان شكله هذا لا يوحي أو يدل على الصرامة او القسوة، نهم وشره بالتدخين، عالي الثقافة، قدير متمكن في الحديث وفي المحاوره، أفكاره واضحة

مترابطة، يمتلك السلاسة في التعبير والقدرة الفائقة على الكتابة، كان يهتم كثيرا في موضوع الصيانة وتوفير وسائلها، حتى لو كانت على حساب الهيئات الاخرى، وقد خصصت له في قصر النهاية غرفة صغيرة تحت مقابلة للسلم شبيهة بالزنزانة، الا انه كان يحظى برعاية خاصة حيث يزوره فيها أعضاء الهيئة التحقيقية بين الفينة والاخرى للاطمئنان عليه ولمجاملته، وقام بعض المعجبين به من اعضاء الهيئة التحقيقية امثال ناصر فنجان بتلبية طلباته، أو زيارة بعض القياديين البعثيين له، ليشاهدوا عن كثب - هذه الاسطورة التي دوختهم بقدر ما كتب عنه وتم الحديث عن سيرته النضالية - فيحاوروه أحيانا، وكانت تجلب له السجائر والصحف اليومية والمجلات، وله حرية الكتابة، في الوقت الذي كان رفاق آخرين من حزب القيادة يقبعون في زنزانات فردية، او في القاعة الجماعية الكبيرة المكتظة، يتلقون الالهانة والتنكيل. بعد خروجه من المعتقل تم تعيينه ممثلا للعراق بمنظمة اليونسكو في باريس.

قاسم مريسن / كان وجهه أسمر مائلا للزرقة، كأنه يحمل بشرة أفريقية، وهو من مدينة الثورة، لذلك ميال لآراء سيد مشنت، يدعمها، محرضا إياه عليها بطريقة جنوبية، تجعله يغلي غضبا كمرجل بخاري. تم نقله إلى سجن الفضيلية معنا نحن أعضاء الجهاز الصدامي: محمد كريم، قاسم مريسن، صاحب حسن عبد الأمير، عادل فرنسيس، سلمان محسن، إبراهيم اسماعيل، وأنا، ثم نقلنا إلى مديرية الأمن العام حيث أطلق سراحنا من هناك.

كمال جمال / كان يسمى "بختيار"، حركيا، وهو شاب عشريني أشقر، كريم العين، رام مصوب ماهر لا يخطئ هدفه، يبدو أنه اكتسب ذلك من وجوده في كردستان، حيث يصيب طيرا عن بعد بدقة، كما كان مساهما أساسيا في تنقيذ عمليات عديدة جريئة ضد بعض العناصر التي خانت الحزب، وتعاونت مع الأجهزة الامنية للسلطة، وضد ضباط أمن معادين، ومخبرين مشخصين من طرفنا، فضلا عن عمليتي الاستيلاء على

خزينتي معارف السلیمانیة ومعمل السكائر في بغداد، وقد كان الغرض منهما تمويل وتسليح أجهزة حزب القيادة المركزية من أجل دعم عملها النضالي.

لطيف محمد مراد / كان شابا في أواخر العشرين من عمره، متوسط القامة، هادئ الطبع، تعلق شفتيه ابتسامه رقيقة خجولة، تم عن طيبة وصدق وتصميم، غزا الشيب سالفه وتسلسل متناثرا مبعثرا بين طيات شعر رأسه وكأنها حبات رز أبيض.

لم يكن يجيد اللغة العربية، لكنه يغني أحيانا بصوته الجبلي القوي الحزين لأرد عليه بموال جنوبي ذي شجن يفوقه حزنا. قام ورفاقه بعدة عمليات مسلحة في مناطق مختلقة من بغداد كباب الشيخ والصدرية والسنك. كان يقسم يمينا بأنه إذا خرج من المعتقل سالما سيكون صنيعه الأول المهم هو القضاء على بيتر يوسف وعزيز الحاج، معتقدا أنهما سبب النكسة التي تعرض لها حزب القيادة المركزية، لكن لم يقيض له ذلك حيث كان الموت أسبق إليه حين تم إعدامه في قصر النهاية.

محمد كريم / كان عامل نقابي نشط وشيوعي مخلص متفانٍ نذر نفسه للقضية التي آمن بها، لهذا لم تزل صورته مطبوعة في ذاكرتي، لا تفارقها، بخصلة شعره السوداء المتدليلة على جبينه وعينه العسليتين اللامعتين، ونشاطه المتقدم. وكان شجاعا جسورا حد التهور أحيانا، عندما توكل إليه مهمة لا يتراجع عنها أبدا، مهما كانت صعوبتها، ينفذها بكل هدوء واقتدار وجرأة كأنه ذاهب لنزهة، حتى أن رفيقنا حاتم سجان قال لي ذات مرة "إني أخاف على محمد لجرأته العالية"، فيما كنت أنا ألاحظ ذلك عندما تبدأ المنازلة وقد اهتزت شفته العليا دلالة عزمه وتصميمه. بعد خروجه من السجن لم يرتدع أو يضعف أو يتخاذل أمام تهديد حسن المطيري (المعاون الأول لناظم كزار) في مديرية الأمن العامة، حيث بارك السعدون، أثناء إطلاق سراحنا، قائلا لنا "إسمعوا جيدا، في المرة القادمة لن نعيدكم للسجن بل سنصفيكم خارجه". فقد واصل نضاله وبناء علاقة ارتباط وتواصل مع حزبنا في كردستان من خلال الرفيق

مصلح مصطفى عضو القيادة المركزية (بقيادة ابراهيم علاوي)، لكن يبدو أن الأجهزة الأمنية للنظام كانت تتبعه وتراقبه وانكشف أمره لها وتم اختطافه عندما كان يهيم بالخروج من مقهى في شارع أبي نواس فصرخ لحظتها بصوت عال "أنا محمد كريم الشيوعي بلّغوا أهلي أن رجال أمن السلطة هم من خطفوني"، وبعد يومين وجدت جثته ملقاة على قارعة طريق قرب مستشفى الكرخ في الطرف الآخر من العاصمة. لقد أخبرني أخوه "عدنان" بما يأتي: (بعدها تابت وبحثت وتقصيت حادثة اغتيال أخي الشهيد، تأكدت أن مصالح مصطفى هو من وشى به وخبر جهاز الأمن عنه عندما قدم محمد من كردستان إلى بغداد وهو مكلف بمهمة نضالية فيها). وبمقابلتي الرفيقي مصطفى جاورش وفاروق رسول في السليمانية عام ٢٠١٥م، وما ورد فيهما عن شكوك حزب القيادة المركزية آنذاك في وجود تعاون بين مصالح مصطفى وسلطة البعث خلال تلك الفترة، تمت محاسبته وتجريده من سلاحه، مع الاكتفاء بطرده من الحزب، ثم عُرف لاحقاً تعيينه مدير الثقافة الجماهيرية للحكم الذاتي، ما أكد تلکم الشكوك فيه.

الرفيق كمال شاكر؛ عضوا الجهاز الصدامي، شارك في عملية اغتيال جلال المختار، لم يُعتقل آنذاك والتحق بكوردستان - هو من مدينة السليمانية ويعيش الآن في السويد - أرسل لي الرسالة التالية يقول فيها: "أنه في أواسط سنة ١٩٦٩ حضر الكونغرس الأول للقيادة المركزية الذي عقد في منطقة قرداغ المحررة قرب قرية كوشان وكان المشاركون فيه بحدود ٣٠ رفيق أذكر منهم: الرفيق الراحل ابراهيم علاوي (أبو ليلي)، **مصلح مصطفى**، أبو جعفر، أبو أنيس، همام هاني المراني (قادر)، عاصم الخفاجي، كريم حوأس، محمد أمين بنجويني، فائق دروياني، أبو علي، وآخرين لا أتذكر أسمائهم. وبناء على معلومات طرحها أبو جعفر تشير الى أن كل من همام

هاني (قادر) وعاصم الخفاجي لهما ارتباط بمحمد فاضل^(٩٠) وقد حضرا الكونغرس بتوجيه منه. وبعد عدة أيام قضيناها في قرداغ توجهنا الى منطقة الكايتي قرب ناحية كلاله الى المقر العسكري في قرية (ناوكيلكان) مع هاني وعاصم وبعد الوصول الى المقر تم اعتقال همام وعاصم واستمر التحقيق معهما لعدة أيام لكن دون ان نحصل منهما على نتيجة، ولكي نتأكد من أنهما ربما يكونا بريئين وتكليف من **مصالح مصطفى** ذهبت الى بغداد للتأكد من المعلومات اتصلت بنوري محمد الحلاق (أخ الشهيد أحمد الحلاق) لمعرفتي السابقة له للتأكد من صحة الإتهامات وأخبرني أن الشهيد أحمد الحلاق كان يسكن مع همام هاني (قادر) في بيت واحد وهو من سلّم أحمد الى الأمن. واتصلت ايضا بالرفيق ابو جبار واخبرته عن طلب الرفيق مصالح بتزويد القيادة عن صحة المعلومات التي وردت عن الرفيقين وبعد يومين اعطاني رسالة لم أفتحها أو أقرأها. عدت بالرسالة الى كلاله وسلمتها للرفيق **مصالح** وبعد ايام حصل خلاف بين ابراهيم علاوي و**مصالح مصطفى** وتقرر إطلاق سراحهما وطلب الرفيق ابراهيم علاوي (أبو ليلي) ايصالهما الى المنطقة التي تقع تحت سيطرة الحكومة وقد تم ذلك. وبعد فترة قاما بمهاجمة القيادة المركزية عبر صفحات جريدة الثورة".

من خلال ما ورد في رسالة الرفيق كمال شاكر وما ذكره الرفيق مصطفى جاورش عن مصالح مصطفى يتضح ضلوع الأخير بعلاقة مع نظام البعث.

(٨٩) محمد فاضل هو عضو القيادة القطرية لحزب البعث وأحد المشرفين على هيئة التحقيق الثانية في قصر النهاية عام ١٩٦٩، وفي شهر آب من عام ١٩٧٩ حُكم عليه بالإعدام مع ١٧ من قيادات الحزب والدولة بتهمة اشتراكهم في حركة انفلاية مزعومة بالتعاون مع نظام البعث السوري في عهد حافظ الأسد.

حدثتني السيدة شكرية كريم أخت الشهيد محمد، عن حادثة إغتياله وتصفيته وقالت: كان يوم ١٩٧١/٥/٢ يوما مشؤوما بالنسبة لي عندما وصلني خبر إختطافه أتذكره تماما وهو لم يزل مطبوع في ذاكرتي ويأبى أن يغادرها أو يفارقها. وهو اليوم الذي خرج سوية مع رفيقيه عبد الله شهواز زنكنه وعلي حسين (الساھر) من بيتنا الواقع في مدينة الثورة، قطاع ٢٤، حي الأكراد، وكان بيتنا مرصودا من قبل الاجهزة الأمنية ومن البعثيين الحزبيين في المنطقة، وفي اليوم التالي جاءت إلى بيتنا سيارة شرطة النجدة وأخذوني إلى الطب العدلي لتشخيصه، وقد أغمي على بعد أن شاهدت جثته ورأسه ووجهه اللذان مزقهما الرصاص.

تذكرت وصية حسن المطيري (ملازم زهير، اليد اليمنى لناظم كزار) لنا عندما نقلنا من معتقل الفضيلية الى مديرية الأمن العامة لغرض إطلاق سراحنا فقد قال حينذاك وهو يحذرنا: إذا علمنا أو سمعنا إنكم أعدتم نشاطكم من جديد فسوف لن نعيدكم للسجن مرة أخرى، كما تعودتم سابقا، إنما سنصفيكم خارجه، وعلمت أنهم جادون في تحذيرهم، لذلك تركت العراق بعد شهر من إطلاق سراحنا.

هناك رواية أخرى توضح الطريقة التي تم بها إلقاء القبض على الرفيق محمد كريم ونصفيته رواها لي السيد محمد القيسي قال: " كنت ألتقي بالصدیق سعد الحديثي [عدم الخلط لدى القارئ] أوضح أن سعد الحديثي هذا هو غير د. سعدي الحديثي، رفيق مظفر النواب في سجن نقرة السلیمان ومغني أشعاره والمتخصص بالدراسة الأكاديمية والأداء لغناء البادية الغربية]، وفي يوم من عام ١٩٧١ إلتقيته في مقهى الرافدين على ابو نؤاس وكان برفقته محمد كريم واخذنا موقعنا على طاولة في أحد أركان المقهى، وبينما نحن جالسون في ذلك الوقت دخلت زمرة من رجال لجنة التحقيق في قصر النهاية، انتبه لهم محمد كريم وعرف أشخاصهم، وقفوا بمكان ليس بعيد عن طاولتنا ودون أن يطيلوا الوقوف أو يجلسوا على إحدى الطاولات القريبة، وبعد أن تأكدوا من شخص محمد كريم تركوا المقهى، إلا أن محمد توجس منهم وبعد دقائق إعتذر عن الإستمرار في البقاء معنا وغادرنا و يبدو أنهم كانوا يرصدونه وقد

نصبوا له كميناً خارج المقهى وتم إلقاء القبض عليه وقتله ورمي جثته بجانب الكرخ. يقول محمد القيسي: هناك دلائل - على ما أعتقد - تؤكد أن سعد الحديثي كان يعلم بالكمين وله يد بذلك منها : - أن سعد الحديثي كان قد أعتقل (لفترة وجيزة) في قصر النهاية خلال تلك الفترة وأطلق سراحه سريعاً - هو الشخص الوحيد الذي يعرف بوجود محمد كريم وكان يلتقي به في بيت هيفاء زنگنة.

وهناك دلالة أخرى هي وجود شخص تربطه علاقة وثيقة بسعد، لم تكن لي معرفة سابقة به، كنت كثيراً ما ألتقي به عند سعد وكان يحاول إقناعي مراراً بضرورة الالتحاق بحركة الكفاح المسلح في كردستان بطريقة بدأت أشك بصدقها، و كنت أرفض ذلك، وأتوجس منه لعلمي أن الأجهزة الأمنية والمخابراتية الصدامية كانت تجند أشخاصا لكشف من يعارض النظام أو يمارس النشاط ضده والإيقاع بهم، وقد تم تجنيد هذا الشخص بمعرفة سعد ليشي بالأشخاص المنتمين أو الذين لهم علاقة بحركة الكفاح المسلح وتنظيم حزب القيادة المركزية في كردستان، أو الذين يرغبون الالتحاق بهما. لذلك ومن خلال هذه الدلائل أعتقد أن سعد هو من وشى بمحمد كريم".

هناك روايتان على لسان رفيقين استمرا بالعمل في تنظيمات القيادة المركزية بعد عام ١٩٦٩ تحدثتا فيهما عن ارتباط (سعد الحديثي) بالجهاز الأمني للنظام، واستخدام الأخير له كي يعمل في خدمتهم ويشي برفاق القيادة ومن ثم الإيقاع بهم، وقد ترافق ذلك مع الفترة التي تم بها اغتيال الشهيد الرفيق محمد كريم، وتؤكدان صدق رواية الصديق محمد القيسي الي أوردناها سابقا.

يذكر محمد يعقوب الهنداوي: " وقبل عودتنا، أمي وأنا، الى بغداد اخذنا شقيقي عبد الحسين الهنداوي الى "كلاله" حيث سيارات اربيل، وعندما توجهنا في العودة الى بغداد أعطاني أخي حقيبة جلدية سوداء كانت محشوة بالمنشورات الورقية، وقال علينا أن نأخذها معنا الى بغداد ونسلمها للرفيق (منصور) (سعد الحديثي) وقبل أن

أسأله عن أي شيء ظهر الرفيق (منصور) وقال إنه سيسبقنا الى بغداد وسيأخذ مني الحقيبة عند باب سينما الفردوس في ساحة النهضة بشارع الكفاح، وكان واثقا من نفسه ومطمئنا تماما. وتكرر الحديث نفسه بعد ستة أشهر تقريبا لكن دون رسالة مكتوبة هذه المرة. فبينما كنت أعادر مدرستي (اعدادية النضال) في شارع الجمهورية ناداني شخص من الخلف باسمي الحقيقي (محمد) بصوت مكتوم، وكان (سالم) الذي سبق وقدمه لي الرفيق منصور من قبل كعضو في خليةنا. وأخذني (سالم) لنتمشى بعيدا عن المدرسة ليخبرني أن عليّ الذهاب الى المقر في (ناوكيلكان) مرة أخرى.

ركبنا سيارات (كلاله) وما أن بلغنا سيطرة التفتيش في (حرير) حتى أوقفنا سيطرة أمنية للتفتيش وأنزلونا من السيارة وقالوا إنهم يعرفون الى أين نحن ذاهبون فلا داعي للكذب والمراوغة، وأسقط في أيدينا. أخذونا بسيارتهم الى دائرة (أمن أربيل) وبعد أن فتشونا أركبونا في سيارة بيكاب، ومعنا ضابطين أمنيين مسلحين بالبنادق، وسارت السيارة الى بغداد عن طريق الموصل، ووصلنا (مديرية أمن بغداد) في حوالي الساعة الثانية صباحا. بقينا في الموقف العام لمديرية أمن بغداد ثلاثة أيام هي فترة العيد، بدأت بعدها التحقيقات وجلسات التعذيب "الترحيبية". وأمر رئيس الجلادين (داود الدرة) بأن تقاد أمني الى سجن النساء في الزعفرانية، وأحال أنا الى قصر النهاية ليتولى ناظم كزار وطواقمه التحقيق معي هناك".^(٩١)

يذكر- أيضا -الرفيق عبد الحسن حسين: ".... كُلفت بالذهاب الى بغداد بمهمة حزبية هي إيصال الرفيق المطلوب الى كوردستان وكان الموعد في أحد مقاهي الكاظمية مساء يوم ٢١ شباط ١٩٧٢ وبدلا من مجيء هذا الرفيق وجدت في انتظاري رجال الأمن وبعد أن تم اعتقالني اخذوني الى سيارة متوقفة على مقربة من المقهى وعندما وضعوني فيها تفاجأت بوجود (منصور) سعد الحديثي بداخلها وكان يعرفني

(٩٠) محمد يعقوب الهنداوي -رسائل الضبع وعواقبها-مذكرات شيوعي -الحوار المتمدن ٢٥/٨/٢٠١٩.

من خلال وجودنا معا في كوردستان، وعندما فتشوا جيوبي وجدوا دفتر الخدمة المزور باسم (هاشم حميد زكروط العظيمي)، تبين بعد القاء القبض علي ان هذا الدفتر مرسل من قبل الأمن عن طريق العميل (منصور) واسمه معمم على كافة السيطرات، وقد أعلن (منصور) أنه ارسله الى المقر ليكون مصيدة لحامله. أما رفيقي الذي كنت بانتظاره فقد سلمه (منصور) الى الأمن قبل اعتقالي". (٩٢)

يذكر الصديق د. سامي إسماعيل في رسالة منه مؤرخة في ٢١ حزيران ٢٠٢١ تحدث فيها عن سعد الحديثي:

في منتصف العام ١٩٦٧ عندما عضواً في التنظيم الطلابي للحركة الاشتراكية العربية تعرفت على السيد سعد الحديثي وكان عضواً عاملاً في ذلك التنظيم من خلال العديد من اللقاءات والاجتماعات والنشاطات التنظيمية المشتركة لهذه الحركة، وبعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ بدأ تنظيم الحركة بالانكماش، وقلّت اللقاءات بين أعضاءه، ولهذا انقطعت أو إنعدمت اللقاءات معه. وخلال أحد أيام العام ١٩٧٠ وكنت حينها طالباً في المرحلة الأخيرة من كلية الصيدلة، التقيت بسعد الحديثي مصادفة في بداية شارع الرشيد وطلب مني - بعد أن بيّن لي أنه يعمل في تنظيم إحدى مجموعات الكفاح المسلح- أن أهنيء له مستلزمات علاجية يحتاجها لإمداد مجموعة ذلك الكفاح المسلح، وحينها شعرت بالريبة والاستغراب من جرأته في الإفصاح عن عمله السياسي رغم ابتعادنا عن بعضنا لأكثر من عام ونصف، كذلك الظرف السياسي والأمني الصعب والشائك والخوف السائد في العراق آنذاك. اعتذرت له عن إمكانية تهيئة تلك المستلزمات المطلوبة لكوني لا زلت طالباً، وبسبب ما راودني من شكوك ومن عدم توفر الثقة في الهدف المطلوب. بعد وقت من الزمن لا يمكنني تحديده، علمت أن سعد الحديثي قد تم إعتقاله.

(٩١) ذكريات لا يمحوها الزمن أيام في معتقل قصر النهاية - عبد الحسن حسين يوسف-الحلقة الثالثة- الحوار المتمدن - ٢٠١٨/١/١٤.

من خلال ما ذكره الصديق سامي إسماعيل يتضح أن الحديثي التحق بتنظيم حزب القيادة المركزية - كما بيّنا سابقاً- وإن اعتقاله وخروجه من المعتقل في ذلك الظرف دليل على أنه قد تعاون مع الأجهزة الأمنية للسلطة، ويبدو أنهم بعد اعتقاله وإرهابه وهم القادرون في التهيب والتعذيب الجسدي والنفسي وخبرتهم في الحصول على ما يريدونه منه، تمت مساومته في إطلاق سراحه مقابل التعاون معهم وتسخييره للعمل في خدمتهم، كما بيّن وتأكّد من الفقرات السابقة التي تناولت سيرة الحديثي والاعمال التخريبية التي قام بها.

مصطفى جاورش/ كان شاباً نحيفاً صلب العود، ذا نظرات حادة كالنسر، يوحي لك بالعزيمة والاصرار، وهو أحد رفاقنا القادمين من السليمانية، على رأس إحدى الخلايا التنظيمية الصدامية، حيث خاض عدة صدامات في باب الشيخ ومنطقة الصدرية، كما قام مع رفاقه بعملية مسلحة ضد شركة السكائر في بغداد، فاستولوا على مبلغ ٨٥٠٠ دينار منها، وقد استطاع الافلات من قبضة السلطة المهاجمة، رغم عدم إمامه بمناطق العاصمة، بشجاعته وحذره، اللذين أفلت بهما أيضاً من مدهمة رجال أمن لوكر كان يلتقي فيه مع رفاق آخرين في منطقة بغداد الجديدة. يذكر جاورش أنه قدم إلى بغداد من السليمانية بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨م ملتحقاً بالقيادة المركزية عن طريق الرفيق فاروق ملا مصطفى، ثم ارتبط بالرفيق أحمد الحلاق "أحد أعضائها"، وبعده بصالح العسكري، فأصبح عضواً في قيادة جهازها الصدامي مع الرفاق: كمال شاكر، كمال جمال، لطيف مراد، جمال علي فائز، ملا رؤوف، أكرم محمد أمين الملقب بأكرم حفصة وهو ابن خالته الذي ألقى القبض عليه في السليمانية في الثمانينات وأعدم هناك. كما يذكر أنه ورفاقه في السليمانية، قبل مجيئه إلى بغداد، عندما كان مسؤوله الرفيق شيخ علي الكاتب الكردي المعروف (والد بختيار)، قاموا بعملية مسلحة ضد وزارة التربية فحصلوا منها على مبلغ ١٤,٥٠٠ دينار، سلموه كاملاً للقيادة المركزية حينها.

مطرش حوَّاس / كان عضوا في حزب القيادة المركزية، وناشطا في اتحاد الطلبة العام، ورفيقا شجاعا غير هيَّاب من الموت، وضع روحه على كف يده مقارعا الدكتاتورية من أجل قضية شعبه وحقه في الحياة الحرة الكريمة. فقد خاض معركة هو ورفيقه حسن علي أمين، رئيس اتحاد الطلبة في معهد الادارة والسكرتارية، تصادما خلالها مع مفرزة أمنية قرب جسر الصرافية، في الباب المعظم، فتبادلا إطلاق النار مع شخص كان يتعقبهما عندما هربا بأحد باصات نقل الركاب وقتلاه أثناء تبادل النيران معه. لكنهما اعتقلا وأودعا قصر النهاية الذي كان أخوه الرفيق المناضل كريم حوَّاس معتقلا فيه أيضا آنذاك، وعند محاكمته امام شاكر مدحت السعود الرئيس المعروف بأحكامه القاسية على الشيوعيين في المحاكم العرفية، لم يحكمه بالإعدام حسب التوجيهات وإنما حكم عليه بالسجن المؤبد لأن القتل لم يكن من المفرزة المكلفة باعتقاله، وإنما كان عنصرا بعثيا تصادف وجوده أثناء محاولة اعتقال مطرش فقام بمطاردة مطرش ورفيقه وقتل أثناء المطاردة. وعلى إثر ذلك الحكم أحيل شاكر مدحت السعود على التقاعد وشكلت محكمة عسكرية أخرى حكمت عليه بالإعدام... وبعدها أن قضى في زرنانات الإعدام فترة طويلة تم تنفيذ الحكم بحقه، رغم مناشدات دولية لإيقافه، حيث سعد لمنصة الاعدام هاتفا بحياة الحزب الشيوعي فكان موقفه هذا شجاعا وبطوليا.

نوري كمال العاني / كان برأس مستطيل قليلا وعينين سوداوين واسعتين جاحظتين وسحنة بيضاء، هكذا كنت أشاهده وهم يحملونه في طريقهم إلى زرنانته، بينما أطلق لسانه العنان يشتمهم، يحقِّرهم وينعتهم بأرذل الصفات، مرددا (أيها الفاشيون القتلة، يا سفالة السياسة، ويا أعداء الوطن، أيها الدمويون "الشباطيون" لا يمكنكم القضاء علينا، نحن كنبته "الثيل" كلما حاولتم جزها بقيت جذورها ونمت سيقانها وأوراقها من جديد، أيها المنافقون الكذابون أذعيا الوحدة والحرية والاشتراكية، زورا وبهتاناً". لقد ارتسمت على محياه صورة التحدي والاحتقار لسجانيه، وهو الذي لم يبق منه غير لسانه سليما، بعدما حطّموا جسده، فأمسى لا يقدر على تحريك يديه أو السير

على رجليه، من شدة وهول التعذيب الذي مارسوه بحقه، فقد أستشهد داخل معتقل القصر من جراءه.

كان يعمل مع "فريق الكادر-نجم محمود-ابراهيم علاوي" قبل أن يلتحق بتنظيمات القيادة المركزية حسب ما ذكره فاروق مصطفى في حوارى معه فى السليمانية عام ٢٠١٥م.

هاشم الآلوسى / عمره لا يتجاوز الثلاثين، أسمر اللون شعره أسود فاحم، ابتسامته لا تفارق محياه فى أى ظرف كان فيه، ناشطا مثابرا وجريئا مقداما، قاد العشرات من رفاقه الذين جمعهم بعد انقلاب شباط ١٩٦٣م، حيث الضربة الموجعة التي تلقاها الحزب الشيوعى، ليساهم فى انتفاضة ٣ تموز ١٩٦٣م، التي سميت بانتفاضة معسكر الرشيد أو حركة حسن سريع، وقد كتب تقريرا تقييما عن قواها، وارتباطها بالحزب، وعن عوامل قيامها، ونواقصها، وتنفيذها، وأسباب فشلها، رفعه إلى اللجنة المركزية عام ١٩٦٨.

ذات مرة، أثناء اقتيادي إلى غرفة التحقيق، تقاطع معي فى الطريق مطلا على بوجهه الطفولى، وقد حمله شخصان عائدين به من هذه الغرفة إلى زنانه الانفرادية وهو لا يستطيع الحراك، ولا يملك القدرة على الكلام لإصابة برأسه. نظر إلي بعينين غائرتين يشع ويبرق منهما روح التحدي والاصرار، لكن فيهما نظرة وداع للحياة، يتخللها عتاب أو رجاء كأنه يطلب منا الثبات والصمود وعدم التخاذل أمام الجلاد، وعندما غاب بعيدا عني فى الممر لم أراه بعد ذلك، ثم تأكدت لاحقا أنه استشهد جراء التعذيب.

هاشم نادر / كان فى زنانه مقابلة لزنانتى، كنيته "أبو هندرين"، شاربه كث وتسريحة شعره تقليدية يعطيانه عمرا أكبر من عمره، وشجاعته وصلابته تحببانه إليك فتشعر بأنه قريب منك. لما انتقلنا إلى قاعة واحدة حدثنا عن عزت الدورى، عندما كان معتقلا معه منتصف الستينيات فى معتقل "خلف السدة"، فقال (بدا لي شبيها

بالطبل الفارغ الأجوف، وقد اشرب رأسه الصغير من بين كتفيه، ليبدو كصوص خرج لتوه من بيضة فقس، لا يخزن في ذاكرته غير حكايات ألف ليلة وليلة التي كان يرويها على الحضور، ونحن على بعد أمتار من مجلسه حيث نستمع إليه ثم يختم قائلاً "ولما انبلج الصباح توقفت شهرزاد عن الكلام المباح"، بينما الآخرون يتحدثون عن فضاءات أخرى شملت السياسة والثقافة والاقتصاد ويظهرون اطلاعهم على أمهات الكتب في الرواية والشعر والفلسفة ونظريات المعرفة وغيرها).

كان معنا معتقلين آخرين أذكر منهم صباح متي وكاظم مهلهل، وليث الرفيعي وهادي العطار والآخران هما من أبناء محلتنا في الكرادة الشرقية وقد أطلق سراحيهما وأنا لم أزل في المعتقل.

ب-رفاق استشهدوا

هنا أستحضر أسماء المناضلين الذين استشهدوا داخل قصر النهاية موتاً، تحت التعذيب وفي التحقيق، أو إعداماً، مباشرة وبعد تعذيب، أو تصفية، فضلاً عن اغتيلوا خارجه:

* أحمد الحلاق / عضو المكتب السياسي للقيادة المركزية. / مات تحت التعذيب / شباط ١٩٦٩.

* أمين الخيون / اغتيل خارج القصر / ١٩٧١.

* جبار محمد علي الربيعي / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / شباط ١٩٦٩.
* حاتم سجان / عضو قيادة الجهاز الصدامي المركزي / تمت تصفيته داخل القصر / ١٩٦٩.

* حسن علي أمين / عضو حزب القيادة / تم إعدامه / ١٩٦٩.
* متي هندو / عضو المكتب السياسي للقيادة المركزية / مات تحت التعذيب / شباط ١٩٦٩.

* مطش حواس / عضو حزب القيادة / تم إعدامه / ١٩٦٩.
* سامي محمد علي الجصاني / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / ١٩٦٩.

* نوري كمال العاني / كادر قيادي في حزب القيادة / مات تحت التعذيب / ١٩٦٩.
* شعبان كريم / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / ١٩٦٩.

* وردة داوود / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / ١٩٦٩.

* كشاش مكور / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / ١٩٦٩.
* كمال قادر / عضو الجهاز الصدامي في حزب القيادة / تم إعدامه بعد تعذيبه / ١٩٦٩.

*لطيف محمد مراد/ عضو الجهاز الصدامي لحزب القيادة / تم إعدامه بعد تعذيب/
حزيران ١٩٦٩.

*محمد كريم مراد/ عضو قيادة الجهاز الصدامي لحزب القيادة / تم إغتياله خارج
القصر/ ١٩٧١.

*هاشم الألوسي/ عضو منطقة بغداد لحزب القيادة / مات تحت التعذيب/ ١٩٦٩.

*مأم عبد الله / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / قصر النهاية / شباط
١٩٦٩.

*فائق الياس / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / قصر النهاية / شباط ١٩٦٩.

*صبري موسى عطية / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / قصر النهاية /
شباط ١٩٦٩.

*عادل كريم التميمي / عضو في مجموعة أمين الخيون/ مات تحت التعذيب / قصر
النهاية / شباط ١٩٦٩.

*نصر الدين مجيد / عضو الجهاز الصدامي في حزب القيادة / مات تحت التعذيب /
شباط ١٩٦٩.

*عدنان طه الكاكيه يي / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / كانون الثاني /
١٩٧١.

*كامل نامق / عضو حزب القيادة / مات تحت التعذيب / نيسان ١٩٦٩.

*عزيز فعل ضمّد/ تم إعدامه بعد تعذيب/ ١٩٦٨.

ت-معتقلون آخرون

لم نكن وحدنا -نحن الشيوعيين- في معتقل قصر النهاية، بل كان فيه معتقلون سياسيون آخرون... من المرحلة العارفية: طاهر يحيى، عبد الرحمن البزاز، رشيد مصلى التكريتي، عبد الكريم فرحان، عبد الكريم هاني، صبحي عبد الحميد، عبد العزيز العقيلي، أنور ثامر، ومن حزب البعث "اليسار" (أطلقت عليهم الهيئة التحقيقية تسمية "المنشقين" وكانت تحاول منعنا من الاختلاط بهم): حسن ذهب، غازي الربيعي، هاشم الموسوي، جبار المالكي، يوسف النعمة، طه النعمة، جلال شاكر التكريتي، صلاح المختار، ومن الحركات القومية: عبد الإله النصراوي، إياد سعيد ثابت، فؤاد الركابي، ومن الحزب الديمقراطي الكردستاني: عدنان كاكائي، وشخصيات دينية كعبد العزيز البدري، وحسن الشيرازي.

الشيخ عبد العزيز البدري

طويل القامة، ضخمة الجثة، كث اللحية، مكتنز الوجه مستديره، كما رأيته حين: ربطت عيناه وجرده من ملابسه سوى سرواله الأبيض الطويل وقميصه الداخلي ذي الكمين القصيرين، وقف منتصبا في الممر الفاصل بين صفي الزنانات الفردية، قيدت يده بحبل إلى الشباك العلوي من الواجهة الخارجية لباب إحدى الزنانات الفردية، وكلما مر أحد أفراد جلاوزة التعذيب تلك الأدوات الصفيقة لممارسة التعذيب تجاه المعتقلين، يوجه له إما صفة أو ركلة أو يبصق عليه بعد أن يسمعه بذيء الكلام، وهذه العملية تتكرر سواء في النهار أو في الليل عندما كانوا يزورون الزنانات إما لإيداع أحد المعتقلين فيها الذي جاؤوا به من غرفة التحقيق التي لا تبعد كثيرا عن موقع الزنانات أو لأخذ آخر إلى غرفة التحقيق كي يمارسوا معه حفلة تعذيب لانتزاع اعتراف منه، وفي هذه الأثناء وعندما يسمع أصواتهم أو وقع أقدامهم لأنه معصوب العينين يردد "عطشان يا إخوان، أرجوكم باسم الله وباسم نبيه، هل من شربة ماء أبل بها فمي المتخشب؟"، - لأن من التجربة معهم عندما كانوا يمارسون التعذيب معنا

كنا نشعر أن فمنا أصبح كالخشبة الجافة - هكذا كان يستغيث بهم، وبينما هو بهذه الحال وإذا بحسن المطيري يمر عليه قائلاً بصوت عالٍ "أبشر يا شيخنا غالي وطلب رخيص"، وقد أمهله هنيهة كأنه ذاهب لجلب الماء له، ثم يقترب منه - موهما إياه أنه قادم لسقيه به - ليرفع صوته العالي "فتح فمك شيخنا كي أسقيك"، وبينما فتح الشيخ فمه على وسعه - متلهفاً أن تسقط فيه قطرة ماء - أشعل المطيري ولاعته الغازية ليملاً بشعلتها فم الشيخ، الذي صرخ إثرها بألم مردداً "حسبي الله ونعم الوكيل!" أراقبه من كوة زنانتني القريبة منه، فقد مر عليه يوم بأكمله وهو بهذه الحال: واقف على رجليه، مقيد اليدين، ملتصق بباب الزنانة، بعدها نقلوه إلى مكان آخر داخل القصر، وضعوه في حوض "بانيو" مليء بالماء البارد فيما الفصل شتاء، وبعدما تركوه مدة فيه أعادوه ثانية إلى غرفة مجاورة للحمام، ألقوه على بلاطها، وأداروا مروحتها السقيفة لتسلط الهواء عليه، فأصيب بالتهاب رئوي حاد، ما جعلهم يرتبكون محاولين إنقاذ حياته، فهينوا له سريراً ألقوه عليه وعلقوا له مصلاً مغذياً، واحضروا له طبيباً، هو الوزير السابق الدكتور عبدالكريم هاني "معتقل أيضاً"، حاول علاجه دون جدوى، لكن ما أن مضت ليلتان فقط حتى توفي البدري.

حدثنا المطيري عما أعقب ذلك، وهو يقف وسط الممر الذي يفصل بين الزنانات قاصداً ترهيبنا - حتماً - فقال (عندما نقلناه من هذا المكان بعد وفاته، سلمنا جثته بتابوت إلى ذويه في الأعظمية، ولما أزاح أخوه (ضابط شرطة برتبة عقيد كما ذكر المطيري) غطاء تابوته، وكشف عن الجثة وجد آثار تعذيب على جسده، فصرح بأنه "لم يمت موتاً طبيعياً، إنما مات جراء التعذيب الذي مورس ضده"، وهنا ضج الناس حوله، وخوفاً من خروجهم في تظاهرة احتجاجية، (لما له من منزلة وتقدي كبيرين في حيّه وبين أتباعه ومريديه) قال إتصلنا بأخيه حالاً، وأبلغناه الآتي "إسمع جيداً...نحن البعثيين من قتل أخاك، فاغلق فمك، إن فتحتة ثانية سنرسلك لعائلتك كما أرسلناه لك مسجى في تابوت).

لقد كان الشيخ عبد العزيز البدري صامدا ثابتا لم يهتز لجميع أنواع الممارسات الشائنة من عنف وتعذيب وعسف وامتهان وإهانات مورست عليه من محققي سجن قصر النهاية طيلة فترة وجوده هناك، وبقي ثابتا لم يتفوه بكلمة واحدة حتى وافاه الأجل في القصر بسبب هذا التعذيب الشنيع الذي مورس ضده.

ان الشيخ البدري هو شخصية إسلامية ويعتبر من المفكرين والدعاة الإسلاميين الذين خاضوا النضال الميداني، فقد كان قائدا لحزب التحرير الإسلامي في العراق، ونعرف ما كان لهذا الحزب من دور في الحياة السياسية في تلك المرحلة. له مؤلفات عديدة منها: الإسلام ضامن للحاجات الأساسية / حكم الإسلام في الاشتراكية / الإسلام بين العلماء والحكام / الإسلام حرب على الاشتراكية والرأسمالية / كتاب الله الخالد - القرآن الكريم.

فقد قال عنه عبد الله العقيل : "هو عبد العزيز بن عبد اللطيف البدري، ولد في بغداد سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩م، وأصله من مدينة سامراء، ونشأ في بيئة علمية وتلقى دروسه الدينية على يد طائفة من علماء بغداد، ومنهم الشيخ أمجد الزهاوي، والشيخ محمد القزلي، والشيخ عبد القادر الخطيب، ومحمد فؤاد الألوسي وغيرهم، ونال إجازاته العلمية وعين إماماً في مسجد السور سنة ١٩٤٩م، كما عين خطيباً في جامع الخفافين سنة ١٩٥٠م، ثم نقل إلى جامع الوشاش وبعده إلى جامع الحيدر خانة في شارع الرشيد، وقد تنقل بوظيفته في كثير من مساجد بغداد. (٩٣)

وكتب عنه وليد الأعظمي: "كان البدري واعظاً وخطيباً مفوهاً وجريئاً في قول الحق، وكان رجلاً مجاهداً ومتحمساً في الدعوة للإسلام، وقد تصدى لعبد الكريم قاسم، وقاد المظاهرات التي طالبت بسقوطه، كما أصدر الفتوى بتكفير الشيوعيين وطالب بمحاربتهم.... فلم يهدأ ولم يتوقف عن الخطابة والتهجم على الحكومة، وتأليب

(٩٣) من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة - تأليف المستشار عبد الله بن عقيل بن سليمان العقيل - دار التوزيع والنشر الإسلامية - الطبعة الثالثة - مصر - ٢٠٠٦م - صفحة ٦٣٣.

الناس ضدها. أنتسب الشيخ إلى حزب التحرير ليصبح عضواً فعالاً فيه، إلى أن أصبح أمير ولاية العراق في حزب التحرير الإسلامي، وأخذ يدعو لأفكار الحزب في تطبيق الشريعة وإقامة الخلافة الإسلامية، ويكتب بيانات ونشرات الحزب ويوزعها".^(٩٤)

السيد حسن الشيرازي

شاب في العقد الثالث من عمره، قصير القامة، ضئيل الجسم، أبيض السحنة، تغطي وجهه لحية سوداء، حاسر الرأس، يرتدي سروالاً أبيض طويلاً وقميصاً، حيث ربطت عيناه وقيّدت يده إلى شباك إحدى الزنانات - بنفس الطريقة التي ربط بها البدري -، لكنه صامت لا يتكلم، وجهه يملؤه الرعب والخوف، ولم نعرف عنه شيئاً بعد أن فكوا وثاقه من الشباك ونقلوه إلى مكان آخر، وقد علمت بعد خروجي من المعتقل أنه اغتيل خارج العراق.

لقد كان السيد حسن الشيرازي يعمل ضمن تيار فكري سمّي التيار الشيرازي نسبة إلى المرجع الراحل السيد محمد مهدي الشيرازي، وكانت كتاباته وأخوته: حسن الشيرازي (اغتيل في بيروت عام ١٩٨١ م) وصادق الشيرازي، (المرجع الحالي في قم) وأبناء اخته (محمد تقي المدرسي وهادي المدرسي) ومجموعة كبيرة من مثقفي التيار - وهم في الغالب من رجال الدين - قد رفدت الساحة الشيعية على وجه الخصوص و الإسلامية عموماً بفيض من الكتابات الثقافية المتقدمة، وبرز في التيار من عمل على صياغة خطاب شيعي ثوري و مفاهيم اصلاحية، و كان لمؤلفات محمد مهدي الشيرازي و أخويه حسن و صادق الشيرازي و ابن أخته محمد تقي المدرسي دور محوري في التأسيس لحركة شيعية متطورة في المجال العربي، و هي ليست بعيدة عن التأثيرات الواضحة لأفكار اليسار الشيعي الإيراني ممثلاً في المفكرين الثوريين امثال علي شريعتي و جلال آل احمد، و صنّف التيار بوصفه تياراً فكرياً

(٩٤) أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران - وليد الأعظمي - مطبعة الأخوان - بغداد ٢٠٠١م -
صفحة ٢١٥.

تقدّميا داخل المجال الشيعي، وأمّكن القول بأنّ الشيرازيين كانوا في عقد السبعينيات و الثمانينيات من القرن الماضي روّادا في تأصيل خطاب ثوري بمواصفات شيعية عربية جنبا الى جانب الخطاب الثوري الايراني، إلا أنّ الخط التقليدي داخل تيار الشيرازيين عمل على تجديد انبعاث التشيّع الغيبي القدري، واستعاد هذا الخط التقليدي زمام المبادرة في التيار الشيرازي، وأزاح الخط الثوري فيه وارغمه على مجارته، و بهذا تم تحويل التشيّع من فكرة ثورية الى ممارسة طقسية، وبدأت النزعة الخرافية تطغى على تيار الشيرازي حتى فرضت نفسها على حركته الدعوية على المستوى الاجتماعي.

السيد حسن بن مهدي الحسيني الشيرازي (١٩٣٧ - ١٩٨٠). هو رجل دين ومفكر شيعي عراقي ولد في مدينة النجف الاشرف في العراق سنة ١٩٣٧ م، وأغتيل في أيار ١٩٨٠ م في بيروت على يد مجموعة مسلحة من جهاز المخابرات العراقي بينما كان متوجهاً للمشاركة في مجلس الفاتحة الذي أقامه هو بمناسبة رحيل المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى على يد النظام العراقي.

ينحدر من اسرة عريقة في العلم والسياسة والفضل، المجدد الشيرازي الأول السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي، والميرزا محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين في العراق، ووالده المرجع الديني الميرزا مهدي الشيرازي اجتهد على يد مراجع كبار واهتم بالجوانب الفكرية والاقتصادية والسياسية إلى جانب تخصصه في الفكر الإسلامي.

مارس دوره الموجه في الحوزة العلمية في كربلاء المقدسة وغيرها، إلى جانب تربيته لها وذلك بالتعاقد مع اخيه الأكبر الإمام الراحل المجدد الثاني اية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، وقد أمضى ' فترة طويلة من حياته بين الاعتقال والنفي.

اتخذ من لبنان مقرا له عام ١٩٧٠ م، وقبل ذلك كان يتردد كثيرا على سوريا، أسس جماعة عام ١٩٧٧ م إلى جانب تبنيه لها كما أسس الكثير من المؤسسات التربوية والثقافية والدينية والاجتماعية في كل من العراق وسوريا ولبنان وأوروبا وأستراليا وساحل العاج وسيراليون ونيجيريا وكينيا.

وضع أول لبنة في تأسيس الحوزة العلمية الزينية في سوريا عام ١٩٧٥ م وقد خرجت هذه الحوزة منذ تأسيسها إلى اليوم المئات من الطلاب من مختلف الجنسيات وتعتبر اليوم أكبر وأهم الحوزات في هذه البلدة الطيبة وهي ما زالت اليوم تمارس كل الصيغ للوصول إلى تحقيق الاهداف الإسلامية عامة.

وقد وضع أول لبنة فيما يتعلق بالعلاقات مع العلويين الشيعة في سوريا ولبنان واستطاع أن يزيل الأوهام التي تعلق بمخيلات البعض عن هذه الفئة من المسلمين الشيعة، دافع وبحماس عن كافة حركات التحرير العالمية وخاصة حركات التحرير الإسلامية، وقف بثبات ضد الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية، دافع عن قضايا لبنان وخاصة الجنوب في كل المحافل والمناسبات، وأكد على وجوب تحقيق الوفاق الوطني، كما قدم مساعدات مالية ومعنوية للجنوب اللبناني لكثير من العوائل التي شردت نتيجة الحملات الصهيونية.

قام بزيارة إلى أفريقيا (ساحل العاج، كينيا، السودان، جنوب أفريقيا) لأغراض الدعوة الإسلامية ونشر مبادئ الدين

وفي سوريا قضى الشيرازي فترة يتجول في المناطق التي يغلب عليها انتشار الطائفة العلوية لزيارة أبناء هذه الطائفة واللقاء بهم، ثم شدّ رحاله إلى طرابلس اللبنانية بأمر أخيه محمد الشيرازي الذي كان من مشاهير مراجع الشيعة الإثني عشرية في وقته، والتقى «بجماعة من أفاضل علمائهم ومثقفهم وجموع من أبناء المدن والقرى في جوامعهم ومجامعهم»، وبعد ما يقارب الثلاث أشهر من دراسة الطائفة العلوية والاختلاط بأبنائها أصدر الشيرازي بياناً مشهوراً بخصوص الطائفة العلوية مؤرخ بتاريخ

الحادي والعشرين من ذي القعدة ١٣٩٢ هـ قال فيه أنّ «إنّ العلويين هم شيعة ينتمون إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالولاية»، ثم قال أنّ «العلويين والشيعة كلمتان مترادفتان مثل كلمتي الإمامية والجعفرية فكل شيوعي هو علوي العقيدة وكل علوي هو شيوعي المذهب». (٩٥)

عدنان كاكائي/ رجل شجاع، لهذا كسروا له ساقا أثناء تعذيبه، فكان لا يستقيم في مشيته، أي "يضع" قليلا، كما كنت أراه عندما يخرجوننا من الزنانات إلى الحمامات. كان يتحدث إلي، من وراء الجدار الذي يفصل بين زنانتينا، بلغة عربية ركيكة" لقد اعتقلوني بتهمة مفادها إني قادم من كردستان إلى بغداد لأقوم بعمليات تخريب واغتيال قادة ومسؤولين بعثيين". ذات يوم نودي عليه فاقتيد إلى خارج المعتقل، وبعد غياب استغرق النهار كله عاد ليقول إنه كان في المحكمة وروى لي ما حصل معه فيها (بينما أنا في قفص الاتهام نادى عليّ حاجب المحكمة، ثم على المتهمين الآخرين باسميهما "المتهم مصطفى البرزاني" و "المتهم عبدالحميد الأتروشي"، ووجهت لهما تهمة التآمر والخيانة والتحريض وإعطاء الأوامر إلى "المتهم عدنان" لتنفيذ أعمال قتل وتخريب، وعندما ذكر الحاجب الاسمين تلقّت يمينا ويسارا، وقد جف فمي وتجمد الدم في عروقي وأنا أنتظر لحظة دخولهما إلى القاعة، حيث اتخذت قرارا لا رجعة عنه "إذا رأيتهما بأمر عيني سأنتحر"، لأن اعتقالهما يعني أن الثورة الكردية المسلحة قد انتهت". هكذا قالها ببساطة وعفوية، وقد عذرت له لأنه لا يدرك أصول المرافعات في المحاكم، فالعادة جرت أن ينادى حاجب المحكمة أمام القاضي بالاسم الصريح للمتهم سواء كان حاضرا أم غائبا، وعندما وضحت له هذا السياق تنفس الصعداء وأزاح من رأسه فكرة الانتحار، لكنه غاب عنا ولم أعد أشاهده ويبدو أنهم قتلوه داخل القصر عام ١٩٦٩م.

(٩٥) بيان السيد حسن مهدي الشيرازي المسلمين العلويين -المكتبة الإسلامية العلوية نسخة محفوظة ٠٩ نوفمبر ٢٠١٧ على موقع واي باك مشين.

ث-صورة من الإذلال

هنالك ذكريات مؤلمة مفعجة تطل على برأسها من قصر النهاية الكريه عبر الممارسات الوحشية الممعة، في إذلال الانسان وامتهان كرامته وأدميته، والتي كان يقترفها السجنون ضد المعتقلين بأمر المحققين. فقد كانوا يأتون إلينا في أوقات معينة يفتحون أبواب الزنانات لغرض التنظيف، وتبقى مشرعة مدة محددة، خلالها يسوقون مجموعتين معدتين لهذا الغرض: إحداهما بإدارة "طاهر يحيى" رئيس الوزراء السابق-آخرهما بإدارة "عبد الرحمن البزاز" رئيس الوزراء الأسبق. ضمت هاتان المجموعتان: عبدالكريم هاني" وزير سابق"، أنور ثامر" مدير أمن عام ومحافظ البصرة سابقاً"، عبدالعزيز العقيلي" وزير الدفاع السابق"، رشيد مصلح التكريتي "الحاكم العسكري السابق"(صاحب فضل كبير على صدام حسين فترة هروبه، حيث حماه من الاعتقال، أواسط الستينيات، عندما خبأه في بيته)، جميل صبري مدير الامن السابق (الذي رفض تنفيذ أمرهم بنقل القمامة فانهاالوا عليه ضربا بالعصي حتى أغمي عليه ونقل الى زنزانه، والتفت الى الاخرين ناصر فنجان "السجان" الذي كان يقود حملة الضرب، وقال لهم ، لو رفضتم العمل مثل جميل لاعفيناكم من نقل الازبال) ، صبحي عبد الحميد" من ضباط ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، وزير سابق، رئيس الحزب الاشتراكي العربي"، عبدالكريم فرحان" من القوميين العرب، وزير سابق، أحد ضباط ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م"، ونايف بطة رئيس المحكمة العسكرية العرفية التي حكمت بالإعدام على البعثي طالب كلية الطب في الصف المنتهي في الموصل ممتاز قصير في زمن حكم عبد السلام عارف، ونفذ فيه الحكم. وقد نال منهم نافع بطة الإذلال الأقصى، فكان حسن المطيري يسوقه بالعصى والكفخات حاثا إياه على تجميع علب الأصباغ الفارغة التي نستعملها للتبول ليفرغها ويعيدها إلى مكانها. وفي أحد المرات انهار نافع بطة وأخذ يستنجد بالله والأنبياء فانهاال عليه حسن المطيري يشبعه ضربا بالكييل وينهاال عليه رفسا بأرجله وهو جسد هامد وممدد على الأرض وأثناء الضرب كان يشتمه ويشتم الذات الإلهية التي يستنجد بها نافع بطة. وفجأة توقف حسن

المطيري عن ضربه والتفت إلى أحد الزنانات حيث نافع بطة مرمي عند بابها وقال : سمعت أحدكم، وأشار إلى عضو القيادة المركزية خضير الزبيدي (أبو ماجد)، يقول متعاطفا مع نافع بطة "الله كريم، إلك أله" فأنكر الزبيدي انه تفوه بذلك، إلا أن حسن المطيري كان في حالة أشبه بالجنون فسحب الزبيدي الى خارج زنزانتة وانهاهال عليه ركلا وضربا بالكيبل واستمر بضربه على جميع أعضاء جسمه إلى أن أتتهكه التعب، أما خضير فقد أمسى كتلة لحمية تنزف منها الدماء، وبعد مغادرة المطيري سحبه المتواجدون معه في الزنانة إلى داخلها. كل هذا جرى بالفترة التي كانت قيادة المعتقل من البعثيين قد بدأت تعلن للمعتقلين الشيوعيين أنهم قوة تقدمية وأن هؤلاء المعتقلين هم من العملاء والرجعيين الذين تأمروا عليهم وإنما في الأول والآخر تقدميون مثلكم في خندق واحد اتجاه المؤامرات الرجعية العميلة، وليؤكدوا ذلك جعلوا يسألون رشيد مصلح أمام المعتقلين الشيوعيين: ألسنت أنت من أصدر البيان رقم ١٣ عام ١٩٦٣ بإبادة الشيوعيين لتجعل نهر دم يفرق القوى التقدمية؟ (كان مشهدا سينمائيا وسيراليا مذهلا مؤلما وأنت تشاهد هؤلاء بهذه الحالة المزرية: حفاة الأقدام، حاسري الرؤوس، وقد استمكن الهلع والخوف منهم).

١-معتقلون

عبد الرحمن البزاز/ حاول الاعتذار عن هذا العمل، لكبر سنه ولمرضه، لكنهم أجبروه حتى على نقل علب البول والأزبال ومسح الأرض بروبه الحريري المبطن الذي كان يرتديه عندما اعتقلوه، وبعد بضعة أيام أصبح هذا الروب قطعاً ممزقة من كثرة المسح، بل أنهم ذات مرة أمروه بجمع أحذية المعتقلين المرمية عند عتبات أبواب زناناتهم، كي يعيد رصفها وتنسيقها، إمعانا في تحقيره والتنكيل به، ساخرين منه بقولهم له "نظمها وشذبها كما كنت تدعو لاشتراكيته الرشيدة"، لأنه هو من رفع شعار "الاشتراكية العربية الرشيدة"، عندما عين رئيساً للوزراء في ٢١ أيلول ١٩٦٥م إبان

عهد عبد السلام عارف، داعيا لتطبيق هذا الشعار كسياسة اقتصادية تحقق إنتاجا أكبر وتوزيعا عادلا وترعى مصالح القطاعين العام والخاص على السواء.

بعد أيام وبشكل مفاجئ فتح السجن باب زنزاتي ودفع داخلها معتقلا، تبين لي أنه عبد الرحمن البزاز، وقبل أن يغلق الباب وراءه قال بنبرة أمره "أكتب وصيتك لعائلتك، سأتيك غدا فجرا كي أقتادك إلى منصة الإعدام ليتم تنفيذ الحكم بك"، فبقي واقفا، بيده ورقة وقلم، فيما الخوف والهلع باديان على وجهه، وهنا طلبت منه الجلوس بعدما تركت له متسعا في المكان. كان معتدل القامة نحيف البنية حنطي السحنة، حلقوا له شعر رأسه، يضع على عينيه نظارة طبية، منعت عني تشخيص ما ترسمانه أو تعكسانه، لتفسير ما ينتابه في تلك اللحظات التي يعيشها.

بعد وقوف دام هنيهات، حاول خلالها منح نفسه شيئا من التوازن والاستقرار النفسيين، جلس فأطرق قليلا ثم شرع في كتابة وصيته التي ابتدأها بقوله "زوجتي العزيزة أنا راحل عن هذه الدنيا، أوصيك بتربية الأولاد تربية عربية اسلامية"، فكان فضولا وتطفلا مني أن أسترق النظر للورقة "الوصية"، لذا شعرت بالخجل مشيحا بنظري إلى الجهة الأخرى، كي يكمل الكتابة دون حرج مني. فجأة التفت إلي، رافع قلمه عن ورقته، صمت قليلا ثم سألني "ما قولك يا أخي بما سمعته من الرجل الذي جاء بي إلى هنا وقال إنهم سيقومون بإعدامي فجر يوم غد؟"، فأجبت "يا أستاذ عبد الرحمن لا تقلق إنه مجرد ارهاب وتخويف وحرب نفسية وخبرة في التحقيق واسلوب قد جربوه من قبل مع غيرك، ليضعفوك ويبتزوك، ويحصلوا منك في ساعة ضعفك على ما يبتغون، لأنهم لو كانوا فعلا يرومون قتلك لما طلبوا منك أن تكتب وصية لأهلك، وهي دليل وشاهد يدينهم على أنك موجود بقبضتهم، ولا حاجة لهم أن يحلقوا شعرك، ولن يتورعوا عن قتلك بالرصاص أو شنقك (لا سمح الله) وليس هناك من شاهد عليهم"، فقال "لكنني يا أخي الكريم اقرأ في عيونهم ووجوههم الاصرار والتصميم على قتلي، وقالوا لي سنعدمك أنت والشخص الذي ستشاطره الزنزاة والمحكوم عليه بالإعدام"، ولأطمئننه قلت "هم فعلا رددوا على مسامعي الاعدام

لأكثر من مرة وأخبروني أنهم سينفذونه بي، رغم أن قضيتي تختلف عن قضيتك وأصعب منها بكثير إلا أنهم لم يقدموا على ذلك أو ينفذوه لحد هذه اللحظة، فاطمئن يا أستاذ وإن غدا لناظره قريب"، فقال "لقد فوضت أمري إلى الله، ولننتظر النتيجة صباح الغد".

لم ينم تلك الليلة، بقي خائفا قلقا جزعا لم يغمض له جفن حتى ساعات الصباح الأولى، وحين لم يأتوه صباحا، زاد قلقه وطال انتظاره الصعب الذي تخيله دهرا سحيقا مملا وقاسيا، وهو الذي لم يعتد عليه ولم يره أو يجربه في حياته، لكنهم جاءوا إليه مساء ذلك اليوم ليقتادوه إلى مكان آخر وهو لم يزل معتقدا بأنهم آخذوه إلى الاعدام.

طاهر يحيى / رئيس الوزراء في عهد الأخوين عارف، وكان قبل ذلك أحد الضباط الأحرار الذين فجروا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، فعين بعدها مديرا عاما للشرطة، محسوبا على جماعة القوميين العرب. عندما جلبوه إلى قصر النهاية كان متماسكا واجلسوه على كرسي في باحة البناية وجاؤا بمالك منصور (عضو القيادة المركزية) بعد أن هددوه بالضرب ان عصي أمرهم بحلاقة شعر رأس طاهر يحيى على شكل خطوط متقاطعة بينها جزر من الشعر وقصدهم من ذلك إهانته وإزدرائه وتحقيره. وفي أثناء الحلاقة طلبوا منه كتابة وصيته قبل إعدامه، فأجابهم بحدة ومن هو الذي حاكمني وحكم على بالإعدام حتى أكتب وصيتي، فشتموه وقالوا له أنت فاسد ومعروف بين الناس ب (أبو فرهود)، فأجابهم بقوة وبصوت عالٍ أنتم في الحكم الآن ويمكنكم التأكد من كذب هذه الكلام، ثم قالوا له ألسنت من فتحت سباق الخيل للإفساد فقال لهم أن سباق الخيل لا زال مفتوحا فإذا كان إفسادا فلماذا لم تغلقوه. ولكن بعد يومين أو ثلاثة من الإذلال المتواصل فقد تماسكه ورأيته بقامته القصيرة وجسمه المكتنز الذي أصبح نحिला بعد مدة وجيزة، حيث وُضعت في يده عصا يسوق بها أفراد مجموعته، يضربهم إن قصروا أو تهاونوا، مجبرا من الجلادين، وإلا انتزعوا "عصاه" لينهالوا بها عليه ضربا، فضلا عن اللكمات، ويكيلوا له الشتائم والإهانات. كانوا يعاملونه معاملة سيئة،

يستهنئون به ويسخرون منه أمره بأنه يقود "شلة حميره"، يقصدون وزراءه، ويقومون بإهانتة فينتونه بكنية "أبو فرهود"، أي "السارق"، حيث هذه الكنية قد اطلقت عليه سابقا: حين كان رئيسا للوزراء، أنشأ مدينة للألعاب على قناة الجيش، مقاولها المنفذ شركة تملكها عائلة عريم، التي تربطها به علاقة مصاهرة، فقيل إنه مالكها، وهي لم تزل حاضرة لليوم تمتلكها الدولة العراقية، علما أنه لم تثبت عليه أية سرقة للمال العام، بعكس ما أشيع عنه آنذاك، بل مات دون أن يملك سوى بيت يسكنه وعائلته، لكونه مسؤولا نظيف الكف، لذلك أرى أن البعثيين هم الذين وراء كنيته "أبو فرهود"، لأنه كان أول من حاربهم مشتركا مع عبد السلام عارف في حركة ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ التي أنهت حكمهم الأول.

عبد الكريم هاني / طبيب وبعثي سابق ووزير في عهد عبد الرحمن عارف طوبل القامة، أبيض البشرة، تستقر أعلى ظهره حذبة صغيرة عندما يسير تراه قد انحنى قليلا إلى الأمام بفعالها. في معتقل قصر النهاية، أهانوه وأجبروه على التنظيف كالآخرين، لكن بعد مدة وعطفا منهم على ماضيه خصصوا له غرفة، مع حرية الخروج منها لفحص المرضى من المعتقلين ومعالجتهم، يبقى بابها مشرعا طيلة النهار ليغلق عليه ليلا.

بعد مضي مدة أطلق سراحه، لكننا فوجئنا عقب أيام بأنهم أعادوه للمعتقل، وراحوا يجبرونه على خلع سترته ليمسح بها الارض، ويضربونه ضربا مبرحا، ترافقه الإهانات البذيئة، سبا وشتما، وبعدهما ينتهي من عمل التنظيف يأخذونه لينقل النفايات إلى مكان تجميعها، يحملها بسلة على رأسه، تقطر سوائلها عليه، يدفعه أحد السجنانيين، يضربه بالعصا. يستمرون بذلك حتى يخيم الليل، عندها يربطونه بعمود الكهرباء المنتصب وسط ساحة المعتقل المكشوفة، يضعون على رأسه سلة أوساخ، ويدخلون في فمه فردة حذاء يشد عليها بأسنانه، يحذرونه ألا يسقطها، وإلا ينهالون عليه صفعا وركلا، فيما الأوساخ تسيل على رأسه من ثقوب السلة، والحشرات تحوم حول ضوء

العمود المسلط عليه لتلتصق بوجهه، لا يستطيع طردها لأن يديه مكبلتان. ويصدف أن يكون السجنان "أبو أحلام" مشرفاً على هذه المسرحية المهزلة تلك الليلة، وكان هاني يستغيث طالبا شربة ماء يبيل بها فمه، فقال له "إن سقاك أبو وميض قرح ماء، تكون أمك قد دعت لك بليلة القدر"، وهنا نهض رفيقنا سامي أحمد "أبو وميض"، دون أي تردد، فملاً قرحاً بالماء، ثم تقرب منه حتى سقاها!

كاظم شبر / طبيب شهير، أحد مالكي مستشفى ابن سينا، في بغداد -الكرخ، قبل أن تحوله حكومة البعث بعد عام ١٩٦٩م لمستشفى خاص برعاية صدام حسين وعائلته فضلا عن القياديين البعثيين وعوائلهم. كان قد تخطى الستين من عمره فغزا الشيب رأسه، بشرته بيضاء رقيقة تميل إلى الحمرة، متوسط القامة نحيف الجسم، ينحني قليلا إلى الأمام في مشيته لتقوس ظهره بسبب تقدم سنّه، تبدو عليه مظاهر النعمة والرفاهية. أعتقل بتهمة التجسس والانتماء للحركة الماسونية، فجيء به إلى قصر النهاية، حيث رأته هنا مرات عديدة، بعدها غاب عنا ولم نعرف عنه شيئا. كانت الهيئة الحقيقية غالبا ما تستدعيه ليمعن جلادوها في تعذيبه: يطبقون على رأسه بكمّاشة ضاغطة، في نهايتها الخلفية قبضة حلزونية تربط بين فكّيها، وتضيق كلما تم شدّها صوب اليمين، لتطبق أكثر على صدغيه... ومؤخرة رأسه، وتبدأ باقتلاع وانتزاع شعره من جذوره كلما ضيقوا خناقها على الرأس، حتى يصبح كراس صوص قد فقس لتوه من بيضته.

أنور ثامر / محافظ للبصرة ومدير للأمن العام في عهد الأخوين عارف. كانوا تارة يمتطونه كالحمار وتارة أخرى يطرحونه أرضا ويعتلونه كأنهم يمارسون الجنس معه امام أنظار المعتقلين، لغرض إهانته وإذلاله بهذه الطريقة الوحشية للإنسانية البعيدة عن أبسط قيم الأخلاق والتهذيب. لم أكن استغرب ما يفعلون به، لأن أخلاقهم الرديئة التي تربوا عليها وما تحمله من أفكار مريضة، هي من تدفعهم لارتكاب مثل هذه الافعال الشنيعة.

عبد العزيز العقيلي / وزير الدفاع الأسبق، قصير القامة، صغير الجسم، أسمر البشرة، يرتدي بيجامة أكبر من قياسه، يبدو وهو داخلها ضئيلاً. لكنه يبدي من ضروب الشجاعة شيئاً كثيراً، فكان صلباً مشاكساً عكس ما توحى لك ضآلة جسمه. إذ أنه لم يكتف برفض نقل النفايات، بل كان، علناً وبصريح العبارة، يشتم من يأمرونه بنقلها ويحذرهم ويوعدهم بأنه لو قبيض له وعاد إلى الحكم ليعلقنهم واحداً تلو الآخر على أعمدة الكهرباء في كل شوارع العراق.

٢- سجّانون

عمرش عمرود/ كنيته "أبو أحلام"، ضخم الجثة، مفتول العضل، تجاوز الثلاثين من عمره، سجين عادي متهم بجريمة قتل، كسبه البعثيون في السجن، وبعد انقلابهم في تموز ١٩٦٨ أطلقوا سراحه وضموه للهيئة التحقيقية التي يرأسها ناظم كزار، ليس للتحقيق بل للضرب والتعذيب وانتزاع الاعترافات من المعتقلين، فضلا عن مداهمة البيوت للقبض على المطلوبين. كان ضمن المجموعة التي داهمت بيتنا فاعتقلنتي، وقد شاهد والديّ فتبين له من ملبسهما ولهجتكما أنّهما من الجنوب، ويبدو أنّ ذلك انطبع في ذاكرته منعكسا على تعامله معي، فلم يقس علي بالضرب!، عندما كنت في السرداب أو القبو، بداية اعتقالني، كانت قدماي قد تقرحتا بفعل التعذيب لهذا أجد صعوبة في السير عليهما، وجرت العادة أنّ يسحلوني إلى غرفة التحقيق عبر السلم المؤدي للطابق الأعلى، فجاءني يوما في وضح النهار، على غير عادتهم، وحملني على ظهره إلى غرفة الطبابة، التي يديرها نائب ضابط "مضمد صحي"، طالبا من طبيبها أن يعالجني، بأمر من رئيس الهيئة، وأخبره أنهم يريدون الحفاظ على بقائي حيا من أجل إكمال تحقيقهم معي، وفعلنا قام الطبيب بمعالجتي مزيلا التقرحات من قدمي. كما كان يذهب إلى أهلي خفية دون علم هيئة التحقيق ليخبرهم عن أحوالي، فطلبوا منه ذات مرة أن يحضر لهم شيئا من اغراضه يثبت أنّني لم أزل على قيد الحياة، لأنهم كانوا يشكّون في ذلك، عندها أخذ إليهم ساعتني! وعندما أطلق سراحي أخذني من مديرية الأمن العامة إلى البيت، فشاهد كيف أغمي على أمي لما رأنتني أدخل عليهم فجأة. لم أره بعدها، ثم علمت أنّ الاهل كانوا يكرمونه ويساعدونه ماليا ويلبون طلباته أثناء فترة وجودي في المعتقل.

سعد العظیم/ لم يتجاوز العشرين من عمره، قصير القامة، أسمر اللون، على وجنته اليسرى خال بغدادية، بذيء قاس في معاملته للمعتقلين لا يحترم أحدا منهم. كان هو من يضرب عبد الكريم هاني بالعصا ويجبره على نقل القمامة، بداية اعتقاله،

ويعمن بإهانتته عندما كان ضمن مجموعة التنظيف التي يديرها طاهر يحيى. ولما أرسل هاني إلى سجن رقم واحد في معسكر الرشيد لإطلاق سراحه، فتشوا أغراضه هناك، فضبطوا معه أوراقا كتب عليها وصف للمعتقل وما كان يدور فيه من تحقيق وتعذيب، وأسماء المحققين والسجانين الحركية، التي كانوا يتسمون بها، خوفا من انكشاف أسمائهم الحقيقية. وحين أوصلوا الخبر إلى أحمد حسن البكر سألهم "من هو سعدي العظيم الذي ذكر هاني اسمه وأطال الحديث عنه في اوراقه؟" فأجابوه "إنه شاب يافع، يتجنبه المعتقلون لطول لسانه ولقسوته في معاملتهم"، حينها بعث رسالة تقدير لهيئة التحقيق وهدية لسعدي العظيم.

جاسم حميدي / من عناة المجرمين القتلة، كان سجيننا عاديا، كسبه البعثيون في السجن، مع عرمش عرمود، وبعد انقلابهم في تموز ١٩٦٨م أطلقوا سراحه، أيضا، وضموه إلى الهيئة التحقيقية للاستعانة به في ضرب المعتقلين وتعذيبهم بل قتلهم كذلك، إذا اقتضت الضرورة، حتى أنه لم يتورع عن قتل زميله السجان "صباح بدن"، الذي كان معه كسجين عادي، وقيل لاحقا أنه قام بقتل البعثي السابق "فؤاد الركابي".

أ-قتله "صباح بدن"

ذات ليلة كانا يسهران داخل شقة لهما في منطقة الكرخ، يستخدمانها لشرب الخمر ولعب القمار، وحين صارا في حالة سكر اختلفا وتشاجرا، فقام جاسم بقتل صباح، ثم حمله إلى منطقة "الشالجية" القريبة، بدراجة هوائية، ملقيا جثته على السكة الحديدية، ولاحقا ذهب لمجلس عزاء أهله باكيا مولولا، لاطما وجهه، ليظهر حزنه على فقدان صديقه، وقدم لهم كيس رز ووصفيحة سمن.

آنذاك أراد ناظم كزار، رئيسهما، معرفة حقيقة الحادثة "هل دافعها سياسي أم شخصي؟"، فسأل رجاله "من كان مع صباح ليلتها؟"، وحين أجابوه "جاسم" طلبه حالا، ولما قابله نظر إلى وجهه متطلعا في عينيه، وسأله إن كان برفقة صباح تلك الليلة،

فأجابه نافيا بارتباك، ليرتفع صوت كزار بنبرة حادة منفعلة مناديا "اربطوه من قدميه إلى العتلة وارفعوه"، وبمجرد أن فعلوا ذلك، فتأرجح في الهواء، صرخ "بروح الشهيد صباح أنزلوني أنا الذي قتلته". أرخو الحبل المعلق به والمتدلي من السقف، فسقط على الأرض، وبعدها استقر جال بعينيه البائستين ماسحا بنظراتهما أحذية زملائه لاستدرار عطفهم، فبدا ضعيفا متهاويا متخاذلا مستخذيا، بينما كان بالأمس عاتيا يرهب المعتقلين بقسوته، وهنا أوماً كزار لرجالهم كي يخرجوه، فسحله اثنان من منكبیه، ليرمياه في غرفة تحت أحد سلالم القصر، وفيما بعد حوكم ثم اقتيد إلى السجن العام. ولا أستبعد أن يكون قد تم التخلص من صباح بدن-قاتل ناصر الحاني-على يد جاسم حميدي بأمر من ناظم كزار.

٣-قتله "فؤاد الركابي"

لقد سرت لاحقا شائعة مفادها أن جاسم حميدي هو من قتل فؤاد الركابي، بعدما نقل هذا الأخير من قصر النهاية إلى سجن بعقوبة، لتتم هذه الجريمة بعد ترتيب أمر ترحيل الأول، الذي كان محكوما لقتله صباح بدن، من سجن أبو غريب إلى سجن بعقوبة أيضا، فقام بطعنه عدة طعنات قاتلة بسكين أدخلت له بواسطة إدارة السجن. ويبدو أنها جريمة من تدبير ناظم كزار وبأمر من صدام حسين للتخلص من الركابي، الذي كان وجهها قوميا بارزا معارضا لنظام الحكم آنذاك، فضلا عن كونه أحد القادة البعثيين السابقين، فكان من الممكن أن يكون بديلا محتملا لصدام الذي بدأ بتصفية خصومه المنشقين عن حزب البعث. فالركابي بعثي مخضرم انتمى لهذا الحزب عام ١٩٥٠م، وأصبح أمينه العام منذ ١٩٥١م لثمانى سنوات، لكنه انشق عنه قبل انقلاب شباط ١٩٦٣م، ثم أسس مع قوى قومية حركة الوجدويين الاشتراكيين التي أسهمت في تأسيس الاتحاد الاشتراكي العربي في ١٤ تموز ١٩٦٤م، فأصبح أمين سره

العام، وشكل مع مجموعة من الناصريين الحركة الاشتراكية العربية لتنشطر أواسط عام ١٩٦٧ إلى تيارين بنفس الاسم أحدهما يقوده هو ذاته.

٤- نقاهة في السجن

بعد مضي ما يقارب عامين على وجودنا في قصر النهاية، نقلنا إلى سجن الفضيلية الذي يقع في الطرف الشرقي من بغداد، خلف حي العبيدي، لنقضي فيه شهرين من النقاهة، سمحوا خلالهما لأهالينا بمواجهتنا، كي نخرج منه مستعدين عافيتنا. لذا كانت لنا في هذا السجن حرية اختيار طعامنا، الذي خصصوا من أجله مبلغا مقطوعا لكل سجين، فكنا نجتمع مبالغنا ونشتري بها مواد طبخ، ليقوم رفيقنا صاحب عبد الأمير ذو الخبرة في الطبخ بتهيئة الطعام، وهو بعكس طعام القصر الرديء حيث كان في وجبتي الغداء والعشاء من مؤونة الجيش: خبز أسمر متحجر ومرق لا لحم فيه، أحيانا يكون ذا خيار مطبوخ، أما وجبة الفطور فثمة أيام نحرم منها، ناهيك عن أنهم كانوا يتركوننا دون وجبات لأكثر من يوم. كما تمتعنا بحرية المشي والتحدث ولعب الكرة، كي نعطي انطبعا لمن يزورنا بأننا نعامل معاملة سجناء سياسيين لهم حقوقهم التي تكفلها لائحة حقوق الانسان!

هكذا قضينا هنا أكثر من شهرين، بمثابة فترة نقاهة تسبق خروجنا لنبدوا أمام الناس بأحسن حال صحيا ونفسيا، ثم تم نقلنا إلى مديرية الأمن العامة في بارك السعدون، لإطلاق سراحنا، بناء على توصية تضمنها اتفاق ١١ آذار ١٩٧٠م بين حزب البعث والحزب الديمقراطي الكردستاني، لكن قبيل ذلك، ونحن لم نزل في المديرية، جاءنا حسن المطيري، مساعد ناظم كزار، فحذرنا من العودة لممارسة العمل السياسي، قائلا بالحرف الواحد "سوف لا نعيدكم إلى السجن ثانية أو نسامحكم أو نتساهل معكم، إنما سيتم قتلكم على أيدينا"، وهذا ما حصل بالفعل مع رفيقينا محمد كريم وأمين الخيون لاحقا.

عندما نقلونا إلى مديرية الأمن العامة، التقينا هناك بالمجرم جبار كردي، الذي قتل اثنين من الشيوعيين المتظاهرين سلميا في ساحة السباع بتوجيه من حزب البعث، فقال لنا (أتمنى عليكم أن لا تقوموا بتصفيتي، فأنا لم أعمل ضدكم أنتم "القيادة المركزية" إنما ضد "اللجنة المركزية")، فضحكنا أنا والرفيق محمد كريم، الذي كان يعرفه، لأننا نعرف أن البعثيين آنذاك كانوا يعزفون على وتر خلافتنا عقب الانشقاق الذي حصل للحزب الشيوعي، ليستغلوه في تثبيت سلطتهم، وليضيفوه إلى الآثار السلبية التي نجمت جراءه، وإلى الأضرار التي خلفها، حيث أن "ق.م" و"ل.م" كليهما قد انزلت إلى هوة صراع مكشوف متبادل لم تكونا واعيتين بنتائجه وما آلت إليه حال الحزب بعدها.

٥-صدام في الكويت

نهاية عام ١٩٧٠م غادرت العراق إلى الكويت مقيما فيها حتى خروجي منها مكرها، بعدما غزاها صدام حسين في ٢ آب ١٩٩٠م. كنت متواجدا في بيتي القريب من قصر دسمان في الشرق، يومذاك المشؤوم للكويتيين وللعاملين المقيمين في بلدهم. وصفته ببيدر حنطة تقف عليه مطمئنة مئات آلاف العصافير قادمة إليه من مائة بلد، بل أكثر، لتملأ حواصلها وتطعم زغاليلها، بكدها وتعبها في أجوائه التي يسودها السلام... لكن على حين غرة هاجم البيدر عدو وحش فجر فيه قبلة مروّعة بعثرته محوّلة عصافيره إلى أشلاء ممزقة.

فوجئت فجر ذلك اليوم بما أثار استغرابي بسماع إطلاقات نارية، لم يصادفني ذلك سابقا طيلة عشرين سنة قضيتها هنا، ثم انتابني تعجب عند تحرك قطعات عسكرية متجهة إلى البوابة الرئيسية لقصر دسمان، حيث أراقبها من شباك البيت، فخلت للوهلة الاولى أن انقلابا عسكريا قد حصل في الدولة، لذا ارتأيت أن أذهب للجمعية التعاونية كي أتزود ببعض المأكولات المعمّرة. قبيل انطلاقي واجهني كويتي طالبا مني إيصاله إلى (الدسمة وهو حي قريب من المنطقة التي أسكنها)، وعندما استقل

سيارتي أفصح عن أنه كان متجها بسيارته إلى بيته في الدسمة حين أوقفته مفرزة عراقية على شارع الكورنيش فانتزعت السيارة منه ليسير راجلا حتى التقى بي، خاتما بأن الجيش العراقي قد احتل الكويت! عدت إلى بيتي، بعد أن أوصلته لمبتغاه، أراقب الشارع، من الشباك، فإذا برتل عسكري يخترقه، أصغيت السمع لحديث دار بين قائده وجنوده، ليتضح لي أن لهجتهم عراقية، عندها تيقنت مما قاله. مساءً، بعدما خلت منطقتي من سكانها، يمت وجهي صوب بيت شريكي الكويتي عبد الله حمد السهيل في جليب الشيوخ، حيث بقيت معه أياما، قمت خلالها بأعمال، رأيته واجبة على لنصرة الكويتيين، رافقتها خطورة جسيمة، ذات نتائج وخيمة، قد تؤدي إلى إعدامي من نظام صدام، آنذاك، وكان السهيل وأشقائه وأعمامه يعلمون بها علم اليقين.

كانت تربطني علاقات صداقة طيبة مع نخبة كويتيين، أمثال الروائي اسماعيل فهد اسماعيل، وأخيه صلاح وابن عمه عبد العزيز، و: محمد الرحماني / أحمد الرحماني / عبد الصمد العوضي / حامد السالم / نادر جوهرحيات / حسين بورحمة / فاضل الدعيج الصباح. كذلك مع العاملين على إدارة مجلة الطليعة الكويتية، التي تقع ضمن شارع الصحافة في الشيوخ بالقرب من شركتي، كان منهم: سامي المنيس / عبد الله النيباري / صباح السعدون / عبد الخالق كريم / ومن العراقيين: عزيز الجصاني / مهدي الرضي (أبو صلاح) شقيق الشهيد سلام عادل / موفق فتوح / أكرم الربيعي / أكرم العكيلي / عدنان حسين (الآن نقيب "النقابة الوطنية للصحفيين العراقيين" ونائب رئيس تحرير جريدة "المدى"). لكن الغزو أفسد ديمومة اللقاء المباشر بهم جميعا، حيث غادر معظمهم الكويت فيما انزوى بعضهم في بيوتهم بعيدا عن الناس.

ويبدو أن شبخ نظام صدام ظل يلاحقني، حتى وصل إلي في الكويت، حيث تم اعتقالني يوم ٢٤ من تشرين الأول ١٩٩٠م من طرف جهاز الأمن الاقتصادي، التابع لمديرية الأمن العامة، بتهمة زائفة باطلة هي ترويج وبيع مواد بيطرية عامة ممنوع تداولها في سوق القطاع الخاص، علما أنني لم أتعامل بهذه المواد أصلا، بل كنت

أعمل في تجارة الاخشاب، وبعدها قام هذا الجهاز باقتيادي معصوب العينين من الشركة إلى مبنى العدل، بسيارة مغلقة النوافذ، قضيت يوما من التحقيق معي لمعرفة إن كنت متعاوناً مع الكويتيين، ثم نقلت في اليوم الثاني إلى سجن العاصمة في الصفاة، فمكثت فيه خمسة عشر يوماً قبل أن يطلق سراحي بكفالة شخص ضامن.

لقد شاهدت بأمر عيني ما كان يمارسه هذا النظام بحق الكويتيين منذ اليوم الأول لاحتلاله بلدهم، حيث قام بشتى أنواع التنكيل ضد أناسه المسالمين، بعدما استباح ممتلكاتهم وأموالهم، فقتل منهم أكثر من ثلاثمائة واختطف أكثر من ستمائة آخرين نقلوا إلى العراق وغيبوا فيه ولم يعثر لهم على أثر حتى يومنا هذا رغم مطالبات هيئة الامم المتحدة ومناشدات المجتمع الدولي وصيحات منظمات حقوق الانسان بالكشف عن مصيرهم.

روى لي الصديق الدكتور العراقي زهير الزيني، الذي عمل طبيباً جراحاً في مستشفى مبارك الكبير تلك الفترة، قال: إن أفراداً من الأجهزة الأمنية العراقية كانوا يأتون إلى المستشفى بأشخاص قد تم إعدامهم ويطلبون مني أن احرر لهم شهادة وفاة صادرة من المستشفى بتوقيعي أذكر فيها أن وفاتهم كانت طبيعية، إلا أنني رفضت ذلك، ونتيجة تهديدهم أرغمت على إصدار الشهادة إلا أنني ذكرت فيها عبارة (متوفي) دون أن أذكر سبب الوفاة. وفي يوم أفاق سكان حي "بنيد القار" صباحاً ليجدوا ما يقارب الثلاثين مغدوراً قد ألقيت جثامينهم على قارعة الطريق، كانت الأجهزة الأمنية العراقية قد أحضرتهم ليلاً وألقتهم هناك، وكانوا يقومون بإعدام الكويتيين الذين يجدون في بيوتهم سلاحاً، وفي إحدى المرات اكتشفوا جندياً مقتولاً قرب أحد البيوت، فقاموا بإحضار الشباب من أهل البيت وقاموا بقتلهم بطريقة بشعة وغريبة حيث تم سقيهم بمادة البنزين عنوة حتى امتلأت بطونهم ومن ثم قاموا بإطلاق الرصاص على بطونهم لتتفجر جثثهم وتتطاير أشلاء أمام أنظار أهلهم وذويهم. أما نقاط التفتيش التي كانت تنتشر على طرقات المدينة فكانت تقوم باحتجاز الكويتيين وتربطهم بـ "غترهم" إلى أعمدة الكهرباء في الشوارع العامة، تحت الشمس المحرقة،

ليبقوا ساعات طويلة على هذه الحال قبل أن يخلى سبيلهم، وكثيرا ما كانوا يدخلون البيوت ويجبرون أهلها على الوقوف بالصف ويبدأون بإهانة الرجال منهم أمام أفراد عوائلهم بصفعهم أو ركلهم.

ذات يوم أخبرني المحامي وكيل شركتي، وهو سوري، أن إمام مسجد، سوريا أيضا، قد اعتقلته الأجهزة الأمنية العراقية، بعد خطبة له، مضيفا أن زوجة هذا الإمام طلبت منه أن يستفسر عن مصيره بمساعدة من عراقيين، وبما أنني عراقي قصدت موظفا أعرفه يعمل في السفارة العراقية راجيا إياه أن يعلمني بمصير الرجل، فأجابني فوراً بكل وقاحة ضاحكا ملء شذقيه "لقد قتلناه ووضعنا برجليه أثقالا ورميناه في البحر، وأصبح طعاما للأسماك لكن عليك أن لا تخبرهم بذلك وقل لهم إننا سنتأكد من وجوده في بغداد لأن كل المعتقلين نبعثهم إلى هناك"، وبتفاخر وزهو أضاف (لقد داهمنا بيت رجل الأعمال الكبير وشريك أمير الكويت مراد البهبهاني، وأجبرنا من في الدار جميعهم على الحضور والوقوف أمامنا، وطلبنا منه أن يعرّف عن نفسه وبعد أن فعل ذلك قمنا بإهنته وصفعه أمام عائلته، ثم اقتدناه خارج البيت، أدخلناه إلى صندوق السيارة الخلفي، أغلقناه عليه، وأخذناه إلى مركز التحقيق ليعترف لنا عن علاقته المالية بأمير الكويت وأرقام حساباته، والبنوك التي يتعامل معها ويضع أمواله فيها).

أما الذي قامت به الأجهزة الأمنية الصدامية من نهب للبيوت وسرقة للمحال، ثم حرقها، فحدث ولا حرج، حيث كان علي حسن المجيد ابن عم صدام، وأحد أخطر قادة نظامه، يرسل وضح النهار عساكر يغلقون شوارع تجارية في حوئي والسالمية، ليكسروا أقفال أبواب محالها وينقلوا محتوياتها إلى العراق بشاحنات مدنية. كذلك ثمة مجاميع عسكرية تجوب المناطق الصناعية في الشويخ للاستيلاء عنوة على موجوداتها، وكان أفرادها يقتحمون شركاتنا الخاصة في محاولة منهم للاستحواذ عليها، لكنهم يرتدعون عندما يجدوننا فيها ويعرفون أن أصحابها عراقيون. وقد صدرت أوامر رسمية على جميع الوزارات والمؤسسات والإدارات الحكومية العراقية بأن تصدر من مثيلاتها الكويتية كل ما تحتاجه من أجهزة ومعدات.

٦-محنة مع الاختطاف

اليوم... ما الذي يجري لنا، نحن العراقيين، منذ بُعيد ٩ نيسان ٢٠٠٣م؟! صرنا ضحية للمرضى اللاهثين وراء المكاسب عبر نواياهم المحجّبة بستارة الدين! كانت لي حكاية معهم، نعم "كلّهم"!، تعكس وضعاً شائعاً في مجتمعنا، حتى الآن، رغم كونها تجربة خاصة، بي أنا "فقط"!، سأقصّ منها عليكم فصلاً بسيطاً، هنا، دون أية رتوش "اسلوبية"، لكي يدخل قلوبكم قبل عقولكم، كما يأتي:

المكان/ مكتبي في عرصات الهندية في بغداد، بيت تتقدمه حديقة كبيرة يمتد فيه مرآب بطول خمسة عشر متراً يوصل بابه الخارجي الحديدي بالباب الداخلي للمكتب، يسع لوقوف عدد من السيارات فيه، كان ولداي على وعامر قد غادرا المكتب إلى جامعتهم بسيارتهم التي كانت تشغل حيزاً في المرآب، أصبح المرآب خالياً وفي العادة تكون بوابته الرئيسية مشرّعة أثناء فترة عملنا، يتكون المكتب من غرفة استعلامات واستقبال ترتبط بالمدخل الرئيسي للمكتب وتتصل بمكتبي الخاص عبر باب جرّار، ورواق يؤدي إلى غرفتين أخريين للموظفين.

الزمان/ الساعة قاربت الواحدة من بعد ظهر اليوم الثالث من شباط عام ٢٠٠٥م.

الحدث/ كان يجلس معي في الغرفة حينها شريك في العمل جمال ججو وضيف آخر هو الصديق حسن الساعدي، أما غرفة الاستقبال فكان يشغلها موظف الاستعلامات المختص، وقد تزامن مع مداهمة العصابة للمكتب، وجود ولدي أحمد ابن الخامسة عشرة، جالسا في غرفة الاستعلامات، قادماً لتوه من مدرسته (الكميت) التي لا تبعد عن المكتب أكثر من خمسين متراً لتعود بي الذكرى إلى ليلة مولده في الكويت بمستشفى السلام يوم ١٩٩٠/١١/٢٥م، فترة احتلال القوات العراقية للكويت، الذي تزامن مع يوم اعتقال علي يد ما يسمى "جهاز الأمن الاقتصادي" التابع لسلطات الأمن العراقية، بتهمة كيدية باطلة.

دخل على مكتبي وبشكل خاطف ومفاجئ ثمانية مسلحين، يجرون معهم موظف الاستعلامات، أجبروه على الجلوس أرضاً، كذلك الحال مع شريكي جمال ججو وضيبي وصديقي حسن الساعدي اللذين كانا متواجدين في غرفتي، أجبروا الثلاثة على الجلوس أرضاً، يبدو أن ولدي أحمد قد بقي في غرفة الاستعلامات، أما الموظفون الآخرون فكان كل واحد منهم في غرفته المخصصة له، تقدم إليّ شخصان من المسلحين الذين اقتحموا المكتب - عددهم أكثر من ثمانية اشخاص - كانت لهجة المتكلم منهما تدل على أنه من المناطق الغربية من العراق، كان يردد "هل يوجد أجنبي بينكم؟ هل يتكلم أحدكم الأجنبي؟" أجبته بالنفي، وقلت له إن هذه شركة عراقية وجميع من فيها عراقيون، ولا يوجد بيننا أي أجنبي.

وبينما أنا جالس خلف مكتبي، تقدم أحدهم رافعا صوته "من منكم صاحب الشركة؟" أجبته "أنا صاحب الشركة"، لم أشر إلى شريكي لخوفي عليه، إن اعتقلوه يقتلوه حتماً، سيما وأنه مسيحي الديانة وشقيقه رجل ثري وصاحب معمل عرق العصرية، أكبر معمل للمشروبات الكحولية في بغداد، ينحدر جمال من أصول فلاحية من قرية "القوش" في شمال العراق، هذه القرية المعروفة بصلابة وشجاعة وعناد أهلها، كل ذلك مر سريعاً في ذهني كالومض مما جعلني أحجم عن التعريف به شريكاً لي، تقدم أحدهم وضربني على مؤخرة عنقي ببندقيته، أسقطني أرضاً، تقدم آخر مسرعاً، شد وثاق يدي إلى الخلف بواسطة حبل كان معه، رفعني عن الأرض، ثم اقتداني من غرفتي عبر غرفة الاستقبال إلى الباب المؤدي إلى خارج المكتب، تحيط به الثلاثة الباقية من المسلحين، وبينما أنا في طريقي أحاول اجتياز غرفة الاستقبال، سقط نظري على ولدي أحمد، كان ميمماً وجهه صوب الحائط، ويداه مرفوعتان إلى الأعلى، وقد وضعهما على جدار الغرفة، شعر بحركتنا، فالتفت نحونا، نظراته كانت تتفحصني وتتابعني، وأنا أرى دموعه تنهمر بغزارة على خديه، صرخ به أحدهم "أدر وجهك حيثما كنت، وإلا سأفرغ مسدسي هذا برأسك"، أدار وجهه مرغماً ناحية الجدار، كاتماً في نفسه ألماً وحزناً كبيرين، وحسرة قد حبسها في صدره تنبعث منها نظرة وداع

انعكست على عينيه وهو يشيعني بها، كأنها ستكون النظرة الأخيرة لوالده، الذي ربما لن يراه بعدها، أشعلتني نار الغيظ وأنا مقيد اليدين، لا أستطيع فعل شيء له، علمت بعد إطلاق سراحي أنهم سألوه أثناء مداهمتهم المكتب "من أنت؟"، فقال "أنا فرّاش المكتب"، ولم يذكر لهم انه ابن صاحب الشركة، وكانت التفاتة ذكية منه.

إجتزت باب الاستعلامات المؤدي إلى خارج المكتب، وقد أوقفوا مؤخرة سيارتهم بمواجهة هذا الباب، ومقدمتها كانت باتجاه المدخل الرئيسي، كي يسهل عليهم إدخالها إلى صندوقها الخلفي وبعد أن حشروني فيه أغلقوا غطاءه، كانت هناك سيارة أخرى ذات دفع رباعي، سدوا بها البوابة الخارجية كي يمنعوا أي سيارة أخرى تروم دخول المرآب، تمت العملية بسرعة فائقة وخاطفة، قام بها أناس ذو خبرة وحرفية في عمل الاختطاف، أما الموظفون الآخرون فقد جمعوهم وأدخلوهم الحمام وأغلقوه عليهم، هددوهم إن حاولوا فتحه فالموت سيكون بانتظارهم، غادروا المكان إلى جهة مجهولة، أسرعت السيارة وأنا في صندوقها الخلفي مقيد اليدين، ثم استمرت في المسير ردحا من الزمن، توقفت أثناءه، حيث استبدل طاقمها بآخر، وأنا مكور محشور في صندوقها طيلة الطريق، أسمع تلاوة للقرآن من خلال مكبرات الصوت المثبتة في مؤخرتها، كان الغرض منه إيصال معلومة لي بأنهم من الجماعات الاسلامية المتشددة أو ما كان يطلق عليهم في حينه "المجاهدون"، وصلت السيارة إلى بيت ولجته، شعرت أن السيارة قد ارتقت إلى مكان مرتفع قليلا، توقفت السيارة، أطفأوا محركها، دثروها بغطاء، ضاق نفسي بسببه، شعرت بأختناق وصعوبة في التنفس لنفاد الأوكسجين، أرخيت وثاقي وحررت يدي، ثم اقتلعت بطانة الصندوق علني أجد منفذا أو فتحة أتففس منها، قبل أن ينقطع نفسي، وجدت ثقباً من خلال قفل الصندوق، وضعت أنفي عليه أشم قليلا من الهواء، تنفست الصعداء بعد أن أبعدت عني شبح الاختناق، بقيت على هذه الحال حتى المساء، كنت أسمع خلالها صفارات إنذار سيارات الشرطة، وصوت أذان قريبا صادرا عن مسجد لا يبعد كثيرا عن مكان احتجازي، فتح أحدهم صندوق السيارة، كان يضع لثاما على وجهه، سألني "ما اسمك

ما عائلتك"، أجبتة على سؤاله، غادرني بعد أن اغلق صندوق السيارة، بعده بساعة جاء اثنان آخران ملثمان أيضا، فتحا الصندوق، وجداني قد حررت يديّ من وثاقي، قالا بلهجة غاضبة "لماذا حللت وثاقتك؟" أجبتهم " لقد اختنقت بسبب قلة الهواء، ولم يكن امامي غير ذلك"، عتفاني، ثم شدا وثاق رجلي ويديّ بإحكام، وضعا عُصابة على عينيّ وثبتا عليها شريطا لاصقا امتد إلى فمي، أغلقا الصندوق، خرجت السيارة قاصدة مكانا آخر، حيث استمر وقت سيرها بحدود ساعة أو نحوها، وبعد أن وصلوا إلى مبنى أدخلوا السيارة إليه، حملوني إلى داخله، شممت رائحة البخور كأنني أدخل أحد المقامات أو الأضرحة الدينية، أو ربما كانت محاولة منهم ليخلقوا لدي شعورا واهما والايحاء لي بهذه الصورة، أجلسوني على بساط من الصوف ملقى على الأرض، بقيت لفترة على هذا الوضع، بعدها تقدم مني شخصان، بدأ بطرح أسئلتهما عليّ، كان أحدهما وهو يكلمني يحاول انتحال لهجة أهل الجنوب، لكنها كانت مكشوفة لي، سألني عن اسمي، أسماء أولادي، زوجتي، تحصيلي الدراسي، تحصيل الأولاد الدراسي، وعن ابنتي في أي مدرسة وما هو زيتها وكم عمرها؟...وتوالت الاسئلة تباعا، و أنت متهم بالعمل مع "المجاهدين" وإمدادهم بالمال)، نفيت ذلك بالمطلق، وعاد لي طرح أسئلة من نوع آخر، "أنت قمت بتفجير السيد محمد باقر الحكيم في النجف"، قلت له "أنا رجل أعمال لا علاقة لي بهذه الأمور"، تمللم قليلا لي طرح عليّ سؤالاً آخر (ما رأيك بـ"المتعة"؟)، فأدركت مبتغاه من هذا السؤال، أجبتة "لا أفقه ما تعنيه هذه المفردة، فأنا رجل حنفي على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان"، فقال أحدهما بلهجة جنوبية مفتعلة "جا بوية جيب سيد حيدر يحقق معاه، هيئته ما يريد يعترف"، كنت أدرك تماما تصنعه التكلم باللهجة الجنوبية وما يرمي اليه، تركاني على ما أنا عليه حتى صباح اليوم الثاني، قدم إليّ شخصان وحملاني إلى الخارج، وضعاني في صندوق السيارة مجددا، سارت السيارة بسرعة فائقة وهي تجتاز طرقا متنوعة، أصابت رأسي جروح لشدة ارتطامه بجدران الصندوق، مرة أشعر كأننا نقطع سكة حديدية، ومرة نسير عبر طريق وعرة، وأخرى مستوية مسفلتة، مشينا لأكثر من ساعة، ولجنا مكانا كأنني به مزرعة، فتحت بوابة حديدية كبيرة، علا صريها، توقفت السيارة، فتحوا

صندوقها، أخرجوني منه، طرحوني على أرض اسمنتية صلبة، جاء أحدهم، فك وثاقي وقبل أن ينزع الشريط اللاصق من على عينيّ وفمي، جردني من ملابسي كلها حتى الداخلية منها، أعطاني بدلها قطعتين قميصا وسروالا ارتديتهما، قال "لا تفتح عينيك" بينما أنا أرفع الغطاء عنهما، ربط عينيّ من جديد بقطعة قماش، وقيد يديّ ورجليّ بوثاق بطريقة تتيح لي التحرك وتناول الطعام، حذرني بقوة أن لا أخلع العصابة أو أزيحها من على عينيّ، قال لي "عليك أن تترك اسمك هنا وتنساه، واختر لك رقما يكون البديل عن اسمك، إن ناديناك بأسمك الحقيقي لا ترد علينا ولا تجيبنا"، قلت "اعطني رقما"، قال "لا... أنت اختره"، فاخترت رقم (٩٩)، أسماء الله الحسنى!!، كنت حتى هذه اللحظة معتقدا أنهم من "المجاهدين" وقد تعزز لدي لاحقا هذا الاعتقاد بعد أن نسبوه علنا لأنفسهم في هذا المكان.

قادني أحدهم ممسكا بيدي، فتح طاقة حديدية، أنزلني منها إلى سلم حديدي ذي طبقات، يؤدي إلى نفق يوصل إلى باب آخر، سرت في النفق منحنى القامة، لا أقدر على رفع رأسي للأعلى خوفا من أن يرتطم بسقفه، فتح الباب، أدخلني الغرفة من كان يقودني، حدد لي مكان نومي الذي لا يتجاوز الخمسين سنتمترا عرضا والمترين طولاً والنوم فيه محدد بهذه المساحة، لا أستطيع الحركة بحرية سوى أن أكون إما مستلقيا على جنبي أو على ظهري، بعدها أرشدني إلى مكان جلوسي عندما يحين وقت الطعام، قال لي "استدر بزاوية ٩٠ درجة وتقهر إلى الخلف، حتى يلامس قفاك الجدار، وعندما نأتي لكم ونفتح الباب، عليك أن تبقى بالوضع الذي كنت فيه ولا تغيره، لا تحاول أن ترفع غطاء عينيك، لا تتكلم مع الآخرين، لدينا كاميرات وأجهزة مراقبة تراقبكم، إن ضبطناك تتكلم مع أحد سيكون مصيركما الذبح وقطع الرأس"، وكان حديثه يمتزج مع تلاوة للقرآن كنت أسمعها من الأعلى تأتينا عبر مسجلة صوت سرعان ما توقفت بعد أيام ولم نعد نسمعها، ولم نفقه سبب ذلك!!!

غادر المكان وأغلق باب الغرفة من خلفه، مجتازا النفق مرتقيا السلم الحديدي ليغلق غطاء الفتحة والباب الآخر، بقيت دون حراك مدة تجاوزت الساعة، وبعد أن تأكدت

أنه فعلا غادر المكان، رفعت الغطاء عن عيني في محاولة مني لاستطلاع المكان، الغرفة مظلمة، بقيت لحظات حتى اعتادت عيناى على العتمة فيها، بدأت أميز الأشياء إلا أنها كانت تبدو لي ظللا، الغرفة لا تتعدى المترين عرضا والأربعة أمتار طولا، يتدلى من سقفها سريان حديدان مربوطان بسلاسل إلى السقف، يشغلها شخصان وإلى يميني يوجد شخص آخر قدماه نحوي ورأسه إلى جهة جدار الغرفة المقابل، إلى يساري شخص آخر يرقد بنفس اتجاه الشخص الذي على يميني لكن تفصلني عنه ستارة من القماش، أما في الجهة المقابلة فهناك أربعة أشخاص اتجاه أرجلهم نحو رأسي، ورؤوسهم إلى الجهة الثانية من جدار الغرفة، كان مجموع الأشخاص الذين يشغلون هذه الغرفة تسعة، هناك فتحة أعلى الحائط مثبت عليها مروحة هوائية تدفع هواء إلى داخل الغرفة، يشع من خلال شقوقها بصيص ضوء يسقط على الجدار المقابل وعلى الأشياء المنتشرة داخل الغرفة بصورة لا يمكنك تمييزها بوضوح، إنما تراها ظللا.

صباح ذلك اليوم فتح الباب، دخل شخصان يحملان الفطور لنا، كان عبارة عن قطعة خبز "صمونة" داخلها بيضة مسلوقة، وهو فطورنا طيلة الوقت الذي قضيته في هذا المكان، قبل أن يوزعوا الفطور علينا كانوا يأخذوننا إلى المرحاض الشرقي في الطابق العلوي، لقضاء حاجتنا، يقودوننا إليه كالعميان معصوبي الأعين، يجلسوننا عليه ويضعون بيدنا إبريق ماء، وبعد أن يعودوا بنا إلى القبو ونستقر في أماكننا يأتوننا بماء نغسل به أيدينا قبل تناولنا الطعام، يغادروننا بعدها، يغلقون الباب خلفهم تاركين لنا وعاء "جليكان" لغرض التبول، وقنينة ماء للشرب إلى يوم جديد آخر، كانوا يزودوننا بوجبتي طعام غداء وعشاء، وفي أيام كثيرة يحجبون عنا وجبة العشاء، كنت أراقب "المعتقلين"، معظمهم كان يصلي ويكثر من الدعاء، سوى شخص واحد، ذاك الذي كان يجلس على يساري وتفصلني عنه ستارة القماش، بدأت أراقبه، كان ضعيف البنية متوسط القامة شعر رأسه طويل، يرتدي لباسا طويلا، يمارس الرياضة لساعات عديدة، في مرة كنت أراقبه وأحصيت له حركاته الرياضية التي كان يقوم بها دون

توقف، وقد بلغت ألفا وخمسمائة وخمسين حركة، خمنت أنه لم يكن عراقيا أو عربيا، ربما يكون أمريكيا أو أوريبيا، إذ لم أشاهده وأنا اراقبه يتصرف كبقية المحتجزين الذين يقومون بالصلاة والدعاء طيلة الوقت، فقط كان يمارس الرياضة ليحافظ على لياقته البدنية لتساعده على الهرب في حالة تمكنه من ذلك، وفي كل صباح وبينما نحن نغسل أيادينا كنت أشم رائحة معجون الأسنان تنبعث من ناحيته، يبدو أنهم كانوا يميزونه عنا في المعاملة (لأنه صيد ثمين!) ، فقد كنا ننظف أسناننا بالصابون والماء.

بعد عشرة أيام وبشكل مفاجئ، فتح أحدهم باب الغرفة وأخذني إلى الطبقة العليا حيث غرفة التحقيق والتعذيب، وهناك قيد يديّ إلى الخلف وربط شريطا لاصقا فوق قطعة القماش التي كانت تغطي عينيّ، تم تعليقي من رجليّ بعد ربطهما إلى بعضهما، رفعوني قليلا إلى الأعلى، كاد رأسي يلامس الأرض، إنهالوا عليّ بالضرب من كل صوب بعصي بلاستيكية، يلسعون بها جسدي، وبرعدات كهربائية من جهاز أو عصا كهربائية يختض ويرتعد جسمي لها بعنف شديد، بدأت الأسئلة تتوالى علي "ما عملك مع الأمريكان؟"، رغم أنني لم يكن لي عمل معهم، إنما عملي كان يقتصر على شركات عراقية ومؤسسات حكومية، (هل المكتب الذي اختطفناك منه ملك لك أم "إيجار؟" كم رصيد حسابك في البنك؟)، بدأ الضرب يشتد والأسئلة تنهال عليّ، "كم عقدا أبرمت مع الأمريكان؟ إن أخرجناك كم تدفع لنا؟"، أجبت "إن أطلقتكم سراحي وتركتم لي حرية العمل تحت حمايتكم سأعطيكم مليوني دينار شهريا"، أي ما يعادل ألفا وخمسمائة دولار، ضحك "الحجي" الذي يقوم بالتحقيق معي، قهقهه عاليا وهو يردد على مسمعي (ما رأيك إن أعطيتك أنا "شدة" شهريا)، أي عشرة آلاف دولار، قلت له "يظهر أنكم أغنياء كفاية لتمنحني مثل هذا المبلغ"، فانهال عليّ بالضرب وبشكل أعنف يرافقه مزيد من الرعد الكهربائي.

طلبوا مني أن أغني لهم!! أطرقت قليلا دون أن أجيب، والضرب مستمر لم يتوقف وهم يطرحون أسئلتهم عليّ، ثم اشتد الضرب مرة أخرى وأصروا على أن أغني لهم، لم

يكن أمامي إلا أن أدندن لهم عسى أن يوقفوا الضرب قليلا، بيد أنهم لم يوقفوا الضرب وكان عصيهم آلات موسيقى وهم يرددون "ما تستحي على شيبتك تغني؟ طيب احكي لنا نكتة تحفظها"، الضرب والتعذيب مستمران، رأسي متدلاً يكاد يلامس الأرض، معدتي تفرغ ما حوته من طعام، لم أعد أشعر بالألم فقد تخذرت أجزاء جسمي التي كانوا يركزون الضرب عليها، بعد ساعات من الضرب المستمر المرافق لاستجوابهم، وبسبب خبرتهم في التعذيب، تأكدوا أن الضرب لم يعد مجزيا، أسقطوني أرضا، فكوا وثاقي، لم يرفعوا اللاصق من على رأسي وعيني، تقدم مني شخصان، رفعاني عن الأرض، فانتصبت واقفا على قدمي، أجبراني على السير وطلبا مني أن أدعك باطني قدمي على الأرض بحركات مساجية، كان الغرض منها إعادة جريان الدم وإيصاله إلى أوردة وشرابين القدمين ونهايات الاعصاب، قدماي أمستا كالحجر لا أحس أو أشعر بهما عند ملامستهما الأرض بسبب الخدر الذي أصابهما، وقد بقيت الطبقتان الأخيرتان من جلدي القدمين مدة ستة شهور لا أتحمسهما رغم الاشراف الطبي وجلسات العلاج الطبيعي التي مارستها بعد إطلاق سراحي.

فكوا وثاقي وأعادوا ربط يدي ورجلي إلى وضعها السابق، خاطبني "الحجي" قائلا "اسمع جيدا، لدينا عشرون نوعا من التعذيب، مارسنا معك نوعا واحدا فقط وبقيت تسعة عشر نوعا آخر، الأحسن لك أن تعترف"، قلت له "لو كان لديك خمسون نوعا من التعذيب ليس لدي غير الذي قلته وذكرته لكم".

إتسم عملهم بالاحترافية المبنية على خبرة وتجربة طويلتين في أساليب التحقيق والتعذيب، تأكد لي ذلك من خلال اسلوب تعاملهم وطريقة تعذيبهم وتحقيقهم، اللذين لا يختلفان عن طرق وأساليب عناصر أجهزة الأمن والمخابرات، التي مورست معي، في الفترة التي كنت خلالها سجيناً لدى هذه الأجهزة عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٨م، كان أحد الحراس يعطف علي، يرعاني ويعتني بي ربما لكبر سني، أو ربما أن "الله" قد أنزل الرحمة والشفقة على قلبه ورق لحالي، كنت لا أشتهي الطعام وكان يجبرني عليه،

أحضر لي مرة مرهما ليعالج به قدمي المتورمتين والمتشققتين جراء شد الحبل والضرب.

أراقب الآخرين، أتفحص شكل الغرفة، محتوياتها، فالكهرباء التي يزودوننا بها كانت تغذي المبنى من مصدرين، كهرباء الدولة ومولدة كهرباء خاصة لديهم تعمل حالما تنقطع كهرباء الدولة، كنت أسمع أزيز أصوات الطائرات السمتية والحربية الأمريكية تمر من فوقنا، وفي يوم أمطرت الدنيا واستمر المطر لثلاثة أيام متتالية، مما سبب انقطاع الكهرباء وتعطل مولدة الكهرباء، توقفت على إثرها مروحة الهواء التي تغذي الغرفة به، وأمسى الجو خانقا لا يطاق، بدأ تنفسنا يضيق فالغرفة كانت تقع تحت مستوى الأرض ومحكمة الغلق معزولة كأنها براد لحفظ الأطعمة، لا ينفذ إليها أو يدخلها الهواء، وقد علمت لاحقا أنها مخزن يستعمل لخزن البطاطا، فاضطروا أن يفتحوا الأبواب ليدخل الهواء منها لنا، ولقربي من فتحة الباب، بدأت أراقب المكان، أتفحصه، بعد أن رفعت الغطاء عن عيني، أزحت الستارة قليلا، فكتشفت أن هناك سلما حديديا يوصل الغرفة التي نحن فيها إلى سطحها العلوي في نهاية السلم، وقد وضعوا نفقا مموها، صنع من هياكل حديدية دائرية الشكل غلّفت بمادة "الموكيت" يمكن تحريكه ونقله حسب الحاجة، يوصل بين الباب السفلي والسلم المؤدي إلى الفتحة العلوية، ليوهمو "المعتقلين" أنه نفق حقيقي تحت الأرض، وليشيعوا الرعب ويثيروا الهلع والخوف في نفوسهم، وكان سقف الغرفة يتكون من حمالات حديدية ثبتت عليها صفائح حديدية مغطاة بطبقة من الكونكريت.

كانت ستارة القماش بمثابة حاجز يفصل بيني وبين الجزء الآخر الذي يستلقي عليه ذلك الشخص، ويترك مسافة قصيرة بيني وبين الباب، وقد وضعت بطريقة تسهّل على سجانينا المرور إلينا بمجرد أن يرفعوا طرف الستارة إلى الأعلى، وتحجب عنا رؤية الباب الذي يقع خلفها، وكانوا يضعون علامات مميزة على أمكنة محددة في الستارة إن رفعتها أوحركتها سيكتشفون أنني قد اجتزتها للوصول إلى الباب أو للتحدث مع

هذا الشخص (وهو الاحتمال الاقوى)، كنت حذرا جدا وواعيا للعبتهم، أحاول جاهدا
ألا أعطيهم دليلا ومبررا لإدانتى والاعتداء عليّ.

نظرا للساعات الطويلة من الفراغ الذي كنا نمر به، أدمنت على مراقبة الآخرين،
وتدقيق النظر بما يحيطني من أشياء، فالشخص الذي كان على يميني ويحمل الرقم
(6) كنت أراقب تفاصيل حركته، أتفحصه عن كثب، كان يؤدي الصلاة بأكثر من
أوقاتها ويكثر من الدعاء، أراه يبكي أكثر الأحيان خائفا، مرعوبا متيقنا أن مصيره هو
الموت المحتم، يتبول أحيانا بوعاء "الجليكان" الذي تركوه لنا لهذا الغرض، وبعد
انتهائه من التبول يقترب من الحائط ليمسح عضوه به، كأنه "يتطهر من النجاسة
العالقة به"، ليمارس طقوس الصلاة والدعاء، كنت أراقب حركاته وسكناته، وكان
الآخرون حريصين محافظين على ثبات ربطات أعينهم، خوفا من العقاب الذي
ينتظرهم، كان شخص ينام في الجهة المقابلة لموضعي، أصابه اسهال حاد، صار يتألم
يصرخ ويطلق الباب، ليس هناك من يسمع نداءه أو يرد عليه، تغوط في ملابسه،
عبأت رائحته الغرفة، قدموا إلينا صباح اليوم التالي وأخرجوه ليغتسل وينظف
ملابسه، بعد أن أهانوه، ولاموه على فعلته وكيف سمح لنفسه أن يفعلها !!، تعرفت
على اسمه عندما نقلنا إلى المكان الآخر بعد مرور شهر على وجودنا في هذا
"المعتقل"، كان اسمه أحمد العبيدي، كان يعمل في لبنان الذي انتقل إليه بعد رحلة
عذاب طويلة شرع بها من بغداد مرورا بمحافظة دهوك ومن ثم إلى سوريا ولبنان.

بعد عشرة أيام أخرى، أي بعد عشرين يوما من "اعتقالي"، نودي علي، أخذوني إلى
غرفة التحقيق، وقبل أن يوجهوا لي سؤالا ربطوا رجلي ورفعوني عاليا كالمرة الأولى،
وبدأوا بضربي على مواضع مختلفة من جسمي، وبينما هم كذلك بادرنى "الحجي"
قائلا "احكي لنا عن عملك، فأنت لم تعترف لنا في المرة السابقة"، شرحت لهم عملي
والشركات أو الجهات الحكومية التي كنت أتعامل معها، والعمل الأخير الذي نفذته
مع وزارة الصناعة، يبدو أن شرحي الصادق بما ذكرته كان مقنعا لهم بعد أن وجدوه
مطابقا لما ذكرته في الجولة التحقيقية السابقة، أو ربما من خلال التقصي الذي قاموا

به عني توفرت لديهم معلومات كافية عن عملي مع وزارة الصناعة وعن الأشخاص الذين اتعامل معهم من العاملين فيها، مما يدل أن لديهم أشخاصا في هذه الوزارة يمدونهم بالمعلومات، وما يؤكد ذلك أنهم في نفس اليوم الذي خطفوني فيه كنت قد استلمت صكا من الوزارة أودعته في حسابي في البنك، عدت منه الساعة الثانية عشرة بعدها بساعة واحدة داهمت العصابة مكتبي، كنت أحاول استعادة الموضوع في ذهني، وأنا رهن "الاعتقال"، وأعيد الشريط لأعرف سبب "اعتقالي" والشخص المسبب، وحامت شكوكي حول الوسيط الذي حصل لي على العمل من وزارة الصناعة مقابل عمولة تقاضاها، فالمعلومات التي طرحت علي في التحقيق لم تتعد المعلومات التي كانت متداولة بيني وبينه و ضابط أمن وزارة الصناعة و الموظف المختص عن العمل.

أنزلوني على الأرض، تفوه "الحجي" متثاقلا متأنيا بكلامه "إن أهلك أقاموا عليك الدنيا وأقعدوها، وعليه سنسجل لك شريطا صوتيا، نبعثه لهم"، صمت برهة، قال "سنملي عليك الرسالة التي سنسجلها لك، عندما أضربك بالعصا على كتفك الأيمن تبدأ بالحديث، إن أخطأت أضربك على رأسك فتتوقف عن الكلام ثم نعيد تسجيل الحديث ثانية، اذكر اسمك الكامل واطلب منهم أن لا يتصلوا بالشرطة العراقية أو بالقوات الأمريكية، وأن شخصا اسمه رعد سيأتيكم ومعه شروط عليكم قبولها بالكامل، وأن التحقيق معك قد انتهى وذكرت جميع أعمالك وأشغالك وارتباطاتك وكل ممتلكاتك، دع حديثك مصحوبا بالبكاء أثناء التسجيل"، سألته "كيف يكون ذلك؟" وفي ذهني شعور بالقلق والخوف ينتابني، لو أن هذا الشريط قد وصل إلى عائلتي بهذه الطريقة سوف يرعبهم، يقلقهم، يكدرهم، ويجعلهم أكثر ضعفا أمام المساومة التي سيمليها عليهم الخاطفون، توقفت عن الكلام، قال "نحن نعرف كيف نجعلك تبكي!!" لسع جسدي بالعصا الكهربائية التي معه، خرجت مني صرخة مكتومة تنم عن ألم، لكنني لم أبك كما أراد، بعد انتهاء عملية التسجيل أعادوني إلى الغرفة تحت الأرض، بقيت عشرة أيام أخرى، وبهذا يكون قد مر على اختطافي شهرا كاملا لم يتم

خلالها التحدث نهائيا مع أي من "المعتقلين"، فقد كان الكل خائفا مرعوبا من التهديدات التي يرددها الخاطفون، من ذبح ونحر على أيدي المجاهدين المعروفين بجز الرؤوس وفصلها عن أجسادها، وأفلام الفيديو التي كانوا يصورونها لضحاياهم ويثونها خير شاهد على ذلك، كل هذه المدة المنصرمة التي قضيتها في هذا المكان، كنت خلالها مقيد اليدين معصوب العينين، كما هو حال الآخرين من "المعتقلين" يلفنا الظلام طيلة الوقت.

بعد انقضاء شهر على تواجدي في هذه الغرفة المظلمة دخل علينا الحارس الذي عطف علي وعالجني، كنت أميزه من خلال نبرة صوته، ربت على ظهري وقال "يلله حاج انهض" شعرت من خلال طريقة تعامله، أن هناك نية لإطلاق سراحي خصوصا وأنهم قبل يومين ألبسوني قميصا غير الذي كنت أرتديه، تسلقت السلم الحديدي بمساعدته بعد اجتياز النفق المزيف، حيث اعتليت السطح العلوي، أجلسوني أرضا، فكوا وثاقي القديم، ربطوا رجليّ إلى بعضهما بإحكام، قيدوا يدي إلى الخلف، ثبتوا شريطا لاصقا فوق ربطة عيني وعلى فمي، شعرت أن هناك شخصا آخر إلى جانبي، تعاملوا معه بنفس الطريقة سوى أن معصميه كانا مقيدين بقيد حديدي "كلبجه" سمعت ذلك من خلال حديثهم معه، رفعونا عن الأرض، أودعونا صندوق السيارة، وقد أدخلوا صاحبي الصندوق قبلي، وسعنا الصندوق نحن الاثنين لضآلة جسمينا، سارت السيارة وهي تتوقف عن المسير بين الفينة والأخرى، يترجل منها أحدهم يفتح غطاء الصندوق، يطل علينا ليتأكد من وجودنا، كانت حركة السيارة بطيئة وهي تجتاز أرضا زراعية وعرة ترغمها أن تمشي الهويناء وهي تسير بصعوبة بالغة، بعدما يقارب النصف ساعة بلغنا مكانا كأنه مزرعة، ميّزتها من خلال صرير بابها الحديدي، ولجت السيارة المكان توقفت، أخرجونا من صندوقها، رمونا أنا وصاحبي على أرض وعرة رطبة، بعد فترة وجيزة تقدم مني شخصان رفعاني بيديهما عن الأرض، نقلاني إلى مكان آخر، ألقاني على سطحه، تحسسته كان سطحها صلبا أملس من الاسمنت، لم يمض وقت طويل وأنا ملقى على الأرض، وإذا بهم يلقون علي بجرو ثم تلوه ببطة ودجاجة، أسمع

نباح كلاب وأصوات دجاج ليست بعيدة عني، بقيت مرميا على هذه الحال لمدة تقارب الساعة، جاء أحدهم فك وثاقي، أزاح الشريط اللاصق عن فمي، ورفع عن عينيّ ليستبدله بقطعة قماش ربط بها عينيّ وحبل ربط به رجلي بطريقة تسمح لي بالحركة، ولي القدرة على استخدام يدي في تناول الطعام والشراب، قال لي بلهجة عسكرية أمرة واضحة "انهض"، إستقمت ومشيت قليلا وهو ممسك بيدي يقودني إلى المجهول، طلب مني ارتقاء درجات سلّم، بعده دفعني بشدة من خلال كوة في حائط، تقدمني رأسي إليها، سقطت على الأرض من الجهة الأخرى للحائط كأني نزلت في حفرة، تقدم إلي ثانية، فاقنادني وأدخلني قبوا ضيقا، كتفاي تكادان تلامسان جدرانها الجانبية، وقفت على امتداد قامتي، تحركت دون أن أحني جسمي، فقد كان السقف مرتفعا قليلا، أجلسني وقال بنبرة أمرة "أنت تنام هنا"، الأرض مفروشة بحصيرة من النايلون عليها بطانية ووسادة عليها آثار حفرة لرؤوس قد سبقتنا في استخدامها، مكاني كان آخر هذا القبو، أما صاحبي الذي قدم معي، فاتخذ الموضع الذي يليني ورأسه تلامس قدمي، إنتصب الحارس إلى جانبي، والتقط يدي بعنف وقال بلهجة تهكمية بآسة جافة "انهض وامسك الحائط بيدك الأخرى وأكمل السير معي"، وصلنا الى آخر الجدار، كانت هناك علبة صفيح "تنكة" قال "هنا تتغوط وتبول، هذا هو مرحاضكم"، عادت بي الذاكرة إلى أكثر من خمسين عاما، عندما اعتقلت بمعسكر الرشيد في بغداد، بعد انقلاب شباط ١٩٦٣م، كنا حينها معتقلين في ثكنة الهندسة العسكرية و"مرحاض التنكة" المشابه لهذا المرحاض، إن دورة الأيام والأحداث تعيد نفسها لترافقها دورة العنف على يد أشخاص يحملون الصفات ذاتها ويمارسون التعذيب والتنكيل، وإقصاء الآخر، وامتهان كرامته وانتهاك حرите.

بعدها فرغ الحارس من مهمته الارشادية، أعطى لكل واحد منا رغيفي خبز وموزتين اثنتين وقنينة ماء للشرب، وأخرى تركها بالقرب من "التنكة" لإستعمالها بعد إستخدام الحمام "التنكة"، غادرنا بعدها، وبقينا داخل القبو لا نكلم بعضنا، فالخوف الذي لازمنا من السجن السابق قد خيّم وكلكل علينا وترك بصمته فينا، مر وقت طويل

كأنه دهر، ونحن صامتان، رفعت الغصابة عن عيني لم أر شيئاً، كان الظلام الحالك الدامس يحيط بنا، لا يمكنك أن ترى فيه حتى اصبع يدك، ليس هناك من شباك أو فتحة هواء سوى بعض الشقوق في أساسات جدار القبو، هي عبارة عن فتحات ضيقة بين الطابوق لم تملأ بالإسمنت، فاستخدمناها لاحقاً للتنفس، لانسمع سوى بطبقة البط ونقنقة الدجاج ونباح الكلاب ونقيق الضفادع وصياح الديك الذي كنا نعرف منه أن الوقت فجر وأن الصباح آت، وعندما يهجع الدجاج إلى أقدانه فهو إشارة للغروب وأن الليل سيخيم علينا، وكان هذا مقياسنا في حساب الأيام التي تمضي.

مر يوم لم نسمع فيه أو نشعر بوجود بشر حولينا في هذا المكان، وفي المساء تحدثت مع صاحبي همسا بعد أن طلبت منه أن يقرب رأسه مني، أصبحنا نكلم بعضنا، بعد يومين أطل الحارس علينا وناولنا أربعة أرغفة من الخبز وأربع تفاحات وقينة ماء لكل واحد منا، لم يتحدث معنا كثيراً طلبت منه دواء لمعدتي، فقد كنت أشكو من قرحة فيها، أجاب باقتضاب "سأحاول"، رمى الأشياء علينا، غادرنا بعد أن أغلق الباب من خلفه، لم نتحرك أو نتحدث لأكثر من ساعة خوفاً من أن يوهمنا بخروجه وهو لم يزل داخل القبو، لم نسمع صوتاً لأحد، قربت رأسي من رأس صاحبي، همست في أذنه بصوت منخفض "من أنت؟ وما قضيتك؟ حدثني عنك"، تفوه بصوت ضعيف مرتجف، تعلوه نبرة متعثرة، يصعب عليّ سماع ما يقول، رجوته أن يرفع صوته قليلاً، أجاب "أنا أحمد العبيدي خطفوني من الشارع، كانوا أربعة أشخاص ضربوني على رأسي بالمسدس، سال الدم على وجهي وقميصي، قاومتهم، لأنني من القوة والشجاعة والاعتداد بالنفس ما يجعلني قادراً على مقاومتهم والافلات من قبضتهم، إلا أن أحدهم وضع مسدسه في خصرتي، شعرت حينها أنه جاد بقتلي مما اضطرني للاستسلام لهم، في التحقيق اتهموني أنني أعمل مع السفارة البريطانية، وكنت قد سافرت إلى الامارات العربية بمساعدة أحد الاصدقاء للبحث عن عمل، فشلت في هذا المسعى، عدت أدراجي إلى بغداد وفي طريق العودة إلى بيتي في العامرية وقعت الحادثة، يبدو أنهم كانوا يراقبونني منذ فترة ويعرفون الكثير عن سيرتي الحياتية".

ربما كانوا يعتقدون أنه غني وأحواله المادية جيدة جدا، لأنه يتحدث في مجالسه الخاصة أنه كان يمتلك متجرا كبيرا في لبنان، مما ترك انطبعا لديهم أن أوضاعه المالية حسنة، كانوا يساومونه في التحقيق على مبلغ كبير من المال وهو الذي لا يملك شيئا.

حدثني كيف أنه خرج من بغداد إلى كردستان وسكن فندقا متواضعا في دهبوك كي يجد له سبيلا إلى سوريا، لم يكن في جيبه سوى خمسين دولارا، حزن له صاحب الفندق لما رآه بهذه الحال، عطف عليه، دبر له طريقا للهرب واتفق مع أحد المهربين كي ينقله إلى سوريا، ومن هناك يذهب إلى لبنان، لم يكن في جيبه غير عشرين دولارا، تمت عملية تهريبه بنجاح، وصل إلى لبنان، وذهب إلى أحد المساجد في بيروت بحثا عن مأوى ينام فيه ولم يجد أنسب وأفضل من ذلك، دخل المسجد ليلتقي بإمامه الشيخ، شرح له ما عاناه وما جرى له وما أصابه في رحلته الشاقة من العراق إلى لبنان، رق الشيخ لحاله بعد أن استأنسه واطمأن له، تركه ينام في المسجد حتى يجد له عملا ومأوى آخر، وعده أنه سيسعى في إيجاد عمل له، وجد له وظيفة في أحد الأسواق الكبيرة في بيروت، وحصل على سكن وتحسنت أوضاعه المالية، بقي على هذه الحال أربع سنوات، مخالفا قانون الإقامة، يقيم بصورة غير قانونية، وفي يوم صادف مروره عبر حاجز للدرك اللبناني، ولأنه لا يحمل معه أوراقا ثبوتية وإقامة شرعية، أوقفه الحاجز الدركي وأودع على إثرها سجن رومية، بقي فيه ثمانية أشهر، سقر بعدها إلى العراق عن طريق منفذ ربيعة. أمسينا ندرك خلال فترة ونعرف أنهم يعطوننا قدرا من الخبز والتفاح بعدد الأيام التي يغيبون فيها عنا، فلكل يوم خبزة واحدة وتفاحة واحدة، بعد أربعة أيام عادوا وهم يحملون لنا أربع تفاحات وأربعة أرغفة خبز وقنينة ماء واحدة لكل منا، واستمر الحال على هذا المنوال.

بعد ما يقارب العشرة أيام، فتح باب القبو علينا، رموا إلينا بشخصين ليصبح عددنا أربعة أشخاص، وفي بداية دخولهما كانا وجلين خائفين لا يرغبان في التحدث معنا حتى وإن كان همسا، بعد يومين بدأنا الحديث معهما لكن بصوت منخفض أثناء

ساعات الليل، الأقرب إلينا اسمه ياسر عمار العبيدي، طالب بالمرحلة الأخيرة في كلية الهندسة، وقد "اعتقل" هو ووالده، بعدما اختطفا من بيتهما في العامرية وضربوا الأب على رأسه بكعب البندقية، أما أبو عمر (لم يعرفنا باسمه) الشخص الثاني فقد اختطفوه من أمام مكتبه في حي العامرية، يحمل شهادة الدكتوراه في هندسة الطرق من امريكا ومقاول كبير في بغداد وشريك لآل خريبط، وبعد حديث معهما تبين أنهما كانا بنفس "المعتقل" الذي جننا نحن منه، كان الحديث يدور بيننا وكل منا لا يرى شخص الآخر للظلام الحالك الذي كان يحيط بنا.

مرت الايام ونحن على هذه الحال وانا اقص على الشابين احمد العبيدي و ياسر عمار العبيدي قصصا و اسمعهم شعرا، ، لأنهم كانوا في منتهى الخوف والفرع واليأس، كان يصل بهم الحال أحيانا إلى التفكير بالانتحار، وأثناء حديثي معهم وإذ بي أفاجأ بياسر ليقول لي (ألست أنت العم "أبو علي"؟)، قلت "بلى"، قال "عرفتك من صوتك وحديثك أنا ياسر ابن صديقك عمار العبيدي...لقد اعتقلوني أنا وأبي من البيت، أخرجونا منه عنوة، ضربوا أبي على أم رأسه، فانزعت البندقية من يد أحدهم، حاولت استعمالها إلا أنها لم تتجاوب معي، ربما كان السبب هو الارباك وخوفي على والدي من القتل، نقلوني إلى هذا المكان بعد أن أكملوا التحقيق معنا في المعتقل السابق الذي كنا معكم فيه، بعد أن أبرم والدي معهم اتفاقا طلبوا منه مبلغ مليون دولار، شرط أن يبقى هو رهن الاعتقال ويطلقوا سراحي كي أسلمهم المبلغ، بعدها يتم اطلاق سراحه".

كان عمار العبيدي شيوعيا سابقا هو وأخوه الذي يكبره، وهما من سكان ناحية "جبّة" المنطقة القريبة لقاعدة البغدادى، ويعمل مهندسا في مديرية الري، والده من شيوخ المنطقة البارزين، وبعد سقوط نظام صدام، قام بإصدار مجلة دورية باسم (البغدادى) تهاجم الارهاب والقاعدة والنظام السابق، وأثناء التحقيق معه كانوا يسألونه عن الضابط الأمريكي الذي يتصل به، وعن مصادر تمويل مجلته، كنت أعرف أنه كان يصدر هذه المجلة، وقد تسنى لي قراءة بعض أعدادها عند زيارتي المتكررة له في بيته، كان أيضا يعمل مقاولا يجهز الأمريكان في قاعدة البغدادى باحتياجاتهم.

مرت علينا ثلاثة أسابيع ونحن في هذا القبو لا نسمع غير أصوات الطيور والحيوانات وأصوات السجانين عندما يطلون علينا في المواعيد التي ينفذ فيها الأكل والشرب لدينا.

حمامة من خارج القبو تنوح، هديلها يختلط بالصوت الرخيم لابنتي أروى، يشنّف أذنيّ، يمسح هذا الصوت الساحر دمعته من تحت أهداب عينيها الجميلتين، تأسرني رقتها، حبها للشعر والغناء، تذكرني بأبي فراس الحمداني وهو يرسل شعره إلى أهله وقومه من خلف قضبان سجنه في بلاد الروم وأبياته التي تعبر عن الحالة التي أنا فيها:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي

معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى ولاخطرت منك الهموم ببالي

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعني بالحوادث غالي.

وقد صدق ظني، بعدما أفرج الأوباش عني، كم كانت تحزن أروى وهي تصدح وتغني، للغائب الذي ربما لن يعود، تعاني وتتألم، تنام بفراش الأب المغيب عنهما، تلتحف بحنان "حبها الكبير"، المغادر بيتها للمجهول، وجهها الجميل يمسح وسادته التي فارقتها ولم يعد بعد إليها، تسقيها من لآلى دموع عينيها الخضراوين، لتشتل عليها لهفة الأمل بعودة الوالد الصديق، وصوتها الغارق بالحزن يردد هل هناك من يزف لها خبرا يكحل أهداب عينيها، وإن كان نداء أو علامة تكشف المصير، وتبعث بصيص أمل يفضح غياهب المجهول، ويطفئ جمرة الشوق المستعرة بين حنايا بنيتي الحلوة، أو اه عليك، كيف بي وأنا لا حول لي بالوصول إليك.

في الاسبوع الرابع فتح باب القبو ودفعوا إلينا بشخص خامس اسمه "أبو علي" لهجته بغدادية، يروي أنهم اختطفوه من سيارته التي كان يقودها على جسر الصرافية "الجسر الحديدي"، أوقفوها وأنزلوه عنوة منها، تركوا فيها ولديه، الكبير منهما عمره أربع سنوات والآخر ثلاث سنوات، قال (أخذوني إلى قصر فخم، واحتجزوني فيه مدة اسبوع قبل أن ينقلوني إلى هذا المكان، يطعموني فيه أحسن الطعام، يناقشونني في أمور الدين، معاملتهم لي جيدة، لكنهم يسمعونني أشرطة تسجيل فيها دعوة تشم منها رائحة الموت والحقد والانتقام والتحريض على القتل)، كان يتحدث بلا وجل أو خوف وبصوت مرتفع "أنا شيعي المذهب ولي ثلاث أخوات متزوجات من رجال سنّة، لقد وعدوني بإطلاق سراحي"، عيناه مربوطتان، نزع الغطاء عن عينيه، فتحوا الباب فجأة، دخلوا علينا، شاهدوه بهذه الحالة وعيناه قد تحررتا من قناعهما، عتّفوه وأهانوه، وانهالوا عليه ضربا، حتى أنه سقط أرضا من هول وشدة الضرب.

في الاسبوع الرابع من الشهر الثاني لاختطافي عاودني ألم معدتي، داهمتني نوبة من الاستفراغ، بسبب قرحة مزمنة في معدتي، نقلت مكاني قرب علبة الصفيح "التنكة" أو المرحاض بالمعنى الآخر، وقد امتلأت بالبراز والبول والاستفراغ، لفظت هي الأخرى ما حوته في جوفها، فاض السائل واندلق على جوانبها غازيا فراشي وملابسي، أطلت علي بوجهها الكالح ذكريات معتقل معسكر الرشيد عام ١٩٦٣م ومراحيضها من علب التنك القميئة المصنوعة من صفائح الزنك، التنفس أصبح صعبا، والعرق بات يتصبب منا لحرارة الطقس في داخل القبو، لا أقدر على النوم، قرّبت أنفي من شقوق أساسات الحائط عليّ أستطيع استنشاق بعض الهواء، إرتفع صوت أحمد العبيدي من مكانه "لقد حفرت التراب بأصبعي، أوجدت خرما بين الأرض والجدار، وسّعته قليلا وتنسمت منه هواء عليلا، هلموا إلي، كل واحد منكم له بضع دقائق يستنشق فيها هواء نقيًا غير ملوث"، تهيأنا جميعا ليقوم كل واحد منا بدوره، إذ لا سبيل له إلا أن ينبطح على الأرض ويضع أنفه على الشق كي يستنشق الهواء منه.

إستمر الاستفراغ معي دون توقف، نفذ الماء مني بعدما فرغت القنينة اليتيمة الوحيدة التي معي منذ ستة أيام، بدأت أفقد سوائل جسمي، تشقق لساني وشففتاي، فرغت قناني الماء التي بحوزة الآخرين، نفذ الأكل والماء، فقد كانت وجبتهم الأخيرة تتكون من ستة أرغفة خبز وبعدها تفاحات، كنا متأكدين أنهم سيغيبون عنا ستة أيام كما عودونا، بدأ أمل البقاء في الحياة يتضاءل لدي، وأمسيت على مشارف الموت، فقد وهن الجسم مني، وفقدت سوائل جسمي، وتشققت شففتاي وتقرّح لساني، وأصبحت أجد صعوبة في الوقوف لاختلال توازني، إذ سرعان ما أهوي أرضاً ويرتطم رأسي بالجدار ليحدث به خدوشا وجروحا، فيما " أبو علي" الذي كان آخر من حشروه معنا سقط على الأرض، خف نبضه، توقف عن الكلام والحركة.

نحن الآن في اليوم السادس وهو اليوم الأخير، الذي نتوقع أن يطلوا علينا فيه، بحسابات طريقة تعاملهم السابقة معنا التي يتطابق فيها عدد التفاحات التي يعطونها لنا مع عدد الأيام التي يغيبون بها عنا، قلت لزملائي المحجوزين "تعالوا يا أخوان نحن الآن على مشارف الموت، إن لم يأتوا إلينا اليوم، دعونا نفكر بطريقة نهرب بها من هنا، كأن نفتح جدارا، أو نخلع بابا، أو اية وسيلة أخرى، المهم أن نخرج من هذا المكان، فإن كانوا موجودين ومختبئين في المزرعة التي يحتجزوننا فيها، وقاموا بقتلنا فنحن اصلا أمسينا في عداد الأموات، وبخلاف ذلك نتمكن من الهرب ونصبح أحرارا، ويبدو أننا قريبون من الطريق العام، فقد كنا نسمع هدير أصوات الدبابات الأمريكية وأزيز الطائرات التي تمر من فوقنا"، فاتفقنا أن نعمل على إيجاد طريقة للهروب ليلا وفي وقت متأخر، كي نصل عند بزوغ الضوء إلى مكان بعيد عن هذا "المعتقل"، وعندها نستطيع أن ننتقل منه إلى مكان آخر "وإن جاءوا حسب تقديرنا لموعد قدومهم وشعرتم بوطأة أقدامهم أو سماع أصواتهم، وإن كنتم تخافون من دعوتهم، لا عليكم سوى إعلامي بوصولهم وأنا من يناديهم"، لم يمر وقت طويل على حديثنا حتى سمعنا أصواتهم ووطأ أقدامهم، زحفت إلى الباب الحديدي، تعالي صوتي بالصراخ، ركلت الباب عدة مرات بقدمي، وطرقات قوية من يدي، وإذا بهم يأتون مهرولين مسرعين، فتحوا الباب، والغضب يغلي في عروقهم، والحنق باد على أصواتهم وهم يرددون " من كان يطرق الباب؟ ألم نحذركم أن لا ترفعوا أصواتكم، أو تطرقوا على

الباب؟"، دخلوا علينا، وجدوني قبالتهم، سألوني "ما بك يحاج؟ ولم الصراخ؟" أجبتهم "إننا بشر ولسنا بهائم، حتى البهائم لأتعامل هكذا، إن كنتم تريدون موتنا فهذا لا يكلفكم سوى إطلاقه بخسة الثمن من مسدساتكم، وإن كنتم لا تريدون ذلك، فأضع الإيمان أن توفروا لنا ماء، الطعام من الممكن أن نصبر عليه، وليكن في علمكم، إني بعد أربع وعشرين ساعة، إن لم تسقوني ماء، سأودّع الحياة، لأن جسمي فقد كل سوائله ونشفت عروقي، وهذا الرجل الذي سقط أرضا وفقد القدرة على الكلام وخف نبضه، ربما يكون قد فارق الحياة، إن لم تستطيعوا أنتم فعل شيء أو غير قادرين أن تتخذوا قرارا بأنفسكم، أخبروا الحاج مسؤولكم أن رقم (٩٩) يقول هذا الكلام"، عادوا أدراجهم بعدما أغلقوا الباب وراءهم، مرت دقائق معدودات عادوا بعدها إلينا، فتحوا الباب، سحبونا إلى خارج القبو، سقوني ماء سكبوا منه على وجهي، ناولني أحدهم علبة عصير، تركونا نستنشق الهواء، رفعوا "أبو علي" عن الأرض حملوه خارج القبو، مرق من جانبي، فارتطمت يده المتدللية بجسمي أثناء مرورهم وهم يحملونه، وكنت أسمعهم يقولون "دلك له صدره، اعمل له تنفسا صناعيا"، وقد خلته ميتا، بعد وقت لم يتجاوز الساعة نقلونا إلى قن كبير للدجاج، كان هواؤه منعشا، أرضه رطبة باردة جراء براز الدجاج، فكوا وثاقي، رميت بنفسي على الأرض، شعرت وكأني في فندق فئة خمسة نجوم، نمت نوما عميقا، مر الوقت مسرعا لم أشعر به، إلا بعدما أيقظوني، أعادونا مجددا إلى القبو، بعد أن جففوا أرضه من الماء، وغيروا فرشنا القديمة، أعادونا إلى أماكننا السابقة في القبو، أعطوني كيسا مليئا بالتفاح والكيك وعصير البرتقال وأربعة قناني ماء، أوصوا ياسر عمار أن يعتني بي، ويعينني كي أصل إلى "مرحاض علبة الصفيح" عند الحاجة إليه، لأنني كنت أترنح يمينا وشمالا إن سرت فيرتطم رأسي بالجدران.

صباح اليوم التالي، فتح الباب وصاح أحدهم مناديا علي باسمي الصريح "فياض"، فاستغربت لأنهم كانوا ينادوننا سابقا بالرقم وليس بالاسم، فالأخير محرّم تداوله، قالوا "اخرج"، أجبتهم "لا أقدر على السير والخروج بمفردي ليأت أحد لمساعدتي، خوفا من اختلال توازني وارتطامي بالجدار"، جاءني أحدهم أسندني إليه وساعدني بالسير إلى خارج القبو، أجلسني إلى جانب الحائط الخارجي، قال "اخلع ملابسك، وافلت غصابة عينيك، شرط أن لا تفتحهما أو تسترق النظر"، خلعت ملابسني، أمسيت عريانا،

سكب أحدهم الماء على رأسي وجسمي، غسلت رأسي ووجهي، ناولني ملابس جديدة ارتديتها، كانت عبارة عن بدلة رياضة "تراك سوت" ونعل وقبعة، طلب مني أن أرافقه ماشيا على قدمي ذهابا وإيابا لأكثر من ثلاثين مرة، كي أستطيع التوازن أثناء سيرتي، قال لي "سنطلق سراحك، تعال معي إلى السيارة، اجلس بجانبني، لا تفتح عينيك وابقهما مغلقتين، وعندما نصل المكان المعين، ترحل من السيارة، سر خمس خطوات توقف بعدها، عد إلى الخمسين وافتح عينيك، نكون نحن قد تجاوزناك"، دس في جيبني مبلغا من النقود، قال "تستأجر به سيارة تقلك، لا تذهب إلى بيتكم مباشرة، بل اذهب إلى بيت أحد اقربائك أو اصدقائك، تبيت عندهم ليلة، تغادروهم في اليوم الثاني إلى بيتكم"، ثم أضاف (نحن الآن في "الفلوجة"، سنقطع جسرا على النهر، نتوجه بعده إلى بغداد، من المحتمل أن تعترضنا دورية أمريكية أو دورية شرطة، افتح عينيك باتجاههم، قل لهم إنك مريض وذاهب إلى بغداد للعلاج، وسألني "هل لك أغراض لدينا؟" قلت "نعم، ساعتني، حذائي، تلفوني النقال، بدلتني، ومبلغ من النقود، قال" عليك أن تعذرنا وتهبنا إياها، وتحلها علينا، لأننا لا نستطيع إعادتها إليك، ولا تدع علينا بالسوء"، أدار دفعة الحديث وبدأ يتحدث عن "أبو علي" الشخص الذي حملوه من داخل القبو، قال "لقد قتلنا هذا الشخص الذي كان معكم فهو من منظمة بدر"، كنت أدرك اللعبة منذ البداية، إن أزحت غطاء العين و رأيتهم، يعني أنك قد شخصتهم وعرفت وجوههم، وعندها سيقتلونك لامحالة، كان يريد أن يعرف هل علمت بموته، قلت له "أنا لم أكن بوضع يؤهلني لتمييز الأشياء، ولم أكن واعيا لما يدور من حولي، غارقا في البول، لا ادرك ما يجري من حولي"، سكت قليلا ثم غير دفعة الحديث، قال "هل علمت من أصبح رئيسا للجمهورية؟"، لم أجبه، قال "لقد أصبح جلال الطالباني رئيسا للعراق، هذا آخر الزمن يكون رئيس جمهورية العراق كردي"، ولأقطع عليه حديثه طلبت منه أن يسقيني شربة ماء بارد، توقف قليلا، ناولني علبة كولا مبردة وعلكة، لم أفتح عيني أبقيتهما مغلقتين لأنني كنت متيقنا تماما متى ما فتحتهما، فإنهم لا يتوانون عن قتلي، باعتباري قد كشفت عن وجوههم وشخصهم، كانت لحيتي طويلة وأمسى وزني لا يتعدى الأربعين كيلوغراما، وجهي قد اسود بفعل الضعف والاستفراغ، استمر بالسير حتى بلغ المكان المعين الذي حدده مسبقا، طلب مني الترحل من السيارة، سرت خمس خطوات، توقفت، لم أعد للخمسين كما طلب مني، غادرت سيارتهم المكان، تأكدت من ذلك دون أن ألتزم بالعد، فتحت عيني،

وأنا غير مصدق أنهم أخلوا سبيلي، كانت الدنيا سوداء مظلمة، رافقتني الحالة لحظات، انكشف لدي المكان بعدها، صرت أرى الناس الواقفين عن بعد مني دون أن أستطيع تمييز وتحديد معالم وجوههم، قمت بالسير قليلا رواحا ومجينا بمحاذاة الشارع العام (طريق الرمادي القديم - منطقة "الكرمة")، إتضحت صورة الناس أمامي، وانجلت وبانت الرؤية، كنت بحالة يرثى لها من الضعف والوهن وعدم التركيز، مر شخص من أمامي يقود جرارا زراعيا، ربما تكون له علاقة بالخاطفين، بادرني بالقول "من هنا إلى خان ضاري" وأشار بيده نحو الطريق، غادر وبقيت أومئ للسيارات المارة، إلى أن توقفت سيارة أجرة كان فيها راكبان إضافة إلى سائقها، سألته "إلى خان ضاري؟" فهزّ برأسه إيجابا، ركبت معه، دفعت له الأجرة، أوصلني إلى الخان، غادرت السيارة نحو محطة لوقوف السيارات، وكان صوت منبعث منها ينادي "علاوي...علاوي"، كانت محطة سيارات لنقل الركاب، ركبت السيارة، جلست في مقعدها الخلفي، وأنا ملتح وأعتمر قبعة وأنتعل نعلا، أرتدي بدلة رياضية، كان يبدو علي المرض كأنني خارج لتوي من المستشفى، سارت السيارة إلى مبتغاها وهي تطوي الطريق بنا، أوصلتنا إلى "علاوي الحلة"، أفرغت حمولتها بالقرب من جامع البنية، ترجلت منها، صرت أبحث عن سيارة أجرة قديمة تحمل اللوحة الحمراء، فقد كان الكثير من السيارات الخاصة التي لا تحمل لوحة حمراء، تعمل كسيارة أجرة، كنت خائفا أن تكون إحدى هذه السيارات عائدة لعصابات الخطف، فضلت الانتظار، عثرت على واحدة، ركبتها مسرعا دون أن أفصله عن الأجرة، طلبت منه إيصالي إلى منطقة "زيونة" حيث يقع بيتنا، لم ألتزم بشرطهم الذي طلبوه أن أذهب إلى بيت أحد الاقرباء أو الاصدقاء، طال الطريق بنا فالطرقات معظمها مغلقة، والازدحام على أشده، حاول السائق عبور جسر الصرافية الحديدي، لأن جسر الخلاني وجسر الباب الشرقي كانا مزدحمين بالسير، تبين أن الأخير أيضا كان مغلقا لشدة الازدحام، فاتجه بنا يمينا نحو منطقة الكرخ، واستمرت الطريق بنا لأكثر من ساعتين، وهي التي لا تتجاوز النصف ساعة في الأيام الاعتيادية، حسبت الوقت دهرا والطريق طويلة قد امتدت لآلاف من الأميال، يتخللها اشتياق يستعر بين الحنايا يتأجج ويضطرم لرؤية الأهل والأولاد والأحبة، وصلت بيتنا، توقفت السيارة التي أقلها أمام بوابته الخارجية، ترجلت منها، أفرغت ما بجيبتي من نقود، ناولتها للسائق، بقى مشدوها يتطلع بي، تزامن وصول سيارة الأجرة وتوقفها مع وصول ولدي "علي" إلى باب البيت، أراقبه وقد

ركن سيارته خارج مرآب البيت، ترجل منها، ذهبت أنا باتجاهه، لم يتعرف علي شخصي لأول وهلة، ولسان حاله يقول من هذا الرجل الغريب القادم إلينا والذي يروم دخول بيتنا، وإن لم أكن قد ترجلت من سيارة الأجرة لخالي شحاذا، يطلب المساعدة، توجهت نحوه، دققت النظر فيه، دمعت عيناى، قلت له بصوت مكبوت مكتوم فيه حشجة "أنا أبوك يا علي"، حاول أن يصرخ، منعتة وضعت يدي على فمه، ضمنى إليه بقوة حملني بين يديه لخفة وزني، وأدخلني البيت، زوجتي كانت تغسل المرآب لم تعرفني قال لها علي "هذا أبي يا أمي"، قفزت نحوي، هب إلي راكضا من داخل البيت ولدي عامر صار يبكي ويقول "إنه ليس أبي أنتم تكذبون علي لا أصدقكم، أما ابنتي "أروى" فهالها وأذهلها المشهد وكأنها في عالم آخر، ولشدة المفاجأة هربت إلى الجيران غير مصدقة ما تراه، صارخة "هذا ليس أبي"، أحمد تعلق برقبتي وصار يقبل يدي ويشمني من عنقي وعيناه اغرورقتا بالدموع، أولاد العم وأبنائهم، هرعوا جميعا من داخل البيت حيث كانوا متواجدين وهم كثر لحراسة الأهل، كي أخفف من الوطأة عليهم هزرت لهم وسطي ورقصت لهم بحركة علها تخفف من الحال التي هم عليها، قلت لهم "خذوني إلى الحمام، أزيلوا عني رائحة البول والاستفراغ"، نظفوا الطين العالق في باطن أنفي وفي أذني، بقيت على هذه الحال ثلاثة أيام، خلالها علّقوا لي مغذيا كي أسترد عافيتي و وضعي الصحي، كان يزورني فيها طبيب يشرف علي يعينه مضمّد يربط الوقت كله إلى جانبي، كل من كان يزورني وتقع عيناه علي لا يصدق أن الذي أمامه هو فياض الذي تركه منذ شهرين بصحة وعافية، ربما أنه شخص آخر، فقد تغيرت هيئتي وشكلي وأصبح وزني لا يتجاوز الأربعين كغم، طلبت من الأهل نقلي إلى مستشفى أهلي كي أجري الفحوصات اللازمة وأتلقى العلاج وأرقد فيه بضعة أيام للنقاهة، بسبب كثرة الأشخاص الذين يأتون لزيارتي وتفقدي والاطمئنان علي، وإصرارهم على مقابلتي لمعرفة حكاية اختطافي، وكان هذا يسبب لي قلقا وضغطا لم تعد لدي القدرة على تحملهما، تم نقلي إلى مستشفى السعدون الأهلي، بقيت فيه ثلاثة أيام، وبعد أن استقرت حالتي الصحية، عدت إلى البيت.

ثمة الجانب الآخر من الحكاية بحسب أفراد عائلتي: لم يتصل بهم أحد إلا بعد شهر من اختطافي، كانوا يجوبون المستشفيات، يفتشون بين الجثث في برّادات الطب العدلي، يحاولون الاتصال ببعض "العلاسة" وهم مرشدوا العصابات الى الضحايا بأمل

أن يجدوا من خلالهم طريقاً أو أثراً أو خيط معلومات يوصلهم إلى عصابة الخطف، حاملين صورتي معهم للاستدلال بها، وذات يوم من تلك الأيام الحالكة السواد، المليئة بخوفهم وترقبهم وقلقهم على مصيري، كان ولدي علي برفقة أحد أبناء عمه وهما يراجعان مستشفى الطب العدلي للاطلاع على الجثث المكدسة في خزائنه المبردة، في محاولة لمعرفة جثتي إن وجدت بينها، بعد تردد عزف علي عن الدخول إلى المستشفى وطلب من ابن عمه أن يذهب هو ليستطلع الأمر، دخل المستشفى، فتش أدراج البرادات، عثر على جثة عمه، بقي مذهولاً حائراً متردداً، كيف سيبلغ ابن عمه بهذا الخبر الصعب والمشؤم، أطرق قليلاً والحزن مرتسم في عينيه، لم يجد مفراً من العودة ليخبر علي، وجدته متكئاً على السيارة والقلق باد عليه، وقف أمامه دون أن يكلمه وقد اغرورقت عيناه بالدمع، ضمه إلى صدره وهو ينتحب ويقول "وجدت عمي داخل الثلجة"، خارت قوى علي، سقط أرضاً مغشياً عليه، غسل له وجهه بالماء، هدأه طالباً منه العودة إلى البيت لإخبار الأهل ومن ثم العودة لاستلام الجثة، رفض علي طلبه وأصر على العودة إلى المستشفى ليتأكد أن الجثة هي لأبيه بعد أن يراها بأم عينه، سيما وأن ابن عمه قد أخبره "إن وجه عمي مشوه وجثته منتفخة"، علماً أن الكثير من الجثث كانوا يأتون بها وهي مجهولة الهوية، دخل علي المستشفى، ولج غرفة البراد، تنشق رائحة الموت التي تملأ فضاءها، أشار له ابن عمه إلى درج الثلجة الذي وضعوا الجثة فيه، يقول علي: (سحبت درج الثلجة، أمعنت النظر إلى الجثة ودققت فيها، الجسم نفسه، البدلة الزرقاء التي كان يرتديها أبي يوم خطفه هي عين البدلة، والرأس شبيه برأسه لكن الوجه قد اعتراه التشويه ولا يمكن معرفته أو تشخيصه، لم يكن أمامي غير الكشف على رجليه، فأصابع رجلي أبي فيها تشوه خلقي حيث يركب الاصبع الرابع على الاصبع الثالث في كلتا القدمين، وهما يشبهان قدمي أخي عامر، بينما وجدت أصابع رجلي الجثة سليمة لا يشوبها التشوه، ناهيك عن كبر حجم القدمين اللتين لا يمكن مقارنتهما بقدمي أبي الصغيرتين، مما جعلني أتأكد أن الجثة ليست له، حينها تنفست الصعداء وحمدت الله، أن الأمل باق بوجود أبي علي قيد الحياة).

مرّ شهر والخاطفون لم يتصلوا بهم أو يبعثوا بخبر لهم، بدأ الاتصال مطلع الشهر الثاني من اختطافي، أخذوا يساومونهم على مبلغ من المال بدأوه بنصف مليون دولار وكان

التفاوض معهم يجري عبر التلفون، كان يتخلله التهديد والوعيد، ينعنون علي بالكذب، فيقول له المتحدث "لا تكن كذابا مثل أبيك"، بعدها يخبرونه أنهم قتلوني ورموا بجثتي للكلاب، ويقطعون الاتصال لفترة تاركين القلق ينهشهم، والخوف يسيطر عليهم، وفي مرة أخرى يقولون لهم إنهم قتلوني ورموا جثتي في النهر، ويعودون ثانية ليقولوا إن جثتي في المكان الفلاني فاذهبوا لرؤيتها، كل هذه الأساليب كان الغرض منها اللعب بأعصابهم ومساومتهم وابتزازهم عندما يكونون بأقصى حالات الضعف والخوف كي ينفذوا مطالبهم، وقد استمرت المفاوضات ما يقارب الشهر إلى أن استقروا على مبلغ معين استلموه منهم في مكان ووقت هم الذين حددوهما وفرضوهما عليهم وبطريقة حرفية عالية حتى لا ينكشفوا، حصل ذلك قبل يومين من إطلاق سراحي، وفي أثناء ذلك الوقت كان يربط في بيتنا العديد من أبناء عمومتنا وقد استنفروا لحماية البيت خوفا من مدهامة العصابة له ولمتابعة الأحداث وتطورها.

أخيرا... فقط عودة لولدي علي وما تحمله خلال فترة اختطافي، لأذكر حوارا حصل بيني وبين "الحاج" أثناء التحقيق معي، حيث قال "سنخطف ولدك علي ونأتي به إلى هنا لتجنيد مجاهدا انتحاريا ضد الأمريكان"، فقلت "أنتم تعلمون جيدا أن المجاهد يحتاج لإعداد نفسي وذهني وبيئة مهياة قبل تنفيذ العمل، وأنا متيقن تماما أنه غير مستعد لذلك، فلماذا تجهدون حالكم عبثا؟"، أجاب "نحن لن نعلمه بأنه ذاهب لمهمة انتحارية إنما نرسله للمكان المعين وعند بلوغه الهدف المقصود سوف نفجر سيارته بواسطة التحكم عن بعد"، قلت "ها أنذا أمامكم يمكنكم فعل ذلك معي دون الحاجة الى اختطاف ولدي"، فسألني: "ها... تخاف عليه الموت من أجل قضية جهادية؟"، وحين أجبته متسائلا: "بالتأكيد أخاف عليه، هل ترسل أنت ولدك لمثل هذه المهمة؟"، أمر بضربي، أي أنني لم أكن أخشاه، أبدا، لا هو ولا أتباعه، وهم من هم، لكوني منذ الوهلة الأولى لاختطافهم لي وضعت نصب عيني أنني ذاهب إلى "الموت" مؤمنا بأنه مصير قدرني حتمي!

كنت قد ذكرت أن شخصا كانت تفصلني عنه ستارة من القماش وكان يرقد الى شمالي، يحمل الرقم (٥)، و كنت أعتقد أنه من الجنسية الامريكية او الاوربية، كنت اشم رائحة معجون الاسنان تنبعث من ناحيته عند كل صباح، و أحيانا كانت تنبعث منه رائحة عطر بعد أن يكمل تمارينه الرياضية و كأنه يستعملها ليغطي بها رائحة

العرق المنبعثة من جسمه و عندما انتقلنا الى المكان الاخر الذي اسميته "القبو" أخبرني احمد العبيدي: "أن الشخص الذي كان قرب الباب خلف الستارة هي امرأة، فقد كان السجن ينادي على الأشخاص في الطابق الاعلى ويقول لهم هيتوا (الابريق)، و كان يعني هيتوا الحمام للمرأة، ألم تكن تشم رائحة العطر المنبعث منها؟" قلت بلى. وبعد ما يقارب الشهرين من إطلاق سراحي، شاهدت على احدى القنوات الفضائية، تقريراً مصوراً عن صحفية فرنسية خطفت في العراق، واستقبلها الفرنسيون في مطار شارل ديغول بباريس استقبالا حافلا، فقد صرّحت للصحافيين: "خُطفت والمترجم العراقي الذي كان معي واقتادونا الى مكان نجهله، وكنا نحمل أرقاماً داخل المعتقل بدلا من أسمائنا، ينادوننا بها، أنا أحمل الرقم (٥)، والمترجم يحمل الرقم (٦)، وفي تقرير مصوّر للفضائية ذاتها، عرضت فيه مقابلة مع المترجم وهو يزور عائلته وهم يستقبلونه بعد أن أطلق سراحه. فقد كانت هي من تجلس على يساري خلف الستارة، والمترجم هو الشخص الذي كان يرقد على يميني وهو من كان يكثر من الصلاة والدعاء كما ذكرت سابقا.

أبو عمر المقاول وشريك آل خربيط والمهندس الحاصل على شهادة الدكتوراه بالهندسة من امريكا، اعتقلوه هو الآخر من مكتبه في العامرية، لم يعذبه حسبما افاد، وجهت له تهمة التعامل مع الامريكان قال لهم انه لم يعمل مع الامريكان بعد الفتوى التي اصدرتها "هيئة علماء المسلمين" بتحريم التعامل مع الامريكان، كان هادئاً رصينا، حلو الحديث، يعاني من امراض عديدة، كان يستهل مكالماته مع المخطوفين الاخرين بكلمة "بني"، علمت من عائلة صديقة لنا تسكن في حيهم، انه أطلق سراحه وترك العراق بعد ذلك.

عمار العبيدي "ابو ياسر" هو ابن احد شيوخ عشيرة العبيد في ناحية (جبّه) القريبة من مدينة (حديثة) غربي العراق، مجاورة (لقاعدة البغدادية)، التي شغلها الامريكان عام ٢٠٠٣م، كان سابقا يعمل مهندسا في وزارة الري و خبيراً في السدود ايام حكم صدام حسين، ليصبح مقاولاً بعد الاحتلال عام ٢٠٠٣م، كان يجهز القاعدة المذكورة بأحتياجاتها من المواد و المعدات ، و يصدر في الوقت نفسه مجلة دورية باسم "البغدادية" يحررها بنفسه ويذكر اسمه الصريح عليها كمدير لتحريرها، يتكلم فيها عن الديمقراطية و يهاجم الارهاب و الارهابيين ويهاجم النظام السابق من على صفحاتها ،

كان شيوعيا سابقا هو واخيه الذي يكبره سنا، ترك العمل السياسي في السبعينيات من القرن المنصرم.

في غرفة التحقيق وفي الجولة الثانية من التحقيق معي، وبينما كنت معلقا من أرجلي الى السقف، كان هناك شخص يجرون تحقيقا معه ويطرحون عليه أسئلة: "من يمّول صحيفتك؟ من هو الشخص الذي يتصل بك؟ أعطنا اسمه؟ والا سيكون الموت مصيرك"، استمروا بتضييق الحبل عليه ليزداد المه، وبتعالى صراخه: "توقفوا عن ضربي اتركوني وسأخبركم عن كل شيء، يبدو انه انصاع لأمرهم وكشف عن علاقته بضابط أمريكي، حينذاك لم أكن اعرف ان هذا الشخص هو صديقي عمار العبيدي، بل تبادل الى ذهني اما أنه يمتلك صحيفة عراقية أو محرر فيها، بيد أنني عرفت هويته عندما التقيت ابنه ياسر في "القبو" كما ذكرت سابقا، لكنني بقيت أجهل ان كان قد أطلق سراحيهما، ولم يزالا على قيد الحياة، أم أنهما تمت تصفيتهما في المعتقل.

منذ الوهلة الاولى لاختطافي، عشت صراعا مريرا مع نفسي، كيف سأمضي الوقت وقد جافاني النوم، وحرّم الحديث عليّ مع الآخرين، والأفكار تنهشني من كل صوب، واسأل نفسي: ما هي أحوال عائلتي؟، الزوجة، الاولاد، يا ترى بماذا يفكرون؟ هل اعتقدوا أنني أمسيت في عداد الاموات؟ أو لديهم بصيص أمل في بقائي على قيد الحياة؟، ماهي الافكار والهواجس التي تنتابهم؟، أحمد ابن الرابعة عشرة، كيف كان وضعه بعد أن رأى الخاطفين وقد اقتادوني أمام ناظريه مكبل اليدين الى خارج المكتب، وهو غير قادر على فعل شيء ازانهم؟، كيف كانت حالته النفسية والعاطفية في تلك اللحظة؟ وهو الذي قدم الى الحياة يوم اعتقلنتي أجهزة الامن العراقية في الكويت، وأودعتني سجن الصفاة، وما أحاط بأمه ليلتها من ظروف صعبة ألمّت بها، صاحبها ألم وخوف على مصيري، بعد سماعها نبأ اعتقالني، وتم نقلها الى المستشفى، والغريب في ذلك أنه ولد في مستشفى السلام الكويتي وصدرت له شهادة ولادة عراقية عنوانها: الجمهورية العراقية/ وزارة الصحة العراقية/ محافظة الكويت/ بتوقيع مدير المستشفى د. عادل الزهير. (٩٦)

(٩٦) شهادة ولادة أحمد.

على الذي رافقني ولازمي عملي وشاطرني افكاري، كيف يشعر الان وقد أصبح المسؤول الاول عن العائلة؟ عامر الطيب القلب بماذا يفكر وكيف يقضي اوقاته؟، اخي الوحيد كاظم الذي بيني وبينه جفوة هل رماها خلف ظهره و عاد ليحتضن عائلتي كأب و أخ كبير ، أم تراه لم يزل يحمل غيضا و زعلا يمنعانه من زيارتهم و الاطمئنان على احوالهم؟، أصدقائي وشركاء العمل في بغداد، عباس عاصم فليح وجمال ججو، كيف هما الان هل تخليا عن عائلتي ام تراهما يواسونها ويمدون يد العون لها؟، شلة الاصدقاء بالأمارات العربية، عزيز الجصاني، عباس حسين محمد، جمعة اللامي، محمد عارف، سردار البياتي، باسم مطر، نجاح المختار، فلاح الصايغ هل وصلهم نبأ اختطافي؟. ورغم كل هذه الافكار والهواجس التي انتابتنني، ومنذ الوهلة الاولى لاختطافي فقد وضعت نصب عيني أني ذاهب إلى "الموت"! لم أضعف بل زدت قوة وصلابة وعنفوانا وصبرا في مجابهة ظروف المعتقل القاسية، واساليب التعذيب التي مارسها الخاطفون، ولم يفارقني الأمل في الحرية والبقاء والحياة.

خاتمة

بات من واجب مفكرينا المبدعين، أنّى هم، أن يسترجعوا هذه التجارب، منذ "البداية" التي (ليست في النهاية)، كي يقفوا عندها، بترؤّ وتمعّنٍ مراقبين مستقلّين، ثم يقيّموها واجدين لها حلولاً وبدائل، باتّة، أمسّت ضرورة ملحّة من أجل استشراف مستقبل مبشّر ببناء وطن، متطور مزدهر، ينأى عنه العنف، عاجلاً ليس آجلاً، فيسود فيه السلام....

ملحقان

١-من شهاداتي / ثمة موضوع عنوانه (في النهاية كانت البداية/ أواخر ديسمبر ١٩٦٩- من مذكرات المناضل الشيوعي فياض موزان)، منشور على موقعي "صوت اليسار العراقي" و"الحوار المتمدن"،



في النهاية كانت البداية

اواخر ديسمبر ١٩٦٨

من مذكرات المناضل الشيوعي فياض موزان

* * * * *

قام السيد عزيز الحاج بالتعليق عليه، في الموقع الثاني، فعقّب البعض على تعليقه تعقيبات متجنية، خارجة عن اللياقة، مما حدا بي أن أكتب ردا عليها، باعتباري شاهدا حاضرا، وقد نشر الحاج هذا الرد على الصفحتين الأخيرتين من كتابه "حدث بين النهريين - تجربتي في القيادة المركزية" كشهادة منصفة مني، قلت فيه:

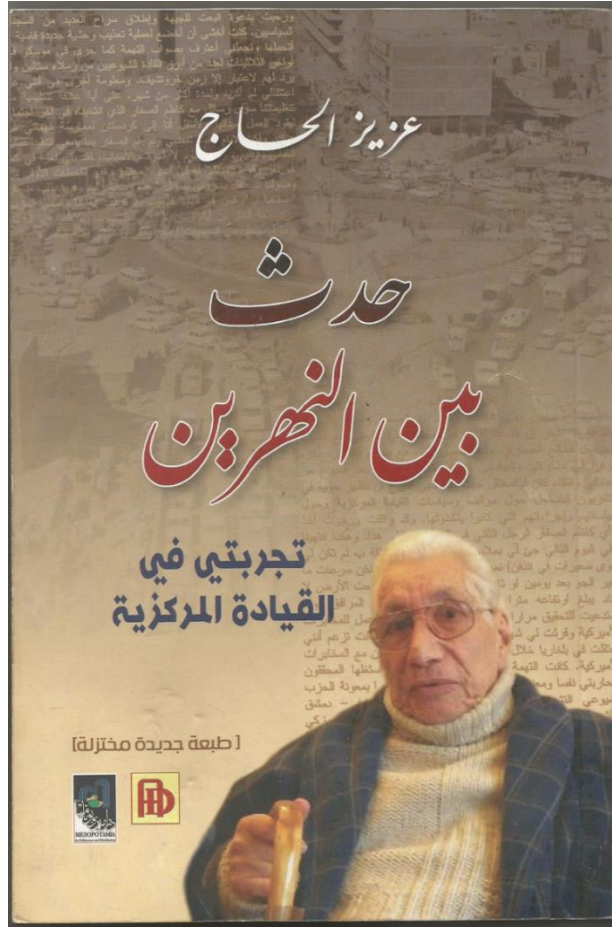
"تخطيت السبعين عاما من عمري كما هو الحال مع السيد عزيز الذي بلغ الثمانين ونيف، وألا يغضب ابو سعود من كلمة (ونيف)، فكلانا سبعينيون ولم نزل نصارع الحياة لنبقى شهودا منصفين. كنت عضوا في قيادة الجهاز الصدامي -القيادة المركزية-وأعتقلت في النصف الثاني من عام ١٩٦٨م في قصر النهاية إثر اعتراف من الشهداء صالح العسكري وحاتم سجان ومحمد كريم من أننا لجنة عمالية وبعد فترة أعتقل عزيز، وبذات ليلة اقتادني سالم الشكره عضو الهيئة التحقيقية الى غرفة التحقيق، وجيء بعزيز اليها وأكد لهم أنني عضو في قيادة الجهاز الصدامي، ولست عضو لجنة عمالية.

الا أن هناك حقيقة يجب أن أذكرها، أشرت اليها في موضوعه- في النهاية كانت البداية- وأن لا تختفي بمغادرتنا هذه الدنيا، وهي أن عزيز بعد التقاء صدام حسين به في المعتقل أو خارجه (لست متأكدا من ذلك) عرض استعداداه لكتابة بيان سياسي يتضمن العمل ضمن جبهة وطنية تقدمية، وحرية العمل السياسي واطلاق سراح المعتقلين ، وفعلا أعد البيان ، الا انهم يبدو لم يقتنعوا بالفكرة، وذهبوا الى التصفية التنظيمية والجسدية لأنهاء هذا التنظيم، وقد قال وبصوت عال " أني المسؤول الاول عن سياسة الحزب وأتحمل كامل المسؤولية لوحدي ولا يتحملها الحزب او أي رفيق آخر.

أما ان عزيز الحاج كان في غرفة مرفهة فهذا غير صحيح، فقد خصصت له غرفة صغيرة تحت السلم أشبه بالزنزانة، الا أنه كان يحظى برعاية واحترام الهيئة التحقيقية، وتصله الصحف يوميا، وله حرية القراءة والكتابة ويعامل معاملة حسنة. وهناك مسألة أخرى اطراها علينا أحد أعضاء اللجنة التحقيقية -أسمه مؤيد العبيدي -أنقلها بأمانة، فقد

قال: " في اليوم الذي اعتقلنا به السيد عزيز الحاج وجهت مسدسي الى رأسه مهددا، فرد على (نحي مسدسك عني فهذا لا يرهبني) ...

من كل ما تقدم، فان نبش الماضي كما فعل بعض الأخوة بتعليقاتهم ليس صحيحا. فالمرحلة المنصرمة الطويلة كانت كفيلة بتغيير الكثير من قناعاتنا ونوعية تفكيرنا وأن نعترف بأخطائنا ونصححها نحو محور مركزي هو بناء الوطن وحرية الانسان فيه، والابتعاد عن الأحقاد والأدلجة، وألا نكون (حنديري) كما قال البغداديون.



**شهادة المناضل في حزب القيادة فياض موزان
عن شهادة عزيز الحاج**

فياض موزان

تخطيت السبعين عاما من عمري كما هو الحال مع السيد عزيز الذي بلغ الثمانين ونيف وان لا يفضب -ابو سعود - من كلمة نيف- فكلانا سبعمينون ولم نزل نصارع الحياة لبقى شهودا منصفين. كنت عضوا في قيادة الجهاز الصدامي -القيادة المركزية واعتقلت في النصف الثاني من عام 1968 بقصر النهاية اثر اعتراف من الشهداء صالح العسكري وحاتم سجان ومحمد كريم من اتنا لجنة عمالية وبعد فترة اعتقل عزيز وذات الليلة اقتادني سالم الشكرة عضو الهيئة التحقيقية الى غرفة التحقيق وجيء بعزيز اليها وأكد أنني عضو في قيادة الجهاز الصدامي ولست عضو لجنة عمالية.

إلا أن هناك حقيقة يجب أن اذكرها لم اشر إليها في موضوعة-في النهاية كانت البداية- وان لا تخفي بمغادرتنا هذه الدنيا وهي ان عزيز بعد التقاء صدام حسين به في المعتقل أو خارجه - لست متأكدا من ذلك - عرض استعداده لكتابة بيان سياسي يتضمن العمل ضمن جبهة وطنية لتقديم حرية العمل السياسي وإطلاق سراح المعتقلين وفعلا اعد البيان الا

الشيوعية أن تلعب دورا مهما في الحياة السياسية والمجتمع، فإن من أول المتطلبات هو تجديد للفكر والتقاليد والعلاقات، وتجديد التوجهات، كالبحث مثلا عن إمكان قيام حركة يسارية واسعة وبتعددية في الاتجاهات" [ص 588]- وهذه مجرد فكرة. فالمهم هو التفكير في الإستراتيجيات والتكتيكات البديلة، رغم أن المهمات صارت، بعد صدور الكتاب عام 2002، أكثر صعوبة وتعقيدا بسبب غلبة الولاءات الثانوية وانحسار الشعور بالموطنة، والمحاولات الجديدة- بعد محاولات صدام وجرائمه- لتهميش القوى اليسارية والديمقراطية ذات الترجه العلماني.

أهتف أخيرا: مجددا لشهداء الأهورار، ولجميع شهداء الحركة الشيوعية والوطن في العراق.

13 حزيران 2010

الفهرس

8	مقدمة الطبعة الثانية.....
18	باريس في بداية نوفمبر 2012.....
19	تعليق على الفصل الثاني:.....
	الباب الأول
23	الفصل الأول: قضايا الاضطهاد القياي ومؤتمر الحزب وأشكال الكفاح.....
37	جلسة 19 تشرين الثاني / نوفمبر 1965.....
49	مدخل.....
49	الصراعات الحادة التي أدت للانقسام.....
51	الفصل الثاني: الصراع بين كواد منظمة بغداد واللجنة المركزية.....
59	الفصل الثالث: حركة القيادة المركزية.....
59	بعض الخلفيات والأجواء.....
67	الفصل الرابع: الانقسام الحتمي.....
	الفصل الخامس
75	أ- مقدمات الحركة الانتفاضية وتفاصيل تنفيذها.....
90	ب- قصة اعتقال:.....
95	الفصل السادس: " فريق من الكادر ".....
99	الفصل السابع: نحن والجزائري.....
105	الفصل الثامن : الاجتماع الموسع لكواد القيادة المركزية [كانون الثاني 1968].....
105	(1) أحداث.....

انهم يبدو لم يقتنعوا بالفكرة وذهبوا الى التصفية التنظيمية والجسدية لإنهاء هذا التنظيم، وقد قال وبصوت عال «إني المسؤول الأول عن سياسة الحزب وأنحمل كامل التهم أي رفیق آخر ف لمؤولية لوحدى ولا يتحملها لئى الحزب». **هواكى رفیقى هتر**

اما ان عزيز الحاج كان في غرفة مرفهة فهذا غير صحيح. لقد خصصت له غرفة صغيرة تحت السلم أشبه بالزنزانة الا انه كان يحظى برعاية واحترام الهيئة التحقيقية وتصله الصحف يوميا وله حرية القراءة والكتابة ويعامل معاملة حسنة. وهناك مسألة أخرى أطراها علينا احد أعضاء الهيئة التحقيقية وأقلها بامانة، واسمه مؤيد العبيدي.. وهي أنه "وقت اعتقال السيد عزيز الحاج وجهت مسدسي الى رأسه مهلدا فرد علي [نحي مسدسك عني فهذا لا يرهيني]"..

من كل ما تقدم إن نش الماضي كما فعل بعض الإخوة بتعليقاتهم ليس صحيحا. فالمرحلة المنصرمة الطويلة كثيفة بتغيير الكثير من قاعاتنا ونوعية تفكيرنا وان نعترف بأخطائنا ونصححها نحو محور مركزي هو بناء الوطن وحرية الإنسان فيه والابتعاد عن الأحقاد والأدلجة، وان لا نكون [حتديري] كما يقول البغداديون...

٢-من ملاحظاتي / هذه ملاحظات حول حوار صحفي أجراه مبعوث مجلة الصياد اللبنانية طلال سلمان عام ١٩٦٩م، في مكتب ناظم كزار، مع عزيز الحاج وستة من أعضاء القيادة المركزية، حين كانوا معتقلين في قصر النهاية، وقد نشر هذا الحوار الصحفي في ثلاثة أعداد من المجلة: ((١٢٨٤ في ٢٤-٣٠ نيسان-١٩٦٩)، (١٢٨٥ في ١ - ٨ أيار-١٩٦٩)، (١٢٨٦ في ٨ - ١٥ أيار-١٩٦٩).

أ-عزيز الحاج

١/ أوراق شخصية

ذكر طلال سلمان ما كتبه عزيز الحاج في أوراقه الشخصية داخل المعتقل، بعدما حصل عليها من إدارة القصر لينتقي منها ما يريد أن تنشره مجلته بحيث يسلط الضوء على ما كان ينتاب الحاج في معتقله من مشاعر وأفكار وأراء، مبتدئاً بعنوان "محاولات للتغيير شعرا ونثرا"، كان غرض سلمان منها:

- التعطيم على مواقف القوى اليسارية والمنظمات الفلسطينية المسلحة المساندة لحزب القيادة المركزية في لبنان، لحجب صوتها الذي كان يدافع عن معتقلي حزب القيادة، ويفضح أساليب التعذيب التي تمارسها السلطات الأمنية القمعية البعثية ضدّهم، وكان لـ "الجبهة الشعبية الديمقراطية" و"الجبهة الشعبية -القيادة العامة" هناك عمل مشترك يربطهما مع "ق.م"، فكان لمجلة الجبهة الثانية (إلى الأمام) دور بارز في الحملة الإعلامية التي فضحت ما كان يتعرض له معتقلوا حزبنا في قصر النهاية، وكان للرفيق إبراهيم الحريري دور بارز في الصحافة اللبنانية بالدفاع عن معتقلي قصر النهاية من رفاق القيادة المركزية.

- إسقاط عزيز الحاج أمام رفاقه والجماهير المؤيدة له، حيث تداعياته السلبية، سيما تأثيره على الذين لم يتم اعتقالهم، بإضعاف معنوياتهم وخلق إحباط لدى جماهيرهم، كما حصل بعد المقابلة التلفزيونية التي ظهر فيها، مع محمد سعيد الصحاف، وهو يدلي باعترافاته منتقدا سياسة حزبه، فأحدث بذلك أثارا سيئة على أعضائه وجماهيره. فلقد ورد في مجلة الصياد تحت عنوان (صفحات مطوية من حياة عزيز الحاج) قوله "أنا طلبت التلفزيون، وما كان ممكنا لقوة أن تحملني على الكلام لولا أنني أريد حقا أن أتكلم فأخاطب قواعدا" نافيا أن هناك ضغطا مورس عليه لإجراء مقابلة تلفزيونية كهذه! وربما كان هناك اتفاقا مبرم بين حزب البعث ومندوب المجلة، ليقوم بنشر هذه المقابلة التلفزيونية على صفحاتها، إذ من غير المعقول أن توجه دعوة رسمية من مسؤولين عراقيين لصحفي عربي كي يدخل "قصر النهاية": المعتقل (السري) الشهير المعروف في تاريخ العراق، والذي تمت داخله ممارسة أبشع أنواع التعذيب فذاع صيته منتشرا في العالم، منذ انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ الدموي، ليستمر وتكتمل دورة العنف والدم بين جدران حجره وزناناته الرهيبة بعد انقلاب ٣٠/١٧ تموز ١٩٦٨.

ثم قد يكون من الطبيعي لعزيز الحاج تحت وطأة ذلك الظرف واستنادا إلى موقفه في التحقيق، حيث النهاية المأساوية التي وصلها مجبرا داخل المعتقل، أن انتابته مشاعر ونزعات وهو اجس شتى، تتأرجح بين السلب والإيجاب، فسطرها على أوراقه الشخصية، قائلا في بعضها شعرا:

(غرق الزورق المكابر في اليم/ وطافت أشلاؤه للعيان/ واحتوتها الأمواج قذفا ودفعا / لا منار يومئ ولا شاطئان/ قادنا مزلق التهور للقاع/ وألقى مرساتنا في الهوان/ واحتوانا من الشكوك ظلام/ ودخان يثير كل دخان/*** /وردة كانت حياتي لم يكن عندي سواها / حرمتني لذة العيش وأحلام شبابي/ أسرنتي وسبتني في رواحي وإيابي/ وردتي كانت ضلالات وأوهام كتاب... / ونوايا طيبات اندفاع العاطفات/ وسرابا في سراب/ فقدت كل بهاها / وسلا القلب هواها) ...ليقول في آخرها وقد أفاق على

نفسه: (ماذا دهاني؟! نسيت الصبر والجلد!!!؟ ماذا دهاني؟! لا قيدي يورقني... ولا طيوف المنايا حركت شجني... حب الحياة يناغيني بهمسته لكنني غير هيّاب من الكفن)...

وهنا يذكر طلال سلمان ("ولكنه يختتم القصيدة بما يليق به... ربما بفعل تذكره أين ينظم شعره وفي أية مناسبة:

"الصبر والجلد!! أجل سأصمد للبلوى بلا خور!!.... وأفيق إلى نفسي، وإلى مهمتي، وأبدأ رحلة البحث عن جواب لتلك "اللماذ" اللعينة التي حيرت قبلي الكثيرين في العراق وخارجه، والتي ما زالت وستبقى لفترة طويلة معلقة، قبل أن يصل المتعبون بحملها إلى راحة اليقين الثابت)...

ومن خلال ما عبر عنه في كلماته يتضح تماما الصراع النفسي الذي مر به، حيث جلد الذات، والضعف الداهم الذي عاشه، بسبب ما كان يعانيه داخل المعتقل وهو تحت رحمة جلاديه، يحاول جاهدا أن يعزي نفسه ليقنعها على الأقل بموقف الصامد الثابت.

٢/ مواقف غريبة

*إنقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨

يوجه طلال سلمان سؤالاً لعزيز الحاج "ما هو موقفك من حركة ٣٠/١٧ تموز ١٩٦٨، وما يقارنه خصومك وأعداء الحركة الشيوعية، بين موقفك الراهن وبين صمودك في المحاكم التي نظمها العهد الملكي عام ١٩٤٨ لتصفية قيادات الحزب الشيوعي في العراق والحزب نفسه؟"، فيجيبه "إن موقفني الآن لا يختلف في جوهره عن موقفني عام ١٩٤٨، إنني ما تخليت عن العقيدة الشيوعية قط، وكل ما في الأمر أنني خطأت سياسة معينة، وربما لو كان عندي نفس الوعي لحقائق الأمور عام ١٩٤٨م لاتخذت نفس

موقفي الراهن، ثم أني كنت أواجه سلطة عميلة للاستعمار، بينما أواجه الآن سلطة وطنية وتقدمية ويمكن وصفي الآن بأني تخليت عن حزبيتي، أنا الآن ماركسي لينيني غير ملتزم بأي تنظيم شيوعي، ولست أشك لحظة واحدة في أن الشعار الذي رفعه حزبنا كان تعبيرا عن تهورنا وتطرفنا، لهذا أعتبر اعلان قناعتني بأضرار هذا الخط، ومن ثم التخلي عنه نوعا من الشجاعة"، وهنا يسأله سلمان ثانية بذكاء وخبث "لكن الناس يتساءلون لماذا لم تعلن قناعتك الجديدة هذه إلا في المعتقل؟" (يستطيع القارئ اللبيب أن يستشف المقصد الحقيقي من وراء سؤاله هذا، كأن لسان حاله يقول: إن قناعتك الجديدة جاءت بسبب املاءات الهيئة التحقيقية باستخدامها أساليب القوة والترهيب، ولم تكن نابعة من إرادتك الحرة وقناعتك السابقة)، ليقول له "الجواب بسيط جدا، وهو يتلخص بأننا لم نتوصل إلى هذا التشخيص إلا بعدما صدمنا الواقع، من الانصاف أن نعترف أن الاخوان البعثيين قد ساعدونا في معرفة بعض الحقائق، والحق إننا كنا نعيش جوا من التشكيك بحزب البعث استمر يلفنا منذ أن بدأ الحزب يفرض وجوده على المسرح السياسي في العراق، وهذا الجو ليس جديدا، ولم يخلق ضمن تنظيمنا، لأننا ورثناه عن اللجنة المركزية، ثم ترسخ في نفوسنا نتيجة المعلومات الخاطئة والمضللة التي كنا نزود بها، وبكلمة، فقد كنا أسرى جو الشك باستمرار... كنا نفكر ونتصرف ونتحرك بينما الحقيقة محجوبة عنا".

هكذا يحاول أن يختبئ وراء اصبعه ويتنكر لقناعته الحقيقية، وأن هذا الاعتراف بـ"الإخوان البعثيين" جاء نتيجة وجوده داخل السجن وما مورس من أساليب تحقيق معه، فلو كان خارجه لاختلف حديثه، وهنا يظهر التراجع بوضوح من خلال ما قاله، ولدي قناعة تامة بأن ما صرح به لا يمثل قناعته الحرة، إنما جاء نتيجة ضعف وتخاذل في محاولة منه لإرضاء البعثيين وإقناعهم أن مواقفهم نابعة عن قناعته الذاتية، وبالتأكيد هم لم يصدقوه، لأنهم يعلمون تماما أن اقواله وتصريحاته هذه لم تكن نابعة عن إرادته الحرة، بل جاءت نتيجة خوفه مما كان يراه بعينيه من ممارسات ارهابية شنيعة يقوم بها ناظم كزار لانتزاع الاعترافات من المعتقلين وبث الرعب والفرع في

نفوسهم لخبرته الطويلة التي اكتسبها مذ كان محققا وجلادا في قصر النهاية عام ١٩٦٣م، إضافة لما يتمتع به من قدرة فائقة على التركيز لابتكار وسائل عنف غريبة قل نظيرها، ناهيك عن الضحايا الذين كانوا يموتون بين يديه وتحت تعذيب شركائه في الهيئة التحقيقية الذين هم في غالبيتهم خريجو سجون "عادية" لكونهم من عتاة المجرمين المدانين، وقد اختارهم للعمل في هيئته هذه، فتكوّنت لدى الناس صورة مسبقة عنه تحيط بها هالة مخيفة لشخصه، تثير الرعب في فرائص ضحيته حالما يقابلها، ولقد شاهد الحاج هذا الشخص فلمس بـ"العين المجردة" أعداد قتلاه من تنظيمات القيادة المركزية ممن ماتوا تحت التعذيب أو اعدموا في القصر فترة وجوده فيه، ولو كان هذا السؤال ذاته قد طرح عليه وهو خارجه متمتعا بحرية الرأي، دون ممارسة ضغوط عليه، لأجاب عليه بكلام آخر.

يقول الحاج "إننا كنا نعيش جوا من التشكيك بحزب البعث ورثناه عن اللجنة المركزية، ولم يخلق ضمن تنظيمنا"، وهنا أفق مندهشا مستغربا أمام هذا القول الذي يحاول به تعميمه على "ق.م"، حيث يوجه الاتهام إلى "ل.م" واضعا اللوم كله عليها وحدها متناسيا أنها قبل الانقسام -لما كان الحزب واحدا- كانت الواجهة الوحيدة للحزب الشيوعي العراقي، وكان هو أحد الأعضاء البارزين في مكتبها السياسي، فتبرز أسئلة عديدة: أليس هو الآخر جزءا من موروثها؟ هل أنقذه اتهامه هذا إياها من تسقيط حزب البعث له؟ أما كان الأجدر به ألا يبرر موقفه قبالة البعثيين من خلال تعليقه على شماعتها؟ ثم... هل يا ترى أن تبريره باتهامها هي حصرا ينم عن فروسية وشجاعة شيوعيتين؟

**إنشقاق الحزب الشيوعي العراقي

في رده على سؤال عن هذا الانشقاق، يقول عزيز الحاج:

"لقد بدأت خلافاتنا في أواخر عهد عبد الكريم قاسم ولكنها جمّدت بعد حركة ١٤ رمضان (يقصد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣م، الذي كان يوصف بانقلاب شباط الدموي في كل أدبيات الحزب الشيوعي التي تلتها، حتى بعد انقسامه إلى "ق.م" - "ل.م"). نتيجة ما تعرض له الشيوعيون في العراق... وكان ما نالهم آنذاك مفهوما كرده فعل عنيفة لمسؤوليتهم عن كثير من الحوادث والأعمال العنيفة التي وقعت أيام قاسم".

في العبارة الاخيرة يتعدد الحاج عن التحليل الواقعي الموضوعي لتلك الأحداث وما عاناه خلالها الشيوعيون ومؤيدوهم والحركة الوطنية العراقية على يد الانقلابيين البعثيين، خصوصا من تعذيب حتى الموت في السجون والمعتقلات، وأبرز دليل على ذلك "بيان رقم ١٣" السيئ الصيت الذي أصدره ما يسمى بمجلس قيادة الثورة، وقد أذيع من إذاعة بغداد بتاريخ ١٩٦٣/٢/٨ وجاء فيه "نظرا لقيام الشيوعيين عملاء وشركاء عبدالكريم قاسم بمحاولات يائسة لإحداث البلبلة بين صفوف الشعب وعدم الانصياع للأوامر والتعليمات الرسمية فقد تقرر تخويل القطعات العسكرية وقوات الشرطة والحرس القومي بإبادة كل من يتصدى للإخلال بالأمن والارشاد عن الشيوعيين والمطالبة بإبادتهم والقضاء عليهم"^(٩٧)

حتى أن قادة من البعثيين أقروا واعترفوا لاحقا بأنهم من ارتكب تلك المجازر، في الوقت الذي يعتبرها الحاج ردة فعل عنيفة من الانقلابيين، ويقترّب من المجاملة محاولا طمس الحقيقة والعبور عليها، أثناء تقييمه لأحداث عايشها وعرف دوافعها والقوى التي عملت على إثارتها، أو التي وقفت خلفها، واستغلالها لضرب حزب

(٩٧) حنا بطاطو -العراق- الكتاب الثالث ص ٢٦٥. حديث اجري مع عبد الغني الملا في ١٥ آب ١٩٦٦م.

الشيوعيين، الذي برز على الساحة العراقية كحركة جماهيرية واسعة، أثارت الرعب والقلق لدى الدوائر الاستعمارية الغربية، ولخوفها من امكانية استلامها السلطة جندت كل امكانياتها وعلاقاتها في الداخل العراقي لمجابهة هذا الخطر الداهم.

إن بعض "التجاوزات الفردية" قد حصلت، سواء في الموصل أو في كركوك، ولكل واحدة منها ظروفها الخاص، الذي استغلته هذه القوى، فلعبت من خلاله دورا في إثارة الصراع، ولم يكن الحزب الشيوعي مسؤولا عنها، ربما يتحملها بعض كوادره وأعضاء من قواعده في هاتين المحافظتين، هو يعرفها أكثر من غيره، حيث كنا معاصرين لها ولا يمكن اعتبارها ردود فعل تبرر المجازر التي ارتكبت بحق الحزب إثر انقلاب شباط ١٩٦٣م، فراح ضحيتها آلاف الشيوعيين وأنصارهم، بتهمة الانتماء له، وأنصار الزعيم عبدالكريم قاسم، ثم لماذا لا نقول إن تجاوزات فردية كهذه لم تكن صادرة عن قيادة الحزب أو بتوجيه منه إنما جاءت كردود فعل على ما كان يقوم بها البعثيون والقوميون من أعمال عنف واغتيال وقتل ضد أعضائه، دون أن تجابه بردود فعل مباشرة أو غير مباشرة، من الشيوعيين وأنصارهم، حتى وصل الحال لأن يتهموا بـ"الجبين"، بسبب عدم ردهم على الاعتداءات الموجهة لهم. أي أن أحداث الموصل وكركوك عام ١٩٥٩م، وما رافقها من أعمال عنف بالغة الخطورة، لم يرتكبها حزب الشيوعيين، لا تخطيطا ولا تنفيذا، كما يدعي خصومه السياسيون، بل كان أعضاؤه وأنصاره من ضحاياها، وقد أثبتت الأيام أنها بتقاربها الزمني، ٨ آذار ١٩٥٩م في الموصل / ١٤-١٦ تموز ١٩٥٩م في كركوك، كانت بتخطيط من الخارج وبتنفيذ من قوى سياسية عراقية.

أشير هنا إلى ما ذكره المؤرخ حنا بطاطو في كتابه الثالث "الشيوعيون والبعثيون والضباط الاحرار"، ترجمة عفيف الرزاز، بخصوص أحداث الموصل وكركوك، ما يؤكد، براءة الحزب الشيوعي منها، وعدم مسؤوليته عنها". (٩٨)

يقول عن أحداث كركوك "لا شيء أذى الشيوعيين بقدر ما فعلت أحداث كركوك الدموية، ١٤-١٦ تموز ١٩٥٩م، ومع ذلك فقد أصبح مؤكدا الآن أن هذه الأحداث لم تكن مدبرة من قبل زعمائهم، ولا هم سمحوا بها، ويمكن أن تعزى هذه الأحداث جزئيا إلى طبيعة تلك الأزمنة، من أفعال القسوة القسوى التي كانت شائعة في لحظات عدم الاستقرار الاجتماعي والغليان غير الطبيعي، ولكن اللوم المباشر يقع بوضوح على عاتق الكورد المتزمتين ذوي الميول المختلفة، ومن الأمور ذات المغزى أن كل القتلى الذين أفيد عن سقوطهم رسميا، وعددهم ٣١ وباستثناء ٣ منهم وكل الجرحى الـ ٣٠ باستثناء ٦ منهم كانوا من التركمان، وأن كل الـ ٢٨ المدانين بالتطرف والذين اعدموا في ٢٢ حزيران ١٩٦٣م وباستثناء ٤ منهم كانوا كوردا وعلى العموم، وبشكل عام، كانت جذور الضراوة الوحشية التي أمسكت بتلابيب المدينة تعود إلى العداوة المتأصلة بين الكورد والتركمان. وكان للشيوعيين دور ناشط في انفجار الأحداث، ولكن ككورد لا كشيوعيين، ولم تكن الأحداث التي سعى هؤلاء إلى تحقيقها أهدافا شيوعية، بل كوردية، وكانت شيوعيتهم، في معظم الحالات، شيوعية سطحية. ويبدو أن ما حدث في الواقع، كان ان الكورد طوّعوا كل المنظمات المساعدة للحزب الشيوعي لخدمة أغراضهم، أي لخدمة نزاعهم القاتل مع منافسيهم التركمان. وباختصار، فقد كان الكورد يحكمون عمليا ولا من يعارضهم، وكان لديهم تحت تصرفهم تقريبا كل الآلة القانونية والسياسية للمدينة اللازمة لحل نزاعهم التاريخي مع التركمان وبدأوا فعلا بتسخيره لأغراضهم، ومازال غير مؤكد ما إذا كان الانفجار أمرا مدبرا، أم أنه كان-

(٩٨) حنا بطاطو - الكتاب الثالث - الشيوعيون والبعثيون والضباط الاحرار - الفصل الحادي عشر - تموز (يوليو) ١٩٥٩م، (ص ٢٢٣-٢٣٢).

ببساطة-متنوعا متطرفا من الجيшانات -شبه الغريزية-المتكررة الحدوث للحقد العرقي، أم أنه جاء نتيجة للأمرين معا".

أما عن أحداث الموصل فيقول "نظرا لقلّة أعداد الشيوعيين وأنصارهم مقابل القوى القومية والدينية والاجتماعية والمحافظين، والمعلومات المتوفرة لديهم عن وجود حركة انقلابية يعد لها، بدأ الشيوعيون وأنصار السلام ومؤيدون آخرون للحكومة يتدفقون إلى الموصل يوم ٥ آذار أي قبل مهرجان السلام، وفي اليوم الثاني تجمع حوالي ٢٥٠ ألف شخص في المدينة، وفي منتصف صباح اليوم التالي ٧ آذار، غادر أنصار السلام الموصل، لكن الشيوعيين تخلفوا، وكانت بقية يوم السابع مليئة بالمظاهرات والمظاهرات المضادة التي تزايد التوتر فيما بينها تدريجيا، وفي حوالي الساعة الثانية من بعد الظهر، تدفق البعثيون ومؤيدوهم من النبي شيت بقيادة فاضل الشكرة، عبر شارع فاروق وهاجموا عددا من المكتبات اليسارية ومقهى علي الحّو، مكان لقاء الشيوعيين، وأحرقوها كلها، وفي وقت لاحق حوالي الساعة الرابعة، بالقرب من مكتب البريد، اصطدم البعثيون - الذين عززوا الآن باتباع عائلة كشمولة الذين كان كثير منهم مسلحين - بالشيوعيين الذين خرجوا من حي المكاوي وعلى رأسهم عباس هيّاله، وصحب العراك إطلاق نار ووقوع إصابات، وتدخل الجيش وفرض منع التجول، وعند فجر الثامن من آذار تم اعتقال حوالي ستين شيوعيا، بينهم كل أعضاء اللجنة المحلية تقريبا، وفي حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي للانقلاب، قامت أربع طائرات من سلاح الجو العراقي بقصف مقر قيادة اللواء الخامس وجرح عبد الوهاب الشواف (قائد الانقلاب) وقتل بأيدي أربعة جنود وبناء على أوامر تلقوها من الرئيس أول الجوي أحمد حبيب، وفي الوقت نفسه، سار جنود من فوج الهندسة إلى السجن العسكري، في معسكر الحجرية فاقتحموه عنوة وأطلقوا سراح الضباط وكل المعتقلين الشيوعيين، ولم يتمكنوا من إنقاذ قائدهم عبدالله الشاوي الذي كان قد صرع بيد محمود عزيز معاون الشواف، وعثر كذلك على زعيم أنصار السلام كامل قازانجي ميتا، وتبعث ذلك صدامات دموية، وتدفقت حشود اليزيديين

وقبائل البرزاني الكردية والفلاحين الأراميين القادمين من تلييف من الريف إلى الموصل استجابة لنداءات بغداد. وأعاد رواية تتمة الأحداث أمام المحققين البعثيين في العام ١٩٦٣م مهدي حميد، قائد قوة المقاومة الشعبية في الموصل، (وخلال وجودي في مركز الشرطة حصلت في المدينة أحداث مؤسفة جدا، إذ كانت هناك تهجمات على حياة الأشخاص بدافع الكراهية الشخصية أو انطلاقا من رغبة بالثأر أو بسبب نزاعات عائلية أو على أساس أنهم حملوا السلاح ضد الحكومة، أو أنهم ساعدوا المتمردين، وارتكبت هذه الأعمال من قبل عناصر سيئة النية وغير ذات ارتباط سياسي، أو من قبل قطاعات من الجنود الذين خرجوا عن النظام والانضباط) "... في نهاية عهد قاسم كان عدد الضحايا والمهجرين قد ارتفع كثيرا ففي الموصل وحدها، واستنادا إلى سكرتير فرع الموصل للحزب الوطني الديمقراطي (عبد الغني الملا) قتل ما لا يقل عن ٤٠٠ شخص لم يكن بينهم إلا جزء من الشيوعيين (الحقيقيين) واضطر ما يصل إلى ٥٠،٠٠٠ شخص إلى الهجرة قسرا إلى بغداد وأماكن أخرى، وكثيرا ما كانت عمليات القتل تتم على يد الأشخاص الخشني الطباع الذين نفذوا أعمال ١٩٥٩ الوحشية". (٩٩)

(٩٩) حنا بطاطو الكتاب الثالث - الفصل التاسع، الموصل - آذار (مارس) ١٩٥٩ (ص ١٧٩-٢٠٠).

حركة الشواف وعلاقتها بأحداث الموصل

يذكر محمد حديد ما يلي: " إتحاح أنه خلال زيارة عبد الوهاب الشواف الى بغداد، عُقدت اجتماعات عدة بين الضباط ذوي الميول القومية شارك فيها بعض الضباط المستقلين. وكان الهدف منها تداول الوضع السياسي القائم، ومحاولة إيجاد حل للصراع السياسي الذي بدأ يتفاقم. وبعد أيام قليلة من عودة الشواف الى مقر عمله حيث كان يدير كتلة من العسكريين الذين يؤازرونه إضافة الى بعض المدنيين من بغداد والموصل، عُقد إجتماع أنصار السلام في ٦ آذار ١٩٥٩ في الملعب الرياضي في الموصل وعند إنتهائه خرج المتظاهرون على شكل تظاهرات أخذت العناصر القومية والإسلامية بالإشتباك معها مما أدى الى وقوع إصابات في صفوف الطرفين. وقام أمر المنطقة الشمالية بإنزال قوات من الجيش بإمرة صغار الضباط من أهالي الموصل من أجل المحافظة على النظام، ولكنها تطورت الى أعمال ضد الموالين للثورة والجمهورية، وصدامات كان نتيجتها وقوع عدد من الجرحى. وفي اليوم الذي أعلن فيه عبد الوهاب الشواف التمرد من إذاعة خاصة جهزتها له الجمهورية العربية المتحدة، كما قيل، وساعد في إنشائها مهندس بريطاني من شركة النفط في عين زالة، وأرسل طيارتين من مطار الموصل لتقصفا موقع إذاعة بغداد في أبو غريب. وكان محمود الدرة، وهو ضابط متقاعد، ومن المساهمين في حركة رشيد عالي سنة ١٩٤١ مشاركاً فعالاً في حركة الشواف، إذ كان وفق ترتيب سابق، حاضراً في الموصل أثناء إعلان الحركة. ومثله أيضاً سامي باش عالم الذي كان نائباً سابقاً في المجلس النيابي في العهد الملكي، وهو من الموصل، وكان يساعد الشواف في تحرير البيانات والأحاديث التي كانت تُبث عبر الإذاعة. وتجدر الإشارة الى ما إتحاح فيما بعد وهو أن إتفاقاً قد تم في خطة التآمر على أن يقوم ناظم الطبقجلي بصفته قائد الفرقة الثانية التي مقرها في كركوك وتشمل المنطقة الشمالية بما فيها الموصل، بدعم التمرد عسكرياً وإعلان تأييده له، ويقوم العقيد رفعت الحاج سري الذي كان مديراً للإستخبارات العسكرية ومقره في وزارة الدفاع، بالإشتراك مع بعض الضباط القوميين

الموجودين هناك بإعتقال عبد الكريم قاسم عند إعلان التمرد وإرغامه على الإستقالة، وإعلان تعيين رئيس وزراء وتشكيل حكومة أخرى. لكن هذه الخطة لم تنفذ بسبب تسرع الشواف في إعلان تمرده، أو بسبب الخوف الذي انتابهم فلم ينفذ ذلك العمل.... وعرف بعدئذ أن المتأمرين كانوا قد اتصلوا بعبد الحميد السراج مدير المخابرات في (الإقليم الشمالي) من الجمهورية العربية المتحدة أي سورية تأييدا للحركة. ويذكر أيضا: "وقد نقل لي بعض معارفي في بلدتي الموصل، فيما بعد، إن أحد المعروفين بإنتمائهم لحزب البعث (طه الجزرواي)، وكان إذ ذاك يعمل في فرع مصرف الرافدين في الموصل، قد نقذ عدد من عمليات الإغتيال في تلك الحملة، وأصبح في وقت لاحق، في الصف الأول من قيادة حزب البعث".

"وكان أحمد عجيل الياور (شيخ عشائر شمّر) قد أحضر عددا من أفراد قبيلته لمساعدة الشواف، وتمكن لاحقا من الهرب. والغريب أن أحمد عجيل الياور كان قد زارني في مكنتي في وزارة المال للبحث في أوضاع الزراعة في لواء الموصل قبل أيام قليلة من إعلان حركة الشواف. وربما كان ذلك غداة سفره إلى الموصل للإشتراك في المؤامرة".^(١٠٠)

أن الإعتداءات والإغتيالات والقتل والتصفيات، ومحاولات الإطاحة بعبد الكريم قاسم وإستلام السلطة، والتصدي للشيوعيين ومؤيدي قاسم، كانت في وقت سابق لحركة الشواف وقبل إنعقاد مؤتمر السلام في الموصل بزمن طويل، يتضح من ما تقدم ومن خلال التنسيق مع القوى العسكرية والمدنية الأخرى في كركوك و بغداد والمدن الأخرى، ودعم من الجمهورية العربية لهم، هذا الدعم الذي بدأ منذ انسحاب الوزراء القوميون والبعثيين من الحكومة الأولى لثورة تموز ١٩٥٨، واحتدام الصراع بينهم، من جانب، وبين الشيوعيين والديمقراطيين والمؤيدين للثورة من جانب آخر، أضف لذلك نشوب الخلاف بين عبد الكريم قاسم و عبد الناصر مما حدى بالأخير أن يدعم هذه الحركة الانقلابية، والقوى المؤيدة لها من قوميين وبعثيين، بكل الوسائل الممكنة من

(١٠٠) محمد حديد - مذكراتي - الصراع من أجل الديمقراطية في العراق - دار الساقي - ٢٠٠٦ - ص ٣٧٢-٣٧٤.

مال وسلاح وإعلام، وهذا يدحض الرأي القائل أن الشيوعيين هم من بدأ الإعتداء على القوميين والبعثيين في الموصل عندما ذهبوا إليها وعقدوا إجتماعهم في الملعب الرياضي في الموصل كما أُشير إليه سابقاً، بل ما حصل هو العكس. وهذا يؤيد ويؤكد ما ذكره المؤرخ حنا بطاطو في هذا الصدد.

ولإعطاء صورة أكثر وضوحاً أسرد هنا بعض ما كتبه قياديون في الحزب الشيوعي عن تلك الأحداث:

لابد لنا أن نرجع إلى الأسباب التي فجرت أحداث العنف والإقتتال في الموصل بين الشيوعيين والديمقراطيين من جهة، وبين القوى القومية والدينية والرجعية من جهة أخرى، وكان من أسباب تفجيرها، الحركة العسكرية الانقلابية التي قام بها عبد الوهاب الشواف في الموصل بسبب المعاملة القاسية التي عومل بها الشواف، التي لم تراخ مزاجه العاطفي. "فقد إختاره عبد الكريم قاسم في اليوم الثاني لثورة تموز ١٩٥٨، ليكون الحاكم العسكري العام، وأبلغه بذلك، وقد سر الشواف بهذا وأعد نفسه للأمر، إلا أن عبد السلام محمد عارف عارضه في ذلك، وأصر على إبعاده إلى الموصل، ليقود اللواء الخامس المرابط هناك، فترك في نفسه أثراً سيئاً، وشرع في تكوين مجموعة خاصة به من أمراء وحدات عسكرية في الحبانية والمسيب ومعسكر الرشيد وغيرها، وأظهر موقفه المحايد تجاه النزاعات في الموصل والتنافس فيما بين القوى المختلفة". (١٠١)

"وبدأ الشواف يغازل القوى القومية، وكان حتى ذلك الحين لم يقطع روابطه السابقة بالحزب الشيوعي العراقي، وقد رشحه الحزب الشيوعي ليشغل منصب وزير الداخلية بعد إبعاد عبد السلام عارف، وأبلغه بذلك، ولم يكتف هو سروره بهذا الترشيح، وهياً نفسه لهذا الغرض، إلا أن عبدالكريم قاسم فاجأ الجميع بتعيينه أحمد محمد يحيى السفير العراقي في السعودية لهذا المنصب، ولم يكن الأخير قد أسهم في ثورة تموز،

(١٠١) تأريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري ج - ٢ ص ٦١.

ولم يكن من الضباط الأحرار، فجن جنون الشواف وهو الشخص العاطفي السريع الإنفعال والقليل الإتران كما يصفه عامر عبدالله في (مجلة، أبواب - العدد ٣ - ص - ٢٠٣). وقد سعى المحامي جميل الشواف وهو أخوه وعضو في الحزب الشيوعي العراقي، أن يلتقي بعبد الوهاب الشواف، لكن عامر لم يستطع اللقاء به لإختلاف العنوان كما يروي). فزاد في نغمته على الوضع، الرغبة في التمرد، فوجد فيه الضباط القوميون في الموصل، لاسيما قطبهم المحنك الذي يحقد على الشيوعية كثيراً. محمود عزيز، ضالتهم التي يبحثون عنها، فالتفوا حوله وراحوا يزينون له الإقدام على التمرد، وكثف الضباط القوميون من جماعة محمود عزيز من نشاطهم، وشرعوا يتحركون على مختلف الجهات. (١٠٢)

وقبيل التمرد بإسبوع تتابعت الأحداث وكثفت القوى القومية والقوى الرجعية من نشاطها، بإتجاه تفجير الأوضاع، واحتدمت لهذا حرب الشائعات، وإزدادت المشاحنات التي أجبتها زيارة عبد السلام عارف وفؤاد الركابي وجابر عمر إلى الموصل في آب ١٩٥٨. وسارع تنظيم حزب البعث في المدينة إلى تجميع كل القوى المحافظة فيما دعي ب (التجمع القومي - الديني) الذي ضم ممثلين عن حزب البعث، وحركة القومييين العرب، وجماعة الإخوان المسلمين، وعدد من المستقلين للعمل ضد الشيوعيين في المدينة، وإلى جانب هؤلاء نشط المحامي سامي باش عالم العمري وهو نائب سابق من نواب العهد الملكي، ومحمود إبراهيم، وعبد الرحمن داوود الملقب (أي. بي. سي) في تكوين تكتل يدعو إلى إسقاط حكم عبد الكريم قاسم، وإقامة حكومة إسلامية تقودها شخصيات من العهد الملكي أمثال مصطفى العمري. وبعد أخذ ورد بين القائمين على الحركة في موعد إنطلاقها استقر رأيهم على أن يبدأ التمرد العسكري في الموصل في ٥ آذار ١٩٥٩ لكنهم عادوا وغيروا الموعد إلى ٢٠ آذار.

(١٠٢) عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي - عزيز سباهي - ج ٢ - ص ٣٢١.

في الجانب المقابل، كان عبد الكريم قاسم والقادة المواليون له، وكذلك الأحزاب الثلاثة: الشيوعي، والوطني الديمقراطي، والديمقراطي الكردي (البارت) يتابعون التحركات التي يقوم بها قادة الحركة، وإن الأعمال المعادية ستبدأ خلال إسبوعين أو ثلاثة والقيام بإضرابات في المدن الكبرى في العراق. ولهذا عازمت الأحزاب والقوى الديمقراطية على عقد مؤتمر لأنصار السلام في الموصل، وحددوا له موعد يوم ٦ آذار ١٩٥٩ وأن يحشدوا له أوسع القوى، وذلك لتحذير "القوى المتآمرة" في الموصل، وقد تعاطف عبد الكريم قاسم مع عقد المؤتمر، ورفض الإصغاء إلى الذين طلبوا إليه منع انعقاده أو تأجيله على الأقل، لكي يتيسر لهم تنفيذ خططهم دون عائق، وقد أجاز الحاكم العسكري العام وبتأكيد من رئيس الوزراء عقد المؤتمر في مواعده المحدد ٦ آذار، وأوعز إلى مدير السكك وأجهزة الأمن على توفير كل التسهيلات الضرورية التي يتطلبها عقد المؤتمر في وقته المحدد.

ومنذ الخامس من آذار راحت تتدفق الجماهير إلى الموصل من المدن والقرى المحيطة بها، ومن المدن الأخرى في البلاد لتحضر مهرجان السلام، وفي اليوم المحدد إنعقد المهرجان في ملعب الإدارة المحلية في باب سنجان وطبقا للتقديرات الرسمية شارك فيه حوالي ربع مليون شخص، وسارت الأمور سيرها الطبيعي، وبعد إنتهاء المهرجان قفل المشاركون عائدين في صباح يوم ٧ آذار، ولكن طبقاً للخطة المرسومة كما يبدو، شرع القوميون والقوى المساندة لهم ومن يلتف حولهم، يتحشدون في ٧ آذار منذ الصباح في ساحة النبي شيت وفي المكتبات والمقاهي التي اعتادوا التردد عليها. وتدفق بعض مئات من أفراد شمر نحو المدينة، وجرى توزيع الأسلحة على العناصر القومية والموالين لها، وراحوا يتظاهرون في الشوارع وساروا في شارع الفاروق يتقدمهم البعثي فاضل الشكرة بإتجاه المحلات التي يسكنها الشيوعيون وهاجموا المكتبات اليسارية ومقهى على إحجوا، الذي اعتاد الشيوعيون التردد عليها واحرقوها كلية. إذ ذاك شرعت القوى الديمقراطية تتحشد، وانطلقت من محلة المكاوي ويسير خلفها فصيل مسلح بالرشاشات وكان يقودها

النقيب عبدالجواد عبدالحميد، وعند ساحة الساعة إلتقت بمظاهرة قومية كانت قد انطلقت من باب البيض يعزها أتباع كشمولة المسلحون، وبعد تبادل بعض الإطلاقات تفرقت مظاهرة القوى القومية، وتعززت المظاهرة الديمقراطية بأعداد غفيرة من الناس المسلحين بقضبان الحديد والعصي، وكانت الحماسة قد بلغت بالجماهير إلى الحد الذي راحت تستهين بكل شيء ولم تتردد عن فعل ما سبقها إليه القوميون، إذ أحرقت مكتبة فاضل الشكرة، ومكتبة آل كشمولة، ومحل محسن العاني وقتلت أخاه جبوري العاني، وكان العسكريون الذين يرقبون هذه التظاهرة، وهم بقيادة المقدم خضر يغضون الطرف عما تفعله الجماهير ولم يتدخلوا لوقف إطلاق الرصاص.

بعد هذا الإستعراض المستفيض للأحداث وتداعياتها في هذا الشأن يصل السيد عزيز سباهي الى الرأي الآتي: " **المسؤولية الأولى**، بالطبع، تقع على العناصر التي أسهمت في التآمر وتلك التي حركتها ووفرت لها المستلزمات المادية والمعنوية لكي تقدم على ما أقدمت عليه، ويندرج في إطار هذه العناصر القوى القومية المتعصبة، التي اندفعت إلى التآمر دون أن تحسب أي حساب للمصلحة العامة، والقوى الرجعية من عملاء الإستعمار ورجالات الإقطاع ومن ورائهم الدوائر الإستعمارية والجمهورية العربية المتحدة التي ذهبت إلى أبعد الحدود في دعمها للتآمر دون أن تضع في الحسبان المصلحة القومية العامة."

" ولكن هذا لا يعفي مسؤولية الجانب المقابل في دفع الأمور إلى حد الانفجار والتصادم. لقد كان كلا الطرفين يسعى إلى تأجيج الأمور وتفجيرها كما تنفجر (الدملة) كما عبر عبد الكريم قاسم عن مخططه إلى وفد القوى الديمقراطية في المدينة الذي زاره قبل الأحداث، وكان كلاهما يفهم المرونة على أنها مناورة يراد منها خدع الخصم، وهددة يقظته تمهيداً لضربه." "أما بالنسبة للشيوخيين في الموصل فقد كانت الأحداث فوق قدراتهم بكثير، وقد لعبت قلة الخبرة، وضيق الأفق، وبيروقراطية القيادة، والتعامل غير الديمقراطي الذي مارسه كل من حمزة السلطان ومهدي حميد،

الموفدين من قيادة الحزب، دورهما في جرهما إلى قرارات خرقاء أضرت بهما وبالحزب كثيراً". ويؤكد عزيز سباهي "على أن مزاج قيادة الحزب كان يميل يومها إلى التعامل بقوة مع الأمر. إذ إنعكس هذا المزاج في اللغة التي كانت تتعامل بها (إتحاد الشعب) مع أحداث الموصل، ويبدو أن المكتب السياسي للحزب قد أدرك بعد فوات الأوان أن القيادة الشيوعية في الموصل قد وقعت بخطأ كبير، وأنها ورطت الحزب في قضية خطيرة". وربما يحتمل عزيز سباهي عبد الكريم قاسم شخصياً جزء من هذه المسؤولية عندما كان يتساءل: "هل كان عبد الكريم قاسم يريد أن تتطور الأحداث في الموصل على هذا النحو؟ وكم هي مسؤوليته الشخصية فيها؟ لاحظنا سابقاً أنه كان يصر على عقد مؤتمر السلام، وكان يرغب في الإمساك برؤوس التمرد وهم يمارسون الجرم المشهود، كما يقال، لقد ظل عبد الكريم قاسم يشيد بالدور الذي لعبه الشيوعيون في قمع تمرد الشواف، ولكن ما أن بدأت العلاقات تسوء ما بين عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعي، حتى راح يستخدم محاكمة قادة الشيوعيين في الموصل، ورقة يشهرها بوجه الحزب، وتناسى أنه ظل يشيد بأبناء الموصل هؤلاء، حتى حكمت عليهم محكمة عسكرية بالإعدام، وجاء إنقلابيو شباط لينفذوا هذه الأحكام". (١٠٣)

لم تنتهي الأحداث المأساوية التي شهدتها الموصل، بانتهاء تلك الأحداث، وما اقترن بها من إراقة دماء شملت كثيراً من الناس من كلا الطرفين المتصارعين، وإنما امتدت إلى سنوات لاحقة مكونة بحد ذاتها قضية مروعة جديدة. لقد أدركت القوى القومية والعوائل الثرية المحافظة التي وقفت الى جانب التمرد وساهمت بالأعمال التي كانت تدور في حينها، أن سياسة عبد الكريم قاسم قد اتجهت منذ منتصف عام ١٩٥٩، نحو التضييق على الشيوعيين واليسار عامة، وإرسال هيئة تحقيق خاصة للتحقيق فيما دعي بالأعمال التي إرتكبتها "الفوضيون" وهي مزودة بأسماء الشيوعيين الذين يراد إعتقالهم ومحاكمتهم.

(١٠٣) عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي - عزيز سباهي - ج ٢ - ص ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢٥.

" لذلك سارعت القوى المعادية للشيوعية إلى تدبير الإغتيالات، وتآلفت لهذا الغرض لجان سرية تتولى من يراد إغتياله و من يتولى الإغتيال، وسرعان ما اتسعت دائرة الإغتيال لتشمل أناساً على الشبهات، ثم دون تحديد ولدوافع شخصية محضة، وللإبتزاز، أو لدوافع دينية، ولم تعد تتجه إلى الشيوعيين أو مؤيديهم، أو لأقاربهم فقط، وإنما امتدت إلى عناصر من الحزب الوطني الديمقراطي، أو من الحزب الديمقراطي الكوردستاني، وإلى أناس لا علاقة لهم بالسياسة أساساً، وارتفعت معدلات القتل إلى مستويات مخيفة، حتى بلغت في بعض الأوقات، ما بين ٨ و ١٢ حادثة إغتيال باليوم الواحد، ولمدة إسبوعين متتاليين، وقدر عدد القتلى ما بين ٣٠٠ و ٦٠٠، وأخطر كثير من العوائل إلى الهجرة عن المدينة وقدر عدد العوائل المهاجرة ما بين عشرة آلاف وخمسة آلاف، وكان نصيب المسيحيين من التهجير هو الأعلى". (١٠٤)

أحداث كركوك

في خضم الإستعدادات للإحتفال بالذكرى الأولى لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فقد لوحظ أن التركمان راحو يبالغون في الإستعداد للإحتفالات، ولكن ليس في إطار الإحتفالات العامة، وإنما بإسمهم الخاص، مما أثار الشكوك عند الجماعات المقابلة، ورغم المحاولات التي بذلت لتسيير مسيرة شعبية واحدة في يوم الإحتفالات، إلا أن التركمان أصروا على أن ينظّموا مسيرة خاصة بهم إلى جانب المسيرة التي كانت المنظمات الديمقراطية قد هيأتها، فنشأت بذلك فرصة أو عقدة للإحتكاك.

إن الإصطدام قد حدث نتيجة الأحقاد القومية المتقابلة بين الكورد والتركمان، حتى أن الشيوعيين الكورد لم يتصرفوا إزاء المسألة كشيوعيين وإنما ككورد أولاً.

يلاحظ (أوريل دان) "أنه كان لقاسم الدور الرئيسي في خلق هذه الصورة أي كون الشيوعيين هم الذين دبروا الأحداث وليس بالإمكان -كما يقول أوريل دان - التحقيق

(١٠٤) عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي - عزيز سباهي - ج ٢ - ص ٣٣٦.

فيمن كان البادئ بالإستفزاز في يوم ١٤ تموز ١٩٥٩، وليس ثمة دليل قانوني يثبت صدور أمر من الحزب الشيوعي العراقي في بغداد لتنفيذ مخطط مذبحه، ولكن يمكن التأكيد بصورة معقولة، إن أمراً كهذا لم يصدر قط". (١٠٥)

يذكر عزيز محمد السكرتير السابق للحزب الشيوعي العراقي في معرض حديثه عن أحداث كركوك، عندما كان عضو المكتب السياسي للحزب والمشرف على لجنة إقليم كردستان للحزب التي تتخذ من كركوك بالذات مقراً لها، وكان قد شاهد بعينه ما جرى وسعى شخصياً بالتعاون مع وكيل قائد الفرقة العسكرية لتدارك الأوضاع: "... واستغلت أحداث كركوك أبشع إستغلال بتعكير العلاقة بيننا وبين عبد الكريم قاسم، كنت مسؤولاً عن منظمة حزبنا في كردستان، ولهذا أستطيع أن أعطي شهادة دقيقة عما حصل. كان الجو في كركوك عشية الذكرى الأولى للثورة متوتراً، وتقرر إقامة موكب موحد للاحتفال بالذكرى. الأخوة التركمان أرادوا الإنفراد بموكب مستقل، وهو من حقهم، غير أنه في أجواء التوتر تلك بدا غير مقبول لأطراف أخرى لسنا من بينها. تعرض الموكب لإطلاق الرصاص، ولم نعرف الجهة التي أطلقت منها وسببت الفوضى، بل الهيستريا، حتى الآن فقدت السيطرة على الوضع، وحدثت إنتهاكات، وأعمال تصفية ضد التركمان لم يكن لنا فيها كمنظمة أي دور، بالعكس بذلنا أقصى ما نستطيع من جهود لحقن الدماء ولم نوفق. ومع ذلك وجه الإتهام لحزبنا، وكانت هناك أوساط مستعدة لتقبل هذا الإتهام، إن لم تكن مستعدة لتلقيه والنفخ فيه. ولفقت فعلا صور عن فظاعات، وارسلت إلى الزعيم، ولا بد أنه صدقها، وألقى بعدها خطاباً في كنيسة مار يوسف إستخدم فيها نعتاً قاسية ضدنا، وبعد هذا الوقت الطويل الذي مر على الأحداث أستطيع أن أؤكد أن منظمة حزبنا لم تكن لها يد فيما حدث، ولا

(١٠٥)أوريل دان - العراق في عهد قاسم - تأريخ سياسي - ١٩٥٨-١٩٦٢. نقله إلى العربية وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله. عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي - عزيز سباهي - ج ١ - ص ٢٨٢.

أستطيع أن أنفي ممارسات قد يكون أعضاء أو مناصرون لنا قد إرتكبوها بخلاف موقفنا". (١٠٦)

لقد حذر مكرم الطالباني (الشخصية الديمقراطية القيادية، والتي تتصف بالرصانة والهدوء وسعة الأفق، والمحترمة في مدينة كركوك ومن عوائلها المرموقة) عبد الكريم قاسم من حدوث مذبحه في كركوك، كذلك اقترح على قيادة الحزب الشيوعي إستبدال نافع يونس، سكرتير اللجنة المحلية للحزب في كركوك، وعضو لجنة الإقليم، بآخر من أهالي كركوك، لتفادي هذه المذبحه التي بدأت معالمها تلوح في أجواء المدينة.

ويذهب عامر عبد الله القيادي في الحزب الشيوعي العراقي في رؤيته لأحداث الموصل وكركوك إلى رأي مقارب لما ذكره عزيز محمد سكرتير الحزب الشيوعي حول تسلسل تلك الأحداث والتعقيدات التي تخللتها والعنف الذي شابها حيث يذكر عن أحداث الموصل: "كانت هناك دوافع لقيامها منها انقسام الشارع السياسي إلى إتجاهين، اليسار والمتمثل بالحزب الشيوعي والمؤيدين له، والقوميين المتمثل بحزب البعث العربي الإشتراكي ومن يدعمهم، فضلا عن شعور بعض الضباط بالغبن، منهم العقيد الركن عبد الوهاب الشواف.... وجرى إختيار الموصل بالتحديد، لكونها معقل القوميين ولأنها قريبة من سوريا (الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة) لسهولة نقل الأفراد والمال والسلاح". وبعد أن يعطي صورة عن تطور الأحداث في تلك الفترة كما وضحنا ذلك سابقاً، " يرى أن تلك الأحداث وما رافقها من عنف وانفلات له أسباب عديدة يذكر منها: " الإحتكاكات المحلية بسبب قطار السلام في الموصل،

(١٠٦) عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي -عزيز سباهي - ج ٢ - ص ٣٧٦، عن مجلة الوسط الصادرة في لندن العدد ٢٨٨ بتاريخ ١٩٧٩/٨/٤-مقابلة أجرتها مع سكرتير الحزب الشيوعي العراقي عزيز محمد.

وحركة عبد الوهاب الشواف والغبن الذي شعر به، وتعتيم دورنا واستصغار شأن الآخرين، كذلك كانت مواقف القوى الأخرى تزداد تشنجا وتأمراً^(١٠٧).

ويذكر عن أحداث كركوك: " وتكررت الأحداث نفسها في كركوك في ١٤ تموز ١٩٥٩ لكن لأسباب ودوافع مغايرة، فكان العامل القومي في مقدمة العوامل التي أدت إلى وقوع تلك الأحداث، بسبب التعصب التركماني-الكوردي، ونتيجة للتفاوت الطبقي بينهما لصالح التركمان، ولتعيين عدد من الشيوعيين الكورد في مناصب حساسة مما زاد من مخاوف التركمان ". ولم ينف مسؤولية الحزب الشيوعي ومسؤولية الحزب الديمقراطي الكوردستاني عنها، لكنه عارض الرواية السائدة في حينها، التي إستعملها عبد الكريم قاسم ضد الشيوعيين، وجرى تلوينها لاحقاً بتبنيته الهجوم ضد التركمان فعده " أمراً غير مقبول وغير منطقي... لكنه لم يستبعد أن تكون عناصر متطرفة أرادت تعكير صفو الإحتفال بهذه المناسبة". وأكد عامر عبد الله " أن شركات النفط لم تكن بعيدة عن إفتعال الصدام، وإتهم بعض المتطرفين ومن غير علم أو تشاور مع القيادة العليا بقيامهم بتلك الإنتهاكات. إذ انفجر الإحتقان الطويل الذي عاشه الشيوعيون في العهد الملكي، فيما كان الحزب قد نما وتضخم فلم يعد من الممكن السيطرة على إنفعالاته." ^(١٠٨)

كذلك أذكر هنا رواية شاهد عيان عن أحداث الموصل ١٩٥٩م، رواها لي كل من عماد عباس محمد وعلي جاسم حمودي نقلا عن صديقيهما عصام عائد شيت، (أمين عام حزب الإصلاح والعدالة الديمقراطي -بعد عام ٢٠٠٣م -الذي يمثل الجناح اليساري لحزب البعث في الموصل، وعضو مجلس محافظة نينوى بانتخابات مجالس المحافظات لعام ٢٠٠٩ – ٢٠١٣م، ورئيس لجنة التخطيط الاستراتيجي في المجلس).

(١٠٧) عامر عبد الله ودوره السياسي والفكري – (١٩٢٤-٢٠٠٠) -غادة فائق محمد علي – بغداد-٢٠١٨.

(١٠٨) عامر عبد الله – سنوات الفقر والأمل الخائب-١٩٨٨-١٩٩٤- ج ٢-ص، ٢٠٤.

ذكرا أن عصام أخبرهما : "لقد أقام الحزب الشيوعي مهرجان أنصار السلام في الموصل، حضرته وفود جماهيرية واسعة من بقية المحافظات العراقية الأخرى، حتى وصل عددهم أكثر من مائة ألف شخص، وبعد انفضاض الاحتفالية، ومغادرة المحتفلين ساحة الاحتفال، عائدین إلى محافظاتهم، قمنا بتنفيذ الخطة المهيأة مسبقا للاعتداء على الشيوعيين، كنت أحد قادة هذا العمل، وكانت الخطة تقتضي أن نهاجم بقوة مسلحة مقاهي الشيوعيين، ومكاتباتهم العامة، ونقوم بهجوم منظم على الفلول المتأخرة المتراجعة من المتظاهرين الذين غادروا سوح الاحتفال، إلى محافظاتهم، قد تم تنفيذ العملية وقمنا بالهجوم المسلح، وحصل التصادم معهم، وقتل من الشيوعيين ثلاثة وعشرون، ومن المهاجمين سقط سبعة عشر قتيلًا".^(١٠٩)

***أعمال الجهاز الصدامي المركزي

في الحديث عن الجهاز الصدامي لحزب القيادة المركزية، حيث تقييمه له، قال عزيز الحاج (قام الجهاز بالأعمال التالية: قتل عدنان شومان، وهو قائد شيوعي سابق قررت القيادة أنه خان الحزب فأهدرت دمه، وكلفت جهازها الصدامي بتصفيته، وكانت النتيجة أن قتل بالإضافة إلى عدنان إثنان من أنسبائه، لا علاقة لهما بالموضوع / قتل جلال المختار وهو الآخر قائد شيوعي سابق تحول فيما بعد إلى خدمة السلطة فعمل مع أجهزة الأمن والمخابرات، وشارك في ضرب وتعذيب رفاقه الآخرين، وكان الخلاص منه يمثل رغبة جماعية لدى الشيوعيين قيادة وقواعد/ قتل الجهاز بمبادرة منه وبغير قرار من القيادة، بعض المواطنين، لا علاقة لهم بالسياسة أو بالحزب أصلا، ومنهم محمد ميرو، وأمين الجنابي/ وبمبادرة منه حاول اغتيال "أبو عروبة" أحد أعضاء حزب البعث "مسؤول تنظيماته في مدينة الثورة").

(١٠٩) مقابلة مع الصديقين المهندس عماد عباس وعلي جاسم حمودي.

لتوضيح هذا الأمر، أقول: إن كل القرارات التي كان ينفذها الجهاز الصدامي حتى العمليات التي يقترحها، وقبل تنفيذ أية عملية، كانت تسبقها موافقة القيادة، وتكون بعلمها ودرايتها، أو بتحويل مسبق بالتخلص من عناصر معادية تشكل خطرا كبيرا على الحزب، وإن جميع الذين وردت أسماءهم، دون استثناء كانوا من هذه العناصر المعادية، ولم يكونوا "مواطنين عاديين لا علاقة لهم بالسياسة وبالحزب أصلا بعد تركهم له" كما يذكر الحاج، وهل يعقل أن تقوم قيادة جهازنا بقتل أناس أبرياء، لا علاقة لهم بالسلطة، أو لأسباب شخصية؟!، وبخصوص ذلك يقول صالح العسكري المشرف على الجهاز "إن الذين نفذوا العمليات المقررة هم مجرد شيوعيين ملتزمين بخط الحزب، لم يكن يحركهم الطمع أو الخصومة، وإنما كان الخط السياسي هو الدافع والمبرر حتى في إقدامهم على قتل من لم تقرر القيادة قتلهم فإنهم كانوا يتصرفون انطلاقا من تصورات سياسية وليس من عواطف شخصية".

لقد ذكرت سابقا ان المعلومات عن الاشخاص وعناوينهم كانت تأتينا من خلال الجهاز الاستخباري المرتبط بمنظمة النساء، التي تقودها رفيقتنا نرجس الصفار، وقد كنا سوية اعضاء في منظمة بغداد، وكنت استلمها منها مباشرة وبدوري كنت أسلمها الى المشرف على الجهاز الرفيق صالح العسكري، وكل المعلومات عن الاشخاص، كانت دقيقة، ولم يكن خلفها اية دوافع شخصية او ثأرية، سوى تطبيق قرارات الحزب وتنفيذ سياسته، في الخلاص من اعدائه الذين كانوا يشكلون خطرا عليه.

يقول عزيز الحاج " ان أعمال الجهاز الصدامي، وعمليات الكفاح المسلح، كانت انعكاسا لأساليب العمل المخططة من قبل القيادة... والذين نفذوا انما هم شيوعيين ملتزمين بخط الحزب. وتقتضي الامانة ان اذكر ان الجهاز قد قام فعلا ببعض المبادرات غير المقررة... وذلك يعود بالدرجة الاولى الى ضعف المركزية، والى عدم استطاعتنا السيطرة على هذا الجهاز. ولقد تصورت في فترة، ان السلطة تقوم ببعض العمليات ثم تنسبها اليها بغرض تشويه سمعتنا والاساءة الى خط الكفاح المسلح، لكننا تبينا، من ثم ان الجهاز نفذ ثلاث عمليات دون علمنا... وقد نوقشت هذه

المسألة في الاجتماع الاخير للقيادة، واتخذ قرار بإلزام الجهاز بنيل موافقة القيادة المسبقة على اي تصرف... كذلك قررنا تبديل المشرف وتكوين لجنة صدامية جديدة. على ان التناقض كان مصدره القيادة وليس الجهاز او لجنته، فلقد كنا نطالبهم بالالتزام بقراراتنا وفي الوقت نفسه نطالبهم بأن يأتونا بالمال من اي مصدر كان."

ويعقب عزيز على ما تقدم فيقول: " هذا يعني ان القيادة و الحزب اجمالا، كان ينقصهما الوضع النظري الكافي، و انها لم تكن جادة في المحاسبة، و كانت تنسب تراخيها الى حاجتها الماسة الى المال من جهة اخرى فلقد شعرنا، و نحن في غمرة العمل بقيام تكتل بين بعض عناصر اللجنة الصدامية و منظمة الحزب في المنطقة الجنوبية و بعض المنظمات الاخرى... و كان مبرر التكتل الزعم بأن القيادة متخلفة و غير مؤمنة بخط الكفاح المسلح، و لقد تلقينا عشرات الرسائل و التقارير المليئة بالتهجم على موقفنا الذي وصف "باليمينية" و "الميوعة"، كذلك تمردت علينا المنظمات الصدامية في السليمانية، بينما قدّم قادة تشكيلاتنا في الجنوب انذارا الى القيادة و سكرتيرها بضرورة التحاق جميع القياديين بالأهوار و إلا فأن احدا لن يعترف بكم !! ، و ان المقررات ذات الطابع الصدامي التي اتخذتها القيادة و بينها :

١- الرد بالمثل في حال وقوع اعتداءات مسلحة على رفاقنا في الكليات.

٢- في حال قيام السلطة بهجوم كاسح على حزبنا، او قيامها بحملة اغتيالات ضد رفاقنا، فان واجبنا ان نرد بالمثل، شرط ان يتقرر اي عمل بمكتب القيادة.

٣- كان في جدول العمل مشروع تقدمت به منظمة بغداد وبعض الرفاق بضرورة التخلص من مالك سيف (عضو سابق في اللجنة المركزية، متهم بخيانة الحزب وتسليم وثائقه وكل ما يخصه الى السلطة عام ١٩٤٨م) وهادي هاشم، في ذكرى اعدام قادة حزبنا في ١٤ شباط ١٩٤٩، اي يوسف سلمان (فهد) وزكي بسيم (صارم) وحسين الشيببي (حازم).

٤-تقرر في اجتماعنا الاخير العمل على تنفيذ قرارات سابقة (اصدرناها خلال حزيران ١٩٦٨) بإقامة قاعدة جديدة في الاهوار بعد تدمير القاعدة الاولى، والعمل لإقامة قاعدة جديدة في لواء ديالى.

٥- كانت ندرة المال اللازم لصيانة أنفسنا مشكلتنا الكبرى، ولهذا قرر اجتماع القيادة الاخير، وبأجماع ١١ صوتا، ان تقوم منظمات المناطق الجنوبية وكردستان والجهاز الصدامي في بغداد بثلاث عمليات مسلحة للاستيلاء على النقود بأقل التضحيات، على ان نكف بعدها عن ممارسة هذا الاسلوب... ولقد تركنا المبادرة للمنظمات المذكورة واعطيناها حرية التصرف.

ان مجموع هذا الاتجاه كان ضارا وخطرا، وكاد ان يحوّل حزبنا الى مجرد جماعة من المسلحين، وتناسى اي عمل من هذا النوع تحديا للسلطة، وضربا من المغامرة المتهورة، وحتى تشجيعا للفوضى، ونحن كقيادة وانا بالذات كسكرتير نتحمل المسؤولية الاساسية."

ب-الأعضاء القياديون

لابد من تسليط الأضواء على تصريحات بعض أعضاء القيادة المركزية، في هذا الحوار الصحفي، وقد بان في عيونهم القلق، وارتسم على وجوههم الخوف، وانصاعوا لما طلبه المحقق البعثي منهم.

يجيب خضير عباس الزبيدي (مسؤول العلاقات الوطنية فيها) على سؤال "الكفاح المسلح شعارا وممارسة؟" بما يأتي: "إن تبشيع الكفاح المسلح الآن أمر لا يفيد في التخفيف عن مسؤوليتنا، بالإضافة إلى كونه تصرفا غير شجاع وغير أخلاقي، إن نقطة الخطأ الأساسية في موقفنا ليست اعتمادنا على الحركة الكردية المسلحة، ولكنها تمثلت في موقفنا الخاطئ من السلطة بعد ١٧ تموز ١٩٦٨م، ولو أننا انتبهنا إلى التغيير النوعي الذي تم على مستوى الحكم لأمكن أن نتفاهم ونتعاون معه، وبالطبع فإن سائر

مواقفنا كانت ستتبدل، إن تصحيح الظروف الموضوعية لا يتكامل دفعة واحدة، إنما يتكامل مع العمل والعمل، لكننا لم نشأ أن نتعب أنفسنا بالتفكير والتحليل، فاعتبرنا أن الوضع لم يتغير، وتمسكنا بمواقفنا السابقة نتيجة لانعزاليتنا وركودنا وهكذا بقينا نتصرف وكأننا نواجه حكومة رجعية ديكتاتورية كالتى عرفناها قبل ١٧ تموز ١٩٦٨م".

هنا أيضا يضرب الزبيدي على نفس الوتر، مكررا النغمة التبريرية ذاتها، مخطئا الموقف من سلطة ١٩٦٨، مقرعا النفس ناعتها بالانعزالية والركود، محاولا أن يحسن ويلمّع صفحة انقلابي ١٧ تموز، ممجدا بـ"التغيير النوعي" الذي طرأ على حكمهم وضرورة التفاهم والتعاون معه، ويصف عهد عبد الرحمن عارف بالرجعية والديكتاتورية، بالرغم من أن هذا العهد، ذا الحكومة التي رأسها الدكتور عبد الرحمن البزاز المدني الأكاديمي الليبرالي، كان يدعو لفضاء أوسع من الحرية والديمقراطية، بعكس عهد البعثيين الجديد الذي استهل باغتيال وإعدام وحبس المعارضين له، وهو أحدهم! فـ"التغيير النوعي" الذي يشير إليه لم يحصل قبل اعتقال القيادة المركزية المبكر في أيلول ١٩٦٨م، أي بعد شهرين من انقلاب تموز ١٩٦٨م، وكان هناك الكثير من الملاحظات والمؤاخذات على نظام البعث لما قام به من حملات اعتقال وممارسات تعذيب في مراكز التحقيق، وملاحقة القوى المعارضة، واستمراره بكشف أعضاء "ق.م" ومطاردة من تبقى منهم خارج المعتقلات، رغم المقترح الذي طرحه عزيز الحاج بإصدار بيان يعترف بوطنية النظام ضمن جبهة وطنية تقدمية مقابل إطلاق سراح المعتقلين ومعاودة حزبنا لنشاطه السياسي، إلا أن مقترحه هذا جوبه بالرفض من النظام. أي أنه لم يكن تغييرا نوعيا لا في تركيبة السلطة ولا في قراراتها، وما سمعناه من مواقف ونحن لم نزل في قصر النهاية، لا يعدو عن اجراءات تكتيكية استخدمها البعثيون لتثبيت حكمهم واستمراره، بعد أن انقلبوا على شريكهم الناييف والداود، منها: توثيق العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، الاعتراف بألمانيا الديمقراطية، إتفاقية الكبريت مع بولونيا، الدعوة للجبهة الوطنية، الإيحاء بأن موقفهم المعادي للشيوعيين قد تغير، وهذا الأخير - خصوصا - تدحذه اعتقالات واغتيالات وإعدامات شملت العشرات من رفاق القيادة واللجنة المركزيتين للحزب الشيوعي.

ويشير كاظم الصفار إلى بيان (ق.م) عام ١٩٦٨م قائلاً "بداية الخطأ كامنة في البيان الذي أصدرناه في يوم ٣١ تموز، أي بعد الحركة التصحيحية التي نفذها حزب البعث مباشرة، لقد أكدنا في ذلك البيان أن الشعارات الاستراتيجية المركزية لاتزال تحتفظ بجديتها، كما حاولنا نسب الانتفاضة لجهات مشبوهة بالقول إن الاستعمار تدخل عندما تيقن أن الحركة الثورية بلغت مرحلتها الحاسمة، فأحدث الانقلاب، وهكذا يتبين أننا أخطأنا في تحديد المهمة المركزية".

أقول: إن بيان ٣١ تموز ١٩٦٨م، كان صائباً في تحليله للأحداث وتشخيصه للواقع السياسي، إلا أن الصفار جافي الحقيقة والصواب عندما خطأ القيادة المركزية، مع أنه عضو فيها، واصفا الانقلاب على الحلفاء في ٣٠ تموز ١٩٦٨م بالانتفاضة، وهذا ما كانت تريده الهيئة التحقيقية لتسقيط "ق.م" أمام أعضاء الحزب وجماهيره فضلا عن الرأي العام، فتجاهل هذه الحقائق الأساسية:

- إن (الانتفاضة)، بحسبه!، في ٣٠ تموز ١٩٦٨م وبيان "ق.م" في ٣١ تموز ١٩٦٨م، أي أن هناك يوماً واحداً بينها وبينه، وهنا ملاحظتان: الأولى/ من المستحيل أن يتم إجراء تغيير في بنية نظام الحكم الجديد خلال يوم واحد! - الثانية/ لا يمكن تصديق أن هذا اليوم الواحد كاف لدى "ق.م" لتقييم الأوضاع ومن ثم تأشير صواب نهج الانقلابيين وحكمهم!!.

- بعدها قام حزب البعث بتوجيه دعوة إلى "ق.م" للقاء تشاوري حول إقامة تعاون مشترك بينهما، حيث الصفار ممثلنا، وقد أبدى البعثيون ترحيبهم بالشيوعيين، عارضين عليهم استعدادهم للتعاون، وقلب صفحة الماضي، وأنهم قادمون بعقلية جديدة، مختلفة عن تلك التي كانوا عليها عام ١٩٦٣م، إلا أن قرار "ق.م"، الذي أبلغه لهم، كان يؤكد استحالة العمل مع حزبهم، ما يعني أن القناعة كانت موجودة، ولم تكن خاطئة في حينها.

- أي أن البيان كان صائباً في تشخيصه وهذا ما حصل فعلاً، حيث كان العنصران الأساسيان اللذان تعاون معهما حزب البعث في الحركة الانقلابية، هما عبد الرزاق النايف معاون مدير الاستخبارات المحسوب على الإنكليز، والذي أصبح (رئيساً للوزراء)، وإبراهيم الداود قائد الحرس الجمهوري المحسوب على الأميركيين، وقد

نصّب (وزيرا للدفاع)، وعندما تمت تنحيتهما من منصبيهما وإبعادهما خارج العراق، إعترف الحزب بأنهما من القوى الرجعية وأنه حالفهما من أجل الوصول إلى السلطة.

أما بيتر يوسف (مسؤول جهاز التنظيم المركزي لـ"ق.م") فيقول "كنت أردد دائما، وقد أعلنت هذا في آخر اجتماع لنا، أن حزبنا فقد صفته كحزب شيوعي، وأخذنا نتساءل الرفيق كاظم الصفار وأنا، ترى إلى أين نسير؟!"، وفي رسالة منه "إلى سيادة رئيس وأعضاء مجلس قيادة الثورة"، لخص فيها تجربته مع الحركة الشيوعية على امتداد ٢٤ عاما، يقول "أما القسم الآخر من الحزب الذي انشق وسمى نفسه بالقيادة المركزية، والذي كنت أنتمي إليه، فقد سار سيرة هوجاء رعناء شملت جميع نواحي سياسته، ففي النطاق الخارجي، ونظرا لمقاطعة الأحزاب الشيوعية والبلدان الاشتراكية التي تؤيد موسكو لحزبنا، فقد انطلقنا نبحث عن مصادر أخرى لتساعدنا ماديا على تحسين أمورنا... وحين عجزنا عن إيجاد هذه المصادر توجهنا للحصول على ما نحتاجه من باب آخر هو السطو، وسمينا عملياتنا في هذا المجال عمليات ثورية!، ولكي نتضارب مع جماعة اللجنة المركزية الذين صنفناهم يمينيين وإصلاحيين، رفعنا شعارات الكفاح المسلح... ولكن كل الذي قمنا به كان عملية شوهاء ذهب بسببها، في أهوار الناصرية، أبرياء هدرت دماؤهم، ولماذا؟ لإرضاء نزعة الغرور والتزعم والحقْد لدى نفر معين.... (يقصد عزيز الحاج) وكذلك عمليات اغتيال وإرهاب كان الغرض منها الإبقاء على التنظيم قائما وإيهام البسطاء من المنتسبين إليه بأن حزبهم حزب ثوري".

إن رسالته هذه ركيكة مجافية للحقيقة والواقع، فيها من الوهن والضعف والمزايدة الواضحة الشيء الكثير، تنبعث من بين سطورها رائحة التنافس والصراع الشخصيين والحقْد على شخص الحاج، ناهيك عن تقديم أنواع الطاعة والولاء لكسب ود ورضا سلطة البعث، وتحمل نزعة التنكر لكل ماضيه وتراثه النضاليين لأكثر من ثلاثة عقود قضاها في صفوف الحزب الشيوعي، كأنه لم يكن قائدا وكادرا متقدما فيه، شاطبا على كل هذه المسيرة النضالية عندما ارتضى ما ارتضاه من الخنوع والمذلة، مقابل أن يحصل على سلامة رأسه وعلى منصب أو وظيفة في الدولة، وقد بر البعثيون بوعدهم له فعينوه سفيرا للعراق في المكسيك.

لقد حاول في هذه الرسالة أن يرمي الأخطاء على عاتق الحاج وحده، في الوقت الذي كان هو مشرفا على كل تنظيمات حزب القيادة المركزية، حيث المسؤولية فيها كانت جماعية، وهذا ما يتضح من خلال الجدول التالي الذي كتبه الحاج بخط يده كما نشرته مجلة الصياد:

١- بيان ٣١ تموز ١٩٦٨م الصادر من القيادة المركزية، محددًا موقفها من الحكم الذي قام نتيجة لانقلاب ١٧ تموز. موافقة بالإجماع

٢- صواب الاستمرار في اعتماد إستراتيجية الكفاح المسلح بعد ٣٠ تموز. موافقة بالإجماع

٣- القرار باغتيال عدنان شومان، مع نقد الطريقة التي تمت بها العملية. موافقة بالأجماع

٤- القرار باغتيال جلال المختار مع تقدير للذين نفذوها. موافقة بالإجماع

٥- قرارات السطو المسلح لتوفير الأموال المطلوبة. موافقة بالإجماع

٦- قرار إقامة قواعد للكفاح المسلح في الأهوار وديالي. موافقة بالإجماع

٧- القرار بتشكيل جهاز صدامي مستقل. موافقة بالإجماع

٨- القرار بتشكيل فرق مسلحة في بغداد. موافقة بالإجماع

٩- القرار برفع شعار إسقاط السلطة في بيان الحزب الصادر خلال شهر كانون الثاني ١٩٦٩م (ومعارض واحد هو حميد الصافي). موافقة بالإجماع

١٠- الموقف من الحركة الكردية المسلحة، وإدانة أية حركة انفصالية إدانة علنية وجماهيرية. موافقة بالأجماع

١١- القرار بأخذ المساعدات من الملا مصطفى البرزاني. موافقة بالإجماع



الواقفون من يمين الصورة (أعضاء القيادة)::: كاظم الصفار ، مالك منصور ، بيتر يوسف ، صالح رضا.العسكري مسؤول الجهاز الصدامي).

الجالسون في الوسط (أعضاء القيادة): حميد الصافي ، خضير عباس الزبيدي ، طلال سلمان"مندوب مجلة الصياد" عزيزالحاج.

الجالسون على الارض (أعضاء قيادة الجهاز الصدامي) : فياض موزان ، محمد كريم ، حاتم سجان.

صفحات اللقاء الصحفي في الاعداد الثلاثة من مجلة الصياد (العدد ١٢٨٤ في ٢٤ نيسان / ايار ١٩٦٩ والعدد ١٢٨٥ في ١ - ٨ أيار ١٩٦٩ والعدد ١٢٨٦ في ٨ - ١٥ ايار / مايو ١٩٦٩)

صور ووثائق

تحقيق

أول لقاء صحفي مع

طلال سلمان يكتب من بغداد

عزيز الحاج في معتقله

للمرة الثانية خلال شهرين اسافر الى العراق .

كانت الزيارة الاولى استطلاعية ، بشكل عام، غايتها محاولة رسم الخريطة السياسية للعراق في ظل الحكم القائم فيه ..

اما الزيارة الثانية فكان المفروض منها محددًا : مقابلة عزيز الحاج في معتقله، ومحاولة فهم العوامل والظروف التي مهدت لانسطار الحزب الشيوعي العراقي الى حزين ، ثم ما انتهى اليه الحزبان بعد اعتقال المجموعة القيادية لجناح « القيادة المركزية » ، وبعيد « الانقلاب » الذي قيل انه وقع (او انه على وشك ان يقع) في صفوف جناح « اللجنة المركزية » .

ولقد تسنى لي ان اقابل عزيز الحاج ، وبضعة من رفاقه بينهم اعضاء في مكتب القيادة ، وبينهم اعضاء في القيادة ، بالإضافة الى مجموعة من اعضاء « الجهاز الصدامي » الذي كان يتولى تنفيذ أعمال العنف التي جعلها جناح القيادة المركزية جزءا من استراتيجيته الكفاح المسلح التي حمل رايتها وبشر بها وحاول ممارستها فعلا ، بحدود امكاناته .

كذلك تسنى لي ان اطلع على الكثير من اوراق عزيز الحاج الخاصة ، وكلها مكتوبة في المعتقل ، وعلى جملة من المذكرات والوثائق الحزبية التي تفسر العديد من الزوايا والتقاط الغامضة في موضوع عزيز الحاج وقصيته .

ولسوف احاول في هذا التحقيق، وما سيلييه ، تقديم صورة دقيقة وموضوعية واثمينة ، بقدر الامكان ، لهذه القضية التي تشغل الآن كل العراقيين ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم وحزبياتهم ، وكذا سائر الحزبين والمهتمين بالتطورات السياسية والفكرية في الوطن العربي وليس فقط رفاق عزيز الحاج في العقيدة الشيوعية او خصومهم او اولئك الذين اختاروا ان يقفوا في نقطة ما بين التأييد والمخالفة .

على ان ثمة ملحوظة لا بد منها هنا وهي انني قد حصرت حديثي بعزيز الحاج وحده ، مؤجلا نشر المناقشة مع القيادة المركزية الى العدد المقبل .





صفحات مطوية من حياة عزيز الحجاج وقيادته المركزية



أول صورة واضحة نشر لعزير الحجاج : انا طلبت التلفزيون ، وما كان ممكناً لقوة انتمطني على الكلام لولا انني اريد حقاً ان انكم غافطاب قواعدا ..

مهني ، وأبدا رحلة البحث عن جواب لنك « اللعازا » اللعينة التي خربت قبلي الكثيرين في العراق وخارجة ، والتي ما زالت وستبقى لفترة طويلة معلقة ، قيل ان يصل المتعبون بحملها الى راحة اليقين الثابت .

■ ما زلنا متمسكين بأفكارنا كان سؤالي الاول محاولة للعودة بهم ومعهم الى نقطة البداية بالنسبة لانشطارهم عن الحزب الشيوعي (الرسمي) في العراق ..

تلت :
- لقد تابعنا ، بحدود الممكن ، ما نشرتموه عن الدوافع التي حدثت بكم الى اتخاذ موقف مستقل ، وبالتالي الى اقامة تنظيم جديد .. ولكن هل لنا ان نسمع منكم الان تفصيلا لتلك الدوافع والعوامل والظروف التي كانت السبب في انبثاق « القيادة المركزية » ؟

قال عزيز الحجاج :
- واضح ان خلافتنا بامساده النهائية ليس فقط مع اللجنة المركزية للحزب اليمني في العراق ؟

تلت : - ما فهمناه من خلال بياناتكم ونشراكم ان لكم من بعض القضايا ، خاصة قضية فلسطين ، موقفا مختلفا كلية عن مواقف سائر الأحزاب الشيوعية العربية .

والنقل « ابو سمود » ، كما يدعوه رفقاءه ، في شرح هذا الموقف

واندفاع العاطفات وسرايا في سراب ويضع ، بنفسه ، سطر الخاتمة :
فقدت كسل بهاهيا وسلا القلب هواها ! .. ولكنه ، حتى هو ! لا يطمئن الى هذا التفسير ، فيندفع الى التساؤل المستغرب والمستنكر :
ماذا دهاني نسبت الصير والجدال؟

■ أجل ساصمد ؟ !
.. وفي محاولته الاجابة على تساؤله يستبعد اي تفسير ترييب

التناول :
ماذا دهاني ؟؟؟ لاقيدي يورقتي ولا طيوف الخايا حركة شجني .. حب الحياة يناغيني بهيمسته لكنني .. غير هياب من الكفن ويعود مرة اخرى الى التساؤل ، ثم يحاول الخلاص منه بجابجة فيها من الرومنطيقية والشخصانية اكثر مما فيها من التحليل :

ماذا يورقتي ؟!

ماذا يمزقتي ؟!

سود التوايا بيناتي يورقتي وظلمة الشك في تبلي تمزقتي

ولكنه بختتم التسيدة يا بايق به .. ربما بمل تذكره اين ينظم شعره ، وفي اية مناسبة :

الصير والجدل ؟!

اجل ساصمد للباوي بلا خور ! .. وابق الى نفسي ، والسي

■ هذا هو عزيز الحجاج ..

افتتح الباب اثر طريقة خفيفة ، ودخل رجل ، فنان ، وثالست ، ورايع ، وكان الخامس هو : عزيز الحجاج .. ثم دخل رجلان او ثلاثة ، وربما خمسة ، لست ادري .. كانت عيني قد تعلقنا بقصر الداخلين قامة ، واضالمهم حجما ، التميز باتساع ثمه واتساع عينييه وذلك الانطباع الخادع الذي يتركه لديك عن حقيقة عمره ، اذ بينما لا يتجاوز في تقدير الثلاثين اكتشف فجأة انه يكاد يقرب من الخمسين !

قال « اقدم » مرحبا : - اهلا ابا سمود ..
وايتسم عزيز الحجاج ، وظل محتفظا بانسانته وهو يشد على يدي ، ثم استدار فالتفت مقعده في زاوية من الكتبة المستطيلة الزيدية اللون .. وامتد يديه تحسنت في جيبه عن سبخته ، بينما كانت ساقه اليسرى ترتفع لثفت فوق اختها اليمنى .

اذن هذا هو عزيز الحجاج ! هذا هو القائد الشيوعي ذو التاريخ العريض المتداحة ظلاله على امتداد نحو من ربع قرن ، والحافل بكل عجيب ومدتهى ومشي ! هذا هو الزعيم الاسطوري في القوة والجيروت والسيود ، صاحب « وثقة العز » الشهيرة عام ١٩٤٨ ، والذي تحول الان - ورغم تاريخه وتلك الوثقة فيه - الى مثل في « الحين والايثار والهوان » في نظر المنظرين من انصاره ومن خصومه على حد سواء !

.. وكاتوم فتحت مكرتي ويدات ادون اسماء الجميع بطريقة روثينية ، وكما يصرف شرطي فني في قضية الشكل غوضها على عقله المتكود او المحسود ، لا فرق ! كان السؤال الاكبر يضع في راسي مختصرا وملخصا وغاية في التركيز وصامقا : لماذا ؟

وكتت اريد اجابة فورية وقاطمة عليه ، وهكذا انصرفت الى استقراء الامام ، والى محاولة

عبر قضية جعل لها « السراب » عنوانا :
وردة كانت حياتي لم يكن عندي سواها فاذا ما نزع من التحديد انتقل الى الشكوى :
حرميني لذة العيش واحلام شبابي اسرتني وسبنتي في رواحي وايبي ثم يخلص الى الاستنتاج المريع :
وردتي كانت ضلالات واوهام كتاب ونوايا طبيا

■ ما زلنا متمسكين بمحفظاتنا على الخط الفكري والسياسي للأحزاب الشيوعية العربية ..

تحقيق

كان موقفنا خاطئا ، وقد املى علينا سلسلة من التصرفات الاكثر نورطا في الخطا .

■ **عن الموقف من البعث ..**
 ماذا كان موقف « القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي » من حزب البعث ، وبالتالي من حركة ١٧ تموز ، ثم من حركة ٣٠ تموز التصحيحية ، واجمالا من وجود البعث في السلطة ؟

في اوراق عزيز الحاج الخاصة ، وفي المذكرات التي قدمها من معتقله ، ما يوضح هذا الموقف .. يقول سكرتير القيادة المركزية : « لقد تقرر جوهر موقفنا على اساس نظرة تبسيطية لطبيعة حزب البعث ، هي التي سادت حزينا على الدوام ، ومما ارتكبا في البقية على ص ٧١ -

كنا نحكم على البعث من خلال الأضواء الطائفة والمعلومات الخاطئة والتأثر بالعبء والسياسيات

يقول بلهجة جازية :

إيدا . كل ما في الامر اننا اسقطنا استراتيجيتنا الكفاح المسلح اما بالنسبة لموقفنا من مسألة فلسطين فقد اذدنا نمسكا به ، وكذا الموقف من الحركة الكردية المسلحة .. رغم ان هذا الموقف ليس سليما تماما . على ان موقفنا من الحكم ، ومن حزب البعث ، يظل بشكل المسألة المركزية . لقد

واحب ان اعتقد ان موقفنا الراهن سيفيد بالضرورة حركات تقدمية اخرى ، وحركة التقدم العربي بشكل عام .

— وهل يمكن القول انك قد تخلت عن سائر ما طرحته القيادة المركزية من افكار وشعارات ؟

■ **اسقطنا استراتيجيتنا الكفاح المسلح ..**
 وانتفض عزيز الحاج وانطلق

انا كنا نمشع جوا من التشكيك بحزب البعث استمر ليلنا منذ ان بدأ هذا الحزب يرفض وجوده على المسرح السياسي في العراق . وهذا الجو ليس جديدا ، ولم يخلق ضمن تنظيمنا ، بل انا ورثناه ضمن ما ورثنا عن اللجنة المركزية — ثم ترسخ في نفوسنا نتيجة المعلومات الخاطئة والمضللة التي كنا نرود بها . وبكلمة ، فلقد كنا اسرى جو الشك باستمرار .. كنا نفكر وننصرف ونتحرك بينما الحقيقة محجوبة عنا .

وإسأل : — كيف تفسر ، انت ، موقفك الراهن ؟

قال عزيز الحاج على الفور : — ان اقوالي وتصرفاتي كلها تتبع من تقانات توصلت اليها بعد قوات الوان ، مع الاسف ..

كان في البدء موقفنا حكوميا ، ثم ترك الحكومة الى الشركات الاهلية . سجن خلال العهد الملكي البائد مرتين ، كما سجن في العهد العارفي مرة . اوقده الحزب في بقعة دراسية استغرقت ٤ سنوات (من ١٩٦١ — ١٩٦٥) وطاف خلالها بالدول الاشتراكية . متزوج بلا اطفال ، العمر في حدود الخمسين . الاسم الحزبي « صدام » .

■ ٥ — خضر عباس الزبيدي ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول العلاقات الوطنية . مثل بيتر يوسف سنا وقدمنا في الحزب ، فهو الاخر قد انضم اليه في عام ١٩٤٥ . كان ، قيل التفرغ للعمل الحزبي ، موفضا في المحاكم . سجن ٤ مرات وابد طولية . متزوج وله ٣ اطفال : ماجد ، العراق مطلقا . الاسم الحزبي « عادل » .

■ ٦ — صالح رضا العسكري ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول الجهاز الصدامي في الحزب . كان قيل التنسايه الى الحزب في خريف ١٩٥٩ معلما للتلازمة الابتدائي في كركوك . كردي . متزوج وله اربعة اطفال : علي وهيار وهيرش وساره . لم يغادر العراق الى خارجة ، لا قيل انضمامه الى الحزب ولا بعد ذلك . الاسم الحزبي « براثر » .

■ ٧ — مالك منصور ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول منظمة الموصل . انضم الى الحزب عام ١٩٤٥ . عامل حداده . سجن لفترة في العهد الملكي البائد ، ثم اعتقل لفترة اخرى في عهد عبد الكريم قاسم ، ومجموع ادة التي امضاها بين لسجن والمعتقل تزيد عن ٤ سنوات . متزوج وله طفل واحد : رغيد ، وعمره تسعة اشهر . لم يغادر العراق . الاسم الحزبي « مطيع » .

هذا عن الذين قابلتهم .. ولكن ثمة اخريين في القيادة لم تسمح لى الظروف بالاجتماع اليهم ، وفيما يلي احسن عن تشكيل القيادة المركزية . تتالف القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي من ١٧ عضوا وخمسة اعضاء .

السكرتير هو عزيز الحاج ، اما اعضاء المكتب فهم : كاظم الصغار ، حميد الصائي ، احمد هلاقي ، مهي هندي .

واعضاء القيادة هم : عزيز الحاج ، كاظم الصغار ، حميد الصائي ، احمد هلاقي ، مهي هندي ، بيتر يوسف ، خضر عباس الزبيدي ، صالح رضا العسكري ، مالك منصور ، غازي انطوان (مسؤول كركوك ، واسمه الحزبي « عامل ») ، سامي احمد عباس (وهو مرشح عضو قيادة ، ومسؤول الخط العسكري ، واسمه الحزبي « فاضل ») ، ومصالح مصطفى (وهو مسؤول فرع الشمال ، واسمه الحزبي « سليم ») ، ونصر الدين مجيد (واسمه الحزبي « ساهر ») ، وخضر سليمان (وهو مسؤول المنطقة الجنوبية ، واسمه الحزبي « صادق ») ، وحسين ياسين (وهو مرشح عضو ، ومسؤول جبهة الكفاح المسلح في الازهار ، واسمه الحزبي « عادل ») ، حميد ضامن (وهو مرشح عضو ، ومسؤول منطقة ديالى ، واسمه الحزبي « مجاهد ») ، ثم « معاهد » وهو مسؤول منطقة الكوت .

القيادة والقيادة

محات شخصية

■ ١ — عزيز الحاج علي حيدر .. سكرتير القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . العمر ٤٢ سنة . تاريخ الانضمام للحزب الشيوعي عام ١٩٤٦ . كردي الاصل ، وبالتحديد من القبائل القيلية التي تقسم غالبيتها في « كردستان الايرانية » . قيل التفرغ للعمل الحزبي مارس التعليم لفترة ، وكان مدرس لغة انكليزية لطلبة الثانوي . سجن ، لأول مرة ، عام ١٩٤٨ ، واستمر سجنه اكثر من عشر سنوات : الى ما بعد تفجير ثورة ١٤ تموز الجيدة . تزوج بعد فترة قصيرة من استعادته لحرية ، في منتصف عام ١٩٥٩ ، ثم ما لبث ان سافر مع زوجته الى الاتحاد السوفييتي فيمتك فيه بضع سنوات ، ثم انتقل الى تشيكوسلوفاكيا فاقام فيها حتى ايلول ١٩٦٦ . ومع اول يوم من عام ١٩٦٧ كان يضع قدمه على ارض العراق لأول مرة بعد فترة ثماني سنوات عنه . له من زوجته التي ظلت تتابع التحصيل في جامعة لومومبا بيموسكو طفلة في التاسعة من عمرها اسمها ندى ، وصبي في منتصف الثالثة واسمه سامي .. وهو لا يعرف ابنته هذا ، اذ رأى النور بعد عودة والده الى ارض الوطن . الاسم الحزبي « مراد » . ومن قيل الانتشار ، كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (الرسمي) ، وكان اسمه الحزبي « رمزي » .

■ ٢ — كاظم رضا الصغار ، عضو متقدم في مكتب القيادة المركزية للحزب الشيوعي ، ومسؤول منطقة بغداد . سنة دون الاربعمين بقليل . انضم الى الحزب عام ١٩٥٦ ، وكان ما يزال طالبا . وخلال عام ١٩٥٩ اوقده الحزب في بقعة دراسية فابضى في الدول الاشتراكية ثلاث سنوات ، عاد بعدها الى العراق . وعندما تم الانتشار ، في ايلول ١٩٦٧ ، كان معتقلا في سجن ثقرة السلطان . لكن وجوده في السجن . لم يمنعه من الانحياز الى فريق القيادة المركزية حيث انفتح امامه مجال التقدم الى الصف القيادي الاول . متزوج وله طفلان : جواد ، ٦ سنوات ، ونسرين ٤ سنوات ، الاسم الحزبي « شجاع » .

■ ٣ — حميد خضر الصائي ، عضو متقدم في مكتب القيادة المركزية ، ومسؤول الجهاز الطباعي في الحزب . انضم الى الحزب عام ١٩٥٢ ، وكان عامل خياطة . لم يسجن لفترة طويلة ، ولكنه تعرض لعدة توقيفات . وفي ايار ١٩٥٩ اوقده الحزب الى المانيا الديمقراطية في دورة دراسية لاعادة كالتدقائي ، استمرت خمس سنوات . متزوج حديثا ، ولم يرزق باطفال بعد .. من هنا يتندر رفاقه بانها يمضي شهر العمل في المعتقل . الاسم الحزبي « سعيد » .

■ ٤ — بيتر يوسف ، عضو القيادة المركزية ومسؤول جهاز التنظيم المركزي . من الشيوعيين القدامى ، اذ انه انضم الى الحزب عام ١٩٤٥

تحقيق

كان موقفنا خاطئاً ، وقد ألقى علينا سلسلة من التصرفات الأكثر تورطاً في الخطأ .

■ **عن الموقف من البعث ..**
 ماذا كان موقف « القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي » من حزب البعث ، وبالتالي من حركة ١٧ تموز ، ثم من حركة ٣٠ تموز التصحيحية ، وأجمالاً من وجود البعث في السلطة ؟

في أوراق عزيز الحاج الخاصة ، وفي المذكرات التي قدمها من معتزلة ، ما يوضح هذا الموقف .. يقول سكرتير القيادة المركزية : « لقد تقرر جوهر موقفنا على أساس نظرة تبسيطية لطبيعتحزب البعث ، هي التي سادت حينئذ على الدوام . وربما ارتكبا في البقية على ص ٧١ -

كنا نحكم على البعث من خلال الأضواء الطائفة والمعلومات الخاطئة والتأثرة بالعقد والحسابيات

يقول بلهجة جازية :

— ابدأ . كل ما في الامر اننا اسقطنا استراتيجيتج الكفاح المسلح اما بالنسبة لوقتنا من مسالمة فلسطين فقد ازدنا نتمسكا به ، وكذا الموقف من الحركة الكردية المسلحة .. ورغم ان هذا الموقف ليس سلبيا تماما . على ان موقفنا من الحكم ، ومن حزب البعث ، يظل بشكل المسألة المركزية . لقد

واحب ان اعتقد ان موقفنا الراهن سيغد بالضرورة حركات نقدية اخرى ، وحركة التقدم العربي بشكل عام .

— وهل يمكن القول انك قد تخليت عن سائر ما طرحته القيادة المركزية من افكار وشعارات ؟

■ **اسقطنا استراتيجية الكفاح المسلح ..**

وانتفض عزيز الحاج وانطلق

انا كنا نعيش جوا من التشكيك بحزب البعث استمر ليلنا منذ ان بدأ هذا الحزب يفرض وجوده على المسرح السياسي في العراق . وهذا الجو ليس جديداً ، ولم يخلق ضمن تنظيمنا ، بل انا وورثاء ضمن ما وورثنا عن اللجنة المركزية — ثم ترسخت في نفوسنا بنتيجة العلومات الخاطئة والمضللة التي كنا نرود بها . وبكلمة ، فلقد كنا اسرى جو الشك باستمرار .. كنا نكرر ونصرف ونتحرك بينما الحقيقة محجوبة عنا .

— اسأل : — كيف تفسر ، انت ، موقفك الراهن ؟

قال عزيز الحاج على الفور : — ان اوتالي وتصرفاتي كلها تنبع من تقاعص توصلت اليها بعد قوات الاوران ، مع الاسف ..

كان في البدء موظفا حكومياً ، ثم ترك الحكومة الى الشركات الاهلية . سجن خلال العهد الملكي البائد مرتين ، كما سجن في العهد العارفي مرة . اوفده الحزب في بعثة دراسية استغرقت ٤ سنوات (من ١٩٦١ — ١٩٦٥) وطلب خلالها بالدول الاشتراكية . متزوج بلا اطفال ، العمر في حدود الخمسين . الاسم الحزبي « صدام » .

■ ٥ — خسر عباس الزبيدي ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول العلاقات الوظيفية . مثل بيتر يوسف سنا وقدميا في الحزب ، فهو الاخر قد انضم اليه في عام ١٩٤٥ . كان ، قبل التفرغ للعمل الحزبي ، موظفا في المحاكم . سجن ٤ مرات ولإمد طويلة . متزوج وله ٢ اطفال : ماجد ، ٩ سنوات ، نجر ٨ سنوات ، ونمير ٤ سنوات . لم يقدر العراق مطلقا . الاسم الحزبي « عادل » .

■ ٦ — صالح رضا العسكري ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول الجهاز الصدامي في الحزب . كان قبل التنسليه الى الحزب في خريف ١٩٥٩ معلما لتلاميذة الابتدائي في كركوك . كردي . متزوج وله اربعة اطفال : علي وهجاز وهريش وساره . لم يقدر العراق الى خارجه ، لا قبل انضمامه الى الحزب ولا بعد ذلك . الاسم الحزبي « برانور » .

■ ٧ — مالك منصور ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول منظمة الموصل . انضم الى الحزب عام ١٩٤٥ . عامل حداده . سجن لفترة في العهد الملكي البائد ، ثم اعتقل لفترة اخرى في عهد عبد الكريم قاسم ، ومجموع امدة التي امضاه بين لسجن والمعتقل تزيد عن ٤ سنوات . متزوج وله طفل واحد : رغيد ، وعمره تسعة اشهر . لم يقدر العراق . الاسم الحزبي « مطيع » .

هذا عن الذين قابلتهم .. ولكن ثمة اخرون في القيادة لم تسمح لى الظروف بالاجتماع اليهم ، وفيما يلي لحة عن تشكيل القيادة المركزية . تتالف القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي من ١٧ عضوا . اما المكتب السياسي للقيادة ، اي مكتب القيادة ، فيتشكل من سكرتير وخمسة اعضاء .

السكرتير هو عزيز الحاج ، اما اعضاء المكتب فهم : كاتلم الصغار ، حميد الصافي ، احمد محمود الحلاق ، ومتي هندي .

واعضاء القيادة هم : عزيز الحاج ، كاتلم الصغار ، حميد الصافي ، احمد الحلاق ، متي هندي ، بيتر يوسف ، خضر عباس الزبيدي ، صالح رضا العسكري ، مالك منصور ، غازي انطوان (مسؤول كركوك ، واسمه الحزبي « عامل ») ، سامي احمد عباس (وهو مرشحعضو قيادة ، ومسؤول الخط العسكري ، واسمه الحزبي « ناضل ») ، مصطفى مصطفي (وهو مسؤول فرع الشمال ، واسمه الحزبي « سليم ») ، نصر الدين مجيد (واسمه الحزبي « ساهر ») ، وخضر سلمان (وهو مسؤول المنطقة الجنوبية ، واسمه الحزبي « صادق ») ، وحسين ياسين (وهو مرشحعضو ، ومسؤول جبهة الكفاح المسلح في الاوار ، واسمه الحزبي « عادل ») ، حميد ضامن (وهو مرشحعضو ، ومسؤول منطقة ديالى ، واسمه الحزبي « ماجد ») ، ثم « معاهد » وهو مسؤول منطقة الكوت .

القيادة والقيادة

لمحات شخصية

■ ١ — عزيز الحاج علي حيدر .. سكرتير القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي . العمر ٢٢ سنة . تاريخ الانضمام للحزب الشيوعي عام ١٩٤٦ . كردي الاصيل ، وبالتحديد من القبائل الغيلية التي تقسم غالبيتها في « كردستان الايرانية » . قبل التفرغ للعمل الحزبي مارس التعليم لفترة ، وكان مدرس لغة انكليزية لطيفة الثانوي . سجن ، لأول مرة ، عام ١٩٤٨ ، واستمر سجنه اكثر من عشر سنوات : الى ما بعد تجبر ثورة ١٤ تموز الجيدة . تزوج بعد فترة قصيرة من استعادته لحرية ، في منتصف عام ١٩٥٩ ، ثم ما لبث ان سافر مع زوجته لى الاتحاد السوفياتي فمكث فيه بضع سنوات ، ثم انتقل الى تشيكوسلوفاكيا فاقام فيها حتى ايلول ١٩٦٦ . ومع اول يوم من عام ١٩٦٧ كان يرضع تدمه على ارض العراق لأول مرة بعد غيبة ثمانية سنوات عنه . له من زوجته التي ظلت تتابع التحصيل في جامعة لوموميا بومسكو طفلة في الثالثة من عمرها اسمها ندى ، وصبي في منتصف الثالثة واسمه سامي .. وهو لا يعرف ابنه هذا ، اذ رأى النور بعد عودة والده الى ارض الوطن . الاسم الحزبي « مراد » . ومن قبل الانتشار ، كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (الرسمي) ، وكان اسمه الحزبي « رمزي » .

■ ٢ — كاتلم رضا الصغار ، عضو متقدم في مكتب القيادة المركزية للحزب الشيوعي ، ومسؤول منطقة بغداد . سنه دون الاربعين بقليل . انضم الى الحزب عام ١٩٥٦ ، وكان ما يزال طالبا . وخلال عام ١٩٥٩ اوفده الحزب في بعثة دراسية فإضفى في الدول الاشتراكية ثلاث سنوات ، عاد بعدها الى العراق . وعندما تم الانتشار ، في ايلول ١٩٦٧ ، كان معتقلا في سجن تقرة السلجان . لكن وجوده في السجن لم يمنعه من الانحياز الى فريق القيادة المركزية حيث انتفض امامه مجال التقدم الى الصف القيادي الاول . متزوج وله طفلان : جواد ، ٦ سنوات ، ونسرين ٤ سنوات ، الاسم الحزبي « شجاع » .

■ ٣ — حميد خضر الصافي ، عضو متقدم في مكتب القيادة المركزية ، ومسؤول الجهاز الطبايعي في الحزب . انضم الى الحزب عام ١٩٥٣ ، وكان عامل خياطة . لم يسجن لفترة طويلة ، ولكنه تعرض لعدة توقيفات . وفي ايار ١٩٥٩ اوفده الحزب الى ألمانيا الديمقراطية في ثورة دراسية لاعداده ككائد نقابي ، استمرت خمس سنوات . متزوج حديثا ، ولم يرزق باطفال بعد ... من هنا ينذر رفاقه بأنه اما يبضي شهر العسل في المعتقل . الاسم الحزبي « سعيد » .

■ ٤ — بيتر يوسف ، عضو القيادة المركزية ومسؤول جهاز التنظيم المركزي . من الشيوعيين القدامى ، اذ انه انضم الى الحزب عام ١٩٤٥

نقاش مشير
بين

طلال سلمان يكتب من بغداد:

عزيرة الحاج وقيادة المركز



الصباح - ١٦ -

حواف:

- ◆ وضع الحزب الشيوعي قبل ١٧ أيلول ١٩٦٧
- ◆ محاولات إعادة توحيد الحزب بعد الانقسام
- ◆ مواضع الصراع بين اللجنة المركزية والقيادة المركزية
- ◆ العلاقة بالبرازاف والحرركة الكردية المسلحة
- ◆ تجربة الكفاح المسلح والظروف التي جرت فيها

◆ الأوضاع الداخلية للقيادة المركزية وعلاقتها بقواعدها

ابتسم عزيز الحاج قبل ان يقول لي :

— لقد ارتكبت اكثر من خطأ خلال التحقيقات التي نشرتها في «الصيد» عن الحركة الشيوعية في العراق .. فهل انت مستعد للمناقشة فيها تمهيدا لتصبحها ؟
قلت : بل نشكر لك اسهامك في التصحيح ..
قال : لقد كان تصوري ان دار الصياد منحازة كلية الى اللجنة المركزية ضدنا ..
قلت : هنا يأتي دوري في التصحيح . وما يمكنني ان اؤكدته هو ان دار الصياد غير منحازة قطعا الى اي فريق ، وكل ما يهمنا ان يقوم في العراق حكم وطني وتقدمي ثابت الاركاز بحيث يقدر ليس فقط على صنع الغد الأفضل لهذا البلد العظيم الامكانيات ، وانما يقدر ايضا على وضع امكانيات هذا البلد في خدمة قضايا التقدم والتحرر في الوطن العربي الكبير ..

ذلك في شباط ١٩٦٧ . وقد تقرر ايضا ، ان يكون « العدو » هو مصدر السلاح ، وان تشكل فرق مسلحة صغيرة وممثلة في المدن ، لتصفية رؤوس الكبار من جلاوزة الامن الشرعيين . والذكر ان معلومات تفصيلية جدا قد صدرت خلال شهر آذار ١٩٦٧ ، التي القروغ واللجان في المناطق . كذلك الذكر ان المبادرة جاءت من باقر الموسوي ، ولكنه اعترض على ان يكون « العدو » المصدر الرئيسي للسلاح ، وطالب بان يفحص الحزب نفسه ميزانية لهذة

الغاية من انشائه دعم واسناد اي انقلاب عسكري شيوعي . وقد حل هذا « الخط » خلال عام ١٩٦٧ ، واخذ اعضاؤه يرسلون الى المنظمات المحلية ، دون او قبل ان يمارس اية فعالية حقيقية .
● الم ينشئ الحزب ، بمد ذلك ، اي جهاز مشابه ؟
قال عزيز الحاج :
— يلي ، فقلت تقرر في اجتماع كابل للجنة المركزية للحزب (قبل الانشقاق) انشاء فرق مسلحة جواله وثابتة في الريف ، بشرط ان تمارس بعض الفعاليات . كسان

■ خط حسين : الجهاز الصدامي

قال عزيز الحاج :
— تبدا اذن بكتابة (خط حسين)
لقد ذكرت ان الحزب الشيوعي لم يتورع عن اللجوء الى سلاح الطائفية فأتشأ هذا الخط في محاولة لاستغلال مشاعر انشاء الطائفة الشيعية .. وهذا خسر بشوه . اما الحقيقة فهي ان « خط حسين » كان الاسم الرمزي الحزبي للجهاز الذي الصدامي التابع للجهاز العسكري في الحزب خلال عامي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ . وكانت



صورة تضم أربعة من القيادة المركزية هم ، من اليمين الى اليسار : عزيز الحاج وقد انهك في حديث مع خضر الزبيدي ، ثم حميد الصافي يلتفت الى الصف الآخر الراجح من رفاعة الذين لم يظهروا في الصورة ، وعلى الطرف صالح العسكري ، الذي كان مسؤولا عن الجهاز الصدامي وقد أسبل يديه وجفتيه ..

عزير الحاج وقيادته المركزية

الغاية .

● وتصل معنى هذا ان استراتيجية الكفاح المسلح كانت مترة قبل الانقسام ؟

تال عزيز الحاج :

— دعنا نجيب على هذا السؤال من خلال استعراض شامل لاوضاع الحزب قبل ايلول ١٩٦٧ ، وهي الاوضاع التي امت الى الانقسام وإلى ما رافقه وتلا من مواقف . وبدأ الحديث الذي سرعان ما تحول الى مناقشة بين القياديين الشيوعيين للضئمة القاعدين من حوالي في مكتب أمر المنقسل ببغداد .

■ لم « أخلاق » الانقسام ..

تال عزيز الحاج :

— لا بد من الإشارة ، في البدء ، الى ان الخلافات تعود بمبطلها الى ما قبل الانقسام بثلاث او أربع سنوات . لقد بدأت خلافاتنا في اواخر عهد عبد الكريم قاسم ، ولكنها جدد بعد حركة ١٤ رمضان نتيجة لما تعرض اليه الشيوعيون ككل في العراق .. وكان ما نالهم آنذاك مفهوما كمرده فعل عنيفة لسؤوليتهم من كثير من الصنوات والاعمال العنيفة التي وقعت ايام

قاسم . ويهمني ان اؤكد انني لم « أخلق » الموقف الذي ادى الى الانقسام ، بل ولم اشارك فيسي الاعداد المسبق له ، لسبب بسيط وهو انني كنت خارج العراق طوال عهد قاسم ، وبالتحديد من منتصف عام ١٩٥٩ وحتى بداية عام ١٩٦٧ بالطبع لم اكن منقطعا عن النشاط ، ولم اكن معزولا ، وكانت تصلني اخبار ما يحصل للحزب وداخله حيث انا ، في الخارج . وكذا اول الامر نامل بمعالجة الخلافات والفتيات المتناقضة والمتصارعة المستجدة في اطار الديمقراطية المركزية . واذكر ان ثلاثة من اعضاء اللجنة المركزية ممن التفت بهم في الخارج كانوا يقولون نفس قولي ... ولكنهم حين عادوا الى العراق تراجعوا تدريجيا ، ثم انقلبوا الى اتهامي بالتأخر على وحدة الحزب .

■ حزب ما قبل الانقسام ..

صبت عزيز لحظة ، والتفت الى وجوه رفاقه فلم اجد على اي منها ما يوحي بالاعتراض ، وان كان بعضهم قد بدا منهكاً بتسجيل بلحظاته على الورق ... وعاد عزيز الحاج يقول :

— منذ منتصف العام ١٩٦٤ كانت الخلافات قد بدأت تظهر على السطح . والحق ان موقف الحزب من عهد السلام عارف واتصاهه الاشتراكي كان في طبيعة العوامل التي فجرت الخلافات . لقد اعتبر الحزب ذلك العهد الدكتاتوري الرجعي سلطة تقديمية تسرع نحو الاشتراكية . ومثل هذا التقسيم كان كفيلا بان يؤدي الى تصفية الحزب الشيوعي داخل الاتحاد الاشتراكي .

ومن المعروف ان عدة حركات وانخفاضات منظمة قد قايت في وجه اللجنة المركزية .. وسيطر

جو من البلبلة والشك في اوساط اكرية لجان الحزب ، وخاصة في بغداد . وبكلمة : كان الوضع عند عودتي الى بغداد ، مع اليوم الولى من عام ١٩٦٧ ، يسر الى النتيجة المنطقية الوهيدة : الانقسام . وهكذا ينضح اني لم اعمل غير بالورة وتكريس وضع قائم .. اي انني لم اخلق حركة ، وانها تراست وقتت حركة موجودة فعلا وقائمة فعلا ، كانت تستقطب اكرية لجان الحزب ورفوعه . واظن ان الرفاق معي في هذا السرد التاريخي

■ الصغار : انقسام

او انشقاق ؟

ابنسم كاظم الصغار ، المعسوال انتمم في مكتب القيادة ومسؤول منطقة بغداد ، تيل ان يقول :

— معك طبعاً ..

تال عزيز : — ألم يكن هذا منطقم الذي كان لا بد ان ينتهي بالانقسام ؟

واجاب الصغار عبر ابتسامته :

— نحن لم نكن لنقرر . كان سفلنا ، على الحوام ، ان نعدل او نخفف ..

وصبت كاظم منتظرا ان يعلق عزيز على تعليقه ، لكن عزيزز اشار اليه ان تتفضل بتكلم ...

وتكلم الصغار ، تال :

— اكد اننا كنا ، قبل الانشقاق ضد الجانب العملي لسياسة الحزب الشيوعي .

ويطلبه عزيز : — الانقسام

وليس الانشقاق ، يا كاظم ..

تال الصغار : — اما انسا

فانسيبه انشقاقا . على اي حال

فالتسمية لا نهم . دعنا الان نتابع

المناقشة .

لقد جنينا ، بعد الانشقاق ، مغية

عملنا . فالانشقاق اصعب المركزية

في الحزب ، وهذا ما دفعنا نحن ثمنه باهظا في القيادة المركزية .

واعتقد ان بعضنا لم يكن يتصور ان تنتهي الامور الى قيام تنظيمين شيوعيين متنازعين .. من هنا نفهم الخاطلة التي كانت ترتفع بين الحين والآخر بضرورة اعادة توحيد الحزب .

تال عزيز الحاج بلهجة تنضح بالذمك : : يبدو ان ذاكرة الاخ كاظم تشكو من ضعف حد . على ان رايه في هذه النقطة غير مهم ، اذ انه كان في السجن عندما تم الانشقاق . واظنه ما زال يذكر انني كنت اطلمه على كل التفاصيل ، ولم يد اي تحفظ على انقسامنا كذلك اظنه يذكر اننا عدنا الى مناقشة هذه النقطة بعد الفرج عنه تكلم معنا ان الانقسام كان مبررا وضروريا وعتيا ... بل ولعله قال مايفاده ان الانقسام كان ضروريا انجازره عام ١٩٦٤ .

■ عن اللجنة المركزية

والاخطاء ...

كانت تطلو على وجه الصغار ابتسامة تستعصي على الوصف ، تسيل من خديه الى فمه المنفتح من اسنائه المسفرة بفعل اكساره من التدخين .. وعاد عزيز بكل حديثه فقال :

— كان راي اكرية ان اللجنة

المركزية للحزب الشيوعي في

العراق قد انتهجت منذ ثورة ١٤

تموز نهجا اصلاحيا وبينيا ، هذا

من الناحيتين السياسية والفكرية ،

اما من الناحية العملية فكانت

صريمة النظمية والشللية

والبيروقراطية . وكان يحدث ، في

مرات قليلة ، ان نقر اللجنة

باخطاء ارتكبها ، وما كانت تفعل

ذلك الا تحت ضغط ومطالبة والحاح

القواعد ، ولكنها في ذات الوقت لم تكن لتقدر على محاسبة

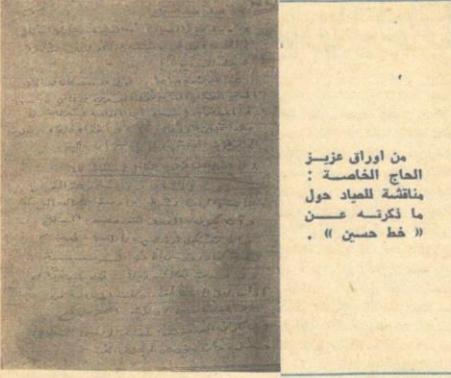
المخطئين ، بل ولم تكن لتستسيغ

ان تحاسب ايا من اعضائها



.. وثلاثة من اعضاء القيادة المركزية هم من اليمين الى اليسار : بيتر يوسف (الوجيه) بالنظارات والسجحة ، ثم مالك منصور ، والى جانبه كاظم الصغار وقد اتخذ « يسوز » قياديا متميزا .

تحقيق



من أوراق عزيز
الحاج الخاصة :
مناقشة للصيد حول
ما ذكرته عن
« خط حسين » .

الانقسام نتيجة موضوعة لخللاف مستحكم بين اتجاهين : الأول يميني وذلي ، والثاني يجسد تياراً ثورياً غير متكامل وغير متطور . والحقيقة ان ثمة صراعا كان يعيشه الحزب ابتداء من عام ١٩٥٨ . وهكذا فان ما تم في ايلول سنة ١٩٦٧ كان نتيجة موضوعة لا سيقه . ولكن الجانب الموضوعي يرتبط بالجانب الذاتي ، كما تعرفون ، ومن هنا اكدت على الدور الشخصي للرفيق عزيز الحاج . وبالطبع طو كسان هناك تشخيص سليم للاوضاع لا انتهى حزينا الي حيث نحن الان . ان بناء الانقسام ، وعجز تنظيمنا عن استقطاب كافة جماهير الحزب الشيوعي واسقاط قيادته القديمة ، كل هذا قد اثر ، وكان لا بد ان يؤثر ، على علاقتنا مع الآخرين ، وبالتحديد مع الحكم القائم . كنا مضطرين الى الاستيقاق في حسي . مزايده سياسية لا تكاد تنسى . اللجنة نتقدنا على ايم موقف متهاون او معتدل ، ونحن نتقدنا على كسل مواقفنا ، باعتبارها انها جميعا معتدلة ومتهاونة . وصحيح القول اننا كنا نمارس نوعا من الازهاق الفكري ضد اللجنة ونضطرنا الى تحديد مواقف غير تلك التي كانت ستخلفها اولا وجودنا وتخليقنا .

مست كناظم لحظة ، ونظر السى عزيز الحاج ثم ايشم قبيل ان يضيف :

— صحيح كذلك انني قد افضيت معظم الفترة التي تم خلالها — اذ انسى لم اخرج منه الا في ه ايلول ١٩٦٨ ، وبعد نحو عام من التنازل . كان الحزب يعيش حالة من التمزق الرابع . ويوم عاد الرفيق عزيز وجد الوضع ناضجا ، كانت نتاج

بان تظهر فقط اربعة عناصر ممن تكسدت لديها التقارير التي تبيت انحرافهم وخيانتهم انقسامات الحزب وهم : علمر عبد الله ، بهاء الدين نوري ، باقر الموسوي ، وسلام الناصري . كانت اللجنة ترفض ، على الدوام ، محاسبة اي من اعضائها . بل انها ، بعد الانقسام ، ورغم ادانتها لبعضى اعضائها ، عادت تسترضيهم وتدافع عنهم ، ثم ارجعهم الى مراكزهم القيادية ، رغم ان بينهم اكثر من واحد ساهم في كتابة بيان ١٤ تموز ١٩٦٤ حول اتحاد عبد السلام عارف الاشتراكي . والخاصة انه لم تتوفر ابيدا الافاق الالامية لاية وحدة ديمقراطية وذلك نتيجة لتثبيت اللجنة بموقفها وليس لتشنجنا كما يحاول البعض ان يقول . وذات مرة اتفق الرفيق حميد مع احد اعضاء اللجنة المركزية على مباشرة الحوار ، واتصل بي بيلفني بالامر ويسالني رايي فوافقت على متابعتة ، بينما رفضت اللجنة ان تضي فيه السى نتيجته المنطقية . ومن عجب ان السادة اعضاء اللجنة المركزية نشطوا قبيل اعتقالتنا ، فقط ، في محاولة تجديد الحوار حول الوحدة .

■ **ازهاق فكري متبادل . .**
قال حميد : — صحيح ان اللجنة كانت متشددة في رفضها لقرهاتنا ، ولكننا نحن ايضا كنا متشديدين في ضرورة معالجة الانحرافات ثورا ودفعه واحدة . .
رفع كناظم الصادر يده يستأنن ان ابداء رايه ، ولما سميت الاخرين او كادوا ، اندنع يقول :
— اود ان اوضح رايي بخصوص الانقسام . لقد كان

الفاحم السواد ، تكلم خصصا عباس الزبيدي ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول العلاقات الوطنية فيها . . قال :
— على اية حال فقد نشأت لدينا في الفترة الاخيرة ، تناعة بضرورة اعادة النظر في موقنا من اللجنة المركزية . واظن الرفاق كلهم على علم بنشوء تيار داخل القيادة المركزية ، من جهة ، وداخمل اللجنة المركزية من جهة اخرى ، يضغط باتجاه اعادة الوحدة ، على اسس معينة . وفيما اذكر فنان الرفيق عزيز قد اعد وقدم مشروما لاعادة الوحدة بين التنظيمين الشيوعيين .

تال عزيز الحاج : — الاصبح القول ان ثلاثة اراء كانت تصطرع في الفترة الاخيرة : اولها راي متطرف لا يريد ان يتم اي لقاء بيننا الذي كان يصعد محاولة لتجسير بينسرة تتجاوز اسباب الانقسام ، وترفض حل التناقضات الموجودة ، ومثل هذه المحاولة لا يمكن ان تؤدي الا الى طل التناحر الذي نسم في ١٧ ايلول ١٩٦٧ . ولقد افرح اصحاب هذا الراي ان يتم عقد « كونفرانس » لكوادر الحزبيين نحدة ، لنتنكب هذا الكونفرانس قيادة جديدة ، والقيادة تتولى تشكل مكتب سياسي من ستة اشخاص بحيث يكون لنا ثلاثة منهم وللجنة المركزية ثلاثة . وبالطبع فقد رفضنا هذا الاقتراح الصادر عن موقف ثورتي ، وقتنا ان على اللجنة ان تظهر صونوها اولاً — من القيادين المسؤولين عن السياسات الخاطئة والانحرافات السابقة ، ثم يطرح الطرفان جملة الاسائل المختلف عليها ، ويعقد كل تنظيم مؤتمرا لكوادره ناقش فيه قضية الوحدة . . ومن خلاصة نتائج المؤتمرين وعلى ضوئها تنبثق وحدة الشيوعيين المراقين .

■ **عزيز الحاج والوحدة المستحيلة**
توقف عزيز لحظة تناول خلالها سبكاره قديما اليه احد الموجودين ، وربما اسلمها ماد بكل نيونول :
— واضع طيما ان الراي الثالث والاخر هو راي الذي ضمنتة الشروع الذي نوه عنه الرفيق الزبيدي . ورغم ان قسما من الرفاق قد اعتبروه موقفا متشددا وحادا ، فلقد اتخذنا وبالاتجماع توراا نؤكد فيه ان اية وحدة مع اللجنة المركزية مستحيلة قبل ان تتم تطهير نفسها من الكثرية اعضائها المذائبن تاريخيا وسياسيا غير ان اللجنة كانت ترفض القيام باية عملية تطهير . . ولقد بلغت يها الكابرة حد رفض اقتراحمعتدل

على اخطائه ، مهما كانت حسامتها وخطورتها وضررها على الحزب .
كانت تتصرف وكان الحزب ملكية عشائرية خاصة ، تتصرف بها وتقل ما تشاء . وخلال عهد قاسم اوتمت هذه اللجنة الحزب في سلسلة من الاخطاء القاتلة . انها لم تقدر الظروف التي استجدت قبل ١٤ تموز في المنطقة العربية ، ومن ثم بعده . . وقد ادى هذا الى استمرارها فسي عزل الحزب عن المشاركة فسي الاتصال القومي من اجل الوحدة وتحرير فلسطين . وبالطبع فنان هذه الاخطاء قد اصبحت صراعات داخلية حادة شملت الحزب من اعلى مستوياته وحتى اصفه تنظيم في القاعدة ، وسرعان ما تجسدت هذه الصراعات فسي شكل تيارين رئيسيين ، كان لا بد ان يفرجا الى السطح بشكل تنظيمين او حزبين . وفي التعليل الاخر فان الحزب الشيوعي ، قبل الانقسام ، لم يكن باي حمال (ولا هو اليوم بالطبع) تنظيميا شيوعيا . . وانما كان قد تحول الى تنظيم اصلاحي ديمقراطي اشتراكي ، في احسن الحالات . واذا كنا ، في القيادة المركزية ، قد ارتكبنا اخطاء فاحشة ، كتكبكية واستراتيجية ، فان هذا لا يزكي قطعنا النهج السياسي المتصرف للجنة المركزية . .

■ **من يبيتر الى حميد**
هنا نقطه تدخل بيتر يوسف ، عضو القيادة المركزية ، ومسؤول جهاز التنظيم الحزبي ، في الحديث
— طالما اننا نتصارح فلا بد ان نقرر انه تم تكن لدينا النية لاتمامة تنظيمين ، ولكننا اقدمنا على انشاء تنظيم مستقل بعدما فشلنا فسي اعتقال اعضاء اللجنة المركزية للحزب .
وتار لنط حول كلام الرجسول الاتيق المنيز يشي من النعموة والملك في الحركات والكليات . . .
وعندما هذا اللنط كان جيبسده خضر المسالي ، العضو المتقدم في مكتب القيادة ، هو الذي تولى زمام الحديث ، قال :
— ان عجزنا وحده هو السلي ادى بحزبنا الى القتل ، لقد كان الانقسام مبررا ، ما في ذلك شك . ولكن ، يجب ان نعرف ، وبشجاعة ، ان نتالجه جات مفررة بالحركة الشيوعية ، وبالفرقة الثورية العربية عموما .

■ **الزبيدي ومشروع اعادة الوحدة . .**
بعد الشاب الدقيق الوجه ، العزيم العيين ، الجمد شعره ،

الصادر

عزير الحاج وقيادته المركزية

عندما حاول البرازاني التوسط بين اللجنة المركزية والقيادة المركزية

اوساط الحزب موجة من النقد العلني لبعض المواقف ، وكانست ترتفع مطالبات صريحة بضرورة ازالة بعض العناصر القيادية .. كذلك كان من الطبيعي انذاك ، ان ترفض القواعد قرارات صادرة عن اللجنة المركزية . وهكذا تم الانتظار بشيء من السهولة والبسر . حتى نحن الذين كنا في السجن لم نجد بدا من حسم موقفنا ، ولم نتردد طويلا قبل ان نسمح باتجاه الانضمام الى الرفيق عزير .

■ مواضع الصراع ..

جاء لنا بالشاي ، للمرة الثالثة . وراى علينا صمت لا يعكره غير رنين الملاقف الضمنية الصغرة عند اصطدامها بجوانب الاكواب الزجاجية الدقيقة .. وبعد الرفقة الاولى عدنا الى المناقشة ، مركزين هذه المرة على الوضع الداخلي الذي كان سائدا داخل القيادة المركزية .. قلت :

— بكاد واحدا نشتم من كلاك انكم لم تكونوا تمشون وضمنا طبيعيا داخل تنظيمكم ذاته ... فهل هذا الانطباع صحيح ؟

تال عزيز الحاج : — دعنا لنخص ، اولا ، مواضع صراعنا مع اللجنة المركزية ، ليكفنا بعد ذلك تحديد الهمم التي كانت مطروحة امامنا وكيف تصرفنا حيالها ..

كانت اهم مواضع الصراع : الخلاف حول دور الطبقة العاملة وحزبها ، والخلاف حول طبيعة سلطة عارف واتحاده الاشتراكي ، ثم الخلاف حول تقسيم التجربة المصرية . والخلاف حول المسألة الكردية ، والخلاف حول قضية فلسطين ، وحول مشاكل الحركة الشيوعية العاملة ، بل وحول مفهوم الاشتراكية ذاته .. ولقد نجح حزينا ، بعد تظهر نفسه من الإنتهائية الخيلية ، في شرح وتأكيد هويته الطبقي . كذلك كنا اول حزب شيوعي في الوطن العربي وخارجه يطرخ تقديرا جريئا

للمسألة الفلسطينية ويدين قرار التقسيم علنا ... كما اكفنا على استقلالية حزينا ، ضمن الحركة الشيوعية ، دون ان يتناقى هذا الموقف مع مبدأ التضامن البروليتاري وبالتسبة لاشكال الكفاح ، فان المؤتمر الموسع لحزبنا (كانون الثاني ١٩٦٨) قد أكد على ان ظروف العراق وعنف الرجعية والاستقطاب الطبقي تحتم استخدام السلاح لاقامة الحكم الديمقراطي الشعبي ، كما أكد ان على الحزب الشيوعي تهيئة نفسه لخوض كافة ميادين النشاط العنيف والسلمية ، مع التركيز في المراحل الاولى على حروب العصابات في الريف .

■ الكفاح المسلح :

شعار أو ممارسة ..

ثلث تمشالا : — ومع رفع شعار الكفاح المسلح كان لا بد من البحث عن سند يدعم بالسلاح ويؤمن للحاج ، عند الضرورة ، ومن هنا كان اللقاء مع البرازاني . ضحك عزيز الحاج وهو يردد بقوله : — ارايت انكم ، في دار الصياد ، تالطون دائما بوجهة نظر اللجنة المركزية . دعني اشرح لك حقيقة امر الاتصال بالبرازاني ..

مع تاكدي بان موقفا من الحركة الكردية المسلحة كان خاطئا فلا بد من التوضيح بان علاقة حزينا بالبرازاني وحركته المسلحة كانت هي الاضعف ، قياسا الى العلاقات القلابة بين البرازاني وسائر الاحزاب والمظلمات والقوى السياسية عموما ، في العراق . وعلى سعيد التعليل ، فقد كنا نشير — وباستمرار — الى التيارات المشبوهة ، والى النفوذ المتزايد لايران على هذه الحركة المسلحة والى الامتيازات المنوحة للاقطاعيين . ولكننا في ذات الوقت ، وهنا يكمن الخطأ ، كنا ننتهي الى اعتبار هذه العوامل مجتمعة الجانب الاضعف في حركة نورية تمثل شعبا مضطهدا . ومما كان يرسخ هذه النظرة غير الموضوعية كون معظم الحكومات التي تصعدت لتمنع هذه الحركة انما كانت حكومات رجعية او دكتاتورية . من هنا فالتا لم تكن نرى ما ينسج امكانية تعاوننا معها ضد الحكم الرجعي في بغداد ، او محاولة الحصول على بعض المساعدات ،

خاصة السلاح ، من البرازاني .

■ البرازاني وحبيب

محمد كريم ..

ثلث بنس للهجة المسائلة : — مستخدبا لذلك صلة القربى التي تجمعكم بسكرتير اللجنة المركزية لحزب البرازاني ، حبيب محمد كريم ؟؟ رد عزيز الحاج بانسابة ، ثم ارد يقول : — لقد لجأت اللجنة المركزية في محاربتها لنا لكل الاسباب الشاذة ، ومنها بالطبع التركيز على صلتى العائلية بحبيب محمد كريم . من ذلك مثلا انها اشاعت خيرا عن اجتماع تم بين البرازاني وبينى ، قبيل الانقسام ، وهذه رواية مختلفة من اساسها ، وفي الوقت الذي حدهه لاجتماعنا الثاني كت احضر اجتماعا حزبيا في بغداد ، ولم يكن الانقسام قد تم بعد .

على اني قبلت الامصطفى البرازاني فعلا ، ومرة واحدة في حياتي ، وبناء دعوة خاصة منه وذلك في اوائل عام ١٩٦٨ . ونحن تلقيت الدعوة ، وكنا نعرف ان سكرتير اللجنة المركزية موجود هناك ، قدرنا ان البرازاني ربما كان يريد التدخل كوسيط بيننا وبين جماعة اللجنة . ولقد ناقشنا هذه النقطة ، وسأفرت بعدما اتخذت القيادة المركزية قرارا بسفري ، وحددت كيفية طرح مسألة الوحدة من اللجنة المركزية .

■ البرازاني الوسيط !

علت قائلا :

— لقد اشارت بعض الاوساط الى هذا المسمى البرازاني ، والحقيقة ان كثيرين استكسروا واستهجنوا ان تكون احوال الحركة الشيوعية في العراق قد تدهورت الى هذا الحد ..

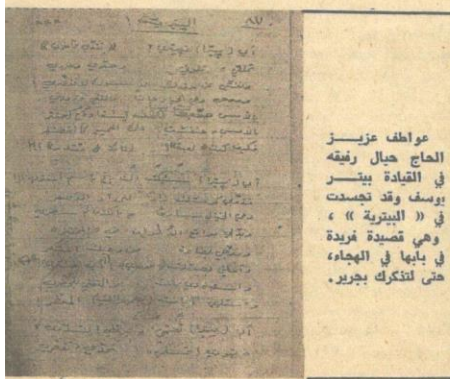
تال عزيز الحاج بلهجة هي مزيج من التبرير والتشمير :

— طبعاً كنا في غاية الحذر تجاه هذه المحاولة التي يريد منها البرازاني ان يبدو وكأنه وصي على الحركة الشيوعية في العراق ، بتنظيمها . وهكذا فقد رفضت عرضة التدخل ، بلقاة وديبلوماسية ، وهورت الحديث الى موضوع اخر ، فطلبت منه مساعدات لعمليتنا المسلحة في الاوار . ولقد وعد البرازاني بان يقدم لنا ما مجموعه ١٥ بتدقية حربية وخصبة وشاشك ... ثم لم يبق بوعده ، اذ ان كل ما اعدنا به لم يزد عن ٥ او ٦ قطع صغيرة .

■ كنا نتساهل ..

املا بالسلاح !

سألت : — وهل كان مقتنعا بجدوى عملياتكم في الاوار ؟ تال عزيز الحاج : — لا ، او هكذا كان انطباعي . ولو انسه كان مقتنعا لامدنا بالسلاح على الاصل — كذلك وكان واق على مطالبتنا بتسليح انصارنا المتبعين في المناطق التي يتحرك فيها او يسيطر عليها .



عواطف عزيز الحاج حيال رفيقه في القيادة بينر يوسف وقد تصبست في « البيرية » ، وهي قصيدة فريدة في بابها في الهجاء حتى لتذكرك بجورج .

تحقيق

هناك بدون رابطة تنظيمية ، إذ ان القاعدة رفعت الى القيادة المركزية مذكرة تطلب فيها فصل قيادتها الحلية ! أما عن عدم الالتزام بالنوحيات فحدث ولا حرج . مثلا : نشر في اول عدد من جريدة الحزب « طريق الشعب » مقال بعنوان « حول ايجابية الحكم » . هذا المقال اثار ضجة عنيفة فسي صفوف القواعد التي رفضت منطقة جملة وتفصيلا . وكانت القيادة اعجز من ان تتصرف لانها لم تكن ، ابدا ، بمستوى الجاهلية . وهذا ما ادى بنا الى وضع في غاية الاثنيك ، خصوصا بعد شهر كانون الاول الماضي .. فلم تكن تتقبل الا نادرا ، وبقا تختاطب وتتناقض وتقول بواسطة الرسائل . واختتم خضير الزبيدي الناس حول الوضع الداخلي بقوله :

« الكل يصعب لوجه ، الآن ، على القاعدة ، وكانها هي كل شيء . القاعدة من صنع القيادة . هي التي تنقها وتربتها . ولقد كنا نركز في تقنيها قواعدها على الانقسام والكفاح المسلح ، وبنتيجة هذا التفتيح مع انعدام العمل الجدي في المجال التنظيمي نشأ هذا الوضع الغريب داخل الحزب ، وهذا طبيعي ومنطقي . كنا ننادي بلا مركزية القيادة ، ونطالب القواعد بان ترتفع بحزم بسلك القيادة ، وهذا ما رفع الكلفة بين القيادة والقواعد ، وجعل القيادة تنطق في معظم تصرفاتها من موقع الضعف . ذلك فسان الصرامات اللاديمية التي كانت تتفرج داخل القيادة قد اقتدستها ما كان تبقى لها من هبة في نفوس الاعضاء والانصار ، وهكذا تحولت القيادة الى شتم القواعد وكفى الله المؤمنين شر القتال .

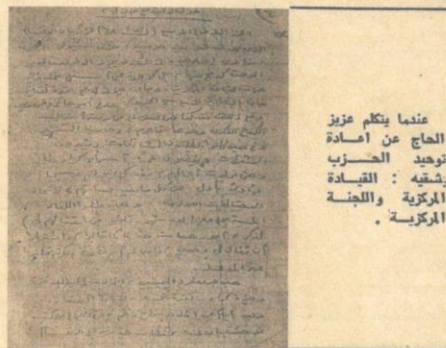
.. وبقية لقضية عزيز الحاج ورفاقه جانبان لا بد من معالجتهما بشكل مستقل ومطول .

الجانب الاول : الكفاح المسلح ، ومسيرته من الحيز النظري كشعار ، الى الحيز التطبيقي وكيف انتهت التجارب التي شهدتها الاهاسوار ولوار دياني ومدينة بغداد ذاتها .. والجانب الثاني : الموقف من المسألة الكردية بشكل عام ومن بعد موقف القيادة المركزية من الاحزاب والقوى السياسية الاخرى ، وخصوصا يسار الحركة الاشتراكية العربية الذي رفع في فترة سابقة ذات الشعارات ، وكانت الجملة الناطقة باسمه في بيروت « الحرية » طرح عزيز الحاج وقيادته كحل لها ، نتيجة لامتناره مثلا للخط اليساري الصحيح يقابلسي السياسات التي تنتهجها الاحزاب الشيوعية العربية ..

والى « الصياد » الخليل .

— باختصار يمكن القول ان اسلوب الكفاح كتبكيك وليس اسفرائنجية . والمسألة المركزية في تحليلنا هي الموقف من الحكم . وبداية الخطأ كائنه في البيان الذي اصدرناه يوم ٢١ تموز ، اي بعد الحركة التصحيحية التي نفذها البيت مباشرة . لقد اكدنا في ذلك البيان ان الشعارات السفرائنجية المركزية لا تزال محتفظة بجديتها ، كما حاولنا نسبة الانتفاضة لجهات مشبوهة بالقول ان الاستعمار تدخل عندما يتقن ان الحركة الثورية بلغت مرحلتها الحاسمة ، فاحدث الانقلاب وهكذا يبين اننا اخطانا ، اولا ، بتحديد المهمة المركزية .

ثانيا : كان وضعنا الذاتي مريعا ، فالقيادة كانت ، عموما ، تتناقض مع قواعدها في فهمها للواقع وللظروف الجديدة . طبعاً هذا يعود الى نقص الوعي ، بل الى التفتيح في مجال توعية القواعد وتنقيتها . ولمة نقطة جديرة بالاحتفاء في هذا المجال ، فلقد اعتمد حزينا على



عندما يتكلم عزيز الحاج عن اعادة توحيد الحزب بشقيه : القيادة المركزية واللجنة المركزية .

قواعد جاهزة مأخوذة من الحزب الشيوعي العراقي ، وعلى بعض الكوادر الثاقبة التي تربت على الاطار التقني العام للحزب ... والذي حدث ان هذه الكوادر الثاقبة قد تفرقت فجأة ، وبفضل الانقسام ، الى الصوف القياضية ، بلغ اعداد مسبق . وبالإضافة الى هذا ، فلقد كنا نعيش في انزالية شديدة عن كل ما يجري حولنا ، وكنا نفتقر الى المركزية .. وقد ادت هذه الحال مجتمعة الى اضعاف قدرة الحزب الكفاحية وعجزه عن تلمس الخط السياسي الصائب .

■ القواعد تجر القيادة ..

يحلز يعلق احد ، عنمد المسافر

يعجز استنتاجاته بالابثة الرواعية

... قال :

— ابرز مثال ما حدث في اوائل هذا العام في السليمانية . ان الكادر

الرويقى كاظم وانا : ترى الى اين نسير ؟ .

تتمتع حيد الصاي الذي تخال انك لتقيه مرات ومرات ، بين قبل ، نتيجة لكون بلأحجه الاساسية مشتركة بينه وبين عدد كبير من الناس في كل مكان ..

وحين هدات خوضاء رفاته تال : — كما قد اتفقا على تشخيصي لاطلطانا ، من قبل ، ويبدو ان الرفاق يقفزون من فوقها . ابرز تلك الاخطاء فقدان المركزية داخل الحزب ، ثم جو التفتيح الذي فرض علينا دائما ان نعيشه . كرفض الآراء الموضوعية والمعتلة اجمالا تعارض على الفور وبسدة وورن ايسع مناقشة . ولم تكن الهيئات السفلى في الحزب تلتزم او تؤمن بالديمقراطية المركزية . وكذا في القيادة ، اقلية عاجزة عن تصحيح وضع الحزب وخط سيره العام . كل منظمة من منظمات الحزب كانت تتصرف وكأنها تنظيم مستقل ، وتمارس على القيادة سخطا شديدا كي تاخذ ابدا بالآراء

والمواقف الاكثر تطرفا .

لاول مرة ، تدخل في النقاش الدائر ، صالح رضا المسمكي ، عضو القيادة المركزية ومسؤول الجهاز الصدامي في الحزب .. قال : — فيها الكره فان القيادة قد شخصت ، في اجتماعها الاخر ، بصوب الاخطاء ووضعت خطة غير متكاملة لتراجع منها . من ذلك اننا استبدلنا تعبير « الثورة الكردية » بتعبير « الحركة الكردية المسلحة » ، مع الاستمرار في اعتبارها هليفة للطبقة العاملة . ولكن الظروف لم تساعدنا على تطبيق هذه الخطة ، اذ اننا اعتقنا بعد فترة قصيرة من اقرارها .

■ حركة ٣٠ وبيان ٣١ تموز ..

قال كاظم المسار :

وتدخل كاظم المسار قائلا : — في اي حال فان البرازاني لم يسمح للشيوخين ، في اي يوم ، بان يمارسوا نشاطا مستقلا ، كان ، عمليا ، يسخرهم لخدمة اغراضه ومصالحه .

ورعلق بيتر يوسف بقوله : — كما تعرف هذا ، فلماذا لم تغير القيادة المركزية موقفها من البرازاني ؟ الجواب بسيط : لاننا كنا نتمتع على الحركة الكردية المسلحة التي كنا ننصو انها يمكن ان تنفذ جانبها اساسيا من خطتنا الخاصة لاستلام السلطة عن طريق الكفاح المسلح . لقد كانت خطتنا تركز الى ثلاثة عناصر رئيسية : عمليات مسلحة في الاوار ، تخريب في السدن ، واعتماد على التمرد الكردي المسلح في الشمال . من هنا كان سماننا مع البرازاني والبرازانيين .

■ ممكن الخطأ ..

وقال بعض القياضيين كلاما فيه تعريض بالكفاح المسلح نفسه متذرع خضير الزبيدي بقول :

— ان تشيع الكفاح المسلح الآن ، امر لا يبيد في التخفيف من تصرف غير شجاع وغير اخلاقي . ان نقطة الخطا الاساسية في موقفنا ليست في اعتماده على الحركة الكردية المسلحة ، ولكنها تمثلت في موقفنا الخاطيء من السلطة بعد ١٧ تموز ١٩٦٨ . ولو اننا نتيهنا الى التغيير النوعي الذي تم على مستوى الحكم لكان ان نتفاهم وان نعاون معه . وبالطبع فان سائر مواقفنا كانت ستبدل . ان نضع الظروف الموضوعية لا يتكامل دفعة واحدة ، وانما يتكامل مع العمل والعمل . لكننا لم نشأ ان نعبئ انفسنا بالتفكير والتحليل ، فاعترينا ان الوضع لم يتغير ، وتمسكنا بمواقفنا السابقة نتيجة لانعزالياتنا وكوننا ، وهكذا بقينا نتصرف وكأننا نواجه حكومة رجعية وكتاتورية كالتي عرفناها قبل ١٧ تموز .

■ القيادة المركزية ..

■ من الداخل !

ثار بيتر لانبله بأنه يحاول التمثل ، وقال بيرة لم استطع رسم حدثنا ان تخفي طريقته النامية في الكلام :

— لم يصدر رأي من رغبة نسي التمثل ، وانما هو تعبير عن التمسك بالخطأ . لقد سبق لنا ان نتناقش اكثر من مرة حول وضعنا ، وكنت ارد دائما — وقد اطلت هذا في اخر اجتماع لنا — ان حزينا فقد صفته كحزب شيوعي .. واخذنا ننساق ،



٣

طلال سلمان يكتب عن
عزيز الحاج وقيادته المركزية

أجراً اعتراف لقيادة عزيز الحاج نحن قتلنا هؤلاء!

هكذا سقطت

ارطورة الكفاح المسلح في العراق



عزيز الحاج : لم اخاف الانقسام وانما نفقته ..

منذ ١٧ ايلول ١٩٦٧ ، تاريخ الانشطار الذي قسم
الحزب الشيوعي في العراق الى « قيادة مركزية » تنادي
بالكفاح المسلح ، و « لجنة مركزية » ظلت مخلصمة
للاسلوب الشيوعي التقليدي في النضال من اجل السلم
والتعايش السلمي ..

منذ ذلك التاريخ اصبح اسم عزيز الحاج مرادفا
لشعار الكفاح المسلح ، وبالغ البعض في التقدير وفي
المقارنة فشبه سكرتير القيادة المركزية للحزب الشيوعي
العراقي بـ « غيفارا » ، وصنف حزبه صينيا او كوبيا
او فيتناميا ، رغم حرص هذا الحزب على تأكيد
استقلاليتته ، ورغم ان احدا من الصين او كوبا او فيتنام
لم يعلن تاييده له ولشعاراته الثورية ..

ويعد حركة ١٧ تموز ١٩٦٨ ، ثم حركة ٣٠ تموز
التصحيحية او التطهيرية ، وتسلم حزب البعث زمام
السلطة في العراق ، بشكل مباشر وكامل ، لم يصدر عن
القيادة المركزية ما يشير الى تخليها عن شعاراتها وخطها
الفكري ، بل صدر العكس تماما : اذ ادّبع ما يشبه
البلاغ عن عمليات مسلحة نفذها متطوعو القيادة
المركزية في الاهوار .. وخرجت مجلة « الحرية » اللبنانية
على التاس ذات اثنين وقد كرست صفحاتها الاولى
لصورة « اول شهيد للكفاح المسلح في العراق » ..
فما هي استراتيجية الكفاح المسلح ، في رأي عزيز
الحاج والقياديين الاخرين ؟

تحتيق

او اليسارية . والمثل لمسلح اللجنة المركزية ، مثلا ، يجدها تنذب بين الذيلية البيئية وبين الفوضوية . والعيب ليس قطعيا في العقيدة الشيوعية ، او في الاشتراكية العلمية ، وانما هو في ممارسات وتطبيقات الشيوعيين العراقيين خاصة والشيوعيين العرب عامة . وبالتنسبة لنا لان خطأنا لا يتجسد في رفعا لشعار الكفاح المسلح ، وانما في امتدانا له كاستراتيجية ثلثة بغض النظر من تبدل الظروف وتبدل المراحل . ان اساليب الكفاح في الماركسية هي عبارة عن تنكيك ، ولكننا لم نفهم على هذا الاساس .. ولو اتنا فهمنا كما ينبغي لان علينا ان ننخل عن استراتيجيته المنف والمف الثوري والكفاح المسلح بعد حركة ١٧ تموز ، او على الاصح بعد حركة ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، فما كان لا بد منه لمواجهة دكتاتورية عارف لم يعد له ما يبرره مع قيام حكم وطني وتحت في بغداد .

بيتر يونسف

علي ان بيتر يوسف ، عضو القيادة المركزية ومسؤول لجنة التنظيم المركزي له رأي اخصر في استراتيجيه الكفاح المسلح .. انه يقول في رساله منه الى اسياة رئيس واعضاء مجلس قيادة الثورة لخص فيها تجربته مع الحركة الشيوعية على امتداد ٢٤ عاما :

للارواح التي كان يعيشها الحزب بشكل عام . وليس محادثة ان ازمتمسا الداخلية ، في الحزب ، قد بلغت اعلى درجات تفككها في الايام الاولى من شهر حزيران ١٩٦٧ ، وهي ذات الايام التي شهدت خلالها ارض فلسطين الهزيمة العربية الثلثة . وقبل الانقسام ، وما تلاه ، طالبنا باستنكار ورفض قرار التقسيم ويرفع شعار ازالة دولة اسرائيل واتلته دولة ديمقراطية في فلسطين ... لكن اللجنة المركزية رفعت مطلبنا هذا . وفي تلك الايام ايضا طالبنا بادانة حكومة عبد الرحمن عارف ، باعتبار انها تعمل جزءا اساسيا من مسؤولية النكسة ، ولكن اللجنة المركزية اندفعت - بدلا من ذلك - الى رفع شعار يقول بوجود التحالف مع عارف وطاهر يحيى ، وبوجود الدخول في وزارة ائتلافية مع طاهر يحيى بالذات ..

من النهج الثوري الى الانحراف ..

صبت عزيز الحاج لحظة تسم اشاف فقال :
- لقد حاولنا ان نخطط لانفسنا نهجا ثوريا .. ولكننا تدريجيا انحرفنا عنه وامسحنا نسر على نهج المعامرة والظرف اليساري . على ان هذا كله ليس جديدا ، بالنسبة للحزب الشيوعي في العراق ، بتاريخه حائل بالعثرات البيئية

يمكن من العودة الى المبدأن برسالة خمسة منظومين ، فقط لا غير، الى منطقة الاحوار - العمارة « كانت مشكلة السلاح هي بشكلنا رقم واحد .. وكنا نطمح بان يتوفر لنا ما لا يزيد عن مئة قطعة من السلاح ، على نطاق العراق كله . لكن هذا الحلم ، على تواضعه ، لم يتحقق ابدا . »

النكسة دائما ..

... واسأل عزيز الحاج القاعد قبالي في مكتب امر المعتقل ببغداد: - ترى هل كان اندفاعكم الى الكفاح المسلح نتيجة ايمان واقناع بهذا الخط ، ام انه كان بمثابة التدويع العملي للشعارات الثورية والسياسات النظرية التي انتهجوها لكشف ضعف اللجنة المركزية ، بالدرجة الاولى ؟

قال عزيز الحاج :
- لا يمكن النظر الى هذا الخط او الشعار او الاسلوب في الكفاح الا من خلال الظروف الموضوعية التي املت رفعه . والحق ان اهمالنا لتقدير هذه الظروف هو الذي اودى بالخيرية وينا ، في زمن قياسي القصر .

ولا بد ، اولا ، من ان نقرر ان هذا الخط كان رد فمسل سائرا لنكسة حزيران ، من جهة ، ولتوف جاماة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي من الفسيفسة الفلسطينية ، من جهة ثلثة . كما انه التعبير الابرز حدة من رئيسنا

الكفاح المسلح .. في اوراق عزيز

يقول عزيز الحاج في بعض اوراقه الشخصية :
« في الاجتماع الموسع لقيادة حزبنا ، وقد انعقد خلال شهر كانون الثاني ١٩٦٨ ، نقرر ان نأخذ باستراتيجية الكفاح المسلح ، بعد دراسة مستفيضة لارواح العراق، واورواح القوى السياسية فيه . « وحسب ما نقرر ، فان هذا الشعار كان يعني استراتيجيه الكفاح المسلح الطويل الامد ، على النمط الفيتنامي تقريبا . ولتسدد قدرنا ان كفاحنا سيستغرق سنوات طويلة من العمل المسلح في الريف ، حتى تتجمع القوى الثورية الكافية في الجيش ، داخل بغداد ، وعندها يتم الاستيلاء على السلطة كحقيقة اخرة نتوج نضال الجماهير المسلحة . « وبالتنسبة للتطبيق كالمصورة لم تكن زاهية ومشرقة مثلها في العيز النظري . « لقد باشرا العمل بضعة انفار، خلال شهر حزيران ١٩٦٨ ، وبنائهم صفوف داخلية هائلة، وليس نتيجة لاقناعنا باننا وصلنا الى المستوى المطلوب للشروع في هكذا عمل . « على ان هذه الحركة قد خفقت في مهدها لاسباب وعوامل كثيرة بطول شرحها .. « وضمت شهر اخر قبل ان



خضر عباس الزبيدي : الاجتماعات والمسؤوليات



صالح المسكري : كنا مسؤولون ..



تر يوسف : كفاحنا المسلح عمليات شوهاء !

أَجْرًا اعتراف لِقِيَادَةِ عَزِيزِ الحاج

« ... اما القسم الآخر ممن الحزب الذي انشق وسمى نفسه بالقيادة المركزية ، والذي كنت انتمى اليه ، فقد سار سرية هجاء وعناء شملت جميع نواحي سياسته وفي النطاق الخارجي ، ونظرا لمقاطعة الاحزاب الشيوعية والبلدان الاشتراكية التي تؤيد موسكو لحزبنا ، فقد انطلقا بحث عن مصادر اخرى لتساعدا ماليا على تحسين امورنا .. ونحن عجزنا عن ايجاد هذه المصادر توجهنا للحصول على ما نحتاجه من باب اخر هو السطو ، وسيتم عملياتنا في هذا المجال عمليات ثورية ! . ولكي نضارب مع جماعة اللجنة المركزية الذين صنفناهم بينيين واصلايين رفعا شعارات الكفاح المسلح .. ولكن كل الذي قمنا به كان عملية شوهاء ذهب بسببها ، في احوار الناصرية ، الناس ابرياء هدرت دماؤهم ، ولماذا ؟ لارضاء نزعة الغرور والتزعم والحقد لدى نفر معين .. وكذلك عمليات اغتيال وارهاب كان الفرض منها الايقاع على التنظيم قاتلنا وايام البسطاء من المتسبين اليه بان حزبهم حزب نووري !! »

الحركة الشيوعية وتاريخ العنف !

وقبل بيتر يوسف ، وبعده ، وجد من يشير - ولو من طرف خفي - الى ان عزيز الحاج هو المسؤول الاول والاخر عن امتداد الحزب لاشتراكية الكفاح المسلح ... ولكن الحقيقة ان العنف له تاريخ في الحركة الشيوعية بالمعنى .. ولقد سرد عزيز الحاج بعض هذا التاريخ بقوله :
- لكننا من قبل ان الحزب كان قد انشأ في بغداد جهازا صداميا ، عام ١٩٦٥ ، واطلق عليه تسمية رمزية هي « خط حسين » . وصحيح ان هذا الجهاز قد حل في اواسل عام ١٩٦٧ ، ولكن الحزب قرر في اجتماع لجنته المركزية الموسع خلال شهر شباط ١٩٦٧ انشاء فرق مسلحة جواله وثابتة في الريف ، وتشكيل فرق صغيرة ممثلة في المدن .

هذا يعني اننا لم نخلق سياسة العنف ، وانما اعتمدنا كاستراتيجية لحزبنا ، بعد الانقسام او التطهير ، اما فيما يخص التطهير في اصدار القرارات ، او فرضي هذه الاستراتيجية على الحزب فهذا ادعاء غير صحيح على الاطلاق . ولست اقول هذا لكي اتصل بمن المسؤولية ، فالسؤولية تركبة مشتركة بين اعضاء القيادة جميعا ، وتصيب منها هو الازجح والكبير باعتباري كنت سكرتيرها العام . وما يمكنني ان اتوله ، هنا ، ان اعمال الجهاز الصدامي ، وعمليات الكفاح المسلح ، كانت انعكاسا لاساليب العمل المخططة من قبل القيادة .. والذين نفذوا انما هم مجرد شيوخين ملتزمين بخطة الحزب .

من هم مع ؟ ومن هم ضد ؟

من اجل مزيد من الوضوح في تحديد المسؤوليات اعد عزيز الحاج جدولا يمتلأ حول المسائل الاساسية التي تسدت لها القيادة المركزية ، وواقع اعضاء القيادة منها رفضا او تاييدا او استنكافا من التصويت . وفيما يلي ابرز نقاط هذا الجدول :
● بيان ٢١ تموز ١٩٦٨ الصادر عن القيادة المركزية محمدا موقفا من الحكم الذي قام نتيجة لحركة اجرامية .
● صواب الاستمرار في اعتماد استراتيجية الكفاح المسلح بمدد ٣٠ نوز : موافقة اجامعية .
● القرار باغتيال عدنان شومان : موافقة اجامعية ، ولكن مع نقد الطريقة التي تمت بها العملية .
● القرار باغتيال جلال المختار :

موافقة اجامعية مع تقدير للذين نفذوها .
● قرارات السطو المسلح للثوثير الاموال المطلوبة : موافقة اجامعية وينتهي الحامسة !
● قرار اقامة قواعد للكفاح المسلح في الاهور وديالي : موافقة اجامعية ، وينتهي الحامسة .
● القرار بتشكيل جهاز صدامي مستقل : موافقة اجامعية .
● القرار بتشكيل فرق مسلحة في بغداد : موافقة اجامعية .
● القرار برفع شعار اسقاط السلطة في بيان الحزب الصادر خلال شهر كانون الثاني ١٩٦٩ : موافقة شبه اجامعية ، ومعارض وحيد هو حميد الصافي .
● الموقف من الحركة الكردية المسلحة : في مناقشات الاجتماع الكامل ، ايلول ١٩٦٨ ، كان كاظم الصغار وحميد الصافي وخضير عباس الزبيدي يطولون الى تصنيف الحركة حركة رجعية . وبمسند مناقشات توصل المجنمون الي قرار القرار الذي نشر في جريدة الحزب « طريق الشعب » ، تم طرح مكتب القيادة وبعد موافقة اجامعية الوثيقة الخاصة بالمسألة الكردية للنقاش العام ، وفيها نقد صريح وقوي وصارم للنتائج الرجعية والشيوعية ضمن الحركة الكردية المسلحة ، مع التاكيد على ان طابعها التحرري العام لا يزال قائما ، وان كان قد ضعف نسبيا .
● القرار بالخذ المساعدات من الا مصطفى البرازاني : موافقة اجامعية .
● القرار بادانة اية حركة كردية انفصالية ، اذانة علنية وجماعية : موافقة اجامعية .

**عَزِيزِ
الحاج:**

رفعنا شعار الكفاح المسلح كَرَدَ
فعلك على النكسة وكعبير
عنك رفضا لأوضاع الحزب
وموقفك من قضيتك
فلسطينية .

المسؤوليات الفردية والقرارات الجماعية

نادا با سالت : كيف كانت تصدر القرارات ، وهل كانت الاجتماعات تتم بصورة منتظمة ، لاجل مزين الحاج مير جدول اخر هو غاية في الدقة .. ومن هذا الجدول نعلم ما يلي :
١ - اجتماعات القيادة : ينص النظام على ضرورة عقد اجتماع واحد اعتيادي مرة كل ثلاثة اشهر ، على ان يعقد اجتماع كامل مرة كل ستة اشهر . وبين ١٧ تموز ١٩٦٨ و ٨ كانون الثاني ١٩٦٩ تم عقد اكثر من خمسة اجتماعات بينها اجتماع واحد كامل .
٢ - اجتماعات مكتب القيادة : كانت تتمعد بانتظام ، بمعدل مرة كل اسبوع ، حتى اواخر شهر كانون الاول ١٩٦٨ ، عندما اضطرتهم الاعتقالات الى تاجيل الاجتماع لمدة ٣ اسابيع . وعدا هذا كان يتم عقد اجتماعات اسبوعية ، بغياب عزيز الحاج ، وبغرضها بيتر يوسف مرة ، باعتبارها المسؤول عن جهاز التنظيم المركزي ، وخضير عباس الزبيدي مرة باعتبارها المسؤول عن العلاقات .
٣ - اصدار الابيات : كل ما طبع ونشر ووزع في جريدة « طريق الشعب » او في القشرة الداخلية « مناضل الحزب » ، وكذا البيانات ، كان يناقش ويعقد ويقر ، ثم يدفع الى الطباعة والتوزيع .
وفي ختام البرنامج يعود عزيز الحاج الى التاكيد : « لم يتخذ اي قرار سياسي او تنظيمي واحد الا في مكتب القيادة ، او في القيادة . وكان طابع العمل جماعيا باستمرار وان كان هذا لا ينفي المسؤوليات الفردية بطبيعة الحال » .

تركيبية القيادة .. ومهام السكرتير ..

وما لنا نتحدث عن مسورة القيادة المركزية من الداخل لتتكلمها بذكر بطبيعة تركيبها . يقول عزيز الحاج :
- كانت نسبة العمال في القيادة حوالي ٢٠ بالمئة ، ومثلها نسبة الاكرد ، اما المسكويون والنساء فلم يكن لهم اي وجود ، في حين كان المتقون يشكلون الاكثريّة السالحة .
ويبرز سؤال عن دور عزيز الحاج ، شخصيا ، في القيادة ، ومسؤولياته ، فتجيب عليه بقوله :
- لكن معلوما منذ البده ، وهذه حقيقة وليست بمحاولة للتصل ، اني لم اتخذ ، بوضعي سكرتير القيادة المركزية ، اي قرار تنظيمي او .. لسي بغيري . كان

بيتر يوسف:

**كل ما قمنا به كانت عملياته صوحها وهدرت فيها الدماء
لا رضاه نزع الغرور والتزعم والحقد لدى نقر معيّنات !!**

طالع عملاً جماعياً ، باستمرار . وبالتسوية لي فاني لم اعين نفسي مركزي تعينا ، وانما وصلت اليه نتيجة الانتخابات التلقائية . وافترض ان هذه النتيجة كانت طبيعية نظرا لمتنمي بقلة الاكثية الساحقة من القواعد والكوادر الحزبية . ان مكاتني في الحزب لم تقم على اساس التهديد او الاكراه ، وانما كانت ثمرة منطقية لدوري ضد الخط الليالي الذي اتجر اليه الحزب عام ١٩٦٢ ، ثم لدوري في تصحيح هذا الخط عام ١٩٦٧ ، في حين ان الاكثية اعضاء القيادة المركزية كانوا من المساهمين والمتحمسين لخط ١٩٦٢ ، وهذه حقيقة تعرفها منظمات الحزب جميعا .

وفي مجال التديل على انه لم يكن بيارس اية كاتثورية ، ولم تكن له حصة خاصة ، يسورد عزيز الحاج طين بارزون هما :
□ اقتراحه بعدم انتخاب بيتر يوسف عضوا في القيادة ، بينما هو سجين .. وقد دخل هذا الاقتراح ، ووافق ١٧ عضوا على انتخاب بيتر ، وهكذا خلت الاكثية السكوتية ..
□ وخذل رأي السكوتية مرة اخرى باكثية ١٦ ضد ١٥ حين اقترح اصدار قرار عن الاجتماع اساليب العنف والاكراه مع اللجنة المركزية ، وكان ذلك في الايام الاولى للانقسام .

■ الجهاز الصدامي ومنجزاته ..

ونعود الى الكناح المسلح ، فنستال ، ما هي الامليات والعمليات التي نفذتها القيادة المركزية عملا ، الميز ؟
قبل الاجابة على هذا السؤال لا بد من الاشارة الى الطبيعة المزوجية لاسال الحشف التي مارستها القيادة المركزية ، فسي الريف انشئت نامدة ، ثم ثانية ، كمنطلق لكناح شعبي مسلح ، ابا في المدن - ويمتداد بالقدات - فان الجهاز الصدامي هو الذي يرمي تنفيذ (واجبتا تخطيط) العمليات . وبالتسوية للجهاز الصدامي واعماله فان عزيز الحاج يسورد التفاصيل التالية :

■ اولا - قتل عدنان شومان ، وهو قائد شيوعي سابق قسرت القيادة انه خان الحزب فاهدت دمه وكافت جهازها الصدامي بتصفيته ، وكانت النتيجة ان قتل بالاضافة الى عدنان اثنان من اسيالته لا علاقة لهما بالموضوع !
■ ثانيا - قتل جلال المختار ، وهو الاخر قائد شيوعي سابق تحول فيما بعد الى خدمة السلطة ، فعمل مع اجهزة الامن والمخابرات وشارك في حرب وتعذيب رفاقه السابقين .. وكان الخلاص منه يجسد رغبة جماعية لسدى الشيوعيين بقيادة وقواعد .
■ قتل الجهاز ، ببيادرة بنسه وبغير قرار من القيادة ، بعض المواطنين من لا علاقتهم بالسياسة او بالحزب اصلا ، ومنهم محمد نوري وامين الجاني .

■ كذلك حاول الجهاز ، ببيادرة منه ، اغتيال عنصر قيادي من عناصر حزب البعث (ابوعمرو) لكن المحاولة باءت بالفشل .
■ عندما يبادر الجهاز .. ويقول عزيز الحاج :
- كانت القيادة قد انضمت قرارا بتجنب اي عمل يجسر

الحزب الى صدام مع السلطة ، ولكننا تجاوزنا هذا القرار اكثر من مرة وكفنا الجهاز بعمليات كان لا بد وان تؤدي الى الصدام والحسب ان قرارنا كانت تنسم على الصدام بطابع السداجسة والتبسيط اليساري ، مثلا : كما في امس الحاجة الى المال ، فلم نجد غضاضة في اللجوء الى عمليات السطو المسلح لتأمين الاموال التي كنا نريد ان نستخدمها في شراء السلاح ، او في شراء سيارة .

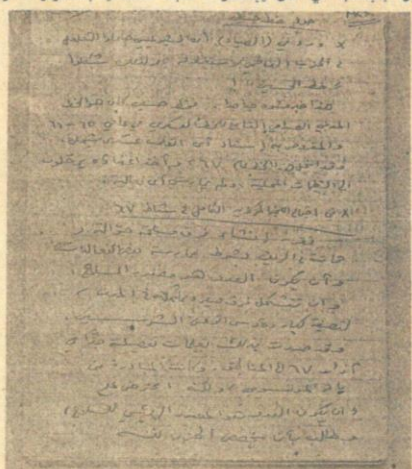
ويتول عزيز الحاج :
- نقطنصني الامالة ان الفكر ان الجهاز قد قام فعلا ببعض المبادرات غير المقررة .. وذلك يعود بالدرجة الاولى الى ضعف المركزية ، والى عدم استطاعتنا السيطرة على هذا الجهاز . ولقد تصورت ، في فترة ، ان السلطة تقوم ببعض العمليات ثم ننسها التبا بفرض تشويه سمعتنا والاسادة الى خط الكناح المسلح .. لكننا تبينا ، من ثم ، ان الجهاز نفذ ثلاث عمليات دون علمنا .. وكان الحرف السابق على الجهاز (احمد الحلال) يتقد اللجنة الصدامية باستمرار .. وقد

نوقشت هذه المسالة في الاجتماع الاخير للقيادة ، واتخذ قرار بالزام الجهاز بتول موافقة القيادة المسبقة على اي تصرف .. كذلك قررنا تبديل الحرف ، وتكوين لجنة صدامية جديدة .
على ان النقاش كان مصدره القيادة وليس الجهاز او اجنته ، فلقد كنا نطاليم بالاتزام بقرارنا . وفي نفس الوقت نطاليم بسان ياتونا بالمال من اي مصدر كان ..

■ القاعدة : تعالوا الى الاهوار ..

- وما هي الامليات التي نفذها الجهاز في مجال تأمين المال ؟
يجيب عزيز الحاج :
- لقد دبرت عملية سطو مسلح على مصرفية السليمانية ، حصلنا منها على ١٤ الف دينار ، كما دبرت عدة عمليات ضد شركات في بغداد جعلنا منها اكثر من خمسة الاف دينار .

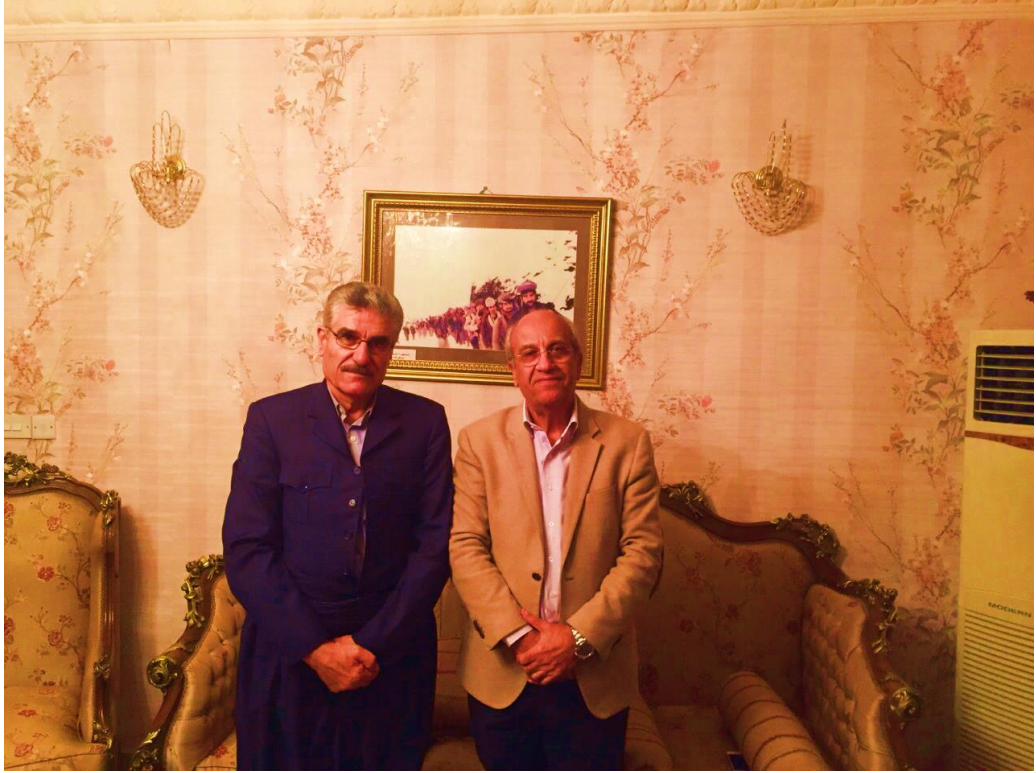
ورصد الخبر وبني التعقيب او التحليل ، يقول عزيز الحاج :
- هذا يعني ان القيادة ، والحزب اجمالا ، كان ينقصها الوضع النظري الكافي ، وانها لم تكن حازمة في المحاسبة ، وكانت تنسب تراخيها الى حاجتها للمسا الى المال . من جهة اخرى ، فلقد شعرنا ، ونحن في عمرة العمل ، بقيام تكسل بين بعض عناصر اللجنة الصدامية ومنظمة الحزب في المنطقة الجنوبية وبعض المنظمات الاخرى .. وكان مبرر التكسل الزعم بان القيادة متخلفة وغير مؤمنة بضغط الكناح المسلح . ولقد تلقينا عشرات الرسائل والتقارير المليئة بالتهجم على موقفا السدي وصفه « البيئية » و « البيوعة » كذلك تهرمت علينا المنظمات الصدامية في السليمانية ، بينما قدم قادة تشكيلاتنا في الجنوب انذارا الى القيادة وسكوتيتها بضرورة التحاق جميع القياديين بالاهوار والا « فان احدا لن يمترف بكم !! » ويوجه عام كنا نجابه مليون خطرين : التزعة العسكرية الصرفة التي نرمي لجعل التشكيلات المسلحة فوق الحزب واشراف القيادة ، والبل لاضفاف الانضباط والمركزية . كان هزينا مبهدا بتاسسات خطيرة ، وكان علمنا ان ثبت ،



من اوراق عزيز الحاج الخامسة :
قبل الانقسام ، كان قد تقرر ان ينسب الحزب ليعني فرقا مسلحة جواله وثانية في الريف ..



ناظم كزار، مدير الأمن العام، (١٩٦٩-١٩٧٣) زمن الرئيس أحمد حسن البكر، أعدم عام ١٩٧٣م بعد تعذيبه، لقيامه بمحاولة انقلابية.



مع الرفيق مصطفى جاورش في السليمانية في مقابلة معه بشهر آب / ٢٠١٥



مع الرفيق فاروق مصطفى رسول في السليمانية في مقابلة معه بشهر آب / ٢٠١٥

.....النهاية في البداية.....

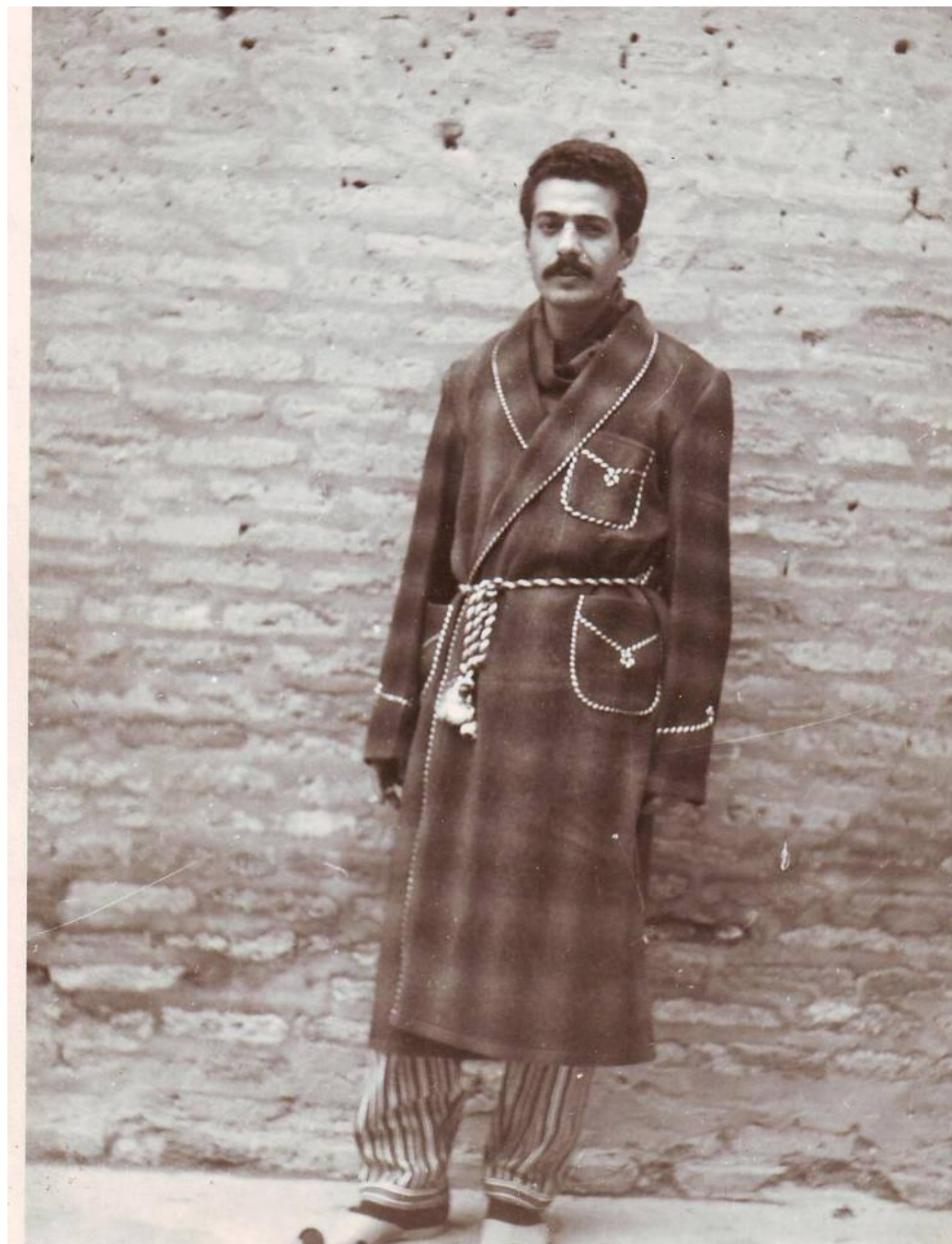


عبد القادر محمد ويوسف رزين وحافظ التكمجي واسماعيل الجاسم والشهيد خالد أحمد زكي في لندن عام 1960

الشهيد الرفيق خالد أحمد زكي الاول على يسار الصورة.



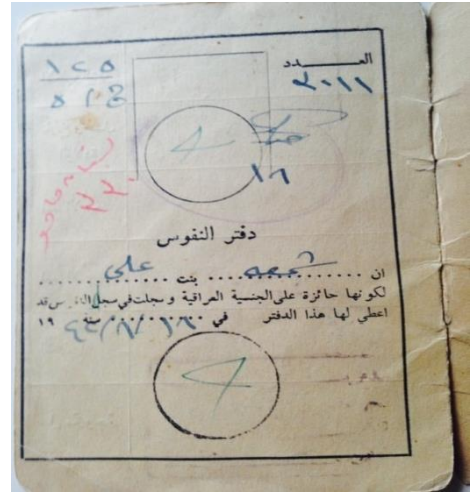
الشهيد خالد أحمد زكي في بريطانيا سكرتير برتراند رسل



الشهيد البطل الرفيق مطشر حواس في السجن قبل إعدامه



من اليمين الرفاق: حسين محمد حسن الساعدي / عبد الله شهواز زنكنة / عبد الجبار
على الجبر / الشهيد مطشر حواس / عقيل حبش / علي حسين أبويجي / في جناح
الإعدام بداية عام ١٩٦٩



المحل الذي سجلت فيه	
اللواء	بستان
القضاء	بستان
الناحية	بستان
المحلة او القرية	بستان مامو
رقم السكن	١٤
نوع السكن	بستان

دفتر نفوس صادر عام ١٩٤٢ يبين الناحية -الكرادة الشرقية -المحلة والقرية -بتاوين بستان مامو.

المصادر

- (١) د. عامر كامل احمد، العنف والعنف المضاد في الجزائر، "بحوث المؤتمر الدولي حول الارهاب - الجزائر "
- (٢) د. عامر كامل احمد، العنف والعنف المضاد في الجزائر، "بحوث المؤتمر الدولي حول الارهاب - الجزائر "
- (٣) عبود الشالجي، موسوعة العذاب - ج ١ - ص ١٥.
- (٤) حسنين توفيق ابراهيم. ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، " مركز دراسات الوحدة العربية ".
- (٥) سليم سوزه -قناة الاربعين -الحوار المتمدن -العدد ٤٤٧٦ في ٢٠١٤/٦/٨
- (٧) هادي العلوي، الاغتيال السياسي في الاسلام، "دار المدى للثقافة والنشر" ص، ٢٩، ٥٩، ٨٥
- (٦) هادي العلوي، من تأريخ التعذيب في الاسلام " دار المدى للثقافة والنشر" ص-٥٤.
- (٧) د. رشيد خيون، دروس من تراث الاسلام، " مؤسسة الانتشار العربي -بيروت"
- (٨) من أعماق السجون في العراق -عبد الجبار وهبي "أبو سعيد" -اعداد وتقديم محمد علي الشبيبي -مؤسسة النبراس -العراق -النجف الاشرف - ٢٠١٣). عن كتاب من أعماق السجون في العراق -محمد راشد (عبد الجبار وهبي) - دار القلم - القاهرة -١٩٥٥-ص ٢٤، ٢٦.
- (٩) حنا بطاطو -العراق-الكتاب الثاني-مؤسسة الابحاث العربية-ص ٣٥٧، ٣٥٩.
- (١٠) حسنين توفيق ابراهيم. ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، " مركز دراسات الوحدة العربية "
- (١١) ناشط من داخل الموصل- Milton Maouris -عام كامل على داعش في الموصل: القسم الثاني....
- (١٢) لمحات عن اليزيدية - زهير كاظم عبود - بغداد - دار النهضة - ١٩٩٤.

(١٣) دراسة في موقع ايلاف على حلقتين بعنوان (اليزيدية العراقيون: طيف رافدي حيوي نادر الخصوصيات بتاريخ ٢٩ - ٣٠ / ١ / ٢٠٠٧)

(١٤) تاريخ الوزرات ج٣، عبد الرزاق الحسني طبعة ١٩٨٢، ص ١٨٤

(١٥) ١ - كتاب القرن البديع من آثار قلم حضرة ولي أمر الله شوقي ربّاني-من منشورات دار النشر البهائية في البرازيل -١٩٨٦ ترجمة محمد العزّاوي.

William Hatcher &، The Emerging Global Religion، 2- The Bahai Faith 1975، 2nd Edition، Harper & Row publishers، Douglas Martin
عبد الحسين فكري بعنوان "الدين البهائي بحث و دراسة" دار النشر البهائية - البرازيل - ٢٠٠٢ م.

Ronald ، Oxford ، Hassan Balyuzi ، 3- Bahauallah The king of Glory 1980.

، Georg Ronald، The Revelation of Bahauallah ، 4- Adib Taheradeh Oxford – 1975.

(١٦) دراسات في البهائية -البهائيون في إيران-خوان كول -ترجمة نفين عبد الرؤوف -ديسمبر ٢٠١٤.

(١٧) اشياء كنت ساكته عنها -ذكريات -آذر نفيسي -منشورات الجمل -بيروت ٢٠١٤ - ص ٦٣.

(١٨) محمد مصطفى البغدادي - الرسالة التسع عشرية - مطبعة السعادة ١٣٣٨ها شهر محرم الحرام مصر .

(١٩) (حنا بطاطو -العراق -الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية -الكتاب الاول -ص ٣١٨)

(٢٠) نهج السلامة الى مباحث الامامة للعلامة السيد محمود الالوسي مفتي مدينة السلام، مخطوطة بيد المؤلف محفوظة في مكتبة مديرية الاوقاف برقم ٦٧٨٧.

(٢١) بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة -مطبعة دار المعرفة - بغداد - ١٩٥٤ -ترجمة سعاد هادي العمري -ص (٨٧).

- (٢٢) مطالع الانوار -نبيل زرندي -دار البديع للطباعة والنشر - بيروت لبنان -٢٠٠٨
- (٢٣) الحكومة العراقية مجموعة القوانين والانظمة مطبعة دنكور الحديثة الجزء الاول
صفحة بيان المحاكم رقم ٦.
- (٢٤) عبد الرزاق العبايجي -تقرير عن الدين البهائي في العراق منذ نشأته والى اليوم -
٢٠١٦.
- (٢٥) موافقة وزارة الشؤون الاجتماعية - الطب الاجتماعي رقم ٧٠٢٣ في ١٥/٣/١٩٥٢.
- (٢٦) الدعوة البهائية في العراق للباحث يوسف حسن محمد صفحة ١١٩ وزارة
الداخلية محاضر جرد الموجودات لحظيرة القدس البهائية في بغداد.
- (٢٧) عبد الرزاق العبايجي -تقرير عن الدين البهائي في العراق منذ نشأته والى اليوم -
٢٠١٦.
- (٢٨) كورت رودولف -أصول وفصول - الجزء السابع - الصابئة المندائيون.
- (٢٩) د. موفق كمال قنبر وفي -الوجود والدين -ص ١١٥.
- (٣٠) الصابئة المندائيون في العراق وإيران - أثيل ستيفانا دراوور -ترجمة المرحومين
غضبان الرومي ونعيم بدوي.
- (٣١) عباس العزاوي -العراق بين احتلالين -الجزء الثاني -ص ١٧.
- (٣٢) زهير كاظم عبود - الشبك في العراق - المؤسسة العربية للدراسات والنشر -
بيروت لبنان -٢٠٠٩.
- (٣٣) حنا بطاطو -العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني
حتى قيام الجمهورية -الكتاب الأول -مؤسسة الأبحاث العربية -ص-٢٨٨، ٢٨٦.
- (٣٤) جاسم المطير -نقرة السلطان - دار المكتبة الأهلية - ٢٠١٨ -ص (٤٠).
- (٣٥) عبد الله الجيزاني - حزب الإستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨ - التجربة الفكرية
والممارسة السياسية - ١٩٩٤ - ص-٧٩.
- (٣٦) عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي -عزيزي سباهي -ص ٢٨٤.

(٣٧) * الحسني - تأريخ الوزارات العراقية - ج ٨ - ص ١٥٩-١٦٢.
* كفاحنا ضد الصهيونية - عبد الرزاق الصافي-إصدار طريق الشعب ومنظمة التحرير الفلسطينية.

(٣٨) هاشم الشبلي -محطات سوداء في تأريخ العراق الحديث - ١٩٣٦-٢٠١٧ - دار
دجلة للنشر - عمان الأردن -ص ٣٩.

(٣٩) كل شيء هادي في العيادة -سلمان درويش -منشورات رابطة الجامعيين
اليهود النازحين من العراق -مكتبة الدكتور داود سلمان-سالا لمؤلفات يهود العراق،
(١٩٨١، ص ٦٠-٦٢).

(٤٠) كاظم حبيب -يهود العراق والمواطنة المنتزعة -دار المتوسط، لبنان -٢٠١٥.

(٤١) حسقيل قوجمان -الحوار المتمدن العدد -١٤٥٧ في ١٠ / ٢ / ٢٠٠٦. موقع الجبهة
الديمقراطية للسلام والمساواة -صديق صديق -الاربعاء ١١ / ٤ / ٢٠١٢
.aletihad.44@gmail.com

(٤٢) حنا بطاطو -الكتاب الثالث -الموسوعة السرية الخاصة بالحزب الشيوعي العراقي
السري، مديرية التحقيقات الجنائية، الامن العامة ص ٣٨٣

(٤٣) د. خضر سليم البصون في مقالته ذكرى اعدام يهود عراقيين في بغداد والبصرة
-ايلاف -العدد ٥٠١٣ -١١ شباط ٢٠١٥.

(٤٤) مركز الدراسات الفلسطينية - عصابة مكافحة الصهيونية - جامعة بغداد -
لجنة توثيق القضية الفلسطينية ١٩٧٧-ص ١٤، ٣٣.

(٤٥) جعفر عباس حميدي - التطورات السياسية في العراق-النجف - مطبعة
النعمان - ص - ٣٩٩.

(٤٦) * عزيز سباهي -عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي-ج١، ص-٢٩٠، ٢٩٢،
٢٩٦. * عبد اللطيف الراوي - عصابة مكافحة الصهيونية-في العراق ١٩٤٥-١٩٤٦ - دار
وهران -دمشق -١٩٨٦-ص ٢٢٩، من رسالة يعقوب مصري إلى الدكتور عبد اللطيف
الراوي.

(٤٧) الحسني - تأريخ الوزارات العراقية - الجزء السابع - ص ١٦.

- (٤٨) عزيز سباهي -عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي -ج ١-ص ٢٧٦
- (٤٩) على الوردي لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث -الجزء الاول -ص ١٨٠، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١.
- (٥٠) ياسين أفندي بن خير الله الخطيب العمري -الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون-نشر معاوية احمد ناظم العمري -مخطوط يعود الى ثلاثينات القرن الثامن عشر الميلادي.
- (٥١) Wahhabism & the spread of Sunni ، Arabia ،Curtin winsor Jr
Theofascism Mideast Monitor 2 No. 1 Jun /July 2007
- (٥٢) الموصل بين احتلالين ٢٠٠٣ – ٢٠١٤ -ص ٩٤.
- (٥٣) المنتخب من مدونات التراث (ابن تيميه) عزيز العظمة – ص ١٧٤.
- (٥٤) فتاوى ومسائل الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب – جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية – ص ٩، ١٠.
- (٥٥) الموصل بين احتلالين ٢٠٠٣ – ٢٠١٤ -ص ٩٨.
- (٥٦) ناشط من داخل الموصل-Maouris Milton -عام كامل على داعش في الموصل: القسم الثاني....
- (٥٧) معلومة منقولة عن الدكتور كامل المهدي وعن صديق الطفولة اسماعيل عبد الحسين الجاسم الخفاجي، "المولود في البتاوين عام ١٩٣٣" اللذان قدم اجدادهما من لواء الحلة، قرية "البتة" ليستوطنوا هذه المنطقة، التي كانت خارج سور بغداد، وقد أخذوها بالمغارة، ولهم بستان بيت مهدي. ومن ثم نسبت إليهم وأطلق عليها تسمية "البتاوين" التي اختصرت الى "البتاوين".
- (٥٨) دفتر نفوس والدتي الذي احتفظ به، الصادر من نفوس الكراة الشرقية في ١٩٤٢/٨/١٨، مذكور في حقل الناحية "الكراة الشرقية" وفي حقل المحلة او القرية "بتاوين بستان مامو".
- (٥٩) بغداد كما اعرفها -يهود العراق -امين المميز -١٩٨٤،

- (٦٠) حنا بطاطو -العراق -الكتاب الثالث -ص ٣٥٢، ٣٥٨، ٣٦٨.
- (٦١) الكتاب الثالث -حنا بطاطو -ص ٣٨٣. الموسوعة السرية الخاصة بالحزب الشيوعي العراقي السري، مديرية التحقيقات الجنائية، الامن العامة.
- (٦٢) مقابلة شخصية مع الرفيق فاروق مصطفى رسول في السليمانية -آب ٢٠١٥.
- (٦٣) مقابلة شخصية مع الرفيق مصطفى جاورش في السليمانية-آب ٢٠١٥.
- (٦٤) توجد نسخة منه في احدى مجلدات تأريخ الوزارات العراقية ١٩٥٨ - ١٩٦٨.
- (٦٥) عزيز الحاج -حدث بين النهريين. تجربتي في القيادة المركزية -محضر اجتماع كوادر القيادة المركزية - ص ٤٥، ١١٦، ١٥٥. ١٥٩
- (٦٦) عقيل حبش-نشيد الموت-شهادة حية من لهيب المعركة - دار وراقون-٢٠١٨.
- (٦٧) حنا بطاطو -الشيخ والفلاح في العراق ١٩١٧-١٩٥٨- دار سطور للنشر - ٢٠١٨-ص ١٧٩ - ١٨٠.
- (٦٨) تقيمان الأول لكل من عامر عبد الله وبهاء الدين نوري والثاني لزكي خيري وعزيز الحاج.
- (٦٩) من أوراق حازم جواد، جريدة القدس العربي والدولي في ٢٣ شباط ٢٠٠٦.
- (٧٠) البيرية المسلحة د. علي كريم سعيد-ص ٣٠٩ نص التقرير الذي رفعه هاشم الالوسي عام ١٩٦٨م الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي.
- (٧١) دراسة للسيد محمد باقر الحسيني، بعنوان: علاقة المرجعية الدينية بثورة تموز-القسم الثاني -بتأريخ ٢٨ / ٥ / ٢٠٠٧.
- (٧٢) سنوات الجمر - مسيرة الحركة الإسلامية ١٩٥٧-١٩٨٦ - علي المؤمن مركز دراسات الشرق العربي - ص، ٦٦.
- (٧٣) شاؤول حاخام ساسون -في جحيم صدام حسين-من منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق -١٩٩٩م.

(٧٤) من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة - تأليف المستشار عبد الله بن عقيل بن سليمان العقيل - دار التوزيع والنشر الإسلامية - الطبعة الثالثة - مصر - ٢٠٠٦م - صفحة ٦٣٣.

(٧٥) أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران - وليد الأعظمي - مطبعة الأخوان - بغداد ٢٠٠١م - صفحة ٢١٥.

(٧٦) بيان السيد حسن مهدي الشيرازي المسلمين العلويين - المكتبة الإسلامية

العلوية نسخة محفوظة ٠٩ نوفمبر ٢٠١٧ على موقع واي باك مشين.

(٧٧) شهادة ولادة أحمد.

(٧٨) محمد حديد - مذكراتي - الصراع من أجل الديمقراطية في العراق - دار الساقى - ٢٠٠٦ - ص ٣٧٢-٣٧٤.

(٧٩) تأريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري ج - ٢ ص ٦١.

(٨٠) أوريل دان - العراق في عهد قاسم - تأريخ سياسي - ١٩٥٨-١٩٦٢. نقله إلى العربية وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله. عقود من تأريخ الحزب الشيوعي العراقي - عزيز سباهي - ج ١ - ص ٢٨٢.

(٨١) عامر عبد الله ودوره السياسي والفكري - (١٩٢٤-٢٠٠٠) - غادة فائق محمد علي - بغداد-٢٠١٨.

(٨٢) عامر عبد الله - سنوات الفقر والأمل الخائب-١٩٨٨-١٩٩٤- ج ٢-ص، ٢٠٤

(٨٣) مقابلة مع الصديقين المهندس عماد عباس وعلي جاسم حمودي.

(٨٤) أمين الريحاني - تأريخ نجد الحديث وملحقاته ص -٥٦٥.

(٨٥) الوجود والدين - د. موفق كمال قنبر وفي - برمنكهام - أنكلترا.

(٨٦) شهادة حية من لهيب المعركة - عقيل حبش - دار الغد للنشر - ٢٠١٧.

(٨٧) النفق - نشيد الموت - عقيل حبش - دار وراقون - البصرة - ٢٠١٨.

(٨٨) الهروب من نفق مضيء - جاسم المطير - منشورات دار الرواد-بغداد-٢٠١٠.

- (٨٩) أمين الريحاني -تأريخ نجد الحديث وملحقاته ص -٥٦٥.
- (٩٠) محمد يعقوب الهنداوي -رسائل الضبع وعواقبها-مذكرات شيوعي -الحوار المتمدن ٢٥/٨/٢٠١٩.
- (٩١) ذكرياتي -فاروق مصطفى رسول -الدار العربية للنشر-لبنان-ط ١-٢٠١٨-ص ٢٤٢.
- (٩٢) ذكريات لا يمحوها الزمن أيام في معتقل قصر النهاية – عبد الحسن حسين يوسف-الحلقة الثالثة-الحوار المتمدن – ١٤/١/٢٠١٨.
- (٩٣) المكاريد – حكايات من سرداب المجتمع العراقي – محمد غازي الأخرس – دار سطور للنشر-بغداد-ط.١- ٢٠١٨ – ص ٤٧، ٥٠.
- (٩٤) عبد الكريم الأزري – تأريخ في ذكريات العراق ١٩٣٠-١٩٥٨ ج ١-بيروت ١٩٨٢-ص ٤٩٩، ٥٠٠.

الفهرس

الإهداء	٥
شكر وتقدير	٧
كلمات لرفاق الدرب	١١
أحمد علي إبراهيم	١١
عبد جاسم الساعدي	١٧
عقيل الناصري	٢٠
محمد عارف	٢٦
الفصل الأول / العنف كظاهرة وحشية	٢٩
١- عن عنفنا التاريخي	٢٩
أ- العنف السياسي	٢٩
ب- العنف الديني	٣٥
٢- عن بغدادنا الحزينة نموذجاً	٤٥
٣- عن الصراع العائلي على السلطة	٤٧
الفصل الثاني / منذ المملكة الأولى حتى الجمهورية الخامسة	٤٩
١- العنف في الدولة المعاصرة	٤٩
مذبحة سجن بغداد السياسي	٥٦
مجزرة سجن الكوت	٥٧
سجن نقرة السلطان	٥٧
أ- الايزيديون	٦٧
ب- الآشوريون	٧٣
مجازر بدرخان	٧٣
مذبحة سميل	٧٤
ت- البهائيون	٧٦
١- البهائيون في إيران	٧٦

٢-البهائيون في العراق	٨٥
ث-المندائيون	٩٩
ج-الفيليون	١٠٩
ح-الشبك	١١٥
خ-اليهود	١٢١
٢-اليهود العراقيون والصهيونية	١٢٩
عصبة مكافحة الصهيونية	١٢٩
منهاج العصبة:	١٣٠
اليهود والثقافة العربية	١٣٦
٣-العنف وفق الغزوة الداعشية	١٣٧
أ-نشأت داعش	١٣٧
ب-سيطرة "داعش"	١٣٩
ت-جرائم "داعش"	١٤١
ث-إجراءات "داعش"	١٤٣
ج-بنية "داعش"	١٤٦
ح-نظام "داعش"	١٤٨
١. ديوان القضاء	١٤٨
٢-ديوان المظالم	١٥١
٣-ديوان الحسبة	١٥١
أ-الصفات الشخصية لعنصر الحسبة	١٥٢
ب-سيارات الحسبة ودورياتهم	١٥٣
ت-الأفعال الموجبة للاعتقال من الحسبة	١٥٣
ثمة ملاحظات	١٥٦
الفصل الثالث/ مرابع الطفولة والشباب	١٥٧
١-حي البتّاوين حي التعايش والألفة	١٥٧
٢-البتّاوين في بغداد	١٥٧

١٩١.....	الفصل الرابع/العنف السياسي ضد حزب القيادة المركزية.....
٢١٥.....	إنتفاضة الأهوار.....
٢١٩.....	الرسائل التي أرسلها الشاعر مظفر النواب للرفيق عقيل حبش.....
٢٢٠.....	نص الرسالة الأولى.....
٢٢٣.....	نص الرسالة الثانية.....
٢٤٥.....	١-إنقلاب ٨ شباط الاسود الدموي وما بعده.....
٢٤٧.....	صرائف العاصمة.....
٢٦١.....	٢-قصر النهاية ١٩٦٣.....
٢٦٤.....	بيان رقم ١٣.....
٢٦٧.....	إنتفاضة ٣ تموز ١٩٦٣.....
٢٦٩.....	نبذة تاريخية.....
٢٧٠.....	إرتباط الإنتفاضة بالحرب.....
٢٧١.....	أسباب قيام الإنتفاضة.....
٢٨٩.....	فتوى السيد عبد المحسن الحكيم.....
٢٩٩.....	٣-حكم الأخوين عارف.....
٣٠١.....	٤-نفق سجن الحلة.....
٣٠٨.....	١-عملية الهروب من سجن الكوت.....
٣٠٨.....	٢-عملية الهروب من سجن بعقوبة.....
٣١٣.....	٦-البداية في "النهاية".....
٣٥٠.....	أ-من رفاق المسيرة.....
٣٧٩.....	ب-رفاق استشهدوا.....
٣٨١.....	ت-معتقلون آخرون.....
٣٨٨.....	ث-صورة من الإذلال.....
٣٨٩.....	١-معتقلون.....
٣٩٥.....	٢-سجّانون.....
٣٩٦.....	أ-قتله "صباح بدن".....

٣٩٧	٣-قتله "فؤاد الركابي"
٣٩٨	٤-نقاهاة في السجن
٣٩٩	٥-صدام في الكويت
٤٠٣.....	٦-محنة مع الاختطاف
٤٣١	خاتمة
٤٣٢.....	ملحقان
٤٣٢	١-من شهاداتي
٤٣٧	٢-من ملاحظاتي
٤٣٧	أ-عزيز الحاج
٤٣٧	١/أوراق شخصية
٤٣٩	٢/مواقف غريبة
٤٣٩	إنقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨
٤٤٢	إنشقاق الحزب الشيوعي العراقي
٤٤٧	حركة الشواف وعلاقتها بأحداث الموصل
٤٥٤	أحداث كركوك
٤٥٨	أعمال الجهاز الصدامي المركزي
٤٦١.....	ب-الأعضاء القياديون
٤٦٧.....	صور ووثائق
٤٩١.....	المصادر